سعيد عقل
شعرُه والنثر

المجلّد الاول

بنت يَفتاح

المجدليَة

قدمُوس

نوبليس

سعيد عقل

شعرُه والنثر

المجلّد الأول

بنت يَفتاح

المجدليَّة

قَدمُوس

نوبِليسُ

DL

للمؤلف

بنت يفتاح الطبعة الأولى ١٩٣٥ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

قدموس الطبعة الأولى ١٩٣٧ ـ الطبعة الرابعة ١٩٩١

المجدلية الطبعة الأولى ١٩٤٤ ـ الطبعة الثالثة ١٩٩١

رندلى الطبعة الأولى ١٩٥٠ ـ الطبعة الخامسة ١٩٩١

غد النخبة الطبعة الأولى ١٩٥٤ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

أجمل منك لا الطبعة الأولى ١٩٦٠ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة ومزيد عليها)

لبنان ان حكى الطبعة الأولى ١٩٦٠ ـ الطبعة السادسة ١٩٩١

كأس لخمر الطبعة الأولى ١٩٦١ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

اجراس الياسمين الطبعة الأولى ١٩٧١ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

كتاب الورد الطبعة الأولى ١٩٧٢ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

قصائد من دفترها الطبعة الأولى ١٩٧٣ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

دلزى الطبعة الأولى ١٩٧٣ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

كما الأعمدة الطبعة الأولى ١٩٧٤ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مزيد عليها)

الوثيقة التبادعية الطبعة الأولى ١٩٧٦ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

خماسيات الصبا الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلّد الأول

بنت يفتاح

المجدليّة

قدموس

بنت يفتاح

مأساة شعرية من فصلين

الطبعة الاولى ١٩٣٥
الطبعة الثانية مصححة ١٩٩١

إلى Q.A.

توطئة

أدبُنا الكلاسيكيُّ في هذا الساحل من آسيانا يجهل « الأنواع الأدبية »، حتّى الأوليّة منها كالملحمة. وكان على نهضتنا أن تحاول جهدها مجاراة آداب الأمم في هذا المِضمار.

أترك الملحمة إلى ظرف آخر، وأكتفي هنا بدرس المَرسح.

* * *

بشيءٍ من الجرأة، أُشيح بناظري عمّا وسَموه عندنا بسِمة المرسح، لأبدأ بعرضٍ موجز أتناول فيه أنواع المرسح عند الأمم الراقية.

ثلاثة مراسحَ في الآداب العالميّة لم تُخفق : الإغريقيّ،

والشكسبيريّ، والكلاسيكيّ الفرنسيّ في القرن السابعَ عشرَ.

الكلاسيكي الفرنسيّ صورة أروع للمرسح الإغريقيّ، فأترك أشيل وسوفوكل إلى كورناي وراسين. يبقى لديَّ مرسحان لنوعين مختلفين : الشكسبيريّ والكلاسيكي. على إن هذا الأخير نفسه، منقسم إلى نوعين مع راسين وكورناي. طريقة راسين تقضي بوصف « الأزمة في أشد حالاتها »، فإذا المأساة عاصفة مهيّئة من زمن تنفجر على المرسح فلا يمكنها، والحالة هذه، أن تطول أو تجري وقائعها في أماكن مختلفة، وهكذا تتوافر وحدتا الزمان والمكان. وطريقة كورناي تتابع وصف الأزمة من نشوئها إلى ذورة تفاقمها، إلى الانحلال. خذ له « السِيد » مثلاً، فترى أن الأزمة لا تبدأ إلاّ بعد صفعة « الكونت »، إذ يقف « رودريك » حائراً : أيترك والده سليب الشرف، أم يقتل والد « شيمين »، حبيبتِهِ ؟ فلو تناول راسين موضوع « السِيد » هذه، لبدأ الرواية من هنا. ومن البديهيّ أن يكون منهج راسين هو الأكمل لبساطته ولاكتفائه بأخذ البعض من

حالات النّفس يرسل عليه النور، فتتجلّى النفس وعواطفها بأجلى مظهر. وعليه يكون النوع الراسينيّ النوع الذي أقصِده من المرسح الكلاسيكيّ.

أمّا المرسح الشكسبيريّ فالثابت أنّ صاحبه لم يكن متضلّعاً من اللاتينيّة والإغريقيّة فيأخذ بمرسحهما وبرقيّه، كما فعل راسين، وهكذا نشأ مرسحه على العموم ضرباً من الأدب البِكر وبالتالي آخذاً بالملحميّة. فكما ترى في « الإلياذة » مثلاً، عصور إغريقيا الأوّلين، تتتالى أمامك حيّة أخلاقاً وعادات، هكذا في « روميو وجوليت » وفي « هَملت » يتتالى عصران : إيطاليّ ودانمركيّ، يخفقان بأخلاق هذين البلدين وعاداتهما.

يظلُّ البحث قائماً على راسين وشكسبير، فأيّ الاثنين نعتمد في نهضتنا، وقد ثَبَت لنا أنّهما مختلفان ؟

الأوّل يتناول « أزمة » واحدة، يدرسها بكثير من التعمُّق بحيث لا يعطيك النفس الواحدة إلّا وهي تخفق بين يديك كأنها نفسك. والثاني يتناول أزمات عدّة وجماعة كاملة. وإذا حالت وفرة أشخاصه دون التَعمّق في درس كلّ نفس، فتعتاض أنت بأنّ امام عينيك عصراً كاملاً أو بشرية بأسرها، ولو خافتة الألوان.

فنّ الاول ــ وهو درس ــ يقتضي له، على قولهم، إنشاء وضعيٌّ رصين، يسيّره المنطق، أداة الدّرس الأولى، فيخلو من المقاطع الغنائيّة او الملحميّة. وفنّ الثاني ــ وهو تصوير

عصر أو بشريّة ـــ يستدعي الإنشاء الغنائيّ والملحميّ لغةَ البشريّة في كلِّ آن.

لا يجوز لنا الأخذ بأحد هذين النوعين، مهما كان كاملاً، إلاَّ إذا وافق أميال بيئتِنا وذوقنا. فما هو ذوقنا وما هي أميالنا ؟ وهل نستسيغ راسين بإجماعه، أو شكسبير بإجماعه ؟

أخفق مرسح هوغو إلى حد، يومَ أراد أن يحذوَ حذوَ شكسبير، فهل يعني ذلك انَّ المرسح الشكسبيريّ لا يوافق غير الانكليز أو أنه لا يلائم العصور الحديثة ؟ وانَّه لا يستند، لِيعيش، إلّا إلى « العِتْق » ؟ وأنَّه لذلك حقيقٌ بالإهمال ؟ لا، والتشبيه الذي جئت به بعيدٌ عن الحقيقة بعد شوقي عن راسين... فإنما لمرسح شكسبير مزايا مرسحيّة حقًّا تفيدنا نحن الشرقيّين على الأخصّ. فهو نوع أمثل « الفاجعة الشّعبيّة » (mélodrame)، التي نجحت عندنا في « عاصفة في بيت » و« الذبائح » و« العواصف » لأنطون يزبك. ومن جهة أخرى أرى أنَّ حالتنا في الشرق غيرُ حالة مشاهدي هوغو في فرنسة. هؤلاء اعتادوا، مع راسين وكورناي، مرسحاً منطقيًّا يكاد يخلو من الغنائيّات، فلولا بعض مقاطع من مثل « مونولوج رودريك » و« أغاني استير »، لرأينا المرسح الكلاسيكيّ الفرنسيّ خالياً من الوتيرة الغنائيّة. وجاء

هوغو فقدّم لهم فجأة نوعاً معاكساً تماماً. نحن في الشرق موقفنا من هوغو، المتأثّر بشكسبير، غير موقف الفرنسيين، وقد اعتدنا أن نرى شاعراً يسمعنا من على المنبر ٦٠ بيتا كلّها من النوع الغنائيّ، وقل أخيراً اعتدنا أدباً كاملاً يكاد لا يعرف إلّا النّوع الغنائيّ. الفرنسيّون أِلفوا، في الكلاسيكيّة، النّظام والبساطة والوضوح. ونحن ألفنا « الفوضى الفخمة » والتعرّض إلى « الملحميّات الناقصة » من مثل ادب هوغو، وإني على مثل اليقين من أنّ صاحب « البوركراف » لا يخفق على مرسحنا إخفاقه في باريس.

إذن نحن، إزاء مرسح شكسبير الغنائيّ الملحميّ، نحسّ أَنَّنا في قلب أدبنا الكلاسيكيّ الذي لا يسعنا أن نخلعه بالكليّة.

أمّا راسين فيغري ذوقنا الحديث المثقّف على الأدب الاوروبي، يغرينا بوحدة الازمة التي تمكّنه من درس النفس البشرية، الامر الذي ينبغي أن نلتفت اليه بظما في كتاباتنا الحديثة، ويغرينا اخيراً بطريقة تسهّل — وهي وحدة ومنطق — عمل الذوق، عدوّ الضّوضاء والفوضى.

لِـزامٌ علينا، والحالة هذه، أن نلتفت بآن إلى صاحب « أندروماك »، وصاحب « هَمْلِت ».

* * *

وبعدُ فقد تأثّرت، في « بنت يفتاح »، بنهج راسين. أخذت « أزْمة » وعالجتها وهي في « تفاقمها » ، فانقادت إليَّ الوَحَدَات الثلاث، كما أنيّ سايرت ميلَنا إلى الغنائيّات والملحميّات فكنت كشكسبير غنائيّا ملحميّا، ولكن إلى حدّ، بحيث لا أسقط من المبالغات حيث سقط هوغو.

وفي وصف النفس البشرية رأيت أن المُحَدثين لم يكتفوا بتصوير دقائق العاطفة الواحدة، والعراك بين الأشخاص المختلفين، بل صوّروا العواطف المتضادّة في النفس الواحدة، وهكذا خلقوا « الفاجعة النفسيّة » أو « فاجعة الضمير ». وهذه ميزة للادب الحديث على الادب الاغريقي، فلم أمرَّ بها من دون اهتمام.

وإجمالاً كان المرسح عندي « قلقاً ». فقد ذهب جول لمتّر إلى أنّ المرسح هو هذا « القلق » الذي يغمر قلوب المشاهدين، اذ يتوقّعون اصطدام خُلق بخُلق مُضادّ. فتخلو الرواية من المفاجآت على المشاهدين، بحيث يتعرّفون الموضوع كلّه منذ البدء إمّا لشهرته وإما لإتقان « العَرْض » القصير، فلا يتساءلون بعدُ : « ما هو سرّ العِراك النفسيّ ؟ » لأنّهم مقدّماً يعرفونه، بل يتساءلون : « كيف سيتعرّف

أشخاص الرّواية إلى هذا السرّ، وكيف سيتحمّلون خطبَه ؟ ». « القلق » هو المرسح، كلّ المرسح، وقد تجلّى في الآداب العالميّة في مأساة خالدة : « أوديب مَلِكاً » لسوفوكل.

* * *

أمّا أن أكون أخذتُ في إنشائي بطريقتي المعروفة، التي تصف العواطف بالصُّور أو على الأصحّ بالايحاء، فأمرٌ ما أنا بالنادم عليه آتي به في المأساة. وقد آن للمتأدّبين أن يفهموا أُصول المرسح ومقتضيات أنواع المرسح. فالمأساة غير « القطعة » (pièce)، وغير « المهزلة »، وغير « الفاجعة الشعبيّة ». المأساة مفترض فيها « جلال الحزن، وأن ترفعك بإبهامها إلى مثل الحلم »، فتنفلت أنت ـــ وهذا شرط الفنّ ـــ من الحقيقة الوضعيّة. ولهذا أوجبوا فيها الشعر. فهي، من دون بقية الأنواع المرسحيّة، لا تحاكي الحياة العاديّة. وإلّا كان عليهم أن يحظّروا الشعر فيها، حتّى العاديَّ منه، لأنّه ليس في الحياة اليوميّة. قلت إنّ إنشاء المأساة يجب أن يأخذ بروعة الإبهام، فيحاول أن يُظهر العاطفة بالصُّور أو يوحيها إيحاءً. قالت السّيّدة ده ستال : « إذا حرّكت النفس عاطفةٌ

قوية، فالمرء العاديّ نفسُه يلجأ إلى الصُّور والاستعارات: يستعين بالطبيعة الخارجيّة ليعبِّر من نفسه عمّا لا يُعبَّر عنه ».
وهل المرسح غير « تعبير عن عواطفَ قويّة » ؟

* * *

مفترضٌ في « المأساة » أن يكون موضوعها عريقاً في القدم، يعطيه غبارُ السنين جلالاً. فأخذتُ موضوعي من « العهد القديم »، واستخدمته للتعبير عن أماني بلادي.

أمّا أشخاصي فقد تعمّدتها أميَل إلى أشخاص كورناي. ذلك أنّ الروائيّ الذي « صوّر الإنسان كما يجب أن يكون » تظلُّ طريقته أجدى لبلادٍ تريد في بدء نهضتها أن توفّر المُثُل العليا. وإنّي لأجدُهُ خَطَلاً أن يبدأ المرسح عندنا بوصف نفوس هذا العصر كما هي. ففي مثل هذا الوصف قَطْعُ رجاء، وقُنوط من حياة شعبٍ يأمل أحرارُه منه أن يتطلّع إلى الشمس.

* * *

أعطاني « سِفرُ القضاة » من « العهد القديم » — وقُل التاريخ — أنّ يفتاح رجلُ بطش ولدَتْهُ لِجَلْعادَ امرأةٌ بغيّ. فإذا

كبُرَ إخوته، أنكروا عليه الأُخوَّة وطردوه. ولا يذكرونه إلّا متى اجتاحهم « بنو عمون » واستبَوهم. ومقابل قبول يفتاح بمحاربة العدوّ يُقرّ له أهله بحقوقه وبالسيادة عليهم. وينتصر يفتاح. لكنّه يكون قد نذر قربانَ ظَفَرٍ أوّلَ بكرٍ تخرج إلى لقائه. فيتّفق ان تكون الأولى بنته الوحيدة. ويعطيها شهرين تبكي بكوريّتها على جبل جلعاد ثمّ ينفّذ فيها النّذر. ويصير رسماً عندهم أن تقوم العذارى كلّ سنة إلى جبل جلعاد يتفجّعن على بنت يفتاح.

خلقت أنا الرّواية هكذا :

افترضت أنّ يفتاح على أثر طرده استبدل باسمه اسم جلعادَ، وكتمَ بنتَه الأمر، فربّاها لا تعرف في والدها — جلعاد هذا — إلّا رجل كِبَرٍ وأعمالٍ شهمة، كما ربّاها على كره يفتاح، حريصاً إذن على تربيتها تجهل أنّ هذا اليفتاح هو والدها. وكانت إذا اجتمعت بأتراب لها يحتقرنه وذكره، لم تتوانَ عن مشاركتهنّ هذا الاحتقار. وافترضتُ أنّ أمّه البغيّ انتهت مجنونة وهي تتردّد عليه من حين إلى آخر تزعجه ويطردها. وبدأت المأساة عند تردّد يفتاح في شأن دخول الحرب : أيترك بلاده للعدوّ سبيّة ؟ ام يدخل المعركة فيشتهر اسمُه ويفتضح أمره عند بنته ؟ فكانت روح الرّواية

في « قلق » المشاهدين على بنت يفتاح « الأبيّة » إذا عرفت سرّ أبيها « الوضيع »، وعلى يفتاح « المتكتّم » إذا « افتضح » أمره عندها.

الأشخاص

يَفتاح

راحيل : بِنت يفتاح

المجنونة : أمّ يفتاح، عاهرة من جلعاد

تامارا: خِدنة لراحيل

يمثّل المرسح تلّة من « طوب »، قرب جبل « جلْعاد »

الحرية

جُرْحٌ على النور الهَوانُ،
ومآتِمٌ معَه الجِنانُ ؛
ولأضلُعُ الأحرار آبادٌ
صَغيراتٌ حِسانُ،
إنْ يستبدَّ بها الزمانُ،
يُغنِّ ثورتَها الزمانُ.
لي، مثلَ غيري بالعُلى
المِئناف، مَرمًى وافتتانُ ؛
انا لا أُذَلُّ، وفي جبين
الشمس يبدو لي مكانُ !

الفصل الأول

مِضرَب إلى اليمين؛ محرقة متداعية الى اليسار، يظلّلها شجر جبلي.

الليل عند السحر يُنازع شيئاً فشيئاً.

المشهد الأول

يفتاح ثمّ المجنونة

يفتاح

أيُّ تيهٍ، يا ربِّ، أيُّ مقاديرَ تقاذفنَ عزّتي وقيادي ؟
أنا في حَيرة، أُهادن دهري، وأهزّ الآلامَ ملءَ فؤادي،
أنكرتني عشيرتي، ورمتني هائماً في قِفار «طوبَ» الجُهْم،
فرعُ مجدٍ، مدرّبٌ في المعالي، كنت دنيا، لولا مذلّةُ أمّي.
أنكرتني «جلْعاد» عمري، فلا تذكر بطشي، لولا العدوُّ السّابي،
أتُراني مجيرَها من عِداها، وأنا الشِلوُ بين ظُفر ونابِ ؟
أنا سِرٌّ كتمتُهُ عن كياني، عن أحبِّ البنين، عن راحيلا،

إن أُجِب داعيَ الوغى يَشِع ِ اسمي عند بنتي، فأَلتقيها ذليلا،
وإخال الأسباط تهتِف باسمي في غدٍ، وابنتي تُصِمُّ المسامعْ.
قذفتني الأقدارُ دُميةَ لاهٍ فأنا حائرُ الأمانيِّ، ضائعَ
بين أمّ مجنونةٍ تملأُ البيد صراخاً، وتملأُ الأمس عارا،
وابنةٍ صُنع ِ ما أريد، تردَّت بُغض يفتاح، في الحياة، شعارا،
ذكرهُ عندها جِراحٌ على القول، وتجديفةٌ على وجه قدس ٍ،
ومرورُ اسمِه على شفتيها غيمةٌ من أسًى على جوّ ِ عرس ٍ !

يلتفت فجأةً فيرى أمّه بشعر كَثّ، وجفونٍ ناتئة، وأثواب ممزّقة

أُمٌّ !

المجنونة

يفتاح.

يفتاح

لا أنا لست يفتاح. أنا لابنتي عَلاءٌ ونورُ !

أنا ...

المجنونة

يفتاحُ.

يفتاح

لا تُعيدي على أسماعيّ اسمي، فكل ما بي يثورُ.

المجنونة

أين راحيل ؟ أنت تحجبها عنّي ؟! ولا كَتْمَ بعدُ لا أستارا،
كبُرت والسؤال ينشقّ عن فيها، وتبدو الدّنيا لها أسرارا.
شئتَ أم لا، أنت ابن عاهرةٍ!

يفتاح

أمّي، حُنانيك ! أقصِري في المَقالِ !
أنا أدرى، إلى الصَميم، إلى إخفاءِ حالي عنّي، وإنكار حالي.

المجنونة

يشتدّ عليها العارض

عبثاً تصعد التّلالَ المُنيفات، وتجري تهرّباً في الفضاءِ !
أتُعدُّ السُقوط من علُ، يا يفتاح، من مُرتقى ظنون الرائي ؟!

يفتاح

عاودتْها رؤى الجنون.

المجنونة

مستطردة

أتبغي مسحَ وجه الأَوضاع بالأَوهام ؟
عَوّدِ البنتَ رؤية الحاضرِ القفر، فلا تشرقَ الشموس الدَوامي.

يفتاح

بإشفاق

لو تعي قولها، وتعرف راحيلَ، وجوّاً عاشت له راحيلُ !

بترفق

طفلةٌ قلتَها الصَّباحَ اذا هلّ، شموخٌ لها النَسيمُ العليلُ

مثلُ أبكارِ رُبعها، تعشق المجد، وتزهو بالمحتِدِ المعبودِ،

تلتقي، في الرَّبيع، بعضَ سجاياها، وفي الأنبياء بعضَ الجدود.

بحسرة

أنا ربَّيتُها على كُرهِ يفتاحَ، وربّيتها على الكُفر باسمي،

فأنا، عندها، ابن أكرم بيتٍ، باسم «جلعادَ»، وابن أشرف أمٍّ؟

أتراني أُوحي إليها بفرعٍ لطّخته أمّي بوصمة عارِ؟!

المجنونة

ترى راحيل فتنهد إليها

هي راحيل في الخميلة ...

يفتاح

يمنعها بتؤدة

خلّيها شعاعاً في جيرة الأزهار !

المجنونة

غاضبة لمنعها رؤيةَ حفيدتها

الضِّياء الضِّياء من تُرّهاتٍ نَسجتْها أناملُ الإنسانِ؛
وغدُ البكر ليلةٌ وَفرة الرّجس، وجوٌّ مخضّبٌ بالهوانِ،
كَذِبٌ طهرُها ! ...

يفتاح

منتفضاً لإهانة بنته

أَناتَك، أمّي !

المجنونة

كَذِبٌ مثلُ مُحْتِدٍ برّاقِ.

يفتاح

أَنت تَعنين محتدي ؟ وله، لولا تَردّيكِ، روعةُ الإشراقِ.
ولو انشقّت الظّواهر عنّي، لتراءى دَمّانِ طيَّ جَناني،
ولو البرُّ بالأمومة يرضى، لاكتوى واحدٌ بنار الثاني.

وكأنّه قد ندم على إهانة امّه

عفوَ أمّي، إن أَجرؤِ اليومَ في القول !

المجنونة

وفي جرأة الذَليل اتّضاعُ !

يفتاح

بتكبّر وثورة

ما أنا بالذليل !

المجنونة

ما أنت يفتاحُ ؟!

يفتاح

بتفجّع وتحسر

بلى ! ولْتُهَدَّ تحتي البقاعُ !

مُرّةٌ في فمي الحياةُ، ودَكْناءُ المرامي في ناظري المَكلومِ،

وتكاد الشموس تُظلم في وجهي، ويبكي عليَّ ظُهرُ الغيومِ !

المجنونة

يتغنّى بالطُّهر نذلٌ شريدٌ خلّفته جلعادُ إلفَ الضّواري ؟!

يفتاح

مهلَ أمّي ! وربَّ ضارٍ من الوحش له عزّةُ النّفوس الكبارِ !

المجنونة

إخفِضِ الرأس.

يفتاح

لإنكسار جبيني غضبةٌ مثلما لِوجه الخيالِ ؛
إن ورِثتُ الدَمَ الذَليل، فروحي في ضلوعي، لها الجبينُ العالي !

المجنونة

خلِّ عن عِزّةٍ.

يفتاح

مشيراً إلى وجه أمّه

أبيْتُ إبائي أن أراه إلّا مُحيًّا أغرّا،
أنتِ أُمّي، وأنتِ سرُّ عذاباتي، دعيني أبثّك الحبَّ مُرًّا.

المجنونة

حُبُّكَ النَّذْل ...

يفتاح

بنفاد صبر

توجعيني ! وحبّي ليسَ نذلاً إلّا إذا يلقاكِ

وكأنّه ندم

لا ! وأهواكِ كيف كنتِ.

المجنونة

وقد تقدَّم يفتاح يريد تقبيل يدها

تخيَّب !

يفتاح

أنا أهواكِ.

المجنونة

دَعْ

يفتاح

يكون قد ارتمى دونها، يرغمها على التَّراجع

أَنا أهواكِ !

إذهبي.

المجنونة

غاضبة لطردها

أنتَ ؟ أَنتَ يفتاحُ ؟

يفتاح

خلّيني.

المجنونة

مولولة من الداخل

طريدُ الرُكبان من كلّ ظَعْنٍ ؟!
ثمرُ العار ! وُلْدُ عاهرةٍ كاللّيل! وُلدي أنا ! وتبرأ منّي ؟!

يفتاح

أيّها الحفنة الرَميمُ من الطّيبة، والكَدْسُ من جراحٍ أثيمهْ،
لا، وراحيلَ، ما تبرّأتُ من وجهٍ تهاوى عليه طيفُ الأمومهْ.

المشهد الثاني

يفتاح وحدَه

ربِّ يكفيك ذلتي في حياةٍ وَفْرة الصّبر، وَفْرة الآلام،
أتُرى يطلُع الصّباح، ويَفنى اليومُ في غُربة الزَمان الدامي ؟

يلتفت إلى حيث مضت أمّه

ذهبت تنشر الصُراخ وجيعاً، وإخال احتضارَه في ضلوعي،
ويكاد البُعاد يحجبها عنّي، وتبقى برّاقةً في دموعي ؛
تركتني إلفَ التأمّل في حالي، وفي طالعي الوجيع القُروحِ ،
ورمتْني سحابةً في فضاء التّيه، أُلعوبةً بكفّ الرّيحِ.

رأيُ مجنونةٍ لها ! أَم كلام الوحي حرفاً حرفاً رماه اللهْ ؟

وإلى مَ الكِتمان في أَمر سرٍّ بدأَت تلتقي عليه الشِفاهُ ؟

حَيرةٌ مُرَّة تهدِّم نفسي، وتريني الحياة حرَّى الكُلوم

أَيُّ هَولٍ غداةَ تعرف راحيلُ، وأَيُّ ارتعاشةٍ في صميمي !

بين خَطبينِ صارخَين بصدري: ذُلُّ أَهلي، وجرحُ آمالِ بنتي،

كيف أَحيا، وكيف أَسحب رجليّ على الأرض، وهي تنهار تحتي؟!

مستقرّ الرأي

لا وأمضي طلْقاً ووجهي إلى الأحرار، أقضي حقَّ الأُباة العوادي،

إن يَفُتني الفرعُ المجلجِل كِبراً، لا يفتني الرَّدى فداءَ بلادي.

فتراني راحيلُ في النَصر، أَوفي الموت، أسمى منّي ولم أَمْحُ ذلّي؛

وإذا يذكرون ذلّي لديها، تلتقيهم براية أَوْ بنَصل !

يحاول أخذَ درعه عن المحرقة فلا يجده.

المشهد الثالث

يفتاح، راحيل

راحيل

فرِحة، تحمل طاقة من الزهر

أَإلى الحرب، يا أَبي ؟

يفتاح

بل إلى النّصر.

راحيل

هنيئاً لنا افتداءُ الدّيارِ !

أنا أهواك، يا أبي، قِبلةَ الناسِ، عقيدَ الفوارسِ الأحرار.

أنا أهواك، حاملَ الرايِ سمحاء، ومستقبلَ الطّعان سخيًّا،

بين لمع الحِراب، بين المواضي، يخفق النَصر من حواليك حيًّا.

تخلع المجدَ والهناءَ على جلعادَ، فجراً مجرّر الأردانِ،

فيقولون في لقائك : « حرٌّ » ويقولون : « بنتُهُ »، وكفاني !

يفتاح

تعشقين العُلى.

راحيل

وأعشقه في والدٍ، مُطلعِ العُلى من ظُباهُ،

فهْوَ مُعطيَّ رفرفاتي إلى المجد، ومغنِيٌّ عن عُلى في سواهُ!

تبدأ الفاجعة تتراءى على وجه يفتاح، ويتتابع ذلك في كل من المشاهد التي فيها يلتقي يفتاح بينته.

عجبٌ ما لوجهك اصفرّ وانهدَّ رُواءً ؟

يفتاح

راحيــلُ، خلّي المَفاخرْ.

راحيل

لِمَ يا والدي ؟ ونحن ...

يفتاح

كباقي الخَلْقِ.

راحيل

لا لا، ونحن أَسمى مآثرْ ؛
نحن فرع الأَمجاد. ليس «شكيمٌ» في ذوينا، وليس «يفتاحُ»...

يفتاح

يكفي !

لا تزيدي، راحيلُ، لا تتجنّي !

راحيل

متعجّبة

أَيّ ذنبٍ أتيتُهُ؟ أيّ خَسفٍ !
أنا عرّضتُ، عن قِلًى، بالذليلَين: شكيمٍ، وتِرْبهِ يفتاحا:
مائتٍ، ذكرُهُ ظلامٌ؛ وحيٍّ، يجرح الخاطرَ آسمُهُ والصَّباحا.

يفتاح

لا تَضلّي، راحيلُ، في كفّ يفتاح أَماني الأُحرار من جلعادا.
بطلٌ لا يَخُبُّ في ملعب المجد سواه، إذا الفَخار تَنادى.

أُذكري الحرب، واذكري الذُّل، يا راحيلُ، «عمّونُ» في حمانا يجورُ،
عاثَ فينا: الرُبوع فقرٌ، وأهلوها جباهٌ زُلْفى له ونُحورُ.
لا وليٌّ يقودنا ...

راحيل

لا وليٌّ ؟!

يفتاح

غيرَ يفتاح.

راحيل

والذَّليلُ ذليلُ !

يفتاح

أَقصِري في المقالِ! إن يمشِ يفتاح إلى الحرب، فاللهاثُ صليلُ،
والجباهُ الخَنوعُ غضبةُ مجدٍ، والبلادُ ارتعاشة شمّاءُ.

راحيل

بغضب

يا «لَجلعادَ»! يلجأون إلى النَّذل، فأين الأحرارُ؟ أين الإباء؟

تشير إلى أبيها

أين جلعادُ، فارسُ الظَّفَر الزَّاهي، أبي، أين سيفك المسلولُ؟

يفتاح

كأنه يتحسّر

لستُ في الحرب قِرْنَ يفتاحَ.

راحيل

ما قلتَ ؟ وأمساً قامت إليك السُهولُ

في رجالٍ أكابرٍ مرّغوا الكِبرْ اتضاعاً على تراب الدّارِ ؛

بسمةٌ منك أرقصتهم فماجوا طَرَباً يلتقون لَمع انتصارِ،

هتفوا فيك للوليّ المفدّى، والتقاك الشّيوخ بالصّولجانِ،

وإذا ازوَرَّ عنهُ طرفُك، مادت بهم الأرضُ في ثياب الهَوانِ.

ثِقةٌ فوقها اتّكال على الله! فهل ذاقَ مثلَها يفتاحُ ؟

يفتاح

لا تَقيسي به كَمِيّاً أبيّاً، تخشع البِيضُ دونه، والرّماحُ.

راحيل

أنتَ أعلى سيفاً، أراك صقيلاً سلّه الله مَشرقاً في البريّهْ،

بطلٌ فيك من يشوعَ مُعيدِ الشَمس، ليلاً، بضربةٍ علويّهْ،

تفتل الزّند من تجهّم لبنان، وتلهو بالموت حُمْرُ بنانِكْ،

وتكاد الذُرى تُطايب كفّيك وتصغي لحَمحمات حِصانكْ ؛

أنت أعلى.

يفتاح

لا، بنتِ!

راحيل

بنفاد صبر

ما أنت جلعاد ؟!

يفتاح

بلى، بنتِ ولأقلْ هو بَعدي

راحيل

أين منك الوضيعُ ؟

يفتاح

وحده

ربّي، كفاني!

راحيل

أَين منكَ اللامكتسي بالمجدِ؟

ذُلُّ يفتاح ...

يفتاح

بسطوة وقد نفد صبره

بنتِ، هاتي مجني ونبالي والسيف.

تخرج راحيل

يا ويلاهُ !

أيّ خطبٍ إن يَفتضِح لكِ سرّي، يا ملاكاً يفتاحُ كان أباهُ !

عُمُرٌ قاتمٌ يمرُّ ولا ينشقّ، قبل انهياره، عن هناءٍ،

فيذلَّ ابن آدمٍ بيديه، لا بذنب الأجداد والآباءِ ؟!

يحسّ وحشة الانفراد

أين راحيلُ؟ بتّ أخشى انفرادي، وأرى الأفقَ مسحةً من سوادِ،

ثقُلت أضلعي على قلبيَ الكاهل، واهرَورقت قِوى أجلادي،

ويكاد الجثمان ينهار عنّي، ويكاد الهواء يأبى نهوضي،

أين راحيلُ أرتمي في يديها، وقعةَ النَسر والجناحِ المَهيضِ ؟

يستند تعباً إلى المحرقة

راحيل

وقد عادت بالسّلاح

والدي، ما اعتراك؟ رعشةُ خوفٍ وعلى كفّك انتصار الغداةِ؟!

يفتاح

وقد استيقظ من ذهوله وآلامه

لا، وعينيكِ، لم أخفْ! وسواءٌ وقعُ دنيا، عندي، ووقعُ حَصاةِ.

وإلى الملتقى.

يأخذ السلاح ويخرج

راحيل

على بركات الله مسراك، والتفاتُ سِهامِكْ!
تفتدي روحُك البلادَ، إذا عزّت، ولم يكفِها افتداءُ حسامِكْ.

المشهد الرابع

راحيل وحدها

كلّ شيء حولي تغيَّر من عهدٍ، ونفسي في حَيرةٍ وظنونِ،
وإذا التقي أبي فعلى حزنٍ وعهدي به ضحوكَ الجبينِ.
أيُّ سرّ يحوطني بقنوطٍ، وأنا بعدُ، في ربيع الشباب؟!
لم تمرَّ الأحلام في خاطري بعد، ولم تحظَ في الدُجى بجوابي.
مَنعوني بالأمس لقيا التي جُنّت تنادي باسمي، وتطلب خِدري،
ورَمَوني في عزلةٍ أجدُ الأفواه همساً، والعينَ لفتة سِرٍّ.

أغانٍ من الداخل

رجّعي، يا رياحْ،
هينماتِ الهناءْ؛
وافتحي باب السماءْ
للعذارى الملاحْ.

راحيل

متجهّمة الوجه

مُنشداتٌ! والناسُ في غمرة الذُلّ، وسيفُ العُداة في جلعادا؟!

مُنشدات أَم خالعاتٌ على الأبطال روحاً رَدّ الجهادَ جهادا؟!

اغانٍ من الداخل

رجّعي، يا رياحْ،

زمزماتِ القنا،

وآجتني طيبَ المُنى

عن سيوفٍ صِباحْ.

راحيل

فرحة

نَغَمٌ ناصِعُ المُنى، أَحمر الإرعاد، يَنشقّ في رحاب الفضاءِ،

لو يحولُ ارتعاشةً في صُدورِ الناس، شالت بِهم إلى العلياءِ!

إلى المغنّيات

يا عذارى جلعادَ، غنّين بالسّيف، وهِجنَ الرُبى، وهجن الصُخورا،

وآمتشقنَ الرّجالَ من حُللِ الأطيافِ، وابعثنهمْ لهيباً ونورا.

تغنّي على النّغم نفسه

غنِّ، يا جبلي،

بالأماني السِّماحْ،

وآمتشق أحلى الرِماحْ
لِيــد البطــلِ.

...

فــارسٌ آمَنــا
ببلوغِ الأملْ،
يرتقي أسمى القُللْ،
يُرقـص الزَمنــا.

...

قُمْ بنا، يا جبــلْ،
نحتفي بالشُـروقْ.
لكَ لو تدري حقوقْ
مثلمــا للــدُولْ!

سشتار

الأسطورة

يا روعةَ القِدْم المُطلّهْ
خَلَلَ التّرفُّع والمَذلّهْ،
سِيّانِ أرقصتِ الزّمانَ
وشِدْتِ فوق يديك جهلهْ؛
أنا دونَ هيكلكِ الرّفيعِ
أبثّك الإجلال كلَّهْ.
جرَّحتِ آهاتي، وألقاها
على شفتيَّ نَهلهْ؛
ما شئتِ كوني! فالألوهة
في وشاحكِ مستظلّهْ!

الفصل الثاني

المشهد الأول

راحيل ثم تامار

راحيل

ملعبَ النورِ، ملعبَ العِطرِ، يا جلعاد، ها أنت قِدّةٌ من ظلامِ؟
خضّبت دُكْنَةٌ جمالَ حواشيك، فبَهجُ الضُحى بظلّك دامِ!
لم يجئ بعدُ مُنْبئٌ عن لظى الحرب، وعن قِرن والدي في الطِعانِ
قيل: إن يدخلِ الوقيعةَ يفتاح يرجّحْ جلعادَ في المَيدانِ
وإذا أُنكرُ انتصاراً على النَذلِ، فلا أُنكرُ الظُروفَ العُجابا،
رفض الحرب، مثل جلعادَ، بالأمس، فهل يَلْتوي الذَليلُ رغابا؟
هي تامار، خِدنتي، تحمل الأنباء بِكراً من الثِقاتِ الناسِ،
ذكَرت حيرتي فجاءت، ولا بدَّ، إلى عزلتي بكلّ مؤاسِ.

تامار

بِشرَنا، أختِ، بِشرنا! رَضيَ اليفتاح!

راحيل

جوزيتِ أَلفَ بُشرى لبشرى!

تامار

صُبْحَ أمس أنتحي. وما هي حتّى خاضها يُلهبَ البواسل طُرّا
ما درينا إلّا مساءً، فقمنا في قرابين بكْرٍ وصلاةٍ؛
أُنظريها، جلعادَ، قطعةَ نارٍ تتدانى من مبدعِ الكائنات:
الحنايا معابدٌ وصلاةٌ، والأيادي كِنّارةٌ ودفوفٌ،
وانظري الجوَّ دفقةً من أغانٍ مسمعُ الكون دونهنّ رهيفُ؛
وانظري الحُلمَ...

راحيل

أيَّ حُلمٍ تذكرتُ وجيعِ الألوانِ مِلءَ جفوني ؟!
في منامي رأيت سيفَ دماءٍ ...

تامار

مقاطعةً

سيفُ يفتاح في بني عمّونٍ؛
فاطرَبي.

راحيل

لا طرِبتُ! حلمي مخيف يملأُ الصَّدرَ رعبُه والمآقي،
فيه زهو البياض يرقص مِغناجاً على حُمرة الدَّم المُهراق:

كنتُ في الحلم طَلْقةَ الوجه والقلب، كورقاءَ في الرُّبى غنّاء،
حسدتني الزُّهْرُ العُلى، حسدتني المُنية البكرُ في هوًى عذراءَ،
حين نوديتُ من علٍ أَنْ دَعي جلعادَ، والنَصر، واقبعي في الظَلام.
فعصيتُ السَماءَ ــ عفوَك، ربي! ــ وإذا قِبْلتي بُريقُ حسامٍ،
وعصورٌ تدور حولي سِراعاً، فكأنَّ الزَمانَ شقَّ السُتورا،
عاصفُ الرِّيح بات صوتَ صراخ، وسواقي «جلعاد» دمعاً غزيراً.

تامار

بخوف
أيُّ حلمٍ، راحيل!

راحيل
ما زلتُ حيرى في رُؤاهُ على توقّع خَطبِ؛
وأُحِسُّ المساء ملء جفوني، وعلى بسمتي الجريح، وقلبي!

تامار
حدّقي، أُختِ: في البعيد سيوفٌ لامعاتٌ بين الغبارِ، وخيلُ.

راحيل

وقد ازداد تشاؤمها
أتراهم فرسانَ عمّون في نصر، جَرى خلفهم من السَبْيِ سيْلُ؟
ملأوا السَهل والرُبى، فعلى جلعاد ظِلٌّ من الدُجى والفناءِ،
لا رجالٌ تذود عن قدسنا، والنَاس تمشي في الذُلّ مِشيةَ شاءِ.

يكون التَشاؤم قد بلغ منها حدًا قصيًّا.

يا صباحَ الدمار، أين غسولُ العار ينصبُّ من فِجاج السَماءِ!!
أين من ينثر النُجوم صخوراً، ويكبّ النيران في الأرجاءِ!
يترك الموت مفلتاً في البرايا، ويهدّ الجبال فوق الجبالِ،
يعجُن البيدَ بالبحارِ هؤولاً، عاصفاتٍ رياحُها بالزوالِ،
ويعيد الغَمرَ القديمَ يعيد اللّيل بالويل زاحفاً والمنيَّهْ!
إن تخلّت عنّا السما لا تعالت أو تجاهت على جمال البرِيّه!

المشهد الثاني

راحيل، تامار، المجنونة

المجنونة

عِشرونَ ألفَ أسيرٍ

راحيل

بحسرة

أتراها البُشرى ؟ ..

المجنونة

وألفُ قتيلِ

راحيل

بغضب

حبّذا لو قضَوا جميعاً.

المجنونة

قضـــاءٌ علـويٌّ !

راحيل

قضاءُ شعبٍ ذليلٍ !

المجنونة

ومئاتٌ من الخيول السّنيّاتِ، وعشرونَ وزنةً من نُضارِ.

راحيل

لا ذكرتِ الأموال !

المجنونة

لِـــمْ لا ؟

تامار

ويفتاح ؟

راحيل

بحسرة وهزء

وحامي الحِمى ؟ وحامي الذِّمارِ ؟!

المجنونة

بين لمْع الحراب... بين الأُسارى...

راحيل

مقاطعة

يا أذلَّ العُبدان فيٍ عَمّونِ !

قدتَ جلعادَ من مذلّة هُونٍ أوجعتهُمْ إلى مذلّة هُونِ !

رُحتَ ...

المجنونة

راحيل ! ..

راحيل

رُحت عبداً، وعبداً عدتَ ...

المجنونة

راحيل ! ..

راحيل

لو رَجعتَ قتيلا !

عدتَ حيًّا تجرّر القيدَ ...

المجنونة

قلتِ القيد ؟!

راحيل

يبقى ذاك الذليلُ ذليلا !

المجنونة

ما تقولين؟ ما تقولين، راحيل؟ ويِفتاح قِبلةُ الأمصارِ،
أَنزلَ العزَّ في الربوعِ، وخلّاها انتصاراً يختال إِثرَ انتصارِ.

راحيل

ما تقولين، يا عجوزُ، انتصرنا؟ نَحْنُ؟!

المجنونة

نصراً غنّت به البيداءُ !

وكأنّ الفرح قد زاد في خبلها

كنتُ في الحرب كلَّ شيء، وكان العِرْقُ منّي يشاءُ ما لا يُشاءُ

تامار

لراحيل

من تكون العجوز ؟

راحيل

مجنونةٌ تَهذي؛ دعيك، الجنونُ حَرٌّ وبردُ ؟!

المجنونة

أنا قدتُ الرجال.. عِرقيَ.. وُلْدي... أَنا أُمُّ الحُسام والكُلُّ غِمْدُ

راحيل

بإشفاق

هاجت المرأة الشّقيّة.

يسمع غناء من الدّاخل

تامار

لكن أتراني بما رَوَوا بُلبلتُ

العذارى في فرحة وغناءٍ، أأصبتُ الهُدى أنا أم خطِلتُ ؟

راحيل

بحسرة

جالَ في خاطري انتصارٌ، فأمسى هَذياناً مُرًّا على هَذيانِ ؛

أملٌ أشرقت جوانبُه، وانشقّ عند استقباله عن هَوانِ.

المجنونة

ممسكة براحيل وقد أوشكت أن تخرج

أين تمضين، يا ابنة الظّافر الغالي ؟؟

راحيل

دعيني، واخْلِي معالم داري.

المجنونة

تطردينى ؟!

بإشفاقٍ وندم

طردتُها، وبصدري بعض مَيلٍ لها، وبعض وَقارِ.

المشهد الثالث

المجنونة وحدها

سكوت طويل تسند المرسح في خلاله أغانٍ تجيء من بعيد. وفجأةً تلتفت المجنونة الى الدّاخل فرحةً، وكأنّ العارض قد خفّت وطأته

قرُب الظَافرون من منشداتِ النَصر، يجري جلعادُ فيهم حُبورا،
مائجُ الاخضرار في الرّونق الطَلْقِ كأنْ زادَه الرِجال حضوراً.
خلعوا فوقه البطولةَ أبراداً، وشكّوا الظُبى عليه نجوما،
أيُّ قِرنٍ أمامهم يعتلي المُهر المُجلّي، ويستطير الغيوما.
فارسٌ قدُّهُ المضاءُ من الشُمّ الرّواسي، والشُرّع الأسيافِ،
قرّبي منه، قرّبي منه، راحيلُ، وبثّي لُقياه طِيبَ القوافي.

يسمع غناء فتاةٍ غريبة، فتقابله المجنونة وكأنّ العارض قد عاودها

وأزيحي عن دَرْبه قَينةً دكناءَ تشدوه نغمةً دَكناءَ،
الغناءُ الغناءُ عصفة إرعادٍ، وأشباحُ مأتم تتناءى،
صرخاتٌ غريبةٌ توجع الصُبْحَ، وجهش على السَّنى، واحتضارُ،

أين راحيل تملأُ الأفْق تحناناً فيَغوى على يديها النَهارُ؟
قدّمتها عذراء قسراً، وألقتها أمام القِيان، بين الدّفوفِ.

يرتفع صوت راحيل، فتعود المجنونة إلى هدوئها

أنشديه، راحيل، أشجى من الحبّ، وأسمى من اصطكاك السُّيوفِ،
وابعثي اللحن رافلاً، واملئيه بحفيف الجوانح البيضاءِ،
في أناشيدك الفتيَّة شيءٌ من خِضاب الأسى، ولون الهناءِ.

بدهشة، وقد عاودها العارض

ما دهى موكبَ العلى؟ أجْفل الفارسُ، أم مادت الرُّبى بالجوادِ؟
أمر الناس بالرُّجوع وألوى كاسفَ الوجه، واهيَ الأجلادِ.
مستضامٌ، ترجَّل الآن، وانهال على المنشدات يصرخ ذعرا:
هربت منه لؤلؤات بلادي، غير راحيل، فهي تهتِف بِشْرا.
وهو ساجٍ، يُلوي عليها وتُلوي: دفقةً من سنًى على لبنانِ،
أيّ سرٍّ في قلبه يترك الصبحَ مريضاً في غمرة الأحزانِ؟
فالروابي مثلُ ازورارٍ عن الهَدْيِ، ومثلُ اختلاجةٍ وانتهاءِ،
والهدوءُ الرحيبُ، والقيظ والنارُ انهيارُ الفضاء تلوَ الفضاءِ.

بعد سكوت وتأمّل

لِمْ ترى الظّافر المُجلْبب بالقوّة، يبدو مجرّحًا بالذُّهولِ،
يمسح الدَمع خِفيةً عن عيون النَاس، عن نفسه، وعن راحيلِ!

سكوت طويل، أغانٍ مُبهمة تجيء من بعيد. تقعد المجنونة دون تعمُّد في ظلّ المحرقة بحيث لا يراها الدّاخلان

المشهد الرابع

المجنونة، يفتاح، راحيل

راحيل

هاتِ، يا والدي، عن الحرب، فالدّمعُ بعينيك ريبةٌ في انتصاركْ،
والتقاءُ الحسان بالبسمة الحَرَّى دليلُ انتحابةٍ في قراركْ،
أتُراها هزيمةً ؟!

يفتاح

لا، وراحيلَ، ويفتاح في انتصار فَرْدِ :
أنزل العزّ بيننا، وكسانا بُرد مجدٍ رحبٍ على برد مجدِ،
فجرُ نصرٍ يحيا على الأعصر الغرِّ، وتشدو جلاله البيداءُ؛
عاد يفتاحُ بالغنائم والأسرى كأنْ للعُلى هو اللألاءُ.
ضرب الضَربة السَخيّة في عمّون، فانهدّ عزّها بحسامهْ،
حصد الهام، فالتِلال تجلّلنَ بهامٍ وقفٍ على أقدامهْ.
لقي الجيشَ في «عروعير» صبحاً، ينزل الرُعبَ دفقُه، والظَلاما،
تتنزّى الهِمّات عن جانبيه، فيخال التَهديد منه حِماما،

لا انتهاءٌ له، ولا وَهنٌ يُضرَب منه، فتبدأُ الهيجاءُ.
وتلوّت رجالُنا مضضَ الحيران لاقته فجأةٌ نجلاءُ؛
لم يُطِقْها يفتاحُ وقفةَ جبنٍ؛ وعلا صوتُهُ يُصمّ الرِياحا،
أمر القوم بالهجوم، وبالموت، فأدمى السّنى، وأدمى الصّباحا،
كم نفوس تَنَاثرتْ والعوالي ، وجسوم تعانقَتْ المـواضي ،
خطبةُ السَيف خطبة الحقّ، والكاسي ثيابَ الدِّماء كاسي البياضِ.
صخبُ الحاملين ملءُ الصَحارى، ونزاع الفرسان ملء البرايا،
والتلال الدَكناء من جثث الأبطال، والأفق من لهاث الضَحايا.
يتهادى يفتاحٍ في مطلع الجيش، على عزّة الأبيّ الظَافرْ؛
قيل: مستقتِلٌ، وقيل: شجاعٌ عشقته، فهادنته البواترْ.
يتحاشى عن الجبان، ويجري عارضاً صدره على المقدامِ،
فإذا يلتقيه في فجأة الطالب، يرمي بنفسه للحسامِ.
وتردّى النَهار بالدم فانزاح، ووافى المساءُ قبل المساءِ؛
ورأى الناسُ عمرهم مثقل الخطو، كسولاً إلى لقاء القضاءِ؛
فتنادى عصفُ المنيَّة فيهم، تتجافى منه الرُّبى والسُهول،
واذا فجعة الحراب فناءٌ، يتلوّى على العدى، ويميلُ؛
واذا دفقةٌ من البدر تجلو أكماتِ الأحياء والأموات،
عرف النّاس أيّ حظٍّ أصابوا، فإذا السُّيف في ظهور العُداة.
وسرى الفتحُ من «عروعير»، يبغي حدَّ «منّيتَ» والقرى العشرينا،
وعلى رقصة السّنى والأغاني داس يفتاح في بني عمُّونا.

راحيل

طبتِ، كِنّارتي. تَغنَّي تغنّي! واصغَ، يا كونُ، واطربي، يا سماءُ!
وتباهَيْ بها بطولةِ قومٍ، هم جبينٌ إلى العُلى وَضّاءُ!
واملأي الأرض باسم ربِّك مجداً، باسم جلعادَ، زيد مجداً أثيلا،
واقطِفي الشُّهب للذي رأسه فوقُ، وصوغي لشعره الإكليلا!

تلتفت إلى الدَاخل كأنَّها تناجي يفتاح، بينما يفتاح إلى جنبها يكظِم دموعه وآلامه

يا بريقَ الآمال، يا جانيَ المجد، رعاكَ الجلالُ من لبنانِ،
واشرأبّت زُرقُ النجوم تحّييكَ بشتّى الأضواء والألوانِ.
يا صلاةَ الرُجوع لله بعد الكفر، بعد المُحلولكات الخطوبِ،
ذكَرتلك العذراء في صفوة البال، وفي هجعةٍ بحِضن الحبيبِ.
عفوَ أردانكَ النقيّة، يا يفتاح، عفو الرمال تحت خطاكا!
أنا جدّفت، من غروري، على القدس، غداةَ اقتربتُ من ذكراكا.

يفتاح

عدت، بنتي، إلى الصواب، وألفيتِ، لِيفتاح جُودةً أختَ نَصلِ

راحيل

جودةً؟ لا. وليتّني أعرف الظّافر في مثلِ والدي طيبَ أصلِ

يفتاح

تظلِمين اليَفتاح، راحيلُ.

راحيل

لم أظلِم. وحقِّ تكبُّري واعتزازي !

تشير إلى أبيها، وكأنَّما تذكِّره بالكبر الذي ربّاها عليه

وابي بثّني النِّياسمَ من رِتيه الرَّواسي، ومن شموخ البازِ.
عشتُ في قربه، يتيمةَ أمّ ٍ، فأنا منه دنيواتُ الهناءِ؛
ما لهُ مُنيةٌ سواي، ولا لهوٌ ؛ يريني في الأرض ظلَّ السّماءِ.
كلُّ شيء حولي علاءٌ وكبرٌ، كلُ شيء ملوَّن بالكمالِ.
ما قرأتُ التَاريخ إلَّا جليلاً، في فم يبعث الكلام لآلي؛
أو رأَيتُ الأعمال إلَّا كباراً، من يدٍ خصْبةِ النَدى والسَماحِ ؛
وكتابي أبي، أرى فيه من موسى، كليمِ العُلى، ومن يفتاحِ .
وإذا نلتقي على ذكر أمي، ففضاءٌ مغرورقٌ بالشُعاعِ ،
أو نغنّي بمكرُمات جدودي، فرِباعٌ غراءُ إثرَ رباعِ.
خَلّنِي، خلِّني، على ذكر يفتاح، أرى فيكَ أطيب النّاس ذِكرا؛
وإذا تَشرفُ البلادُ بيفتاح وجلعاد، تلتقيك الأبرّا.
هاتِ خبّر عن روعة الحرب والنّصر، وعن بُسَّلٍ لديك أَجادوا.

يفتاح

كلُّهم باسلٌ.

راحيل

وأيّ الرّجال الغُرّ جلّى ؟ يفتاحُ أم جلعادُ ؟

يفتاح

وحده

ربِّ !

راحيل

قلْها بلا اتّضاعٍ !

يفتاح

بعد تحيّر

كلانا.

راحيل

لا ! وأنت المجرّر المجدَ أصلا ؛

هو في الطّعْن عِدْلُ ماأنت، لكنْ لكَ أصلٌ يُرخي على الشّمس ظِلّا.

يفتاح

ما تقولين؟ بعد لألأة النّصر، وبعد ارتعاشة الرّاياتِ،

بعد خَوضِ الطِّعان مرتفعَ الرَّأس، وخلع العُلى على السَّاحاتِ،

بعد نسج الشُموس بردةَ مجدٍ، لا تَرَين اليفتاح غير وضيعٍ؟!

راحيل

هو ما قلتَ، يا أبي،

يفتاح

وجلاءُ الفتح، يا بنتِ، عن غوالي الرُبوعِ،
وانتشالُ الأطفال من غمرة الموت، ومنعُ المخدّرات النِساءِ،
وحِماءِ الأطهار فينا العذارى، من فجور الوحاوح الأعداء،
والفِعالُ الغُرّ العُلى، من أتاها غير يفتاحَ ؟

راحيل

انت، والامجادُ.

يفتاح

ما انا والرجال الّا دمى خرسٌ؛ ولولا يفتاحُ، صمٌّ جمادُ.
بثّ فينا العلى، وقادَ الشّتّاتَ النّزْر منّا، مجرّحاً، ملتاعا،
فإذا نحن نقتفي إثر يفتاحَ فنمضي إلى الخيالِ سِراعا.
نحن، لولا اليفتاح ...

راحيل

تقاطعه بمثل الغضب والعتاب

يكفي ! تراءى لك سَمحُ الطّعانِ سمحَ الأصلِ؛
إمتدحْ طعنةَ الموفّق، يا جلعادُ، لا تمتدحْ ذراع الأذلِّ.

يفتاح

وحده

ربِّ !

راحيل

حاربتَ جنبه، فغزا قلبكَ بالوَفْرِ من جميل الطِعانِ،
ونسيتَ الأصل الذّليل ؟!

يفتاح

أَناةً ...

راحيل

مستطردة

واشتريتَ العُلى له بالسِّنانِ ؟!!

والدي، يا سليلَ مجدٍ عريق، لي رجاءٌ إلى هواكَ، وحيدُ:
لا تجِد في الفَعالِ مغفِرة الذلّ، فلا يُشترى أبٌ وجدودُ.
أنا أخشى مَغبّةً وَفْرَةَ الشّرّ، إذا يمّحي الخَنى في الوليدِ؛
يطهُر المرءُ وهو يرعى رؤى اللّعن بثغر الحفيد قبل الحفيدِ.
لا أُطيق امتداحَ يفتاح من فيك، فدعني أمضي.

تخرج

المشهد الخامس

يفتاح، المجنونة

يفتاح

حنانَك ! ربّي،

أيَّ كاسٍ تذيقني، يوم نصري، من دمائي ومن حشاشة قلبي؟!

أنا كفّرت عن خطيئة آبائي بعمرٍ من الأسى والعذابِ،

واعتزلت الدُنيا اغتفاراً، وضحّيتُ هنائي، تقرّباً، وشبابي !

ونذرت الثَمين والسَّمحَ قربانَ ظهوري على العَديِّ، وثاري،

وتماديت أُنذر الغادة العذراء أُولى المغنّيات انتصاري،

وإذا أَلتقي جموع العذارى، تتراءى راحيلُ نصبَ جفوني ؛

وأُشيح الأنظار عنها فألقى، ما تلفَّتُّ، وجهها يلتقيني ؛

وسأقضي، يا ربِّ، بعدُ على بنتي، فيا ربِّ، هل كفتك المنيّهْ؟!

المجنونة

تكون قد تركت مكانها والتقت يفتاح وجهاً لوجه

وَيلكَ، يفتاح، ما يُراود عينيك ؟

يفتاح

هارباً

دعيني، نذرتُ بنتي ضحيَّهْ !

المشهد السادس

المجنونة، ثم راحيل

المجنونة

أيّ نَذْرٍ يفتاح، لا شرعةُ الله رأته، ولا بَلاءُ السِنين !
أنا مجنونةٌ، وأنتَ على رشدٍ ! فخذْ من فمي رشادَ الجنونِ.

تدخل راحيل فترتمي المجنونة دونها ضارعة

أُهجري، بنتِ، مضربَ الظافر الدامي، وخلّي مطارفَ الأُرجوانِ،
وتعالَي إلى حياةِ البراري، فهي أبهى من بهجة الصَولجانِ

راحيل

متذكّرة الحلم

صوتُ حلمي !

المجنونة

تعجّلي، فهناءُ العمر مرمى فراشةٍ من سراجِ !

راحيل

تعود إلى نفسها وكأنّما تهزأ من المجنونة

أهجرُ البيت مثل مجنونة ؟

المجنونة

لا، مثل مَن يتّقي جنون التّاجِ !

أسرعي، بنتِ.

راحيل

فيَ حنانكِ شيءٌ من أبي في تعطُّفٍ وتَمنٍّ.

المجنونة

في تمنّيهِ ؟ في تعطّفهِ ؟ لا.

راحيل

بعجب

أَنتِ تأبَينَ ؟

المجنونة

بحسرة واعتزاز

كلُّ ما فيه منّي.

راحيل

بقلق

من تكونين ؟ يا عجوز ؟

المجنونة

دعيني واهربي قبلما يفوتَ الأوانُ.

راحيل

وقد تزايد قلقُها

أَنبئيني من أنت أتبعْكِ.

المجنونة

خلّيني وشأني فكل ما بي هوانُ !

راحيل

تهزُّها فاقدة الصَّبر

هل تقولين ؟

المجنونة

لم أَعد في جنوني فأَزيدَ الضَّنى بقلبٍ حزينٍ ،

أُهربي.

راحيل

إن كشفتِ سرَّكِ .

المجنونة

لا ! لا !

راحيل

لِمَ تأْبَين ؟

المجنونة

لم أعُدْ في جنوني.

ترى يفتاح مقبلاً

قَرُبَ السَّيفُ، فاتَّقي السَّيفَ، راحيل !

راحيل

بحيرة

أبـــي !

المشهد السابع

المجنونة، يفتاح

يفتاح

يكون قد رأى أمّه وبنته معاً

مَنْ أرى ؟ خباءَك، بنتي.

المجنونة

وقد حوّلت تضرُّعاتها إلى يفتاح بعد أن خرجت راحيل

رحمةً بالجمال، بالرَّونق الضّاحي، بزهر بِكْر الجمال ونبتٍ !

رحمةً بالشَّباب ! ...

يفتاح

مَن قال ؟! ...

المجنونة

يفتاح ...

يفتاح

إلهي ! أتسمعَ آسميَ داري ؟!

إخفِضي الصَّوتَ.

المجنونة

عَفوَ نصرِكَ، يَفْتَاحُ ..

يفتاح

آخفضي الصّوت عن نسيمٍ سارِ

كلُّ شيءٍ في دار راحيلَ كِبْرٌ، في ثراها، في المنحنى، في التُّلولِ،

إخفضي الصَّوت يُجفِلُ المربع الذاكي براحيلَ، أو هوى راحيلِ.

المشهد الثامن

يفتاح، المجنونة، راحيل

راحيل

يكون قد تقدَّمها جلبة من الداخل

والدي، والدي، أُناتَك بالنَّذر، ورُحماك بالعذارى الحِسانِ !

يفتاح

سمِعتْنا ؟!

راحيل

رحماكَ، جلعادُ.

يفتاح

وحده

جلعادُ ؟

لراحيل

اطلبي، إن أردتِه، صولجاني.

راحيل

صولجانٌ؟! أبي، بجلعادَ أبكارٌ حسانٌ نذرتَ منهنّ بكرا، أعْفُ عنها.

يفتاح

ربّـــي !

راحيل

وأبكار جلعادَ مروج الربيع نَوراً وزهرا،
فتصوّرْ منهنَّ مغناجَ خصرٍ تتلوّى على لظى النِيرانِ،
يلفَح الوهجُ جبهةً من محيّاها، وثغراً لم تَلقَهُ شفتانِ؛
ويحرُّ اللهيبُ زرقةَ عينيها، فتُغضي عن عالَمٍ في آنهيار؛
ويغيم الخدّان عن سَحَر رحْبٍ تراءى عرض اللظى والشّرار؛
ويهيج الصّدرُ المهدَّمُ أشلاءَ الأماني ملويَّةَ الأعناقِ،

مثلُ دنيا تموت، مثلُ خيالٍ يمّحي عن معالم الأحداقِ؛
فالعصورُ الطَهورُ يركضنَ إعراضاً عن الكون ضاق بالإثم صدرا.
ويغيضُ الضِياءُ عمداً، ويَبكي الزَهرُ ...

يفتاح

بنفاد صبر، وقد تصوَّر بنته نفسها على المحرقة بهذا الشكل الذي تصفه هي دون أن تعلم

راحيل، يا ربيعي الأغرَّا،
يا نشيدَ الأضواءِ، يا زُرقةَ الحُلمِ، فداكِ السَّنى بسيف أبيكِ،
وفداكِ النصرُ المجلجل في الدُّنيا، ورجعُ الصَلاةِ والتَبريكِ؛
أنتِ نَذري !

المجنونة

يفتاح !

يفتاح

أمّـــي !

راحيل

باستفهام، فحسرة، بعد أن تنقل طرفها من يفتاح إلى المجنونة فتفهم كلّ شيء

تُـرى ؟! ...

المجنونة

يفتاح، رُدَّ الظلامَ فوق الظَلام ِ،
واطْوِ من نصرك البرودَ السنيّاتِ، وزفَّ الدُنيا سيوفاً دوامي،
واملإِ الأرض والمعالم شرًّا، وابعث الرِيح بين جَهشٍ وجَرح ِ،
وتحدَّ العُلى، ولا تغمس ِ الكفَّ وتنهدَّ في دم ٍ منك سَمح ِ!

تمضي مولولة

راحيل

والدي، ما شجا فؤاديَ، عند الموت، غيرُ النِداءِ: «يا يفتاحُ»

لنفسها

يا مُنايَ البيضاء، كيف تموتين ويبقى هوًى ويبقى صباحُ؟!
أَعشِقتِ الخريف، والكون صحوٌ عَلويٌّ، والرِيحُ عِطرٌ خَفوقُ،
أم تصبّاك نثرُ عقدك في النور، فيبكي غِوى صباك الشُروقُ،
وإذا في الأثير، منك ِ جنازاتٌ، وغصّاتُ آهةٍ وجراحُ!

اغانٍ من الداخل بعيدة :

رجّعي، يا رياحْ،
هينمات الهناءْ،
وافتحي باب السّماءْ
للعذارى الملاحْ !

راحيل

العذارى يُنشدن، والأَكَم الخضراء تزهو بهنَّ، والأدواحُ،
والأماني بيضٌ على قُبب «الكرمل» والسَهل هازجٌ بالعذارى،
وأنا ألتقي الحياةَ سواداً، وجلالَ الحياةِ دمعاً وعارا!
والدي، أعطِني، حنانَك، شهرين أُناجي، مداهما، آمالي ...

يفتاح

لكِ ما شئتِهِ !

راحيل

مستطردة

وأقطِفُ عمري زهراتٍ بيضاً كَوجهِ خيالي !

ستار

الجملة

الطبعة الاولى ١٩٢٧

الطبعة الثالثة مصححة ١٩٩١

إلى Q.A.

في الشِّعْر

أيّنا[1]، في حبّه الأوّل ـــ ما اتفق له أن ردّد بين يدَي حسنائه : « هل عند الوردة، يا حبيبتي، خبرٌ عن عطرها ؟ هل تَعِي الوردةُ أنّها الطريفةُ ذات الشَّذا المُسكر ؟ »

المرأة من جمالها كالوردة من أريجها ؟ لربّما بتقريب كهذا نكون قلنا ما ماهيّةُ وَعْيٍ من ماهيّة لاوعي.

الوردة لا تدرك أنّها الوردة. وهو، على ما يقول العاشق، موقفُ الحسناء من حسنها.

---

١) الشّعراء والعلماء، الذين استلهمت وإليهم استندت في دعم هذه الخواطر، أكثر من أن يذكروا.

روح مناجاتِهِ اذن أنَّ فتاته لو درت ما جمالُها لشاركتِ الناس عبادةَ نفسها !..

بَيْدَ أنَّ الوردة هي، على الحقيقة، غير واعية. أمّا المرأة فشأنها آخر : جمالُها، بعضُ صفاتها، سرّ وجودها، كلُّ ذلك قد يفوت منها قوى الوعي، ولكن يستحيل أن يفوت قوى اللاوعي.

اللاوعي في الإنسان طاقةٌ ولا كأحدّ الوعي.

لا يستغرب هذا سوى اللامتمرّس بأشياء العقل. أمّا مَن كتب أو خطب أو تحدّث، ولو مرّة، حديثاً أخّاذاً فلا يجهلها حقيقةً راهنة. إنّنا، على قول شارل بالي، إذ نتكلّم فإنّما نتكلّم بشكل لاواعٍ، لا نُفكّر بألوف التصوّرات يسلسلها فكرنا في كل جملة نباشر : بشكل لاواعٍ ننتقي الألفاظ التي هي أقرب إلى الفهم أو أفعل في الذهن، بشكل لاواعٍ ننحت لنا أحياناً صِيَغاً جديدة ما كانت يوماً في اللغة وما ندري أي أصول مكتنفة بالسرّ راحت توحيها إلينا في تلك الهنيهة، بل بشكل لاواعٍ يتمّ أخيراً عملُ الفاهم. وبقدر ما تكون فكرتنا لاواعية تكون أسرع إلى فقهه وتكون أدقّ وأعمق. وعلى

العكس، بقدر ما تغدو فكرتنا مدروسة تحليليّة تغدو متعثّرة دون فهم الفاهمين. وشُدَّ ما نرى لفظة أفلتت منّا إفلاتاً، أو كان تلفّظُنا بها سببَ دهشتنا نحن، تَلِج أفهامَ السّوى بسهولة لا تعرفها جملةٌ منطقيّة واضحة. ويخيّل إليّ أنّ الفكرة اللاواعية وحدَها تستهوي الناس. وما من شكّ في أنّ اللاوعي أفعل وسائل التّفاهم.

وفي تحرّيات جول كومباريو أنّ الموسيقى، عند الموسيقيّ الحقّ، أوضح من الكلام. وما كان الكلام إلّا لِيَزيدها إبهاماً. وهو يزعم أنّنا إذ « نفكّر دونما مفهوم » فإنّما نفعل لا لنتخلّى عن الأشياء التي يمثّلها مفهومُها بل، بالعكس، لنستولي عليها بأقوى.

عجيبةٌ قوّةُ اللاوعي، سواءٌ في الكلام أو في الفهم. وإنها لكذلك حتّى في الأغراض التي تبدو أدعى إلى استخدام العقل.

أرى أنّ اللاوعي هو رأسُ حالات الشّعر. ورأسُ حالات النثر الوعي.

قبل إبداعي الشّعر، بل في ذروة إبداعي، لا أكون واعياً في ذاتي ولا واحداً من الأشياء الواضحة. والثابت

(ويمكن الاستناد في ذلك إلى العالم هنري بوانكاره) أنّ لا أثرَ فكريًّا ذا قيمة، رياضيًّا كان أم سياسيًّا، موسيقيًّا أم شعريًّا، تحقّق في الضَّوء.

أمّا كتابتي النثر فتكون نتيجةً لما عقلته سابقاً، نتيجةً لما استنجدته من فكر وتصوّر وعاطفة، تمّ بتمام وعي أظهرته للناس متوسّلاً اللغة.

النثر فِكَر، والفكرة نَعِيها، وهو صور والصورة نَعيها، وهو عواطف والعاطفة نعيها. عناصر النثر جميعاً عناصر وعي. النثر في طبيعته وعي بوعي. أمّا الشّعر فلا.

الشاعر في ذروة إبداعه لا تخامره أفكارٌ، صور أو عواطف، وهو إن خامره شيء منها أفسد عليه العمل. عناصر الوعي (ولم أستثن العاطفة، صنمَ النظّامين الأفذاذ...) لا تلعب في الشّعر أيَّ دور.

لأواجه، ولو لماماً، منشأ النثر.

* * *

لا مَناصَ من الإقرار بأنّ الوعي هو نثر اللاوعي. فالفكرة إذن، شأن الصُّورة والعاطفة، نثر الحالة الشعريّة، تعبيرٌ عنها، باهِت مخفّف، يدنيها من أذهان الذوّاقة المحدود.

نتناول مجلّة ونقرأ :

... أحبّكِ منكسِرَ الطرف، خوف
انفلاتكِ من نظرٍ طامعٍ،

وأمسحُ من عَبرتي في الخَفاء
فلا تقعين على دامع.

وثغركِ لي فُلّة الفُلّ باتتْ
يتيمةَ ذاك الشّذا الماتع،

فذِكْرُ الربيع على سمعها
حرامٌ وذكرُ الهوى الرّاجع !

ونقلب الصفحة فإذا الشرح...

وما الفرق ؟ الأبيات غمرتنا بحالة سِرّيّة الماهيّة، لكنّها تركتنا غيرَ ما كنّا وفوق ما كنّا، ردّتنا أكثرَ تآلفاً مع حقائق في الكون تَثْبته، أمّا شرحها فلم يَزدْنا إلّا معرفة بها، أعطانا علماً بحالة الشاعر، لم يعطِنا الحالة.

الشعر ؟ إنّه لِسَراة العقل، لِطبقةٍ مصطفاة، باستطاعتها التذوّق. أمّا النثر فللتلامذة ــ وقد يكونون خارج المدارس...

الفرق بين الشِّعر والنّثر ؟ إنّه لكالفرق بين سَماع المعزوفة وقراءتها.

* * *

ما تُرى، يحدو بي حيناً إلى كتابة النَثر وآخرَ إلى إطلاع الشِّعر ؟

إنْ أنا باشرتُ العمل وكانت تهدر فيّ أشياء بوسع قوى النفس أن تصل إليها، إن كانت لي أفكار وصور وعواطف، وجدتُني تلقائياً أملأ الصَفحةَ تلو الصفحة نثراً. أمّا إن كان في داخلي ما هو فوق طاقة تلك القوى، إن كانت نفسي ذاتُها في حالة فوق الوصف، خالصة، لا تَشوبها فكرة أو صورة أو عاطفة، حالة تُمكّن ذاتَها من وعي ذاتها أعمقَ وأغنى، فأروح تلقائيًّا أُكوكب بياض أوراقي بالشّعر.

الشّعر من لاوعي والنَثر من وعي.

* * *

سؤال : ما يفرّق الشّعر عن سائر الفنون ؟

قبل التعبير عنه، أي عندما يكون لا يزال في ذات

الخلّاق لم يمتزج بعدُ بوسائل التَعبير، يمكن الشِعر وحدَه، أن يشمَل الموسيقى، التَصوير، الرَقص، العَمارة، وما إليها من جمال وراءَه يدُ إنسان. قبل التعبير : حالة من اللاوعي واحدة، لا تتبدّل إلاّ إذا اتّخذت شكلاً. تكون الموسيقى إذ نستخدم في إظهار الشعر نغماً، والعَمارة إذ نستعمل رصْف حجارة، والرَقص إذ نتوسّل إعماراً بجسم بشريّ هذه المرّة.

الفنون ؟ لا فنون قبل التعبير.

* * *

أحاول التَغلغل إلى جوهر الشِعر، إلى مادّته إن استجزْت الكلمة.

فيما أنا أبدع أكون لاواعياً، فما أقدر إذن أن أعترف بما جرى لي. سوى أنّ نظرة على حالتي قبل الإبداع وبعده قد ترسل ضوءًا على السّرّ.

« قبل » الإبداع و « بعدَ »ه ؟ ولكن متى تكون فترة الإبداع، وإلى كم تطول ؟ هل تبدأ من أوّل كلمة من مطلع القصيدة ولا تنتهي إلاّ برويّ الختام ؟ لا، وفترة

العطاء الجَلَل، فترة اللاوعي هذه، نادراً ما تطول إلى أكثَر من أبيات. سريعة العطَب هي، تعمّر، في غالب ما تعمّر، مدى بيت أو فلذةً من بيت.

إنها كالحالات النفسيّة الخالصة تكاد لا تكون حتّى تقطِّعها فكرة، صورة، عاطفة. فإذا الشّاعر (ومن هنا عناصر النَّثر في القصيدة، كلّ قصيدة) وجهاً لوجه أمام الوعي. الملهَم يواصل تحويراً وتبديلاً، ولربّما يستأنف استئنافاً، حتى يجد اللَّقِيَة، أيْ حتّى يعود إلى فترة من اللاوعي جديدة، أمّا النظّام فيمضي في عمله غير آبِه. فإذا هو ينظِم النَّثر.

« قبل » الإبداع و « بعدُ »هُ يعنيان إذن شاطئيْ تلك الفترة السَعيدة من لاوعي النَفس، التي لا تعمّر سوى هُنيهات.

قبل الإبداع يسيطر عليّ ما أُسمّيه نغم القصيدة. وبقدْر ما يكون عِليًّا عظيماً أُطلع ما هو أكثر خلوصاً. ولم يتّفق لي أن انثنيت عن العمل البهيّ إلاّ أوان أفقد النغم، أي أوانّ تأخذ تطغَى عليّ أفكار وصور وعواطف. وبعد الإبداع (وكذلك شأني بعد التذوّق) أُحسّ الكون أكثر

تآلفاً معي منه في المعتاد. فأرجّح أنني كنت، في أثناء الحالة الشّعريّة، على تآخٍ مع الكون، على مواجهةٍ للأزليّ من الحقائق التي كنت أجهل.

قبل الإبداع سلطنةُ نغم وبعده أثَرُ تآخٍ مع الكون ؟ هل يعني هذا أنَّ الشِعر مادّته الموسيقى ؟ لربّما. وسلطنة النغم قاعدة لا تُخطئ. والعلم يعلّم أنَّ الإتّحاد بالكون لا يتمّ إلّا بالتموّج. ونحن نعرف أنّ أوثق ما يرتبط بالنَفس أشياء موسيقيّة ومظهرها الطبيعيّ الغناء. وقد ثَبَتَ أنّه من الرَملة إلى الكوكب، من أدقّ الخلايا إلى أبعد جنبات الكون، إنّما يقوم ارتجاف دائم، تموّجات دائمة. وباكراً، منذ القرن الخامسَ عشرَ، قال العلاّمة ده كوزا : « ان النَفس لحن ».

أتكون، يا تُرى، مادّة الشِّعر تموّجاً ؟ أتكون موسيقى ؟

وبعدُ، لعلّي لا أبعد عن الحقيقة كثيراً إن قلت : الشِّعر حالة من لاوعي فوق الوصف لا تُشرح، جوهرها أشبه بموسيقى، بها يتّحد الشاعر حميماً مع الأزليّ من حقائق هذا الكون المَهيب.

* * *

الحالة الشِّعريّة، كيف أنقلها منّي إلى المتذوّق ؟

قلت أنقل ولم أقل أعبّر أو أترجم أو أصوّر أو أمثّل أو أُدني أو أعكس أو أنبئ أو أنشر، إذ الشيء لا يمكن غيرَه أن يكونه.

من التّحديد أُذكّر بأمرَين : الشّعر من لاوعي، وجوهرُهُ أشبهُ بموسيقى. نقل الشِعر إذن يقتضيني تعطيلَ الوعي في القارئ وأن أخلقَ فيه جوهراً أشبه بالموسيقى وأخلقه على شاكلته بالذّات.

أوّلاً : كيف أعطّل الوعي ؟

أقول : غداً، لمَحض ما أن يواجه القارئ قصيدتي، سيكونُ قد هيّأ لها وعيَه، عاد بأجمعه وعياً بوعي : عقلاً، تخيُّلاً، حِسًّا. سيكون على تمام أُهْبة إذن لأن يأخذ من الحالة الشِعريّة ما يقع على السطحيّ من قوى النَفس، لأن يأخذ منها مظهرها الأحطّ، نثريّتها بالذّات، لأن يحوّل لاوعيَها إلى وعي، لأن يخرجها عن طبيعتها، لأن يقتلها. إذن فلأُعطّلْ فيه الوعي. كيف ؟ بأن أشغّل منه الوعيَ، ظاهرةَ الفضوليّةِ فيه. الوعي يطلب أبداً أن ينشّط، أن يعي ؟ فلأعطِه حقلاً يُعمل فيه نشاطه، ولكن حقلاً مُركّباً

(ويقول البرّانيون : صعباً) بحيث يجهد، ويجهد حتّى يتعب، وأخيراً يكِلّ.

هذا الحقل عرفه النّظريّون المحدثون باسم « الإيحاء ». أمّا بحثّهم الإيحاء فلم يخلُ من سذاجة. قالوا معَ ملَرمه : الأشياء قِيلَت ألف مرّة : يكفي أن نومئ إليها إيماء، نُتمتم بعض الكلمات، ليروح السامع يكتشفها من ذاته ونكون لم نضيّع عليه لذّة الاكتشاف. وقالوا مع غير واحد : إن القارئ إذ يكتشف يحسّ أنّه شارك الشاعر في خلق الحالة الشعريّة، يحسّ أنه هو أيضاً مبدع.

على أنّ الإيحاء، حقلنا المركّب العجيب، ينفضح سرّه إن هو دُرس في مظهره « التعدّدية ».

« التعدّدية »، في الموسيقى مثلاً، (وهي ذروة أنواع الموسيقى) هي أن تضرِب في الوقت الواحد أصواتاً مختلفة. فإذا الوعي، ولا صوتَ واحداً يرتاح إليه، أي يعيه، يحاول أن يقبِض على الأصوات المتعدّدة مجتمعة، فيجهد نفسه، لكنَّه (وهو الضعيف الضعيف ولسطحيّته ذو خاصّة تتطلّب الواضح والمفرد) عبثاً يجهد، فإذا به يتعب ولا يلبث أن يقع دون المَحجّة، وهكذا يترك الأصوات المتعدّدة

تخاطب اللاوعي، وهي التي إنّما وُجدت له ولها وُجد.

ألجأ إلى الإيحاء؟ أو، بلغة الموسيقى، إلى « التّعدّدية » ؟ أوَليس إلى هنا مرَدّ أقوال برغسون : « غرض الفنّ أن ينوّم القوى العاملة، أو بالأحرى الصامدة، من شخصيّتنا، ويذهب بنا هكذا إلى حالة انقياد تامّ... » ؟

هو العمل السَلبيّ لـ « التعدّديّة ». أمّا عملها الإيجابيّ فلعلّي أتبيّنه عندما أُفاجئني أخلق جوهر الحالة الشِعريّة.

ثانياً : كيف أخلق في القارئ جوهر الحالة الشعريّة وأخلقه على شاكلته بالذات ؟

الألفاظ، عناصر الشعر المادّيّة، ليست علاماتٍ محضَ اصطلاحيّة. اللغة لم يوجدها فرد ولا مجلس أفراد، فيصطلحها اصطلاحاً. اللغة بنت التّفاهم البدائيّ. هذا كان بين الناس، شأنه اليوم بين البكم غير الصُمّ، أصواتاً، لأنّها جوهر المعبَّر عنه. فإذا يكون طور الكلام تعود اللفظةُ مجموعةَ أصوات أكثرَ تساوياً في الجوهر وشكلِ الجوهر مع الشَيء المقصودِ إظهارُه.

هو سِرّ تكوين اللغة لا أزْيَد. وهو المبدأ الذي ينبغي أن يظلّ عليه الكلام.

ولكن إذا تكون الكتابة، وتُغرق اللغة في الاصطلاح، (وهو إنّما يستدعي التدخّل العقليّ، الذَاكرة على الأخصّ) وتخرج الألفاظ عن هذا التّساوي في الجوهر وشكل الجوهر مع المقصود إظهارُه، تعود مَهمّة الفنّ أن ينتقي ويرتّب بحيث يوجد تركيباً كلاميًّا، وقُل موسيقيًّا، فيه من الأصوات، تَمازجِها أو التَنادي، تجهيرِها أو التَخفيت، مقتضَبِها أو المنبسط، إلى لعبٍ ولَفٍّ، ممّا يؤلّف صِيَغاً صوتيّة تعيد بين الكلام والمقصود إظهاره رابطةً فيزيولوجيّة سبق للتدخّل العقلي أن فصَمها. وبقدْر ما يُوفّق الفنّ إلى ذلك تكون درجةُ الخُلوص في الشّعر.

تَساوي الصّيغ الكلاميّة والحالةَ الشعريّة جوهراً يقتضي أن تكون الصّيغُ الكلاميّة من تموّجات هي نفسها مكوّنة الحالة الشعريّة. والتّساوي شكلَ جوهر يقضي أن تكون الصّيَغ الكلاميّة من تموّجات هي نفسها تكوّن الحالة الشعريّة. والتساوي شكلَ جوهر يقضي بأنّه إن كانت التموّجات التي تكوّن الحالة الشعريّة على شكل لولبيّ مثلاً أو خط مستقيم او ما إليه وجب أن تكون كذلك التموّجاتُ التي تتألّف منها الصِيَغ الكلاميّة.

يطيب لي أحياناً أن أتناول الأصل والتّرجمة لقصيدة

ذات ترجمة عبقريّة. (أقول الترجمة غير ناسٍ ما يزعمون من أنّ الشعر لا يترجم. وإنّه لكذلك إن كان المقصود أن تحصُل على مساواة في المعاني بين أصل وترجمة. ولكن الشّعر أكيداً يترجم إن كان المقصود مساواةَ الحالة الشعريّة يُطلعها الأصل بالحالة نفسها تُطلعها الترّجمة). وأختبر وقْعَ الصّيغتين على مَن يجهل لُغَتَيِ الأصل والترجمة فألحظه يستشعر، دوماً على وجه التقريب، الحالة الواحدة : ففي اللغتين يَسمع الحلق يعمل إن كانت الحالة الشّعريّة متمظهرة الجوهر بأصوات مختنقة، وفي اللغتين يتحسّس الأبيات عصبيّة أو متطايرة إن كانت الحالة متجليّةَ الجوهر بأنفاس مقتضبةٍ أو وثّابة. فأوقن أنّ أبيات التّرجمة لم تتمكن من نقل الحالة الشعريّة بالذات إلاّ بعد أن ساوت أبيات الأصل جوهراً وشكلَ جوهر، وأبياتُ التّرجمة يستحيل أن تكون قد نقلت حالة الشاعر لو لم تساوِها جوهراً وشكلَ جوهر. وبديهي أنّ شيئاً يساويه أحدُ شيئين متساويين هو مساوٍ ثانيهما.

وبعدُ فالقصيدة، أداةُ نقل الحالة الشعريّة، أحدّها هكذا : مأثورة كلاميّة توصّلت بتجاربَ موصولة — وقل بِلَقِيّات — إلى فِلَذ، إلى أبيات، إلى مجموع إيحائيّ يعطّل بتعدّدية

الأصوات وعيَ المتذوّق ويتكوّن في لاوعيه بأكثر َما يمكن من مساواة لحالة الشّاعر جوهراً وشكلَ جوهر.

* * *

هذا عن الشّعر كفنّ، أي كواحد من مظاهر الجمال. أمّا الشِعر في أغراضه والتفصيل فيها فمسألة أخرى. ولربّما أمكنت إزاحة طرف من ستارها بالقول : إنّ الجمال الذي يخلعه الشعر، سواءٌ على الشاعر أو على المتذوّق، إنّما قِوامه هدوءٌ خالص لا تتلاطم فيه فِكَر وصور وعواطف، هدوء يجعل النّفس، ولا شيء يفّجأها أو يعكّر صفاءها، منطويةً على ذاتها، أعماقُها على أعماقها، حتى لَتغدو أكثر تآلفاً مع حقّائق الكون، بل تغدو وحقائقَ الكون شيئاً واحداً، فإذا هي فوق هذا العالم بآلامه ونقائصه، لا تصطدم عمياءَ بأيّ نظام تجهل.

الجدلية

ـــ ربّ ربٌّ ، أما كان يمكن..؟
ـــ قل : لو تنفلتون من الأوهام
التي نسجْتم، فتروا ان للجمال
منطقاً معصوما.

نغمةٌ آذنتْ وصحوٌ أضاءَ
في محيّاً
هَيْهانَ من نَعماءَ.

تتراءى فيه الأمانيُّ
زرقاءَ،
وتَفنى
عِبْرَ الرُؤى
بيضاءَ.

نزهةٌ للعيون
تَغوى به
وَهْماً
وتَنْهَدّ دونه إعياءَ.

وتعرّى خدّانِ عن شفقٍ رَحْبٍ بَهِيّ السّنى، نَقِيّ التّناجيْ،

في مدى سجعة اليمامِ
تَتاليه المُغالي،
وفي مدى الابتهاج.

أيُّ بوحٍ
من عاشقٍ
لم يرجّعه،
وأيّ ارتعاشةٍ واختلاجِ !

مِثلُ وَحْيٍ مُجَنّحٍ
مَرّغَ الريشَ
غَنُوجاً،
في ناظرينٍ،
حَيِيّاً،

ساكباً فيهما من الليلة القمراءِ
أو تاركاً
من الريشِ
شَيّا.

لا رُكوناً إلى سكونٍ، ولا حُلْماً بحُبٍّ، ولا انتهاكاً لِسرٍّ،

غيرُ ظلٍّ
من لفتةٍ
حُلوةِ الإفضاء
رفّت عليهما، بعضَ دَهرِ.

واستلانَ الضِّياءُ
ضِحكةَ ثَغرٍ،
غافياً، مِلْئَها، عليلَ الأماني،

شائعاً حولَه، من الوهْم،

ألوانٌ
خِفافٌ
يَغِبنَ في ألوانِ.

سَفَحَ اللهُ، غِبَّ نشوتهِ، قارورةَ الحُسن في صحاري البريّه !

فإذا في الرّبى
اعتراشُ الدَوالي
ووراءَ الرِمال
رَجْعُ الأغاني،

وإذا للحياة أُمنيّةُ الحُبّ،
وللأرض

مريمُ المَجدليه.

*

رأت النُورَ، عَهْدَ لا يتعبُ النورُ،
وعَهْدَ الدُنيا له، والعصرُ،

وتلوّتْ
في مهدها،
فكرةً بيضاءَ
مخضوبةً بوهج ولَذّه،

تملأُ الجوّ
من أصابعها العشْرِ،
فملهى الضُحى
أصابعُ عَشْرُ !

طفلةٌ واللمى يَهُمّ بأنْ يُعطاكَ
والقلبُ
فِلذةٌ إثْرَ فِلذهْ..

غَدُها
كان قَبْلَها ،
لا انطوى خصْرٌ
بأشهى
ولا تلألأ ثَغْرُ !

رأت المَجدليّةُ الضَوءَ
أَسيانَ،
فأُجْرته
في الرُّبى
أنهارا،

والمُروجَ الفتيانَ،
ذَبلَى كهولاً،
فجنتْها أَعِزّةً أزرارا.

قَطَفَتْ بُحّةَ الحبيبِ
نشيداً،
واستردّتْ آهاتِها
أشعارا.

فإذا الحُبُّ،
ذِلّةُ الناس في الظُلمة،
يَنْدَى
في مَفرِق الصُبْح،
غارا.

هَدّمت كلَّ وردَةٍ منتقاةٍ
وابتنتْ
عرشَها
على الأنقاضِ،

تَخِذتْها قواعداً
وتخطّتْ،
ليس تَرضى بما بِهِ الظَنُّ راضِ !

يَطْهُرُ الطَّرْفُ، إن رآها على نَيّرُ عِهْرِ مُخضَّبٍ ببياضِ.

*

عرف الناسُ نشوةَ الحُبِّ في نديان جسمٍ مُخضوضِرِ اللذّاتِ.

مَرّغوا في أريجِهِ الجبهةَ البيضاء،

واستوقفوا الهنيهَةَ

بِكرا،

واستلذّوا

نبضَ الأسرّةِ

وانهدّوا

هُيامى

على جنى الطيّباتِ،

عانقوا الحُلْمَ

إضحِياناً

تعرّى

عن رَبيعٍ مُوهٍ، وأُفْقٍ أمَرّا،

وتغنّوا
مع الجَمال،
وهزّوا
لذّةَ الوصل في سرير الحياةِ.

من صِبا المَجدليّة اقتصفُوا العُودَ،
ومن رَنّ كأسها، النّغماتِ!

*

خَفقَ اسمٌ
في جَوّ أورَشَليمٍ
خفْقَةَ العِطر في جِواء الرّبيعِ.

وتغنّى الحادي بحسناءَ، حُلْمِ الأرض مُدّت له، ففرّ، يداها.

سُجَّدٌ دونها الأعِزّةُ من روما،
ومن رحبِ فتحها،
ومُناها.

دُميةٌ
أشرقتْ
على سُرُرِ الرِفعةِ،
بين العُبدان، بين الشُّموعِ.

سَعَفُ الغار دونها في انكسارٍ،
وسَنى التّاج
مُطرق
في ركوعٍ

قدّستها العروشُ
قدّسها الناسُ،
وداست على قلوب الجميعِ.

*

كان، في ذلكَ الزمان،
على تلٍّ صغيرٍ
مُخضوضِرِ الجَنَبات،
مُبدعٌ
قالتِ الجديدَ
يَداهُ،

ينثرُ الياسمينَ
في الكلماتِ،
قام بين الأمواجِ،
من نَظَرِ الناس
ومن مِسمعَ الذُّرى الواجماتِ.

يُفعِمُ النَّبرةَ التفاتاً
إلى فوقُ،
ويُبقي
على البقاء
صداهُ.

تمتماتٌ
تقولُ آناً : يسوعٌ،
هينماتٌ
آنا تِضجّ : اللهُ.

*

سمعتْ زهرةُ اللذائذِ أنّ الكونَ بالناشقِ الأبيّ تَمخّضْ،

بفتى الطُهر، يَنشُد الوردَ
صعباً،
طيّبَ الفَوْحِ،
طيّبَ البَوحِ،
أبيضْ.

واستزادت، والعين تبسِمُ من هُزءٍ ودَلٌّ القَوام في
إغراقٍ،

وانثنتْ
جبهةً خَجولاً،
ولحظاً
تائهاً في سرائرِ الآفاقِ.

أهْوَ همُّ الهُمومِ
جارَ
على خدّين،
حتّى لَفي الهدوء اصطدامُ،

أم جمالُ الوجود
جُمِّع في ثغرٍ
وألوى،
فكُلُّ حُسنٍ حُطامُ؟!

رَعشَاتٌ حَرّتْ أساريرَها البِيضَ
فهاجتْ في أُفقها الآمالا،

وامّحت
ثم آذنت بمَعادٍ،
فكأنْ مَرّق الخيالُ خيالا.

.. أيُّ جانٍ،
قالتْ،
تمنّعَ مُزّوّراً عن الرَوض، يوم هَلَّ جَناهُ ؟

أيُّ عينٍ حَرّى الشَكاةِ استطابتْ
هُدْبَ عينٍ
جفّتْ بها الأمواهُ ؟

أيُّ ثغرٍ
حَرّانَ
مات على ثغرٍ
رطيبٍ ما أشعلته الشِّفاهُ ؟!

وَوَهتْ زهرةُ اللّذائذِ في سِرٍّ يسوعٍ
تقول :
يومَ أراهُ..

عند شاطي الأردُنِّ،
بين الخَميلات،
تَلاقى
يسوعُ والمَجدليّهْ.

أبصرتْهُ
يُذرذرُ الشَّعرَ
فجراً
ويَرُدّ الأبرادَ
وَهْجَ عَشِيّهْ.

تَتّكي رحمةُ العُلى، بين جفنيه، اتّكاءَ السّنى بحِضن البرّيّهْ،

ويلوح السَّلامُ
في شفتيهِ
بسمةً
حلوةً
ونَبْراً
بَليلا.

يلتوي
نَقلةَ الطَّفالى
نَحيلاً،
ينثني
مِشيةَ الملوك
جليلا.

الرَّياحينُ مِنْ يديه تَهاوَتْ
واغتدتْ
حولَ خَطوِهِ
إكليلا،

سَربلتهُ أطيابُها، سَربلتْه سحبُ النور، سربلته الهَيولى.

ورآها،
يهدّمُ الحُبُّ جفنيَها، وَيَعتلّ من شَكاةٍ لَماها،

يُخضِلُ الأرضَ
مُتّكا قدمَيها، ويندّي الذّبولَ
فَيْءُ خُطاها.

خَلعَتْ طَرْفَها على الرَوضةِ الرّيّا،
عليلاً،
فأوجعتْ
رَيّاها.

لا عليها ولا لَها
غيرُ سِتْرِ الغيب،
تَذْريه
ثُمّ تَطوي،
يداها.

وأبانتْ
عمّا يُظَنّ كلاماً،
فتأنّى السُكونُ
والآنُ
تاها.

فجّرت في الفضاء سَلْسلة الحُلمِ، وأرختْ على الأديم
الصَفاءَ،

مِن أساريرِها اكتستْ عَطَفاتُ النَّهر
زَهواً،
وَميسَةُ البان
جاها.

فالأفانين في الضِفافِ
حِسانٌ
خالعاتٌ على القُدود الهناءَ.

سَفَحتْ من هُدوء وَجنتها الصَحوَ.
ومن عُمق شعرها
النَّعماءَ،

واستثارتْ
مِنْ رَفِّ أردانها.
جوّاً
ومن غُنْجِ قَدِّها،
أجواءَ.

تَنْقُلُ الرِّجلَ في التّراب
جَناحاً،
تَطَأُ الأرضَ
كالجَناح،
فضاءَ.

قطعةٌ في سرائرِ الغيب صِيغَتْ
عادت الأرضُ تحتويها
سماءَ.



هامَتِ الآنَ مريمٌ ويَسوعٌ،
في ظلالِ الأفنان
والأورادِ.

يشربان المساءَ
من جَعدةِ الأُردُنّ، من هبّةِ النّسيمِ النَادي.

فَتّقتْ
بسمةً،
وأشْرقَ
لحظاً،
والدُّجى لم يَفُضّ بعدُ وُجوهَهْ،

وتهادتْ
إليهِ،
فالأرضُ
في الرِّعشة
تلقى الجمالَ
قُرْبَ الأُلوهَهْ

سَلْسَلَ البدرُ نورهُ
مُخمليًّا
بين خُضر الخمائلِ الحالماتِ،

وَتَقضّى الظلامُ،
إلّا هَزِيعاً يتهادى كواكباً راقصاتِ،

هَينماتُ النّسيم، رَقرقةُ الأضواء
مَسفُوحةٌ
على الكائناتِ.

في صَفاءِ السّماء والأرض
طَرْفٌ
باسطُ الجَفْنِ للرُؤى العُلَويّهْ،

في وُجومِ السّماء والأرض،
إرهافٌ
لنجوى المسيح
والمَجدليّه:

« يا ربيبَ الخيال،
يا أُفُقَ الفكْرِ،
فَداكَ البياضُ من حَرمونِ!

وحَنَتْ فوقَكَ الضُلوعُ العذارى
وابتسامُ اللّمى
ونُورُ العيونِ!

يا أساريرَ مُنيةٍ عَزّ لُقياها،
فأطلعتَها
ندىً
وسناءَ

ضاحكتكَ الأنسامُ في هَدأةِ الفجْرِ
وَبثّتكَ
رُوحَها البيضاءَ !

يا اندفاعَ الأحلام
في بال عذراءَ
ويا بسمَةً
على ثغر أُمٍّ،

عانقتكَ الأفكارُ
في غفوة الصُّبح
وروّتْكَ بين لَثمٍ وضمٍّ ! »

باحتِ المَجدليّةُ الآن أم ضَلّتْ ؟
وغابتْ،
مجنونةً،
في الخيالِ !؟

حدّثتْ مُبدعَ الجَمالِ، إلهَ الحبِّ،
بالحبّ، طيّباً،
والجَمالِ !

ودَعتهُ
إلى التّمتّع بالأيّام
قبل الخريفِ، قبل الزّوالِ !

علّلتهُ
بأن تُهزْهزَهُ في الحِضن،
آناً،
ومرّةً في الجفونِ،

إن تُرنِّمْ
يُعانقِ السِرَّ
في الصَّوت،
ويشَربْ — إن تَغْفُ —
رَجْعَ السُكونِ،

وإذا جاذبتْهُ حُلماً بِبَدّلِ الأرض أُخرى
قالت :
« سَبَقتُ ظنوني ! »

صارحتهُ بالحبِّ،
والكونُ ساهٍ
لا يَعي
والزّمانُ
لا يَتوالى،

فإذا الرَدّ من يسوعَ
جفونٌ
تتسامى
وجَبهةٌ
تَتعالى.

ـــ لا ! حَنانَيك، لا تَقُلْ : « لا »
ففي ذُلّيَ جُوعٌ إليكَ دُمِرّ حالا.

لا
وفي اللاءِ منكَ ما يجعلُ الدهرَ
أراجيفَ،
والوجودَ
سُؤالا !

وارتمت زهرةُ اللذائذِ
هَيمى
عندَ رجلَيْ يسوعَ
حَرّى المآلِ

تسألُ الحُبّ،
إنْ غراماً
وإنْ قُدْساً،
وكفّانِ
مُدّتا بِنَوالِ،

تلثِمُ التُربَ،
توبةً،
ويسوعٌ
يتوارى
في جُهْمةِ الأدغالِ.

لَملمتْ
لحظَها
فلم تلقَ إلّا
نَثْرَ آمالها على الآمالِ،

وامّحتْ،
ذِلّةَ الحياءِ،
فلم تَنعَم
بمرآه
والدُّموعُ لآلي !

*

ودموعُ المسيحِ
لم تَسْقِ مِن خدّيه
حتّى غدت
جَناحَ ملاكٍ،

هامَ في الأرض
إثرَ مريَمَ،
يحنو
من أضاليلها
على أشواكٍ.

فإذا يلتقي بِها،
ذاتَ يوم،
تَسحبُ الذُلّ
وَسْطَ غُلْفِ الجِباهِ،

وشفاهٌ تصيح :
« وَيْها ! ألا ارجُمْها »،
وحكمٌ يَهُمّ
عِبْرَ الشّفاهِ،

يَرتمي
ذلك الجناحُ
عليها
فيَراها الإلهُ
ظِلَّ إلهِ !

قدموس

الطبعة الأولى ١٩٤٤
الطبعة الرابعة ١٩٩١

قَدْمُوس

مَأْسَاة شِعْرِيَّة من ثلاثة فصول

« سوف نبقى، يشاء أم لا يشاء الغير

فاصمد، لبنان، ما بك وهنُ

سوف نبقى، لا بد في الأرض من حق

وما من حق ولم نبقَ نحن ».



لما اختطف زوش، كبير الآلهة، أورُبّ، بنت ملك صيدون، لحق بهما قدموس إلى بلاد الأغارقة يسترد أخته.

وفي البيوسى قتل تنيناً كان قد فتك باثنين من رجاله، وبأمر إلهة الحكمة بذر أضراسه في الأرض، فأنبتت رجالا شاكي السلاح اقتتلوا إلا خمسة أصبحوا فيما بعد نبلاء ثيبا، أولى مدن مئة وإحدى سوف يبنيها قدموس.

وأوربّ هي التي أعطت الغرب اسمها كما أعطاه قدموس حروف الهجاء، وهكذا كانا الواحدةُ رسالةَ الحُبّ والآخرُ رسالةَ المعرفة.

أسطورة إغريقية

الأشخاص

قَدموس

ابن الملك أغنار

أُورُبّ

أُخت قدموس وعروسة زوش

مِرى

مرضع قَدموس وأورب

الأعمى

عرّاف إغريقي

جوقات

من إلهات، وبحارة صيادنة، ومقاتلة اغارقة.

صخر موحش الكهوف من ساحل البيوسّى، في بلاد الإغريق، منتصف الألف الثاني ق.م.

الفصل الأول

المشهد الأول

أورُبّ، مِرى

أورب

حَدُّكِ الحدّ ! يا سماءُ، تجهّمتِ

تُعلِّين، فارأفي بالجراحِ !

لا تَحُرّي، رُحمَاكِ، هُدْنة ليلٍ

لا يحطّ التفاتةً في صباحِ.

تُجهش باكية

مرى

بضلوعي بكيتِ، أُورُبُّ فأصحَي.

أورب

آه! لو عِفتِني لِوَحدي وآهي!

مرى

لا !

أورب

غضبى بسلطان

تقولين ؟!

مرى

معتذرة

أنتِ بنتُ أغنّار،

مليكي ؛ وزوجُ زوشَ، إلٰهي.

واذا أدّعي، فدعوى لِبانٍ

رضعتهُ من مهجتي شفتاكِ.

أورب

متأثرة معتذرة

عفوَ كفيّكِ، يا مِرى، أنتِ، في الغُربةِ،

وجهٌ من عهد لبنانَ، حاكِ.

أنا، يومَ اعتلقتُ زوشَ، تخلّيتُ

عن الكَرّ فوق شطآنِ صُورِ،

في عذارى الأَتراب، يخَضلّ خصري،

دون شتّى الخصور، بالبِرفيرِ ؛

وتخليتُ — أين ضمّةُ أمّي ! —

عن هوًى ما سواه لَمعُ سَرابِ ؛

عن أبٍ، سيّدِ الحواضر ؛ عن زَند

شقيقي، قدموسَ، زَينِ الشبابِ ؛

عن قُرًى من زمرّدٍ عالِقاتٍ

في جِوار الغَمام، زُرقِ الضياءِ،

يَتَخطّينَ مسرحَ الشمس، يَرْكُزْن

بلادي على حدود السماءِ.

كلُّ ما كان عِفتُه ! كلُّ ما كان !

وآثرتُ ضمّةً من حبيبٍ،

واذّكاراً كالطَّلّ يُنعشُ نفسي،

كلّما طوّقت يداكِ شحوبي.

تفيء الى صدر مرى

أنتِ حُقّ أردتُه يحتوي عِطْرَ

بلادي جميعَه.

مرى

أنا أدرى،

وتتذكر يوم اختطفت وإياها من لبنان

ملءُ عينيّ عنكِ لوحةُ حبّ،
بلبلٌ جيّدٌ على البال كَرّا :
مَركبٌ مُفلتٌ من البحر، تيّاهٌ،
يشُقّ الشّربينَ والسنديانا،
تَخِذَ الشكلَ عن فم الورد في البُرْعم،
والدَّفْقَ عن صَبا لُبنانا،
وتحلّى بالفلّ، والورد والآس،
يغنّي للريح، يَغوَى ويُومي،
في هُوَيْناه مَسْحُ ربٍّ على الأرض
وفي الخَيْزَلى انفراطُ نجومِ.
ما لها تلّةٌ تقول لأُخرى :
« أنا منه في موعدِ المشتاقِ،
حلَمتْ ضمّتي به، منذ كان الحبّ
في تُربتي، وفي أعراقي. »
وهْو ساهٍ، كأنّما الصخرُ صخرٌ
لا دعت هضبةٌ، ولا اهتزّ قاعُ،
جَدّ مِجذافُهُ على سُندس السفح،
وشالَ الصاري، وطاع الشِراعُ.
وتقولين : « ها ترابُ بلادي
هَشَّ للأخشُب المَواتِ، ورَقّا ؛

إبعثوني غداً رسالةَ حُبٍّ
من بلادي تفجّر الأرضَ رِفقا. »

فإذا الطيرُ في الرُبيِّ تتالتْ
وتغنَّت، والغصنُ مادَ وشوّقْ ؛

وسجا زورَقُ الإلـه، ومُدّت
منه كفّانِ تقطِفانكِ زَنْبَق.

لَمْ تشائي إلاّيَ خِدْنَةَ عُرسٍ،
لا ولم تأنسي إلى غيرِ بؤسي.

أنا لم أنسَ.

أورب

أيُّ أُمٍّ حنونٍ
أنتِ لي! فانتحِي معي ليلَ نفسي.

مرى

أوَتَبْكين ؟

أورب

والنِزالُ، مِرى ؟ والسيف
أنّى يُصِبْ وجيعاً، يُصبْني ؟

يا، هُويناهُ ! كان حُسناً فأذوى
وتملّى البُكاءَ والهمَّ، حُسني

ضِقتُ ! لولا مُزَجّجٌ فوق جفني

لم يُجيّشْ أخي على الإغريقِ ؛

لم أكن فيهمِ عروسةَ زوشٍ؛

كنت حرباً !

يمرى

غَضْبَى

بل جُذوَةً من شروقِ :

جاءَ قَدموسُ بالكتابـة، بالعلـم

إليهم، إلى الأَواتـي الـعصورِ ؛

وغداً يعرفون أنّا على السُفْن،

حمَلنا الهُـدى إلـى المعمـورِ.

ما تقولين لو تُسمّى بلادُ الغرب

أوربَّ ؟!

أوربّ

مستغربة ما سوف يغدو واقعاً

لو تُسمّـــى بأسمـــي !؟

يمرى

واثقة كأنما يَمُرُّ أمامها لوحةُ التاريخ جميعاً

أعجيبٌ ؟! ونحن أوّلُ من حَطَّ

بأرض كَفّاً، وطرفاً بنجمِ !

وبلفتة الى المْغرب خاشعة، تسمّيه بْاسم أوربّ

كُنْ، يُها الصُقْع، بِاْسم أوربّ، أرضَ اليُمنِ
أرض النُّهى، وأرض الجَمالِ.
باركتكَ اليَدُ الأهَلّت على القَفْر
عَطاءً، فالعَطْلُ من بعدُ حالِ.
ألسَّخَتْ، أوّلَ الزمان، على تُربة
أهلي بالغَيِّثِ المِحراثِ،
آلةِ الخير يا لَها تتحدّى
دُنْيواتٍ ضَنَّتْ برِزق بُغاثِ.
علّمت، ويحَها، أنِ الفتحُ كلَّ الفتح
بالعُمق، لا بعَرضٍ وطُولِ،
فإذا تَطرُق السواعدُ بابَ الأرض،
تَغوَى بأنهُرٍ وسهولِ.
والأذَلّت — يا نُبْلَها، يدَ طَلّاع
ويا بُعْدَها بصائرَ غَمْضٍ ! —
عُنفوانَ المجهول بالزورق الأوّل
يُلقي أرضاً على حِضْن أرضٍ.
والأسلّت روحَ الخُلوص من المحسوس
تحبو العقلَ الوليد شُمولا،

غُربةٌ في العلاءِ سَلْها : هل الإنسان
باقٍ يغـالبُ المُستحيـــلا ؟
فَضْلَةٌ عن خُوانها الأبجديّاتُ،
ومـا بَعْـدَ مستقيـمٍ ودائـــرْ،
وتَداعٍ شَجٍ كأنْ قُبّةٌ مادت
وزهـرٌ مفتّـحٌ في الضمائـــرْ !

أورب

هِجْتِني، يا مِرى، فخَدّرْتِ نفساً
حُمّلَتْ، لو دَريتِ، هَمَّ الليالي
فَكّري، فكّري بقدموسَ في إثْري،
مُثيـــراً حَفيظَـــةَ الأبطـــالِ،
يتحدّى، في عُقر دارهمِ، الإغريقَ
يأبـــى إلّا مَرَدّيَ عَنـــوَهْ،
يَزرعُ الرّعبَ في البُيوسى، فيَبلو
بلـوةً موطنـي الجديـدَ فبلـوهْ،
ضَجّ منه الإغريق، ضجّ أُولو الأُولمب،
حِقْداً واستصرخـوا التِّنّينـــا،
يُوغِرُ البحرَ، فالأَواذيُّ في البحر
جبالٌ تكُبُّ رَوعاً وهُونـــا،

مَزّقت من سَفينٍ قدموس، من أبطاله
مطمعــــاً، وذلّت عِنـــــدَهْ،
فاذا زَنـــــدُه أشدّ وأمضى،
يومَ يلقى صدراً لِصدرٍ نِدَّهْ.
لا يُرى الفجرُ أو يخرَّ قتيلاً
واحدٌ منهما.

مرى

مستدرجة

ومـــــا التِّنيـــــنُ !
أفصِحي، والتي وقَتْكِ بعينيها
الأذى، فيمَ سِرُّه مكنـــونُ ؟
مَرّةً، شئتِ أن تبوحي، فغاضت
شفةٌ منك خلف تَصخاب آهِ !
أإلٰهاً تُراهُ ؟ أم هو وحش ؟
أم هو الغيبُ أثقلته الدَّواهي ؟!

أورب

متهيّبة

أتُراني أدري ؟

مرى

وما قال زوشٌ ؟

أورب

مسترسلة كأنما هي تهذي

قال عنه : « أَمَرٌّ من إنسانِ،

مغلقٌ، إن يَبِنْ فأظفارَ لَيثٍ

وجناحَي نَسرٍ على أُفعوانِ،

وحشٌ وحشِ الوجود، سِرُّ الغباوات

إذا قُدِّرتْ لَهُنّ السنينُ،

قَولُ من قال : « إنَّما الحقّ للقوَّة »،

هل كان غيرَهُ التِنّينُ !

ينفث النارَ من حديدِ لسانٍ،

ويفُتّ الصخرَ الأصمّ بنابِهْ،

إنْ يُنفّضْ جناحَهُ يُنتنِ الوردُ،

ويسودَّ زنبقٌ في شبابِهْ ؛

او يُدِرْ طرفَه يَصُبَّ هجيراً

في عليل الصَبَا ويجترَّ نارا ؛

بات أعمى عن الخليقة يلتذُّ،

إنِ التذّ، جيفةً ودَمارا. »

ذاك قِرنُ القدموس عند بزوغ الفجر.

كأنمّا توقظ أورب

أوربُّ، ما لصوتكِ هُدّا ؟

فيمَ تبكين ؟ فيمَ تخشَين تنّين البُيوسى

يلقـــى الغريـــمَ الأشدّا ؟

أنا أدرى المَلا بغضبة قدموس،

وجسمٍ من صخر لبنان قِدُّهْ،

طال ما استشرفتهْ، في الأرز، عيني،

يافعاً تفْجر الفتـــوّةُ زَنْـــدَهْ.

أجفل الليثُ منه، فانتهر الليثَ

شجاعـــاً، وردّه مستـــذَلّا،

ضربةٌ منه لا تخيب، فإن ينقضَّ

يبـــطشْ، وإن يشأْ يتسلّا.

صدرُه، عارياً، أحنّ الى الكَرّ،

وكفّـــاه، عُزلَيـــنِ، أمـــرُّ.

يا له، حين يطرح الخنجرَ الجهْمَ،

ويجـري، فالجـوّ أغبـرُ، حَرُّ،

يضرِب الليثَ بالجُماع فيسخى

ضربَ شَبعانَ من لِبا ثدْيِ أُمِّهْ،

فـــإذا ضَمّـــهُ استعـــفّ وإلّا

أعمـل الزَّنـدّ يحتويـه بضمِّـهْ،

سَلّه من إهابه، ورمى الأرضَ

بجُثمانـــه يحُـــرّ نُدوبَـــهْ،

وتلـوّى عليـه يمـزُق شِدقيـه،

فينعـى الـى السّبـاع نيوبَـهْ !

يا احتضارَ الأسود ! يا طَربَ السفح

لرؤيـا تهـــوي بـه وتشيـــلُ !

راح قدموسُ يُنزل الرعبَ في الآجام،

فالأرز هازج، والنخيـــــــلُ ؛

وتخافِينَ أنتِ أنْ يظفَرَ التِّنّينُ ؟

أوربّ

بجرح عميق

لو تدركينهـــــــــا أسرارا !

قَدَرٌ ...

مرى

بِمْ تذرّعَتْ بنتُ صيدون ؟

أورب

بمـا يقـدِرُ الأمـورَ الكبـــارا،

بتٌّ في أُمّـةِ تؤلّههـمْ كُثـراً

ويُودي بهم وبالعرشِ واحدْ،

ألمُجلّي عليهمِ، ذلك الأعمى،

وليُّ المصير، ربُّ الجلامِدْ.

قدرٌ إن يشأْ يغيِّضْ ذرى الأُولمب،

أو يضربِ الحضيضَ يزوشا.

شاء أن يعلقَ الالهُ ابنةَ الأرضِينَ :

سهمٌ إلى السماوات رِيشا،

أوجع الخالدات فاهتَجْنَ مني،

غَيرةَ الحُسنِ ليس بالمعبودِ،

غضِبت تدفع التحدّيَ هيراء

زوجُ زوشٍ، بوعدها والوعيدِ.

خاف زوشٌ عليّ شرّاً، فخلّى

عند بابي ذيّالِك التنينا،

قال : « مِن صُلبهنّ يحميك وحشٌ.

فاطمئنّي، ما لم يُهنْ، او فهونا ».

مرى

بهَلَع

هو إن مات ... ؟

أورب

مُتُّ.

مرى

مشيحة عن هذه الخاطرة

لا قلتِ !

أورب

والآن،

أجيبي قدرتِها الأقدارا ؟!

مرى

لا وأبقى ابنةً لصيدون ؛ هيّي

أطلِعيه، صيدونُ، شهماً نهارا،

هاتفاً عن يديكِ : « أنّا، أُولي السعي،

أبيناه عاجزاً يتحكّمْ،

زوّرتْه خرافةٌ، أفنرضى

أن تروح الدُنى رهائنَ أبكمْ ؟! »

كلّ شيءٍ من تلكمُ اليد.

أورب

حقاً،

يا مرى ؟ يا مرى، ادفعي الموت عنّي،
وادفعي عن أخي.

مرى

فديتُك، ماذا ؟
نقصِد الموت في خُطى المطمئنّ،
ونقولَنَّ : « قدّر القدرُ الأعمى ؟! »
أعِزٌّ يُشرى بلا أثمانِ ؟
أفتراشٌ زندَي إلـه وذكرٌ
في كتاب العُلى — وبالٌ هاني !

أورب

مشيحة عن التفكر بالمجد، منصرفة إلى أشجانها

أيَّ عبء حُمِّلتُ يثقل عينيّ،
ويطوي نفسي على الجرح طيّا !
خلتُني نغمةً تَفتّتُ في الكون،
فيغدو صدراً لها وحنِيّا،
أسكرتْه لبعض صبح، ولكن
فاجأ الصبحَ مثلُ ليلٍ غاضبْ !
فكأنّ الوجود كهفٌ مخوفٌ
وهْيَ في قعرهِ استغاثةُ هاربْ !

في غدٍ ملتقى شقيقي وحاميَّ :

بلادي هَنّا وهَنّا شبابي !

وأنا، في توقّع الخَطْب، غَصٌّ

من سراجٍ، وحفنةٌ من ضبابِ.

زهرةٌ لم يَطلّها الطلُّ حتّى

قهقهت تنعب الرياحُ وتصخَبْ،

جِيدُها كان فوقُ يلعب في الشمس

فعفِّرهُ، ايُّها التربُ، والعبْ !

بتشاؤم

ما لِطَيفِ الشحوب يسحب في الأرض

ويُرخي الضنى على الأرجاء !

غِمْ أسًى، أيها الغروبُ، فها نجمُكَ

في أفقه محابِ مُراءِ.

مرى

بنتُ صيدون، والفؤادُ أليفُ الوهْن ؟!

أورب

مَن ذا أرى، مِرى ! العرّافُ !

مرى

يا لأعمى مُرجّمٍ أبداً بالشرّ.

أورب

هل خفتِهِ ؟

مرى

أنـــــا ؟ لا أخــــــافُ.

أورب

متعلقة بخيط من الأمل واهٍ

ما تقولين لو نطارحه الأمرَ،

وظنّـــــي به رسولَ إلــــــهِ ؟

مرى

ترّهاتٌ !

وتهمّ بالذهاب

أورب

مهلاً، وإن يثنِ قدموسَ،

فلا حربَ، بعدُ ...

مرى

حقاً ؟ ... تباهي

وتقولي : « قدموس أقسم ما بَرّ

بعهد ؛ يرمونـهُ ليس يرمـي »،

وتقومـي وتقعـدي لعظيـمٍ
صدّ صيدونَ مرّةً عن عزمٍ !

المشهد الثاني

أوربّ، الاعمى

الاعمى

دون مرمى يدي، على الساحل التيّاه،
وجهٌ جَهْمُ الأسارير، داجٍ،
مُترعٌ بالأسى، يُهوّم فيه
جوعُ دنيا تنشقّ من أمواجٍ،
فيمَ عيناه تمرحان على الأفق،
وتستطلعان تَخْماً تخمَا ؟
ويدٌ في مجاهل الجوّ تمتدّ
تباهي نجماً، وتقطِف نجما ؟
ما شميمي خبَّ الغريب على الأمس
المدمّى، وموكبُ الغد صاعدْ ؟
شبَحٌ خانقٌ وآخرُ مذعورٌ،
غِنىً بائدٍ على قبرِ بائدْ.

في البيوسى الحرّى، على حرم الإغريق،
أجـلافُ أجـنبٍ تتـراءى ؛
أين نارُ الأُولمب تنهال لا تُبقي،
وتمحـو الحـواضرَ الغنّـاءَ ؟

أورب

واجفة، وقد أوجست منه تغضّباً على الصيادنة

بَشَراً كنتَ ام إلهاً، ترفّقْ
ببقايـا نفسٍ غريبـةِ دارٍ،
زهرة ملّتِ الجمالَ، وراحتْ
تنتهي في قَوامها المنهـارِ،
صارحتها حقيقةٌ حجرٌ ما الجرح،
ما اليأس، ما الحِمام الحبيبُ ؟
لِصباحٍ قيلتْ، فلما وعتْ قولاً
وطارت اليه، كان الغروب !

الأعمى

أختُ قدموس ؟

أورب

مَـن سواها لِهـمٍّ ؟

الأعمى

لا تخافي : قرّي على الأخ بالا.

موعـــــدي بالتقائــــــه الآن.

أورب

ضارعة إليه أن يكون رفيقاً في إقناع قدموس بالعودة الى صيدون

جَوٌدْ

من دموعي، يا راحمُ، الأقوالا !

دُسَّ في الصوت نكْهَةَ العسل الحلو،

وقـلْ رنّـةَ القنـاة الـمغضوبِ،

قَسوةً في رضى المحيّا، وليناً

في التحدّي، شأنَ الحبيب الحبيبِ.

وتجنّبْ جوّ القِلى وحرابَ الهُزء،

واضرِب على الأحسّ الحنونِ،

خُذه من قلبه العطوف على الضعف،

وخذه من كِبْره الصيدوني !

الاعمى

أزِفَ الموعدُ، ارفقي بك ِ، أروبُّ.

أوربّ

تلفّـتْ وانظُر !

الأعمى

شاعراً بعظم القادم من قولها له وهو أعمى : تلفت

أجلْ.

أورب

قـدمـوس !

الأعمى

أُهربي، ويلكِ !

أورب

كأنما تنسلخ عن رؤية قدموس انسلاخاً

ما ليَ اشتقتُه، واشتقت

دنيـا في بُردتيـــنِ تمـــيسُ !

الأعمى

أسرعي !

تخرج أوربّ

يا خطّى سُدًى حثّها اليأس،

فأبقت في صفحة الرمل وسْما،

زبَدُ البحر واقفٌ منه بالمرصاد،

والدهـر منجـلٌ ليس يَعمـــى.

قَدَرٌ فوقنا !

المشهد الثالث

الاعمى، قدموس

قدموس

راداً على « قدر فوقنا »

مقالةُ جُبنٍ !
شاءَ تزلزلٌ دنيا، وشاءَ تبنِ دنيا.

الأعمى

متصنعاً استضعاف قدموس

لا تَجبَّر، قدموس، لاح لك النجْمُ،
تهيّبْ لا تستخفَّ الجَنْيا.
تتحدّاه جِيلَنا ؟ جِيلُنا عاتٍ،
وكالوحش، لو تذكَّرتَ، ضارِ.

قدموس

أنا من أُمّتي رسالةُ نور
تترك الوحشَ غيرَ ذي أظفارِ.

الأعمى

حُدَّ من حدّةٍ، وصيدونُ أنتمْ،
ما تمرّستمُ بقَرعِ الأسِنّهْ.

قدموس

صادقٌ أنتَ. ليست الحرب في صيدون

قصداً مقصّداً أو جِنّـــــهْ،

غير أنّا اذا نُضام نجيء الموت.

الأعمى

عـانِـدْ ...

قدموس

مـا عـزَّ غيرُ المُعـاند

الأعمى

تستخفّ الإغريقَ، لا بأسُكَ البأسُ

ولا سيفُكَ الفِرِنْـدُ الحـاصدْ،

صولةُ الغرب ...

قدموس

خلِّ، ما صولة الغرب ؟

الأعمى

جراحٌ وكبريـــــاءُ جراحِ ؟

قدموس

ما تكبّرتُ : مَشرِقُ الأرض ساحي،

يوم أُعطي، ومغرب الأرض ساحي

الأعمى

ذَلّ أمساً وحشُ البيوسى رفاقاً لكَ.

قدموس

أمساً. وارتـدّ عني كليـــلا ؛

ما على الشمس، ما على عرشها الثبْتِ،

إذا الأنجـم انفرطـنَ فُلُـولا ؟!

الأعمى

متصنعاً الشفقة

أنتَ في غربة، فرفقاً بصحبٍ

شُرّدٍ، دون موطنٍ في الغَداةِ.

قدموس

نحن صيدونيّون، موطننا الأرضُ،

ونأبى أقـلَّ ساحَ الحيـــاةِ.

الأعمى

البيوسى قفرٌ من الرمل جدبٌ،

لا نباتٌ في صخرها، لا مدائنْ.

قدموس

نحن غير الغزاة ، ننزلُ قفراً

فنخلّيـــه أنهُـــراً وجنائــــنْ،

نزرع المُدْنَ، نزرع الفكرَ في الأرض،
ونمضي في الفاتحين مثالاً ؛
وغداً تعرف الحضارةُ في صيدون
أُمًّا، فتنحني إجلالاً !

الأعمى

نافد الصبر

أَبداً لا تَنونَ قرصان بحرٍ !

قدموس

بأناة وثقة

تهمةٌ تستخفُّ بالشمس شانا،
حبّذا، والضياء وَقْفٌ على القرصان،
لو عادت الدنى قرصانا !

الأعمى

مسترسلا في الإهانة

مهلَ قدموس، قفرةٌ في البيوسى
فوقَ صيدون رفعةً والحواضرْ،
فوق ما تدّعونَ من قُببٍ شُمٍّ
وشُهبٍ، ظواهرٍ بظواهرْ ؛
إتّئِدْ.

بثقة مستمرة

نحن للظواهر ؟ نحن الكاتبو
صفحــةِ الحقيقــة شِعــــرا.
سُفْنُنا الآلف ما تَني هيبةَ الأعصر،
تَفري المجهول بحراً فبحرا،
عمَرتْ جزْرَكم عمائرَ غنّاء،
وفضّت غنَى ثراكم مناجمْ،
في كريتَ النّحاسَ، في قبرص الصبغ،
وفي رودسَ القلاعَ الجواثمْ.
واشرأبّتْ الى جزيــرة تاسو
تتمــلاه تبْرَهـــا إبريـــزا،
قل ! مَن الضاربون عبر الألشبون[1]
يُفَلّون في البحار الكنـوزا،
يقحمون البُسفور، حيث الصخور السنبليات[2]
جُوّع الغـــور، فُجّـــعْ،

---

١) دردنيل الأقدمين.
٢) إسم لصخور مخيفة كان الأقدمون يزعمون أنها تنطبق على الذي يتوغل في البوسفور.

مطبقاتٌ على المغامر، يسحقن،
فَعِزٌّ يُطوى ويُندف مطمَعْ؛
بُسّلٌ يمرحون في بُنط أكسين[1]،
على رحمة الرياح النواهمْ،
لا يشدّون قبل عجرفة القوقاز
سفْناً، ولا يَهُونَ عزائمْ.
قل! مَن النازلون قيثيرةً بعدُ،
وإيطاليا، وجزْراً، وجزرا،
يوقظون الدنيا على ضربة المِعول
مستعمراً، فتنهض سكرى،
سفْنُهم في الجنوب تهمي على النيل
اختراعاً، وفكرة، وصناعَهْ،
فاذا الطرف جاب منفيسَ مصرٍ،
خِلتَ لبنان مستقلّاً شراعهْ؟
قل! مَن الفاتحون إفريقيا بِكراً
يَشيدون قمبةً في المغاربْ،
درَّةَ البحر، قيل تصميمُ فتحٍ
باسم قرطاجةٍ على الكون ضاربْ؟!

---

١) البحر الأسود.

فاخر قدموس بفتح صيدون للبحر المتوسّط، وقد اتمَّته في منتصف الألف الثاني، أي في عصر قدموس ؛ ويتكلم الأعمى، لغاية في النفس، وهو عرّاف، على فتح صور الذي سيحصل بعد ذلك العصر.

خلّ، قدموس، خلّ ؛ ما أَمسِ إلّا
ومضُ برق من ضجّة الغد نَزْرُ :
ستحرّون، بعدُ، جمجمةَ الأرض،
فيرقى على يدَينِ الفكرُ.
كلُّ صرحٍ مُمرّدٍ في ربى صيدون،
رملٌ في شطّ صور طريحُ.
تتركون البحار خلف هواكم
لا تكلّون أو يَكلّ الطموحُ.
آخرُ الأبيض الرحيب مَقيلُ السفْن
من نزهةٍ لكمْ قمراءَ،
لا البليّار شافياتٌ غليلاً،
لا ولا غاليا الجميلةُ داءَ.
صفحةُ الأرض حدُّها الهرقليّات[1]،
وتأبَونه على الأرض حدّا،

---

1) كان الأقدمون، قبل الصوريّين، يعتقدون أن الأرض تنتهي عند أعمدة هرقول، جبل طارق اليوم.

فتفضّون في المحيط، بعيداً،
دنيوات كأنّما الكونُ مُدّا !
تقحمون الإيبيريا، والقسيتيريد[1]
والجزرْ، عبرَ بحر الشمالِ،
وتغنّون، حول إفريقيا، ملحمةً
من حقيقةٍ وخيالِ.
عَدَنٌ أرضكم، وحرّانُ، والهند
قواديمُ سفنْكم، والصواري ؛
وتقولون بعدُ: « صيدونيا الأمّ،
وصيدونيا وراء البحارِ. »
منكم الفارسُ الرّضى يتحدّى
أمّةً تسترقُّ بُعْدُ العوالمْ،
تزحف القارّتان خلف جبال الألب،
في ركبه، إذا سَلّ صارمْ،
رومةٌ دميةٌ له، وربى إيطاليا
الـخضر مَلعبٌ لحصانِهْ،
يكتب الفتحَ في مقدّمة الفتح،
ويُبقي للدهرِ فَضْلةَ شانِهْ.

---

١) جنوبي غربي إنكلترا.

سِفْرُ حرب ضاحٍ وقولةُ حقٍ :

« لبنـــانٍ تتلمـــذ القُـــوّادُ،

كلُّ يومٍ محجّلٍ، بعد هنّيبعل،

ومضٌ من سيفـــه جوّادُ. »

وكأنّما يختصر المجد يقذف به بوجه قدموس ليخلص الى النهاية المروّعة

هو، يا ابنَ الصيدونيا، حظُّكمْ يوماً،

تهـزّون صفحـةَ الأرض هزّا !

وتُقِلّونها، إلى الشمس، في مركب

أرزٍ يهدي إلى الشمس أرزا.

تقحمون المجهولَ من ساحة الفكر،

وتَلهـون بالخفايـا الأحاجـي،

كلّ شيء منكم. وما أنتمُ يوماً ؟

لأنتم ذكرى سنًى في الدياجي !..

مشدِّداً على هول النهاية بعد ذلك العزّ

ما لِعيني ترى لكم قبّةً شهباءَ،

مخنوقـــةً بخيـــط مُعـــارِ،

أجفلتْ دونها الجبالُ، ويكفِيها،

لِتنهـــدَّ، لفتــــةُ الأقــــدارِ.

إشفَ، قدموسُ، من طموحك.

قدموس

ما قلتَ ؟

وأختي ؟ وموعدي بالنزالِ ؟

الاعمى

دون أمنيّتيكَ هولٌ.

قدموس

بعناد

وإذلالُ

شراعي، أمساً، ورَغْمُ رجالي ؟

الأعمى

المقاديرُ أو طموحُك، يا قدموس،

قدموس

بثقة

لا شيء في طريق الطموحِ.

قلت أنَّا سنقحمُ البحرَ والبرّ،

نجرّ الفتوحَ تِلوَ الفتوحِ،

ومن الموطن الصغير، نَرود الأرض،
نَذري، في كلّ شطٍّ، قُرانا،
نتحدّى الدنيا : شعوباً وأمصاراً،
ونبني — أنَّى نَشأْ — لبنانا ؛
وترجّي منّي، أنا، الجبنةَ الأولى ؟
ترجّي منّي، أنا، الانهزاما ؟
ما يَقولُ الغدُ المحجّلُ عن قدموس،
يومَ الدنيا لنا، أعلاما ؟
يومَ تجني صيدونيا الزرقةَ الرحبة :
مجداً، مهابةً وحضارَهْ،
ويرى الفتحَ فتحَهُ كلُّ قبرٍ
فوق لبنان، والبحارَ بحارَهْ !

البحارة الصيادنة

من الداخل

غرّبي، يا بحارْ،
شُرّداً بالأمل الغضِّ.
هٰهنا، في آخر الأرضِ،
كرمةٌ لي، ودارْ !

قدموس

هُمْ رجالي، وبعضُ عزم وراء النحر.

الأعمى

كأنما يستنزل اللعنة

لا طِبتَ، سيفَ صيدوَن، بالا !

مهدّداً منذراً

يطلع الفجرُ في غدٍ بومةً تَنعق !

يخرج

قدموس

بومٌ ؟.. يا ريحُ هُدِّي الجبالا..

البحّارة الصّيادنة

من الداخل

طَيّعٌ مركبي،
يقحم الغَلّابةَ الأمواجْ
ينزع التّبرَ، يَسُلّ العاجْ
من دم المغربِ !
بالُنا، والشّرَرْ،
هَدْيُنا، واللفتةُ العلياء،

نحن جئنا بهِما الدنيا،
فوقَ جذعَيْ شجرْ !

ستار

الفصل الثاني

المشهد الأول

أوربّ، الأعمى

الأعمى

مصطنعاً النصيحة

أَقْصِري في النَّحيبِ، لم يبقَ إلّا
أن تَرَيْهِ

أروب

باستغراب وهول

أنا ؟!

الأعمى

نَصحتُ وجيعا.

وإذا السَّهمُ كان آخرَ سهمٍ ...

أورب

مقرّعة

كان، يا قلبِ، مرأةً ودموعا.

الأعمى

شئتِ طعناً على الرُّجولـــة.

أورب

أنّى

لي، إذا شئتُ، أن أسُلّ وأضرِبْ،

وأنا الظُّفر قلّموه، وقالوا :

« رُدَّ عن مشرقٍ، وقاتِلْ لِمغربْ ! »

الأعمى

لو رشدتِ اهتززتِ للرأي، أوربُ.

أورب

وما الرأي؟.. أن أُحطّمَ حبّي ؟!

دُمْيةٌ صغتُها من الحُلُم الحلو

ورصّعتُهـــا بأطبـــاق شُهْبِ،

عانَقتَهْا أُمنيّتي، قبل أن همَّت

بكـونٍ وأيْنـعت في خَيـــالِ،

كانت التوقَ من ذراعي، إذا مُدّتْ،

وكانت، إذا هجستُ، ببالي.

مَن مِنَ البُكْرِ الصَّبيّاتِ لم تحلم

بزوشٍ، ولم تُعَلّ على اسمِهْ ؟

تتناسى له المزَاليجَ عمداً،

خوفَ إن تَعنفِ المزاليجُ تُدمِهْ،

وإذا صار لي أنا — أنا وحدي ! —.

جئتَ ترتدّني إلى قدموسا ؟

ظالمٌ أنت !

الأعمى

لا، عروسَ إلهي،

لستُ أرضاكِ للشّمات عروسا !

تُبصرينَ الربّاتِ، في رَفرف الأُولمب،

يهزأن بالغرام الفقيدِ ...

يتمطّين في الأسرّة والخَزّ،

وهزج الحِلى، وكَدْس الورودِ ...

« أيّ أرض، يقُلْنَ، طفلةِ حبٍّ،

جرّأتهُ على حِمى الأرْبابِ ؟

أُسعِدتْ، سكرةَ الهوى، واستفاقت :

يا ترابـاً أُشواقـه للتُّـرابِ ! »

قهقهاتٌ كيف الأَسنّةُ في الوقع،

وكيــف انتفــاضةُ البُنيــانِ !

يفعـل الهــزءُ في الجبــال !

أورب

مستضعفة

لمن قلتَ ؟

وهـزئـي بــي هَـذّنـي وبَرانــي

متذكّرة وطنها الذي هجرته

شَرّقِي، أيها الصَّبا، علّ غُصْناً

عند حصباءَ، ما يزال وفيّا،

هجرته عصفورةٌ كان مَغناها،

وكــانت غرامَــه العبقريَّــا ؛

ما شكا مرّةً سَقاماً، ولا تمتم

في مسمعِ الليالي بِعَــتْبِ،

وُجدتْ فاكتفى ، ومـا همّـه

للغصنِ كانت أمّ للحضيض الجَذْبِ !

آيةُ البال حُبُّه؛ راح يعطي،
لا ارتضى قبضةً، ولا هو آثَرْ،
يسأل الخيرَ أن يكونَ، سواءً
ناله المُجتديهِ أو نال آخرْ!
موطني ذاك، فاحمليه على العَتْب،
إذا جئتِ موطني ذاتَ يومٍ،
يا صَبا، وانظريه ما زال يُضفي
فوق جرحَيْهِ بَسمةً بَدْلَ لومٍ.
هُزُّوٓ بي، وصافحٌ موطني عنّي؟
لأيّ النِّبال أُوجِعُ وقعاً؟!
لا مَرَدٌّ!

الأعمى

محاولًا المُضِيّ في إضعافها
إلّا التقاؤكِ قدموسَ
تقولين: «عُدْ بنا! ضقتُ ذَرْعا!
أين مِن عشتروتَ مَيعةُ أوربّ،
ومِن زوشَ مُدّعى قدموسا؟!»

أورب

قلتَ شِقَّ الصَّوابِ، والحقُّ كلٌّ؛
لا تَمُسَّ الأَقداسَ، أَعمى البيوسى!

الأعمى

معرِّضاً بضعفها

ساعدُ المرء، لو دريتِ، هو الحقّ،
وما الناس والسَّواعدُ مَرضى؟

أورب

مُلْمِعَةً الى قوّة قدموس

قُل، فما همّ ما تقول على الغِمدِ،
وإمّا إن شِمتَ سيفاً فغُضّا.

الأعمى

ويلكِ! حُدّي من مطمعٍ لم يرَ النُّور،
ومن خفق أجنُحٍ لم تهُلّا؛
وارجِعي في رِكاب قدموس، لا أنتِ
افتتحتِ العلى، ولا هو ذَلّا.
ولَخَيرٌ تنــازلٌ عن حبــيبٍ
مِن رجوعٍ القدموسِ حِمْلَ المَحاملْ؛

بسخرية

وتقولون — يوم تهزج صيدون،

ويمشي إلى السَّفين الساحلْ؛

وتموج الغصونُ من قِمم المَكْمِلِ،

جَذلى، إلى مطلّ الغروبِ —:

«هو هذا اليَرّدها من إله ...

وهْي هذي التَسُلُّه من نُيوب ...»

أورب

رادّة على تعريضه بأهلها

تصدياتُ اليدين لسن خُفوقاً

من فؤاد: يَمضِين هُنّ، ويبقى؛

صفّقت للطِّلاءِ كفٌّ، ولم تخفق

ضلوعٌ إلّا لِما كان حقّا.

الأعمى

بُعْدَ ما خلتِني زعمتُ — ولا أمّلتِ،

عبرَ البحار، صيدونُ، زِفْدا —

أنا قصدي لو رحتِ تَصْحين من زوشَ،

وقدموسُ من وَغًى فتجِدّا.

أورب

كَشّر الـــنُّصحُ عن نيـــوب !

الأعمى

مصطنعاً العتاب

تجنَّيتِ.

أورب

وما النصحُ لم يُجلِبْه حبٌّ ؟

عَضَداً جئتني، فهِضتَ جناحي،

دَعْكَ لا لي قِوًى، ولا لكَ ربٌّ !

الأعمى

مستأنفاً محاولة إضعافها

قسمةٌ فاكتفي.

أورب

شعرتُ. تشبّث،

أيهُّا الحُلم، بتَّ عند الشَّفيرِ.

الاعمى

مغرياً إياها بالاستسلام لقدموس

دربُ قدموسَ من هنا.

أورب

ويكَ ! دَعْني.

الأعمى

وقريباً يمرُّ.

أورب

مشيحة عما يدعوها إليه

يا أرضُ، دُوري !

المشهد الثاني

أوربّ ثمَّ مِرى

أورب

مُرّةٌ لفتتي الى النَّجدة الجوفاء،

والصدرُ بالفـــراغ يضيـــقُ ؛

أنـا مرميّـةُ الطَّريـق بَكَتْنـــي،

لبكائي ومـا هَدَتْنـي، الطَّريـقُ.

بين قدموسَ، سيفِ أهلي، ووحش الغرب،

واقِـــيٌّ طعنـــةَ الخالــــداتِ،

مهجتي، إن نُسبتُ عرقاً، وزندُ الباسطِ
النجـــمَ والسُّهـــى لالتفاتـــي.
يا لَسَهمَيـــنِ لوّحـــا فأذلا،
في سماواتها، عُلى عُنفوانـي.
مَن يُصِبْني أقُلْ له عند قبري:
« لِمَ، يا سهمُ، أنتَ دون الثاني ؟! »
محطَّمة تكاد تسقط عياء
ما لعينـــيَّ غامتـــا، ولقلبـــي
أثْقَلَتْـــهُ مرارةٌ فتداعـــى ؟!
وتـراخت يدي تَلـمّسُ لحنـــاً
كُنتُهُ في المدى، فألْفَتْهُ ضاعا ؛
وتهـــاويتُ رَغْـــدَةً للقائـــي
هذه الأرضَ، عند وقعيَ، أرضا،
مِنّةً، يا دقائقاً لم تزل تسبح
حولي، لا تَنْهَبِي الدهر ركضا.
تدخل مرى فتلاقيها كأنّما تشكو
عبثَ ردِّه !

مرى
عَلِمْتُ.

أورب

متفكِّرة ثم كأنَّها وجدت حلاًّ

أَنــاةً

لم يَزَلْ أن أَراهُ.

مرى

باستغراب وهول

أُنت ؟!

أورب

ونحيـا.

مرى

وتعودان ؟!

أورب

بحسرة

ما عطفـتُ إلٰهـاً

فـوق زنـدي !

مرى

ولا هــو احتــلَّ دنيــا !

مستطلعة سِرَّ أورب

رأيُكِ الرأيُ أَمْ ركنتِ إلى آخرَ ؟

أورب

لم أستمـعْ لآخرَ، عمـري.

مرى

غير مصدّقة

أيُّ سمٍّ !

أورب

نفثتُـه، أنـا وحـدي.

مرى

لستِ صِلًّا !

أورب

بُدّلتُهُ اليومَ.

مرى

كأنّما درت أَنَّ الأعمى هو الذي أقنعها

أدري.

أورب

لا تقصّيتِني، عزمْتُ فلا أرجِع.

مرى

لا قلتِ

أورب

أوْ تكوني الرَّسولا.

مرى

باستغراب وهول أشدّ

أنا ؟!

أورب

مستعطفة متذكرة

تستحلفينه بِلبانٍ

طابَ طعماً على فمَينا، وسُؤْلا ؛

بليالٍ سهرتِها لم تبالي

طاولتْ أم دجتْ، إذا نحن كُنّا ؛

بيدٍ إن تضمَّ توردْهُ عمراً ؛

وبقلبٍ ان يُعْطِ يُسكنْهُ ظنّا ؛

بأغانٍ عندَلتِها عند مَهدَينا،

فقاما على جناح اليمامِ،

أنْ دعِ الضربَةَ الغبيّة، قدموسُ،

فما كنتَ خنجراً في الظلامِ.

أنتِ أنتِ الوحيدةُ الوقعِ في قدموسَ !

مرى

رِفقاً! أنوءُ بالعبء حملا،

أُطلبي العمرَ أمتهنْه على رجليكِ،

لا تطلبي إليّ الذلّا.

أنا علّمتُه التّمرّسَ بالمجدِ،

ولُقيا الفرسان صدراً لصدرِ،

ومَحَطَّ العيون فوقُ، وذَرْءَ السّيل

يهوي بالرّاسياتِ ويَذري،

وابتدارَ الجُلّى بأسبقَ من جُلّى

كأنْ عوجلَ القضاءُ بردٍّ،

واقتحامَ اليَموتُ لم يلتفتْ ظَهْراً،

ولا حُدَّ في العطاء بحدٍّ.

أتريني، أُوربُّ، أنقض قولي؟

أورب

ودموعي هذي؟ وخَمْشُ الخدودِ؟

وابتئاسُ الغيماتِ والموجِ والشُّطآنِ

في مدّ طرفيَ المهدودِ؟

أهْي أشياءُ؟ لا، وأفديكِ من أشياءَ

تَشْجى شَجوي وتَأْسو جِراحي.

أُذكريها يوماً.

مري

كأنَّما لا تجد ما تقول

أُحبّكِ !

أورب

بعتاب أليم

حقًّا ؟

مستطردة

واذكريني على ضريحِ الصباحِ
كان قصراً هذا الوجودُ، فكيف انهار،
والعمرُ سانحٌ في فنائه ؟
وهوى بالعَليِّ من عُمُدٍ هيفاءَ
راحت أشلاءَ خلف مسائهْ.
نوّحت حيث كان زقزقةُ الطّائر،
ما آنست كأسِ صِحابا.
تنهر الثانياتِ، كرّت على الأرض
ثِقالاً أن لا تَحُرّي التُّرابا.
قُبُلاتٌ هُنا، وسكْبُ دموعٍ،
وقدودٌ هناك، غنّت لِيانا.
أيّهذي الأنقاضُ، أوْديتِ بالحُلم،
فهيلي من فوقه البَيلسانا !

مرى

موجّعة نافذة الصّبر

رأفـةً بـي !

أورب

بعتاب

وأنـتِ !؟

مرى

أرأفُ من سهمكِ.

أورب

كأنما شامت بارقة امل

ماذا ؟ رَضِيتِ ؟

مرى

لم أرضَ بعدُ.

أورب

بعدُ ؟! يا طيبَ مَن يَهمُّ بوعدٍ ...

مرى

لم أقلْ، لا.

أورب

... ومـا هنالكَ وعـدُ !!

مرى

أَوَتَرْضينَ لي بها، إن أَنا أَرضى ؟

أورب

أَنا اخترتُ بين شرّين.

مرى

كُفّي.

كلّما رُحتِ تُقنعيني، شعرتُ السُّمَّ

في بَسمتي له، قبل كَفّي.

أورب

أَوَأَدْمَى من مُرْتمايَ أَنا أَلقاه ؟

ماذا ! وينطوي اليومانِ ؟

عهدُهُ هٰهُنا، وعهدي بدنيا

زوشَ، والصَّفوِ، والهوى، والأَماني !

كان لا بُدَّ من هناء يُضحّى،

فَلِمَ اثنانِ ؟!

مرى

لا ظلمتِ مُرادي.

لم يَفتْني أنْ لو تراجع قدموسُ

لَكان السَّوادُ بعضَ سوادِ.

وَبَقِينا : أَنتِ المليكةُ في زوش،
وأمّا أنا ...

أوربّ

كأنّما تريد وقفها

مرى !

مرى

... فخؤونَهْ ،

زيّنتْ خفْضةَ الجناحِ لِنَسرٍ
شكّ في ملعب النُّجوم جبينَهْ.

أورب

مَن ؟ مرى، مَن سواكِ يَرأَفُ بي بعدُ ؟

مرى

برجاء

حَنانيكِ لا !

أورب

مرى، رُحماكِ !

وكمن أمّلت إقناعها تروح تغريها بأن تدلّها على الطّريق التي سيسلكها قدموس

هذه دربُه، وقبلَ بُزوغ الصُّبح.

مرى

مُشيحة بدورها عمّا تدعوها إليه

سُمِّرتِ، دَورةَ الأَفلاكِ !

البيوسى غداً أغاريدُ نصرٍ

حول تنّينها، وهُزجُ نساءٍ،

وفتى الشرق مُوحَدٌ، لا قُدودٌ

راقصاتٌ لسيفه المعطاءِ.

أَوَلن يستثيرَه، يا ترى، الشوق،

ويَشْهى كَأنْ الى صيدونِ ،

ويقول : « اصعدي إليّ دُفوفاً

ومزاميرَ واشهدي ليُميني » ؟

فيراني أُلقاه مقروحة الأجفان،

نَدّابةً أُحُرُّ الجَلامدْ ! ...

صارخة كأنّما استشعرت أنّها إنّما تكلّمت مقتنعة

لا ! وجُمّعن بي، نساؤكِ ، صيدونُ،

غَداةَ ابنُكِ استطاب الزَّغاردْ.

بيأس

أنا رَيحانـةُ الخريـف شَجانـي
نبـأُ الغـيب مُزّقَت أَستـارُهْ،

غديَ الزمهريرُ إن قلتُ أَبقى،
وربيـعٌ أَمسي يَهُـدّ اذّكـارُهْ.

كان أَيارُ وافتراريَ في السّوفِ،
ويأتـي الآتي وأحـلاهُ فُضّا،

لم يزل لي إلّاكِ، يا صُفْرَ اوراق،
فَطِيبي كحلاً لعيني، وغمْضاً.

واغمريني، فانت أحنى على الأرض،
وأبقى من كلّ رفّ وهَلّ،

ألعُلى سؤلُهُمْ! وما بكِ من فَقرٍ،
فظلّـي فريـدةً دون سُؤلِ.

بقيتْ خطوةٌ إليه، وتُحكى
قصةٌ من خُرافـةٍ ومُحـالِ!

قيل: «كانت إلٰهةً.» وانتهى القول!
فيـا طفلـةً لَهَتْ بظـلالِ!!

نافذة الصبر

ما لقدموسَ لم يُطِلَّ ؟

مرى

كأنّما تستيقظ من غفلة

كِليه

لي. رضيتُ التقاءَه بدموعي.

أورب

كأنّما لا تصدق

أَوحقّاً !

مرى

طِيبي ــ فديتكِ ! ــ نفساً

واطمئنّي إلى جريحِ ضلوعي.

تعانق أورب

أورب

قادمٌ من هناك.

مرى

طلعةُ قدموس !

أوربّ

قبل أن تخف الى الكهوف التي سوف تختبىء فيها

تسملّتِ، يا مرى، آمالـــي.

ليس إلّا يداك بعدُ : تشاءَان،

فصبحٌ غدي، ولا، فَلَيــالِ.

واحذري لا يخُنْك لفظٌ كحدّ السّيف

يَفري، او كالتِّعِلّات يُغري،

إنْ يَفُتْ قولَكِ النَّفادُ إليه،

فأنا ههنـا لأفضحَ أمـري،

وتكونيـــنَ أنتِ سلَّمتِنــــي

مرى

رَبّي !

أورب

وتحيَيـــنَ من يديكِ . بشانِ !

كلّما همّتا تراءَى لكِ الإثمُ،

فأجفلتِ منهمـا تلحقـانِ !!

تلجأ إلى أحد الكهوف

المشهد الثالث

أورُبّ (مختبئةٌ)، مِرى، ثمَّ قَدموس

مرى

رأفةً بي ! وهَمتِني جلمدَ القاع،
ولي ــ مَن مُصدّقي ؟ ــ بعضُ قلبي،
يصدم الصَّخرَ في الليالي فيرنو
قائلاً : « هل أصبتُ صخراً بكَربِ ؟»
ذُدتُ عن ركبنا إلى الشَّمس بالغضبة
جاشت في صدريَ المَكلوم ِ،
لستُ فيهم، فهل أقلُّ من الإيمان
بالفاتحيــن أرضَ النُّجــوم ِ ؟!
هو قدموسُ ! ما أقول لِقدموسَ !؟
وهل في الوجود غيرُ الحقيقهْ ؟
شيمةُ النَّبرةِ العَلِيّة في أهلي،
وفـي تِلكـمُ الجبـال الطَّليقـهْ،
طوّقونـا بهـا قلائــدَ حُسن ٍ،
وزَهَونا بها على كلّ شاهِقْ،
ربِّ ان خنتُها فلا خَفَقَت نارٌ
بصدري، ولا نَعِمتُ بِبـارقْ !

بعتاب لنفسها مرير

ويحَ أوربّ ! ما أرادَتْ وما نالت ؟

خداعاً منّي لنفسي العليّهْ ؟

وكلاماً يُنمّق الزُورَ في عيني

ويُودي بالمَكْرُمات السَّريّهْ ؟!

لِمَ، يا قولُ، ما عَييتَ عن القول،

ولا رُحْتَ شيمَةَ الصَّخر شهما ؟!

شرفُ الصَّخر أنَّه القبرُ لا يُنطِقُ،

حين القولان تَجْوابُ أعمى.

ما الحياةُ ؟ انتباهةٌ من فتًى سَكرانَ،

عارٍ، مشوَّهِ القسَمـــــــاتِ،

وقَعَتْ عينُه على حالِه، فانهال

شتماً على الصَّبـــاح الآتي،

ثَمِلاً ؟ كان. والذي يَلطِم الآن

جبيناً كمنْ يحطِّـم آنَـــهْ،

ليس في سكرةٍ ولا في خبالٍ :

بَشَرٌ مجّ للبِلـــى انسانَـــهْ !

يدخل قدموس فيصدمها تقلده السّلاح

أسِلاحٌ، قدموسُ، والخصمُ أفعى ؟!

قدموس

معرضاً بها هي وقد تواطأت مع أخته على الهرب

عدتُ أخشى، مرى، نيوبَ الأفاعي !

مرى

لنفسها

ربِّ !

لقدموس

والعهدُ بالنُّزول الى الساحات

كالحقّ، أُعزلاً، والشُّعاعِ ؟

قدموس

كان.

مرى

مَن ذا يقولها ؟ أنتَ، قدموسُ ؟!

قدموس

مستمراً في التّعريض بها

وعمّن أخذتُ نُقْضَ العهودِ ؟!

أَقْصِري ! فيمَ جئتِ ؟

مرى

أسأل حقّ

العبد — فأُرأف به — على المعبودِ.

ما أنا مَن تَروغ، أو ترتضي الزُّورَ :

أنـا جئتُ أطـلبُ المستحيلا،

أنا أدري أنْ ليس يُعطَى، وإن تجعلْه

صيـدونُ سُؤلَهـا المأمـولا،

مطلبٌ ذلُّ مجتديه ومعطيه،

وجَـرحٌ لخاطـرٍ يستعيـدُهْ،

ولَمّهما تحطّ منّيَ أعلـمْ

ما لِبانٌ أُرضَعتُهُ — فأريدُهْ !

قدموس

بِهَلَع

تطلبين انكفـاءَ صيـدون ؟!

مرى

لا قُلتَ، حَنانَيْك، لا !

قدموس

لِمن تعملينا ؟

مرى

إسمعي، يا طَوِيّتي، ظنّني خُنتُ.

وقدموسَ، ما خفضتُ جبينا،

وبلادي ــ أنا ! تراها هو الكُحْل ؟

قدموس

كأنّما يخاطب نفسه

لها نبرةُ البريء أُصِيبا !

لمرى وقد عاوده اهتياجه

ويثيرُ الضميرَ ما طلبتْ منّي !

تمزّقتَ، يا قِناعاً كَذوبا،

حسبُنا رَشفةٌ من الكأس، هل ألفيتَ

في الكأس غيرَ سُمٍّ ناقعْ ؟

رُبّ أفعى كسوتَها ثمن الخبز

حريراً، وبات طفلُكَ جائعْ !

مرى

بتجلد

أعطِني، ربِّ أنْ أُغالبَ صوتَ الدّمع

صبراً، وإنْ أنا اشتقتُ دمعاً،

فبكاءٌ ويكفهرّ صفاءُ العيش

أندى من الهناءَات وَقْعا.

أُخنقي مِن أَساكِ، يا عَبَراتي !

لقدموس موقظة منه تذكارات الطُّفولة

هل يقولُ الماضي لقدموسَ شَيّا ؟

ما أنا اليومَ في الوجود، أنا في الأمس:

لبنـــانُ في مدى عينيّـــــا،

ذاكَ قدموسُ دارجاً عند بابي،

وذراعــاه مُدّتــا لعنــاقِ ؛

من رأى يا تُرى ؟ أمَنْ تسهر الليل

عليه أم ... رِمّةٌ من نِفاقِ ؟!

قدموس

متأثراً، نافد الصَّبر

لا، وتُفدَين، لا تقولي ! تَهاوَى

كلُّ ما بي مِن شاهقٍ تيّاهِ،

وبَكانــي الطفــلُ القديـــمُ.

مرى

بعتاب وحبّ وعبادة

تجنّيتَ،

رضيعي، وسيّــدي، وإلٰهــي.

قدموس

بِحَيرة

مَن تُراني مرجّحاً حين أختار :
مِرى الشُّهبِ أَم مِرى الأوحالِ ؟
صفحةً تَعْبَق الكرامة منها
أَم صِراطاً يجري وراء الضّلالِ ؟

مرى

لم تزل واجداً عليها ويبكي
لأساها، لو ينطق، الجُلمودُ ؛
غَدُها ...

قدموس

آه ! حبّذا غَدُها يُطوى،
وتبقى هذي النجومُ السّودُ !

مرى

أنجوم من بعد أوربّ ؟!

قدموس

مَنْ أُوربُّ ؟
ماتت مُذ وَدّعت لبنانا !

مرى

لم نودّع ما بات في الصَّدر حبّاً،

حيثما الحبّ كان، لبنانُ كانا.

دعْكَ لا تَحفِلِ الحفيظةَ، قدموسُ،

ولا تجْتَدِ السِّلاحَ البوارا.

يَعدلُ الحُكم يومَ يَصلح أَهلوه،

فما هُم ضغينةً واثّارا.

قدموس

وقد عاوده حُنقه عليها

أَنتِ ؟ ما أَنت والتّبجّحَ بالعدل ؟

تُرى العدل عاد دُميةَ لاعِبْ ؟

لفظةً في فم الأَثيم ؟! أَلا يخجل

أعمى يرنو إلى الشمس، كاذِبْ ؟!

كان لي بعضُ رحمة فاستحالت

مذ نكأتِ الجراح حِقداً وثارا،

وإخال الهوى توحّشَ في صدري،

فأَنشبتُ في الهوى أَظفارا.

مرى

لنفسها

ربِّ، أَمسِكْ بها ! فلا لِقِيَتْه
وحشَ غـابٍ.

لقدموس

عهـــدي بقدمـــوسَ أعلــــى.

قدموس

إثمُ أوربَّ حطّنـا من عُلانـا
وكسا أرضَنا، على الدّهر، ذُلّا !

تظهر أورب من مخبئها نافذة الصّبر على رزانة

مرى

ربِّ ! عُمْــرُ الإلٰهـــةُ الآن ...

أورب

عُمْرٌ ؟!
ماءُ وجهي أعزُّ عندي وأبقى،
أُغمِـدِ السَّـيف في فؤاديَ يقْطُرْ
شرفاً، عندمـا يُسَلُّ، وخُلْقـا !

قدموس

ويكون قد حاول سَلَّ سيفه، فيعيده إلى غمده
لا ! وسيفي يعَفُّ عن طعن أُنثى.

أورب

متحدّية كأنّما تريده إلى قتلها

أنبـا ؟

قدموس

بغضب

بـل سَخـا.

أورب

بغضب رزين

رددتُ السَّخاءَ !

لستُ أخشى، قدموسُ، سيفكَ فاضرِبْ ؛

ما صبـاحٌ أهنتَـــه، وأَضاءَ ؟!

قدموس

وبـلادٌ هجـرتِهـا !.

أورب

دعـكَ منّـا.

بيـن طَيـرٍ وعُشّهـا أسبـــابُ،

كلَّ يومٍ لها طَوافٌ بدنيا،

والطوّافُ الأشهى إليها الإيابُ !

أنا أوربّ، عُذْ بأوربّ، قدموسُ،
ولا يَقْتَتِلْ بيَ الوطنانِ.

قدموس

إنطِقي باسم واحدٍ.

أورب

لا. وهذا
وطني بالهوى، وذاك نَماني.

قدموس

لستِ منّا !

أورب

رُحْماكَ !

قدموس

رُحْمى لِمن تَخفِضُ
أمجادها وتَنسى الودادا ؟

أورب

دامعة العينين

ضِقتُمْ بي ؟! ورحمةٌ من بلادي
تَسَع الأرضَ حيَّها والجمادا !

قدموس

أبلادٌ عُقّت، وظلّت على العهد ؟!

أورب

بلادي أنـا، ولبنـانُ عهـــدُ !

ليس أرزاً، ولا جبالاً، وماءً ؛

وطني الحُبّ، ليس في الحُبّ حِقدُ.

وهو نورٌ فلا يضِلّ : فكدٌّ،

ويَـدٌ تُبـدع الجمـالَ، وعقـلُ.

لا تَقُلْ : « أُمَّتي »، وتَجْتاحَ دنيا؛

نحـن جارٌ للعالَميـن وأهـلُ !

قدموس

عبثٌ : لا أعودُ أو يُقهَرَ الغربيّ

أوربّ

بهَول كأنّما تتوقع ما سوف يقول

لا لا، تضِـلُّ !

قدموس

أهْـوى الضَّـلالا !

أورب

وتكون قد أشاحت بوجهها عنه وهو يقول : « أهوى الضَّلالا »، وتجديفه هذا على المعرفة انما يطعنها في الصميم.

بِمْ تفوّهتَ، يا أخي!؟ عُقَّ صيدون ؛
وغَيّضْ أنهارَها والجبالا،
واشربِ الخمرَ في جماجم أهليها،
ودُسْ تاجَها، وذُلَّ السَّريرا،
وازرعِ المِلحَ حيث ماتت فما تحيا —
ولا تذكرِ الضَّلالَ فخورا !

قدموس

وبِمَ الفخرُ، بعدَ أوربَّ ؟

أورب

بالرَّحمة
سطَّرتَها سخيّاً شفيقا،
تأخذ العالمين بالرِّفق والطِّيب،
وبالهَدْيِ، إن يضِلّوا الطريقا.

قدموس

أيّ عِرْقٍ في الغرب يَنبِض بالرِّفق،
فيُجزى الجزاء حُباً بحبٍ ؟!

أورب

أيّ صيدونيٍّ تربّى على البغض،
فيحيا للثّأر ضرباً لضربٍ ؟!

قدموس

علّمونا، فسوف نَضرِب بعد اليوم.

أورب

عارٌ ما قُلتَ، قدموسُ، عارُ.
قُلْ : « بلِ الخيرُ أن نعلّمهم نحن،
فما علّم البناءَ الدّمارُ ! »

المقاتلة الأغارقة

من الدّاخل

طابَ طابَ القتالْ !
واغتدى اليومُ قصيرَ الأجَلْ،
ضِجَّ، يا فجرُ، وقلْ للأزلْ :
نجمُ صيدون مَالْ !

ما لها تُطرقُ،
مذ جرى الغربيّ، هٰذي الجبالْ ؟
وامّحى عن جانبيه المجالْ !
وامّحى المشرقُ !

نحن، يا شرقُ، لا
ننثني، أو نقهرَ المَركبا ؛
غُلَّ بحراً، وافتتحْ كوكبا،
ثبقَ دون العلى !

قدموس

وقد تحدَّاه الأعمى بنشيد الأغارقة

واجبي.

أورب

في محاولة أخيرة كأنَّما تراب بلادها أقدس ما تستحلفه به

لا، وتربِ صيدون، لا تحفِلْ

قدموس

رادّاً استحلافها، مشدِّداً على عظم الواجب

بلى واجبي دعا.

أورب

منكسرة

لا تَسَرَّعْ !

واتَّئِدْ عندما تردُّ ذراعاً ؛
رُبَّ قلب خلفَ الذِّراع تَقطَّعْ.
عُد بنا، يا أُخَيَّ، ها أنا أُرجعتُ.

قدموس

يردُّها

معاذَ العُلى الرُّجوعُ بمرأهْ،

والنِّزاعُ اغتدى نزاعاً على الدُّنيا،

وحُكِّت بجُرأتي كلُّ جُرأهْ!

هُم أرادوهُ دامياً، فليكنْ أدمى،

ويفصِلْ على كرّور الزّمانِ،

بين سَيفٍ أهْلِ اعتداءٍ وسيفٍ

هادمٍ حدُّه، وبالهدْم بانِ.

سعيد عقل

الفصل الثالث

المشهد الأول

مِرى وحدها

محاولة تَشدُّداً

لا، ولبنانَ، ما نَمتْني جبال
كَرُمتْ فازدرتْ من الناس لَوْما ؛
لا، ولا عزمةٌ بمجذاف طفلٍ
حالِمٍ كيف يُلجمُ البحرَ يوما ؛
آن أَشرفتُ مِن بعيدٍ على الوحش،
وبي بعضُ رِعشةٍ واهتياجٍ،
في الشِّعاب الرِّمضاء من بطن واد
مُدلهِمٍّ كما المآثمُ داجٍ.

لم أَكن شِمتُه فأعتاد مرآه،

ويا هَولَ ما تَصدّى لراءٍ!

ذلك الغربُ مستحيلاً إلى الصِّلّ،

غوِيّاً بالمِخلب المِعطاء.

خفتُه ــ عفوَ رُدْن قدموس! ــ يهوي

فوق قدموس، ضافيَ الجسم، طَوْدا

ساحقاً، ماحقاً، يكاد حضيضُ الأرض

يخشى له، إذا مرّ، عَودا.

ما دهاءُ الرِّجال؟ ما الغضبةُ المئناف؟

بالٌ معطّلٌ مسحورُ،

أيُّها الغرب، هاتِ ما ليس بالضَّخم.

كبيرٌ؟ بالعقل أنت كبيرُ!

ربما رُحتَ تقهر الأمّةَ الحَفنَةَ

أرضاً، والعبقريّةَ أُفقا،

فاخشَها، عهدَ قولُها القولُ، هبّت

تتقاضاك، أيّها الغربُ، حقّا!

يشتد تشاؤمها

لَمْ أخف، لا! وريبةٌ خامرتني

أنا جسّمتُها فَحرَّتْ ضلوعي.

ولِمَ الليلُ في شُعاعة عيني ؟
وعلامَ الجفافُ طَيّ ربيعي ؟
مَن أسرّ احتمالةَ الخَسْف في روعي
وقال : « انتهى غداً، قدموسُ ».
توأمُ العزم، حامِلُ الشَّرر الأوّل
يهوي، وفي الوجود شموس ؟!
سوف نبقى ! يشاء أم لا يشاء الغيرُ،
فاصمُدْ، لبنانُ، ما بك وَهْنُ !
سوف نبقى! لا بُدَّ في الأرض من حَقٍّ،
وما مِن حقٍّ ولم نبقَ نحنُ !

المشهد الثاني

مِرى، أورب

أورب

بتقريع

إطمئنّي بالاً، مِرى، اشتبكَ القِرنانِ.

مرى

رُحْماكِ، لا تَريشي السّهاما !

أورب

انا ؟ مَن لي بها فأُرسلَها تفتتُّ

من مهجتي دماً وعِظامـــا !

متذكِّرة نزول قدموس إلى السَّاحة

رمقته عيني، فيا بؤس عيني !

يقحم الموتَ، عهدَه وهو قانصْ،

يضحك الضِّحكةَ المُرنّة كالسَّهم،

ويجري كَرِعدةٍ في الفَرائص.

حمَّل الريحَ وقعَه، أنا قلتُ الشَّطُّ

يُصغي، والبحرُ يعروه هَمْدُ،

والصَّباحُ المسفوحُ في جَمَمِ الأمواج

يعلو، كمَن أطلَّ، ويشدو.

داس ضَرْعَ الإغريق قدموسُ ثَبْتاً،

عبقريَّ الهمّاتِ، طَلْقَ المُرادِ،

لم يَزِنْ خصْمَهُ، ولم يَزِنِ السَّاحةَ،

كالطَّـــود لم تُخِفْــهُ عَوادِ.

ومشى، مسحةَ السَّنى، هل نَضا سيفاً ؟

وهل سَلَّ خنجراً من حزامِهْ ؟

لا، وروعُ التنّين يَغلي وعيناهُ

مهاوٍ من القِلـــى ومَهامِـــهْ،

يتمطّى تهيُّؤَ الحاملِ الضّاري

وتجوابَ طَيّعِ الجسم، ضامرْ،

يضرِب الأرضَ بالجناح وبالذيل،

كما يقحم المُحالَ مُكابرْ.

قال قدموسُ: « ها أنا ! » واحتواه

بذراعيه.

مري

أكملـــي، ضاق صدري !

أورب

لم اشأْ أن أحطَّ في الأوجَع الطَّرفَ،

فروحي اشهديهما، عند قبري !

المشهد الثالث

أورب وحدَها

نؤتِ، نفسي، بالعِبء، فاعتمدي الأرض،

أما هزّنا إليها الحنينُ ؟

وانتحِي مطرحاً من الصّخر خَشْناً ؛

رُبَّ صخرٍ، عند الشّكاةِ، يلينُ.

ربِّ، ما نفحةُ السّعادة في الأرض ؟
ضُحىً خاطفٌ يزور النّياما ؛
حظُّهم منه مطمعٌ بالتّلاقي،
فإن استيقظوا غدا أحلاما.

أنا خِلتُ الحياةَ مَدَّ ذراعينِ
إليها، ورَشْفَ ثغرٍ جميلِ،
واكتحالاً بالصّحْو والأمل الطّلْق،
ومَرّاً في خاطر المستحيلِ.

ضجعةً فوق أضلعٍ واجداتٍ،
وقياماً على سنًى وأريجِ،
ضاحكاً وجهُها لِبُحبوحة العمر،
على رَنّتينِ من دُملوجِ.

فتبدّتْ جوفاءَ كالقبر، إلّا
من مخيف الأطياف والأشباحِ،
خفقةٌ شابها دَمُ الأجْنحِ البِيض،
ونفحٌ عَراه موتُ الأقاحي.

ليتني رُحتُ لم أضِقْ بهما ذَرْعاً،
وحُمِّلْتُني كُرورَ ثوانِ،
أشهدُ السُّمَّ كيف جوّده اثنانِ
لكأسٍ هما بها ثَمِلانِ.

تَوّاقة إلى جَسِّ المستقبل
من مُزيحُ الزَّمان عن عرشه الغفْلِ،
ومستصرخٌ، من الغد أنَّهْ،
علّني أَفجأُ الغيوبَ سلاماً
قبلما تغتدي ظُبّى وأَسِنّهْ.
أيُّها الأنتظارُ، يا صفحةً مِ العمرِ
حُبْلى بكلّ ما ليس يُقرا،
صخرةٌ عِبْؤُها على الآنِ شدَّته
إلى بعضه، فسُمِّرَ دَهرا!

المشهد الرابع
أوربّ، الأعمى

الأعمى

سَلّ سيفاً قدموسُ ما حدّه حدٌّ،
وحاميكِ مثخَنٌ بالجِراحِ.

أورب

لا تَخفْ أن تقول: «مات!» ولم يَبْقَ
لعينيَّ مطمعٌ بصَباحِ!

الأعمى

لم يمتْ فانجُديــــــــــهِ !

أورب

ويخَــكَ ! ماذا ؟

أوَ أَغدو من خلف قدموسَ خَنجرْ ؟!

الأعمى

إنّما ذُدتِ عن حياتِك، أوربُ،

إذا ذدتِ عن دم راح يُهدرْ.

أورب

فيمَ تُغري يدي بسفك دماءٍ

وأنا رحتُ من يدي أتبرّا ؟

يوم دَلّت على البسيطةِ قدموسَ

وخلّت، انّى تحطّمتُ، ذِكرى.

الأعمى

أيُّ ذكرى وما وفيتِ بعهدٍ !

أورب

لحبيــبٍ !

الأعمى

لا بل لحامـــي حِمـــاكِ.

أورب

يا لوَحشٍ يبغي انتصاراً لوحشٍ!

الأعمى

بل حِفاظاً على كَذابِ هَواكِ.

أورب

بتفجّع وحسرة

هكذا، يا هواي، لوّحتَ تُغريني
بعمـرٍ أُغنيّـــةِ الأدهــارِ!
لم تشأْهُ إلّا لتَستُـرَ عيبـاً
هو ظِفرٌ، ولا كظفر الضّواري.

الأعمى

من تُرى أشعـل الوغـى؟

أورب

هَبْهُ قدموسَ،
أأقضي أنا على قدمـوسا؟!

أأخٌ قاتلٌ أخاً ويُرى نورٌ ؟
أَلا دُمتَ، يا دُجى، لي انيسا !
وتمزّقتِ، قبل أن طبتِ في ثغرينِ،
يا قبلـةَ الغـرام الشّهيـدِ ؛
لِلجفـون المُقرَّحـات، سَتبقَين،
وللدّمـعِ حافـراً في الخـدودِ.

الأعمى

لو تَصبَّرتِ وسْعَ بؤسكِ ، فالأقدارُ
عُمــيٌّ، تحبـو وتـمنـعُ.

أورب

تَحْبُو !
يُقرأ الفجرُ في غُيوم العَشايا.

الأعمى

ويُلاقَى، قبل الهنـاءِ، الصَّعْبُ.

أورب

فليَكُنْ ما يكون ! أحياكِ أم لا،
يا حياتي، فمـا أنـا لِأُبالـي.

الأعمى

محبّباً إلى أورب العيش، قصدَ استخدامها في رَدّ قدموس

أنتِ، أوربُ، تَكفُرين بِنُعْمى ؟

أنتِ، يا نجمةً تَمرُ ببالِ.

أيُّها الحسْنُ، سَكْبَ من سَكَب الشَّمسَ،

وقال : « ازدَهي على كلِّ حسنٍ.

واخلبي حبّة القلوبِ، وضُجّي،

في تَثَنّيك، بينَ رِيفٍ وجُفنٍ.

أنتِ للتّاج، للتحرُّش بالأولمب،

للعـــزفِ طار بالأوتـــارِ،

ولأرضٍ جاءت إلى الكون، مذ جئتِ

علـى سَجْعـةٍ من الأطيـارِ ».

أوَأشهى من الحياة ؟!

أورب

بلـى، أعمـى

البيوسـي : استهزاؤنـا بالحيـاة !

يومَ تغدو الحياةُ قِسمـةَ حُرٍّ

حَمَّلوه للغـدر سَيْـفَ الجُنـاةِ.

الأعمى

مَن سواكِ الأثيم؟ تحيينَ حُلماً
يتخطّى الدُّنى، ونحن نُقاسي!

أورب

ما غَوَتْني العروشُ، يوماً، ولا السُّؤدُدُ:
أحبَبْتُ فاستثرتُ الرّواسي.

الأعمى

أَقصِري! كَرُّ ثانياتك معدودٌ،
ودنياكِ خطْفَةٌ في الزّمانِ.
للكِ أم لا رأيٌ فقرّي على رأيٍ؛
ولات البلوغُ بعد التّواني!

أورب

وَيْكَ! ماذا تريد؟

الأعمى

حَجْبَ دماءٍ.

أورب

كيـفَ ؟

الأعمى

رُدّي عنّا الكَمِيَّ العنيدا.

أورب

هو يأبى.

الأعمى

دوســي الأبـيّ، اقتليـه.

أورب

بهول وحُبّ

هـو قَـدموس !

الأعمى

لا تُقيمي حدودا.

المَشهدُ الخامِس

أوربّ، الأعمى، مِرى

مرى

وقد سمعت قول الأعمى
ألقميه الجوابَ !

الأعمى

كأنّما يبرّر مطلبه

أيُّ جوابٍ ؟
صَرَعَ الوحشَ وحشُ صيدونَ جُبناً !

مرى

لا ! وكان الخَصمَ الشَّريفَ فَعالاً ؛
راحَ يأسو جرحَ الجريحِ، ويُعنَى،
وكَمَنْ بُكّتَ انتحى ؛ قلتَ أَسْيانَ ؛
وقلتَ احترامَ نِدٍّ لِنِدِّ.
وتمنّى لو ينهضُ الجبلُ الموتور
يحبوه بالجوابِ الأشدّ.
كاد يرضى بالنَّصر، لولا هُتافٌ
خِلتهُ الدَّهرَ صُدَّ عند الشَّفيرِ :

« هَيْتَ، قدموسُ، طِرْ وأَنجِزْ عليه
فُضّ وازرع أَضراسَهُ في الصُّخورِ
تُنبتِ الأرضُ ماردينَ عُلًى ينون
رِثيبا أعجوبـةَ الأجيـال.
تلك أُولى حواضرٍ مئةٍ تُبنى
على اسمِ القَدامِسِ الأبطالِ. »
عَفَّ، لولا أنْ عاودَ الخصمَ عزمٌ،
وكَمَنْ هِجْتَ اصبعاً في جراحِهْ،
سَلّ من ضعفه قِوًى، وأتى قدموسَ
في جَهْـمِ ثأرِهِ ووقاحِـهْ.
رَدّ قدموسُ عن سَخاً.

أورب

أَوَأَرداه ؟!

مرى

تشكّين ؟ شِمْتُه استلّ عَضْبا،
ما استطابتْ عيناي إن تريـا القتـل،
وعِفْتُ التقاءَ حاميكِ كَبّا.

الأعمى

أَوَلم تشهديه يَسقط ؟

أورب

ما هَمّ ؟

ويكفي أن سلّ قدموسُ سيفا.

كأنّما لا يزال يؤمِّل أن يكون الوحش على قيد الحياة

ربَّما ... فانهَدي.

مرى

الى أينَ أوربّ ؟

إلى حيثُ يعدِلُ الحَيْفُ حَيْفا.

أورب

موقنة أنَّ أورب بلغت من الحمق أن ستطلب عون زوش على قدموس

أإلى زوش ؟!

أورب

إي، وقدموس، أرتد

بسيف العُلى على قدموسا !

الأعمى

لنفسه

فَعَلَ السُّمُّ فِعلَه فإلى السَّاح.

المشهد السادس

مرى وحدها

تَضلّانِ، والـذي ضَلّ دِيسا !

تُصلّي

رَبِّ، رُدَّ الأهوالَ أقبلن يضربنَ،

وجُدْ لاتَ ما خَلاكَ يَجودُ !

ربِّ، جَلَّت يُمناكَ لا تعرفُ القَبْضَ،

فمَن منكَ، ربِّ، لا يَستزيدُ ؟

كلَّما غَبَّتِ الحَساسينُ من ماءٍ،

رَنَتْ حُلوةً إلـيكَ بشكـرِ.

وتعالت إليكَ في لفتة الصبحِ،

صلاةٌ من زَقزقاتٍ وزَهـرِ،

جُمّعتْ، ربّيَ، الخليقةُ في صوتي

تُناجـي، وسَبَّـحت تُتغنّـى،

وتَملَّت، في رِفعة الرأس والطرف،

جُثُوّاً من رُكْبَتيـنِ ووَهْنـا.

وأنا أستجيرُ بالرَّحمة الأولـى،

بنُـورِ الأنـوار، باليَنبـوعِ،

أنْ تَقَبّلْ، رَبّي، قَرابينَ حُبٍّ،
ورجـاءٍ، وذِلّـةٍ، ودمـوعِ.

أعطِنا، رَبِّ، قبل كلِّ عطاء،
أن نَحُطَّ التفاتةً في سَناكا،

كلُّ ما دون وجهك الجَمِّ وَهْمٌ:
أعطِنا، رَبِّ، أعطِنا أن نَراكا!

وترأَّفْ، يا أيُّها السعةُ الكبرى،
وترأَّفْ، باللائـذِ المحتـاجِ،

وانصُر القابسين من فَيضِك الهديةَ
للكـوكـب الضَّـلول الـدَّاجـي.

لألأتْ كلُّ هَضْبةٍ فوقَ لبنانَ
تُصلِّـي، وهـامَ كلّ فضاءِ،

وتَسامى مَجامراً جَبَلُ الأطياب،
فافتَحْ، يا ربِّ، بابَ السَّماءِ!

المشهد السابع

مرى، الأعمى

الأعمى

بِشْرَ شَعبِ الإغريق ! بشرُك ِ، أوربُ،

فقدموسُ بين حَيٍّ وميْتِ.

مرى

وقد استحال عليها تصديق النبأ

كَذِبٌ.

الأعمى

لو رأيتِه جرّر الخِزيَ

جريحاً على الثّرى، لازدَرَيتِ !

مرى

كان دُنيا.

الأعمى

وذَلّهُ الخصمُ ذُلاًّ.

مرى

متذكِّرة تتمّة بطولته

أنا أبصرتُه فُرُى كبرياءَهْ.

وتلقّاه، حذرةَ الرَّدّ، بالضَّربةِ
كبّت على الحضيض مضاءَهْ.
هاج يكسوهما العَجاجُ، فلم أُبصرْ
سوى السَّيف صاعقاً كالضَّميرِ،
والأساطيرُ حول ضربته تولد
في الصَّخر، في الرُّبى، في العصورِ.
أجفلَ الشّطُّ، أجفل الموجُ للسَّاحة
ترتجُّ بالبطولة عَريا ؛
فتُعير البحارَ خوفاً، وتكسو الصّمْتَ
عمقاً، وتُكسب الشمسَ جَليا.
أنا أحسستُ عند وَقْع الجناحين
صُراخاً من عالَمٍ في انهيارِ،
يتولّى مُحلولكاً في الدَّهارير،
ويفنى مُوَلولاً في الدمارِ.
وعلى الأَنمُل السَّنيّاتِ من قدموس
بيضاءَ نجمةٌ تتفتّحْ،
طافراً من جلالِها مثلُ صبحٍ
يتعالى بينَ النُّجوم ويمرحْ.
أفهذا، أعمى البيوسى، يُسام الخَسفَ
والذّلّ ؟ لا.

بلى ! وقضاءُ

حطّ من كبريائِهِ عند صخرٍ
قابعٍ، فهو والمنى أشلاءُ.
مَن مَعيني أصبُّ في سمعك الوقعة
أبلى فيها القضاءُ سخيّا.
قال : « ما كان للمُكابر عزمٌ ! »
وطواه على المَذلّة طيّا.
أنا، مِن خِيفتي، حَملتُ الى زوشَ
صراخَ الصَّريع حَولاً وطَوْلا،
أنا أرجفتُ حول قدموسَ أنباءَ
اقشعرّت لها الفَرائصُ هَولا،
حرّكتْ زوشَ رِعدةٌ فجَرَتْهُ
غَضَباً مُتْرَعَ الشَّباب، أصمّا،
وغَلَت في يديه صاعقةٌ شمطاءُ،
مولودةٌ مع الدَّهر قِدْما.
ومشى في غَمامَتين إلى قدموسَ،
يهوي بزَعزعٍ إثر زَعزعْ،
شدّد الوحشَ صوتُه، فتملّى
من نيوبٍ في فَكّه ليس تشبعْ،

هَبّ يطوي العَجاجَ في طَلب الثأر.

مرى

نافذة الصبر

وقـدموس !

الأعمى

في اتّقـــاء الصّواعـــقْ،
لفتَةٌ في اللظى، وأُخرى الى الخصم،
ولا زَندَ، آن يضرِب، واثِقْ.
أبـداً لا يقـرّ عينـاً، وإلّا
حطّمته من السَّمـاء شظيّـهْ،
أبداً لا يكُرّ كرّتـه الأولـى،
وإلّا التَقَتْـهُ نابٌ فتيّـهْ.
فهوى.

مرى

موجعة تأبى مجرّد التفكير بانهزام قدموس

لا تقلْ !

الأعمى

وجرّرَ جثماناً
على الأرض.

مرى

لا !

الأعمى

وعفّرَ حُلمـا.

مرى

خلّني !

الأعمى

بتلذذ

وانطوتْ على ليل عينيه
أمانيُّـهُ البـواسمُ دُهْمـا.
وتراءَت له، على البُعْدِ، آمالٌ
عِراضٌ في كَسفـةٍ واصفـرارِ،
وجهُ صيدونيا يَغيبُ، وغاباتُ
الصَّواري العُلى، وملْكُ البحارِ؛
ورأى مِخلباً ...

مرى

حنانَـك ! يكفينـي.

الأعمى

ونـاباً ...

مرى

دعني !

الأعمى

وعينـاً ...

مرى

أقِـلاّ !

الأعمى

ورأى رغوةَ اللُعاب على الفكّين.

مرى

هاربة

لا! لا!!

الأعمى

رأى القضاءَ مُطلّا.

وأنا ذاهلٌ على صخرتي، أزهو

كأعمى في ثأرِهِ غيرِ أعمى؛

أُفحِم الشمسَ في الضُّحى، فأَرد النّصرَ

كسْفـاً وأُطلـعُ العـزّ وَهمـــا.

ثملا بلذّة الثّأر

رِيبةٌ بي؟ ضلَلتِ، مُرضعَ قدموسَ،

رجاءً، ضللتِ سهمـاً وقَصدا.

فخذيها وقيعةً عصَفَتْ بالفتح

يَبْساً، وبالجزائـــــــر جُرْدا.

أُنظري، تلتقيه أَضغاثَ حُلـمٍ

نصرَ قدموس.

المشهد الثامن

الأعمى، قدموس

قدموس

متفكِّراً حزيناً

نصرُ قدموسَ دامٍ !

الأعمى

ربِّ ! قدموسُ في الوجود ؟!

قدموس

وما هَدَّته

دُهْـــمُ الأهـــوالِ والآلامِ !

وقعةٌ كالكَذاب ! شِقٌّ من الغيب،

وشِقٌّ من الليالي الدَّياجـــي.

مستجمعاً ذاكرته

كيف كانت ؟ بينا أنا تحت وَبْلٍ
راجمٍ من صواعقٍ وعَجاجٍ،
عَبَثاً أحتمي بأشدقَ غورٍ،
عبثاً أتّقي بأصلعَ صخرٍ،
ونُيوبٌ صفراءُ تلمعُ دوني
في صَريرٍ يَحزُّ أعماقَ صدري،
لوّحت لي، على البعيد، يدٌ بيضاءُ
تزهو بالأحمر الأُرجواني،
ذكّرتْني أوربَّ، عهدَ العذارى
طافراتٌ على رُبى لبنانِ،
أيُّ نُعمى في وجهها ! لا سَنى الاشراق
أبهى ولا جلالُ الغروبِ.
قدُّها شِلْحُ زنبقٍ أبيضٌ عَفٌ،
وتخطو فالأنس ملءُ الدُّروبِ.
طوّقتني بالبِشر، مذ ضحكتْ لي،
ورَنَتْ صوبَ زوشَ تسأل رِفدا،
كان إن مَسّ طرفُها نارَ زوشٍ
يترك النارَ ياسَميناً ووردا.

وتنفّستُ ألتقي عزميَ الرَّاجعَ
في وابلٍ من الزَّهر نَضْرِ،
ونفضتُ الغبارَ عنّي وأطبعْتُ،
على وحشِهم أَقُدُّ وأفري.
خلِّني خلّني من الفخر.

الأعمى

مستفهماً بِهَلع

ما مات !

قدموس

بلى ! انهار لا يحير صريعا

الأعمى

قُلتَ ؟! ...

قدموس

مات الصَّباحُ في تَينك العينينِ،
وارْبدَّ كلُّ أفقٍ وريعا،
وعلا هاتفٌ أنِ « افتضَّ من فَكّيه،
وازرعْ أضراسَه في الفَلاةِ،
تُنبتِ الأرضُ مَن يَشيدون للقدموس
أُولى المَدائن الخالداتِ ».

الأعمى

هل أَجبتَ الداعي ؟!

قدموس

كأنَّما يلوم نفسه

أجبتُ ! وما أنجزتُ

حتَّى لم يبقَ ظِلٌّ لرؤيا،

وتهاوى الظَّلامُ حولي كثيفاً،

خِلتُ دنيا راحت تُحطِّم دنيا.

وعَرَى بسمتي خريفٌ من اللون،

وأحسستُ وحشةً في الصَّباحِ،

موجعاً

أَيُّ جفنٍ يُغضي فيُلهب صدري !

أَيُّ جيدٍ يُلوي فيَكوي جراحي !

وسرى الخوفُ فيَّ للمرّة الأُولى !

سرى ؟ لا.

الأعمى

بثأر

بلى، وكان نَذيرا !

قدموس

بِمَ أُنذرتُ ؟ قُلْ.

الأعمى

بِأُوربّ، يا قدموسُ.

قدموس

أختي ! ...

الأعمى

تحيـــا الصَّبـــاحَ الأخيـــرا !

قدموس

يفتديها ...

الأعمى

مَن، أيُّها الصَّارعُ العزمَ
يقيهـــا أُسِنَّـــةَ الخالـــداتِ ؟
إنتظرْها أمرّ من شَجْوك اليَوْمَ،
وأمضى من مِخْلب الحَسَراتِ.

قدموس

آهِ وَيحي !

الأعمى

بسُخرية ومرارة

ما أجملَ الآهَ سَيفاً
قاطعاً في يد الكَمِيِّ فِرِنْدا.
قُمْ إلى سيفكَ الجديدِ، وأفحِمْ
قَدَراً رحتَ تزدريـــهِ، وَصدّا.
« قدرٌ فوقنا » مَقالـةُ جُبـنٍ ؟
أرِني، يا ابنَها، وَغًى غيرَ جُبنٍ،
بطلٌ ؟ كُنْهُ في لِقائك أقدارَكَ،
كُنْهُ زُهـاءَ طَرْفـةِ جَفـنٍ.
أخـتُك اليـــومَ للمَنيّـــةِ.

قدموس

زُورٌ.

الأعمى

زمجرَ السَّيلُ، وَهيَ منهُ حصاةُ.
خُذ، فتى البحر، خذ بناصرها الآن
وللرِّيـحِ غضبـةٌ وافتئـاتُ.

قدموس

عَزْمتي ! عزمتي !!

الأعمى

خيوطٌ من الوهم،

وومضٌ من السَّراب نحيــلُ،

فابكِها.

قدموس

مستبعداً الفكرة

لا !

الأعمى

تقول : « لا » وعلى وجهِكَ
جَهْشٌ من الأسى، وعويلُ.

قدموس

أنـا !

الأعمى

أَوْهى من مرأةٍ، في مراميكَ
ازورارٌ، وفـي قواك انهيـــارُ،
واجفُ الجسم ...

قدموس

لا ! وبأسيَ، يا أعمى،
وزندي ؟

الأعمى

باحتقار

هشٌّ ولونٌ مُعارُ.

طيفُ جسمٍ يكاد يخلعك اليومَ.
ويمشي عليك.

قدموس

لا.

الأعمى

ويدوسُ.

قدموس

أنا ؟ أُغنيّةُ الرماح، عِنانُ البحر... ؟

الأعمى

كأنَّما يردُّ بالقول نفسه الذي ردَّ به قدموس في الفصل الأوَّل
أمساً.

قدموس

أمساً ؟ أنا قدموسُ،
تَوْأمُ العزم ... ؟

الأعمى

هاتِ من عزمك اليوم،
وحَوِّرْ في صفحة الأقدارِ،

خُطَّ في صبحك المريضِ ولو حرفاً،
وزَحزحْ قُلامةً من غُبارِ.

قدموس

مذعناً للحقيقة

جَهْمةٌ طلعةُ الصَّباحِ، وخرساءُ
التَّنادي في أضلعي المُعْوِلاتِ؛
ويكاد الشُّعاعُ يلهبُ أعصابي،
ويَهمي أسِنَّةً في شَكاتي.

الإلٰهات

من الدّاخل

ما له الدَّمعُ طابْ!
مجدُ أُوربّ طواهُ الرَّدى.
رُقَّ، يا وردُ، ونُحْ يا ندى:
«وَجهُ صيدونَ غابْ».

المشهد التاسع

قدموس، الأعمى، مرى

قدموس

وقد رأى مرى تدخل عليه وحدها مذعورة، محطَّمة

وحدَكِ اليوم ؟ فيمَ صمتُكِ؟! ضجّي.

أوَحقٌّ إعْوالُ هذا السُّكونِ ؟

أوَأغمضتِ أنتِ طَرْفاً عليها

واختزنتِ البهاءَ طيَّ الجفونِ ؟!

أوَشِمتِ الذِّراعَ تهوي على القدّ،

وكانت إشارةً في الكمالِ ؟!

باعدت فاقتفيتُها، فدفعتُ الصَّخرَ

من غفلةٍ إلى صحو بالِ.

أوَماتت عروسُ لبنان ؟! جوعي،

يا تراباتِنا الى رَطْبِ ظلّ ٍ،

واهدئي، يا غصونُ، واصفرَّ يا زهرُ،

فمَنْ بَعدَها لحسْن ٍ ودَلّ ٍ !

الأعمى

مُقرِّعاً

مُدَّ كفّاً إلى الحقيقة، يا فاتحُ،

والـمُسْ، فمـا الحقيقـةُ زُورا.

تَقحمُ الارضَ،تَقحم النَّجمة الأُخرى،

وتبقى دون السَّمـاءِ صغيـرا !

الإلٰهات

من الدَّاخل

سوف تبقى، غدًا،

للأولـى يمضون لا يرجعـونْ،

ـــ حدُّهم في السَّعي حدُّ الظنونْ ـــ

إصبعاً في الهدى.

غنّنا باسمِها،

واقعاً مَلّ، فكان الخيالْ.

مَن تَرُحْ تقرعُ بابَ المحالْ

تُدْمِهِ، يُدْمِها !

مرى

كأنَّما تَنعى أورب

غابتِ الشَّمس !

قدموس

ربِّ !

مرى

وقد ظهرت رؤيا لمدينة تشاد مشيقة الأعمدة، شاهقة القباب، ترصف حجارتها، كما جاء في الأسطورة، كل ردّاً على نغم، ومداميكها كل استجابةً لإيقاع

حدّقْ !

قدموس

. وكأنَّما تهلَّل وجهه لأوَّل مرة

هُمُ صيدون

راحوا يبنون أبراجَ رِثيبا،

رفعوها أنقى من الشمس لألاءً،

وأبهى من العَلاء وُثوبا !

البحّارة الصّيادنة

من الدَّاخل

غرّبي، يا بحارْ،

شُرّداً بالأَمل الغَضّ ِ،

ههنا، في آخر الأرضِ،
كَرمةٌ لي ودارْ.

الإلٰهات

من الداخل

ما لَهُ الدَّمعُ طابْ !
مجدُ أوربّ طواه الرَّدى !
رُقّ، يا ورد، ونُحْ، يا ندى :
وجهُ صيدون غابْ !

الأعمى

وقد ظهرت رؤيا أخرى، قبالة الأولى، لالٰهات ينتحبن حول قبر من رخام عال، أنيق

قبرُ أوربّ !

مرى

ولم تنفكّ شاخصة إلى الرؤيا الأُولى

مُلْكُ صيدونيا !

قدموس

محطّماً يتأرجح بين المشهدين : مجد بلاده ومصرع أخته

قِسمَتُنا

من هِدايةٍ وفتوحٍ :
نحمِلُ الأرض، إن نَشأْ، فوق كَفّين ؛
ونمضي كريشةٍ في الرِّيحِ !

سِتار

تمت

فهرست المجلد



سعيد عقل

شعره والنثر

المجلد الثاني

رندلى

غد النخبة

أجمل منك؟ لا

نوبليس

سعيد عقل

شعرُه والنثر

المجلّد الثاني

رندلى

غدُ النُخبة

أجملُ مِنكِ؟ لا

نوبِليس

للمؤلف

المجلّد الثاني

رندلي
غدُ النُخبة
أجملُ مِنكِ؟ لا

رنـــدَلى

الطبعـة الاولى ١٩٥٠
الطبعـة الخـامسـة ١٩٩١

لفح الجمال

ألعينيكِ ؟

ألعينيكِ تأنّى وخطَرْ،
يفرش الضوءَ على التلّ، القمرْ ؟

ضاحكاً للغصنِ، مرتاحاً إلى
ضِفّة النهرِ، رفيقاً بالحجْر،

علّ عينيكِ إذا آنستا
أثراً منه، عرى الليلَ خَدَرْ.

ضوؤُهُ، إمّا تلفّتُّ، دَدٌّ،
ورياحينُ فُرادى وزُمَرْ،

يغلِب النسرينُ والفلّ عسى
تطمئنّين إلى عِطرٍ نَدَرْ.

مَن تُرى أنتِ، اذا بُحتِ بما
خبّأتْ عيناكِ من سرِّ القدَر ؟

حُلْمُ أيِّ الجنّ ؟ يا أُغنيّةً
عاش من وعدٍ بها سِحْرُ الوَترْ.

*

نسجُ أجفانِكِ من خيط السُهى،
كلّ جَفنٍ ظلّ دهراً يُنتظرْ،

ولكِ النَيسانُ، ما أنتِ له،
هو مَلْهىً منكِ أو مرمى نَظرْ.

قبل ما كُوِّنت في اشواقِنا،
سكِرتْ مما سيعروها الفِكَرْ،

قُبلةٌ في الظَنِّ، حسنٌ مُغلقٌ،
مشتهىً ضُمّ إلى الصدر وفَر.

*

وَقْعُ عينيكِ على نَجمتِنا
قِصّةٌ تُحكى وبثٌّ وسَمَرْ،

قالتا: « ننظُرُ »، فاحلَوْلى النّدى،
واستراح الظلُّ، والنورُ انهمرْ.

*

مُفردٌ لحظُكِ، إن سَرّحْتِهِ،
طار بالأرض جَناحٌ من زَهَرْ،

وإذا هُدْبُك جاراه المدى،
راح كونٌ تِلوَ كونٍ يُبتكَرْ !

الأُنّا في الوجُود

يا بَعضَ ما أنتِ، هل نَوال
لموعِدٍ بات في المُحالْ ؟

ولي، إذا تذكرينَ، عهدٌ
أبهى وأشهى من الخيالْ:

يا طيبَ ما انهار فوق زَندي
ذَيّالِكَ الخصرُ من دَلالْ،

ورائحٌ حبّنا وغادٍ
على نجومٍ، على ليَالْ،

يُعطّرُ العِطرَ، فهو منّا
عن نفسه بعدُ في سُؤالْ.

ما الحُسنُ ؟ ما اللونُ في العشايا،
لوما طفَرنا على التّلالْ ؟

وملّنا اللوزُ، فهو نَهْبٌ
مُخَمّشُ الزّهرِ والظِّلالْ؛

تلهو ونلهو بها الثواني،
ماذا ! أكفّت عن الزوالْ ؟!

سَكرَى بما نحن مُطلعاه
في مدّ جفنيكِ، والمجالْ.

مِنّي اضاميمُ من قوافٍ،
ومنكِ تلويحةٌ بشالْ.

*

لأنّنا في الوجودِ، كانت
لَفتَةُ دنيا إلى الجمالْ.

مَوطن البلبل

غداً إذا غَنّيتَ، يا بُلبُلُ،
وَرَقّ للأُغنيّةِ الجَنْدَلُ،

ومال للأَرْنانِ في أيكِهِ
غصنٌ، وألوى جيدَهُ سُنْبُلُ،

وقَرّبَتْ من رَبوةٍ رَبوةٌ
سكرانةٌ، عن حالها تسألُ،

وقيل: « مِن أينَ؟ » فقُلْ: « جئتُ من
عينيـن ِ لا أبهـى ولا أجمـلُ ».

قصر الحبيبة

أبتني، كلّ ليلةٍ،
لكِ قصراً منوّرا،

حَجراً من زُمرّدٍ،
ومن الماسِ أحْجُرا.

أيُّ لونٍ ؟ سماءُ عينيكِ
أم خُضرةُ الذُرى ؟

أنا قصري من كلِّ ما
شئتِ: كوني فيحضُرا.

طبِّعْ، واهزجي يَطِرْ
بكِ طيراً، ويَسكَرا.

خَيْطُ ضوءٍ يَرقى به
صَوْبَ نجمينِ غَوَّرا،

وثوانٍ يدفَعنَه،
غُمِّضَ الجَفنِ سُمَّرا.

*

وإذا جُزتُما المدى،
ومن النُور أبحُرا،

بالغَيْ قُبِّةٍ بها
يُصنعُ الحُلمُ والكَرى،

فاسألي عن أصابعٍ
لَيَ، مسّتْ ذاك الثرى،

زرعَتْهُ — ورحّبَتْ
قبل أن زرتِ — أزْهُرا،

علّه يغتدي إلى
قصرك الحلو، مَعْبَرا !

*

وإذا ما مَلَلْتِهِ،
واسى وحشةٍ عَرى،

وتذكّرتِ أرضَنا
ورُباها، والأنْهُرا،

فاهجسي بي أُقبِلْ، وفي
بُردتي الكونُ اخضرا.

طبتِ، يا مَطلبي، اطلبي،
بَعد هدمٍ، فأعمُرا.

أنا، إن أنت هِمْتِ بي،
والسُهى حولنا يُرى،

أبتَني في النجوم لي
بعليكًّا، وتَدْمُرا!

واقول: « امرحي، امرحي،
واقطِفي الشُّهْبَ كالكُرى.

لك، للّهو، للهوى،
بُدِّلَ الكونُ منظرا ».

عَلِمَتْ أُمّي بنا

عَلِمَتْ أُمّي بنا،
وبأشعارٍ على طِيبْ فمي.

مَرّةً في المنحنى !...
مَرّةً إحدى ! فلِمْ لَمْ تكتُمِ ؟

*

كنتُ لوناً، وامّحى،
ذاتَ قالت لي: « ضحىً أم في الغيابْ » ؟

قلتُ: « في الشِعر ضُحى،
وحوالَيْ مَغرِب الشمس الصوابْ ».

*

سألتني: « والقُبَلْ،
أكما يزعمُه، كُثْرٌ عِذابْ ؟ »

قلتُ: « بل إحدى، وهل
نالها، لو لم يكن قلبيَ ذابْ ؟ »

*

بُحتُ بالحبّ، فيا
شاعري، يا مُطلِعي إحدى الورودْ،

هيَ أدمتني هيا،
منذ قالت: « ما مضى ليس يَعودْ ! »





أُحِبّكِ

أحِبّكِ في ذِلّة الراكعِ،
وأحيا على أملٍ وادعٍ؛

وأعرِفُ ألاّ أبوح بحبّي،
فأُبقي له مسحةَ الخاشعِ.



لَحُسنُكِ، كالطيفِ، شيءٌ كئيبٌ
يَهيمُ على شاطئٍ قابعٍ،

تَجَنّبُهُ نسمةُ المُنحنى،
وتُطرِق من لحظها الفازعِ،

تُراه من البَسَمات الثكالى،
وآناً من النغَم الضائعِ ؟

فيا بَوحُ، لا تَخْدُشِ الصمتَ منه،
ومن هدأة الحُلُمِ الشائعِ.

*

أحُبّكِ منكسرَ الطرْف، خوفَ
انفلاتِكِ من نظرٍ طامعٍ؛

وأمسحُ من عَبرتي في الخفاء،
فلا تقعين على دامعٍ.

وثغرُكِ لي فُلّةُ الفُلّ باتت
يتيمةَ ذاك الشذا الماتعِ؛

فذِكْرُ الربيعِ على سمعها
حرامٌ، وذكرُ الهوى الراجعِ !

سألتُكِ لا تسألي فيمَ أسكتُ،
عُمري، إلى قربك الشافعِ ؛

وقربُكِ لي مَعبدٌ لا يُمَسُّ،
يُزار ويُلمَسُ من شاسِعِ ؛

أحطّ به لفتتي من بعيد،
وأمضي على لذّة القانع.

لا تبوحي

لا تبوحي، يا مِرْكَيانُ، وطِيبي
بهوىً طاب خِفيةً عن حبيبِ.

أنا حَسبي أنْ أومأ الهُدُبُ الحُلوُ
لِأُسقى الحياةَ جَرعةَ كُوبِ،

*

فاكتميهِ، أخشى عليه نَدى الصبحِ،
وفَيءِ السنى، ولفحَ الهبوبِ!

وتأنّيْ، فقلبُك الطفلُ دُنيا،
حين يُعطي في صمتِ دمعٍ سكيبِ،

وابخلي، وابخلي الى يوم لا صحوٌ
لعينٍ، ولا دَدٌ لِلَعُوب.

أجِدُ الحبّ فوقَ ما يحتوي البثُّ،
وزفُّ الشكوى، ورجعُ النحيبِ.

أنتِ، دون الحرائر البيض، لي وحدي،
فضنّي بأنّةٍ وشحوبِ:

صُفرةٌ من جبينكِ الرحْبِ في الآفاق
عُرْسُ الألوان، عرسُ الخُضوب؛

واعتلالٌ من صوتكِ الناحلِ الشاكي
انتقـالٌ إلـى نعيـمٍ عجـيبِ.

لا تبوحي لي بالهوى، أو يَغصّ
الليلُ بالحب، والرضا، والطيوبِ،

وتَشيلَ الدنيا بنا صوبَ دنيا
نضْرةِ الضوءِ، ذاتِ نشرٍ غريبِ،

حيثُ لا يأملُ الحياةَ ترابيٌّ،
فأقضي مع هينمات الغـروبِ.

ودعيني أهيمُ قربَكِ لا أدري:
ألي أنتِ أم لوهمي المُريبِ؟

واذا الليلُ ضمّنا، قلتُ: «حُلمٌ!»
ثم خِفتُ انفلاتَ ليْلي الرحيبِ!!

*

أَسكتي من سكوتِ حُبِّكِ، واغنَيْ،
مِركَيانـي، بزَنـديَ المستجيـبِ؛

نحن في ساعةٍ مهفهفةِ الأجنُحِ ،
تذري الهنـــاءَ ملءَ الـــدروبِ؛

كلٌّ ما في الوجود نحلٌ على زهرٍ ،
ففُرّي من الوجـــود، وغيبــــي.

سُلافُ العُصُور

لنـا، يومَ لا مَوْعِـدٌ، لا أمَـــلْ،
لنـا قُبَلٌ في ادِّكـــار القُبَـــلْ !

شَغَلْنـــا الأزاهـــرَ، ما همّنــــا
نموتُ الضُحى، أو نموتُ الطَّفَلْ.

لنـا عِلّـةُ الـــوردِ، لا شكلُـــهُ،
فما العمرُ ؟ ما كرّهُ في مَهَلْ ؟

ونحنُ، هَوى الليلِ نحنُ! ونحنُ
ارتماءُ النُجَيْماتِ فوقَ الجَبَل!

شجى الدهرَ أنّا دَرَينا بهِ
حديثاً، ولم نَدرِ منذُ الأزَلْ!

ليالي المغنينَ أنتِ، فقولي،
وُجدتِ أم آنّكِ في المُحتَمَلْ؟

هَمَمْتِ بأن تخطُري في الوجود
ولم تفعَلي، فاعترَتْهُ العِلَلْ.

وأفرغتِ، مما هما، الأمسَ والآنَ،
فارْضَيْ عن الغدِ أو يُبْتَذَلْ.

*

أنا اشتقتُ حتّى لألقى مُحيّاكِ
في نَقْرةِ العودِ، أو في الغَزَلْ؛

وألمـــحُ خصرَكِ في شهقـــــةٍ
تَلوَّى المغنّي بهـــا واعتـــدَلْ.

*

تفكَّرتِ، فالبـالُ سُكنـى الربيـعِ؛
وقطَّبتِ، فالصحوُ، ذاك، ارتحَلْ.

وأنمُـلُكِ البيضُ نَقْـلُ الوجــودِ
عليها، وفي الهُدْب وَقْفُ الأجَلْ.

*

أسُكْرٌ ؟ وأنتِ سُلافُ العُصورِ،
ونَكْهَتُهـا، وَهْـيَ في المُستَهَـل.

رَنينُ حِلِيِّكِ من لهْوِ صيْدوُنَ
بالمجـــدِ في ليلـــةٍ لا تُمَـــلُ؛

أباريقُهـــــا خُوَذُ العائديــــــنَ
من الفتحِ، والسكبُ من ذات دَلْ؛

ونِدمانها السَافِطون الأُولى
يُهيبون بالعَزْمِ أن يُرتجَلْ؛

يقولون: «يا بحرُ، يا بحرَنا،
لِحَدِّكَ قلنا: «انتقِلْ!» فانتقَلْ».

رنينُ حِلِيِّكِ يوقظُ صُوراً،
وقرطاجةً، والعصورَ الأُوَلْ؛

ويملأ أيدِيَنا أنجُماً
نَذُرّ على الناس منها الأقل.

فإنْ فاحَ زَهرٌ فنحن الشذا،
وإنْ طاب شُرْبٌ فنحن الثمَلْ.

إثر الغفوة

أفيقي على قُبلةٍ نَسمرُ
هزيعاً له تُزهِرُ الأعصُرُ؛

نهيم مع الساهياتِ النجومِ
ويَندى بنا الأُفُقُ الأقمَرُ.

أحاديثُنا نغمةٌ في المروجِ،
تَؤوهُ على رَجْعِها الأنهُرُ.

ونحن، أولي الشعرِ، نَهمي هناءً
على الناسِ، والناسُ لا تشعرُ.

حملنا الربيعَ على الراحتينِ،
فمنّا، ومن حُبّنا، العَنبرُ.

وأعمارُنا ملتقى شفتينِ،
نُمِيلُ بها الكونَ أو نُسكِرُ؛

ونهفو إلى الموت أشهى المُنى،
إذا لاح في قُبلةٍ يُبشرُ.

*

أفِقْ، يا سِوىً مغرماً بالوجودِ،
فنحن الغرامُ الذي يُؤثَرُ.

سِحرْ

ـ مَن يُغنيّكِ، إن أنا
لم أُلوِّنْ لكِ السِّحَرْ ؟

ـ بُلبلٌ مَرّ مِن هُنا،
يومَ قَلّدْتَني القَمَرْ.

ـ وإذا الغُصنُ ما سَكَنْ
تحتَ ريح لم تَهمُدِ ؟

ـــ قلتُ: « يا بُلبلي الحَسَنْ،
هاكَ فاصدَحْ على يدي ».

ـــ وإذا اشتال ما انثنى،
ونأى في مدى الفِكَرْ ؟

ـــ لا تَلُمْهُ، وباسمنا
شاء أن يُسكرَ البَشرْ

بلبلٌ مَرّ من هنا،
يومَ قلدتْني القَمَرْ.

نجُوم

سَمِعَتْ بنا
انجُمٌ دُرَرْ ؟

فتلفَّتَتْ
تسأل الخبر ؟

أنتِ، يا أنا ؟
وأنا البشر.

ما لها الدُرَرْ ؟

*

أنتِ، يا أنا،
وأنا الدُررْ ؟

باتَ عندنا
ليلَهُ القَمَرْ !

أنتِ، يا أنا،
طالَ نومُهُ،

أيْقظي القَمَرْ.

*

باتَ عندنا !
كيف لم أغَرْ ؟

وغداً، إذا
مرّ من هنا،

ورمى لنا
باقةَ الزَهَرْ،

أُطرُدي القَمَرْ !..

*

أنتِ، يا أنا،
وحدَكِ القَمَرْ.

إلى مغنّيها

يا نجِيّي، ونجِيَّ
الأنجم البيضِ الحِرارِ،

غنّني، أشهى من الغفوِ
على الصَدرِ المُداري،

طُرفةً شَفّافَةَ النبرةِ،
عذراءَ الإزارِ،

مِن سَنى السَوسَنِ فيها
ودماليج الصِغارِ،

ومن التجوابِ والتيهِ
بأحضان الصحاري.

شُقّ آفاقاً من الألحانِ
ملأى بالجواري،

طافراتٍ من غِوىً
آناً، وآناً في انسحارِ،

كاسياتٍ من بهاءٍ،
ومن الوهم عَوارِ.

*

واسترِقْ، من نَقلةِ
الحسّون فوق الجُلّنارِ،

آهةٌ حُرّتْ بلَفْحِ
الظُهرِ، أو شِيبَتْ بنارِ،

تَتعالى، تتعالى
وُسْعَ شوق وانتظارِ،

أتُرى عند شفاً، حطّتْ
بهذي الأرض، هارِ ؟

عَلّقتْ عن جريه الليلَ
وهمّتْ بالنهار،

فَهْيَ أُفْقُ المنتهى،
والكونُ منها في دُوارِ !

*

وإذا شبّبتَ باسمٍ
بات معشوقَ الجِوارِ،

هاتفاً، مُحلولِيَ المَدّة،
مغناجَ القَرارِ:

« مِرْكَيانٌ، مِرْكَيانُ
العمرِ، كَرّاتُ الكناري » !

أَخَذَتْ تسّاقط الشهبُ
علينا، والدراري.

*

ساعةٌ وانفلتَتْ !
ما نَجْدُ ؟ ما شَمّ العَرارِ ؟!



لي أنتِ كالخمر المُضِلَّهْ،
كالصحوِ، كالنّغَمِ المُولّهْ،

حَلمَتْ بكِ الدنيا، وغنّتْ
أنجُمُ الليلِ المُطِلّهْ.

مِن كَرّة الحسّونِ أنتِ،
ومن هواه، ومن تَعِلّهْ.

نام الربيعُ على يديكِ،
فمَن أحسّهما ودَلّهْ ؟

لا تسألي عن سكرتي،
وعلى لماكِ عرفتُ نَهْلهْ.

أغمضتُ أجفاني عليكِ،
أضمّ فيكِ العمرَ كُلّهْ.

وذهبتُ في الآفاقِ لحناً
متعباً، إلاّ أَقَلّهْ.

ولو أنّني خُيّرتُ بين
بقيّتي وفتورِ مُقْلهْ،

ويروحَ هُدْبُكِ يتني
دنيا، وينسفُها بِوهْلهْ،

لأتيتُ هُدبَكِ، ما رشَقتُ
ثوانياً بَقيتْ بفُلّهْ.

ما العمرُ ؟ ما طيبُ العُلى ؟
وأنا أبيعهما بقُبلهْ !



الحُلمُ الأشقر

تُرى تولّى حُلمُنا الأشقرُ ؟
وغابَ ليلٌ حولهُ مُقمر ؟

وقُبلةُ الجيدِ وذاك الشذا ؟
ماتا ؟ فما في البال ما يُذكَرُ !

ولا سُهىً يحنو على حبّنا
بعدُ، ولا زقزقةٌ تؤثَرُ ؟

ولا رُبىً تغرقُ في وَهْمِنا
خُضراً، وفي ضمّتِنا تُزهِرُ !

تُرى مضى الماضي ؟ ألا ضمّةٌ
منه على صدريَ تخضَوضِرُ ؛

أشتاقُني فيه، ولو موجَعاً
أهزُّ أحزانيَ أو أُسكرُ ؛

ولو جريحاً من يديها، إذا
أُعاتبُ الأنمُلَ أستغفِرُ.

*

فيا يدي، شُدّي على أضلعي
أخشى على أريجها يَهجرُ.

شُدّي، فحيثُ اتكأتْ مرّةً
يظلّ مثلُ الصحو أو أنضرُ.

إلى مطربة

على مهلكِ الآنَ في جَرحة الآهِ
فالليلُ طاب، وجُنّ الوتَرْ،

وشاعت على الرجع أجنُحُ طيرٍ،
وأُحدوثةٌ، وضياءُ قَمَرْ.

تُراه تَرنّح ذاك الغرامُ،
وزحزح عنه ظلامَ الحجر ؟

على مهلكِ الآنَ في لفتة الرَّصْدِ،
فالساعةُ انفلتتْ في الفِكَرْ ؛

يَهِشّ لها الصخرُ فوقَ الجبالِ،
ويغفو الرّدى، ويرقّ القَدَرْ.

إخالُ الحبيبةَ عادت تبوحُ،
وتنهَدّ في القُبُلاتِ الغُمَرْ.

*

على مهلكِ الآن، إنا رشفْنا،
على نغمتيكِ، زماناً عَبَرْ.

وهِمنا على قُبلةٍ في الفضاءِ
الرحيبِ، مخضّبةٍ بالسّحَرْ.

تُرى ! حُلُمٌ نحن فوق النيامِ ؟
تُرى ! سكرةٌ نحن بين البشرْ ؟

تجلّي، هَذاذَيكِ، بالنّهَوَنْدِ
ورُدّي ليالِيّ بيضَ الصُّوَرْ.

وغنّي اللِّقاءَ، وغنّي الشرودَ
على ضفةِ النهر، فوق الزّهَرْ،

وغنّي ارتمائي على صدرها،
ومَسرايَ في هُدبها والنَّظرْ؛

وغنّي «أُحبّكَ أكثرَ من أمسِ
عهدي، أقلّ من المنتَظرْ» !

وغنّي، وغنّي إلى أن أموت
مع اللحن، والمرتَجى، والذِّكَرْ !

على رخامة

أنا مِرِكَيانُ الخَيالْ،
أنا ماتَ بعدي الجمَالْ !

وللصحوِ شهقةُ طفلٍ
عليّ، ودمعٌ سِجالْ.



يُكَنّي، فما باح باسمي
فتىً، أُنْسُ هذي الجبالْ.

يخاف عليّ الفراشات
طارت، ونفحَ الشَّمالْ.

يقول : « عتِبتُ وأُدمى
إذا مَعْتَبي منكِ نالْ !

قسوتِ، فهذي الزنابقُ
أعناقُها للزوالْ !

وهذا الغمامُ على الأُفْقِ
خمّش خدًّا، ومالْ ؛

فعودي تَعُدْ نكهةُ العُمْر،
عُودي، ولو وَمْضَ آلْ » !

*

صدقتَ، حبيبي، وامسِ
مررتُ كصحوٍ ببالْ.

لخَمسٍ بقِينَ مِنَ الورد
يومي، وإن شئتُ طالْ.

وايّارُ بعضُ بنانيَ
موضوعُه، والمجَالْ.

عَبيرٌ، عبيرٌ، فَلِمْ بتُّ
وحدي العبيرَ المُحال ؟!

ولِمْ قَلَقٌ في الغصونِ
وللزقزقات انشغالْ ؟

أما لمروريَ ذِكرى
هُنا، أو خَيالَ خيالْ ؟

لِأجليَ كان الوجودُ
وجوداً، وكانت لَيالْ.

*

حبيبي، ستسألُ عنّي
الورودُ، كأني سُؤالْ !

وما بعدَ عينيّ بَعْدٌ،
ولا كان قبلُ احتمالْ.

حبيبي، إذا عدتُ يعتلّ
نهرٌ، وحَوْرٌ، وضالْ،

وأُغنيّةٌ مَدُّ هُدبيَ
بَدءٌ لها وارتحالْ،

ويوجِعُ مَرّي على الأرض،
كالوعدِ بعد الدلالْ.

*

سوى أنّ صوتكَ عذبٌ،
ومدُّ يَديكَ نَوال :

تِلالُ، سُدىً، يا تلالُ،
استلنتِ وهِلْتِ الظِّلالْ

فما أنتِ بعدُ ضريحي،
وإن كنتِ أبهى التِّلالْ.

ضريحيَ شِعرُ حبيبي،
أطيرُ إذا ما يُقال !

الرأس الأشقر

يُلوِّح لي من هُناك

يلوّح لي من هناكْ،
من الموجَعات النجومْ،

من الريح، خلف الغيومْ،
وكرّ الحساسينِ خلفَ الأراكْ.

*

مَنِ الحُلوُ، يا أُمّ ؟ لا عَهدَ لي
بزندٍ يطوّقني فأغيبْ،

ليوقِظَني، فوق عشبٍ رطيبْ ؛
يقول : « إلى الأجملِ الأجملِ »،
ويرشُقُ بالوردِ دمعي السكيب.

أأحلُمُ، يا أُمُّ ؟ هذا الغرامْ
على بابِنا ينتظِرْ.

أيومئُ لي وألامْ ؟
ـــ حنانَيكَ، خذني وطِرْ !

*

إلى مَ أنا مشتهاكْ،
وراء الدُجُنّات والعاصفَهْ ؟

وفي الرعد، والزعزعِ القاصفه ؟
إلى مَ تلوّح لي من هناك ؟!

نَحْت

حُلوتي الشقراءُ، يا قمَرُ،
عندها عَن ثغرها خَبَرُ ؟

أنتَ قد ضاحكتَها، ليلةً،
ورآها تبسِم الزَهَرُ؛

فانظرِ الآن حِيَالَ الرُبى،
عَبَقَ الريحانِ ينتشرُ،

وغماماً شَفّ عن لؤلؤٍ
فيه من انفاسها أثَرٌ.

*

فمُها هَمّ بأغنيّةٍ،
وضياءُ الصبحِ ينهمِرُ.

نبأٌ عن شَعّةٍ أمرعتْ
في الثنايا، نبأٌ نَضِرُ،

نَبأٌ عن مَيْسة الأرض في
سَوفِها والله يفتكرُ!

*

يا هناءَ اللونِ، يا زَيغَهُ
في فمٍ بالصحو يأتزِرُ،

مُؤنقِ الحُسنِ، حَييِّ الندى،
هَشّهُ للحُلم مبتكَرُ،

تُقمر الأوراقُ، إن يبتسمْ،
ويُغالي الأملدُ الخَضِرُ؛

وَقْفُه في الآنِ معزوفةٌ
لم يُبُحْ بعدُ بها وَتَرُ؛

حاولتْ نحتاً له جهلتي،
فإذا ما أقبل العُمُرُ...

كان، يا مَبسَمها، كان أنْ
سكِرَ الإزميلُ والحَجَرُ.



خطَرَتْ لي في صَحْوِ بالْ
أمْ رواها وهْمُ الخيالْ ؟

أم شجى العُودَ لحنُهُ،
فمضى يعزفُ المُحالْ ؟

أنا خِلتُ الأُفْقَ التقى
أُفُقاً آخراً، وشالْ،

هَزِجاً لارتحالِهِ،
عبرَ أهدابها الطِوالْ.

فتعافتْ دنيا، ولم
تهدإِ الهدأةُ الزُلالْ.

وألّمتْ بالمنحنى
غيمةٌ تفرشُ الظِلالْ.

*

ما هواها ؟ ما لونُها ؟
ضمّةٌ حُلْمُ مَن يَنالْ؛

هَبّةٌ لم يَبُحْ بها
زهرُ نيْسانَ للتِلالْ؛

لا، ولا ضجّ بالغِوى
غُصُنٌ قبلها، ومالْ.

*

هِمتُ حتى لَفي يدي
قامةٌ مَضّها الدّلالْ،

مرّةً لي، ومرّةً
تختفي، كالتماعِ آلْ.

مُرهِقي، يا غِيابَها،
مِرهِقي، أنت، كالجمالْ.

نیانار

خمر العيون

أمِنْ خمرةٍ أم لا خيالي مطيّبُ
لوهمِيَ، يا عينانِ، أنّيَ أشربُ ؟

أُحبّكما: رُدّا عن الأفقِ لفتةً،
شكاةَ هوى، تُوهي الغمامَ وتُتعبُ.

لهذي التي تُدعى البريّةَ مطلبٌ
بأن تَطلعا فيها: فهل بعدُ مطلبُ ؟

ألم يكفِهِ نجماً لنا ان خطرتما
على باله، يوم الخواطِرُ خُلَّبُ ؟

ولِمْ كنتُما ؟ هل للجمال تعِلّةٌ
بما بعدَه ؟ ما بَعْدَ ما هو مأربُ ؟

تأتيتُما حتى ليَضحكُ طافراً،
مدى الهُدب، نيسانٌ فَتِيٌّ محبّبُ.

فهل قَدَرتْ قَدْرَ التقائكما الرّبى،
وماد كفافَ المَيْد غصنٌ مُشّبِب؟

أجُلّكما عن ان يقال: « نظرتُما
إلى الأرض»، ما دامت تضيق وتُجدب

*

أرى المنتهى آناً من الدهر شارداً
توقّفَ عندَ الجفنِ يحيا ويلعبُ

له اللهُ! ما الحلمُ الذي عاش بعضَه،
على شاطئ العينين، فارتاح يَطربُ؟

يقول: « بحارُ النور هذي » فطِرْ بنا،
أيا زورقاً في اللحظ ناداهُ كوكب.

لِعَيْنَيْ نَيا بَدءٌ أنا مؤمن بهِ،
ومن قال: «قد يأتيهما الموتُ»، يكذبُ.

تقول نيا: « لِمْ كان ضوءٌ؟ ألذّةً
بضوءٍ أم انّ الناظِريَّ تطلّبوا؟

أنا يومَ أعلنتُ الوجودَ زيارتي
له، استعجل العُبدانُ ما اتجلّبَ؛

فكانت — أظُنّ — الشمسُ بين حوائجي،
أُعِدّتْ لعيني حين قلتُ: « سأرقَبُ ».



بلدٌ، يا نعيمَهُ،
طابَ مُذْ زُرتِهِ ثَرَى.

فرشَ السهلَ سَوسَناً،
والمَطلاّتِ عَنبرا؛

وعرى شَوكَهُ الحَيا،
فتمنىّ أن يُزهِرا.

❊

لكِ جسمٌ، يا بيلسانُ
استندْ: لافِحٌ سرى !...

خلعةُ الشمس عُرّيتْ
للأزاميل مرمرا.

ما بياضٌ ؟ ما زنبقٌ ؟
ما غِوى الثوبِ جُرِرا ؟

حُلُمٌ، إن يَلُحْ فغُصٌ
وعَرِجْ على الكَرى،

عَبَثٌ ضَمُّه، ومَدُّ
ذراعيكَ مُفترى !

*

ما لِهُدبٍ مِزَجّجٍ،
موجِعي منذ صُوّرا ؟

أسمعيني مما حكى،
ما أنا منه أشعَرا.

هو إن قال: « غنّني
فوق ما الوهمُ قَدّرا »،

أهَبُ السَهْلَ أجنُحاً،
وحصى النهر أزْهُرا،

وأخلّي من السماء
على الأرض مِئزَرا.

*

ولَعيناكِ قُبّتا
فلَكٍ طاب مَقْمَرا،

مِن ورود سودٍ، ومن
أنجمٍ شُبّكتْ عُرى؛

صفحةٌ من كتاب قُدْسٍ
فصلّينَ، يا قُرى !

ذاهلٌ، يا هوايَ، ينسجُ
لي شَعرُك السُرى،

وارتحالاً إلى ذُرى
كوكبٍ فوقَ سُمَّرا.

اوْمِئي، تومئُ الحياةُ
وتنهَضْ بنا الذّرى؛

وتهزّ الوجودَ كفٌّ
من اللهِ لا تُرى.

نيسانار

أطْيَبُ ما في الطيبِ، أغوى من
الإغواء، أنقى من مطلّ الصباحْ.

كانت، فكان الحسنُ، وازيّنتْ
مُلْدٌ، وغنّى حول قدٍّ وِشاحْ !

قَطْفُ اسمِها من ياسمينٍ، فيا
فَراشتي، مهلاً برفّ الجَناح.

خاطِرةُ البال نيَا، قالها
يخجّل الشمسَ شعاعٌ وَقاحْ؛

مَلأى: أكَدْسُ الوردِ ذيّانِكَ
الخصران، أم كَدْسُ الشِفارِ الصِحاحْ ؟

مَستّهُما آناً، وآناً وَهَتْ .
خوفَ يطيرانِ إذا الزّهرُ فاحْ؛

بالعَشْرِ ، طَلْعِ الضَوءِ، مبريّةً،
قيلت بَناناً، فادّعتها المِلاحْ،

وشاقَه أن يُجتنى مرّةً
وتُحرمُ الجنّاتُ منه الأقاحْ !...

*

في الغيب لونٌ هاجعٌ لم يَفِقْ
بعدُ، ولا هُمّ به في بَواحْ.

لا بُرتقاليٌّ، ولا أبيضٌ،
أغنيَةٌ من الزُلال الصُراحْ،

صُبّ مُحيّاً، إن أطلّتْ به،
سرى على كلّ نسيمٍ سَماحْ.



وكان شيئاً ان ترى ارضَنا
عيناكِ، يا سكْباً من العُمرِ لاحْ.

أجملُ من عينيكِ

أجملُ من عينيكِ حبّي لعينيكِ !
فان غنّيتُ، غنّى الوجودْ.

في نجمنا أنتِ، وفي مُدّعى
أشواقنا، أم في كَذابِ الوعودْ ؟

كنتِ ببالي فاشتممتُ الشذا
فيه، تُرى كنتِ ببال الورود ؟

*

سُكناكِ في الظنّ، وهذي الدُنى
تلهّفٌ باكٍ، وقلبٌ حسودْ،

وتدّعيكِ الأرضُ دعوى صَدٍ
إلى الهوى ضمّ السّرابَ الكؤودْ !

*

لأجلِكِ اخضلّتْ رُبى جنّتي،
وماد يستهويكِ غصنٌ مَيودْ؛

واستيقظتْ من غفوها كرمةٌ
تحلُمُ بالسَكْبِ وثَنْيِ القُدودْ.

*

كُوّنتِ من توقٍ إلى الحسنِ ـ لا منك ـ
ومِن مدّ يدٍ صوبَ جُودْ.

هل تعرفُ الأوتارُ في أوجِها
فضلَ المشوقينَ إلى صوتِ عودْ ؟

*

آهِ انْخلَعِي ما انتِ من خاطرٍ؛
أتعبتِ، من شوقٍ اليكِ، الخلودْ.

كوني يَكُنْ للعمرِ معنى الطَلا،
وللثواني فَوْحُ مِسكٍ وعودْ.

مَوعدُنا هُنيهةٌ أفلتَتْ
في الدهرِ تختطّ وتمحو الحُدودْ

والكونُ أشهى ما تراءى لنا
أُرجوحةٌ طارت بنا لا تعودْ.

*

أجملُ ما يؤثَرُ عن أرضنا
أوهامُها أنكِ زُرتِ الوجودْ.

رَنَّان

القَمَر

مِن رَوابينا القَمَرْ.
جاءَهُ، أم لا، خَبَرْ ؟

جايلَتْهُ رِنْدَلى،
ودُمى الحُسنِ الأُخَرْ.

طال ما فاجأنَهُ
حافياً فوق الزّهَرْ؛

مَزّقَت من ثوبهِ
نَزَواتٌ لا تَذَرْ.

هُمّ ؟ ما هُمّ، ومِن
غزْلنا يُكسى القَمَرْ.

العذارى، حولَهُ،
في الرُبى عِقْدُ شَرَرْ !

ضِحكةٌ طافرةٌ،
ونشيدٌ في الأثَرْ.

والمساءُ المنتحي
بعضَ هاتيكَ الصُوَرْ

ذاهلٌ، شالَ به
صوتُ نايٍ مُبتكَرْ؛

والروابي نهضت
فوق تَجواب النَظرْ.

يا تُرى العُمرُ قمر ؟

مُرّي ببستاننا صباحًا

مُرّي ببستاننا صباحاً،
أو رفرفي،

يا رِنْدَلى، واسمعي الأقاحا
نادى: « اقطِفي ».

*

هَنّا وهنّا على الدروبِ،
مِسكٌ فَتيتْ،

مُدّي يداً، واهتِفي: « حبيبي،
ها أنا جيت ».

*

خَدّامُنا طَيِّبٌ، تُقالُ
عنه العِبَرْ.

قولي له: « جاءَكَ الجمَالُ
يجني الزَهَرْ ».

*

سَليه: « حقاً أنا الجمَالُ » ؟
يقُلْ: « بلى،

والمنتهى أنتِ، والخيال،
يا رِندلى... »

*

فسطائُكِ اللَيلَكيّ عِيدُ
إذا خطَرْ،

تسأَلُ عن حُلمِها الورودُ:
« متى انتشر » ؟

*

تُفْدَينَ: سَمّي ما تجهلينَهْ
باسمٍ جديدْ،

تنسَ اسمَها كلّ ياسَمِينَهْ
وتستعيدْ.

*

مُرّي بِدِفلى هامَت بسَوسَنْ،
ولم يَفِ؛

قولي لها: « الصفحُ عنه أحسنْ »،
ولطّفي.

*

وداعبي الفُلّ حين يُصرَعْ
على الثرى،

ولامسيهِ بضوءِ إصبَعْ،
فينضُرا.

*

واقضي ببستاننا النهارا،
واقضي العَشِيّ،

في البال نقلُ الخُطى الحَيارى
شيءٌ شذِيّ.

*

وإن تهاوى الدُجى عَليكِ
وما انتظَرْ،

نادى أجيءُ حاملاً إليكِ،
ضوءَ القَمَرْ.

اليخت الأبيض

يا يختَها الأبيض،
أقلِعْ بنا،

كاد السنى
من حُسنها يمرَضْ.

أقلع بنا،
يا يختها الأبيض.

*

قد أقبلتْ تَطرَبْ
أُختُ الشُعاعْ.

أرخِ الشِراعْ،
وابلُغْ بنا الكوكب.

*

ما هَمّ ؟ طِرْ، ما هَمْ
هذا الزَبَدْ ؟

طإ الجلَدْ،
واهزأ بِهولِ اليَمْ.

*

سُمِ الرياحَ الوَيلْ،
هِجِ البحارْ،

خلِّ الدُوارْ
يصيبُ جِسمَ الليلْ.

دَعْ رِندلى تَهزَجْ،
دعْ رِندلى،

واسكَرْ على
أغنيّة الدِملَجْ.

*

هَيّئْ لها الوعدا،
عند الغيومْ،

قُلْ للنجوم:
« كوني لها العِقدا ».

*

هذاكَ نجم عَبَرْ
في دربنا،

عرّجْ بنا
على خليج القَمَرْ.

*

يا يخثُ، جزتَ البَونْ،
لم يبقَ شيّ

سهرانُ حَيّ،
الآنَ خلف الكَونْ.

*

لا قلتَ، يا يخثُ: « أينْ ؟
أينَ البِحارْ ؟ ».

لكَ القَرارْ
في منتهى عينين !

أين البحار ؟
لا قلتَ، يا يخثُ: « أينْ ؟ ».

نداءُ الربيع

لِمن، رِندلى، الليلةُ الصاحيهْ ؟
وأظلالُ انجُمِها الساهيهْ ؟

وشَبّابةٌ من وراءِ الغَمامِ،
دعتنا إلى عطفة الرابيَهْ ؟

تعالَيْ، لقد كوكبَ الليلُ عَمْداً
وأيقظَ من حُلمها الثانيَهْ.

أنا فوقَ صدركِ أطيبُ رُوحاً،
وأطرَبُ شِعراً، وأصفى نِيَهْ؛

خلعتُ شبابي على نافرَينِ
به، وعلى فَجْوةٍ عاريَهْ.

*

هواكِ الربيعُ، وأزهارُهُ،
وروضتُهُ الغضّةُ النامِيَهْ،

وانتِ، غداً، في فم الناس لحنٌ
طروبٌ، وأُحدوثةٌ زاهيَهْ.

أضَعتُكِ في خفَقاتِ الضُحى،
وفي وشوشات الصَبا النائِيَهْ.

وألقاكِ في شكوة السامرينَ،
مساءً، وفي أنّة الساقيَهْ.

*

ضممتُكِ بالحُلم، فالافقُ ذاكَ،
من الوهْجِ مُضطرِمُ الحاشيَهْ؛

وارسلتُ حبّكِ في الفُلّ، في الورد،
حتى لتَحسدُني الآنيَهْ.

*

لك الحسنُ، يا رِندلى، لك دُنيايَ،
والشِعرُ، والقِمَمُ العاليَهْ !

شال[1]

مُرخىً على الشَعر شالْ
لِزندلي.

هَلاَ، هَلاَ
بِهِ، بِها، بالجَمالْ !

*

من ؟ يا حبَابَ الكؤوسْ،
مَن جمّلَكْ ؟

مَن فصّلَكْ
حلواً، كحُلْم العروسْ ؟

*

لِمْ ثِنْيَةٌ تشتكي
ثم تغيبْ ؟

— هِمْ، يا جيبْ،
بلونيَ الليلكي.

هِمْ، لا تُقرّبْ يدا،
هِمْ بالنظَرْ،

أبقى الأثرْ،
ما لم يزَلْ مُوصَداً.

*

يا طيبَ شالٍ تُلَمْ
عنه النجومْ،

وبي هُموم
لِانْ يُرى أو يُشَمْ !

*

قُيِّض لي موعِدُ
في ظِلّ شالْ؛

تُرى الخيالْ
سُكنى ومُستَنْجَدُ ؟

*

ما لي سألتُ الزَّهَرْ
عن منزلي ؟

فقيل لي:
« هُناكَ، خلفَ القمر ».

نجْوى القَمَر

يا مرحباً بالقَمرْ،
في الموعد المنتظرْ،

بين الربى والغَمامْ.

دنياكَ، مذ تبسِمُ،
قِيثارةٌ تحلُمُ،

سكرانةٌ من غَرامْ.

*

مِن اينَ، يا ذا السُرى ؟
مِن عندها، يا تُرى ؟

خبّرْ وهاتِ اليقينْ.

يا هل تَرى، لم تزلْ
سكرى بتلك القُبلْ ؟

سكرى بَراها الحنينْ ؟

*

يا رغدَهُ موعِدا،
يَملأُ منيّ الغدا.

ذكرى ارتياح وطيبْ،

أوانَ ـــ ما أجملا ! ـــ
تَضمّني رِندلى

وما سواكَ الرقيب.

*

قُلْ، يا رفيقَ السمَرْ،
هل للهوى من أثر،

لولاكَ في العاشقين؟

داعبتَ هذا الفنَنْ،
ايقظتَهُ للحَسَنْ،

علّمتَه أن يلينْ.

*

ضَوؤُكَ، والأنجُمُ،
قصرٌ به ننعَمُ،

فاسبَحْ بنا في الخيالْ.

إبرَحْ حدودَ الزمَنْ،
وإهبِطْ بنا في عَدَنْ،

حيث المُنى والجمَال.

*

وافرُشْ دروباً لنا،
في عطفة المنحنى،

بالورد، بالياسمينْ.

يا قمري، يا قَمَرْ،
ما غيرُنا في البشرْ،

ما غيرُنا الساهرين.

أنتِ واليختُ وأن نُبحِرا

انتِ، واليختُ، وأن نُبحِرا
في الرياحِ الليّناتِ الهُبُوبْ،
في التعلاّت، وخفْقِ الطيوب،
في الذرى

مِن خِضَمٍّ لَيْلكيّ الغُروبْ،
كادَ، مذ أومأت، أن يُزهرا...

*

انتِ، واليختُ، وأن نَغرُبا،
آخرَ الأرض، عن العالَمينْ،
عن عزيف الجِنّ، والسامرينْ،
عن رُبى

طُرِّزَتْ بالورد والياسمين،
نبتغي، خلف السُهى، مطلبا...

*

انتِ، واليخت، وأن ننزِلا،
في المساءِ اللؤلُئيّ الغُيومْ،
شاطئاً نَسيْاً باحدى النجومْ،
حُمّلا،

منذُ ضاحكناه، هَمّ الهموم...

آه ! ما أجملَ، ما أجملا !

ماذا؟ انتهى كل شيء؟

ماذا ! انتهى كلّ شيْء ؟

وما قلتَه، أمسِ، لي

بأني غدُ البُلبُلِ،

وقدّيَ مِن صندَلِ،

ومن كَدْسِ وَردٍ، وفَيّ؛

ماذا ! انتهى كلّ شَيّ ؟

*

ماذا ! انتهى ؟ لا إلهْ

على الصخر يُضفي الحياهْ ؟

من الشمس يأخذ بَذرَهْ،

ومن سُمرة الليل سُمرهْ،

وخمسَ زنابِقْ،

عذارى، روائقْ،

يُذَوِّبُهنْ

بعِطر السَحَرْ،

بأغنيّةٍ من قَمَرْ؛

ـــ « وكوني، وكوني الجمالَ »، أكُن ؟

سألتُكَ رُدّ عَلَيّ،

ماذا ! انتهى كلّ شيّ ؟

*

ماذا ؟ وقولُ الإلهْ

(وقد اوشكتْ تستبينْ

ملامحُ مِن ياسمين

جلَتْها يداه):

« بلى أذكرُ

نسِيتُ نسيتُ الشفاهْ،

فلا ضحكةٌ مشتهاهْ،

ولا قبلةٌ تُسكِرُ ».

ويُلوي عَليّا

بظفرٍ له مُلهَمٍ،

يخدّشُ ضوءَ المحيّا:

ــ « وكُنْ، يا احمرارَ الفمِ !... »

وساعةَ شئتَ القُبَلْ

أطايبَ لم تُبتَذَلْ،

شبكتَ يَدَيّ...

ماذا ! انتهى كلّ شيّ ؟

*

ماذا ! انتهى ؟ لا تُجيبْ ؟

أيبقى، إذا أنا لمْ

أُشَمّ، غداً، وأُضَمْ،

هناءٌ وطيبْ ؟

أسِرّ ولا تنسَ، لا،

أنا، يا حبيبْ،

أنا رِندَلى،

أسرّ أسرّ إلَيّ.

ماذا ! انتهى كلّ شَيّ ؟!



الحُصُونُ المُغْنِيَة

الموعد الضائع

ما همّني ؟ ــ والطيبُ لا يَخمُدُ ــ
إن مَرّ، مِن دوني أنا، الموعِدُ !

غداً، أجيءُ الدارَ اخلو إلى
بقيّةٍ من عهدِها تُعبَدُ؛

تَهشّ لي حُجرتُها غضّةً،
والجُدْرُ، والأستارُ، والمَقعدُ؛

أشياءُ للقبلة فيها فمٌ
حُلْوٌ، وللّهْوِ بشَعرٍ يَدُ.

أسالُها عنها، فيحتلّني
من الزوايا طيبُها الأجعدُ.

وربّ أشياءَ، على بُكْمِها،
أكرَمُ بَوْحاً من فمٍ يُسعِدُ.

أغنار

ـــ « بلى، قلتِ، أنا الشِعْرُ،
وأبهى أنا من شِعرِكْ ».

ـــ صدقتِ: الشِعرُ، يا أغنارُ،
بعضٌ من غِوى خصرِكْ.

ولحنٌ قدُّك الميّادُ
عَزْفُ الضارِبِ المُشْرِكْ.

وأنّى ليَ أن اقطِفَ
من صُبحَين ِ في صدرِكْ ؟

أنوفَين ِ، كما النارُ،
اشرأبّا في مدى أمركْ ؟

فَراشاتٌ، فراشاتٌ
وَهَتْ صرعى على نَحرِكْ !

*

أُغنّي أنا ؟ ما بثّي
من مجدولتَيْ شَعرِكْ ؟

إذا اقبلتِ ماد الصحوُ
للإسرار في جَهْرِكْ؛

ونجمُ الصبح لم يلبَثْ
أن ِ انكبّ على مَرّكْ.

ولكنّي أنا الباريكِ
لألأءً على عصرِكْ.

أُمَنّيهِ بما بعدُ،
وأُومي علّهُ يُدرِكْ.

فيَغْوَى بالجمال الكونُ،
أو يرقصُ من ذكرِكْ.

*

أنا الخمرةُ في كأسِكِ
والسكرةُ في خمرِك.

أنا الفَوْحُ، أنا البَوْحُ.
أنا السهوةُ في فكرِكْ.

أنا القبلةُ، يا أغنارُ،
تفتَرّ على ثغرِكْ.

بأجفانِكِ ضمّيني
وعُليّ العُمرَ من سِحرِكْ.

فعُمري سفرةٌ من بدءِ
عينيكِ إلى سِرّكْ.

تضحكُ لي!

تَضحَكُ لي، تضحكُ ! فامضي، يَدي،
ولَمْلِمي الشمسَ عن المَقعدِ،

عن مِزهريّاتِ الزوايا، عن الخصْرِ،
وعن عُنْقٍ لها أغيَدِ.



للأبيضِ الآنَ سنىً آخَرٌ،
في الحُجرةِ الضِلّيلةِ الموعِدِ،

كأنّما الأشياءُ في قَهقرى
إلى ثَوانٍ من صِباً أو دَدِ.

*

زنابقٌ في ضِحكةٍ، فالتَقِطْ،
يا جَفنُ، من ضحكتها وازدَدِ.

أو رَجْعُ عُصفورٍ لعصفورةٍ
قالت له: « طِرْ، طِرْ بنا، وابعُدِ.

غصونُنا غيرُ غصونٍ ، فإن
يَهمُدْ بهاءُ العُمْر، لا تهمُدِ ».

*

تَلقّني، يا يدُ، كيف الهوى،
وكيف سجْنُ النَغَمِ المُفَردِ.

في ضِحكةٍ باحت بحبٍّ لها،
لا، يا يدي، لا تقطِفي واسعَدي !

سَمْرَاء

سمراءُ يا حُلمَ الطُفولَهْ،
وتَمنّعَ الشفَةِ البَخيلَهْ،

لا تقرُبي مِنّي، وظَلّي
فكرةً، لِغدي، جميلَهْ.

*

قلبي مليءٌ بالفراغِ
الحُلْوِ، فاجتنبي دخولَهْ.

أخشى عليه يَغَصّ
بالقُبَل المطيّبَةِ البَليلَهْ،

ويغيبُ في الآفاقِ،
عبرَ الهُدبْ من عين كحيلَهْ !...

*

ما آخِذٌ منكِ البهاءُ
ومن غدائِرك الجديلَهْ ؟

ضوءاً ؟ فديتُ الضوءَ يولدَ
طَيّ لفتتِكِ العليلَهْ؛

ويقول للبسَمات ثغرُكِ:
« لَوّني زَهْرَ الخميلَهْ »؛

فالأرضُ بعدكِ يَقظةٌ
من هجعةِ الحُلمِ الثقيلَهْ،

طَرِبتْ، كأنّ سَنى ابتسامِكِ
كُوّةُ الأملِ الضَئيلَهْ.

*

سمراء، ظَلّي لذّةً
بين اللذائِذ مُستحيلَهْ؛

ظَلّي على شفتيَّ شوقَهما،
وفي جَفني ذهولَهْ؛

ظَلّي الغدَ المنشودَ
يسبقُنا المماتُ إليهِ غِيْلَهْ.

سمراء الثانية

أغمِضْ على مَطلعِها الأسمَرِ
جفني، وخبّئْ نكهةَ المُسْكِرِ؛

فَلذّتي من عالَمٍ لم يكُنْ
بعدُ، ولم يوحَ إلى مُضمَرِ.

في عُمْقِ عينيها افتراضٌ له
رَحْبٌ، ووعدٌ بالعطاء السَرِي.

ونحن فيه أبَدٌ غامِضٌ
منطلِقٌ في أبَدٍ مُقْمِرِ،

أو نغمةٌ لم يغوِها عازفٌ،
تائهةٌ في غفلة الأعصُرِ.

أقول: « يا سمراءُ، غيبي على
رنينِ هذا الفَلَكِ المُوغِرِ؛

غيبي معي، لا آنُ لَذّاتِنا
يطالُنا، ولا غَدُ السُمّرِ؛

نحنُ إلها سَفَرٍ عابرٍ
فوقَ السُهى، فوقَ الفناء الذري.

للنجم أن يقطُفَنا لَذّةً
مرجُوّةً إلى مدى الأدهُرِ ».

*

لأنتِ أُفْقُ المنتهى، هَفْوَةٌ
من جنّةٍ مرصودةِ العنبرِ؛

كنتِ ! فكانَ الحُسْنُ في صُدفةٍ؛
وكنتُ في بالِكِ، إن تَذكُري.

الصدى البعيد

أَحَبُّ على مسمَعي
صَدىً مات في اضلُعي،

هَفا من سحيق المَدى
رِضىً، أبيضَ البُرقُعِ؛

وأطلعَ أوّلَ حبّ،
وراح، ولم يرْجِعِ.

*

ألاَ هَبّةٌ من شذاهُ
تُرَنّحُ حزني معي،

تُهَزْهِزُ ليلي حناناً
وتُخْصِبُ من بَلقعي.

فنحن أولي الحبّ لحنٌ
طَروبٌ، وإن ندمَعِ.

*

أفيءُ إلى بعضِ حُلْمٍ
طريفِ السنى، اروَعِ،

يُطالعني منه ضوءٌ،
وفجريَ لم يطلعِ؛

وتجري الليالي معي
كسالى دَدٍ طيّعِ؛

فمِلءُ يديّ هناءٌ
وملءُ المدى مطمعي.

*

تُرفرِفُ، يا طيفَها،
على مُقفِرِ الأربُعِ،

أنا اليومَ روضٌ غريبٌ
عليكَ، وإن أدّعِ.

ولولا بقايا حنينٍ
تُهوّمُ في أضلُعي،

تلاشيتَ من خاطري
مع الأملِ المُقلعِ.

*

انا مِلءُ صدري، ومِلئي
مَرَدّ هوىً موجَع،

حنانكَ دَعْني، وإلاّ
جرحتُكَ بالأدمُعِ !

النغم الحكم



وردة الورود

تعالَيْ، تعالَيْ مع الهَيْنَماتْ،
وزيدي الزهورَ شذاً وهِباتْ.

وحُطّي على شفتَيْ حُلوةٍ،
وحيناً على دمعتيها الفُراتْ.

فإن يَرتَشِفْ ثغرَها عاشقٌ،
غداً، يَستشفّك في القُبُلاتْ.

*

تعالَيْ، مرورُك عبرَ الرياضِ
يرنّحُ في أيْكِها الزقزقاتْ.

وأنتِ، أيا أنا، فَوْحُ العبيرِ،
وومضُ الخيالِ، ورَفُّ السُباتْ.

على الصبح، أنتِ تَثَنّي الضياءِ،
وفي الليل، وشوشةُ النيّراتْ.

*

ندائي لحسنكِ يَفرشُ ورداً،
ويوقظُ في الطُرُق الأغنياتْ،

كأنكِ روحُ الربيعِ يناديه،
في الدَوِّ، ماءُ الجُذوع المَواتْ.

وإمّا بلغتِ التفاتَ السِوى،
فلا تسكني غيرَ ماض وآتْ :

دعيكِ إلى الدهر حُسناً يُرَجّى
ويُذكَرُ، لا يدّعيه التفاتْ.



يقظة الزهر

ليلة تجتازين بستاننا

ليلةَ تجتازينَ بستانَنا
خَطْفاً إلى ذيّالِكَ الموعِدِ،

يَبْقى على رَيحانِهِ، للضُحى،
أشياءُ في الريحان لم تُعهَدِ :

شُقرةُ شَعرٍ، وغِوى عُقدةٍ،
ولَمّ تَفْتا جُرّرَتْ باليدِ،

ونقلةٌ فتّانةٌ كلّما
مسّت ثرًى، غنّى الجمَادُ الندي.

*

باللهِ، لا عُدتِ، إليها، ولا
اتّهمتِني، إن نمّ زَهرُ الغدِ...

سمراء دمشق

رُدّ لي من صَبْوتي، يا بَرَدى،
ذِكرياتٍ زُرنَ في لَيّا قَوامْ؛

ليلةَ ارتاحَ لنا الحَوْرُ، فلا
غُصُنٌ إلاّ شَجٍ أو مُستَهامْ،

وتهاوى الضوءُ، إلاّ نجمةً
سَهِرتْ تُطْفي أُواماً بأوام.

سألتْني من دلاَلٍ قُبلةً
يُعصَرُ الدهرُ بها كأسَ غَرامْ،

وارتمت، يكسِر من هُدبٍ لها،
مُسهَبِ الطول، حياءٌ واحتشامْ؛

وَجعَت صَفصافةٌ من حسنِها،
وعرى أغصَانَها الخُضْرَ سَقَامْ؛

فحَسرتُ الشَعرَ عن جَبْهتَها
أسألُ الحسنَ : أفي الأرض أقامْ؟

وتأنيتُ أُملّي خاطرِي،
قبل أن يحجبَها ضمُّ الهُيامْ،

أو لخوفٍ بي على ثانيةٍ
سوف تمضي! فمُنى العُمْرِ حُطامْ!

*

لم تَدَعْ لي شقوةً أحيا بها،
ورَنتْ يملأُ عينيها ابتسامْ.

أومأتْ لي، فامّحى كلّ سنًى
مُرهِقٍ، غيرَ فمٍ عذْبِ المَلامْ.

واذا قُبلَتُنا فَرٌّ الى
عالَمٍ أبهى، وسُكنى في منامْ؛

تَقِفُ النجمةُ عن دورتها،
عند ثَغْرَين، وينهار الظلامْ.

نجوى الليل

ليلُ، يا ليلَ الخَيالْ،
يا حبيباً طيّ شالْ،
ضاحكَتْكَ الرابيَهْ،
ودَعتك الثانِيَهْ،
دعوةَ الزندِ إلى ضَمّ الجمالْ.
أتُرى أنتَ وَتَرْ
مُقلِقٌ بالَ الحجرْ،
أم غلوٌّ أنتَ في كرِّ اليَمامْ،

أم سريرٌ شدّهُ خيطُ القمرْ؟
طِرْ بِنا، يا ليلُ، طِرْ، أنت الغَرامْ.

✻

ليلُ، يا أسودَ ما شاء البَهاءْ،
لم يكُنْ، لولاكَ، للسهل ارتماءْ،
لا ولا طاب لقلبَيْنِ اللِقاءْ.
ما سِواكَ المشتهى،
أنتَ أنت المنتهى،
يا ضياءً فُتَّ مِسكاً في الضياءْ.
جُنّ، وامرحْ في الربى،
كالسنى النَضْرِ الصِبا،
كنشيدِ الخصرِ في لَيّا القَوامْ.
واذا جَفنٌ إلى جفنٍ صَبا
طِرْ بنا، يا ليلُ، طر، أنتَ الغَرامُ.

✻

إنسَدِلْ واسألْ ليالانا الحِسانْ :
« عن يَدَيْ مَن هِيلَ كالوردِ الزمانْ؟ »
وحدَنا آنٌ، وهذا الكونُ آنْ.

ما الهوى من بعدنا؟
ما التلاقي؟ ما المُنى؟
ما المواعيدُ بظلّ البَيْلسانْ؟
يا هُنا ليس هُنا،
يا دُنى خلفَ الدُنّى،
أنتَ هَمّ الفُلّ، أسقامُ الخَزامْ.
واذا ما نهتِفُ : « الليلُ لنا! »
طِرْ بنا، يا ليلُ، طِر، أنتَ الغَرامْ.

*

جَرُّ اردانِكَ في الدرب شَذِيّ،
طَيّعُ الثِنْيَةِ، معتلٌّ، غَوِيّْ.
وسنى لونِك مُحْلَوْلٍ، نَقِيّْ؛
ترتمي فوق الفَنَنْ،
تتلهّى بالزمن،
تُولِعُ الأنجُمَ في البال الخَلِيّْ.
مِنّةً، لا تنفَدِ
وابقَ، يا حُلْمَ الغَدِ،
يا هوى الضمّةِ في وَهْمِ النِيامْ.

أوشَكَ الصبحُ علينا يعتدي،
طِرْ بنا، يا ليلُ، طر، أنت الغَرامْ.

*

نحن قيثارٌ غفا بين يَدَيْكْ،
هُزَّهُ يَنْعَطِفِ الأُفْقُ عليكْ،
أو فَمُرْ يَنهضْ بنا الكونُ اليكْ!
آنَ لا يقلقُ شَيْء ،
لا صَدًى، لا وقعُ فَيّْ،
انما الليلُ هَزارٌ خلفَ أَيْكْ!
أجنُحٌ ليست تُرى،
وافتتانٌ بالذُرى،
وغناءٌ رَنّ من عند الغمامْ!
آهِ، لا تُعْطِ السِوى ان يَسكرا،
طِرْ بنا، يا ليلُ، طر، نحن الغَرامْ.

نار

مِن الياسمينِ، مِن الزنبَقِ،
فرشتُ السريرَ، ومن مِرفَقي،

فلا تَدَعي الليلَ يُفلتُ منّا؛
تُرى، هل نعيشُ الى المَشرِقِ؟



انا العمرُ عنديَ ثغرٌ صَدٍ،
ونهدٌ من المرمر المؤنقِ؛

وعينانِ أوسعُ من عالَمٍ
تقولانِ : « أيّهما تنتقي؟ »

قَوامُكِ يدعو، ودَلدالُ ثوبكِ
يَهدِمُ من عزّتي ما بَقي.

وَجِعتُ أنا، وَجَعي عند خصرِكِ
أو منتهى شالِكِ الأزرقِ.

*

سألتُكِ، فرّي من الثوب، واعْرَيْ،
فشفّافُه، في الدُجى، مُرهِقي!

وطيّاتُه، والغِوى، والفضولُ
هَواتِف : « يا من يرى مزّقِ. »

*

أَقِلّي المِطال، انزَعيه، وارخي
الذراعَ، وفي الياسمينِ اغرقي.

لَوَقعُكِ فوقَ السرير مَهيبٌ
كوقع الهُنيهَةِ في المُطْلَقِ،

كشلاّلِ وردٍ هَوى من عَلٍ،
فلا نجمَ في الأفقِ لم يشهَقِ.

*

فديتُك، طيري إلى المستحيلِ
ومُرّي بخاطرِه المغلَقِ،

وإن همدتْ نبضةٌ، تحت نَهدِك،
تعْبى من المُشتهى المُحرِقِ،

وكان لضمّ المُنى ساعداكِ
استجابا، وللعُمُرِ الريّقِ،

ولم يبقَ منك سوى أنّةٍ
تُغَالِبُ في النظر المُطرِقِ،

وجسمٍ — على رغمِ عَصْفي بهِ —
مضيءٍ كقِطْعَةِ شمسٍ، نَقِيّ،

وعُدتُ امنّيكِ بي، بالهوى،
فيا واحتي، لا تقولي: « اشفقِ »،

بل استقبِلي من جديدٍ هواي
وكالضوء فوق السرير اقلقي.

*

لأنكِ في الليل، فالليلُ نارٌ،
ونارٌ يداكِ على مَفرِقِي !

غابة اللوز

غابَة اللَوز، أيا مهدَ الصبا،
عُدتُ، يا غابَهْ:
هاجِرٌ عاد رَبابَهْ،
يُوقِظُ اللحنَ طَروباً طيّبا.

*

بِمَنِ الترحابُ، يا غابةُ ؟ بي ؟
أم بما كانا ؟

*

زار نَيسانُ رُبانا،
يومَ أنتِ الوَهْجُ عند المغربِ.

*

أيُّ صبٍّ ما بكى يومَ السفَرْ ؟
ونأى عنكِ،
طاوياً في الصدر منكِ
زهرةً قَطْفَ التي تَحكي القمْر ؟

*

آه، هُلّي في الضحى أو في المساءْ،
جَنّةَ الأبيضْ،
كان لي جَفنٌ، فأغمَضْ،
منذُ ما غِبْتِ وغَيّبتِ الهناءْ.

*

وإذا عَصْفُ الشِتاءاتِ الهَتونْ
جُنّ من عَزْمٍ،
يَقصِفُ الغُصْنَ ويُدمي،
غابةَ اللوزِ، اسكُني ضوءَ العُيونْ !

فهرست الكتاب

غَـدُ النُخبَة

الطبعـة الاولى ١٩٥٤
الطبعـة الثانيـة مصححة ١٩٩١

الى فيثاغورس، أحدِ عِلْية العقول في كل الأزمنة، يُنسب القول : « سأخاطب الحكيم فأبعدوا الجُهّال ». إذنْ منذ عهد باعدٍ في القدم، شعر سراةُ الفكر بان العامّة خَطرٌ على اصحاب التعاليم الرفيعة.

بيد ان تطوراً هاماً حصل. فبتنا اليوم وخطرُ الجُهّال على القيم الكبيرة نستغلّه لخير تلك القيم، نشحذها عليه، نزيدها مضاء. وهكذا لم يتحفّظ أينشتين في رَكْزِ كونه على نواميس تناقِض الحِسّ العام. ذلك لا لأنّ العامة — في أُوروبا — ارتقت كثيراً عما كانت عليه عهد الاضطهادات،

بل لأنَّ النخبة تكوَّنت. تكونت فراحت تُشكِّل حول صاحب الرأي الجديد ــ مُحِقّاً كان أم مخطئاً ــ دِرعاً يقيهِ ثورةَ الخصوم: ثورتَهم على شخصه فلا يُمَسّ ــ وما ذلك بشيء هام ــ وثورتَهم على افكاره، فلا تُخنق في فمه ــ وهو هو الأمر الأساسيّ ــ بل تُوكَلُ الى المِحَكّ المختص وحدَهُ، يُتوِّجها او ينتقي منها ما صلح أو يدحضُها جميعاً، مُمَهِّداً لعمل النسيان يأتي عليها.

لا لم يبق أحدٌ في عصرنا يخشى نقمةَ العامة. بشرط واحد:

ان تكون الخاصة موجودة.

* * *

أين نحن، في الشرق، من تَكَوُّن النخبة ؟

قد يتبادر الى الذهن، رداً على هذا السؤال، أنَّ في الشرق جامعاتٍ ومؤسساتِ تَمَدُّن، إذن طائفةً من الاساتذة وذوي الاختصاص، مِمَّا يروح، بالنتيجة، يضمن وجودَ النخبة.

رأيٌ، أشدُّ خطراً على حَلِّ مصاعب الشرق من عَدَم وجود النخبة. لانه يجعلنا نكفّ عن لَمِّ شتاتها أو إطلاعها من عدم.

ليست النخبة افراداً أفذاذاً بما هم افرادٌ أفذاذ، ولا طَبَقَةَ مُثقَّفين بما هم طبقةُ مثقَّفين. انها جِسمٌ حيّ، ذو معرفة وخُلُق في مستوى المصائر الكبيرة، واعٍ ذاته ودورَهُ في العالم.

كجسم، تتحرك النخبة وِفقَ نواميس تموت إن هي تركتها تَهزُل أو تتضعضع. وكجسم حَيّ، ما هي كالآلة تستقبل الوجود وانما كالانسان تقصِد الوجود. وكذات معرفة وخُلُق في مستوى المصائر الكبيرة، لا تجهل شيئاً بلغه العقلُ في أيَّةِ بقعة من بقاع الأرض، ولا تفتقر الى شِيمَةٍ تحُلِّي بها في أيّة رقعة من رقاع التمدن، من تلك التي تُدَرِّع الناسَ في وجه الشرّ وإغراءات الشرّ. وكواعيةٍ ذاتَها ودورَها في العالم، لا تتصرف تِلقائِياً او اندفاعاً في تيّار، وانما صدوراً عن إرادة وعن ادراك بأنها هي المسؤولة، في النهاية، عن مستقبل الانسان في الارض وربما في ما وراء الأرض.

قد يكون موجوداً في الشرق افراد مُتَحَلّون بهذه الصفات. ولكنَّ عدَم انتمائِهم، بمثل التَجَنُّد، الى جسم النخبة والى ما تنتدب نفسها اليه، يَمنعُهم من امتلاك صِفتها، فَيُبقيهِم أضعفَ جوهراً وأَقَلَّ فعالية.

هل يَعني هذا ان النخبة حِزب ؟

كَلَّا وحاشا أن تكون النخبةُ حِزبا.

الحزب، تحديداً، عَملٌ سياسي. اذن يَتطلَّب الحُكم. والنخبة اكبرُ من تَطلُّب الحُكم وأكبر من الحكم. تَسلُّم زمام الحُكم يظل مشوباً، ولو قليلاً، بشهوة السُلطة، والنخبة فوق الشهوة وفوق السلطة. الحكم دولابٌ من دواليب تُشرف عليها النخبة، والنخبة المُلتفَتُ الذي اليه تتحرك الدواليب. الحكمُ أُسلوبٌ لتعهُّد الأمَّة او العالَم، في صعودِهِ جهة مصير عظيم، والنخبة هي هذا المصير العظيم.

هذا لا يعني أننا، شخصياً، من أعداء الأحزاب، ولكننا نضع الامور في نصابها. ويقيننا ان اصطراع الاحزاب هو، في بعض المراحل، خير طريقةٍ لشفاء قوى الشعب المصابة، ريثما تضجُّ فيها العافية.

الفرق كبير بين الحزب والنخبة.

قد يحارب الحزب، بلا هوادة، حزباً آخر، ليقوى ساعداً وينتصر ويتسلَّم الحُكم؛ وقد تشجع النخبة كل الاحزاب. الحزب ينفي سواه؛ النخبة تُلهم سواها.

علينا ــ والحالةُ هذه ــ أن نرحم حزباً قوّادُه لم يتخلّوا عمّا في نفوسهم من مناقب النخبة، استنكفوا عن الطَعن على خصمهم، اكتفوا بمهاجمة الشرّ فيه، وعفّوا عن شخصه. والجماهير ــ زبائنُ الأحزاب الوُحَداء ــ لا تدكُّ لك الا خصماً رحتَ تجسّم فيه الشرّ. فإن كنتَ عادلاً واعترفتَ بناحية خير في خصمك، ومن أجلها ترفّعتَ عن مهاجمة شخصه، بقي الخصم في الساحة وانت ما تسلّمتَ الحكم. وهكذا تكون كحزب خنتَ طريقةَ الوصول، ولكنك كنخبة وفَيتَ بالعدل. وكراسم خطط عليه، أحياناً، أن يعمَلَ من اجل البلوغ، سقطْتَ ضحيةَ ما بك من تَعقّل نُخبة لزام عليها ان تُنصِف.

ولقد أدرك الشاعر ــ وغالباً ما يستبق حَدْسُ الشعراء تطلعاتِ الفلاسفة ــ حِدّةَ الصراع بين المغامرة في التنفيذ والتروّي في معرفة الحق، فقال :

ولا بُدَّ لي من جَهلةٍ لِوِصالها،
فَهل مِن صديقٍ أُودِعُ العقلَ عندَهُ ؟

* * *

والمجتمَع ؟

إنَّ المجتمع، كمجتمع، واحدٌ تقريباً. واحدٌ في العالم كلِّه. إن في انكلترا لصوصاً، كما في لبنان، وكذلك منافقين ومتاجرين بالافيون. اما ما يجعل المجتمعات تتباين، بعضٌ الى أوج وبعض الى حضيض، فهو ما يقوم فيها من نخبة، حولها تُستقطَب القوى أو تتراخى. فلا يُعَدُّ المجتمع اللبنانيُّ متأخراً لمجرّد ما ان يقوم فيه متاجرون بالحشيش، يساهمون في تدمير مصر، بل يُعَدُّ متأخِّراً ان كان لا يطلع نخبةً نافذة الكلمة، تَغضب مستهولةً عمل الاثيم وتَمنع حصولَه. ويُعَدُّ متأخراً أكثر إن بقي تُجَّار الحشيش، من آن الى آن، يُصدّرون الى الحكم نماذجَ منهم.

لا، ليس ضرورياً ان تتسلم النخبة باشخاصها الحكم. وانمّا من المحيي أن يتشرَّفَ الحكمُ بالجلوس الى مائدة النخبة.

فعلى تلك المائدة، وحدها، يُنقذ الحكمُ نفسَه من نفسه، يُنَقّي جَوَّه من صغارة الزبائن، يرتفع الى المناخات العُلى، يَمُدُّ ذاتَه بنُبْل العِلْم وبالفِكَر الكبيرة، ويَعود غير متخوِّف من الاقدام على تحقيق الجَلَل، على صنع التاريخ.

والاقدامُ على تحقيق الجلل وحده يخرس التذمُّر، لأنه يَجتَثُّ اسباب التذمُّر؛ ووحده صُنْعُ التاريخ يهوّس ويَغمُر بالفرح، لانه يرفع الأعين اللصيقة بالتراب الى ملاعب الشمس.

* * *

كيف تتكون النخبة ؟

ككل جسم حي، تماشي النخبة سننَ النشوء. فهي، اوَّل ما تبدو، خلايا قليلة في فراغ المجتمع. أرخبيلات في خضم. يؤلِّف الخليَّةَ الواحدة اثنان على الاقل من عِلْيَة المثقفين ذوي الخُلُق، لا بما ان واحدهما عالي الثقافة ذو خلق، بل بما انه، على الاخص، أبعد شيء عن الاثَرة والانكفاء على الذات، أميلُ الى التعارف فالمشاركة في النشاط العام، يزيد بهما نضجه ويمرّس بادرتَه بمواجهة الصعب. اكتشاف الافراد بعضُهم بعضاً، والتلاقحُ الفكريّ والخُلُقي فيما بينهم أساسيان. وتنمو الخلايا وتتكاثر حتى لتقلّ المسافات المباعدة بينها وتنتظمُ في الخليّة الكبرى: النخبة. يتمُّ عمل التلاقي هذا لا بمحض وعي ولا بمحض عفوية. فما هو احتشاد مُحزوزبين ولا تزاور ثرثارين. إنْ هو الا بعضٌ من نزوع الى لقاءٍ خَيّر فيه تكثيفٌ للذات وتطلّعٌ الى

فوق وفَرَحٌ خلاَّق. والخليق بهذا التلاقي يَمُرُّ بمرحلة من وعيٍ ذاته واستجابة نداء داخلي يشده الى السوى، ثم بتماسٍ مع السوى يكاد لا يَتِمّ حتى يشعر هو بتبدُّلٍ له اشبهَ ما يكون بولادة جديدة. وتكون صداقةٌ أحلى الى قلبه واسبغ على عَمَلِه من الحبّ العظيم، لأنها تنطوي على غبطَة الحب وتترفع عن غيرته الآكلة وعن أنواء بحره المتقلب.

الشعر لم يغنِّ الصداقة كفافاً.

بهذا اقترف إثما وخسر وتراً ولا أرن.

وإن الصداقةُ الّا العاطفةُ الأوفر إلهاماً للمنتجين. إنْ أُنمِيت وُسْعَها بين مختلف افراد النخبة، مدَّتْهم بحيويَّةٍ يروح صداها يرجُّ الى أمد غير قصير. تشهد جدوى عرى شَدَّت بريكليس الى نخبة من المعماريين والنحاتين، كان من نتيجتها بقاء رقعة من اربعة كيلومترات من الأرض عَاصِمَةَ إلهامٍ الى الأبد. وتشهد طِيبَةٌ ألَّفت بين قلبي غوته وشلر فكان منْها قَلَمَانِ قلَّما أطلع الأدَبُ أطرَفَ أو أعمق، وأبقى على الدهر.

وَعْيُ الذات والاستجابة الى النداء الداخلي هما من عمر

النخبة عَهْدُ اليفاع. والصداقة عهدُ الشباب، بما فيه من طموح خَيِّر بارئ. وفي عهد الرجولة، تحتاج النخبة الى مَن يتعهدها باحترام. إبان الشَباب هي في غنىً عن أي مَدَد، تكفي نفسها بنفسها. اندفاعاً حتى الطرب ولذةً حتى الخدر. أمَّا في عهد الرجولة فويل لمؤسسات تجنح عن الحَدْب على النخبة، وويلٌ لحكم ينَفِّرها أو يروِّع. تنطوي النخبة عندئذ على نفسها فلا تلبث ان تيبس حتَّى لتغدو مُتحفَ مومياءات؛ وهذا، وقد انقطع عن التماس بممثلي انتصارات التمدّن وعن التلَفُّت الى الغد الأفيح، يروح يشيخ والدنيا بعدُ شباب، فيتنكَّر له الناس بل يتنكر هو لنفسه، ويضطر، إبقاءً على حياته، إلى وقف عمله على الاهتمام بنفسه. حمار ناعورة هزل فعاد لا ينشل من الماء إلا ما ينقع عطشه.

عَددٌ من حكومات الشرق وصل إلى هذه الحالة. فاذا الدكتاتوريات، على بشاعتها، المنفذ الوحيد.

النخبة وحدها تستطيع أن تؤمِّن لا تبادُلَ الاحترام بين افرادها وحسب، بل تبادله كذلك بينهم وبين كل مؤسسات المجتمع، ومنها الحُكم. وشعور النخبة بحرمتها

هو كُلُّ حيويتها، جُماع عنفوانها، وهو السياج الذي يصون رجل العِلم من إغراء المال يُلوِّح به أربابُ الاعمال، منزلينه من طلاقة البحث العلمي الى محدودية العمل التكنولوجي. ذاك يُقدِّم له لذَّة الكشف للكشف ورضى الله والضمير، وهذا يُغرقه بالثروة والرفاه، صَنَمَي العصر اللذين اقتحما على البيوت صدارتَها وعلى القلوب حرارةَ خفقانها. أَولا يخالج العالِمَ بدايةُ قنوط كلَّما رأى زوجةَ صاحب الحانوت تقتني في دارتها أحدث الرياش وأدوات الرفاه وتودع المصارف ثروة، بينما تخنق زوجُه في صدرها شبه غصَّة ؟ لا، وَوَحْدَهُ شعور النخبة بأنها النخبة وكفى يصون العلمَ من الاستخدام في المصنع، والشِعْرَ من التكسُّب، والفلسفة من كتابة المقالة اليومية، والبحث من التعيش في بيتٍ غنّي، والتدريسَ من الالتحاق بالوظيفة، والقضاءَ من الانتساب الى مستشارية الشركات.

وبصدد هالة النخبة يمكن الالماع الى ما ينبغي أن تخصّ به النخبةُ نفسها من ترفيه خليق بها. فالعمل العقلي المرهق يلزمه استجمام موائم، يرجع العقل منه الى مجهود جديد. فان لم تمنح النخبةُ نفسَها هذه النزهة الرحيم، ان لم تكن لها أنديتها المتنفسة بالرفعة، اضطُّر أفرادها الى

انتجاع الراحة في ملاهي الطبقات الأُخر حيث الأثَرُ مزدوج الاساءة: يُبَدِّد جوَّ النبل ويزعزع ثقة العِلية بعِليتها.

ولعل تاج اعمال النخبة، كيما تتوطد ويبلغ عَملُها حد العَرَاقة، أن تتنادى بين فترة واخرى الى التمرُّس بعملٍ ضخم، يجيء في مستوى القضاء والقدر.

ان انتداباتٍ الى الجلل قامت بها النخبة، في بعض عهود التاريخ، أوجدت صيدون وآثينة وقرطاجة وروما وفلورنسة وباريس : الاولى فاتحَةَ عالَمٍ ومصدّرة عقلٍ وذوق، حتى لتأخذ الدنيا عن نظامها النوسو ــ دموقراطي، ويقصدها العظام يُحصّلون على مُعلميها، وبناتُ الملوك والسَراة يروين فيها غلة الاناقة والجمال؛ والثانيَة حاضرةَ فِكْرٍ وفنّ تلهمهما الناس إلى الأبد، حتى لتتعبَّدُ الدنيا لبضعةٍ من الاصول هي المحارة التي تضطرب داخلها آلة العقل؛ والثالثةَ أكبَرَ ورشةٍ لصناعة البطولة، بدأت بمِلكةٍ أحرقت نفسَها ثباتاً على فكرة وانتهت بملكة أحرقت نفسها ثباتاً على فكرة، حتى لقد أسَّسَ الانسان بين تينك البادرتين أطول الامبراطوريات عمراً : عَمَر عالَماً شاراً نشاطه الخلّاق على جميع البحار، مُوجداً في الاقتصاد

عدالة لا يزالون حتى اليوم يتشوّفون الى مثلها، تاركاً في الشجاعة سَجِلّاً لسلسلةٍ من المعارك تتلمذ لها قيصر ونابوليون وبقيت، الى أمس، آخر ما قيل في فن ملاعبة الموت؛ والرابعةَ أعمَقَ مدرسة للعنف مع الذات، حتى لقد مدَّها قهرُها لنفسها بما يلزمها من قوة لقهر الدنيا، فشدّتها بقرنيها في حقبة من عمر الزمن، وربطتها الى عجلتها، وما زال قانونها، الى اليوم، اوثق ما يشد البشر إلى الحق؛ والخامسةَ أشرَفَ حِلْفٍ عُقد في التاريخ بين رجال مال ورجال فنّ، حتى لقد أُطلع من التحف في التصوير والنحت والعمارة ما يُقدَّر بنصف ثروة الجمال في الأرض، وحتى لتروح أمة بأسرها تعيش على دخلها من حجّ الناس له، على أنّه تاج قارة طَمِعت بأن تكون مِلكة القارات؛ والسادِسَة حَكَمَ ذوق وعقل في الألف السنة التي حولنا، حتى لعلى ما تنطق به يحيا أو يموت نتاج العباقرة، وحتى لتشكّل هي من دون سواها من العواصم وطناً ثانياً لكُلِّ رجلٍ فكر.

هذا، والنخبة على الجملة مناخ.

فاذا لم يشعر المجتمع، جميعاً، من لاهوتيِّه إلى الجاهل، من القصر إلى الحانة، بأنْ هناك، في قمة هذا

المجتمع ولكن على مقربة من قلبه، طَبقةً تتنفس تنفساً بالشؤون العليا : كثافة الوجود، ترف الوجود، سُموّ الوجود، فقل حينئذٍ ان ذاك المجتمع شَبَحٌ أو دُوَلٌ شرطية تُحكَمَ بالسوط، رقعةُ أرض من فقر وبداوة في لباس حضر معرّضةٌ بين يوم وآخر الى الوقوع في أيدي شرذمة من الطُّمّاع أو تُجّار النفوذ أو ما هو أوجع : مستعمرين ارتدوا بزة جديدة.

* * *

بعد هذه المحاولات المتقضبة في فقه النخبة وسنن تكونها، نورد طائفةً من معضلات الشرق المعاصر التي ستتحدى نخبة الغد :

أولا : معضلة تكون النخبة.

انها باب الأبواب. أول ما يتوجب عليها عمله.هو من النخبة كالمنهج من الفلسفة. فان لم يتوصل أفرادٌ غير عاديين الى الانتظام في شبه حركة تتعهد الشؤون العليا، فعبثاً نتكلم عن نخبة وعن معضلات عظمى ستتصدّى لها النخبة.

ثانياً : معضلة اعادة الثقة بالعقل البشري.

إن الشرق المعاصر هو، من جهة، غير جاهل، ومن

جهة أخرى، غير كافٍ علمُه. وهذا القدْر من النور بين يديه يوقفه، كل يوم، على تناقض ظاهري في عمل نظْم الفِكر بالمجتمع وتدبُّر مستقبل الأرض، فيخلص إلى ان البشرية، بعد الستة آلاف سنة من إعمال العقل، لم تتوصل إلى حل مشاكلها. وإنما راحت تُعَقِّدها زيادة، كل ربع قرن، بمجزرة عالمية. ومن هنا أزمة العقل مع نفسه: شَكُّه بالعقل وبقدرة العقل على تَعَهُّد المصير البشري. أزمةٌ، ان استمرَّت في الضمير الحديث، اعاقت دخول التمدن إلى الشرق. لأننا ما لم نَسْتَعِد الثقة بالعقل، آلة الحقيقة وتقبُّل الوحي، فسنظل مضربين عن استعمالها على الوجه الأكمل، مكتفين من مواجهة مصاعبنا باللجوء إلى « روشتات » من الخبرة البراغماتية تفضي بالفرد حتماً الى تطبيق شريعة الشُكَّاك : « إن لم تكن ذئباً .. »

ثالثاً : معضلة استعادة الكرامة البشرية.

إن قلَّة التعمق بالفكر، عند طبقة المثقفين العاديين، أوقفتهم من المعرفة عند استنتاجات قشورية من علم الانتربولوجية. فراحوا يرددون ان الانسان حيوان أو ضريب حيوان. والهالة التي حوله إنما اصطنعتها المعتقدات وان أيِّ فرد هو كأيِّ فرد. وهكذا باتوا في موقف من يحذف

كلّ ما بناه الانسان، في الستة آلاف سنة الاخيرة، في باب تحقيق ذاته. موقفٌ بسببه قد يلتقون على صعيد واحد ورجلَ العصابة الذي يقيس الانسان بقدرته على تشغيل المسدّس. ومن هنا موجة اللامبالاة التي تغمر بعض مجتمعاتنا، من الاساس الى القمة، فتجعله يَقْتُل في عدم تحرُّج، يدهس معنويات باتّهام جزاف، يُحطِّم مستقبلاً بحكم يصدره بخفة، يُرغم نابغةً على الاستقالة لِمجرد احتياجه الى منصبه، يُدمّر شهرة لِلذة إعمال الحسد الكامن فيه. أعراضٌ كلُّها لمرض تقلص كرامة الانسان في المجتمع الشرقي، أياً كانت الدرجات : من الحاكم الى القاضي إلى المتشرد.

رابعاً : معضلة التوفيق بين ضرورة الاكل من خبز الهيكل وواجب الحفاظ على خبز الهيكل.

معضلة ترقى في الشرق الى عهد داود. خلاصتها أنَّ الحاكِمَ أو أيَّ متسلم عملٍ مفروضٌ فيه. من جهة، ان يعيش من مال المَنْصِب، ومن جهة اخرى، ان يتعهد الانفاق على التزامات ذلك المنصب باشدّ وَفْر ممكن. فكيف لا يقع في تجربة من اتخاذ القرارات التي توائم — عن بعد أو قرب — مَصالِحَهُ الخاصة ؟ نصفُ الشلل في الآلة الحاكمة عندنا ناجِمٌ عن هذه المعضلة. فبأيّ دُربة

عبقريةٍ ستتوصل النخبة غداً الى تربية طبقة من الحكام ورجال المناصب والاعمال، تمدُّ بهم الدولةَ ومختلف مؤسسات المجتمع، ويكونون بشراً فوق البشر، حتى إذا اصطدمت الخدمةُ والجيب آثروا مجدَ الخدمة على ورَم الجيب ؟

ولهذه المعضلة أُثرها المباشر في جدوى حربنا مع العدو. فإلى اي حَدٍّ سيكون ساستنا في مثل هذه الحرب مُدَرّعين ضد المال ؟ أمن المستبعد ان يُنزل عدوُّنا الى الساحة جيشاً من الدولارات ؟ لَكَم ينبغي أَن يكون داودُنا مَتينَ الخُلُق، لكي يفضّل الجوع، يومئذ، على أكل خبز الهيكل الآتي ؟

خامساً : معضلة النزاع بين الله وقيصر

معضلة ذرَّ قرنُها في لبنان منذ تقدمت نقابة المحامين بمشروع قانون لشؤون يعتبرها رجال الدين من ضمن سلطتهم، ويعدّها التشريع الحديث جزءاً من شموله. اية روح عبقرية يجب أن تُلهم النخبة غداً لتُطلع بين ممثلي الله من مثل بولس جديد يعرف « ان الحرف يقتل » ومُمثّلي قيصر من يقترح قانوناً مطلق الجرأة — لا مُتَمَلْمِلَهَا

وحسب ـ حتى تكون هذه الجرأة على الجميع هي هي وسيلة الصمود والاقناع والظفر ؟

سادساً : معضلة التوفيق بين المواطنيتين الهادرتين في ضمير الانسان الحديث : مواطنية الأمة ومواطنية العالم.

إذن لا تبقى الاولى أثَرَةً وتطلُّبَ عيشٍ عن طريق غزو الغير، وبالتالي اعتبار البغضاء اساس بقاء، ولا تستمرّ الثانية تهرباً من التزامات الانسان نحو الأقربين وذوبانا في كلاميَّة تُدمّر الثقة بما يرتسم على الافق من وَحدة عالم.

ولهذا النضال شكلٌ آخر حاد في الضمير الشرقي، عند جماعة المُواطنية الاولى. فهم يَتَّخذون أشبار الارض أساساً لقياس وطنهم، فتطالب فئةٌ منهم بتكبير من هذا النوع واضح وتردُّ فئة أُخرى بتكبير يطغى على تكبيرهم، حتى لتستمر كلتاهما تُضيِّع على الشرق فرصة الجهر عالياً بأن نصف مشاكله ناجم عن كونه اهتم، منذ فجر النهضة السياسية، للضمّ اكثر منه للتكثيف، لتوحيد الاقاليم اكثر منه للتمدين. ففاته الاثنان.

سابعاً : معضلة إحلال العلم محل الحسّ العام

باستثناء القلائل من عُشَراء نظريات اينشتين والمقارناتِ

بين نواميس الكون الصغير والكون الكبير، نجد سواد المثقفين في الشرق ما زالوا يَركزون مِحَكَّ العِلم على الحسّ العام ــ منطقِ العاديين ــ غير مُدركين انّه قد ثبت، عقب انتصارات العلم الحديث، أَنَّ الحِسَّ العام اكبر أعداء العلم، وأن تقدّم المئة السنة الأخيرة لم يتمّ لولا تجرّؤ العباقرة على ذاك الصنم، في دُربة جديدة هي أجمل ما خضَّ حلقاتِ المنهج منذ نيوتن، وأن من القواعد الحديثة أن يشكَّ العالِمُ ــ برُغمٍ من ديكارت، ولعلَّها تتمة لروح ديكارت ــ بكل حقيقة تبدو بديهية أو تنطبق على منطق العامة. لا على انها دائماً خطأ، بل على انها غالباً خطأ. مهمّةٌ بين أدق واجرأ ما ستضطلِع به النخبة، وإلاَّ بقيت الشقةُ وسيعةً في الشرق لا بين الجاهل والعالِم وحسب، بل بين المثقف والعالِم كذلك.

ثامناً : معضلتا الأخذ بلغة الحياة واعتماد تدوين علمي.

إنهما بين اوجع ما سيحزّ في قلب النخبة، اذ محضُ اثارة الموضوع معضلة. بالنظر لما فيه من ملابسات التعاطف مع الوضع الراهن. ومع هذا فلا بد من العمل. وإلا خانت النخبة شرقها العظيم في تغيّبها عن فرض الحلول التي سبقتنا اليها اوروبة.

ان قضيَّتي اللغة والحرف منفصلة إحداهما عن الأُخرى. وكُلٌّ من حليهما يُغضب العاطفيين. فهو كالعملية الجراحية لا يشفي الا اذا أدمى.

معضلة اللغة عرضت وستعرض لكل الشعوب المتمدنة، لأنَّ اللغة، بطبيعتها، تخلق لنفسها هذه المعضلة كل نحو من الف عام. اما مبدأ الحل فقد استُخرج من الحياة : اللغة هي ما في الفم لا ما في الكتاب. ولو ان رقعة العالم الغربي، على سعتها، من اسكوتلاندة إلى صقلّية، مضافاً إليها رومانية، بقيت مسايرة عاطفيَّة الشعب وما تتوهمه من وحدة لغوية تربط بين أجزائه، لما كانت إيطالية وفرنسة وانكلترة والمانية اليوم زعيمات العقل الغربي، ولما أُطلعن عباقرة الشعر والفلسفة.

أما معضلة التدوين فقد عرضت وستعرض لكل اللغات التي لا حروف فيها للحركة. كالشعوب الساميّة جميعاً. وما حَلُّ مصطفى كمال بالحل الناجح، لمجرد انه لاتيني، ولكنه أحد الحلول الموفقة لأن الحرف الذي انتقاه ينطوي، خاصة، على الحروف المحرِّكة. وإن لم يلجأ الشرق إلى أبجدية مماثلة بقيت الانلغبائية آفة جماهيره إلى

الأبد. إذ الطريقة التي ندوّن بها لغتنا مبدأها « تثقف فتقرأ » لا « اقرأ فتتثقف ». هذا لكي لا نذكر سوى هذه لحسنات تدوين امثل.

معضلتان على حلّهما في الشرق يتوقف إيجاد اللغة التي هي حُقّ كل المؤسسات. وما بقي الحقُ خَرِباً فعبثاً نفكّر باقتناء العطور.

لا نهضة لنا في الشرق ما لم نحلَّ معضلتي اللغة التدوين.

بين العلم والعاطفة ستنشب حرب. وستكون مستعرة. وما كان منها ليس شيئاً بالنسبة الى ما سيكون. كل ما عندي ان اقف شجاعا في جانب الحقيقة. ليس الشرق عظيما لأنه الشرق، انه عظيم بقدر ما سيكون خادماً الحقيقة.

تاسعاً : معضلة تعهد المعرفة الشعبية.

ان ايجاد التفاهم الدائم بين العامة والخاصة لا يتمّ، بحال من الأحوال، بانزال هذه الى مستوى تلك، بل برفع تلك الى مستوى هذه. ان الدلعة الديمقراطية في العصر عوّدت العامة شيئاً خَطِراً. خَطِراً حتى عليها. هو أن تساير العامة الخاصةُ وتجاري ما تظن العامة انه خيرها. والعامة

لن تعرف خلاصها، الا اذا أُبقيت على اتصال دائم بخلاصة اكتشافات الخاصة. لا ما يطبقه الصناعيون تكنولوجياً من اكتشافات الخاصة، بل ما تبحثه الخاصة نفسها في دوائرها العليا من نواميس. نعم ليس بامكان العامة أن تفقه النواميس. ولكن بامكانها ان تطلع على روح النواميس. بامكانها ان تدرك اتجاهها، بامكانها أن تعيش في مناخها الرفيع.

ولو عجزت النخبة غداً عن تقليل سعة الهاوية بين الخاصة والعامة، لجاءت النتيجة راعبة : استمر الحُكم في تدهور، لأن الحكم بطبيعته متأثّر بالعامة، ان لم نقل منبثق منها؛ وأُجبر، عندما يستيقظ الى الدرك الذي يكون قد سقط فيه، على التبدل حُكْماً فردياً؛ واصبح الجفاء بين العلماء والشعب طلاقا؛ وتوقف النتاج العلمي، اذ النتاج العلمي منوط لا بفهم العامة له بل بحنوّ العامة عليه؛ واضطُرّ رجالُ المعرفة إلى العمل من ضمن شهوة واحدة : شهوة المأكل والملبس والمسكن، كأنما مشكلة المأكل والملبس والمسكن، هي نفسها، تُحَلُّ بمحض معطياتها هي لا من ضمن البحوث العلمية العليا.

عاشراً : معضلة القدرة على الطموح

إن الشرق المُعاصر مزيجٌ من مقوّمات أربع : ماضٍ جَلل، ورقعة أرض معظمها صحراء، وطول عهد بالتغيّب عن التمدّن والتمدين، وانصعاقٍ بغرب بلغ من القوّة، معنىً ومادة، حداً يجعل الفارق كبيراً بينه وبين سواه.

فإذا استثنينا النقطة الأولى وجدنا ان كل شيء في مقوّماتنا يثبّط العزائم.

ولقد عقَّد هذه الحالَة وزاد المصيرَ ادلهماماً أن تخلُّصنا من الاستعمار استند، إلى حَدّ بعيد، على الكزينوفوبية، اكثر منه على وعي ضرورة الحريّة. فإذا ابطال الاستقلالات عندنا ـــ باستثناء النادر منهم ـــ كارهو غرب لا طالبو حق. وإذا أمكن بعضَ بلداننا ان يتحرر من الاستعمار، لم يعدّها « الأبطال » مرحلة صغيرة من مراحل المُضيّ قُدُماً في أنسنة الإنسان المشرقي، بل زادهم النصرُ الذي تحقَّق ثقةً بقيمة الكُره للغرب ـــ كأنما الكره يصلح ان يكون مذهباً سياسياً ـــ فتمادوا في تغذيتِه، مهوّلين ـــ دعماً لرأيهم ـــ بخطر عودة الاستعمار بألف شكل غير الشكل المسلَّح.

ولتصرّفهم هذا سببان :

الأول : ان عشق الحرّية عندهم لم يكن نتيجة درجة من الوعي متقدّمة تجعلك تدرك ان الحرّية والوجود البشري واحد.

الثاني ان الكره عاطفة ديمقراطية ــ إذا جاز التعبير ــ يمكن بثّها على أهون سبيل في مجموعة الشعب، وبالتالي تحريكُها ساعة تستدعي ذلك شهوةُ الحكم عند عبّاد الحكم، بينما الحبُّ والبناء عاطفتان صعبتان، لا تنميان إلّا في نفوس النخبة، تلك المتينة الخلق، القادرة على الترفع، العارفة ان لا دخول إلّا « من الباب الضيّق ». والنخبة بطبيعتها قلّة. ولأنها قلّة، ولأنه يستحيل « استزلامها »، يؤثر عبَّادُ الحكم عدمَ التعاون معها.

وهكذا أبقى محترفو السياسة على شبح الاستعمار، بعد ذهاب الاستعمار، وسيلةً سهلة تضمن بقاءَهم هم.

واستمر شرقنا، في اجزائه المتحرِّرة، يجترُّ وضعاً كان قد انقضى. وبَدْلَ ان ننتقل إلى مناخ البناء بقينا في روحية الخراب.

هذه الحالة. مضافةً الى ذلك المزيج الفقري الذي يكوّن مقوّمات الشرق الأربع، بَعَثَتْ في سواد الشرقيين ما هو أفتك من الجمود : المحدوديّة.

فالجمود، متى يستيقظ إلى هوله الواعون، يصبح، بين ليلة واخرى، عاملَ ثورة. أمَّا المحدوديَّة فذكاءٌ رخيص يجعلك تَتطلَّب ولكن تَطَلُّبَ المتذمّر، يريد العيش لا مجد العيش. فيفوته حتى العيش.

لعلَّ أُفتك ما يضعف الشرق اليوم إدّعاءُ جبناء المأمل بأنهم هم الواقعيون، وتعريضُهم بذوي الطموح الضخم.

لَكَم نحن في حاجة إلى من يحلمون الحُلم كبيراً !

آفة الشرق اليوم أنّه قليل الطموح.

ومن هنا انه يسهِّل مجيء الخاملين الى الحكم. فهم خير من يمثّل تذمّره ومسكنته وحوائجه الصغيرة. خامِلٌ يحكم خاملا.

لن يوفّر للشرق حتّى أقَلَّ متطلباته إلا من سينتدبُ الشرق إلى المتطلبات الكبيرة.

سيكون الشعار : ليتقدّم الصفوفَ من يقدر على الطموح.

يتحدَّى النخبَة غداً معضلةُ تحطيم الاصنام لتحلَّ محلها الآلهة.

حادي عشر : معضلة العودة الى الله والى عدم عدمية الانسان.

مُهِمَّةٌ أشرف ما سيواجه النخبةَ على الاطلاق. ففي جزئها الأول، إعادة النظر في كل ما كتب وبُني ونُحت وصوّر وأُنشد وغُنّي وبُحث وحُلّل واكتُشف وله رُكع وصُلّي وعُبِد على اسم الله. وفي جزئها الثاني، مواجهةٌ جديدة عصرية لأقلق سؤال يطرحه الانسان : أأنا محدود البقاء ام انا باقٍ الى الابد ؟ اصحيح انني، انا الذي أنرت جانباً كبيراً من ظلمات الوجود، بعقلي الكاشف المبدع، أنا الذي أطلعت روائع الشعر والموسيقى والعمارة والرقص والفكر جملةً، أنا الذي «شقعتُ» شقعاً آلة العقل العجيبة حتى لقد باتت تقدّم إليَّ ما لم تكن هي نفسها تحلم به، أنا الذي جَسَسْتُ انظمة الكواكب، رزتُها، دخلت الى قلع الذرّات، صافحت سكّانها، خَربتها، أعَدْتُ تكوينها من جديد، انا، انا نفسي،

سيفرغ مني هذا الكون، وهو انما بات نصفه من صنع يَديّ ؟ اصحيح انه بِوَحداتٍ من السنين (ستين، سبعين، مئة وخمسين على الأكثر) يُقاس عُمري، أمّا عُمر سائر الأشياء الميتة الحقيرة فيقاس بالملايين ؟ ما قيمة الأرض، هذا الكوكب الصغير، الذي تستغلُّه يدي كُلَّ يوم، ويلعب به عقلي ساعة يشاء ؟ ما عظمتُه نسبةً إلى عظمتي، حتى لَيعيش، هو، إلى شبه أبد، وأزول انا بعد دورات للشمس معدودات ؟

لا لا، وإنَّ سِرّاً خطيراً لا يزال ينتظر أن أُفضحه، ودُرَباً في البحث غير التي استخدمها الآن تنتظر كشفي. انني في التنقيب عن الحقائق اعتمد طُرُقاً إنْ هي ــ ساعة لا تكون حواسّي الخمس ــ الا امتداداتٌ لحواسّي الخمس. وما قيمة حواسّ وامتداداتِ حواسّ عجزت حتى عن تشعيري بدوران الارض تحتي، مع ان دوران الارض حقيقة يتداولها الأولاد.

إذن قد يكون بقائي أو عدَمُهُ أهولَ من ان يكشفه شمٌّ ولمس، بركارٌ ومسطرة، تجربةٌ في مُختبر ومعادلةٌ لاينشتين.

وإذا كانت العلوم والفلسفات لم تعطني عنه براهين من النوع الذي أطلب، فإن هناك استطلاعاتٍ أُخرى في مستوى العجب يجب أن أقوم بها في صدد موضوع المواضيع هذا. ولا بد اني سأخرج، غداً، من ذلك الانجاز، الذي أنتدبُ اليه نفسي، وقد باتت بشريّتي أكثف : قلبي أبصر بمطارح الظلمات وعقلي أُكثر استيعاباً لِنار الوجود.

إن ما حققتُه على الأرض أعظم، بما لا يحد، مما حقّقَتْه الأرض، فلا يعقل ان تكون طبيعتها أجودَ من طبيعتي ولا أكثرَ أهليةً ببقاء.

بلى بلى كما أني فقيرٌ إلى حاسَّة أُخرى للتمكن من الشعور بدوران الأرض تحتي، فأنا ولا شك فقيرٌ إلى عقلٍ آخر للتمكن من اليقين بأنني باقٍ إلى الأبد.

وعندئذ — متى أدركتُ اني إلى هذا الحدّ عظيم — أفلا يخطر لي أن أتساءل : هذان الشيئان البيّنا الجبروت «أنا» الباقي إلى الأبد و «اللانهاية» التي تحيط بي، أكيد انهما ليسا صنعَ يدي، أفلا يلزم ان يكون هناك — لِيُبْدع اللانهاية ويبدعني — مَن هو أعظم من اللانهاية وأبقى من البقاء ؟

يا له موضوعَ بحثٍ ينتظر النخبة، يكاد مجرد التصدّي له يدفعها قليلاً جهة الألوهة، لأنه أعظم موضوع، في أعظَمِ اطارٍ، وأهلٌ لأن يشغلَ أعظمَ العقول.

أجمـلُ منكِ؟ لا

الطبعـة الاولى ١٩٦٠

الطبعـة الثانيـة مصححة ومزيد عليها ١٩٩١

أبرقُع اسمَكِ بالأسماء أخترعُ،
وانما منكِ لا منهن بي وجع!

حتّى لقد عدتُ زهرَ الزهر، أجمعُه
آناً وآونةً كالله أبتدع.

بالبال أنْ بَسمةٌ من ثغركِ ارتحلت
صوبَ النجوم، فقلبُ المنتهى ولِع.

دُوّار النجُوم

إغراء

ـــ قصرُنا عالٍ ، على الغيومْ،
وعلى شُرفته الزَهَرْ

يتدلّى يكتُمُ الأثر
مِن فَواغي قبلةٍ تدوم،

مُرَّ بالقصر وبالذِكْرْ،
غيرَ ناسٍ آهةَ الفِراقْ.

وإذا اشتقتَ الى عناقْ...
إنَّ شُبّاكي على الطريقْ،

أُرشُقِ الحَصى فأستفيقْ...
بدلالٍ أُبعِدُ الأستارْ،

وأنا من قبلِ موعِدِكَ،
يَلتوي خصري على يدك
مثلما لحنٌ على قِيثار !

أجمل منكِ؟ لا

أجملَ منكِ ؟ لا
لم يعزُفِ الربابْ،

لم تَحلُمِ الحِجارُ في الحِلى،
ولم يَخُطَّ الشِعرُ في كتاب.

أفتَنَ منكِ؟ لا
لم تحتضِنْ ذِراعْ،

يا حُقَّ عِطْرٍ أرهقَ الفَلا،
يا ضِحكةً أَوجعتِ الشُعاع.

آنَ الفَراشاتُ على آهتياجْ،
لا تطرديهنّ بأَفقَنا،

تدرين ؟ فيهِنّ أناً...
وأنتِ، أواهِ ! السِراج...

أطيبَ منكِ ؟ لا
لم تعتصِرْ دَوالْ،

ما رَنَّةُ الكؤوس ؟ ما الطِلا ؟
يا سَكرةً سَكْبَ يدِ المُحال !

حبّ

أوانَ تغمُرُ التلالَ الشمسْ،
اقولُكِ استرقتِه الشُبّاكْ،

أُفقتِ من نومٍ كما مَلاك،
ظننتِني هناك

ورحتِ تُومئين لي بالخمس.. »
لم أدرِ ما جرى،

هو الضُحى الذي درى،
قال: « آلعبي،

يا شمسُ، عند الهُدُبِ،
وعندَ ذاك الدِملَجِ المُمانِعْ،

وصدّقي عن حُسنِها وكذّبي
أو آقرئي الطوالع...

ثم آغرُبي
في عُقَدِ الأصابع.. »

*

أوانَ تغمُر التلالَ الشمسْ،
وتنتشي بِحُلمها الأشياءْ،

أسألُ: « هل نزعتِه الرِداءْ
عن قِطعَتَي ضِياء

عُلِّقَتا بين الرؤى واللمس ؟ »
من ذا تُرى عَرَفْ ؟

حَطّم عُلبةَ الطُرَف ؟
قال: آنتَقي

منها، من الحَلْيِ النقيّ،
يا شمسُ، واعرَي والبَسي الجواهرْ،

وان ضللتِ هلِّلي وصفّقي،
مُوتي عليه نافِرْ

ثم آشرُقي
من آخرٍ مُكابر... »

*

يَلَذُّ لي غِبَّ الصباحْ،
وقد تفتَّح الأقاح

يَشرَبُ لألاءَهْ،
يَلَذّ لي تصوّرُ البريقْ

رَهناً بإيماءَهْ،
إيماءةٍ من مَلْكةٍ تستفيق...

*

أوانَ تغمُرُ التلالَ الشمسْ،
ويتلوّى البانُ في دلالْ،

أهتِف: « يا تُرى عليكِ مال
كغَنجاتِ شال،

ضَمُّكِ، لم يدرِ غداً مِن أمسْ ؟ »
ما العِزُّ ؟ ما القُبَبْ ؟

ما روعةُ العاجِ انسكب
مِن أشهُبِ،

مِن نحت حِيرامَ أبي،
ومن هوىً مرّ ببال خالقْ؟

قَوامُكِ الطالعُ في المَيْس الأبي
شَلّالُ زهرٍ دافِق

لم يَكذِبِ...
وضِعْ وضِعْ، يا عاشِق...

أجمل الأجمل

يا أجملَ الأجملْ،
هل مِن جميعْ

بيني وبين الربيع
أم أنّكِ العنقاءُ لا مأمل ؟

يطيب أو يُدمي البُعادْ،
لا تسألي،

لي أنت ما حييتُ لي
ولي الى المَعاد.

*

يا أجملَ الأجمل،
زرتِ الوعودْ،
فراح يحكي الوجود

لِخمرة تُرى ولا تُبذَل.
أنتِ تَنَزُّل السُهادْ
على النظَرْ،

أنتِ تنقُّل القمر
في ظُلمة الفؤاد.

*

خلقتُكِ لم أدرِ كيْف،
فلا ظلُّ أفلَتُّ، لا سرُّ طيف
ولا لعبةً من أُصول حريزه،
فما « مونليزه »
وما « حُلْمُ ليلةِ صيف » ؟!

يا أجملَ الأجملْ،
إذْ تنظُرينْ،
أفديكِ، لِم تخنُقين
أغنيّةً في الناظر الأكحل ؟

ها أنا نُقطتا مِدادْ
بِمرقمِكْ،
أو بيتُ شِعر في فَمِك
أُنسى وأستعاد !

حقاً أنا حبك ؟...

ـــ حقّاً أنا حُبُّكَ، يا قمرْ ؟
عفوَك، لا أدري...
عنّي انا كتمتُهُ سِرّي،
هم خبّروني الخبر...

حقّاً أنا حُبُّكَ، يا قمرْ ؟
تغامَزت، أمسِ،
عند مروري، طَرحتا عُرس
حتى خَفضتُ النظر...

حالِمةٌ أنا
انّكَ لي تأبَهْ ؟
تقولُني المُنى ؟
أواه ! ما أجملَها الكِذبَهْ!...

حقّا أنا حُبُّك، يا قمرْ ؟
أُفديكَ دعْ خصري...
دعْ.. أو ترى القُبلة في ثغري
تستبِقُ المُنتظر !

أختُها

تبزغُ ـــ سائلْها لماذا ؟ ـــ الشمسْ.
هل رَفعت أغنارُ جفنيها ؟
حَببتُه اليوم، حببتُ الأمس
شِقّيْ إزارٍ فوق صُبحيها

تبزغُ ـــ سائلْها لماذا ؟ ـــ الشمسْ.
هل أبِهت أغنار للزنبقْ ؟
قال: « سيبقى كلُّ حُسني همس
إن هيَ مرّت بي ولم أشهَق ».

من أجلها يُحَبُّ لونُ الصّوتْ،
والبوحُ والهوى،
وقبلةٌ في عِطفة اللوى،
وردنُ ثوبٍ مرهِق الغِوى،
معلّقٌ عمرٌ به وموت !

تبزغُ — سائلْها لماذا ؟ — الشمسْ،
هل أوجسَتْ أغنارُ أن تَدمَعْ ؟
لِجفنها مَدَّتْ يداً في لَمْسْ
فطارت الشَمسُ عنِ الأصبع !...

زهرة الزهور

ـــ كُنْ أنتَ للبِيض وكن للسُمْرْ،
ما همّني ؟ حبي أنا يبقى.

سعيدةٌ به وان أشقا.
تُحبّني أو لا تحِبّ، أنتَ أنت العمر ا

أما كفى أنّي على يَديكْ
أشتاتُ أُلهِيَه

وبي نيه،
يا حلْوُ، أن أَغرق في عينيك ؟

تُميتُني، تُبقي عليّ
إشفاقَةً أو ترضِيَهْ،
ما همّ ؟ أنتَ الضوءُ في عينيّ
وأنتَ في ثغرِيَ أُغنية.

تذكُره بوحَكَ لي ؟ تذكرُها تلكَ العهودْ ؟
فمٌ ولا وْهمُ الزهَرْ،
لونٌ ولا حلمُ القمر،
عَينان غرّبْ، يا وجود !
وكانت اليدانْ
بِمعصميّ تلعبان،
غدٌ أنا وأمْسْ،
شَعري شعاعُ الشمس،
في ظِلّهِ مختبئٌ نَيسان...
وكان في قلبِكَ جمْرْ
وخلفَ ثوبي لؤلؤٌ وماسْ،

تقول: « أنتِ خمر
متى أكون كأس؟ »

أواهِ ! كم لي ههٰنا
مِن ذكريات، مِن مُنى ؟
لا تنسَني، لا تنسَنا،
لي أنت أم لا ؟ أنا لكْ.
نبقى على كَرِّ العصورْ
أنا الفلك،
أنتَ تدور.
يخونها ولا تخونُ العِطْرَ زهرةُ الزهور.

فم!

بِقلمٍ من قَمَرْ
كالوهم، كالوهلَهْ،
كمشتهى القُبله
خُطَّ الفمُ المبتكَرُ المبتكَرْ...

وغِبّةَ المبدإ،
أطَلَّ لا يَقسو،
تهاوت الشمسُ
عليه، فالضحكةُ من لؤلؤ،

لا ليس ما تراهْ
أغنيّةً بلونْ
وانما سكرةُ من يراه
حدودَ هذا الكون ؟...

أُحبّني أُعدَمُ
أصرُخ: « ما الزَهْرُ ؟
وأنتَ، يا عُمْرُ،
هُزَّ اصْفراراً وليفتّحْ فمُ ».

قنطرة الياسمين

تمرّينْ...
تمرّين خَطْفاً ببالي،
فأذكر قنطرةَ الياسَمين
وفي ظلّها نحنُ... والليل حالٍ
بِنا، بقَوامٍ يَهي.. وأنين...

تمرّينْ
كأنّكِ طيفٌ حزين !
ألا أينَ نهدٌ على الريح يَقْلَقْ،
وآخرُ يُنحَت خلف الحريرْ

بِكفيّ، يِقول يقول العبير...
ويَشهقْ ؟...

تمرّينْ...
تمرّينَ، هل تذكرينْ
يدي، آنَ أفلَتِّ منّي،
وخصرُك سكرةُ ظنّي،
وكيف ارتميتِ وكانت تغنّي...
وتَغمِزُ.. قنطرةُ الياسمين ؟..

دَرَج

الدَرَجُ الحالي بِزيزفونْ،
وفوقَه تُعرِش ياسَمينهْ،
حَبَبْتُه يكوكِبُ السكينه،
لِحلوةٍ تَخطُر في الظنون..

يا درجاً حنا عليّ عَهْدا،
وكاد لي يشهَق من دلالْ،
يقول لي « آرفِق بِكَ او أشُدّا،
عليكَ بالأزهُر والظلال »...

وبعدُ: « يا غبيُّ، طِرْ اليها،
حسناؤُك البيضاءُ في انتظارْ ».
أواهِ! عُمري قَفْزتا رِجليها
ولو تناسى الدَرجُ الثرثار!

نار الهوى

ـــ أخبرتُها أخبرتُها النجومْ
أنَّكَ لي،
طوقتَ خصري، بُحتَ لِلكروم
بأنني كأسُك والهموم
أقلعتَ عِبرَ الصحو والغيوم
في هُدبِيَ الحلوِ المزلزِلِ.

رَدّدتُ من شِعرك ألف شيّ
أنّي غِوى النَظرْ،
نبضُ الصِبا، بِلّورةُ السَحَر،

وأنْ على يدَيّ
يَلهو القدَر،
وأنْ إذا اسقطتُ من عَليّ
ثوبا، فما شمسٌ وما قمر ؟...

*

وكِدتُ كدتُ من هوىً أطيرْ،
قطفتُ أُقحوانةً تمُدّْ
عنقا، ورحتُ بيدٍ أعُدّ:
« يُحِبُّني، يحبّني كثيرْ،
يُجَنُّ بي، يصدُقُني، يجُدّ،
يكذِب.. لا ؟.. بلى ». وأستجير
بالورق الأخير...
وخوف أن أُصَدّْ ،
وأقحوانتي تقولْ
أنّك لا تُحبّني، للعمر، للأبد،
آخذها بيد
وبيدٍ أنثُرها بدَد
ويحي ! وتَطوي سرَّكَ الحقول.

وفي غدٍ ان انا لَمْ
أكن غرامَكَ الوحيدْ،
أُضَمْ،
أُضمُّ وحدي، وأُشَم
وكان نَيسانٌ جديدْ...
لا لن تَرى الزهرَ
مُجرَّحاً بديد،
قلبي غفَرْ.
قلبي الذي يذكر ألف شيّ..
أنّي غِوى النظَرْ..
نبضُ الصِبا.. بِلّورةُ السَحَرْ..
وأنْ على يدَيّ
يلهو القدَر..
وأنْ إذا أسقطتُ مِن عَليّ
ثوباً، فما شمسٌ وما قمر ؟..

كلام أغن

قَبلَكَ ما كانَ في الوجودُ ؟

ـــ قبلَكَ ما كان في الوجودْ ؟
هل كان هذا البنفسَجْ
يَسنُد من خصريَ الميود،
فأهزَج،
أضرِبُ نجماً بِدِملَج،
أمضي مع الريح لا أعود؟!

*

قَبلَك ما كان في الوجودْ ؟
هل كان ــ لا، لا جُننتا ! ــ

حُسني الذي يوجع الورود
وأنتا ؟
ألكون لي، منذُ كنتا،
ألكون لي ريشة وعود.

هذا الضياءْ
ما كان أنقى
حُبّيَ أبقى
من البقاء !

قبلَكَ ما كان في الوجودْ ؟
سألتني كيف ألعَبْ
بالعمر، بالمجد، بالخلود،
وأُغلب !...
بقيتَ لي أنت، فاشرب،
ما الخمرُ لولاكَ ؟ ما الوعود ؟

يَزِنْدي

لاهية

مَررتِ لم تحني على الرَبابْ..
وَيْكُ لمَ ؟
في النغمة احتمى
قلبي المُذاب.

*

مَرَرْتِ لم ترَي الى الدموعْ..
رُحماكِ لا...
هُدبُكِ زلزلا،
طَرْفي الوَلوع.

قَوامُكِ التيّاهُ كالرؤيا
حُقُّ عبيرْ،
أحياه آهاتٍ ولا يحيا،
تُرى الهوى في قُمقمِ الدنيا
جِنٌّ أسير !

مررتِ لم تُصغي الى الوجودْ...
لا تفعَلي،
شَكَتْكِ أمسِ لي
كلُّ الورود...

زَهْو

ـــ هواكَ، يا شاعري،
أُغنِيَّةُ الخاطرِ.
أطيبُ، أشهى، ألذُّ
من شَذاً عابِرِ...

حببتكَ، المُشفِقا
عَليّ... حتى التُقى...
طَرفُكَ كيفَ التقى
بنهديَ الضامرِ ؟

اغراءَةَ المُنتظَرْ
كنتُ وحُلْمَ الوتر،
وأنتَ ضوءُ القمر
في ليليَ الدائرِ.

شبّبتَ بي ؟ ما السَنى ؟
ما الشمس مما أنا ؟
ورحتَ تُشقي الدُنى
بحسنيَ الطائرِ !

وقلتَ: مِن صابِها
سكرَةُ شُرّابها
وأنّ بي لا بِها،
سُكْرَكَ ؟ يا ساحري !

أُواه ! ما لِلْعِنَبْ
ولي وكأسِ الذهب،
أنتَ الزمانُ انسكب
للكرْمِ والعاصرِ !

وَفَاء

ـــ الزنزلختُ الورِيفْ
وبيتُنا
وخَالتاي وأنا
نَدعوكَ، يا حِصانَه الطريف.

لسنا كما البَطَلْ
ضِيافةٌ، ولا كَعُرْفٍ للكَ يشرئبّ،
لكنّنا، أوّاهِ ! لم نزل
على الوفا وأرضُنا تُحِبّ.

إرعَ هُنا... وهٰهنا...
حشائشا يا طالما عنها ثني.
مِن بعده ما هَمَّ أن عَمَّ الضنى
وعاشَ مُهرُه النَفورْ
بزنزلختٍ وتَجنى ؟

من بعده مُتُّ أنا
وَوجِعتْ لا ترفَع العُنْقَ الزهور !

الفتنة الكبرى

عيناك

هُما، إذا غاب القَمرْ،
عيناكِ، خمرةُ الوجودْ.
أيقظتَا مَرْجَ ورود
كأنما ريشةُ عودْ
هذي وهاتيك وتَر.

هُما، إذا غاب القمر،
عيناكِ، قُبَّةُ الزمانْ،
عُمقُهما هَنْفَةُ آن

بأَنْ تشيلي بالمكان،
أَن تُرقصي روحَ الحجر.

عيناكِ، مَن هَدى
اليهما ليلَ الليالْ ؟
أَبْعَدُ ما رَدَّ الصدى،
أَجملُ ما قال الجَمال.

هُما، إذا غاب القمر،
عيناكِ، غضبةُ الغيومْ !
هُمِمْتِ ؟ لا، دعي الهموم،
بِهدبِك احمِلي النجوم،
إليَّ، حَفنتَيْ دُرر.

يا حلوُ إن غداً رجعت

يا حُلْوُ، إن غداً رجَعْت
تَرمي الى الشُبّاكِ بالزهَرْ،
وما فتحتُ، لا هَرعت
الى صدى الأوّاه، او لا قُلتَني الحجر.

كلاّ وانما أخافْ،
والقمرُ انحدَرْ،
لا أَن ترى قميصيَ الشفّاف،
بل أَن يرى — ويغمِزَ — القمر...

مُنتهى الليل

ــ يا بَطلي، الليلُ بنا طائِرْ...
علّلتُه بالشمس سِحْرْ
إن ظلَّ في مُترف ما ظَلّ، يغامر...

ــ بالشمس، لا علَّلتِهِ او بيتِ شِعر

ــ خطُّكَ بيتَ الشِعرِ هل أصعب منه
اللْهوُ بالنجومْ؟

ــ وقبلةٌ من فَمكِ الطريفِ؟ هذي لا
ثَمنْ...

ـــ وبَعْدُ، ما حَبْسُ الزمن
في سكبة لمّا تزل وغْدَ الكرومْ

ـــ تطير، يا اسودُ ؟ لِمْ تطيرْ
بنا وبالمدى
ونحن مِنّا الزهْرُ والندى،
أَلقصَبُ الصَولج والكوخُ السرير ؟

ـــ وآنَ نَشرَبْ،
بالكون، بات لُعبةً، نلعب،
نهدِمُه، نُعيد مِن بنائِه اليبابْ.
حتّى اذا غنَّتْ بروجٌ وقِبابْ،
تحت أزاميلَ لنا،
تمايلَ الهَنا.
على يدينا وآمّحى السراب !
يا ليلُ، خذ بكأسِنا البِلَّوْرْ،
واشرب فلَمْ يبقَ لِزَهرٍ نَوْرْ
الا اذا شِئنا...
تضيءُ ان ضِئنا...

تدور ؟ حولَ حبِّنا تدور.
ها نحن من هَمٍّ ومن هَنا...
إفرح على خِواننا واتعَبْ
إشرب
بالكأس ؟ لا بل تشرَبُ الكأسُ بنا

*

ــ وانا ما مَجدي ؟

*

ــ أنكِ ، مذ أردتِه، كنتِ الجمال !...
حتى اذا أنا أزحتُه المُحالْ
وقعتِ من سُكْرٍ على زَنْدي !!

دُلزَی - مرّا

إلقاء

ـــ كالليل أنا، حُسْنٌ مُبهَمْ،
يُشقى بي ؟ أُشقى ؟ لا أعلم.
نهدايَ ببالٍ أغنيةٌ :
نغَمٌ يُدرى نَغمٌ يوهَم.
صُبحان لِحظِّهما في الفوق
يَؤوهُ ببياضُهما المُلهم.
والفوق اكاد أُخصُّ به،
طُلْ،عُنُقُ، وعلٌ، اعذوذِب، فم!

*

حَجرَا عينيَّ هُما وجَعي،
ويحي! أنا نفسي لم أسلَم...

*

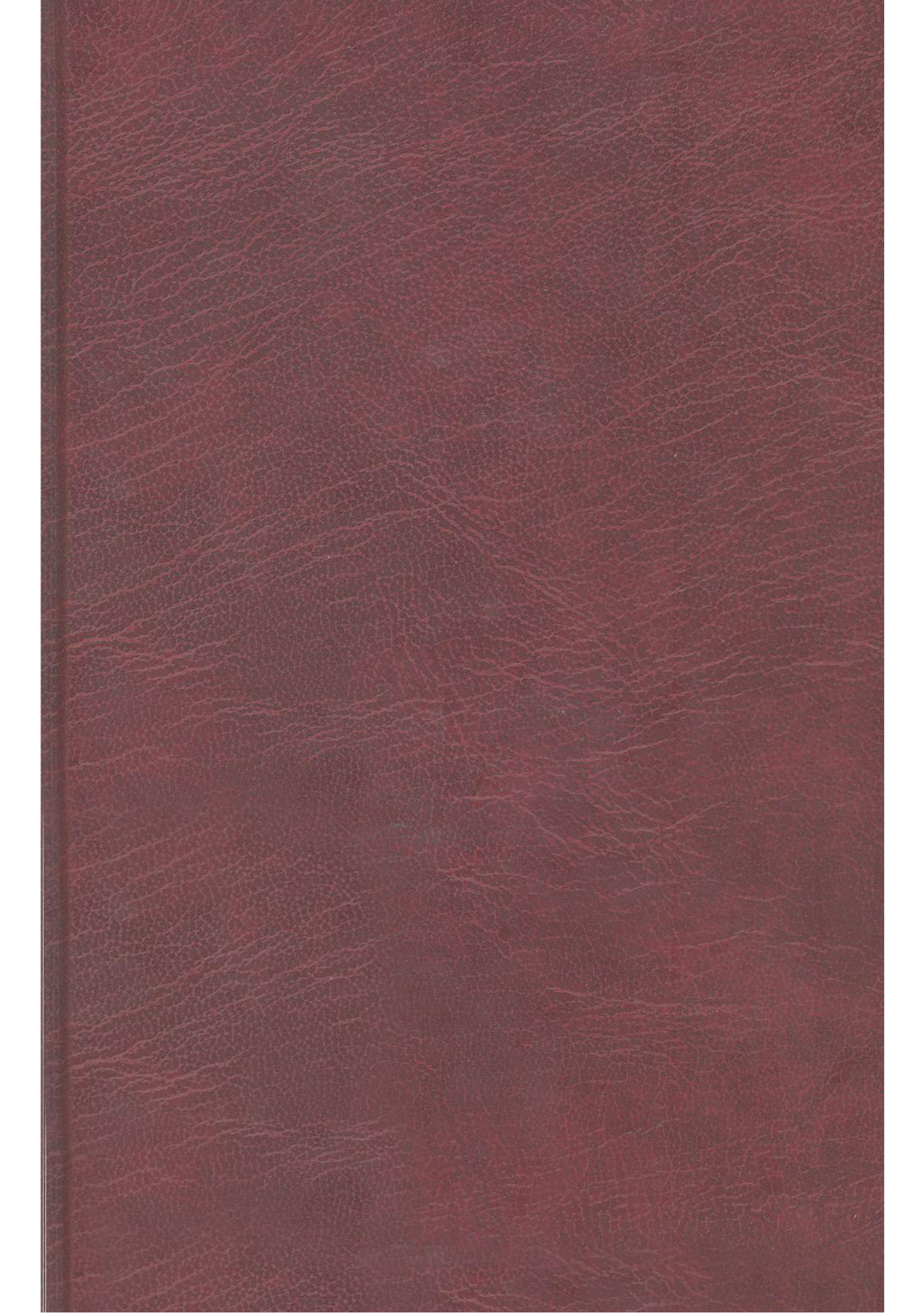
والخَصر، فُديتُ، كَحُقّ شذاً
يتهاوى.. يُهرَقُ.. لا يُحْطَم..
مِن شَقْع الضوء أنا، والورد،
ومن إغراءٍ لا يَرحَم...

*

حولي دنيايَ على بُعُدِ
فاذا هَمَّتْ بِهوىً أُعْدَم.
ما بعدُ ؟ تَطلّعْ فيَّ وضعْ
أنا شَمْلُ اثنين : غِوًى وشَمَم.
إلاّ أَنْ تأخذَكَ العينان
وتُرمى حيثُ تُهَمُّ تُهَم...
تاجي ينزاح لِمَن هُو لي،
لِسوىً ؟.. يبقى حُلماً يُحْلم...

فهرست الكتاب

فهرست المجلد



سعيد عقل
شعرُه والنثر

المجلّد الثالث

لبنان ان حكى

نوبُليس

سعيد عقل

شعرُه والنثر

المجلّد الثالث

لبنان ان حكى

نوبِليس

DL

للمؤلف

بنت يفتاح الطبعة الأولى ١٩٣٥ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

قدموس الطبعة الأولى ١٩٣٧ ــ الطبعة الرابعة ١٩٩١

المجدلية الطبعة الأولى ١٩٤٤ ــ الطبعة الثالثة ١٩٩١

رندلى الطبعة الأولى ١٩٥٠ ــ الطبعة الخامسة ١٩٩١

غد النخبة الطبعة الأولى ١٩٥٤ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

أجمل منك لا الطبعة الأولى ١٩٦٠ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة ومزيد عليها)

لبنان ان حكى الطبعة الأولى ١٩٦٠ ــ الطبعة السادسة ١٩٩١

كأس لخمر الطبعة الأولى ١٩٦١ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

اجراس الياسمين الطبعة الأولى ١٩٧١ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كتاب الورد الطبعة الأولى ١٩٧٢ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

قصائد من دفترها الطبعة الأولى ١٩٧٣ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

دلزى الطبعة الأولى ١٩٧٣ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كما الأعمدة الطبعة الأولى ١٩٧٤ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مزيد عليها)

الوثيقة التبادعية الطبعة الأولى ١٩٧٦ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

خماسيات الصبا الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلّد الثالث

لبنان ان حكى

الطبعة الأولى ١٩٦٠
الطبعة السادسة ١٩٩١

لبنان ان حكى



هنا تحت كل ترابَهْ
مفاتنُ مجدْ

هنا الله شرّع بابهْ
وضمّكِ ضمةَ وجدْ

هنا جبَلٌ لا الأساطيرُ أشهى
ولا الشمس أبهى

أحايينَ يُغري سهولَهْ
بِفُلٍ وورْدْ

أحايينَ يلعب يُغري البطولَهْ
برِمية نَرْدْ

س. ع.

سياحةٌ في لبنان ـــ لبنان الحضارة ! ـــ قد تكون أجمل شيء يُعطاه الانسان.

تراني أُبالغ ؟

لسوف يحكم اولئك الذين معنا سيسافرون.

في جزء من الوقت نزْر، دقائق لا تزيد، سنجتاز كل مرّة كرّاتِ سنين، حياة عظيم، حدثا توقف عنده مصير البشر.

الادب ؟ انه لَحَبس الدهر في عبارة، جرعةُ خمر، جرعةٌ واحدة، وتكون سكرةُ العقل.

على أننا لن نزور كل شيء.

كل شيء، هنا، اكبر من بحر، اكبر من دهر.

مجلدات ضخمة من التاريخ ستظل تنتظر من يؤلفها. وهذه الرقعة من الشطآن والربى انما اقيمت عليها مؤسساتٌ لا يثمنَّ فضلها. كانت الأولى وكأنما في البدء كانت. من ارض هي، واحياناً من افرادٍ لهثتْ اصابعهم بالمعمور.

هنا وُلد أو قال أو عمِل نفر من آلهة المعرفة.

التطواف في هذه الصخور او تلك التلال لَيَشيلَنَّ بك إلى النجوم أو يملّكك الدنيا في لحظات.

تحت كل حصاة من الثرى الذي تدوس كل يوم، قصةُ مجد تُحكى. انها فصل من تاريخ الحب والعطاء، او هي بعض الحضارة.

من يعرفها ؟ من يعرف ان يقصّها ؟ اثنان... ثلاثة... أربعة على الأكثر... اما الأربعة ملايين من اللبنانيين فيمرون، كل آن، بجمال لا يعدله جمال ولا يدركون.

أواه ؟ ترى سنُعطى يوماً ان نحكي للزائر حكاياتنا الفريدة ؟

إنها حكايات تهمّ بني الارض جميعاً، وانما طابعها محض انساني، وتهم اصحابها ايضاً لأنها تعود بهم إلى أيام عجب كانوا في اثنائها يقولبون هذا الذي عاد وسُميّ الانسان.

رحلتنا من اين نبدأها ؟

هنا ما نحن على الطرقات. هنا نحن في الفكر. احرار إذن. فلنَتَنَقّل على هوانا.

قصدتُه قبل أن أكون

هذا نحن، صدفة، في صيدون.

ما لنا ولما يعرفه عنها أيُّ الناس ؟ كأن نقول: عدد سكان صيدون كذا مِن الألوف، وانها كمرافئنا القديمة جميعاً قائمة على لسان امامه جُزَيريَةٌ، وعند مستهل الصيف تروح، لوفرة بساتينها، تضطرم برائحة زهر الليمون، حتى ليخيل اليك انك في جنائن عشتروت.

لا ولن نفتح على جلديه تاريخها البطولي — ومن يدري فقد نعود إلى صفحات منه تأخذ بالألباب ! — ولا نواجه دَورها في صناعة الجمال والذوق يوم كانت

مخازنها اشبه شيئاً بما هي اليوم مخازن باريس: يقصدها، على قول بيار هوباك، من اربعة اقطار العالم حسان الطبقة المترفة، بناتُ القادة والملوك، يتصيّغن أو يشترين جهاز عرس. لا، ولنترك التعرّف إلى صيدون تعرفاً منهجياً جافاً مكتفين بان نزيح ستاراً عن مشهد.

هل سمعت بفيثاغورس ؟

كيف لا ؟ لقد تعرفت اليه منذ عهدك الاول بمقعد المدرسة، في التيوريم المنسوب اليه في الهندسة.

ويرافقك طيلة حياتك ان كنت رجل معرفة. فهو احد عِلْية العقول في جميع الأزمنة. يحترمه افلاطون كما ولا احد، ويتحدث عنه ارسطو باجلال. فيلسوفٌ، وعالمُ رياضيات وفلك، وموسيقيّ، وكاهنٌ، ومكتشفٌ، وسياسيّ.

كل الديانات، التي قامت بعده، مدينة لهُ. ومدين له كذلك كلُّ مذهب في الفكر، في المنقبية، او في صناعة الجمال.

كان والدُهُ واحداً من كبار الجوهريين في ساموس، احدى جزر الإيونيه، الأرخبيل الأغريقي الجميل، وامه الحسناء برتنيس. ويروى أنه، قبيل عرسهما الفخم، استطلعا فألهما لدى كاهنة « دلف » فقالت انه سيلد لهما « ولد

يكون خيراً على البشر جميعاً، وفي الأزمنة جميعاً »، شريطة ان لا يعرف الزوج عروسته الا في اجمل المدن، حاضرة الذوق والفكر، عاصمة العالم. وانفرجت شفتا الكاهنة عن اسم المدينة، قالت: صيدون !

شهر عسل رائع قضاه العروسان في المتوسط، البحر الذي كانت تزرعه، فخمةً انيقة، سفنُ الصيادنة الشجعان.

وامام صيدون خُيِّلَ اليهما، وقد ولجا أحد مرافئها الاربعة انهما شخصان مسحوران.

كانت صيدونُ باقتين من معاهدَ ودارات بيض: الواحدة مرمية في البحر، والاخرى معلقة على الشاطئ. وكان لبنان بعديد شجره المخروطيّ العطر اشبه باطار من الخضرة يحيط بالباقتين.

ويقال إن العروس، وقد ذُهلتْ امام مفاتن المدينة، لم تنتظر ان ترتاح من عناء البحر لتستمتع برؤية صروح كانت زيارتها موضوع خيلاء الشعوب. في اليوم نفسه، دارت على المحلات الكبيرة، اشترت لها اربعة فساتين وخاتمين وعقداً من اللؤلؤ، وحضرت في « المرسح الكبير » تمثيلية على « مصرع ادونيس »، وزارت معبد اشمون على الرابية، واستحمّت في البحر ضيفة على بنت الرئيس الثاني

لِـ « مجلس الاعيان »، ورقصت في علبة ليلية محفورة في الصخر، وفي اخريات الليل، قبل ان تودع النجوم، استمتعت بالنشيد الثامن من « الاوديسة » يلقيه فنان قدّم له بنبذة عن هوميروس.

عندما استيقظت برتنيس بعد ظهر اليوم التالي من نوم طويل طويل، راحت تسائل عريسها: « ترى في حلم نحن ؟ » واضافت متخابثة: « ما تقول لو نسميّ الولد صيدون ؟ »

واستمر الحلمُ اشهراً. الا انها، منذ الشهر السابع، اخذت تلازم دارة كانت قد استأجرتها في « الجنائن المعلقات »، وهي حيٌّ على المرتفعات يسكنه اثرياء الصيادنة والذين يرجعون إلى المدينة من مستعمراتها النائية.

ويولد لهما العظيم الذي سيسمّى فيثاغورس.

وتكون أعمال الزوج قد ارغمته على استعجال العودة إلى اليونان. اما برتنيس فتبقى والطفلَ في صيدون، تنتظر ان يتمّ سنته الاولى لتحجّ به — وفاءً لنذر — إلى « افقا » حاضرة الدين والثقافة. هناك تغطّس رأسه في الماء المقدس وتزور به « ندوة الحكماء » — تماماً كما ستفعل زينوبيا يوماً — ومن فم كل منهم تلتقط نصيحة ستهمسها في اذن

الولد متى كبر، وتعدهم بأنه، متى اتمّ علومه في وطن والديه، سيعود إلى لبنان يحصّل علومه العليا.

في العقد الثالث من عمره سيؤم فيثاغورس بلداناً مشرقيّة شتى، منها لبنان. سوى ان برتنيس، وتكون قد اصبحت امه وتلميذته معاً، تظل يطيب لها أن تستوضحه ما درس خاصة في لبنان. فيما يروح هو، في ساعات ارقه، يسألها اغنية طالما هدهدته بها هناك:

« لبناني انت، يا بني،
« في صيدون بالذات، في سفح جبل الطيوب، وُلدت
« لبناني، انت يا بني،
« ذاك، ولو حقد عَليّ الاغارقة،
« لقبٌ به يفخر هوميروس
« أبو الشعراء ».

مأساة فيثاغورس

نحن في الدامور.

بلدة، بين البقيّة من بساتين التوت وتحت دير القديس يوسف، اشبه بعنقود عنب، بلّوريّ ضخم، تركه المارد على سفح جبل.

يطيب لبعضهم أن يردّ اسم الدامور إلى داموراس، والد ملكرت، إله البطولة. اما فرنجة العصور الوسطى فقد أُعجبوا بالاسم، لما له في الفرنسية من وشائج مع كلمة « حب ».

ولكن شيخاً طاعناً في السن، ينتمي الى اقدم عائلات

الدامور، كان، إلى ما قبيل وفاته، يتبسّم لهذه الاقوال لأنها اقلال من شأن البلدة العظمى.

ويسألونه تفسيره هو، فيسكت.

قصة موجعة تلك التي سنروي لأنّها على نهاية فيثاغورس، على مأساة فيثاغورس. قصة كتاب واناء من الدموع حملتهما إلى لبنان بنته الشابة.

عندما كان فيثاغورس يغادر لبنان، وهو على ذراعي امه، قاصداً إلى وطن أبيه، ودّعت برتنيس هذه الشواطئ بقولها:

ــ لكم أود لو نبقى في لبنان، الهادئ الجميل !

ولكن القدر شاء غير ما شاءت.

فيثاغورس الآن في قصرهم في جزيرة ساموس يُهيئ له والده تعليما لن يعطاه ابن غني سواه. منذ السادسة كان له ثمانية مدرّسين. ومنذ العشرين كان قد حصّل على هرموداماس في ساموس، وعلى بريسيدس في سيروس، وعلى طاليس وانكسيمندر في ملّه.

« كانت نفسه تستمع إلى ثلاث: الارض التي تقول: « قدر »، والسماء التي تهتف: « عناية »، والبشرية التي تصرخ موجعة: « جنون ». وانه هنا بينهن، فمَن من الثلاث يصدق ؟ »

وتقرأ أمُّه الاضطراب في عينيه فتردّه بالفكر إلى خلف البحر. فيقول لها:

ــ صفي لي لبنان.

فتجهد محاولةً نقلَ الكواكب إلى الكلمة، ونقل عظمة النفوس.

فيقول فيثاغورس:

ــ يلخص حديثك، يا أمّاه، بكلمة لا تزدوج: « الحرية ».

فتجيب:

ــ جوّ لبنان سمِّه بكلمة جديدة. « الحرية » ان شئت. ولكن حمِّل الكلمة اجمل المعاني. أن تكون شرط الحياة، شرطَ كل شرط.

وفجأة يدرك فيثاغورس انه، اذ تلفظ بكلمة « حرية »، اطلق خاطرة ستبقى على الدهر. ويقول: « بلى، وحدها الحرية تؤلف بين قدر الارض وعناية السماء وجنون البشر. الحرية ؟ إنها إرادة التغيُّر ».

ويسأل:

ــ حقاً في لبنانَ وحدَه حريّة ؟

وبعد أيام يلقي بنفسه في أول مركب مسافر إلى الشرق.

ــ اكتب إليَّ، تقول له برتنيس عند الوداع. من « الجنائن المعلقات ». اكتب إليّ.

ويتعرف فيثاغورس إلى صيدون فيحبها كما ولا شيء، لا لأنها مسقط رأسه بل للتوجيه العالي الذي توحيه إلى عقله، ولأنها ارض لبنان، مفزع العلماء ونبع الحكمة. ومنها يزور افقا، فجبيل، أقدمِ مدن العالم، فمنفيس، فثيبة، فبابل.

ولكّنه، في الإياب، يتساءل: اين يا تُرى ينتهي به المطاف؟ اين يجعل منطلَقَ تعليمه؟

في لبنان، يقول؟ انه أهدأ بقاع المعرفة. ولكنه قد لا يكون في حاجة إلى فيثاغورس. فليقصد إلى « دِلف »، عاصمة اليونان الروحية. ان ابولون، إله المعرفة، قد شحب وجهُه واصبح بينه وبين الاغارقة ضباب. كيف يحق له أن يغضب عليهم؟ تراه نسي جزيرتهم « دلوس »، تلك التي كانت تائهةً في البحر، كيف أُمرتِ بان تهدأ فترة من الزمن ريثما تضع « لاتون » ولديها « أبولون » و « أرتيميس »؟

وتردّه هذه الذكريات إلى أن العناصر نفسها قدّست الأم. فلماذا لا ينزل، هو، على ارادة امه ويعمل في لبنان ؟

سوى أن مصيره يشاؤه ان يعمل في اليونان. وتكون شهرته قد سبقته إلى « دلف ». وفي « دلف » يلتقي الكاهنة تيوكليا. ان لها عبقريةً اخذ لا توصف. فما هي ان تحضر دروسه حتى يشعر بانه اعطى « دلف » كل ما يريد وانْ في مكنته ان يترك. لكن تيوكليا تموت من حسرة الفرقة.

هو الآن في كروتون. يحدث مقدمُهُ شبهَ ثورة.

صعبةً كانت تعاليمه. ولكنه كان يغلّفها بعذوبة ساحرة. وكانت حكمته تُعدي: جمالُ إشارته، نبلُ قامته، عذوبة المحيّا وحتى لباسه كلُّها كلُّها كانت تكمّل عمل السحر. النسوة يشبّهنه بزوش، والفتيان بأبولون، ويروح الجمهور من اجله يعشق الفضيلة ويسكَر بالحق.

وفي كروتون استكمل خلق نظامه الفكري. لم يُبقِ على شيء إلاّ تدخل في شأنه: أقام « مجلس علوم » فوق « مجلس الحاضرة »، قصْد ان يجعلها دوما متطورة، دوما متصلة بالتقدم. بَذَر معرفةَ الفلك في العقول، تلك التي على جَوْس لانهاياتها يرتفع الأنسان إلى مصادقة العظمة.

رفع من قيمة كل شيء: علّم انه ينبغي الاهتمام بالمشية الأنيقة، وانه ينبغي اعتبار الصداقة فوق الحب، « الصداقة، قال، هي شعر الحياة، وما سواها نثر ». وعلّم انه ينبغي نحت الضحكة بلوريةً على الافواه. « بضحكة، قال، تغيّر وجه الارض ».

هو لأوّل مرة في التاريخ « نظام أُخوّة عارفة »، فيه من المدرسة والرهبنة والعائلة. الناس سُعداء في كروتون. كلهم شعراءُ حياتِهم. واذا يرتدُّ احدهم ليعود إلى « الحياة التافهة » يقيمون له بينهم قبراً، ويرثيه المعلم بقوله: « بلى، فلنبكه فقد مات اكثرَ من الأموات ».

وكانت أُمُّه التي احبته كما ولا أحد، توحي اليه بأن الدنيا امرأة. « المجد، كان يقول، المجد للمرأة في الارض وفي السماء. انها لتجعلنا نفقه معنى المرأة العظمى التي تدعى الطبيعة ».

ويقول: « تَعْرِف فتقدر، تُحب فتبدع، تكون فتشِعُّ حقيقة وجمالا. والحب هو ان تنسى ما انت ».

وكان ينسى نفسه ولا ينسى وصيّة امه: « وددتُك لو تعمل في لبنان ».

وبقيَ يقلق لهذا الهاتف حتى أحبّ.

بين النسوة اللواتي كن يتابعن دروسه كانت ثمة واحدة شفّافة حسن، بيضاء بيضاء، تُدعى تيانو.

تيانو هذه كانت تحبّه ولا تدري.

وفيما هو، ذات يوم، في المدرسة تحت رواق بروزربين، أقبلت اليه تيانو منفردة وجثَت امامه. ودون ان ترفعَ جبينها سألته هل يقدر ان ينقذها من حب يُذيب الجسد والروح. فسألها: « وما اسم من تحبين ؟ » فقالت: « فيثاغورس ». فلم يُجب بكلمة. وكان صمتُه مشجعا. عندئذ رفعت اليه رأسها الجميل تقدم نفسها كزهرة.

كانت تيانو الزوجة التي لم يَعرِف التاريخ اجملَ أو أشرف.

مرة سألتْها امرأة: « بعد كم يوماً من لقاء الرجل تعود المرأة طاهرة ؟ » فاجابت: « ان كان رجلَها طَهُرت للحال والا فلن يصير ذلك ابداً ».

وولد لفيثاغورس صبيّان: ارمنست وتلوغس وبنت وحيدة: دامو.

كانت دامو اعمق من يفقه تعاليم فيثاغورس، وكانت لوفرة حسنها كطيف، يسميها « الجميلة الجميلة » ولا يردّ لها طلباً.

وذات يوم سألته لهيفة:

ـــ متى، يا فيثاغورس، تعمل في وطن فيثاغورس ؟

وتجهَّم وجهه لصوت التي كانت قد ماتت يعود مُلِحّاً في فم الحفيدة.

ومنذ ذلك اليوم بدأ يعرف البكاء.

وفي أسطورة شاعت باكراً، انهم، لشدة تعلقهم به، كانوا يحفظون دموعه في اناء.

بقيت السعادة تخيّم على بيت فيثاغورس ونظامه ودولته حتى كانت الثورة.

الغَيرةُ من نجاح نظام مثالي، طُبّق في العالم لاول مرة ـــ وربما لآخر مرة ـــ اخذت تتأكّل بعضهم، فهاجموا بيتاً كان يجتمع فيه، برئاسة المعلم، ابرزُ اعضاء المدرسة، واشعلوا فيه النار.

مدة قرون بقيت هذه أو تلك من مُدُن العالم تؤكد ان فيثاغورس نجا، وانها انما كان لها فخرُ ايوائه. والاكثرية على انه مات محترقاً وانه لم يبق من عائلته سوى الجميلة الجميلة دامو.

وذات يوم، فيما كانت تستقِلّ مركباً مسافراً إلى الشرق، عرفها ربّانُه فقال لها:

ـ: أُعطيك ثمن الذي تخفين على صدرك كل ما املك واسطولاً صغيراً من ثماني سفن.

فقالت:

ـ الذي على صدري هو كصاحبه.

فاكمل:

ـ لا يباع !

وللتوّ عرفت دامو ان الربان فيثاغوري.

وعلى مقربة من لبنان، تقاذفت المركبَ عاصفةٌ زعزع، فشطط عند مصبّ نهر.

كانت دامو قد قصدت إلى لبنان، إنفاذاً لوصية والدها، لعلها تستأنف تعليمه، هذه المرة، في مسقط رأسه. فتقيم مدرسةً ونظاماً اشبه بنظام كروتون. الا انها لم تتحمل العاصفة ! وما هي ان نُقلت إلى البر حتى كانت جثة هامدة. وابى الفيثاغوري الرُبّان إلاّ ان يحمل بنتَ المعلم على ذراعيه ويدفنها، مع كتاب واناء من الدموع كانا مشدودين إلى صدرها، فوق رابية مشرفة على البحر سمّاها دامو. وغَرَس فوق القبر غرسةً لعلها، وهي السنديانة الوحيدة بين سائر الشجر، تبقى العلامةَ الفارقةَ يهتدي بها، إلى قبر بنت المعلم، الوف الالوف من اتباعه.

ويقال إنه في العام التالي زار الربّان قبر الجميلة الجميلة. فاذا غرسة السنديان قد كَبُرت كما لو كان قد انقضى عليها مئاتُ السنين، وشهد في ظلّها مدرسةً اقيمت في العراء ومعلّماً يرتدي لباساً أبيض، يدير الدرس، تساعده بنته الصبية. فتقدم وقد ذُهل لخاطرٍ مرّ بباله وهَمَسَ باذن الصبية:

ــ دامو ؟!

فاسكتته بقولها:

ــ أصِخْ: المعلّم يتكلم.

والتفت فاذا المعلّم قد سكت من تعب. اما شجرة السنديان، تلك التي كانت شروشُها تتغذّى بدم بنت فيثاغورس وبكتابه وبالدموع التي ذرفها لانه لم يعلّم في مسقط رأسه، فقد راحت تخفّف من عنائه وتكمّل الدرس...

أرض الأبطال

وراء العِطر ؟ أكيداً وراء العطر زهرة.

ولا بد أن يكون آباؤنا عملوا لزحلة العجب حتى بات ذكرها إلى هذا الحد محبّباً.

ولكن هناك من عمل لزحلة اكثر.
الله.

مدّها بهذا النهر، شريطةً من لجين ولا أجمل، تترقرق وسط الشجر الملتف. فاستطاب الرومان على تلك الضفاف صيد النمر. وطارت لها شهرة إلى اقاصي

الامبراطورية، فقصدوها من هليوبوليس وبيريت وربما من ابعد، وقنصوا على حواشيها، ورقصوا، وقصفوا.

بلى كان قد أُهرق هنا خمر وثني كثير قبل ان يشرب الزحْليُّ العرقَ الذي سيسميّه ايضاً « دموع العذراء ».

وعندما التقت كليوبترا حبيبها انطونيو في لبنان، تراهما، هما ايضاً، قَضَيَا بضعةً من ايام الصِبا في تلك الروضة الغنّاء ؟

من يدري ؟

وفي كتاب قديم ان كليوبترا نظمت في انطونيو، وهما في بعض ربوع لبنان، قصيدة فيها تقول:

عندما كان اطلس،
اطلس اخو بروميثيوس،
ذاك الذي، لاشتراكه في القتال
بين جبابرة وآلهة،
كان قد استحق غضب زوش، فحكم عليه بأن يحمل على منكبيه قبة السماء،
عندما كان ابو الثوار
يختال بحمله المكوكب الجميل،
ترااَيتَ له، يا حبيبي انطونيو،
قبل ان تولد بكرّات الكرّات من السنين،

تراأيت له بهيكلك العملاقيّ الانيق.
وكان ؟
كان أن ضاع اطلسٌ، كمن أخذ بحميّا الكأس،
فزحلت السماءُ قليلا عن كتفه.
وانهار منها على الارض
بعضٌ من تراب !...
هذا المكان الذي من زَحْلةِ السماء،
هو هو الذي جمعتنا عليه، اليوم،
قبلةٌ تميت وتحيي،
وتبدأ لا لانتهاء ».

كان، اذن ، قد استفرس نبلاء من الرومان كثرٌ، على ضفّتي هذا النهر، قبل ان نزله الزحليُّ الأول، منذ نحو ثلاثمئة عام.

وراح يبني بيتاً.

ـ في « وادي النمورة » ستسكن، سألته حطّابة مستفسرة ؟ انه زَحْلَةٌ من سماء تمتنع على العاديين من الناس.

فقال:

ـ سأسكن في التي تمتنع على العاديين من الناس.

ـ ينبغي ان تكون مفتول الزند، سديداً نشابُك.

ــ وولداي كذلك. اما بنتي الصبية فترمي لا تُخطئ. وهي طاهرة كقلب الصبح، ان رآها النِّمر غضّ عينيه.

وقالت الحطّابة:

ــ إذن، ستطردون النّمورةَ من الوادي ؟

ــ ومن غيره كذلك. وبدلاً منها سنُسكِنه الاسود.

سنوات، سنواتٌ عديدة تنقضي.

واذا الضِفّة الغربية من النهر مزروعةٌ بالبيوت: من لِبنٍ معظمُها، وبعضُها من حجر.

ثم طفقت الطرابيشُ الحمر تعلو هنا وهناك.

ويقال إن الحطّابة عاشت مئةً واربعة أعوام. وكانت، كلما التقت امرأة بعينها، تسألها لهيفة:

ــ هذي أنتِ ؟ قال لي أبوك، يوم أسّس البلدة وكنت بعدُ صغيرة: « إن لي بنتاً صبية ترمي لا تُخطئ. وهي طاهرة كقلبِ الصبح ان رآها النِّمرُ غضّ عينيه ».

فتردُّ هذه:

ــ والآن ؟ هل كبرتُ كثيراً ؟ وهل ذَوي طهري الذي كقلب الصبح ؟

فتجيب الحطّابة:

ــ هذا ؟ لست واثقة منه. اما النّمر فان رآك غضّ عينيه.

وكان أن أصبح لفئة من الناس، تضرب بين ترشيش ودمشق، بلدةٌ هي مرجع وزعامة.

وسيعتزّ الامير بشير يوماً بالزحالنة الذين يدخلون قلعة سانور طليعةً لجيشه.

ويملأ اسمُ زحلة، البطلةِ الحسناء، لبنان القِدَم واللبنانَ الآخر المنطرحَ على المعمور.

انها فرسانٌ واسخياءُ ومقاديمُ وشعراءُ وصناعيون، أين حلّوا حلّت النخوةُ والعملُ المبدع ولكلمةُ الأنيقة وبسطَةُ اليد والشرف.

موقع البلدة المسوّرُ بالجبال كان خيرَ ما يوائم عهد البطولة الفردية، يوم كان على المرء ان يحمي نفسه وعِرضَه ويحمي جاره كذلك.

حتى اذا كان عهد التَمَدُّنِ، واصبح الامن منوطاً بالدولة، ازدهرت قرى مكشوفة وقاسمت زحلةَ الطموح.

عندئذٍ سبقتها دساكرُ معلّقةٌ عند الغمام، يمتد نظرُها بعيداً، فوق الجبال، على البحر المترامي إلى آخر الارض.

وبقيت هي على الصيت العريض يحميها ويزيد من اعتزازها.

ان اسم زحلةَ اليومَ اكبرُ منها.

تراها ستلحق بشهرتها ؟ انها تمشي على رجلين وشهرتُها تمتطي جواداً.

ويضطرب في صدرها مطمَعٌ بأن تستأنف لِعْبَ دَوْرِ المجد.

وهكذا تبدو وكأنّما على وجهها مسحةُ حزن.

المجد اليوم يختلف عنه بالامس. فالفروسيةُ والعملُ الفرديُّ وإجارةُ الملهوف والموتُ على حدّ السيف حَلَّ محلها بناءُ الصروح: المصنع، الشركةُ الكبرى، المختبرُ العلمي، المتحف.

ترى ستُعطى زحلة ان تشقَّ لنفسها وجوداً عصرياً في حَجْم ما تحلم به ؟

ها هي، غداً ذات ضاحية صناعية تشغل عشرات الآلاف من العمال، ولها دارٌ للاوبرا تؤمُّها الفرق من ميلانو وباريس، ومُتحف وتاريخٌ للبنان محفور بالرخام: مئةُ تحفةٍ يحجّها طلاب المجد وكل من مرّ ببعلبك وتدمرَ والاهرام.

وها هو شعبها: رجولةٌ رافعو الرؤوس، واطفالٌ اصحّاءُ ضاحكون، وحسانٌ ذواتُ قدود منحوتةٍ في اللازورد.

حُلُمٌ هذا، تقول ؟

ولكنكَ عظيم بقدر ما تحلم.

وفي بعض الحكايات المتناقَلَة، هنا، خَلَفاً عن سَلَف، أن الحطّابة التي كانت قد بلغت في أواخر القرن الثامن عشر مئةً واربعَ سنوات، لا تزال تظهر من وقت الى آخر.

وهي انما تشاهَد ليلاً. لا يشاهِدُها الا الطاهراتُ القلب، من أولئك الحسانِ المرحات اللواتي يتنزهن على الضفاف.

وذاتَ مرة تراءت لصبية اجنبية، فبادرتها هذه بالقول:

ــ وانا، يا جدتي، هل تتنبئين لي بشيء؟

فقالت:

ــ سيكون لك في بلادكم قصرٌ ونهرٌ موزَّعُ الشعّاب في جنائنه الضاحكة. لكنك، بالرغم من هذا، ستظلين عطشى إلى ماء بعينه...

وتسأل الاجنبية:

ــ والنَّمِر؟

فتجيب العجوز:

ــ هذا... إياكِ وهذا؟ انه ليأكلك. اما ان تزوّجتِ من هنا فيكون لك بِنْت...

وتُتمّ ترجومتها الشهيرة: « صبية طاهرة كقلب الصبح ان رآها النمر غض عينيه ».

ذلك ان الحطّابة، التي شهدت تأسيس مدينة الرجولة، لا تتصور الحسن، الذي دونه تتهيب الوحوش، الا في حسناءَ والدُها من الزحالنة الأبطال.

التي غنّاها شكسبير

لنقتعدْ حجراً من حجارة ذلك العالَم الذي دُعي صور.
انه عالَمُ تاريخ، لا سَعَةُ ارض.

لنسرِّح بصرنا على جدار، هو البقية الباقية من كاتدرائية مار مرقس.

كانت، فيما قيل، تضمُّ رفات الامبراطور فردريك بربروس، وقامت على انقاض كنيسة ترقى إلى المسيحية الأولى، على انها اجمل معابد فينيقية وافخمها.

بدأ البندقيون تجديد الكنيسة الثانية عام ١١٢٧، وما فرغوا من التزيين الا بعد انقضاء مئة عام.

في انقاض هذا الجدار، راح الأَثَريُّ الالماني الدكتور سبّ ينقب، منذ ١٨٧٤، عن رفات الامبراطور. لكنه، فيما كان يعمل كان شخص آخر، هو أديب انكليزي، يفتّش عن نهاية اروع قصّة.

قصة بطلة من بطلات شكسبير، طريفة الحسن شفّافة.

معلوم ان قلم شكسبير تعرَّض، كما ولا أحد، الى مواقف الهول والجنون والدم. لكنّه، بمقابل ذلك، اطلع اجمل حسان الشعر: أوفيليا، دسدامونا، كاترينا، كورديليا، ميرندا، وأخيراً اللبنانية الشفافة مارينا.

واذا مارينا، هذه، الحلوة بين حلواته دون منازع.

لفهم شخصية مارينا، بما حولها من خصب في القصص الغريب لن يدركه شكسبير مرتين، ومن جمال بحريّ فريد، ومن اضطلاع باعباء قلب لن يبوح العشاق بأخلص أو أنبل، ومن فجاءات ولعب بالالباب، لا بد من استجلاء فاجعته « بيركليس، امير صور »، التي كُتب عنها، في عهد شكسبير نفسه، انها « احرزت نجاحاً لم تعرفه ولا واحدة أُخرى من فواجعه كلها ». انها لَتختصر حِدثان القلب وزلازل القرن. تمرُّسٌ بالمعرفة لم يبلغه غيرُ بضعة افراد في التاريخ، وانسحاقٌ مع الهول، وحطٌّ نظرٍ في

الجمال ينفذ إلى كيميائه، واكتناهٌ للحياة من علُ وعن كثبٍ معاً.

منذ البدء، نحن امام شخصية « جور »، دليلنا في الإخبار وفضّ الُمعمّيات.

يقصّ علينا « جور » قصة القصر الانطاكي الذي يطالعنا مزروع الابراج بالرؤوس المقطوعة. فاذا هي حكاية مجد وفضيحة والد على علاقة ببنته.

هذا، وبيركليس، أمير صور الشاب، ضيف المملكة، يخطب بنت العاهل الانطاكي. حسناء دون نيلها حلٌّ لغز. فان اخفق الطالب عُلّق رأسُهُ في الرؤوس.

يدرك الصوريُّ فوراً ان ثمة حباً محرّماً، فيحاول التملّص من محاولة حل اللغز، فيستشعر الانطاكي انفضاح امره، فيقول له انه يمنحه مزيداً من مهلة، وهو مُضمرٌ انه، خلاَله، سيقضي عليه.

يهرب الامير الصوري من انطاكية، مسلّما نفسه إلى البحر يسرّي عنه هولَ ما عرف، فتدهمه عاصفة تشتّت مراكِبَهُ وتدفعُه إلى مملكة « الخمس مدن »، حيث يغالب بعضَ الفرسان، فينال يدَ بنت ملِكهم.

وبعد عام، فيما هو في البحر، باتجاه مملكة صور، تمرض الاميرة الزوجة.

وتنازع.

فينقذون من أحشائها طفلة.

ووفاق عادة قديمة، تَتَطيّر من ابقاء جثة في مركب، توضع الزوجة في تابوت محكم، مع رقيم من الامير يسترحم لها الدفن، وتلقى في البحر.

أما الطفلة فيدعونها مارينا. ويعهدون بها إلى ملك نزلوا في أرضه. وتكبر في كنفه فاذا هي آية في الذكاء والجمال. امر يستثير غيرة الملكة، فتدّبر لها هلاكاً على يد عَبْدها ليونين. سوى ان قُرصاناً يخطفون الطفلة من العبد ويبيعونها رقيقاً أبيضَ، في جزيرة ميتلين.

« ــ لماذا تردد وتباطأ ليونين في قتلي ؟ كان عليه ان يضرب لا يُشفق. لماذا هاودتني قساوة القرصان فما رمت بي الى البحر افتش في قعره عن امي ؟

ــ فيم التوجع وأنتِ ذاتُ بهاء ؟

ــ لأنني ذات بهاء ؟

ــ قُيِضت لك يدان تكفلان لك الحياة.

ــ ما انا إلا أشدّ تعساً، وقد أفلتُّ من يدين تكفلان لي الموت ».

ويقول لها حاكم المدينة وقد جاءها يستمتع:

ـ منذ متى انت هكذا ؟

ـ منذ كان الزمن الذي اذكر.

ـ لقد بدأت جدّ فتية... ترى كنتِ بنتَ لذةٍ في الخامسةاو السادسة ؟..

ـ بل قبل ذلك، يا مولاي، ان انا كنتها اليوم ».

وتصرخ به:

« أنا عذراء فانقذني... الا لتعضدني الآلهة ولو بأن تمسخني عصفوراً يطير في طليق فضاء ».

وتسترحم الخادم:

« ـ خذ، خذ لك ذهباً. وان شاء سيدك مغنما فأعلِنه ان في مكنتي الغناء، وان أخيط أثواباً، وان أرقص. وفي طاقتي أن أدّرس كل ذلك. أكيد أن في المدينة طالباتِ معرفة ». ـ

وينبئنا جور بانها نجت، وراحت تلقّن فتيات المدينة ما تعرف من فنون.

ويكون بيركليس قد عاد يستردّ بنته من المملكة التي تركها فيها. فيعلنونه انها ماتت، فيرسل شعره حزناً، ويهيم في البحار. حتى اذا حطّت مرساته في الجزيرة، جيء اليه بمن تُسرّي عنه، فاذا هي مارينا. فيعرفها.

بيركليس لوزيره:

« ــ آه، يا هيلكانيس. اضربني، افغر بجسمي جرحا، مُسَّني بأذى، مخافة ان يتدفق هذا الخضمُّ من الفرح فوق شواطئ زوالي ويغرقني في اللذة ».

ولا ينسى هذا اللبناني الورع ان يشكر للآلهة، فتصرخ به بنته:

« ــ ولكن قُل لي من انت، يا سيدي، وما اسمك ؟ ».

ــ أنا بيركليس أمير صور ».

ويسمع أنغاماً علوية لا يسمعها سواه، فتأخذه غيبوبة، ويهتف به هاتف الإلهة ديانا:

« ــ في افيز معبدي. هلمَّ الى افيز وضحِّ لي. وعند احتشاد توابعي العذارى، وامام الشعب جميعاً، ارفع الصوت بانك فقدت زوجك في البحر ».

ويتمّ الأمير ما طلبته الإلهة، فاذا زوجه على قيد الحياة، احدى توابع المعبد، اصطيد تابوتها من بين الموج، واسعفتها طبيبة المدينة.

ويختم جور المأساة، يعلن هلاك الانطاكي وبنتِه وانتصارَ الحق والطُهر.

قيل في « بيركليس امير صور » إنها اقوى من « مكبث »، وانها افضل فواجع شكسبير جميعاً غِنى

قصص، وانها، في وصف الوفاء النسوي، اجمل ما خُطَّه قلم.

الفاجعة موضوعة منذ نحو اربعمئة سنة، فهل لها من أساس تاريخي ؟

ان الاديب الانكليزي، الذي كان ينقّب في انقاض الكاتدرائية، منذ العام ١٨٦٤، هو من سترتفورد، البلدة التي ينتمي اليها شكسبير. هذا كان كلما عاد إلى انكلترة يقول لمودّعيه على المرفأ:

ــ لم أحطَّ الرحال بعد، سأرجع إلى لبنان، وسأعثر على قبر مارينا. وفي عائلتنا في سترتفورد تقليد يقول إن جدي، وقد كان بحّاراً لبنانياً، هو الذي قصّ القصة على شكسبير، واخذ وعدا بان تكون بطلتها أجملَ بطلاته وان لا يحيد عن سياق التارخ.

« لكن شكسبير بَرَّ بالاولى، وفي الثانية تصرّف على هواه، جعل القصة تنتهي بان تتزوج مارينا حاكم متلين، وتكون هديةُ والدها عرشَ صور بالذات.

« لكن جدّي يقول ان مارينا لم تتزوج، وانها وحدها اعتلت عرش صور. وقامت، على الاثر، بفتح عبر « بحر الظلمات » وصل بها إلى بريطانية، حيث كان الفينيقيون

يستخرجون القصدير، وأسست فيها مملكة كانت اعدلَ ممالك الجزيرة.

« وفي التقليد المحفوظ في عائلتنا انه، يوم عودتها إلى صور، انتحر على شواطئنا أربعون الف شاب بان فَصَدوا أوردةَ سواعدهم لأنّهم انما اقسموا ان ترافقها دماؤهم إلى المدينة الأم ».

إن قُيّض لنا ان نعثر يوماً على قبر مارينا فقد نجد عليه كتابة تشير إلى الفتح وإلى حادثة الانتحار.

بلى، بَتَر شكسبير القصة متدخلاً، هو ايضاً، في النزاع على سيادة البحر. وانما لقب « جبابرة التاريخ » خليق بان تَقتتِل من أجلِه سيوفٌ واقلام.

سرُّ الملكة

ـ هذا اليوم، وقَتْنا الآلهةُ شرَّه.

ـ ماذا ؟ حلمٌ آخر ؟!

ـ ومتى لم تصحَّ احلامي ؟

بهذا كان يتحدّث خفيران عند اسوار قرطاجة، في ساعة فجريّة باردة.

وما هي حتى شُدِهَ احدهُما. فالتفتَ الآخر. فاذا هو وجهاً لوجه امام الملكة.

ـ إليسّا !

ـ قُصّ عليّ الحلم الذي رأيت.

كان الجنديُّ قد رأى ملكةَ قرطاجة. ولكن من بعيد. في موكبها. ملتفّةً بمعطفها الأسود الطويل، تقصد وحدها هيكل عشتروت. لكنه لم يُعْطَ قبل اليوم ان يسمع صوتها يتوجه إليه.

فتلعثم.

ــ قل ولا تكتم شيئاً.

ــ ولكن...

فصرخت:

ــ قل !

سوى أنه لم يسمعْها: أغمض عينيه وانهار.

إليسّا الآن تدنو من الخفير الثاني، تودّ لو تعوّض بِلُطفها عما فعلت مهابتُها برفيقه.

ــ لا تخف، يا صديقي، مَلِكَةٌ انا ولكني بَشَر. بشرٌ حُمّلْتُ همّ الأرض. اقتعد هذا الحجر، ولنتحدث.

فأنس الجندي. ولكن عينيه راحتا تتلفتان إلى رفيقه.

فقالت الملكة:

ــ عبثاً تكلف نفسك: لقد مات.

واقتعدت هي الحضيض. وأرسلت يدها إلى جبهة الصريع تداعبها وتبعثر من شعر.

ــ وأنت هل يلذّ لك ان تعرف قصة أليسا ؟ الملكةِ الدَيْدون ؟ يكاد يهرب الزمنُ ولا يُفسح لي في أن أحكيَها.

« ما أطيب أن تَسمعها من فمي، أنت أحدُ جنودي الذي لا أعرف له إسماً، وتسمعها معك هذه الجثةُ الغفْل.

« أواه إنكما اعظم من العظماء ».

وسكتَت هنيهة ثم، بعد قليل:

ــ مات والدي المَلِك، ملك صور، ولي من العمر تِسْعَ عشْرة سنة. اما الشعبُ فمال إلى أخي بكماليون. وبكماليون هو الاصغر.

« الرجال أخلق بالحكم، قالت صور.

« ولكنها لم تُنصِف.

« المُلْك ما المُلْك ؟ ما كنت لآبه له. لولا انهم اهانوا المرأة التي في ثيابي.

« سكَتُّ، وتزوجت اكريباس كاهن ملقرت. الا أنّ بكماليون طمع بماله الكثير. فقتله.

« هؤلاء هم الناس.

« واعتزمت الهرب.

« من الناس لا من الحياة.

« ونحن الصوريين والصيادنة ملاذُنا الصلاة، والكشف ونداء البحر الكبير.

« وكان حُلمي.

« سوى أن بكماليون مخيف. فهادنتُهُ لا خوفاً بل تمرُّساً بالصفح.

« فلم يفهمها.

« وذات صباح الحّ عليَّ حلمي، فلبّيتُه.

« أعلنت بكماليون انني سأنتقل إلى قصره. قصره في صور الجزيرة. فطار فرحاً.

« وفيما هو ينتظر دخول ثروتي إلى بلاطه، كان عبيدي ينقلون امتعتي إلى اسطول ينتظرني في المرفأ مع نفر من نبلاء حزبي.

« واقلعنا.

« وفكّر أُناس بالخيانة. فشهدوا عبيدي يرمون أكياس الذهب في البحر. فأدركوا أن العودة إلى بكماليون بدون الذهب خطر على رقابهم. فواصلوا المغامرة.

« وفي قبرص ابصرنا على الشاطئ مئاتِ العذارى يعرضن انفسهن — على عاداتهم هناك — مقابلَ المال الذي يجمع ليشوّق الزوج. كان رجالي اربعةً وثمانين، فأمرت باختطاف أربعٍ وثمانين، غدون فيما بعد حرائر قرطاجة وامهات ابطال العالم.

« وحين أطلَّ هذا الشاطئ البهيّ، وكان لي به سابق معرفة، ألقينا المراسي.

« وابيتُ الا أن أشتري — وهم يضحكون مني — قطعةَ أرض أبسط عليها بِرْصة. أجل جِلْدَ ثور وحسب. فاذا البِرْصة تكبر في سعة ما يمكن ان يصنعه الحِذْق الصوريّ من رقائق لا تعد.

« وتكون قرطاجة.

« المدينة التي سيقال انها اجمل الممالك.

« ولكن هيارباس لا يدرك معنى الاحلام الكبيرة.

« هيارباس الملك، جارنا الذي باعنا الأرض.

« راح يطلب مني خلْع هذا الحداد. كأنّ زوجي لم يكن، وكأنْ ليس في شيمتي الوفاء.

« هو يريدني ملكةً على عرشه أيضاً.

وقاطع الجندي الملكة صارخاً:

ـ نرفض.

فاكملتْ:

ـ إن رَفَضْنا احرق هيارباس قرطاجة. وقرطاجة لم تشتدّ ساعداً بعد.

« لسوف تفرض مهابتها يوماً على ابعدَ من نوميديا. أما اليوم...

« ولكن لا تهتمّ. لا تهتم. ودهاء إليسا ما نضب له معين.

« الحياة ؟ لقد اعيتها شرارة خاطرها. وستعيي الموت.

« الموت هذا غالباً ما يكون طريق الحياة.

فصرخ الجندي:

ـ ما تقولين يا مولاتي ؟

فاجابت:

ـ عند الصبح اذهب لتبقى قرطاجة.

« لا، لا تجهش هكذا بالبكاء. كن جندياً.

« إنطلقْ إلى القرطاجيين وقل لهم ان ملكتهم بانتظارهم على الاسوار، عند هذه المحرقة، حيث ستقدم لزوجها

بعض القرابين. وان كنت تعرف اهل رفيقك فقل لهم: «إن إليسا، التي اعوزها حنان الاخ، داعبت بيدها جبهة فتاكم وهو جثة».

مضى الخفير، وقد ادرك ما كان حُلمُ رفيقه: ملكتُهم تضرم بيدها النار، ووسط اللهب تغمد في صدرها السيف.

ويكون وفاءٌ بالزوج وبقاءٌ لقرطاجة.

النفس بعد الموت

على مبعدةِ ستةٍ وثلاثين كيلومتراً من بيروت شمالاً ؟ إذن قبل ثلاثة كيلومترات فقط من جُبيل، وعلى جُرْفٍ صخري هارٍ، يقوم بُرج.

انه بقيةٌ من العصور الوسطى، انيقُ الخطوط، فَعَل فيه الزمن ولكن قليلاً.

هو اليوم بيد علماء الآثار.رمّموه عام ١٩٣٩ وتركوه يطاول الجبل بعنقه العِملاقي الجميل.

كم من بطل من العهد الصليبي فاخر بأنه امتلك هذا البرج ؟ انه لأمر يهم مؤرخي الحروب. ثانويٌّ إذن.

لكن للبرج قصةً رُويت منذ ثلاثة قرون لشابٍ اسوجي مُوَّحَد، راح يُطوِّف في الأرض عَقِبَ فاجعةٍ عصفتْ بِنِياط قلبه.

كان الشاب يتأمل البرجَ بصحبة صبيّ يعرف الانجليزية ويَحْكي لا يكفّ. وفجأة بصرا بطائر كبير ينطلق من على قمّة البرج، فيحسرُ الصبيّ عن رأسه وتروح شفتاه تُغمغِمان.

ـ تصلّي ؟ سأل الأسوجي، ما جرى ؟

فأجاب:

ـ انها عصفورة البرج الزرقاء ! تسكنُه منذ الوف السنين. ولا تطير عنه الا نادراً: كلما عرفت الأرضُ حباً عظيماً !

وبهت الزائر لبداية القصة، ولعل موضوعَها العجَب لامس وتراً في قلبه المحطّم، فسأل الصبي:

ـ كثيرون هنا يقولون قولك ؟

ـ أيّ قول ؟

ـ إن هذا الطائر لا يموت.

ـ ما من طائر هنا، ايها السيّد، إنها عصفورة البرج الزرقاء. وهي خالدة. خالدةٌ لا تموت.

جرى هذا الحديث في أوائل القَرن السابعَ عشَر، والحقيقة انه صدى لحكاية نورٍ قديم شعّ أول ما شعَّ في تلك الارجاء، أرجاءِ جبيل المقدسة، ومنها عمّ العالم.

منذ الوف السنين، قال كاهنٌ من جبيل « ان للانسان نفساً وان هذه النفس خالدةٌ لا تموت. وما الموت الا حجاب يفصل. ومن أحبَّ نفساً منتهى الحب هتَك الحجاب وردَّها اليه ».

. ووحدها دون سائر حواضر الدين القديمة، تشددت جبيل في معتقدها الطريف. وقصدَها منذ الألف الرابع، ومن اقاصي الدنيا، اناس موجَعون يستشفون بالإيمان الجديد. جاءها نوميديون وهنود وصينيون وحضارمة وبابليون ومصريون كانوا قد فجعوا بعزيز لهم، ولدٍ أو والد أو حبيبة عمر. ويوم قتَل سيثُ مصر أخاه أُوزيريس قصدَتْ إيزيسُ إلى جُبيل، دون سواها، تسترد الحبيب من الموت.

ويقال إن كاهناً في جبيل طلب منها ان تحبَّ الوسيم الغائب منتهى الحبّ، وتذوبَ في الدمع وفاء به، فبكت المصرية النجلاء العينين، بكت حتى لم يبق في مآقيها بَلَل. ولكنّ ذلك ما كفى.

ورقّ لحالها نهر هناك لُجَينيُّ التدفاق ــ يسمونه الفيدار ــ قال لها:

ــ لا تَهتَمّي، مياهي أقربُ ما يكون إلى دموعك. استعيريها وأوهمي الكاهن أنك بغزارةِ نهرٍ تذرفين الدمع على الحبيب.

وهكذا كان.

سوى أن كاهناً جبيلِيّاً لا يفوته شيء... فهمس في أذنها ان ألفَ موجة من أمواج النهر تساوي دمعةً من دموع إيزيس.

ومضى الفيدار يقدِّم من نفسه، ويقدِّم بسخاء، حتى خافت إيزيسُ عليه فهتفت:

ــ ويحك، ستجفّ !

فأجابها:

ــ ما هم ؟ يكفي أن أساعد حسناء على استرداد حبيبها من الموت.

ولجوابه حنّت مآقيها من جديد، وأُعطيتْ دمعةً ولا كالدموع.

جفّ الفيدار. ولكن حبيب إيزيس عاد إلى الحياة !

وكذلك عاد الاسوجيُّ إلى بلاده بعد أن قُصّت عليه القصة، وهو أقلّ حزناً: أدرك ان التي فقدها ستُرَدّ يوماً اليه.

ان البرج، الذي على مقربة من نهر الفيدار، يبدو حديث البناء نسْبياً. لكن آخر لبناني يعرف أنه إنما نهض على انقاض برج قديم يَرقى إلى ما قبلِ الالف الرابع.

ويتناقلون أنه على قِمّتِهِ كان قد أُقيم مذبحٌ من المرمر الجميل. هو المذبح الخاص بالكاهن الجبيليّ الذي كان أوّل من قال: « إن للانسان نفساً وان النفس خالدةٌ لا تموت ».

ويتناقلون أيضاً أنه، منذ فاه الكاهن القديس بالكلمة التي سترِنّ في آذان العصور، شوهدتْ عصفورةٌ زرقاء تطير من على يديه.

هذا البرج في لبنان لن يتهدّم. وكلما فعل فيه الزمن أُعيدَ بناؤُه.

هوميروس الذي من لبنان

ذات صباح من أواخر الشتاء، والربيعُ لمّا يُطِلَّ الا فراشةً وسنونوة، اختلج الماء في نهر الميليس، فاذا بالإله اللجينيّ المنطرحِ بين الحشائش ــ وكلّ نهر عند الاغارقة إله ــ يُتلع عنقَه ويتلفّتْ.

إنها امرأةٌ مثقلةُ الخطى تقترب من ضفته.

ــ من أنتِ ؟ لتَتَعطَّرُ الريحُ لِغمسك فيها هذا القدُّ المشيق.

ــ انا كريتيس، ايها الإله، سيقولون زوراً أنّي صبيةٌ شذّت فهربَتْ إلى ضفافك تخفي ثمرة الغواية.

ـــ انتِ إذن حُبلى ؟

ـــ كما ترى. لكنني أقسم بالآلهة أنني تزوجتُ والدَ ابني هذا، ليلة سفرته إلى وطنه، بلاد الأرز الذي يجايل الدهر. كانت النجوم جميعاً في عرسنا، ونوتيةٌ حمرُ الوجوه، ضاحكوها فتحوا العالم وجاؤوني بهداياه. سوى أن المركب الذي أقلّ البشريين ابتلعته العاصفة، أما النجوم فبُكمٌ تأبى ان تنطق وتشهد لي. لا، لا تكن كأهل كِيمْ ذويّ، أولئك الذين غَلُظتْ قلوبهم فلم يصدِّقوا.

وكان جواب الإله اللجيني ابتسامةً بيضاء وموجةً تكسرت عند قدمي الحسناء تلطّف من تقطيب حاجبيها ومن حرارة شُعاعات الشمس.

وهكذا تصادق النهر وكريتيس.

ويوم ستضع ابنها ستسأله:

ـــ ما ندعوه ايها النهر ؟

فيقول:

ـــ ساعة وُلد لم يَبك... اطلق صوتاً كنغمة من شبّابة قصب أو كبث بلبل، أسر الريح فكفّت عن الجري تصغي. سيكون لقوله أن يبدع دنيا جديدة. تعالي ندعوه باسمٍ كلّه غناء. ما قولك بـ « ميليسيجين ».

ــ ميليسيجين ! إنه أجمل الأسماء. من لي بشاعر يغنيني ؟

ويقال إنها وضعت في ظَمئها إلى سماع الشعر، من الشوق والحرارة، ما جعل الاقحوان الذي على الضِفّة يتجمّع ويزورها رُتولاً رُتولاً. كذلك توقّفت على الأفق جمهرةُ النجوم واخذت تهبط على الطفل حاملةً اغاريد الفلك العظيم.

وكبُرَ الصغير، فطِناً، أنيقَ الخطى، يحِبُّ تسلُّقَ الصخور العالية ولا يأنس الا إلى المستوى الأنوفَ.

وكان يلازم معلّمَ مدرسة من إزمير يدعى فيميوس.

وما أن يَبلغ التاسعةَ حتى يُعلن أُمَّه أنه يزمع سفراً، وانه لا يحب شيئاً اكثر من البحر وبلاداً عبره يخيل اليه انه يعرفها، يسكنها « نسل الآلهة » و « أصحاب لغة الآلهة ».

ــ إنها فينيقية ! قالت الأمّ في سرّها، ذاكرةً وطنَ الوالد الذي كان سبب تَعْسِها والهناء.

اما النهر فلم يمانع، اذ سألته أمّ ميليسيجين نُصحاً. ووعدها بأن يُطلق مياهَه ترافق السفينة التي ستُقِلّ الولد وتذكّره بأمه وبوطنها الذي على ثراه رأى النور.

وسافر ميليسيجين... وكان النهر، كُلَّ صباح، يروي للوالدة اللهيف أخبار الرِحلة كما تجيئُه بها مياهُه الموزّعة على البحار.

ها هو ميليسيجين في صُور، يَطرَب لسماع الشِعر الذي يُنشَد على ذكر الأبطال العابقة ثيابهم برائحة الأرز والشربين، ثم هو في مصر، في ممفيس نفسها تلميذةِ صيدون، ففي الإيباريه حيث مناجم الذهب، ففي إيطالية ذاتِ النهارات البهيّة والربيع الدائم، ففي اغريقية ذات الجزر الألف التي توجع ربة الجمال.

ولكن النَهر أقبل راكضاً، ذاتَ صباح، وانطرح عند قدمي الأمّ يبكي.

ــ هذه المرّة جئتُ أُمزّق نياطَ قلبك: أندُبي اندبي معي النور في عَيني ميليسيجين.

ــ ماذا ؟ ميليسيجين ولدي أصبح هوميروساً ؟!

ولم تشأ الأمّ أن تعيش بعد أن انطفأ النور في عيني ابنها.

اما النهر فعادَ لا يذكر « الولَد » الا بالاسم الذي كان آخر كلمات كريتيس الحسناء.

ــ هوميروس ! هوميروس !

هكذا كانت تهتف ازمير يوم قامت بأسرها إلى البحر تستقبل العظيم العائد إلى مسقطِ رأسه.

كانت شهرتُه قد طبّقت الدنيا.

كان قد حَمل بلادَ أُمّه شِعراً إلى العالم، ذاك الذي سيحملها شِعراً إلى العصور.

واستقرّ هوميروس في كيو. وتزوج بنتاً يقال انها تشبه أُمّه. وعرف الهناء العائلي. وكان في كلّ موسم يقوم، والشعب في أثره كأنه عصاه، إلى مدينة من المُدن يغنّي الآلهة والبشر المتعالين إلى المستوى الأنوف. فتُطِلّ المُدنُ مِن على فمه، الواحدةُ تلو الأخرى، كأنما ترقى وترقى حتى لَتحازي ما في ذهنه من قُبب ومن مطلاّت العالمَ الذي تُبدعه اناشيدُه. ويصِف ضربةَ البطل، ودهاءَ العقل، وفضائلَ القلب، حتى لكأن كُلاًّ مدرسةٌ بذاتها تُلقّن الناسَ كيف تفرُّدُ الناس.

وذاتَ مساء، وقد كادت السنونُ تُثقل كاهله، خرج من كِيُو في مركب فينيقي انيق، قاصداً أثينة، فاذا وراءه، وهو لا يدري، مئتا سفينة. هي الإيونية باسرها تُواكبه إلى المدينة التي يُحِبّ. ثم هي مئتا سفينة أخرى تخفّ اليه.

انهم اهل الاتيك جميعاً وفدوا إلى استقباله قادرينَ شرفَ الزيارة.

لكنّ هوميروس استشعر تعباً خانقاً. فطلب ان ينزل إلى ساحل ايوس، الجزيرةِ الصغيرة التي تواجه أثينة. ووسْطَ الأساطيل التي جاءتْهُ بنخبة الشرق والغرب راح يتحدّث إلى رفاقه، زُمَرِ الرعيان والصيادين، يقول: « إنني انوي رحلةً إلى فوق أحمل معي أهلي « نَسْلَ الآلهة » و « اصحابَ لغة الآلهة »، والنهرَ الذي عَطفَ على أُمّي، وأثينة، أثينةَ التي جئتُ أُودّع، والتي ستخلِف بعظمتِها صيدون وصور ».

وسكت صوتُ هوميروس في فمه.

كفَّ عن إسكار الناس ليروح يُسكر العصور.

عَلى عرش روما

في الطريق إلى عكار، على مَبعدةِ ستةٍ وعشرين كيلومتراً أو أَزْيَد من طرابلس، يقوم تلٌّ وخرائب.

هي أطلال عَرقْه. قيصريّةُ لبنان. لَعِبَتْ دورها منذُ العهد الفينيقي، وذُكرت في لوحات تلّ العمارنة وفي الرُقُم الأشوريّة. حجّت الدنيا إلى معابدها، آياتِ الفن والدين، وكان لواحدٍ من أبنائها ان يَعتليَ عرش الامبراطورية الرومانية هو وعائلته ومستشاروه اللبنانيون، ويتدبّر، من قصره فيها او من قصره بروما، مقدرات العالم. وقد قيل فيه انه الأطيب والأعلم الأعلم بين الاباطرة جميعاً.

في أول تشرين الأول، عام ٢٠٥ للمسيح، كانت دارةٌ في عَرقه تُذيع البشائر بان جُوليا مَمَّا رُزقت طِفلاً ذَكراً.

وتقول القابلة متنبئّة:

ــ هذا الولد سيَطول بيده النجوم.

فتردّ جوليا مَمَّا متأوّهة:

ــ على أن تكون النجوم من شرف لا من حرب.

وتتلقّى الأمُّ دعوةً من روما.

ــ إملأ عينيك، يا الكسيان من مفاتِن لبنان، تهتف به عند الوداع. فقداسَةُ هذا الجبل ستكون زادَك الوحيد في مدينة المجد والفجور.

وفي البحر، عند احتجاب آخر القِمم اللبنانية، يستبدُّ بها الحنين فتقول:

ــ باسمكَ أُقسِم انك إن رجعتَ إلى لبنان بنيتَ هيكلاً للشمس لا اجملَ منه الا هو.

في ١١ آذار عام ٢٢٢، رَقِيَ اللبنانيُّ عرشَ رومة باسم الكسندروس ساويروس. وكانت جدّتُه جوليا ميزا وأمّه جوليا ممّا اثنتين من جولياتٍ اربع غيّرن نظرة رومة إلى المرأة، ونظرةَ العالم.

الأَربع من عندنا، من عائلة الكاهن الأكبر خادمة معبد

الشمس في المقاطعة التي تدعى « فينيقية اللبنانية ». حَكمن رومة، واعتززن برومة، وخلعن على رومة إلى الأبد ما سوف تخلعه الميدتشيّاتُ على باريس من عظمةٍ وفخفخة أعياد وسياسة امبراطورية ودَهاء وحُبّ وطيشٍ واخلاص. ومِنْهُنّ مَنْ فُقن ملكاتِ باريس جميعاً بما تركنه من شهرة في امتشاق السيف بين الرجال وعلى رأس الرجال.

يقول المؤرخ جان بيلوْن إن الكسندروس، عندما رَقِيَ العرش، لم يكن على التمام « نسراً لبنانياً ».

الا أنّه، منذ فتوّته، كان يُعَدّ بين كبار المثقّفين. وككل لبناني اتقن الآرامية، لسانَ لبنان، واللاتينيةَ، لسان الدولة، والاغريقية خصوصاً، اداة الحضارة غَيْرَ منازَعة. وكانت جدّتُه وامّه قد سهرتا على بابه تنتقيان من تدفاق الزوار كلَّ شريف أو كل باسل. وسيمتدحه آباء الكنيسة بقولهم « ان سلامة الجِسم والخُلق عند هذا الوثني كانت رأس الفضائل ».

عبٌّ من علومٍ وفلسفة ومن دينٍ انتقائيّ استخلصه من المعتقدات الرفيعة.

كانت الرئاسة النسوية في البلاط للجدّة جوليا ميزا. امرأةٌ فريدة الشخصية فريدة الدهاء. على انها اصطدمتْ

وبنتَها منذ الساعة الأولى بلبنانيٍّ آخر يُضارعهما شخصية ويفوقهما عبقرية. انه المشترع أُولبيان. قدِم من مدرسة بيروت تواكبه شهرةٌ طبّقت العالم ليتسلم ما يُسمّى اليوم منصِبَ كبير الوزراء.

عام ٢٢٤ أصدر أُولبيان بوجه الجوليتين قانوناً يقلّم من اظافرهما. الا انهما ستتغلبان وإن بثمن الدم.

تُوفيّت الجدّة الداهية. فاغتبط انصار أُولبيان. لكن البنتَ افتتحت عهدَها بأن أقامت لأمّها تكريماً عالمياً وسمّت باسمها فرقة من الجيش.

وعندنا ايقونات تصوّر جوليا ممّا معبودةَ الجماهير لخلُقيتها المتشددة والناعمة معاً.

وتوطّد عهدُ الكسندروس ساويروس.

واحبّه الناس في كل مكان.

كان الامبراطور، من وقت الى آخر، يقصد معتزَلاً يسامر فيه العظامَ المفضلين على البشرية: فلاسفةً ورجالَ دولة ومؤسسي اديان، يقدرون وحدهم ان يهدّئوا من كَلَفه بالمُطلق. أورفه، ابولونيوس التِيّاني، ابراهيم ويسوع الذي لم يبق من إمكانٍ لتجاهله.

ويحفر فوق رتاجاتِ قصوره الكلمة الخالدة: « لا تفعل بالغير ما لا تريد ان يفعله الغير بك ».

ورُغم اعتداءات فردية تنطوي أحياناً على الهول، لم يُعرف عهدٌ أوفر تسامحاً أو أجمعُ على قَدْر الفضائل. ويعمل الامبراطور وامُّه معاً للعلم. فتستقبل هي في انطاكية العلاّمة اوريجين استقبال الملوك، ويكلّف هو جوليوس الإفريقي اقامةَ مكتبةٍ في رومة وتأليفَ دائرة معارف. ويعتز كثيراً بان اللاهوتي إيبوليت قَدّم إلى الامبراطورة الأُمّ كتابَه عن « القيامة ».

البطانة والوزارة من أساتذة مدرسة بيروت العالميين. انهم هناك جميعهم تقريباً: بَبّنيان، بَوْلس، أُولبيان، مودستين. الثلاثة الاولون لبنانيون واعظمهم اولبيان، الرجل الثاني في الامبراطورية. كانت جوليا مَمّا لا تزال تكرهه بسبب تشدّده بأنْ لا قِبَلَ للمرأة بالحكم. كان عليها ان تقول له انها قوية. أُولبيان هو المدني الوحيد بين جمهرة عسكريين تحيط بالامبراطور، فَسَهُلَت المؤامرة. واشترك فيها حتى زميلاه الوزيران. ولكن ردّة أُولبيان جاءت فورية عنيفة: امر بقتل وزراء دونما محاكمة. فهتفت جوليا مَمّا: « أُولبيان انتهى ». هُم الجند يلحقون به إلى مقاصير

الامبراطور، والكسندروس ساويروس ينزع الارجوان عن كتفيه يلبسه وزيره، علّ الهائجين يتحرّمون من مس شعائر المُلْك. الا أن الجند لم يبالوا. قتلوا أُولبيان بينما كان الكسندروس يردّد:

ـ فَقْدُ نصفِ الامبراطورية ولا الاعتداء على عظيم.

وتكون تعاليم زردشت أدخلت في روع أردشير انه سيملك على آسية. فيقصده الكسندروس ساويروس في جيش تروح أُمّه تُضخّمه على الطريق. ويتفشّى الطاعون في الجند. ويصاب الامبراطور. الا ان مناخ لبنان في عَرقِه يجترح الأُعجوبة. ويصمدون. ويسأم الفارسي مواصلةَ حرب مُفنية. وتطير البشائر إلى رومة تُعلن وقف العدوّ. ويضع الامبراطور خطةً للسلم اصلاحية، نتيجةَ ما وصلت اليه بيروت من وعْي لحقوق الانسان وللعدالة الاجتماعية.

لكن الثورة تنشب في الطرف الآخر من العالم. فيطير الكسندروس وأمّه إلى غوليا. ويعمل بروح مسالمة. فيعرض الصلح على الجرمانيين، فيرفضونه، فتضعف معنويات الجيش، فينادون بامبراطور جديد، هو جنديّ من تراقية أمّي جِلْف كلُّ حسناته انه عملاق الجثّة. وتكون محاكماتٌ ومشاهدُ فاجعة يتغلّب فيها المظهر: التافه العملاقُ الجثة

يُفَضَّل على العظيم الذي غزا الدنيا بمناقبه.

هو الكسندروس الآن يضمّ إلى صدره، في وَداع مؤثر ابكى حتى الجند الثائرين، تلك التي أبتْ الا أن ترافقه في الطفولة وفي الشباب، في القصور وفي ساحات القتال، في الحياة وفي الموت. قتلوهما معاً في ١٩ آذار عام ٢٣٥ .وقتلوهما مرة أخرى عندما راحوا يشيّعون انه، في اثناء وداعه لها، تلك التي احبته كما ولا أحد، اتّهمها بان بخلها تسبّب في موته.

ولكنهم، بعد انقضاء قرن، احتفلوا بذكرى الكسندروس ساويروس وجوليا ممّا، في أرجاء الامبراطورية جميعاً، بالعابٍ واعياد فوق الوصف. وفي عهد غاليان رفعوا الكسندروس ساويروس إلى مصاف الآلهة.

من عَرْقه بلبنان، إلى عرش رومة، إلى ساحاتِ العالم جميعاً، إلى الألوهة، مشى هذا اللبنانيّ وامّه — على ضعْفهما البشري احياناً — مرفوعَيّ الرأس.

وكان ذلك ايامَ عاصمةُ الامبراطورية شبهُ لبنانيةٍ، بعاهلها وملكاتها ووزرائها، بعظمتها وجنونها.

ويتناقلون عندنا أنه، يوم قُتل الامبراطور وأمّه، سقطَتْ

قبّةٌ من قصره في عَرْقه وسُمعت الرجّةُ عنيفةً في هيكل الشمس، الذي كان قد بناه وفاءً لِنَذْر. فهتف الكاهن بالمؤمنين: « يخيّل إليّ أنّ المجد والفضيلة قلاّ في الارض ».

يا حجاراً خوافِتَ اللون في لبنان
قُصّي كِتابَ عهدٍ نضيرِ.

قُبلة أفروديت

نحنُ على ضفة اليَمّونة، الباعدةِ سبعةً وعشرين كيلومتراً عن بعلبك.

بحيرةٌ معلقةٌ على خصر لبنان في علو ١٣٧٥ متراً، تتغذّى من ينابيع شتى كلُّها مُتفجّرٌ من الصخر واكبرُها نبع الأربعين.

بهذه البحيرة ربَطَ الأغارقةُ حادثةً وقعت لافروديت، ربةِ الجمال، في أروع اسطورة اطلعتْها مخيلةُ شعرائهم. فكلما جعّدت الريح ماءَ بحيرتنا الجميلة استعاد اللبنانيّ المثقّف قصةَ تيفيا بعذوبتها وهولها الفريدين. واذا الخوف

وقَذْفُ الصواعق وكبّ الجبال على الجبال تغزو جنبات باله ويخيّل اليه ان امواج اليَمّونة جُنّ جنونها وكبُرتْ، حتى لكأنها أواذيُّ الاوقيانوس في واحدة الليالي العاصفة. وتظلّ هكذا إلى ان تُطلّ من البعيد البعيد شعّةُ شمس صبيّة تأمر الاوقيانوس أنْ اهدأ، فيهدأ.

كان تيفيا ابناً للارض عجيباً. حبلت به ولم يمسسها بشر أو إله، وعهدت بتربيته إلى تنّين. إنه مخلوقٌ بين الانسان والسَبُع. يفوق حجماً وقوةً ابناءَ غايا جميعاً. اكبرُ من جبل. ولطالما صدَم رأسه إحدى النُجيمَات ففتّتها. إنْ فتح ذراعيه حمَلَ الشرق باليُمنى، وباليُسرى خَمشَ وجه الغرب. اصابعه مئة، كلٌّ منها رأسُ تنّين. وهو من وسطه فما دون مغلّفٌ بالافاعي. جِسمهُ مجنّح ونواظرُهُ لَهب...

وفي الحرب التي نشِبت بين الارض والسماء — تلك التي ستدور دوائرها على الارض — ما كاد تيفيا هذا يُطلُّ على الساحة حتى خافه الآلهة وأركنوا إلى الفرار، مختبئين تباعاً على الطريق بين اليونان ومصر، وقد تبدّل كلٌّ حيواناً أليفاً أو سمكةً أو طائراً خوف ان يعرفه تيفيا فيقضي عليه. تبدّل ابولون صقراً، وهرمس كلباً، وديونيزوس كبشاً، وهيفايستوس ثوراً. أما أفروديت، ولم تكن قد تسمّت بعد

ربة الجمال، فقد رمت بنفسها في بحيرة اليمّونة علّها تتحوّل إلى سمكة. ولم يصمد في وجه الطيطن العملاق سوى أثِنا ربة الحكمة وزوش كبيرِ الآلهة.

راح زوش يقذف تيفيا بصواعق يديه. حتى اذا التحما صدراً لصدر كانت الدفعة تُلقي بهما من صعيد مصر إلى صحراء البتراء ومن صحراء البتراء إلى صعيد مصر. اخيراً ضرب زوش تيفيا بمعزفه الفولاذيّ فأوقعه على الأرض. إلا ان الطيطن استقوى بأمّه فإذا هو جريحٌ ليس إلا. ارتدّ على زوش وانتزع من يده المِعزف، وبضربة كفٍّ كبير الآلهة على وجهه ثم قطع أطرافَ عضلاته وحمله على ظهره إلى كيليكية حيث حبَسه في المغارة الكُورسيّة. أما اطراف العضلات فخبّأها في جلد دبّ وضعه في حراسة التنّينة دلفينا.

من أنقذ زوش ؟ أيّ داهية قَدِر ان يعرف مكان التنّينة فقام يُعمل فيها رُمحه الطويل ويردّ على كبير الآلهة اطراف عضلاته ؟

ما لك الآن ولهذا. وحسبك ان تعرف ان زوش استردّ حريته وقواه وانطلق إلى السماء، وأسرج خيول عربته المجنّحة وراح يضرب الطيطن بصواعق ولا أشدّ.

وتوقّف تيفيا على جبل نيزا يُنعش نفسه بأكل ثمرة مسحورة من تلك التي تحملها اشجار الجبل. فلحق به زوش. فهرب. حتى اذا انتهيا إلى تراقية شرع تيفيا يسلخ الجبال عن جلد أمّه ويضرب بها زوش، فيردّها عليه كبيرُ الآلهة مفتّتةً ممزوجة بالحُمم. ولقد دُعي جبل ايموس بهذا الاسم — ومعناه بالاغريقية الدم — لانه انما تكوّن من نقطة دمٍ انحدرتْ من بعضِ جراح زوش. واخيراً، فيما الطيطن يجتاز صِقليّة منسحباً، قذفه زوش بجبل إتْنا فغيّبه إلى الابد. وما الحمم التي يُطلقها هذا البركان دوماً الا بعضٌ مما يصقه الطيطن او مما تبقّى من صواعق كبير الآلهة.

هكذا انتهت الحرب بين الطياطين وزوش. وكان على هذا ان يعود الى رفاقه ورفيقاته، اولئك الذين حوّلهم الخوف إلى حيواناتٍ أليفة أو أسماكٍ أو أطيار، ويردّهم إلى طبيعتهم الالهيّة الأولى.

لكنه لم يتسنّ له ذلك على التمام، لانهم انما كان قد طال عليهم الأمد لطول أمد الحرب بين زوش وتيفيا. فبقي في إله الشعر من عِنفوان العقاب، وفي إله البلاغة من نباح الكلب وفي إله الخمر من قرني الكبِش، وفي إله النار من

خُوار الثور. اما افروديت فكان شأنُها آخر: عندما غطست في بحيرة اليمّونة قَصْد ان تتحوّل إلى سمكة، أُعجِبتْ بها البحيرةُ ورقّت لجمالها مدركةً ان ضيفتها إن تلبّست سمكة إلى أمد فقد يترك ذلك على أناقتها وبضاضة جسمها ما يشوب، فكانت كلّ يوم ترفعها إلى الشاطئ، تغسلها من سمكيّتها وتردّها إلهة سوية. حتى اذا بصرت بالطيطن المَخيف يمُرُّ حيالَ حيال ضمّتها اليها من جديد، سمكةً اجمل السمكات.

وكانت البحيرة من وقت الى آخر تحدّث افروديت عن ابنِ ملكٍ من لبنان، فتى فتيانٍ بهيِّ الطلعة مفتولِ الزند لا يقدر سواه أن يقنص التنانين. فتتكابر افروديت ولا تخوض في حديثه أو تسألها عن اسمه.

وذات يوم، فيما هي تتجول وحدها بعيداً عن البحيرة، ضلّت طريق العودة. وانتهى بها المطاف إلى أحد ينابيع العاصي فاذا النهر يدعوها لاهثاً مستغيثاً. حتى اذا اقتربت منه قال انه في حاجة إلى أن يسرّي عن نفسه بأن يكشف لها، هي بالذات، عن سرٍّ لا يجوز ان تسمعه الا إلهةٌ محضُ إلهة.

ــ وما هذا السرّ ؟ سألت افروديت.

قال النهر:

— جاءتني موجةٌ من موجاتي، من البعيد البعيد، من مصبّها عند البحر تحت كيليكية، تخبرني بأن أطراف عضلات زوش مخبوءة هناك، وأنّها في جلد دب في حراسة التنينة دلفينا.

وعادت افروديت ركضاً إلى صديقتها البحيرة تسألها، هذه المرّة، عن ابن الملك فتي الفتيان البهيّ الطلعة المفتول الزند من لا يقدر سواه أن يَقْنص التنانين. فهتفت البحيرة فرحة: انه قدموس ابن الملك أغنّار. وما هي حتى جمعتها به. ومقابل وعد بقبلة من افروديت تعهد قدموس بأن يقتل التّنينة دلفينا ويردّ على زوش اطراف عضلاته.

هذه هي القصّة عن نجاة كبير الآلهة وانتصاره على الطياطين ابناء الأرض.

ويوم يُرسل زوش هيرا، زوجه، وأثِنا، ربةَ الحكمة، وافروديت إلى باريس ابن الملك فريام، ليفصل في مَن منهن هي اجمل، يتشمّم باريس في هيرا واثنا نَفَساً غير محض إلهي، ولا يجد نَفَساً تامّ الألوهة الا في افروديت. فيهتف، وقد رمى اليها بالتفّاحة:

— إلى ربة الجمال !

ويخبرك سُكان اليمّونة ان امواج بحيرتهم اختلجت

لفورها عند صدور الحكم من فم باريس، وهم الذين ما شكّوا يوماً في صحّة عدالته ما دام أنهم وحدَهم شَهِدوا افروديت عارية...

وتخبرهم اليمّونة بما كانت تعمله لافروديت. وتقول مزهوّة:

ـ سترون انه وفاءً بصنيعي ستُؤثر ربّة الجمال سُكنى لبنان على سكنى الأولمب.

ولكن متخابثاً وسيم الطلعة يردّ قائلاً:

ـ بل ستؤثر افروديت سكنى لبنان لتفتش عن قبلةٍ كالتي ذاقتها هنا من فَمِ قدموس...

يرفع الأرض إلى السماء

في عشية من عشايا الربيع كان راهبٌ وشاعر مكبَّين على نصّ يونانيّ هو « مدائح العذراء » او، على الأشهَر، « المدائح » وكفى. قصائدُ على كلّ شفة ينشدها ابناء الليتورجية البيزنطية كلَّ مساءِ جُمُعة من آونة الصيام.

— تعرفُ يا أبت ؟ انني أعُدُّ المدائحَ اجملَ شعر أطلعه قلم.

وتتهلّل اسارير الراهب. فيكمل الشاعر:

— في ذهني، وأنا أُطلق هذا الحكم، أروعُ تُحَف الدنيا: فَقَراتُ الحب الناريّة الباقية لنا من سافو شاعرةِ

شاعراتِ الغزل، وجوقات أيسخيلوس التي تُسمع انين الانسان ولو من تحت صخرة القدر، وبعضُ مزامير داود وهي آية الايمان والجمال سَلكت النجوم كلماتٍ ورفعتها إلى عتبات عرش الله، «ونشيد الانشاد» المعزوّ إلى سليمان وهو حب مَلكٍ لفتاة قرويّة رفع القلب الساذج إلى قوة خمرة تسكر رَجُل العقل، و «كوميديا» دنته وهي التي، لبهائها، أضافت اليها الأجيالُ نَعْتَ «الإلهيّة». اخصّ منها لا «الجحيم» أو فصلاً منه بالذات بل «الفردوس» حيث تقودك يدُ بياتريس إلى وجهٍ فوقَ ما تتحمل العيون أو تتفجّر له فَرحَةُ القلوب. وفي ذهني كذلك غزلُ بترارك جميعاً. هذا عند الأغارقة والعبران والطليان. ومن الانكليز والألمان في ذهني تُحَفٌ لشكسبير لا من «السونيات» وحسب بل من «الملك لير» أو من «العاصفة» و «حلم ليلة صيف»، القصتين الاثيريّتين الدائرتين على شفا الوجود واللاوجود، ثم من «فوست» الرائعة التي على الانسان يتخطّى مقدورَه، وقد بقي غوته يُعمل فيها قلمَه مدة ستين سنة. واخيراً في ذهني من فرنسة اياتٌ برأتْها، كما بَرْدُ الذهب أو حفّ الماس، انامل ملارمه وفاليـــري: «هيروديا»، «الخطى»، «اغنية نرسيس». ومع هذا تراني عليها جميعاً أُوْثر «المدائح». احفظها عن ظهر

قلب بالترجمة العربية واتهجّأها مُستمتعاً بنغماتها الأنيقة في الأصل الأغريقي، واحياناً احاول تلمّسَها بقليلٍ ما اعرف من الروسيّة. واني لو دَريت ان لها ترجمة عند الهنود لما ترددتُ في معالجة لغتهم أتبيّن كيف أُفرغت آيةُ الطُهر في لسان فلميكي وقليداسا.

وسكت الشاعر قليلاً ثم استطرد:

ـــ شعراء الدنيا وموسيقيّوها جميعاً توسلوا إلى القارئ بالحُزن، أو بالاحرى بطعْمٍ من الحزن بعينه هو الكآبة، ليحرّكوا نفسه اليابسة. حتى في المسرّة تسمعُهم يئنّون. الجرح عندهم وسيلة، اما الفرح ـــ الفرح مباشرة ـــ فَقَلَّ مِنْ اهل القلم او الوتر مَن بنى به وأعلى. بيد أن الشاعر الآلهي، صاحب « المدائح »، رَفَع من الفرح كاتدرائيةَ شعرٍ تكاد تحاكي « أيا صُوفيا » وتشيلُ بها على جناحين. كلُّ ذلك إكراماً للتي، على تواضعها، قالت ذاتَ يوم: « ها منذ الآن تُمجِّدني كل الأُمم ».

قال الراهب، وهو عالِمٌ هِيلّيني من طراز جلل:

ـــ ولكن هل تعرف، يا صديقي، ما علاقة « المدائح » بلبنان ؟

وتهيّبه الشاعرُ للسؤال. فاكمل الكاهن:

ــ إسمع. فيما أنا أنقّب انتهيتُ إلى ان « المدائح » هي من صنع رومانوس.

فيقول الشاعر:

ــ ماذا ! رومانوس، رومانوس المرنِّم، ابنُ المقاطعة المعروفة بـ « فينيقية اللبنانية » وتلميذُ مدرسة بيروت، هو صاحبُ « المدائح » ؟

ــ نعم، قال الراهبُ العالم، هو صاحب « المدائح ». وما أدري أفي بيروت وضَعَها ام في القسطنطينية. لكنني املك الحجّة المادية على انها له. كشفتُ حروف اسمِه مبثوثة في مستهلّ الكلمات الاولى من مقطوعات نشيدِه.

هذا ما دار في تلك العَشيّة بين الصديقين الكَلِفين بالأدب الاغريقي. وكان ذلك في دير من اديار الرهبنة الشويرية في الجبل.

كرّت الايام.

واذا بك تجد الصديقين في صيدون يحجّان آثار المجد القديم. حتى اذا انتهيا إلى تلّة المُوركس ــ وهي تتمةٌ للقلْعة ترتفع إلى اربعين متراً في مئة طولاً، كُلّها من الموادّ

التي كان الصيادنة يستخرجون منها صباغ الارجوان ــ قال الشاعر:

ــ هذه التلّة، يا أبتِ، تردّني إلى شِعر « المدائح ».

فيسكت الراهب غير متبيّن أيّة وشيجة تشدُّ شاعرَ العذراء إلى تلّة بعينها ترقى إلى عهد وثني.

ويستأنف الصديقان الرِحلةَ إلى الجنوب. وفيما السيارة تنهب الأرض لاهثة، والزمانُ يطول، والشاعر لا يحير، وهو يعلم ان الراهب العالِم ينتظر شرحاً، اطلّت صور.

ــ هذه اخيراً بطلة المدن، يهتف الشاعر: الكلامُ عليها ما له نهاية. فلْنتوقّفْ منها عند أشتات اسطورة بالذات كادت الآن تلفّنا كأنها ريح. أكيدٌ انها سَحَرتْ رومانوس فاختارها من بين الالوف. انها اسطورة تيروس، الحسناء التي باسمها تسمت المدينة. كانت تيروس واحدةً من بنات الماء الفينيقيات. اول صدى لقصتها تجده عند المؤرخ بولوكس في الكتاب الاول، الصفحة الخامسة والاربعين. ثم يتكاثر ذكرها عند الاقدمين. قالوا: كانت تيروس تتنزه على سِيف البحر فبصر بها الإله ملكرت، واذا بكلبها مقبل وقد عضّت نواجذُه على حيوان بحريّ مصدّف يقطر منه دمٌ ذو حمرة تأخذ بالألباب. فالتفتت تيروس إلى إله البطولة

وقالت: اكون لك ان صبغتَ لي بهذا الأحمر البهي ثوباً أَخْطِرُ به بين الآلهة.

وأقسم ملكرت ليفعلنّ.

وراح رجاله، بحّارة صور الشُجعان، يغوصون في اليمّ مواجهين الف خطر ومنقّبين عن الحيوان المصدّف النادر. انه الموركْس. دعي الصباغُ الذي استُخرج منه ارجوانا او برفيرا. ثم عمّت الكلمة حتى باتث تُطلَق على ثوب العاهل فلا يقال: لبس الملك مطرفا مصبوغاً بالبرفير وانما لبس الملك البرفير. بلى منذ الكلمة التي تحدّتْ بطولة البطل وقَسَمه بأن يستجيب للتحدّي، دشن أجدادنُا تمرّسهم بأخطار البحر: بدأوا يتعرفون إليه، في قعره وابعاده، في هوله وعجائبه. وكان ان ولدت المغامرة التي افرغت البحر من أُلوهته، وراح غزليّو بلادنا يتغنون بالموركسة. وبعد ألوف السنين كان رومانوس يتمشّى تحت الاعمدة المشيقة من معاهد بيروت، وهي التي كانت تَمُتُّ بنسب إلى اعمدة بعلبك، يدرس ولا بد في سنْخَني أتن، المؤرّخِ البيروتي، اساطير جبيل وصيدون وصور. ويكون ذهنه منشغلاً بنشيد للعذراء يريده لا يعلو عليه شِعر، لا في الوثنية ولا في المسيحيّة. حتى اذا انتهى إلى اسطورة

تيروس التمع له خاطرٌ شهم، هو أن يجد في الموركسة رمزاً لأحشاء العذراء. الموركسة، قال، خَلَعَتْ على تيروس ثوباً تخطر به بين الآلهة، ومريمُ خلعتْ على الله جسماً يخطر به بين البشر. هي الوثنية بأسرها تتجمّع في كلمة وتقدّم نفسها هدية إلى الايمان. وهكذا هتف رومانوس للعذراء، مُطلعاً أجمل بيت في المدائح:

ــ افرحي، يا موركسةً منها صُبِغ البرفيرُ لملك المجد! ».

عَظيمُ العُظَماء

« في أوائل القرن الثامن، كان القاطنون في حيّ بعينه من بعلبك، ممّن تقوم بيوتُهم حول الساحة — وهي بهذا الاسم وان لم تكن تزيد على تسع قصبات في ثمان — يُبكّرون صباحاً إلى احتلال الشبابيك.

وكان أناسٌ من الاحياء الأُخرى يستضيفونهم لا لشيء الا ليستمتعوا معهم بالرؤية.

وعند بزوغ الشمس تماماً، او بعيدَه بقليل، تأخذ الرؤوس تتحرك خلف الشَعْريات.

انهم الحضور اكتملوا.

وعمّا قريب سيصل المُنتظر.

وتكون العجائز قد كَنسْنَ الساحةَ من ورقةٍ حَملتها الريح أو من فُتات خبز وقشرة بصل تركهما مكارِيٌّ تعشّى تحت حِنْيَة. اذ ينبغي ان يبقى المكانُ نظيفاً لكي لا تقع عينا القادم على شيء يكدّر.

وما هي حتى ينفجرَ من احد الأزقّة بعضُ الصبية، ويلاقيهم ولد من هنا وآخر من هناك.
وتهدأُ الجَلَبَة.

ويروحون، الواحدُ تلو الآخر، يتوجهون إلى جهةٍ بالذات وقد ترصّنوا وخفتت الاصوات.

أما الرؤوس التي في الشبابيك خلف الشَعْريّات فتتكاثر. ويُسمع همْس:

ــ عبد الرحمن ! وصل عبد الرحمن !!

انه هو أيضاً ولد. ولدٌ مثلُ هؤلاء، في الحاديةَ عشْرة لا تزيد.

ــ تلعبون ؟ يقول لهم.

فيهتف واحد:

ــ لا يا عبدَ الرحمن. اليوم في حَيِّ الهياكل ميت. وعما قريب سيخرجون بنعشه.

ــ ما هَمّ، يجيب عبدُ الرحمن، آباؤنا يؤاسون. اما نحن فقد جئنا لنلهو.

ها هو انيق الاشارة يصفّق فيطيعون: يَقسمهم ثلاث فرق، يَركض أمامهم، يبثُّ بعضاً في زاوية وآخرين تحت شُرّفة، يَصْفِر، يبعثُهم، يجيء بهم، واخيراً يُعلن غلَبَة الغالبين. ويحاول بعضهم اعتراضاً، فيبتسم له هو، فيختنق الاعتراض.

كل هذا بحركة ملمومة: لا يَعنُف، لا يبالغ، لا يرفع صوتاً، وله ضِحكة ولا أوقع، تُشجّع أبداً وتقرّب بين المتخاصمين.

ــ أسكُتُ إكراماً لعبد الرحمن، يقول واحدٌ لمشاكس نال منه.

ويكونون قد تَعِبوا. فيقتعدون إفريزاً وهو على رأسهم في الوسَط. ثم متى شرع في الحديث يرُوح الأبعدون يتركون الإفريز شيئاً فشيئاً حتى ليصبحون بين يديه على الأرض في حلقة رحبة.

ـــ كان عليك ان تسكت، يا جِرْيِس. إن محموداً مُحقّ. لقد ظَلَمْت.

فيسأله واحد:

ـــ ما معنى « ظلمت » ؟ كلمة أُخرى جديدة. من المُصحف ولا بدّ. لم نصل بعد إلى كتاب الله.

ـــ تمييزُ الظُّلم من العدل، يُردّ عبدُ الرحمن، يكون فينا منذ الطفولة. كذلك تمييزُ القبح من الجمال. نحن اليوم كبار، بعضنا في الثانيةَ عشرة.

ويسأله سائل:

ـــ حقاً قُلتَ امس إنه كان عليّ ان لا أضرب عُمَر ؟ كان عُمَرُ قد ضربني.

ـــ إضربْه، يردُّ عبد الرحمن، حَقُّك هذا. انه يُسمّى عدلاً. ولكن بامكانك وقوف الموقف الاجمل. انظر إلى هذه الاعمدة. أتظن ان في الدنيا اروع ؟

فيتطلّعون ! فاذا الاعين مسمّرة على هيكل جوبتير وقد راحت شَمْسُ الصباح تواجه منه جانباً وتبقي آخر في الظل، فيبدي بهاء غير معتاد.

فيكمّل عبد الرحمن:

ـــ بلى أنْ تَسكُتَ عن المسيء أحسن. معاقبته عدلٌ وهذا محبّة. والمحبة فوق العدل.

فتموج الرؤوس خلف الشَعْريات استحساناً، وتُسمع كلماتُ إعجاب، فيُهسهس واحد:

ـــ بالله عليكم لا ترفعوا الصوت. ان درى بنا أخذهم ومضى.

ويسأله صبيٌّ أكبر منه:

ـــ وعدتَنا منذ اسبوعين بنقد الحكاية التي قَصّها أبو صلاح.

ـــ صحيح صحيح، يقول عبدُ الرحمن، لقد اعجبني أبو صلاح. لكنه جعل الشيخ زين العابدين، بعد أن انتصر على أعدائه، يقطع شجرهم إثاراً لابنه القتيل. ما ذنب الشجر ؟ كانت واحدته تظلل ابنه وهو في قيد الحياة. وزينُ العابدين ؟ بلى كان بطلاً. ضرباتُ سيفه تأخذ بالألباب. إلا أنه رضي بأن يواصل جندُه تسديدَ السهام إلى عدوه بعد أن أدّرع عدُّوه باولاده. هذا ليس في الانسان.

فاعترض احد الصبية:

ـــ ما تقول، يا عبد الرحمن ؟ لو أنه كفّ عنهم لكانت النجدة وصلت إليهم في حينها، وغُلِب زينُ العابدين.

ـــ فلْيُغلب، ردّ عبد الرحمن. على المرء أحياناً أن يؤثر الانكسار. رب انكسار اجملُ من ظَفَر.

فتهتف امرأةٌ من أحد الشبابيك:

ـــ سلمَ فَمُك.

فيتطلّع، فاذا عشراتُ الرؤوس قد أطلّتْ، فينهض، ويغمُز الصبية، وينطلقون.

ذات يوم من عام ٧٢١، وكان قد كبُرَ سنتين، جمعهم في الساحة وراح يودّعهم:

ـــ الليلة رأيتُ في منامي رؤيا جميلة. قال تركت بعلبك. وقال أنا في دمشق أخطب في المسجد. ثم أنا مرة أخرى في لبنان، في بيروت، يجيئني اناس يستفتونني، من الشام، من المغرب، من الهند، من بلاد تدعى الأندلس. اسمٌ جديد على الدنيا. اضغاث احلام... اما تظنّون ؟ وما همّ. فلنكمل. قال إنني أحببتُ اهلَ بيروت واهلَ الجبل. ومن أجلهم رفعتُ الصوت على الظلم بوجه اكبر ملك في الدنيا لان وُلاته جاروا على لبنان.

وسكت الصبية. وكانت الدموع تَطفِر من الأعين.

فأكمل عبد الرحمن:

ــ انه حُلْم... حلمٌ ليس الا... على أيّ حال انا ذاهب غداً إلى دمشق. وقد اموت فيها، وقد أموت في سواها من بلاد الله، لكنني أريدكم إلى شيء: إن صار واحدكم موسراً فليتصدّق على رفاتي ولينقلْه إلى لبنان.

قالها مُغلِّفاً حزْنه بالضَحِك.

في اليوم التالي كانت دمشق بأسرها قد خرجت إلى الطرقات تستقبل ولداً غير عادي يقال له « عبد الرحمن الاوزاعي ».

* * *

هكذا قصّ قصة الإمام العظيم في حداثته راهبٌ من غزير كان يزور مع تلامذته مسجداً في ظاهر بيروت راحت أرضنا بسببه تعتزّ بأنها تضم رفاتاً فريداً. رفاتَ من قيل فيه: « كان الإنسانَ الكامل، أعلمَ علماء عصره وأشرفَ شرفاءِ عصره ».

يوم زار يسوع لبنان

مرةً في حياته الزمنية تركَ وطَنه الارضيّ.

وكانت ليجيء إلى لبنان،

ولكنْ لماذا لبنان ؟

ليس عند مؤرخه متّى جواب.

وفي مرقس نراه يطلب ان « لا يَعْلم به أحد ».

تراه كان تعِباً فجاء إلى أرضنا ينتجع الراحة ؟

لكم يطيب لنا أن تكون أرضُنا بدّدتْ بعضاً من تجعدات على جبينه.

منذُ متى تراه يعرف لبنان ؟

أواه ! ان ذلك لمتقادمٌ في الذاكرة:

انه لطفل يصغي في الهيكل إلى قارئ الكتاب:

أرزة في لبنان،
شامخةُ القَوام،
عظمتها المياه،
والقمرُ رفعها،
أنهارُها جرت
من حول مغرسها،
ومجاريها أرسلتها الى كل أشجار الصحراء...
في اغصانها عشَّشت كل طيور السماء.
وتحت فروعها وُلدت كل السباع.
وفي ظلها سكنت كل الامم..
السروُ لم يماثل أغصانها.
والدّلبُ لم يكن كفروعها.
وكل شجرة في جنة الله لم تضارعْها بهجة...
فغارت منها كل أشجار عدْن،
تلك التي في جنة الله.

ويصغي:

فاغيةٌ مع ناردين،
ناردينٌ وزعفران،
قَصَبٌ ودار صيني،

مع كل شجر اللُبان.
مُرٌّ وعود،
مع أفخر الأُطياب،
عينُ جنّات،
وبئرُ ماء،
وأنهارٌ من لبنان.

وما لبنان ؟

أكثرُ من لفظةٍ حلوة يجعلها الكتابُ صِنوةَ البهاء.

أكثرُ من منظر يلتفت اليه هو من الجليل، فاذا العين سُكنى لزهر وشربين ولبياضٍ على القِمَم.

أكثرُ من ريح ليّنة تُداعب وجهه فيغنيّها:

هُبي، يا شَمال، ويا جَنوب، انسِمي.
من رأس أمانه،
من رأس سنير وحرمون،
من مرابض الأسود،
من جبال النمور،
من لبنان.

ويروح يشعر حيال لبنان بما هو فوقَ عهده الاول بكلمة الآب، وفوقَ قرّة العين بنسَمٍ ومنظر بهيج.

ماذا ! تراه لمس يوماً ارض لبنان ؟ أو استعَدّ للتماسّ بينه وبين سلسلتي الجبل البهي ؟

عَهْدَ كان فتِياً يمرحِ على بحيرة جنسَّر، لطالما سرّحَ نظره على تدفاق الاردُنّ الآتي من فوق، ومما وراء فوق.

ــ من أين، يا عمّ، ينبع هذا النهر ؟ سأل ولا بد ذات يوم راعياً عجوزاً.

فأجاب الشيخ:

ــ انه ليتجمع من ذوب الثلج على الحرمون.

ــ الحرمون ! قال هو متذكرا.

ــ هذا الجبل الذي ترى، المجلَّلُ كالشيخ، طوالَ السنة قريباً، ببياضٍ صاف. إنه احدى سلسلتي لبنان.

ــ لبنان ؟ أجاب مستغرباً بسذاجة، لبنانُ الكِتاب ؟

ــ نعم، لبنانُ الكِتاب.

تراه منذ هذا الحوار راح ينوي أمراً ؟

من يدري ؟

وجُلُّ ما نعرف انه، يوم افتتح رسالة الالوهة في الارض، أبى إلا أن يعتمد بمياه النهر الذي ينبع من احدى سلسلتي لبنان.

وهكذا تكون ثلوجُنا أوّل من قصد منا اليه.

عهْدُ ذهنه بلبنان، عهْدُ قلبه، بل جُماع روحه وجسمه، عهدٌ قديم إذن.

وإن هو جاء إلى ارض صور وصيدون يستريح، فعنْ سابق معرفة بجبل الطيوب: من حِفظِه اسمَه تهجئةً وكتابة، إلى تسريح النظر على قممه، إلى فتحِ الصدر لنسيمه، إلى الاغتسال بمائه يترد.

— لهذا الجبل فضلٌ علي، كاد يقول.

ولو انهم اصغوا إلى تمتماته لربما سمعوها.
ولسمعوه يناجي صور منذ اطلت:

مَن هذه المشرقة كالصبح ؟
الجميلةُ كالقمر ؟
المختارة كالشمس ؟
المرهوبة كصفوف تحت الرايات ؟

« لم يُرد ان يعلم به احدٌ من الناس »، يقول مرقس، ولكن الناس قصدوا اليه « فلم يقدر ان يستتر ».

هؤلاء اللبنانيون مُلْحِفون في الطلب.

ليَتكلمون كأصدقاء، كمن لهم عليه دالّة.

ها هي امرأة منهم تناديه:

— « ارحمني، ايها الرب ».

فيتضايق التلاميذ.

فتقول:

ــ « أغثني، يا رب ».

ولكنْ أنّى لها أن تحصل على شيء والخبزُ يكاد لا يَكفي البنين ؟

إلا أنها تُصِرّ:

ــ « ان الكلاب تحت المائـدة لتأكـل من فُتـات البنين ».

هذه المرأة، ما حاجتها ؟

هي، ليس لها حاجة.

وانما لها بنت.

لسواها لا لها تلتمس ؟ إنها لَخليقةٌ بالانتساب إلى الوطن الذي نماها.

وما تُريد ؟

مسَّ الظلامُ عقْلَ ابنتها، فجاءت تطلب نوراً لهذا العقل. لا كساءً لعُري، ولا مسكناً لمأوى، ولا مالاً لأعالة.

كاد التلاميذ يصيحون.

ولكنه اخرسهم، هذه المرة، بوجهه المتهلّل وعينيه الباسمتين.

اللبنانية تطلب النورَ شِفاءَ.
كالارض في كل آن.
وتطلب منه ولو فُتاتاً من الذي تحت المائدة.

ــ « لأجل كلامك هذا، قال، اذهبي ». لقد شفيَت الفتاة.

وكان لها النورُ جميعاً، سخيّاً كما على المأدُبة.

وعندما « خرج من تخوم صور » أبى، يقول الانجيل، إلا أن « يمُرّ في صيدا ».

تراه اراد ان يتعرّف اكثر إلى الشعب الذي كان اوّل من ذهب اليه: خاطرةً في كتاب، ومنظراً حسناً، ونسيماً مُنعشاً، وماءً به يعتمد؟ والذي كان أوّلَ من طلب منه النور بدل المأكل والمشرب؟

وأكيدٌ انه ما ترك أرض لبنان إلا وهو يتغنى:

تُثمر الجبال سلاماً للشعب.
والتلال بُراً.
عودوا اليَّ فأعودَ اليكم.
جربوني بذلك،
فافتحَ لكم كُوى السماء،
وأفيضَ عليكم بَركةً حتى لا توسع.
وتغبطكم كلُّ الأمم،
لأنكم تكونون أرضاً شهيّة.

القرنة السوداء

من الارز يقصدون إلى « القرنة السوداء »، أعلى قمم لبنان. كثيرون انتهوا اليها واستمتعوا من علو ٣٠٨٣ متراً برؤية تمتدّ إلى جبال قبرص. اما حكايةُ الحب والحرب التي تُروى عن « القرنة السوداء » فلا يعرفها الا قلائل.

قصّها، آخرَ مرّة عام ١٩٣٢، على راهبة عميقة الثقافة، رجلٌ أوفى على الموت، ملتمساً منها ان تكتب عليها كتاباً. الراهبة لم تفعل. سوى أنها كانت، كلما ذكّروها بالأمر، تنحدر على خدها دمعةٌ اشبهُ بلؤلؤة.

عام ٦٣٥ أمر معاوية قائِدَهُ سفيان بمهاجمة طرابلس.

فامتنعت عليه. فضرب حولهَا حصاراً.فهزِئت به. حتى اذا طال الحصار وعمل الجوعُ عمله الفاجِع استنجدت المدينةُ بامبراطور بيزنطية. فبعث اليها بأسطول يجلو اهلَها جميعاً.

جُنّ جنونُ الفتيان منهم. ورفضوا الذهاب، مؤثْرين الموت في مدينتهم الجميلة.

مِنْ هؤلاء البطلُ حَوْرَئِيل. كان له زوجة تدعى زيزِيا، (حسناءُ كقلبِ الصبح تجللّها غديرتان سوداوان كَلَيْل) وطفلٌ وحيدٌ يزقزق بنيساناتِه الخمسة تحت شَعْرٍ يتناقض وشَعْرَ أُمّه ويقال من ذَهَب.

بعد فِتَرٍ متقطعة من جدلٍ وضراعة، وتهديد بانتحار، قدر حورئيل ان يُقنع الزوجة بأن تذهب والطفلَ مع الذاهبين. ولكنْ، فيما كانت تسلخ الولد عن صدر ابيه، قبيل ركوب البحر، هتف بها الصغير:

ـــ دعيني هُنا، فقد يحتاج ابي إلى من يجمع له النَبْل.

فيتجدّد الجدَل، وتروح زِيزِيا تتوسل إلى زوجها ان يستبقيها إلى جنبه، تموت ان مات وتحيا ان نجتْ طرابلس.

ولكن حَورئيل يأبى أن يَسمع.

ولا يهدأ له بال حتى يراها تنزل إلى المركب.

وفي الآخر يُخرج من جيبه شالةً من الحرير الأخضر ويلفّها على عنقها الفارع:

ــ هذه، إياكِ ان تضيع. انها حِرْزٌ في عائلتنا. مسحتْه أُم جدّي على قبر المسيح. وما بَقِيَتْ معنا فنحن بخير.

قال هذا وعينا زيزيا الجميلتان تكبران من شدة التحديق إلى الشالة. وما هي حتى تنزعها من عنقها وتلفّها على عنق الولد ثم تضمّه مُغمضَةَ العينين.

المركب أبيض، وحده أبيض، فتذكّر حَوْرَئِيلُ يومَ عرسه، اذ امتطى وعروسَه فرساً وحدَه أبيض بين خيول رفاقه الحُمر والسود.

ما كاد المركبُ يغيب في الأفق وسط السفن والزوارق حتى هبّتْ عاصفةٌ اقامت البحر بعيده والقريب، ومزّقت اشرعةً في المرفأ.

ولكن حورئيل ظلّ متجالداً واثقاً بنجمة سعده.

ــ اما تخاف ؟ سأله رفيقٌ له.

ــ عليهما ؟ لا. انهما محروسان.

انقضت ايام، ودخلَ جندُ معاوية طرابلسَ الخالية الاّ من بعض العجائز ــ ومن البطل حورئيل.

كان شبةَ وحيدٍ في مدينتهِ المغلوبة. فاستشعر طعم الموت تحت اضراسه. ثم وجد نفسه خارج الاسوار، تائهاً في بساتين ما ابقى المحاصرون على غُصنٍ منها.

وعنَّ له أن يُصعّد في الجبل. فهو يعرف ان العمارة البيزنطية لم تبتعد كثيراً. وقد يلمح بينها مركباً أبيض، فيرافقه بالنظر إلى البعيد، إلى قبرص بالذات. وفيما هو يتوقّل في التلال لاهثاً من تعب، مرتاحاً حيناً ودوماً غيرَ متناس ان يتلفت جهة البحر، اذا بالعاصفة تهبُّ من جديد اقوى وآكل، فيتلطّى بجذع زيتونة. ولكنه لا يلبث ان يشهد الأغصان تتقصّف حوله وعليه، فيقفز إلى جذع شجرة أقوى. وما هي، حتى يُبصر بشيء يتطاير في الريح المُغْولة، فيمرُّ بباله خاطرٌ مخيف، ولا يعود يعبأ بنفسه أيبقى حياً أم يموت! ويركض وراء الشيء، يركض بعيداً بعيداً.

انه ليتبينُه الآن. هو الشالة الخضراء التي ربطتها زيزيا على عنق الولد. تراه متى التقطها سيجدُ عليها دماً أم ستكون كلّها رسالةَ نَعْي؟

الريحُ لا تنفك تحطّ بالشالة وتشيل، ويكاد لا يقترب منها حتى تنقذف إلى النهايات. فيركض ويركض ويركض.

أيَّ قوة أُعطيَها في القفز ؟ كم ليلةً وكم نهاراً انقضت عليه ؟ كلُّ ما يعرف انه لا يزال قوياً وانه يركض وراء شالة خضراء.

ها هو الآن على مقربة من قمّة القِمم في لبنان. لطالما بلغها مع رفاقه وهو يافع. هي الآن مكسوّةٌ بالثلج، يغرق فيه إلى الركبتين فلا يأبه. وينتشل نفسه بعنف، يكفيه تشدداً انه سيقبض على الشالة.

فقزةٌ، فقزتان، ثلاث ويكون فوق. ويمدُّ ذراعاً ولكنه يقع مَغْشِيّاً عليه.

عندما يستفيق يجد اصابعه قد قبضت على الشالة.

يقرّبها اليه، يشمّها، يقبلها وهو يجهش. انها هي هي، بلونها الاخضر، كما ودعها بنظراته ملفوفة على عُنُقِ الصغير. لا دَمَ عليها، ولكنّ احدى قرانيها معقودة. فيفكّها. فاذا القرنة سوداء. انها تحتوي على خصلةٍ من شَعْر. شعر زيزيا الزوجةِ المعبودة. فيفهم انها هي التي ماتت ونجا الصبي.

ما يعمل ؟ تراه سيُعطى ان يعود إلى طرابلس ينقضّ على القائد الذي كان سبباً في موت التي لا أجمل منها الاّ هي ؟

ها هو الآن يُدرك أنه محطّم وان الموت لن يُمهله. انه ليتجالد في عمل أخير وبعد لأيٍ يسحب خنجره من نطاقه ويروح يحفر في الصخر الذي امامه على قمة القمم، بلغتهم اللغة الآرامية، سطراً، ثم آخر، ثم ثالثاً.

« القرنة السوداء من الشالة، يكتب، انتهت اليَّ هنا.
« إن اعوزتني الحياة فعلى ولدي، هو، ان يكون بطلاً.
« اعلى منا شرفاً لن تكون هذه القمة ».

وحاول أن يجرَّ نفسه صوب طرابلس؛ الا انه لم يبتعد كثيراً.

وبعد أيام كان نسرٌ يجثم على جثة.

عشرون سنةً انقضت، واذا بفارس اشقر يتسلق الجبل. في عدد من الفرسان. فتُوقفهم في ضاحيةٍ من طرابلس امرأةٌ عجوز.

ــ إبنُ حَورثيل! تقول، ابنُه أكيداً ! منذ ثلاثين سنة شهدتُ اباك، وهو شاب، يركب مثل هذا الجواد، في مثل هؤلاء الرفقة. لكنه، هو، كان، امامه على السرج أجمل نساء لبنان. حملها إلى فوق لتغمز الشمس وهي على قمة القمم. انت اين عروسك ؟!

وتطاولت العجوز بعنُقها إليه، وأكملت هامسة:

ـ وكانت طرابلسُ لنا.

فخفض الشاب بصره. وانفجرت على عينيه دمعتان كبيرتان. ثم لكز جواده.

ـ كانت تتكلم على أمّي، قال لرفاقه، أُمي التي غرقت في البحر، لكنّها تكلمت أيضاً على شيء اعظم.

وفوق، على قِمّة القمم، فيما هو مكبٌّ على أحد الصخور يحُلُّ حروفاً بعينها عمل فيها الثلج والزمن، هاجمه نسرٌ مسنّ، فصوّب رفاقُه اليه نبالهم، فهتف بهم:

ـ دعوه لي فقد يكون بيننا ثأر.

سوى انه اكتفى بأن جفّل النسر.

ـ من يدري ؟ هتف به، فقد لا تكون انت.

ويقال إنه، عندما نظر في عيني النسر لآخر مرة، شهد في قعرهما شيئاً قَفَّ له شعْرُ رأسه، فندم لأنه لم يمزّقهُ تمزيقاً.

بعد أيام كان الشاب في دمشق في حضرة معاوية:

ـ مَن أنت ؟

ـ لبناني. ولدتُ في طرابلس وعشتُ في بيزنطية.

ـ وتُريد ؟

ــ أن أعود إلى مدينتي مع بعضٍ من عائلاتها.

ــ هل لك علينا ثار؟

ــ ثارات.

ــ منها؟ سأل معاوية مُعجباً بشجاعة الشاب.

ــ منها أنك، بعد أن جلونا عن مدينتنا، اسكنتها جالية من اليهود أولئك الذين تسبّبوا في قتل نَبيّك.

وتأثّرَ البطلُ الأموي للجواب وقال:

ــ ليؤْذَنْ لهذا الفتى في الدخول إلى طرابلس، هو ومن يشاء.

كان، في المدينة، إلى جنب الجالية اليهودية، حاميةٌ أموية يستدعون بعضاً منها إلى دمشق، على جناح السرعة، كلما احتاجوا إلى نجدة.

وبعد نصف قرن بالضبط من فتح المدينة، اي عام ٦٨٥ ــ ومعاوية قد لقي وجه ربه وبعضُ الحامية متغيّبٌ في دمشق ــ ثارتْ طرابلس.

وبعد أيام كان قائدُ الثورة عند عجوز الضاحية، وهو على جواد أبيض في رفقة يركبون الخيول الحُمر والسود.

فاذا العجوز قد أسنّت كثيراً. لكنها عرفته. فقالت:

ـــ هذه المرّة، معك عروسُك.

ـــ نَعَم، وسأُعَرِّفها إلى أبي. وسأقول له: عادتْ إلينا طرابلس.

وتكبُر عينا العجوز:

ـــ ماذا ! حَورَئيل مختبئٌ فوق ؟!

فيخنق الفارسُ الأشقر غصّة:

ـــ أبي لا يختبئ. لكنه على كل حال فوق. وشَعْرُ أمّي، أيضاً، فوق، في القرنة السوداء.

فخجلت العجوز، ثم حاولت ان تعوّض، فتقدّمت من العروس تتبيّنها ملياً:

ـــ جميلةٌ، قالت له، جميلةٌ مثلها. لا تنسَ أن تدعها تَغمزُ الشمس وهي تشرق على قِمّة القمم.

نزا بعل

كان أشّور بنيبال يلهث كحصانه، وهو يتقدم الجيش في ذلك الحرّ الكاوي، والصحراء تكبر أمامه على البعيد، تأبى ان تنتهي.

أتراه يتابع الاياب صوبَ أشّور ام يتوقف ؟

ــ اين نحن من الفُرات ؟ سأل المَلك.

ــ لم يبق الاّ ان نُبصر بمجراه، قال أحدُ القوّاد.

فتنفس أشّور بنيبال الصعداء، وخفّف من سير الجواد.

الجيش الآن يغطّي الضفتينِ وافرادُه منبطحون على الارض يَعبّون من المياه الجارية. قلائل منهم يتأملونها

يتساءَلون: أهي نظيفة كفافاً ؟ ولكنهم لا يلبثون أن يشربوا.

فرغوا من نَصْب خيام المَلِك، انيقةً مزركشةً شامخةَ القباب. فرشوها بالطنافس وعلّقوا على جُدُرها الارجوانية أعلاماً وشارات. ثم راح العبيد يظهرون منها ويغيبون بجَلَبَةٍ وخفّة، ينقلون فِضّي الآنية وشهيَّ المآكل.

ــ بين الاميرات الصُوريات، اسيراتِنا، واحدةٌ شقراء فارعةُ القامة. جئني بها، قال أشور بانيبّال لكبير مرافقيه. لا تُغلظ لها القول إنْ تمنّعتْ، ولكن لا تَعُدْ بدونها.

لم تَطُلْ غيبةُ الرجل. وها هو، من الخارج، يُسمع صوته الأجشّ، يصطنع الحديث مع الحجّاب كأنما يُطمئِن المِلك إلى انه نجح في مهمته.

وتشُقُّ بابَ الخيمة، إلى حضرة أشور بانيبال، حسناءُ في العشرين من نيساناتها. لكأنّ شعرها سبائك من ذهب ضفرته غدائرَ مترصّنةً تتدلّى على رأس ولا آنق، أما قامتها المشيقة فطيف من الاطياف.

ــ ما ظننتُكِ على هذا الحسن ! هتف المِلك بالأشّورية.

ــ شُكْراً، أيها المِلك.

ــ ماذا ! او تتكلمين لساننا ؟

فاطرقت الأميرة لشبه الاعجاب يُسمعها اياه عاهلُ أشّور. ثم قالت ببساطة من تُحدّث صديقاً:

ــ ليس من صيدونيٍّ لا يُجيد ثلاث لغات.

ــ وانت ؟ ساءل متحبباً.

فاستثقلت لهجته وراحت تفكّر بان لا تجيب، ولكنها عادت تخنق حُنْقَها بالجواب:

ــ أنا، أعرف ثمانِيَ.

وفجأةً فطن الملِكُ إلى انه كان، منذ دخولها، ما يزال مشدوهاً بعينيها الخضراوين. فاستعاد لهجة الواثق:

ــ اقتعدي هذه الطنفسة، يا عزيزتنا الأميرة. هنا، قِبالتي هنا، إلى هذا الخِوان. انت غير اولئك. كأنّكِ غيرُ سبيّة في معسكر أشّور.

ــ غيرُ سبيّة ! لو انني هكذا لما كنتُ في خَيمتك.

ــ اين تريدين ان تكوني ؟ في قَصْر ؟

ــ بل في صور، في بَلاط اخي.

فاصطنع الملِكُ الابتسامةَ، ثم ما لبث ان اعتراه اضطرابٌ اشبهُ بعاصفة.

ــ صور صور ! الحاضرةُ التي تأبى استسلاماً.

فاكملت رنزا:

ـــ وستستمرّ تأبى.

ـــ من قال ؟ صرخ الملك.

ـــ أنا قلت. وأجدادك قالوا من قبل. وآباؤك. وأنت نفسك تقولها اليوم.

فعاد المَلِكُ إلى هدوءٍ ماكر :

ـــ أجل أنا عائدٌ من حصار لصور لم أصبر له حتى يؤتيَ ثماره. ولكنني جئتُ بك وبرفيقات لك يجري في عروقهن دمٌ مَلَكي. وجئتُ أيضاً بابناء ابطال، بابن الملك بالذات. اسيرات واسرى سأحطّمهم، ان تململت صور في غير صالح أشّور. احطمهم كما افعل بهذه الكأس.

وضرب أشّور بانيبال بكفّه على كوب ماء كان أمامه فطحنه، ولكن دماً غزيراً نفر من يده فضرّج ثوبه والطنفسة التي عليها يتكئ.

وسارعت الاميرة الصورية إليه، امرت عبداً بأن يأتي بماء كثير وضماد.

ولمّا تأخّر جئت أمام الملك ومزقت اطرافاً من البستها الفضفاضة، ثم صبّت على الجرح من شراب الأباريق، فيما كانت أسنان أشّور بانيبال تتأكل شفتيه تجلّداً.

وإذ انتهت من شد الضِماد راح يضحك:

ــ أرأيتِ، قال، أرأيتِ كيف أنّ شقيقة مِلكِ صور تخدم ملكَ أشّور.

ــ تخدم ؟ ان لعَمَلي مغزىً آخر، يا أشور بانيبال. انت الآن جريح. اما المقاتل الذي في ثوبك فقد كان له ان يذوق طعم نبالنا وحجارتنا، ويتعرّفَ إلى نيراننا الساحقة الماحقة تحت أسوار صور. تقول انك اسْرتَ نسوة منا بينهن اميرات ؟ شرفٌ لسلاحنا العريق أن تتقلده النسوةُ أيضاً.

« بلى، عَقِب انكفاء إيلولاي إلى قبرص، ارتقى عرشَنا صنيعتُكم إيتوبعل. لكن حليفتنا مصر ضمّدَت جراحها في سهل أكرون وصمدت لكم في مصر السفلى حيث تراجع سنحريب إلى نينوى هارباً أو يكاد.

« ونعِمنْا بالسِلمِ بفضل دهائنا يوم سلاحُنا مُصاب. حتى ثار عليكم عبدَ ملكوت عاهلُ صيدون.

« تغلبتم عليه نعم، ولكن بعد أن فصدَكم فصْداً. ومات شريفاً بحدّ السيف.

« وهادنتم بعلاً في تسوية وتبادل منفعة. لكن صور ما لبثت ان ثارت، يؤازرها تحالفها مع تاهرقا المصري.

« حاصرتموها. ولكن عبثاً. ورحتم تنقشون على الانصاب انكم قُدتم فرعونَ مصر من شفته. ومثلَه ملك صور.

« أقوال... أقوال... بها تخدعون الناس، وانما انفسَكم تخدعون.

« وجزيرةُ صور، صورِ الأبطال، ما تزال بِكْرا لم تُمس.

« وهذا أنت تَخِفُّ إلى غسل العار. تهاجمُها. فبماذا تعود ؟

« ببعض نسوة وبكأسٍ متى شئْتَ تحطيمَها، مهدّداً صور، جرى الدم من يدك سكيباً.

« حاولِ النوم، حاول النومَ، ايها الملك. انت تَعِبٌ، يا صديقنا الأشّوري، لقد نزف منك دمٌ كثير ».

* * *

— جئني بالامير يهاف، صرخ أشور بنيبال بتابع له عملاق، جئني بيَهاف مِلْك. ما بالك دَهِشاً كالوتد ؟ جئني بأسيرنا ابن ملك صور.

فلم يتحرّك الرجل. وبعد هنيهةٍ انحنى حتى لامس الارض، ثم قال:

ــ عفوَكَ، يا مولاي... قابَلَتْه عمّتُه، عمتُه رنزا بعل، وكانت متأثرة كئيبة، فاذا هو غاضب. ولقد ضرب حارسه بحدّ السيف فصرعه.

ــ إلى هنا ! قال أشور بنيبال بمكْر، تركْنا له سلاحه مبالغةً في الاكرام، فبالغ بدوره...

كان الامير يهاف مِلْك مديدَ القامة، نَزِقاً لا يُطيق مزاحاً.

هو من رهائن أشور بنيبال وأسراه. عَلِق في فخّ الأشوري نتيجة ثقته المسرفة بما له من فصاحة لسان. ظنّ انه، لمحض مقابلة الملك، سيقنعه بفكّ الحصار عن صور وبالعودة إلى بلاده. ولكنه لقي غير ما كان ينتظر: أمر أشور بنيبال بوقفِه واقتياده في ركابه إلى عاصمة أشور.

وفيما كانوا يدخلونه على المَلِك نهض أشور بنيبال مصطنعاً التكريم:

ــ قتلتَ أحد حُرّاسك ؟ فاجأه بالسؤال، وهو يدله على مقعد يقتعده، لا بأس لا بأس، ولاولاد الملوك حَقٌّ على اعناق العاديين من الناس.

« كنتُ اعرف الحارس. كان عبداً واعتقتُه بيدي.

« وها انت تعتقه من الحياة.

« حسن... وقد تكون مُفضلا عليه أكثر...

« كان سمجاً أحياناً. اتراه أغلظ لك القول ؟ ».

ــ لا، أجاب يهافُ مِلْك. كان دوماً جمَّ الكياسة. ولكنني اغمدتُ في صدره سيفاً عجزتُ عن اغماده في صدرٍ آخر.

فقهقه أشور بنيبال قهقهة تجلّد، ثم راح يُربِّت على كتف الامير الصوري ببعض العنف، كأنما يذكّره بانه هو هنا في أشور في قبضته يأمر بدقّ عنقه متى شاء. وقدّم له كأساً:

ــ إشرب، إشرب. ولكن قل لي، الآن، وقد فرّجت عن كرْبِك بقتل هذا العبد، قل لي لماذا خرجتَ من الأسوار في تلك الأمسية ؟ أصحيح انك كنت تجدّ عندما طلبت إلي فكّ الحصار عن صور ؟

فقال يهاف مِلِكْ :

ــ كنتُ واثقاً ببراهيني.

فازداد أشور بنيبال ضَحِكاً. واستطرد:

ــ صدّقني لم أكن استمع إليك.

« لم يكن يمرُّ ببالي أنكم حقاً ستثقون بي... وأن

بوسعي وضْعَ يدي على أحد منكم... عليك أنت مثلاً... أنت ابنُ المَلِكِ... هذا أمر له ثمن...

« لقد زِدْتَ حاشيتي بمن يجري في عروقهم دمُ المُلك.

« وبينهم اميرات...

« اميراتٌ حِسان كُنّ يقاتلن كالرجال.

« هُنّ الآن مثلك في أسر.

« كانت عندي منذ هنيهة احدهن... شقيقة الملك... »

ــ عمّتي رُنْزا بعل.

« لقد اخبَرَتْني بكل شيء ».

ــ بكل شيء ؟!

ــ أجل، وكيف انك تلاحقها كطفل. وكيف رقّت لحالك منذ اسابيع، عندما، في خيمةٍ على الفرات، رُحت تتبجّح فمزقتَ كفّك بتحطيم كأس.

ــ أوَما قالتْ أكثر ؟

ــ ما مِنْ أكثر، ايها الملك.

فراح أشور بنيبال يُرسل اصابعه في لحيته ويهزّ رأسه كاظماً غيظاً.

ثم عاد يتظاهر باللطف:

ــ الأميرة عمتُك في شرخ صباها... حسناءُ... حسناء جداً...

ــ كقلب الصّبح، أُكمل يهاف مِلْك. انها معبودة صور. ولكن لا لملاحتها وحسب.

« هي بطلة في الابطال.

« إياك أن تطمح إلى شيء، يا أشور بنيبال، أن لعمتي الفتيّة هذه كرامةً خليقةً برأسها الأشقر الجميل.

« بعيدةٌ هي عن حماية جيشنا. ولكن لها من نفسها جيشاً ».

ــ أوَلا ينفع فيها الوعيد ؟ سأل الملك بين مستفهم ومهدد. ورؤيةُ العبد مضرَّجاً بدمه أوَلا تحفِزُها إلى عِبْرة ؟ نحن أيضاً لنا مثلَك سيفٌ نغرزه في صدور الضِعاف ان شئنا.

وفجأة انتقل الملك إلى لهجة أخرى:

ــ ألا تُؤثّر في عمتك حِليٌّ وهدايا ؟ ان انوال أشور تنسج أيضاً أرجواناً. وفي خزائننا ما يختّم اصابع ألفِ ملكة بالزمرد والسفير والياقوت.

« أعرِضُ عليها ان تكون زوجتي الأولى. أجِبْ، يا يهاف، ما لك لا تحير ؟

فقال يهاف:

ــ أستَمِع اليك تحاول الفصاحة، يا أشور بنيبال... هذه بضاعتي...

ــ ما تعني ؟ صرخ الملك غاضباً.

ــ أعني انك بدأتَ تُجيد القول. اسمع: بقدر ما هي ناعمة الكَلِم، عمتي رنزا، رنزا بعل، عنيدة. وفي صمتها، أحياناً، جوابٌ ولا كَشكّ السنان في النحر.

فازداد أشور بنيبال رِقّةً. وراح يقول:

ــ عرفتُ ذلك. عرفت. ساعدني عليها، يا يهاف مِلْك. ولك بالمقابل حرّيتُك.

ــ رنزا بعل تتزوج عدوّنا ؟ إنّك لا تجدّ، يا أشور بنيبال. على تصرّف هذه المرأة يتوقّف مستقبلُ الشرف في مملكة صور.

ــ وإن صدقْتُك انها نِصْفُ مقتنعة ؟

فقهقه الصوري:

ــ عندئذ أُصدقكَ انك جُننت.

فكاد أشور بنيبال يخرج عن رباطة جأشه. ومدّ يده إلى كأس أمامه يستعملها كسلاح. سوى انه عاد وآثر تجلُّداً ممزَّقاً. وبدْل أن يضرب الأمير بالكأس قدّمها اليه.

ــ اسمع، يا ضيفنا العزيز، سأجيء برنزا بعل إلى هنا، وتصدقُك أذناك انها راضية.

ــ عبثاً، أيها الملك، عبثاً تحاول. أنا أعرف رنزا بعل.

فرفع الملك صوتَه وانفجر بالغضب كولد:

ــ ولكنها جثتْ عند رجليّ... يوم راحت تضمّد جراح يدي... أو يمكن أن لا تكون أحبّتني ؟

فأجاب يهاف مِلْك ببرودة:

ــ فَعلتْ إشفاقاً على جريح. والجريحُ عندنا هو كذلك ولو عدّواً. اما إن كان قد راودها هاجسٌ آخر... هاجسُ امرأة...

ــ إذن ؟! هتف المَلِك بأمل.

ــ إذن تكَفّر عن ضعفها بالنار ! تُحرَق !!

ــ منْ يحرقها ؟ إنها في عصمتي ؟

ــ هي تَفعل. حرائرُ صور لا يمحو ذلّهن سوى النار يجتنَها برضى باسمات.

وما هي حتّى دخل عبدٌ يقول:

ــ ماتت الأميرة رنزا بعل. أشعلت ناراً والقت بنفسها في اللهب.

كاد أشّور بنيبال يسقط على الأرض، فَرِحاً مَكرهُ ومحطِّماً قلبُه.

زارنا التاريخ

ذاتَ يوم قالت فتاةٌ صغيرة لشاعرٍ من بلادها كانت تحبّه وهو لا يدري:

ــ هذا الليل، والصُبح يكاد ينبلج، حلمتُ حُلماً عَجَباً ولكنه جميل !.

« قال... أنا مَلِكَةٌ بِعرشٍ وصولجان، وزارني التاريخ.

« قال... والتاريخُ، يا شاعري، لم يكن هذا الكتاب الثقيل الذي احمله معي كل يوم من المدرسة وأروح أجهد لإدخال صفحاتِهِ في رأسي الصغير. لا وإنما كان ــ كما يشاء الحلم ــ امرأةً ومدينة معاً.

« قال... دخل عليّ التاريخ وانا في قصر البلّور، مقرّي الشتوي المغمور أبداً بالثلج، أتفرج من داخله على مفاتن الطبيعة ولا أُحِسُّ قرسةً من برد.

« بلى كان التاريخ اثنين: صبيّةً حسناء تُسمّى أورب ومدينةً قديمة تدعى بيبلوس.

« أهلاً، بالتاريخ، قُلت.

« قال... ويُفتتَح الحديث ويروح التاريخ يتكلم.

« كيف ؟ هذا، يا شاعري، ما اعجز عن نقله اليك.

« أو يكون التاريخ امرأةً ومدينة في وقت معاً، ويروح يقصُّ القِصص من فمين مختلفين، واقدرُ أنا التلميذةُ الطفلة أن أستعيد جميع ما قال ؟

« ولكن ما لنا ولهذا. وعلى أيّ حال سأحاول.

« قال... كانت الصبية التي تدعى أورب بيضاء ولا كالغمام، بينما المدينة التي تدعى بيبلوس مباعدةً في القِدَم متعدّدةَ القِباب شامخة. أورب هي بنت الملك أغنّار عاهل صور ذي الاولاد الثلاثة الأبطال، أولئك الذين يبعد طموحهم من أمامي حدود الوجود، وبيبلوس هي حاضرة الدين والثقافة القائمة على شاطئ ساحر فوق جبَلٍ صغير، جُبَيْل له أسلاك من ذهب تمتد إلى آخر الأرض.

« قال... ونظر التاريخُ اليّ مقطّب الحاجبين، ورفع صوته بوجهي: كيف تَدّعين، يا ملكة الزمان، أنك واقفة على التاريخ ؟

« وما هي حتّى أخذتْه سَورَةٌ من غضب، وخُيّل إليّ أنّ صراعاً في داخله نشبَ بين المرأة والمدينة.

« بيبلوس تقول إنها أقدمُ مُدُن الدنيا. يتناقلون قولها هذا مؤرّخاً عن مؤرخ. إنها أُولى بنات إيل — إله الزمن — تجرّأتْ وانحدرتْ من عن أصابعه بينما كانت شقيقاتُها المُدُن وجِلاتٍ مرتجفات من برد.

« كان ذلك حوالي أوّل الدهر، ووالدُها متّكئٌ يكرع الهواء في سفح لبنان.

وأورب تقول إنها كانت كلَّ يوم تلهو في أترابها على الشاطئ، فيراها بحّارةُ المَمْلكة فيُجَنُّون، وينقلون حديث غرامهم بها إلى الموج، وهذا ينقله إلى شَفا المعمور.

« بيبلوس كَبُرتْ وأصبحت حاضرةَ القداسة والفكر في الدنيا، يقصد اليها الناس من الأربعة الاقطار يأخذون عنها حُبَّ المغامرة.

« قال... واهلها لم ينوا فقط اجملَ المعابد والملاعب وقِبابَ الغرانيت وأعمدة المرمر تُغنّي مع الريح والنور

والصاعقة. لكنهم، فوق ذلك، تجرّأوا على اقتحام مجاهل السرّ، غامروا في داخل النفس، غامروا في قلب الله.

« كُلُّ هذا في الحُلم، يا شاعري، في الحُلم دوماً. لك أن تُصدِّق وأن لا تُصدق. لكنّه هكذا كان.

« وأُورب سَمِع بها إلهُ الآلهة في الغرب. وقد يكون بطلاً سمُّوه هكذا لخبرته بصُنْع الآدميين من الصلصال أو بإلعاب الصاعقة على رؤوس الاصابع.

« هذا قام إلى مملكة أبيها، وبحيلةٍ غير بارعة خطفها وطار بها فوق أواذيّ البحر.

« ولو رويتُ لك، يا شاعري، قصّةَ الحيلة، كما انفضحت لي في الحُلم، لمنعتني من إتمام الكلام.

« بيبلوس راح الناس يتلقّنون على يدها العجب، يتذوّقونَ جمالَ ما تُبدع الأيدي، يطرقون بابَ المجهول، ولكنهم خصوصاً يتعرفون إلى الاشياء التي لا عهد بها في الأرض. الخوارق، مثلاً، « جنون الله الذي فوق عَقْل البشر »، كما يقول بولس. حتى لَيَزْعُم واحدٌ اسمه رعمسيس انه « قدّم لها، كما فاخر وكتب، هدايا تفوق رمل البحر ».

« وأورب قام اخوتُها الثلاثة كلٌّ إلى قارة يطلبونها من

البر والبحر، من البشر والآلهة. وكان لواحد منهم أن يحمل في ركابه النار والحرف والشعر والمغامرة، يحمل ذاك الذي عاد وسُمّيَ المدنية يَبْدرها حيث نزل.

« بيبلوس المدينة قالت جديداً، علّمت ان الآلهة ليسوا آلهة، وان ليس هناك سوى إله أحد يقدر على كل شيء، وان للانسان نَفْساً تهزأ بظُلمة القبر، تبقى إلى الأبد.

« وارتاح الناس، ما دام أنّ لهم من يقدر على كل شيء وانهم إلى الابد باقون.

« وأورب المرأة استوحشت، وهي في وحدتها بعيدة عن اهلها وزوجها مشغول عنها بخلْق الناس والآلهة. وهكذا براها الحنين إلى جَبَلٍ فوق صور والى جنائنه المعلقات عند الغمام.

« ذلك ان إله الآلهة كان قد نقلها إلى قارة بدائية لا مدنيّة فيها، قارة اشبه بقاع صفصف. ولكنه، لما رآها تكاد تذبل نضارتُها وتيبس من كآبة، قال: إكراماً لعينيك سأجعل هذه القارة الصحراوية اجمل قارات الدنيا، وباسمك أُسميّها.

« قال... ومِنْ يومها صارت القارة هي أورب وصارت أورب هي القارة.

« كيف ؟ هو الحُلم، يا شاعري، هو الحُلم فلا تسأل.

« وذات يوم نسيت بيبلوس كلّ شيء عن تاريخها الا فصلاً واحداً.

« كانوا على أرضها قد ألّفوا أوّل كتاب عرفه العالم، فراحت جميعُ لغات المدنية تدعو الكتاب « بيبلاً » مشتقة اسمه من بيبلوس.

« كذلك لم يعد احد يَسمعُ باورب، بنت ملك صور، وانما بات الجميع يتكلّمون على اورب القارة التي هي نبع المدنية.

« بلى، بيبلوس المدينة صارت الكتاب، واورب المرأة صارت المدنيّة ».

« وراح التاريخ امام عرشي يتغنّى بانه هو الكتاب والمدنيّة معاً. ويُسمّي نفسَهُ بيبلوس مرّةً ومرّة أورب، حتى لقد حرتُ كيف يكون الاثنتين معاً.ولكنّه الحلم هل أُصدّق الحُلم ؟ ».

كان الشاعر يُصغي إلى الصغيرة الفطنة تقص قِصّةَ ليلةٍ قضتها في صحبة الخيال.

أخيراً قال لها:

ــ هذه المرة صدّقي الحلم، يا فتاتي، وانما، على هذا

الكوكب الذي يُسمّى الأرض، ليس سوى اثنين: الكتاب والمدنية، بيبلوس واورب. وكلتاهما من عندنا، من الأرض التي نَمَتْكِ. إنهما سنّاً أكبرُ منك بقليل. ذلك عندما لا تتناسَين ان تكوني مِلكةً بعرش وصولجان.

« الحقيقةُ في الناس؟ إنها لتَبْلُغُ أحياناً حَدَّ الحلم ولا يصدقون ».

قلبُ الله

كان عروسان يحضران صلاة المساء، في كنيسة الموارنة، بباريس. وكان اليوم يومَ أربعاء، فلفت العروسَ قولُ الكاهن: « يا رب احفظ لبنان »، فسألته بعد الصّلاة:

— لمَ تخصّون الأربعاء بهذا الدعاء لوطنكم ؟

فحوّلها فوراً إلى مخطوط قديم اتفق ان كان أمامه على المكتب. ولمّا لم تفهمْ من خطوطه ولا كلمة راحتْ اصابعُ الكاهن تمرُّ على كل سطر تترجم النصّ بتقوى.

« ... في قديم الزمان، كان جبلٌ يعيش تحت البحر، تُعشّش فيه الاسماك وينبُت المرجان الجميل.

« كان الجبل وديعاً ولكن على أَنَفَة. مما أدّى به إلى نزاع مع بركان يسكن في الجوار. وكاد التنافس يتفاقم لولا أن فضّل الجبل هجرةَ المكان.

« ــ يَمنةً، قال في نفسه، أم يَسْرة ؟ لا هذه ولا تلك. وسأمضي صوب العلاء.

« ها هو الآن يَشقُّ اليَمّ تودعه الاسماك، صويحباتُه منذُ القِدَم، وداعَ الابد. الا طائفةً منها نَزْرَةَ عدد. وعبثاً يروح يُقنعها بأنْ لا قِبَلَ لها بالعيش في بحر الهواء. فتأبى الا أن تكون، ولو مدفونةً، حيث تَشمُخ قِمَمُه.

« أخيراً إنصاع لها لا يطيق رَدَّ سُؤْل.

« وظل يرتفع في ملاعب الريح حتى دنا من الشمس، فغمزَتْه أن توقّف. فقال: « آمنتُ بالنور أُطيعه ». وتوقف.

« وبات ليلتَه الاولى لم يَغمِض له جَفن. إذ أُخذت النجومُ تحجّه زائرة: الزُهرَة في الطليعة ثم رفيقاتُها. ويقال إن عُطارِد كاد ينسى نفسه في السفح عندما ازِف موعد الإياب.

« وقُبيل الصبح ــ وكان ذلك يوم أربعاء ــ لاحت له، في الأُفق العالي إلى الشرق، غمامةٌ تغذّ السير. وعندما قربت منه تبين أنها أربعة نسور.

« وفوق أول قِمّة واجهته فَتَحتِ الكواسرُ براثنَها تُفلت بذْرَةً من حَبّ عجيب لم يكد يمسَّ الثرى حتى راح يُطلع شجراتٍ لا عهد للارض بمثلها. وكان يرافق نموَّها صوتٌ يقول: « هديّةُ الربّ ».

« وما هي حتّى كانت غابةٌ كثيفة، شامخةُ الاعراف، تغطّي الجبل من قِمة إلى سفح.

« وفي ظل بعض الغصون، توقّف الاربعةُ النسور وترجّلت من على اجنحتها فتاةٌ كقلب الصبح.

« راحت الفتاة تسرّح نظرها على عطفات الجبل فتهزُّ رأسَها استحساناً ثم تمدّ يدها إلى أعناق الكواسر تربّت عليها. وفيما كانت دمعتان تتلألآن عند هدبيها قالت:

« — لك الحمد ربي، يا حنّان، يا إله السماوات.
هديتني الى اجمل بقاع الأرض.
لن أنسى.
سأكون وفية.
باسمِك سأدعو هذا الجبل.
فيخفُق بالحب كقلبك.
« لبّ حنّان » منذ اليوم يُدعى « لب أنان »، « قلب الله ».

« ثم التفتت إلى الأربعة النسور وبايماءة سعيدة أمرتها أن « انطلقي في طلب مأكلٍ لي ومشرب ».

« وعند الظهيرة، كانت الكواسر الأليفة تحطُّ تحت الأرز من جديد، وقد حملت غذاء الحسناء دِدِتّا أوّل من سكن لبنان.

« سوف تأخذ دِدِتّا من الجبل ان لا تنام على ضيم، أن تشغف بالرحيل صوب العلاء. وسيظل يرنّ في أذنيها نداءُ البحر، مهد جبلها، اما الجبل فيتعلم منها كيف يكون موطنُ الذين رَبُوا على أجنحة النسور.

« وتبني دِدِتّا فردوساً في جوار الغمام تستنبتُه أجمل الزهر وتقيم فيه آلفَ الطير وأشدّ الحيوان.

« وتكرّ السنوات هانئة.

« حتى يوحش دِدِتّا أن لا إنْسَ في الارجاء التي تجاورها، لا إنسان يحنو على صدرها وتستمع إلى خفقان قلبه.

« وتحلم بأن يكون وطنُها أسبق الأوطان إلى إيواء الخليقة العاقلة.

« ما هي من الأرض تلك التي وُلدت، لا يُعرف أين، على أجنحة الأربعة النسور. فلتنطلق الأربعة النسور صوب بعض النجوم تجيئها بالأمير الفتّان الذي سيَمدّ اليها يدين

خَشِنَتين كصخر الجبل، بهما يبني معها أجمل ممالك الانسان وأبعدها سطوة في الكوكب الصغير.

« ويكون عرسٌ عظيم على قمّة جبل عظيم ».

وما ان كفّت اصبع الكاهن عن السير على القرطاس القديم، تعلن نهاية القصة، حتى كان العروسان قد تبادلا نظرة ملؤها الفرح لاهتدائهما إلى « دِدِتّا » اسماً لولدهما البكر ان هو كان بنتاً.

سوى أن العروس ما لبثت ان ارتبكت وقد خطرت لها خاطرة بالذات. فسألت الكاهن:

— ولكن قل لي، يا ابتِ، أوَلا تذكر المخطوطة اسم الأمير الذي جاء من بعض النجوم ليتزوج دِدِتّا ؟

لا، أجاب الكاهن، ليس في هذا النصّ سوى اسمين اثنين: « دِدِتّا » حسناء الأربعة النسور، « ولبّ أنان » قلب الله.

وتبادل العروسان نظرة ثانية ملؤها الفرح.

إيلولاي

ـــ أنتَ بنفسِك ؟ لا ورحماك.

بهذا ضرعت إلى الملك إيلولاي زوجتُه الحسناء، فيما كان يُفلت من يديها.

عبثاً كانت قد حاولت اقناعَه بأن لا يَتْرك صُور، صُور الجزيرة.

ومن يدري ؟ فقد يكون بين البحّارة فوضويٌّ أشّوري. والنزول إلى الأسطول مجازفة. والملك البطل هو عندهم رمز الصمود وقائده، فإن اصيب بأذىً باتت صور في خطر.

أشّور يومئذ تَعرِض أبهظ المكافآت على الذي يقتل مَلِكَ صور، هذا الذي ما انفكّ يقاوم حصارَها منذ سنوات خمس طوال.

وما إن غاب إيلولاي عن انظار الملكة حتّى ادارت عينيها اللوزيتين التعبتين إلى ارض القاعة، فإذا إلى جنب العرش فتاةٌ كقلب الصبح تخرج مرتعدة من بين ستائر الارجوان.

ــ رَايْشا ! هتفت الملكة.

إنها بنتُها. ركضت اليها وقد سمعت ما دار من حوار بين أبويها الملك والملكة.

ــ ذهب ! ذهب ! لماذا لم تتعلّقي به أنتِ، لماذا لَمْ تتشبثي بأذياله ؟ لعلك كنتِ أوقفتِه.

فأجابت الأميرة:

ــ ولكنّه قال انه سيقوم بعمل عظيمٍ على رأس الأسطول.

ــ عملٍ عظيم ؟ أو سَمعتِه يقول هذا ؟! صرخت الأم قَلِقة.

ــ كيف ! أوَلا تتذكرين ؟ لقد كان، يا امّاه، حازماً فيما كنتِ أنت تجهشين بالبكاء.

كانت صور لم تنس أنّ تَغْلات بَيليزِر الثالث هاجم حيرام الكبير. كان لم ينقضِ ربْعُ قرن على انتصارات الأشّوري على حليف داود وسليمان، عنفوان صور الحديثة.

كان حيرام الصوريّ ملكَ صيدونيا كلها، وكانَ عَمْره يمتد من قبرص، هنا على مرمى حجر، إلى القسيتيريد عِبْرَ الأوقيانوس فوق.

ورؤيته يُصرع في ابّان مجده ليست من الامور التي تُنسى.

ولم تكن لتُنسى كذلك خيانةُ الملك أحاز الذي، لخلاف بينه وبين الملك بكاه، راح يستنجد الأشّوريين على خصمه وحليفِ خصمه رزين، عاهلِ دمشق، فيخفَّ تَغْلات بيليزِر إلى دمشق يقضي على رزين.

لقد تبدّل الوضع في الجوار: قويت أشّور وحلفاؤها. فكان من الضروري أن تتحرك صور تفتُّ من سلطانها المتعاظم.

أعلنت انتقاضاً على علاقتها بأشّور. فخف سلمناصر الخامس، خليفةُ تغلات بيليزِر، يردّ عليها.

جَيّش حملةً بحرية من ستين سفينة، معظمُها من الاسلاب التي حصل عليها في صيدون وبيبلوس وارواد.

ولكن أسطول صور، الصغير المَرِن، خاض معركة اظهر فيها من البطولة والدُربة ما دمّر أُسطول المهاجمين المتفوّق عدداً وضخامةً وَحَدات، وأخذ من رجاله خمسمئة أسير.

ورأت أشّور ان لا بُدّ من حصار بحريّ طويل النَفَس، قد يستغرق شهراً أو سنة.

وها هي سنواتٌ خمس طوال تنقضي والحصارُ لا يظفر بصور.

لكنّ صور هي أيضاً لم تنتصر. ترى هل نفد صبرُ إيلولاي، ملكُها البطل، فعزم على تسديد الطعنة التي تفكّ الخناق عن مملكته وتعطي المغزى النهائي لتلك الشجاعة الصابرة ؟

ـ أمّي دعيني أنزل إلى الأسطول، قالت الأميرة.

ـ أمجنونةٌ أنت ؟

ـ لا بُدّ أن والدي مفكرٌ في عمل جَلَل. يجب أن أعضده. كل فتاة في صور تُفكّر في عمل شيء. أوَ أتخلف عنهن ؟

ـ أحذّرك .

وتركت الملكة القاعة.

في المساء كانت الأميرة تُنصت إلى حديث ضابطين من الأسطول:

ـ يريد المِلِكُ أن نهاجِم في منتصف الليل. إنّي أتوقّع نصراً ولكن غالياً. قد نخسر نصفَ سفننا. قوادُ أشوّر يُديرون المعركة وهم متخلّفون عن السفن. آه لو نتمكن من اضرام النار في سفينة القائد الأخيرة، بَعْل شماي[1] بَعْل شماي، أيُّ رعب ننزله إذن في اسطول أشوّر.

ـ ولكن أنّى لنا أن نصل إلى ذلك واسطولهم محدِقٌ بنا من كل جانب ؟ دعكَ، دعكَ من ملاعبة المحال.

انتصف الليل، والقواد ينتظرون اشارة الملك إيلولاي. كان الملك قد جاء بنفسه يدير القتال البحري. واذا بالنار تتعالى فجأة في سفينة أشّورية كبيرة تضرب بعيداً في عرض البحر.

وكانت معركةٌ ضارية، إلا انها غير طويلة النَفَس، في نهايتها دُحر أسطول أشّور وتنفّست الصعداء جزيرة الصوريّين الحسناء بعد خمس سنوات من الحصار الخانق.

---

١) يا إله السماء.

ورايشا بنتُ الملك ؟ رايشا الفتاة التي كقلب الصبح ؟

إنها لم تعد ليلتها إلى القصر.

ولا فيما بعد !

السيف الذي ينتظر

كانت الممالكُ الفينيقية قد خَنقتْ من مطامعها، ساكنةً إلى ما يؤمنّه لها من نفع مادي تَمَلْمُلُها بين الحياة والموت في الجامعة الأشورية.

الا صور. درّة البحر الأبيض، وسيدة الاقيانوسات.

كانت معتزّةً متشامخةً في ظل مليكها إيلولاي الباسل.

بيد أنها لم تكن لتنسى ان اساطيل سائر الممالك الفينيقية، العاملة لحساب الجامعة الأشّورية، قد استولت على قبرص.

وقبرص، احدى أجمل مستعمراتها القريبة !

أكيد ان ممالك الجامعة لا يسعها ان تمنع تدفّقَ البضائع الصورية على الجزيرة الخضراء. لكنها بمستطاعها، متى شاءت، ان تعرقل نشاط المراكب.

صور ساكنة ؟ نعم، سوى ان ناراً تتأكّلها من أجل استرداد الجزيرة الخضراء.

أتراها تعمد إلى القيام بعملٍ حربي ؟

انتصارها، إلى سنواتٍ خلت، على سلمنآصر الخامس جرى بحافز من العنفوان القومي وارادة الحياة. كان فكّاً لحصارٍ يخنقها، حرباً إذن دفاعية.

الاستيلاءُ على قبرص يستدعي عملاً هجومياً.

وهل هو في مقدور صور، وأشّور، سيدةُ الجامعة، لا تزال قويّة قويّة ؟

سياسةُ صور قائمةٌ على اعتماد الدفاع وعلى دبلوماسية مرنة وصارمة في آن.

على أن الأشّوريين هم انفسهم بدأوا الحصار...

ها هم يطوّقونها برّاً بجيوشهم العديدة، وبحراً باسطول الجامعة، وهي رابطةٌ مؤلفة من ستَّ عَشْرة مملكة.

حصارٌ جديد !

جسّ إيلولاي نبضه فلم يجد فيه ما يُخيف مدينة البطولة.

وفي الليل أصدر بياناً إلى الرعيّة مفعماً بالامل.

ــ ثبت لعملائنا، قال الملك، ان الجيـوش البريّـة والوحدات البحريّة الي تطوّقنا ليست سوى خُمْسِ ما كانت عليه قواتُ سلمنآصر.

« بطولتكم عرفت يومئذ كيف تصمد للحصار، كما أن نُزْوةً منكم شريفة عرفت كيف تسدّد اليه، بعد أن وَهن، ضربةً قاتلة.

« لن أقول اصمدوا سنواتٍ، كما فعلتم، إنما أشهراً.

« ثقوا بي كما اثق بكم.

« صور لا تُغلب ».

كانت الملكة لا تزال في حدادها على بنتها رايشا الحسناء التي كقلب الصبح، بطلةِ فكّ الحصار. وأُثِرَ عنها انها لم تخرج من قصرها ولو لحضور حفلات النصر.

أما الآن، وقد بدا في الأفُق خطرٌ جديد، فقد شوهدت مع الملك تتفقد الأسطول.

وقال بعضُ الجنود إنها بَسَمتْ لهم. فقدّروا لها ذلك وراح هُتافُهم يشقّ السماء.

لم يخطئ إيلولاي في وعده بفكّ الحصار. وما انقضت ثلاثة أشهر حتى تراجع أسطول العدو فاقداً ثلثيه.

وتبعه الجيش البّري.

قويت شوكة إيلولاي وطار صيتُه في العالم. فجاءَه رُسُلٌ من قبرص يطلبون اليه أن ينتقل إلى الهجوم ليستردّ الجزيرة الخضراء.

وإنعقد البرلمان الصوريّ في جلسات اربع تقرر في نهايتها تقوية الجيش والاسطول تحسُّباً لعمل خارق.

قبالة الجامعة الأشّورية، التي تخضع لها سائر الممالك الفينيقية، ألا ينبغي إنشاء جامعةٍ أُخرى ؟

وهكذا وُلدت « العصبةُ البحريّة ».

تزعمتها صور ودخَلتْها صراحةً مصرُ وعسقلانُ واكرون. وكانت ارواد وبيبلوس وأشدود وغزّة وسواها من المتطلّعات إلى مشايعتهن.

وكانت الاشارة.

صور تحرّض الممتلكاتِ الأشّورية وتساعدها عسكرياً.

وتحركت أشّور. جرّدت جيشاً التقى المصريين امام اكرون فدحرهم.

كانت المعركة صاعقةً بحيث أثارت الرعبَ في ممالك شتى. ولمّا حَلَق الجيش الأشّوري حَلْقاً كل خيرات اليهودية، خفّ حزقياس ملكها يقدّم خضوعه لسنحريب الملِك الأعظم.

وفتَّ ذلك في عضد ارواد وبيبلوس وأشدود وغزّة، فتمنّعْنَ عن تقديم المساعدة السرية التي كنّ قد وعدن بها.

وهكذا بقيت صور لا يُساندها الا عسقلان واكرون ومصرُ المُصابة.

سوى أن العصبة البحرية، بالرغم من هذه التخلّيات، أبت أن تهادن. فقاتلت بدولها الاربع على جبهاتٍ شتى تمثل جيوش ستَّ عَشَرَة مملكة.

تفوُّقُ العدد لم يكن ليفوتَ أحداً.

أخيراً انعقد البرلمان الصوريّ على جناح السرعة، وثلثُ أعضائه، الذين هم زهرة شباب صور، متغيّب في ساحات القتال، واتخذ قراراً بان يطلب إلى إيلولاي الملكِ البطل ان ينكفئَ بشخصه إلى قبرص حيث أنصار صور متفوّقون.

وقام وفدُ المدينة إلى خَطّ النار يطلب مقابلة الملك.

فلما علم إيلولاي بقدومهم أوجَسَ شؤماً. فأعلن أنه لا يقابل أحداً وأنه يفضّل الموت وسيفُه في يده.

حتى إذا قيل له: « إن في الوفد أحبار المدينة الاربعة » أذعن وقام إلى مقابلتهم.

راحت سفينة كبيرة تشق عباب اليمّ تقلُّ إيلولاي وعائلته إلى الجزيرة الخضراء.

وكان الجميع يعتقدون أن العبقريَّ الحربي سيعرف أن يتدبر الامر هناك، حتى تواتيه الظروف فيعلن الانتقاضَ واسترداد المجد المفقود.

الا أن إيلولاي، وقد توقّع أفولَ نجمه وحدَسَهُ حَدْسه بانه لن يعود إلى صور، القى في البحر، في المكان الذي احترقت فيه بنتُه البطلة، سيفَه الطويل الضخم بعد أن حفر عليه بالذهب آيةً بقيت سراً.

زعم بعضُهم انها تقول:

هذا السيف هو خليق بلكِ، أنتِ الحية هنا، أكثر منه بي، أنا الميت هناك.

وذهب آخرون إلى انها تقول:

سأعود الى تجريد هذا السيف من جديد، بعد أن يكون قد بقي في حرز مَن لم تتخلَّ عن خط النار.

والى قرون عديدة، بقي الفتيان من عُليا عائلات صور يغوصون كلَّ يوم في البحر، يفتشون عن السيف الذي يقال إن مَن يعثُر عليه يبني للمدينة الخالدة مجداً لم تعرفه مملكة.

الطائر العجيب

كان الطائرُ العظيم على وشك أن يصل. فاللبنانان في تهيّب. إذ لا يجوز أن يرى الطائرَ فِينِقْسَ أحد. ذاك الذي يعيش الفَ سنة ويفِدُ من قلب الشرق كلَّ خمسين أو مئة، ليحترق بالعنبر والطيب فوق هيكل الاسرار في لبنان، وبعد أيام ثلاثة يستعيد الحياة ليؤوب إلى موطنه في قلب الشرق.

كانت القُشَعْريرةُ قد سَرتْ في التلال والسهول، وفي موج البحر. والناس واجمون يتبرّكون بدنوّ الهنيهة التي سَيَحُطُّ فيها فينقس على أرضهم، إلاّ ريسى، ابنَ الكاهن الاكبر في جبيل.

ـــ سأحدّق اليه، قال، سأسألهُ ما شأنه، هذا الطائر العجب ؟ ما حكايتُه ولِمَ يقصد الينا، نحن، دون سائر الشعوب ؟

هي المرة الاولى التي فيها يهتمُّ الشاب المزهوُّ بسرٍ من اسرار الدين. وانما تطوافه في المعرفة كان قد افضى به إلى برودةٍ في الايمان.

الاّ أن كاهن إيل شعر بمثل تجديفة تلطّخُ الجوّ، فلم يلبث أن أغمد النظر في عيني ولده :

ـــ بصرُك إلى الارض ولا تتفوّه بكلمة.

ـــ تُرهات ! قال الفتى الثائر، أريد أن أرى، أن أعرف.

كان، هناك، شَمعَدانٌ ضخم، مسبَّعُ الفروع، يقتضي تحريكُه عشرين رجلاً، فهجم عليه الكاهن بجسمانه الضخم وكَمَنْ أُعطيَ قوةً غير بشرية لكأه بكتفه، فسقط على الشاب وغيّبه.

فعَل. وراحت أبصاره تُخرس بسلطانها كلَّ استغراب وتمزّق الصرخة على شفاه الناس.

واستمرّت الحناجر تنطلق بالاناشيد، كأن لم يُقتلْ، بيد والده، أجملُ فتيان كنعان.

كانت رائحةُ العنبر قد تضاءلت، إيذاناً بان الطائر المقدّس أتمّ تضحية نفسه، والناسُ قد آبوا إلى بيوتهم من تلك الحفلة التي اصطبغت، هذه السنة، بالهول والدم، عندما انهار الكاهن على الشَمْعَدان المسبَّع ينتحب كطفل.

ظنّ أن أحداً لا يراه.

ولكن إيكايا، ذاتَ العينين الزرقاوين كسماء شامسة، كانت تطالعه بجُماع نيساناتها السِتّةَ عشَر.

وعندما ركضتْ اليه ولفْتتُها أوسع من عينيها الضائعتين، أجاب عن سؤال لم تتفوّه به:

ــ بلى، مات!

ــ ولكن... انتَ، انتَ نفسُك، الا تقدِر ؟...

ــ لا، لا يجوز لي أن أُلقي عليه من رَماد الطائر المقدس. رمادُ فينقس حيّ، ومن مسّه أيقظ الصاعقة.

فصرخت الفتاة:

ــ أنا أمسُّه.

عندما عاد ريسى إلى الوجود كان قد خبِر سرّ الموت والحياة.

وخبِر أكثر: حُبَّ إيكايا، ذاك الذي يقيم من موت.

وفيما الكاهنُ ينتظر انخساف الارض بالمدينة، كانت الدنيا على خير حال، والعصافيرُ تملأُ الصحو سجعا.

في المساء، تحت ظلّ ياسمينة قصرهم، كان ريسى يناجي إيكايا:

ــ بتّ أُؤمن بان الجمال وَحْدَهُ يحيي.

ــ لا تجدِّف، يا ريسى. لا يحيي الا ايل.

ــ ايل، قاطعها ريسى، وهذا الهدب المضيء.

ــ لا تقل، لا تقل، وانما احياكَ رمادُ الطائر فينقس.

ــ إيكايا، لا تهزِلي.

ولما سكتتْ أكمل:

ــ أنا لم أحصِّل العلم فقط في صور العظيمة. لقد ولدت في مملكة رَحُوب القائمة في السهل الأنيق بين اللبنانَيْن حيث أخذتُ الحرف عن أمي، واخذت عن كهّاننا كلَّ ما خبأته كتُبُ السِحْر. وانتقلت إلى مملكة معكة في سفح الحرمون، فالى جشور التي على تخومها، فالى يَطورَ الغنيةِ بالغمام والحكمة. ومنها يممت شطر ارجوب، فباشان التي على كتف الاردن اتزوّد منهما باسرار سير الكواكب. وجئت بيريت ذاتَ المكتبة الفريدة في اخبار الأمم وقصص التكّون. وكان لم يبق امامي من ممالك آرام

سوى جبيل عَهْدَ قصدتُ ـــ وانا لا ازال لهيفَ المعرفة ـــ معاهد صيدون الجميلة. هناك بدّلت الكثير من ثياب عقلي. ثم زرت على التوالي ممالك عكّا وأكشاف في سَفْحِ الكرمل، وحاصور التي على بحيرة الحَوْلة، وأفيف التي في الأعالي قِبالةَ الحرمون والجلجال وعيُّون أغبُّ من تحت تلك القباب الشامخة آخر كلمات المعرفة. وحملت نفسي إلى أرواد، صاحبة الارث البحري، فالى قَدَش على الأورونت آخرِ تخمٍ لارضنا حشدنا فيه ما نَمدُّ به العالَم من فكر وفنّ.

« سبْع عَشْرَة مملكةَ من ممالكنا عايشتُ علماءها فلم أفد ما ينقعُ من غُلّة.

« واذ يُلبّي ابي نداءَ جبيل متسلّماً كهنوتَها الاكبر، أُرافقه إلى الحاضرة الوحيدة التي لم أكن زرت، لا أملا بتهدئة قَلقي بل نزولاً على ارادة والدٍ صَعْب سليط تساوى عنده الموتُ والحياة.

« وكدت اغرق، في جلال الطقوس الدينية، وأناقتها، وبخورها، وأنا لا اؤمن بان وراءها شيئاً. وتَمُرُّ بي عذارى كنعان وآرام كأنّهن دُمى. وانتِ، انت نفسكِ، لم

اكتشف دنيواتِ عينيك الا هنيهةَ أمرتا الحياة بان تقبّل جُثتي.

« اليوم، اليوم... ما أدري... يكاد شيء من كياني يتزلزل ليُبنى من جديد ».

فقالت إيكايا:

« أصغِ، يا ريسى:

« اخذتُ عن جدّتي ــ أمرنِ نسوتنا خاطرةً وأوفرِهن حسناً ــ ان بلادنا كانت اوّلَ من عَبَد الإله الأحد، مبْدِع السماوات والارض، لأنه فيها انما بثَّ الحياةَ العاقلة، صبيحَةَ عهد الارض بالعقل.

« ولكنّه فرض على الخلائق فرائِضَ صعبة، تَعْدِل ما وعدَها به من مجد. وهكذا مال عنه أهلُنا وعبدوا مِنْ دونه ما هو صنعُ يديه: عجبوا للزمان، كيف يكرُّ ولا انقطاع، فألّهوه، ثم للشمس، كيف تعطي الحرارة التي تنمي الحياة، فجعلوها هي أيضاً إلهة. وحَسُنَ في اعينهم ذاك وهذا من أبطالنا والبطلات، فراحوا يؤلّهون ما شاء الخيال، فكان البعليم وكانت البعلات. واذا عدد من ممالكنا مشيدٌ على اسم هؤلاء: صيد ــ إيون، جب ــ إيل، بعل ــ بَكْ. اما

إيل المحبة فلم يبقَ عندنا من رحمته سوى وَعْد. وعدٌ بأن يجيء يوماً ويردّنا إليه ».

فسأل ريسى:

ــ يجيء هو نفسُه إلى الأرض ؟

ــ هو نفسه، ويعيش عيشتنا، ويكدح في الحقل كدحنا، يشقى ويموت ويُدفن في التراب، وفي اليوم الثالث يقوم.

ــ تماماً كما يقولون عن الطائر !

فقالت:

ــ ليس فينقس سوى رمز الوعد. ومن آمن بالوعد، قَبْلَ إتمامه، أحياه محضُ الايمان. الايمان حبٌّ. ولقد احياك فينقس على يدي لا لشيء آخر. اني مؤمنةٌ اكثر من والدك الكاهن الاكبر، وهو الذي لم يكن ليظُنَّ ان الحُبَّ يُسكت الصاعقة.

« ولم تقُلْ جدّتي شيئاً عما اذا كان الوعد سيتمّ عندنا أو لا. ولكنها قالت إنه، تعالى، سوف يعتمد، يوم يجيء الأرض، بمياه من ثلج الحرمون، جبلنا البهيّ المحبّ، وهو الذي إنما أُقيم صلة إلى الابد بيننا وبين الآخرين ».

وظلّت إيكايا، تبثُّ هذا البثّ، والمؤمن الجديد يسرّح

نظره على أجمل مخلوقة في كنعان وآرام، تلك التي لكثرة حُبّها أُعطيتْ أن تحوّر في نواميس الوجود: مسّت رماد الطائر فينقس وقالت للموت: « مُتْ » فمات.

عَبدُ نِيل

كان داريوس قد لعِبَ بمقدَّرات العالم سحابةَ ثلثٍ من قرن.

أما اليوم فهو منطرح على فراشه والمعمور شاخصٌ إلى القدر ينتظر قولته فيه.

لقد خرج نرغالُ، كبيرُ الأطباء، من لدنه متهللاً باسماً. وسمعه الكثيرون يضحك.

ـ الملك، قال، انه لَيفضلكُم جميعاً عافيةً وإشراقَ وجه. ومرّة أُخرى سيكون على رأس الجيش.

فضجّ التَّبَعُ فرحاً، وراحت حناجرُهم تهتف لداريوس.

وكان داريوس قد سمع قول كبير الاطباء، فأوجس شكّاً في هذه الثرثرة الجهْوَريّة.

أرسل يطلب عبدئيل، معلم ابن زركسيس فيما مضى، ونزيلَ قصرِهم دوماً.

ولكنهم تأخروا في المجيء به.

ــ انه الحكيم الوحيد، قال الملك. كنتُ اعتمدُهُ في المُلمّات.

« عنده لكلّ سؤال جواب ولكلّ معضلة حلّ.

« وآونةَ يشُقُّ عليه أن يُجيب، يجد الكلمة المعزّية ».

وعاد الملك يصرخ:

ــ الحكيم الصيدوني ! عبدَئيل ! أين عبدئيل ؟

واذا باحد الخدم ينطرحُ على الارض يعفّر جبينه.

ــ تكلم، جأر داريوس.

ــ مات عبدئيل، منذ اسبوع، ولم يشأ أحدٌ إبلاغ مولاي الخبر.

ــ مات ! لقد قلَّ النورُ في الأرض !

وأخذت داريوس غَصةٌ تحزُّ منه في الحلق والصدر.

ــ كأسَ ماء، راح يهتف في مثل الهمس، كأسَ ماء.

فرفع احدُهم يديه إلى كُوْبٍ بلّوريّ، كبير، انيقِ اللفائف، وحمله كأنه حُقّ مقدّس، ثم بتؤدة راح يدفعه صوب شفتي الملك.

وما هي حتى خُيِّل اليه أن الملك يُدني منه لحظه بدلَ الشفتين. لكأنما عيناه هما العَطِشتان!

انهما لتكبران الآن. تكبران كثيراً. وتستدير حدقتاهما في مثل نجمتين تودّان لو تستوعبان الكون.

ــ هذا الكُوب! قال داريوس بتهيّب، إنه هديّةُ الحكيم الذي ذهب.

وسكت.

اما حامل الكوب فلم يكن يدري ما يعمل: أيردّه إلى مكانه أم يُدنيه من ذلك الفم المرتجف، لا يشرب.

وظلّ في حيرته مسمَّراً، والكوب يتلألأ في الفضاء مسمَّراً هو أيضاً.

ها هو الماء يضجّ صفاؤه وسط البلّور. ويتجعّد من آن إلى آن، مُسمِعاً مثل نبضة قلب كلما ارتجفت يد حامله، ولحاظُ داريوس المُتعبة الذاهلة تتأرجح مع الأمواج الدقيقة كخطوط حلم.

داريوس الآن يرى في التماع البلّور وتحرّك الماء صداقةَ شابٍ شالتْ به من حضيضٍ إلى عرش، ومن عرش مملكةٍ إلى سيطرةٍ على الأرض جميعاً.

كانت فارسُ، بعد موت قنبيز، عرضة للفتن ولألاعيب المغامر غومادا. حتى اذا ثار الاشراف على غومادا وقتلوه ومثّلوا به، راحتْ كلُّ ولايةٍ تنادي بالاستقلال عن الجسم.

ـ داريوس، كُن جريئاً، قال عبدئيل، فرِّق بين هؤلاء الطُمّاع من صغارة، قل كلمتك قاطعةً كالسيف. المُلْك انه غداً صائرٌ إليك. جاهِدْ، جاهِدْ عاماً واثنين وعشرة إن اقتضى الامر. أخمِد الثورات في آرامَ وبابل، في ماداي وأرمينية وهركانية وأشّور وفرتية.

« ليكن لكَ بلاطٌ مَهيب يعكس مجدَك في القلوب. نظّمِ الجيش فيغدو أجمَلَ وأمجَدَ قوةٍ في الشرق. وليكن لك منه صفوة لا تُضارَعُ ولا تنقُص. وسمّها « الخالدين ».

« عمِّر، عمِّر دوماً. واعتمد العلماء وذوي الاختصاص. ولتكن اعمالُك آخرَ كلمةٍ في الحضارة.

« المُلْكُ لك، يا داريوس، بقَدْر ما تخدمُه. وبهذا القَدْر يَشيلُ بكَ إلى النجم

« لا تُلقِ سمعاً إلى الوشاة. وليكن لك أعوانٌ يريدون خيرَ الناس. خيرُ الناس هو وحدَه خيرك.

« إجعل لمملكتك شرايينَ توزِّع الحياة: مواصلاتٍ تربط اطرافها بالقلب. وأمّن للحواضر العريقة، كصيدون وصور، تلك المنسلكة في عقدك، مجال اعتزاز وعنفوان. إجعل نظامك معها بمثابة حِلْف. وعليك بالحب ! الحبّ وحدَه يأسرُ الناس.

« افتح. طِرْ بفرسانك ومُشاتِك إلى الهند. إنّهم أشداء ولا يعُوزهم طموح، والتجارةُ حوّلها إلى شعبك لا اليك. طِرْ إلى اليمن، إلى البوسفور، إلى البلقان.

« ها أنتَ السيّد من الدانوب إلى الهندوس. ولكن هل قام ملْكُكَ على محض امتشاق السيف ؟ لا. وانما على الرأي السديد أيضاً.

« امضِ في ترقية شعوبك. امضِ وليشعرْ كلّ فرد من رعيتك بانه اليوم متحضّر اكثر منه بالامس، وغداً اكثرَ منه اليوم.

« اسطول الصيادنة هو لك. ملكتَ البر فاملُكِ البحر.

« ضَرَبَتْكَ العاصفة — حليفةُ الثائرين عليك — عند جبل أتوس، مغرقةً لك ثلاثمئة سفينة وعشرين الفَ رجل.

لا تأبه. هاجم الايونية، أهدم الارترية. وستدحرك قبضة من ابطال الاغارقة في ماراتون، وتثور عليك اجبتيا. اضرب اجبتيا وارتدّ إلى الذين قاسوا انفسهم بحلمك الكبير في ماراتون ».

وصرخ داريوس وكأنه يُحشرج:

ـــ والآن أين ؟ أين الصوت الذي كان يقودني إلى كلّ هذا المجد ؟ اين دليلي إلى الايونية، فأُرتُقَ ـــ على عادتي ـــ ما تفتّق من رقعة مملكتي الواسعة.

« عبدئيل ؟ اين وجهُ عبدئيل يلْتَمع لي في هذا الحَلَك المتكاثف ؟

« بلى بلى، ها هو الحكيم الصيدوني يتراءى لي. في هذا الكوب امواجُ بحرٍ كبير. هذا عبدئيل يجذِّف مندفعاً إليّ على مركب مثلّث المجاذيف. على واحد من تلك الطُراذفات التي لا تُصنع الا في صيدون حاضرة الحواضر.

« عبدئيل، إليَّ يا عبدئيل، إليّ إليّ ».

ولكن حامل الكوب كانت قد نفدت منه القوى واشتدَّ رجفانُ يديه، فسقط الكوب من بين اصابعه متحطماً وكأنما يوجع الحضيض.

لم يبق أمام عيني داريوس كوب صيدونيّ يلتمع، ودّع داريوس النور.

قنبيز الإلهيا

ــ معتَمَدُ صيدون... معتمدُ صيدون... تعرف أنه لا أَحَبَّ عليّ من استقبال معتَمد صيدون.

ــ ألا جعلتنا الآلهة خَليقين بهذه الثقة.

ــ إقتعد هذه الطنفسة هنا، إلى يميني. انه المكان الذي لملك صيدون منذ والدي العظيم.

ببساطةٍ عريقة نزل الصيدونيُّ على رغبة قنبيز، مكتفياً بأن شَكَر له بانحناء رصين وابتسامة صادقة.

ــ كيف كانت الرحلة ؟ سأل الملك، هل تضايقتُم في الطريق ؟

ـــ لا أيها المولى ولقد اقلّتني السفينةُ إلى مصر مباشرة.

ـــ والبحرُ ؟ هل كان سَلِساً ؟ ولكن الصيادنـة لا يعرفونه سلساً أو غاضباً. انه عبدُهم منذ الازل. أو ليس هذا ما تقولون ؟

ـــ غدوتَ تنظم الشعر، ايها المولى.

ـــ تظن. ومن يدري ؟ ولو انني دخلت مدارسَ صور منذ الطفولة لكنت برزتُ شاعركم ألشِبني...

قالها وراح يضحك.

ثم استطرد وهو لا يزال يمهّد ويؤخر لولوج الموضوع الذي من أجله استدعى معتمدَ صيدون:

ـــ أكيدٌ ان الصوريين يحبوننا. يا للشَعب الوفيّ.

ـــ اجل، ايها المولى، وهم لا ينسَون ان والدك قورش هو الذي ساعدهم على لمّ شملهم وعلى ترميم مدينتهم العظيمة.

فيقول قنبيز:

ـــ حقاً. اكاد لا أصدّق عناد نبوكدنصر. مدينةٌ تصمُد لحصاره ثلاثَةَ عَشَر عاماً... حتى اذا سقطت أعمل فيها السيف.

« كان عليه ان يعامِل الصوريين كأنداد أكفاء.

« لسوف يكونون سبَب مجده يوماً. سيقال: كان عظيماً لأنه تغلّب على الجزيرة التي لا تُغلب.

ــ صحيح أنك غدوتَ شاعراً، أيها المَولى.

« ومهما يكن فعلائقُ صور وصيدون بملك الفرس هي في مستوى الحِلْف الذي يُسبغ نِعَمَه على الطرفين.

« وعندنا أنّه كان عهدَ سعد ذاك الذي أحَلّ والدكَ على عرش الميديّين، ثم نصره على مملكة ليديا فعلى ايران وبكتريان وأخيراً على بابل.

« لقد وطّد والدُك مُلْكاً قلما دان لذي تاج ».

قال، وكأنما اثار قوله هذا كوامن تتأكل صدرَ الفارسي:

ــ ولكنّ والدي مات يحزّ في قلبه نقلُ الحرب إلى بلادِ الاغارقة، فإلى...

ــ إلى أين ؟ قال معتمد صيدون.

ــ إلى مصر.

فأكمل المعتمد يسأل:

ــ إلى مصر وحسب ؟ هذا أنتَ سيّدُ النيل.

قال قنبيز:

ـــ أجل وكان ذلك بفضل أُسطولكم.

« إن كلّ ما خَصّ به والدي ممالكَكُم من رعاية واصلاح وابقاءٍ على سيادة، لا شيءَ ان هو قيس بعونكم البحريّ لي.

« ولكن أجب، يا عزيزي المعتَمَد، إلى أيّ حدّ ستبقون نصراءَنا ؟

ـــ حرابُنا حرابُكَ ايها الملك، وحِلْفُنا مع فارس سيعمل أبداً. وسيضرب سيفُنا إلى جنب سيفك لا يستثني احداً إلا ربَّنا وأنفسَنا.

ـــ ربُّكم: انني سأُقدم له الذبيحة التي تقدّمون. اما « انفسُكم » فمن تقصد بها ؟

ـــ واضحٌ أنا، أيها الملك، وهل يُطلب من صيدون مثلاً أن تقتتل ؟ هل لأحيائها البحريّة أن تضرب شوارعها البريّة، كلا وايمُ إيل.

فحسر قنبيز عن وجهه قناع الرياء، وصرخ يستعلم صراحةً عمّا قصده المعتمد الصيدونيّ من تلك الأقوال:

ـــ اسمع، يا عزيزنا معتمد صيدون، أُريد أن أعرف ما قرطاجةُ منكم ؟

ــ قرطاجة ؟ إنها حيّ من أحياء صور.

ــ أُسكُتْ.

ولكن قنبيز قالها وندم.

ــ أتوسّل اليك، ايها المعتمد، أتوسّل إلى صيدون وصور العظيمتين، حليفتيَّ أنا بعد أبي، وصديقتيْ بلادي على الدهر، وأجمل درّتين في تاج مَلِك، ان تتداركوا سمعتي. لقدْ تحطّمْتُ، يا سيدي، هُزمتُ شرَّ هزيمة في الحبشة. معنوياتي تزعزعت. أعدائي في سُوس شامتون بي. لا يُنقذ شرفي سوى الاستيلاء على قرطاجة.

ــ ماذا تقول ! نرضى عنك في مهاجمتك قرطاجة؟!

ــ وتساعدوني أيضاً.

فشك الصيدونيُّ غير قليل. ثم وقف ومشى إلى الباب. حتى إذا بلغه ارتدّ إلى الملك وقال:

ــ لا، ولسوف تكون وحدك بعد اليوم، يا قنبيز. والذي بيننا من حِلف. ها أحد الطرفين ينقضه. كان حلْفاً جميلاً. قرطاجة بنتُنا، يا قنبيز، قرطاجة لن تكتَحِلَ بمرآها عيناك.

على قبر الحبيب

قبل أن تولد، كانت إلزا خُطبت إلى رَفْئيل.

كان كبيرُ الشيوخ في صور قد لفظَ، يوم المصالحة بين بيتيهما المتنافسين على التاج، كلمةً لم ينسَها أحد:

ــ إن أُعطي المَلِكُ بنتاً فتكونُ عروساً للامير رفئيل.

ويبدو ان إيل تعالى استجاب الدعاء، فرُزِق الملك بنتاً وسُميّت إلزا.

كان شعرها كضوء القمر، وكانت عالية الخصر، مشيقةَ الأنامل، حتى لقد سُميّت، يوم دخلت أول مرة إلى ندوة الشيوخ، « القامةَ المغنية ».

كانت تعرف أن رفئيل أُعِدَّ لها قبل أن تولد، فلا تُفكّر في ذلك إلا لِتُرسل ضحكةً مُبهمة عجزت صويحباتُها عن إدراك ما تحملها من معانٍ.

أتُراها مزهوةٌ أم هي هازئة ؟

الا أن رفئيل كان بهيّ الطلعة. أوّل فرسان صور إن عُدّ خيّالتُها، واجلدُهم على مواجهة الجلل إن تأزّمت الحال او تنافس الفتيان في التقشّف، وهو مذهبٌ فكريّ طلع به فيلسوف من جبيل وعَمّ طبقةَ النُبلاء في ممالكِ كنعانَ وآرام.

وفيما شهرةُ رفئيل تتعاظم، كانت السياسةُ تُباعد بين البيتين. حتى اذا بلغ الفتى التاسعة عشرة كانت الأسرتان على وشك امتشاق السيف.

هو رفئيل لا يلتقي إلزا إلاّ عَرَضاً، وقَلّ نادراً. تكلّمهُ بقدر ما يكون أبوها الملك قد حدّ من حدة غيظه على بيتهم.

وأخيراً كانت أشهُرُ انقطاع.

ــ حُلّت الخطبَةُ نهائياً، رددت إحدى ثرثارات البلاط.

ففهمت المدينة انه تصريحٌ كافٍ.

وذات ليلة، فيما البحرُ يصخب والسماء تهطل ميازيبَ تكاد تجرف حتى القصور المنيفة، كانت دارَةُ رفئيل الخاصة ــ وهي على الرابية، خارج المدينة، في غابة صنوبر يؤمّها مع رفاقه ايام الصيد ــ تَسمع طرْقاً على الباب.

ــ مَنْ ؟ سأل رفئيل.

ــ أنا إلزا.

ــ إلزا !

وهَبّ اليها بقلبٍ مشلّع.

ــ لا شيء، قالت، جئت لأطلب منك أن تهرب. انكشفت مؤامرتُك على الحُكم. نعم ستُحالون إلى القضاء، لكن العدل سيكون رهيباً ! رفئيل إنّ لك في قلبي فوقَ ما تظنّ.

قالتها وانسلّتْ كطيف.

الثورة لم تكن مهيّأةً كفافاً. لكن أحد قوادها شعر بأن السرّ انفضح فاستعجل اعلانها على غير علم من رفئيل قائدِها الاعلى.

وسقَطَ ضحايا كثيرون، وقُصد جيشُ صور. ولكن السيف الثائر تحطّم.

امتلأ سجْنا المدينة بالأشراف. اما العامة فقد جُعلوا في معسكر وثُقّلوا بالقيود.

والتأمت محكمة الثلاثين.

لم يكن هناك ادّعاءٌ عام. كان أحدُ القُضاة يتبنّى التهمة، فان لم تَثْبُت امكن المتّهَم ان يعود عليه مُطالباً بتعويض عن الشرف المهان.

ـــ اسمُك، جأر كبير القضاة.

فلم يتلقّ جواباً.

فتوجه إلى مدّون الوقائع.

ـــ أكتب: رفئيل بن أربا، عمره احدٌ وعشرون عاماً، أجمع أربعةَ عشرَ شاهداً على انه هو مدبِّر الثورة.

وإلى رفئيل:

ـــ سأتولّى الأجوبة عنك. متى أُخطئْ تقاطعْني. انني حريصٌ على خدمة الحقيقة.

واستطرد:

ـــ ثَبتَ أنك كنْتَ تُفسد المواطنين فرداً فرداً. تقول

لهم أن الحكم لا يصلح لأنه لا يؤمّن لصور نهضَةً خليقة بصدّ الاغارقة إن هم هاجموا، وانه يجب خَلْعُ الملِك وفَضّ المجلسين واحتلالُ دارَيْهما.

« وثبت أنك كنتَ تُلمع إلى عدالة رادعة. وسمّيتها أحياناً فقءَ أعين الملك والملكة وبِنتهما الأميرة إلزا، خطيبتك السابقة. انك ستنكر ؟

ــ لا، قالَ رفئيل، وجرحاً لمن وراءَك لن انكر.

ــ صحيحةٌ التهمة ؟

ــ صحيحة.

فسَرَتْ قشعريرةُ اشمئزاز في وجوه القضاة ولم يَبْقَ فردٌ يَعطِف على الأمير المتهم.

أبينكم واحد، قال الرئيس، لا يجرمّه.

ــ كلاّ ! صرخ الجميع بصوت واحد.

ــ إلا أنا، قال رفئيل، أنا نفسي لا أُجرِّم نفسي.

المتكلم ابنُ بيت عريق في الحكم، وذو حُرمة فوق الوصف حتى ليُعَدُّ الانوفَ الأول في صور. ثم هو شهير التقشّف، لم يُعْرفْ انه شَرِبَ خمراً أو تحرش بامرأة أو اغتاب أحداً أو نطق لسانُه بكَذِب.

ــ تشهد لنفسك، قال كبير القضاة مستهجناً.

ــ ولِمْ لا ؟ أولا يحقّ للمرء أحياناً أن يخوضَ في نفسه ؟ متى خُيِّل ان الواقع هو غير ما هو فعلى الذي يتضرّر أن يردَّ الواقع إلى السِراط.

« أنا لا أدفَعُ عن نفسي التهمة خوفاً من موت. الموت ؟ لقد غدا أحَبَّ اللذائذ اليّ بعد أن أصبحت بلادي سِجناً وأماني أمتي معفّرة بالتراب.

« سأروي لكم الحقيقة لا لشيء إلا لذّةً بالحقيقة. وأرويها كذلك لتجنيب العدالة الشطط.

« عدالة صور، لا يجوز لعدالة صور أن تخطئ.

ــ رُدَّ التهمة المنسوبة إليك، قال كبير القضاة متبرّماً ولا تُلق علينا درساً.

ــ ومن أكثَرَ مني، مَن يحقّ له القاءُ درس ؟(عُذْراً، أيها القضاة، على هذا الذي يبدو تبجّحاً). إن قول الناس فيّ إنني لا أكِذب لهو كل ما اقتنيت في حياتي. صحيحٌ أنني لا أكذب.

ــ تقولها أنت، قال أحد الثلاثين.

ــ وأنتَ أيضاً، قال رفئيل، لو رجعتَ إلى ضميرك.

فظَنّ الحضور ان القاضي سيرُدّ بأعنف.

ولكنه سكت.

فتابع رفئيل:

ــ على جوابك، يا سيدي القاضي، يتوقف مُضيّي في الكلام. قل الا تعتقد في قرارة نفسك انني لا أكذب ؟

فأجاب القاضي:

ــ بلى.

وَصفّق الحضور.

وبعضُ القضاة.

فقضم كبيرُهم رُدْنَ ثوبه وراح يعلن انهم ليسوا في مرسح.

ــ أتِمَّ، أيها المتهم.

ــ لن أتوقّف عند قولك، يا سيدي القاضي، انني كنت اعتزم فقءَ اعين الملك والملكة وخطيبتي السابقة. التهمة لا تليق بشمائلنا نحن الصوريين. سأخوض في ما هو جدّي: لقد نظّمتُ الحزب الذي عاد فقام بالثورة. وكنتُ في ضميري أعدُّه لها. ولكنني لا أعرف كيف أُعلِنتْ وأيٌّ من رفاقي كان المحرض.

ـــ ونركال ؟ قال كبير القضاة.

ـــ يستحيل. لقد مات الآن. المحرّض... المحرّض يجب أن يكون آخر. سِرٌّ لم أهتد اليه بعد.

ـــ ولن تَهتَدي. ليس ذلك في مصلحتك.

ـــ بلى، يا كبيرَ القضاة، لأنّه في مصلحة الحقيقة.

فشهقت امرأة بالبكاء إعجاباً بجواب رفئيل.

فأُخرجت:

ـــ تعترف إذنْ إنك كنت تضمر الثورة.

ـــ نعم.

ـــ وتعترف ان الحزب الذي أَلّفتَ كان لهذه الغاية.

ـــ تماماً.

ـــ أتعرف ماذا يترتّب على هذا ؟

ـــ تحاكمني، يا كبير القضاة، بتهمة إعلاني الثورة. اطلبُ تبرئتي من ذلك. وبعد فليتقدم منكم مَن يتبنّى الدعوى عليّ بأنني أَلّفتُ حزباً غايتُهُ الثورة. عندئذ لربما رحتُ أنا نفسي أجرّم نفسي.

فارتبك كبير القضاة.

وأوقف الجلسة.

واختلت المحكمة تتذاكر.

إلا أن صياحاً سُمع من داخل قاعة الاجتماع، وطال التشاور ساعات.

وعندما عادت محكمة الثلاثين إلى الانعقاد تلا كبير القضاة حُكماً طويلاً خَتَمه بإدانة رفئيل والحكم عليه بالموت صلباً.

ــ ما على هذا اتفقنا، قال أحد الثلاثين.

ــ بلى، أجاب كبيرُ القضاة، كنت أنت قد خرجت أوان اجمع القضاة على الادانة وعقوبةِ الصلب.

ــ كنتُ قد خرجت ! في حضوري لم يكن الاتجاه هكذا. ان في الأمر لَلعبة ! في الأمر ما يمسُّ شرف العدالة في صور. ان لم يُفضَحْ ما جرى في غيابي...

ولكنّه لم يكمّل. توجه اليه احد الحَرَس بطعنةِ حَربة صرعتْه للتوّ.

والتفت كبير القضاة إلى رفاقه كانما يحذّر من عاقبة مماثلة.

ــ ما قُضي به قُضي، قال، وسنَفتَح تحقيقاً في السبب

الذي أهاب بهذا الحارس ان يعتبر المحكمة أُهينتْ. ليوقَفِ الحارس.

فقال رفئيل:

ــ لا حاجةَ إلى ذلك، بل لتُوقف السياسة التي خلفكَ وخلف حريتِهِ. ماتت العدالةُ في صور.

في اليوم التالي، في اوائل الليل، عندما أُنزلت جثة رفئيل عن الصليب ودُفنت تحت شجرة صنوبر، لم يكن هناك سوى ثلّة من جند، وحفّار قبور، وحامل مشعل.

ولكن صور باسرها راحت، كل يوم، في مثل الساعة التي شهدت صلب البطل، تتجمّع على قبره تكدّس جبلاً من ورد.

ولم تَكِفَّ حتى شوهدت إلزا، بنتُ الملك، جثةً على قبر حبيبها، وقد كتبت بدمها:

« كفارةً عن ذنب والدي، وبَعْثاً للعدالة في صور ».

يوم تموت الحرية

الليل حالكٌ وثقيل، يتناقض مع وجه نبوكدنصّر المتهلل الأسارير من فرح، فيما الغازي البابليّ يتجه إلى حُجُرات بعل الثاني ملكِ صور.

قصرُ الملك واسعٌ، جمّ الأقسام. نزل منه البابليُّ الجناح الغربي المعرّض لنسيمات الغرب. جناحٌ ضخمُ القباب والاعمدة مشيقٌ، على أنه مفدَّغ هنا وهناك.

كان نبوكدنصر إن شاء رؤية بعل الثاني أرسل يستدعيه.

سوى أنه، في تلك الليلة، شاء ان يعامله كملك. فقصدَه بنفسه ولكنْ دونما إشعار.

كان يرافقه تابعٌ له يتلفت دوماً بحذر، كأنما يتوجّس الشرّ في الجزيرة العدوّة المغلوبة.

ــ إفتح. أنا نبوكدنصّر، جأر البابلي في وجه الحارس الواقف على باب حجرات الملك.

فردّ هذا بحربةٍ سدّدها إلى صدر المتكلّم.

ــ أنا نبوكدنصّر.

فركض على الصوت ثلاثةُ حراس كان واحدهم كهْلاً ناضجاً، فأدرك خطورة الموقف.

ــ خفّف من حدتك، ايها المولى، هذا الحارس مأمور. لا يُدخَل قسرا الا على جثّته. كان بالإمكان اشعارُ ملكنا قبل الزيارة.

ــ مَلِكُكُم ؟ إنه صنيعتي.

فجمَد الحرّاس الأربعة لهول الكلمة، وكاد الدَمُ يطفر من أعينهم. وتُبودل صَمْت.

وبعد لأيٍ قال الحارس الثالث.

ــ عبثاً، أيها المولى، تحاول رؤيةَ المِلك الليلة؛ لا نحن بوسعنا الدخول فنعلنَ قدومك ولا أنت في مستطاعك اجتياز هذه البوّابة.

ـــ ماذا ؟

فتقدّم منه أصغر الحراس، وبوجه كلّه إيناس قال:

ـــ عفوك، أيها المولى، أمامك أربعةُ جنود عازمين. الأمر خطير.

فأُعجب الملك بجرأته المفرغة بكياسة بالغة، وراح يردّد:

ـــ والعملُ الآن ؟

ـــ تعود إلى حجُراتك مكرّماً ريثما يَطلعُ الصبح.

فضحك نبوكدنصّر ثم ربّت على كتف الحارس الفتى وقال:

ـــ بوسعنا أن نتحدّث ؟

ـــ انه لشرفٌ لي عظيم. لِم لا ؟ وأنا لست الآن في الخدمة الفعلية. رديف، ولم يحن موعدُ عملي.

فأخذ الملك يقهقه ملءَ شدقه. ثم مشى يلتفت بين حين وآخر إلى مرافقه الجديد.

وإذِ ابتعدا عن القصر قال الملك:

ـــ أتعرف أن منعَكُم إياي من الدخول على سيدكم سيجر عليكم الوبال غداً ؟ أومنّي تخمون صنيعتي ؟

ــ منك أم من سواك... نحن نحمي ملك صور.

ــ ايتو بعل الثاني خُلِع وما بعل الثاني هذا سوى صنيعتي. صنيعتي اتسمع ؟

ــ تظنّ. ومَن وَليَ عرش صور ارتفع إلى مستوى العرش. لربما كان كما تقول. ولكن قبل ان رَقِي العرش.

ــ قل لي، قاطعه نبوكدنصّر، أكلُّ حراس المَلِك مثلَك أمانةً واعتداداً ؟

ــ إنهم زَهْرَةُ نبلاء صور.

ــ أعرِضُ عليهم أن يصبحوا حرساً لي في بابل. انني لأُسعِدُهم حتى حَفدَةِ حَفدتهم.

ــ تهزل، أيها المولى. هؤلاء ينذرون انفسهم للخدمة، فيطلّقون الغنى إلى الأبد.

ــ والمجد ؟

ــ لا مجدَ فوق مجد الخدمة.

أصبح الحارس صديقاً لنبوكدنصّر، فراح البابليُّ كلَّ ليلة يطلب إلى بعل الثاني ان يبعثه اليه ينادمه.

ــ تظنُّ، أيها الفتى، انه كان بوسعكم الصمود أكثر من ثلاثَةَ عَشَر عاماً ؟

ــ لِم لا، ولَكُنّا صمدنا بوجهك إلى الأبد لو أنه كان على عرشنا مَلِكٌ شاب.

ــ ولماذا لم تفَكّر تفكيرك هذا أروادُ وجبيل وصيدون ؟

فهزّ الشاب كتفيه:

ــ ممالكُنا تلك تلعب لعبةً خطرة. تريدون أن يكون لكم أبداً أُسطولٌ في المتوسط فتسترضونها بكل ما تريد ــ بالنار ان لزم الأمر ــ لتظلوا سادة عليها، وعلى سفنها. ولكن لمصر المطمع نفسه. وهي مثلَكم تعرف ان تُغْرَم بنا. بوساطتنا تريدون القفزَ إلى وادي النيل. المصريون يؤمّلون ابقاء هذا المفتاح بيدهم. وتستغِلُّ كلٌّ هذا نزعةٌ تجارية في ممالكنا، فتجد في « تسوية » معكم ــ وقل في « خنوع » أحياناً ــ مزرابَ ذهب. ممالكُنا جميعاً تلعب لعبة المال الخطرة إلا صور.

« حاربَنا المِصريّون قبلكم، فالاشّوريون الذين مات منهم بحسرتنا غير واحد من الفاتحين الأبطال. ودمّرتمْ انتم أشّور فورِثتم عظمَتها، وفتْحَها، ومعهما متعبةَ صور.

« ممالكنا يوم ماتت أشور رأت ــ بغبطة ولا شك ــ أن تسقط في قبضة المصريين، لأنهم كانوا قد بدأوا عهد

سالي الكثيرِ لعمران، الكثير المهمات يكلُها الينا، فإذا عمائر مصر في هذه النهضة يحتكرها مهندسون وصُنّاع من عندنا.

« نعم ما بقيَتْ مصر في آسية بقيَ بعضُ ممالكنا خاضعاً لسياسة مصر. ولكنّ مصر بأسرها كانت مَصْرِفاً لشعوبنا.

« وكانت معركة كركميش فاصلة: طردتم مصر من آسية، وأقبلتَ أنتَ تحتَلّ أورشليم وتجلو اليهود إلى بابل. وتحاول مصرُ استرداد مركزها بمساعدتنا، فتُقبل أنت هذه المرة عازماً، تجود بمعظم قوتك وقوى غيرك...

« سقطتْ كلُّ ممالكنا في قبضتِك إلاّ صور. هذه التي رحتَ تجمد عند أسوارها ثلاثَة عَشرَ عاماً.

فقال الملك:

ـــ أجل ثلاثة عشر عاماً. وفي النهاية ؟

سكتَ الملك قليلاً، ثم بدا على جبهته مِثْل تجعد يرتجف، وجحظت عيناه محمرّتين وصرخ بالحارس الشاب:

ـــ وفي النهاية، حطّمتكُم حتى لقد كشحتُ اللحم عن العظم: أعملتُ فيكم النار والسيف، بعتُ من يُباع منكم

عبيداً، فرضتُ عليكم الجزية تدفعونها قاصمة ظهر، خلعتُ ملككم المعتدّ واستبدلتُه برجلي ووليّ نعمتي. أصحيح كل هذا ؟

ــ صحيح، أيها الملك.

ــ والآن، لأول مرة في التاريخ، في يد فاتح هو أنا، سقطَتْ صور الجزيرة.

فصرخ الحارس:

ــ صور الجزيرة تقول ؟ من يُصدّقك يا نبوكدنصّر ؟

ــ عيناك تصدّقان. قُم، قم إلى هذه النافذة وانظر:

« لم يبق بيتٌ سويّ، ولا سفينةٌ عليها شعار صور، ولا حسناءُ لم أبعها رقيقاً. أُنظر انظُرْ أَوَلا ترى ؟

وانتظر الملك الجواب. ولكن الشاب راح يضحَك ملء فمه. فالتفت اليه نبوكدنصّر، فإذا الدمُ يخضّب وجهه.

ــ ماذا ! فقأتَ عينيك ؟

فقال الشاب:

ــ لم لا ؟ أو تريدهما تخالفان الدهر ؟ الدهر، منذ مولده، لم يَرَ صور الا حرّة.

« بلى يموت النور في عيني الصوريّ يوم تموتُ الحرية ».

الذرّي الأوّل

ذاتَ أُمسيةٍ واهجة من عام ١٩٤٨، وقد انعقد مؤتمر الاونيسكو في لبنان، كان احدُ الأعضاء الاسوجيين يزور صيدا. وأوّل ما التقى انساناً، فاجأه بالقول:

ــ هل تعرف ؟ أنتَ من صيدون !

كان الصيداوي شاباً مثقّفاً، فدخل في روعه ان الرجل معنيٌّ بالآثار أو التاريخ القديم.

ولمّا تعارفا:

ــ لا، ما إلى صيدون البطولة أنا قاصد، ولا إلى التي أعطت العالَم اجمَلَ دساتير الحُكم، أو كانت ذات يوم

مدينةَ الذوق تتحكم بالزيّ: تلبس وتصيّغ بناتِ القادة والملوك. وانما انا قاصدٌ مدينة موخوس.

فاذا بالصيداويّ، على ثقافته، لم يكن قد سمع بهذا الاسم.

فعَجِب الاسوجيّ.

قال الشاب:

ــ حقاً، يا سيدي، أنا خَجِل: لست اعرف موخوس ولا ما اذا كان شاعراً أو قائد اسطول.

فقال الأسوجي:

ــ انه دماغ استبق كل الادمغة. واذا نظريته، وهو من القرن الثاني عشر ق. م.، تسيطر على علوم القرن العشرين جميعاً. انه أول ذرّيّ في التاريخ.

فقال اللبناني:

ــ تعلمنا في المدرسة ان اول ذرّيّ هو ابن مدرسة أبدير اليونانية: لوسيب. ومن بعده ديموقريت.

ــ لقّنوكم درسا غير مُوسَّع. ولو انكم واجهتم مبحثا في علم الذرة، رصينا وعميقا، لكان لكم ان تقفوا على حدث به يفخر لبنان ويُدِلّ على العالم.

« لا يختلف اثنان في أن ديموقريت الأبديريّ أخذ عن

لوسيب، ولوسيب أخذ عن التقليد الذرّي الراقي إلى موخوس الصيدوني.

« هذا ما تُعلّمهُ الكتب اليوم في أوروبة وأميركة جميعاً وفي اليابان ».

فاطرق اللبناني. مرّةً اخرى. واستطرد الاسوجي:

ــ هل لك بأن نطوّف معاً في موطن موخوس ؟ وددتُ ان اكشف ولو كلمةً، ولو حرفاً، على المفكر الذي التمعتْ له قبل اي آخر أجرأُ خاطرة مرّت ببال.

فقال اللبناني:

ــ عندنا في صيدا معاهدُ عِلْم فهل تريد ؟...

ــ لا لا، دعنا من معاهد العلم. انها تنقل ما في الكتب. وفي الكتب ما من طائل أمر عن موخوس. خذني إلى اوساط من لم يَدّخلوا المدرسة. لعلهم لا يزالون يتناقلون بعضَ الحكايات عن الذرّي الأول.

وبعد هنيهة كان الاثنان يتجهان إلى المرفأ وتروح تسيطر عليه، اكثر فاكثر، جلبةُ صيّادي السمك ومتشيطنةٍ صغارٍ يتصايحون.

ــ هؤلاء، قال الاسوجي، هؤلاء وددتُ لو اتكلّم لسانهم.

قال الصيداوي:

ــ سَلْهم ما تشاء وأنا أترجم.

قال الاسوجي:

ــ عبثاً. ينبغي لي أن أتعلم لغتهم. لغة كلّ يوم. لغة حبهم وشقائهم: حكاياتهم المتوارثة، وأحلامهم التي تدغدغ المخيّلة الخام. سِرّ موخوس ؟ انه دفين ولا شك في طيّاتِ ما به يتصايحون، أو يقصّون أمام الموقد في الليالي الشاتية عندما تضجّ العاصفة ويكاد البحر يأتي على الأكواخ.

وكانا قد اقتربا من أربعةٍ جلس كبيرهم على حجَر عالٍ وراح يكمل سَرْد قصة:

ــ « ... وذات يوم ماتت الحبيبة ! ».

ولكنّ الشاب اللبناني لم يرَ في حديث الحب هذا ما يهمّ عالماً يفتش عن سرّ الذي قال ان المادة ذرّات.

وتمرّ سنوات.

وإذا الصيداوي يلمح بين متصايحة المرفأ وجهاً يعرفه ولا يعرفه. ولكنه أشاح عن الفكرة متسائلاً: ماذا ! افي

المعقول أن يكون الاسوجي تعلّم لغة تُحكى في لبنان ولبس الأسمال البالية وراح يشاطر هؤلاء الاشقياء ضناهم وتشرُّدهم، ليهتدي منهم إلى شتات قصة ضائعة تدور على مفكر من القرن الثاني عشر ق. م. ؟

وتمرُّ أيضاً سنوات.

وإذا الصيداوي يُصغي إلى اذاعة أسوجيّة:

— ستستمعون، يقول المذيع، إلى قصة موخوس اول ذرّيّ في العالم. انها عجيبة بقدر ما هي موجعة.

فأصغى اللبناني. أصغى بكل جوارحه.

« وُلد موخوس في صيدون، حاضرة الثقافة الأولى في العالم الفينيقي.

« هو شاب فقير، ماتت حبيبته فجأة، وقد كانت بنتَ كبير في المملكة، تجيئه خلسةً في العشايا الواهجة مأخوذةً بطلعته الفارعة وتخيّله الجريئ الطريف.

« فشقّ عليه موتُها، حتى ظنّ رفاقُهُ أنه سينتحر.

« ولكنه لم يفعل. وانما راح طوال عمره يتفكّر في الموت.

« ما الوجود ؟ كان يردّد، هناك العَدم الطاغي على كلّ

مكان، كُلّ مدى. من العدم يقوم الشيء برحلة إلى الوجود. أوّاه هذه الرحلة ! لو أضع يديّ على معمّياتها. الشيء ! حتمٌ عليه أن يكون قد بقي فيه جزء من العدم، من طبيعته الأولى. جُزءٌ اقول ؟! ولكنه جزء يُذهل. العدم كهذا الفضاء، ولا بد، والشيء كهذه النجوم: رؤوس دبابيس في وسادة كبيرة كبيرة. هذه الأشياء التي نرى نظنّها كلّها جماداً بجماد. من قال ؟ انها اكيداً كحياتي أنا: من عدم هي اكثرَ منها من وجود. انا ! قد أُعمِّر. قد أُعمِّر طويلاً، ولكن حياتي فراغ. بحرٌ من فراغ يدور فيه وجودٌ ضئيل. يوم كانت هي معي كنت أكثرَ وجوداً، أكثفَ وأقوى. أوّاه ! كل شيء فراغ: هذه الصخرة، هذه القطعة من معدن، انها لتبدو صلبة ملأى، وما ينبغي ان تكون صلبة ولا ملأى. انها مثلي قليلُ وجودٍ في كبيرِ فراغ. ولكن عينيّ لا تريان. بلى بلى: المادة، في أُسّ ما هي، أشياءُ من الوجود قلائل في بحر من اللاشيء لا يُحدّ. ولكنها تدور، إلى الأبد تدور ! ».

وخَتَم المتحدث يقول:

ــ هذا ما قصّه علي، ذات يوم في صيدون، أحدُ صيّادي السمك، بعد أن أتقنتُ لغة لبنان وشاطرتُه وعائلتَه ورفاقه عيشاً شظِفاً كالحياة.

« وقال لي إنها قصة يتناقلونها في أكواخهم أباً عن جد، وتُفرغها الأم خاصة في أذني ابنها متى أوشك ان يوفي على المراهقة ويتعرّض لأن تُفلت من بين يديه إلى غيره، او إلى الموت، حسناءُ حسانٍ يكون قد قال لها في سويعات النشوة: « أنتِ أنتِ الوجود. تكونين معي فأنا **قليلٌ** يطير وتذهبين فأنا **الفراغ** الكبير ».

سرُّ العصفورة المنتحرة

كانت فريدةً بين العصافير.

ولكن زقزقتها كانت أقرب إلى أنّة الجريح منها إلى هَتفَة الفَرَح.

وكان لا يجرؤ صيّادٌ على الالتفات إلى عنقها أو إلى ذَينِك الجناحين الطريفين.

هي عصفورةُ ناهار. جندي صيدونيّ بطـل خاض معركتي الترموبيل وسلامين وأُصيب باثنين وستين جرحاً ولم يمت.

ليس في المملكة من لا يُحبّ الجنديَّ ناهار. انه ذو

البسمة الاسطورية. دائماً في طليعة المتطوعين، يحمّس الجنود، ويقصد الموت قصداً. وهو، فوق ذلك، لا يقبل الرُتَب. « الحرب، يقول، الحرب ألذُّ الهوايات. انها فنُّ ملاعبة الموت ». ويضحك. ولكنه عندما قضت زوجته نحْبَها من ألم الفرقة، وهو غائب في الحرب، عاد لا يسرِّي عنه الا هذه العصفورة التي ظهرت في بيتهم فجأة لا يعرف أحدٌ كيف.

كانت طليقةً في حجُرات ذلك البيت البحريّ القديم. ويفتح لها الجنديّ ناهار نافذة شرقيّة فتطير تعشّش فوق في غابة الأرز، أو تأخذ قسطها من الهواء والزقزقة والحطّ على ضفاف الأنهر، ثم تعود تأكُلُ الحبّ من على يده.

كثُر اللَّغط حول حُبّ الجنديّ ناهار للعصفورة الصفراء، وراح الصيادون في الغابات يتجنّبون قنصَ كل طير يشبهها. ورُكّب على ذلك ألفُ حكاية.

أما الجندي ناهار فكان يتخلص من المتسائلين بقوله:

ـــ إنها جميلةٌ هذه الصفراء...

وبقيت العاصفةُ مُستكنة حتى كان اليوم المشؤوم.

ذلك صبيحةَ اقتحمت العصفورة على ناهار من الشارع نافذةَ حجرته ـــ وكانت مقفلة ـــ وراحت تضرِب

بمنقارها على الزجاج. ففتح لها وحطّت على مقعده بالذات. ثم أخذت تتفرّس في وجهه وتطلق زقزقةً حزينة لم يَسمع مثلها طوال عمره.

وشوهد بدوره يَسكب جُماع لحظه في عينيها الحاكيتين، ذاهباً إلى عهودٍ من شَرْخ صِباه غنيّاتٍ بالضوء، آونة كانت زوجُهُ الصبية على قيد الحياة، ملء تلك الحجرة مَرَحاً وملء العنفوان.

ــ ناهار، قالت الزوجة ذاتَ يوم، تراكَ تحبّني ؟ برهنْ. إنني موجِسةٌ شراً من مغامراتك، في فترة من عمر الزمن، يأبى فيها الفرس الاّ ان يتركوا المدى لخيط حلمهم. لا لَم أعد أُطيق ان تصاب بجرح. ان جاءني من يقول: « مات زوجك » فقأتُ عينيّ بأظافري، وبأسناني ظللتُ أنهش جسدي حتى أموت.

ــ كفى كفى، يا أُغنيتي في الفخار، يا لَمْع حربتي يوم النصر. السيف الذي ينال من جسمي لم يُضرب، ولا بُريَ السهم الذي يَمسُّني بأذى. إيل، اله الآلهة، هكذا أقرّ يوم وُلدت. أنا احد القلائل السعداء في الأرض فلأضع حظّي في خدمة بلادي.

ــ من قال ؟

ـــ أنا قلت. وهل كذبتُكِ يوماً ؟

فتردُّ الزوجة:

ـــ إنني اتبعك إلى الجحيم إن شئت، وأقول ان الشمس عَتَمَة ان قلت. ولكنني لن اصدِّقك في هذا. اخو الحرب لا تكتمل لذّتُه الا متى ذاق بفمه طَعْمَ السيف، او استقبل بقلبه شكّة الرمح.

ـــ أسكتي أُسكتي كاد كلامُك يركّب لي جناحين.

ـــ لا، ولي عندك، قبل أن تطير، رجاءٌ احسبني مرضتُ به مرضاً.

فيسكت الجندي ناهار متهيباً، كأنه يوجس الطَلَب المخوف. ثم يسألها:

ـــ ماذا ؟

ـــ أقسِم بحبّنا لتفعلَنّ.

ـــ أُقسم.

ـــ فتطوّقه بذراعيها طويلاً، ثم تُجهش ببكوة فرِحة وتقول:

ـــ سدّدْ سهمَك إلى صدري فإني أود أن أموت بيد زوجي. أُحبُّك، يا ناهار، احبّك ملء حياتي وملء الموت.

ــ مجنونةٌ انتِ، يا حبيبة الصبا. انتِ العمر وبهجةُ العمر فكيف أقتلكِ ؟

ــ ولكنكَ وعدت.

ــ لا، لن أبرَّ بالوعد الحرام.

ــ عهدي بكَ وفياً، يا ناهار. وستفي. ستقتلني بيدك لأنكَ بحبّنا أقسمت. ان حبّنا لعظيم.

راحت السنون تنطوي. كان على مصر ان تثور على الفرس فلا بدَّ للفرس من القيام بعملٍ يُبقي على هيبتهم: هجوم على القارة البيضاء، على اليونان بالذات.

وكان على الحلف الصيدونيّ الفارسيّ أن يَعمل أكثرَ منه في أيّ زمن.

صيدونُ سيدة البحر، وبإمرتها سيجرّد الفرس اسطولاً من ألف ومئتي سفينة وثلاث مئة مركب رديف.

ها هي الحواضرُ البحرية جميعاً في لبنان وقبرص ومصر تعمَلُ ليلَ نهارَ في اعداد السفن. وأمّهاتُ الفرس والميديين والاشّوريين والهنود يقدّمْنَ فِلَذَ أكبادهن لتدريبٍ حربي استغرق ثلاثة اعوام. لم يُعرف بالضبط عددُ الرجال في ذلك الجيش الخضمّ، ولكن اكزرسيس الأول، المزهوّ بمجده وجماله، قاد اكيداً جيشاً كبيراً.

عمِل الجنديّ ناهار مع الصيدونيين في بناء جسر السفن عِبر الألشبون، وشاهد العاصفة تفكّكه واكزرسيس يأمر بجَلْد البحر وبصَلْب المهندسين والعمال الذين بنَوه، فلا ينجو منهم أحدٌ الا هو.

وعمِل مع الذين ماتوا وهم يحتفرون قناةً عبر البرْزخ، تفادياً لدوران الجيش حول جبَل أتوس. مات الكثيرون من رفاقه ولم يمت.

وقاتل في الترموبيل الممّر الضيّق الذي لا تعبرُه مركبة، وقاس نفسه فيمن قاس- بالسبع مئة تسبي وبالثلاثمئة اسبرطي، يقودهم ليونيداس العظيم، أولئك الذين نفخت فيهم البطولة ان « ارموا النرد إلى الموت »، حتى اذا تحطمّت اسلحتُهم قاتلوا بالأظافر والأسنان. مات الكثيرون من رفاقه ممزّقين بالنواجز وبقي حيّاً.

ودخل فيمن دخلوا ظافرين إلى أثينة العظيمة وقد راح تيمستوكل يُقنع أهلها بالتخلّي عنها إلى ما سمّاه هاتف دلف « سوس الخشب »، عانياً بذلك أسطولَهم في سلامين. وشهدهم يغادرون المدينة صامتين من جرح،·ومن حين إلى آخر ملتفتين بلحاظٍ تجهش لأنهم لم يكونوا يؤمّلون عودة.

وناضل صدراً لصدر، وقفز من على صارية في معركة سلامين حيث تجمَّع الأسطول اليوناني الخفيف تُنازل سُفُنُه الأربعمئة أسطولَ الفرس الذي بناه الصيادنة من ألف سفينة ضخمة كقصور للأوقيانوس. أغرز أظافره في جِلْده لقبول الملك الفارسيّ بان يقاتل في خليج سلامين، وهو الذي يعلم ان القطع الفينيقية انما صُنعت لعرض البحر لا للأحواض. بلى شهدها في البدء تسحق كل سفينة صدمتها، ولكنها تروح فيما بعد تؤخذ بخناق المدى ويضيّق بعضُها على بعض، حتى إذا وصل عدد من عمائر الأغارقة المرنة راحت تتلقى ضرباتٍ قاتلة. كان على الأسطول الصيدونيّ أن ينتزع المعركة لصالح الفرس، ولكن عناد اكزرسيس بقبوله القتال في هذا الوضع حوّل هدف الفينيقيين من نصر إلى انكفاء مجيد ينقذون به جيشَ الفرس ناقلين بقاياه إلى فالير.

وشهدَ الشمسَ تغيب موجعة الشُعاع على ثلاثمئة ألف أُبقوا هناك لحرب بريّة يؤمّل فيها النصر ولكنها ستروح تحمل صرير الأسنان من خيبة سلامين.

في كل تلك المعارك، مات الكثيرون ونجا هو.

ورأى أيضاً مِلِكَ الفرس، المنتصر إلى أمس، يتنقّل من

فشل إلى فشل فيُضمر أن يُنزل بالصيادنة ــ كأنهم السبب ــ الضربةَ تلو الضربة، حتى لتنمو فيهم بذرةُ الحقد على الحِلف الصيدونيّ الفارسيّ العريق.

وإذا يُقفلُ الجنديّ ناهار إلى صيدون يخبرونه ان زوجته ماتت.

هذا، مع عزّةِ فينيقية المحطمة في سلامين، كان ينكأ جرحاً في صدر الجنديّ ناهار ويجد صورة له أوجع ترتسم في عيني العصفورة الصفراء المحدّقتين اليه.

ــ لا، قال للعصفورة، لا تتفرسي بي هكذا، يا سيدة الطير، يا أميرتي، يا حلوتي بين الحلوات.

ولكنه ما يكاد يلفظ « يا حلوتي بين الحلوات »، حتى يفطَن إلى أنها الكلمة التي كان يناجي بها زوجَتَه قتيلةَ الفراق.

أما العصفورة فقد بدا في لحاظها، بسبب هذا النداء، مثل حنين عاصِف. وراحت عيناها تتبدّلان لوناً حتى لتقربان من عينين يعرفهما جيداً الجنديّ ناهار.

وعندما حاولت أن تطير، قافلةً إلى عُشٍّ لها في غابة الأرز العالية، أهاب بها الجندي ناهار أن قِفي.

ولم تأبه لصوته المتهدّج.

وعبثاً ردّدَ النداء، وقد استلّ من جانبه قوسه وغمس يده في جعبتهِ منتقياً سهْماً لم يعرف كيف ركّبه ولا كيف وتّر له الوتر. حتى إذا أرنّ صوت النبلة في الخارج وشهد العصفورة تقع صدمته الحقيقةُ وصرخ:

ــ هي هي التي أرادت أن تموت بسهمي. لقد جاءتني تطلب ذلك بعينين لم يوجعني في حياتي اجملُ منهما.

وتذكّر كلمةَ التي ردّها خائبة:

ــ عهدي بكَ وفِيّاً، يا ناهار. وستفي. ستقتلني بيدك لانكَ بحبنا أقسمت. إن حبّنا لعظيم.

يوم سقطت تيرون

كانت حصونُ فخر الدين الثاني، المزروعة من انطاكية إلى سيناء، قد سقطت الواحدُ تلو الآخر.

إلاّ تيرون.

وكان فخر الدين بنفسه يقاوم في القلعة الشاهقة.

وفجأةً دخل عليه القائد سمعان.

ــ نفذت الذخيرة.

ــ في العنبر السابع حجرٌ محفورٌ عليه خطّان متوازيان. انزعوه. إن وراءه مخبأ أسلحة.

وقفل القائد راجعاً، فأكمل فخر الدين الثاني الحديث وكأنه يناجي نفسه:

ــ وفي القلعة مثلهُ ثمانيةَ عشَر.

« يمكنني ان اقاوم أشهراً في تيرون، القلعة الاثيرة، قلعتي أنا. بنيتُها متحسّباً لك شيء ».

وفيما كان يُسمع تبادلُ النار، اذا بانفجار يهتزُّ له المكان، فيقهقه فخرُ الدين:

ــ انه من ذخيرة المخبأ.

ويَسكت صوت البارود.

ــ ينبغي ان يكون الانفجار فعل فعله. انها زحلةُ أرضٍ أتت على العثمانيين.

ولكنّ فخر الدين يعرف انها هُدنة ليس إلا. فالعثمانيون لن يكِفُّوا. سيعيدون الكرة بقوات اجد واشد. ها هو يستجمع الذاكرة يسترجع الأيام:

انه لطفل يعيش في كسروان عند بني الخازن. يَكْبُر فيخبرونه ان العثمانيين قتلوا جده، وابوه مات قهراً، والدروز ذُبحوا ذبحاً في عين صوفر. وبرغم ذلك قدر أن يقتطع لنفسه في الشوف امارة صغيرة. وشرع في تكبيرها. ولكنْ قبل أوان. انه ليُقلقُ الآستانة وهو لما يشتد ساعداً،

فتُهددهُ الآستانة، فيضطر إلى ركوب البحر، إلى الانكفاء.

ها هو الآن في فلورنسا، عاصمة العالَم، عند صديقه غرندوق توسكانه، ينزل قصراً جميلاً.

انه لا ينسى زيارةً بعينها من زيارات صديقه له، وخصوصاً حديثاً بعينه دار بينهما في ذلك القصر اختتمه الغرندوق بقوله:

ــ أنت من طبقة الملوك الكبار يا فخر الدين الثاني.

كان الامير اللبناني قد فاجأ ضيفه بالقول:

ــ هذه المرّة اتممتُ خططي: سأرجع إلى لبنان، سأستردّ مملكتي.

ــ ولكن...

ــ لا « ولكن »، يا عزيزي الغرندوق، كل ما اطلب سفينة تقلني الى شواطئ بلادي. الجبل على نار.

« لن تطأ قدمي أرضَ لبنان الا وتسري القشعريرة من قمة إلى سِيف بحر، ويكون تحت امرتي الوف الخيالة ».

ــ وسلطانُ اسطنبول، تراه سيسكت ؟

ــ مراد الرابع، سيكون اعجزَ من ان يعاديني صراحة. سيراوغ. سيُغدق عليَّ الالقاب. قد يعترف لي بسلطنة

تشمل كيليكية ومصر، شرط أن لا ازعجه. ولكنه سِرّاً سيعمل لقتلي. الا أن شعبه سيرغمه في النهاية على محاربتي.

ــ مغامرةٌ إذن ذهابُك، يا فخر الدين، وان لم تضمن روحَ تركية في جانبك فعبثاً تمنّي النفس.

ــ لا ليست تركية الدولة الولد لتتركني أقوى. ولكنّني على أيّ حال يجب أن أُغامر. قد اتغلّب على اسطنبول. قد احتلها. كل هذا متوقف على بطانة مراد الرابع.

ــ ان كان هؤلاء اشداء طموحين وارسلوا اليك العدد العديد ؟...

ــ ولهذا أيضاً اتخذت الحيطة. اكثرُ ما يقدر عليه العثمانيون ان يقتلوني. ولكنّني اكون قد عملت للبنان شيئين يَبقيان، فيُبقيان على لبنان إلى الابد. اكون قد جعلتُ هذا الجبل يرتعش رعشة البطولة. هو، منذ عشرات السنين، قابعٌ لا ينفجر بحدوده. سأطلقه من عقاله. سأبعث النارَ في عروق فتيانه. وإلى أن أنكسر ويثوب العثمانيون من الوهلة، أكون قد جعلت للبنان المعاصر سجلّاً بطولات. العنفوان ! انه وحده منجم البقاء.

ــ والشيء الثاني الذي تعدّه، يا عزيزي الامير ؟

ـ الشيء الثاني تعلمتُهُ عندكم في توسكانه. امثولة فلورنسا، فلورنسا العظيمة، لن تبرَحَ ذهني، فلورنسا لا تموت. وقد لا تموت أوروبة لأنها اطلعت بضع مدن من مثل فلورنسا. عاصمتي، عاصمتي بيروت الحسناء، ستكون غداً أجمل من فلورنسا. عذراً، يا عزيزي الغرندوق. سأجعلهم يقولون: « في العالم ثلاثُ مدن: أثينة وفلورنسا وبيروت ». لن أبقي عندك على مهندس معمار، لي أبقي على مصور، لن أبقي على رُخامة في مناجم كراره. كل ذلك سأجذبه إلى لبنان. وفيما أنا أُشغِلُ العثمانيين بالمعارك سيكون افذاذُ العالم يخطّطون مع اللبنانيين، ويبنون، ويصورون، وينقشون الصخر، لتنهض بيروت في الجوّ آية عمران وفنّ.

« أوّاه، يا عزيزي الغرندوق، لو تعرف بيروت. أنها أجمل موقع على المتوسط: يحرسها جبلٌ مكلل أبداً بالثلج، أما البحر فيمتدُّ عن جانبيها إلى جونيه وصيدا في أروع سيف تلألأ على شاطئ.

« هذه المدينة ان اقمتُ فيها القصورَ والملاعب ودُور العلم والتمثيل، وحفزتُ إلى بناء معابدها بالرخام، ونقلتُ اليها من الجبال حدائق وغاباتِ صنوبر، ان جعلتها المدينة

الأولى في العالم: مطارقُ البنائين تُسمع فيها من آخر الأرض، وعِلية القوم تقصدها تستمتع بالشعر وباشياء الجمال وبعمارات الرخام المخرم، عندئذٍ قل لي أفلا يغدو لبنان ضميرَ العالم ؟ وهل يعُود ضمير العالم ليرضى بأن يلوّثه المدفع العثماني ؟ انت، انت نفسك، يا عزيزي الغرندوق، لتَجيّشنّ الجيوش، إن داهم الخطر، وتطيرُ إلى حماية المدينة التي تنافس فلورنسا.

فيقول الغرندوق مازحاً:

ــ اواثقٌ، يا فخر الدين، بأنني في دخيلتي لن أغار فأرتاح لدمارٍ يأتي على مدينة تضارع مدينتي ؟

ــ لا، يقول فخر الدين، لن تمر الصغارة ببال حفيد المدسيس: انت وآباؤك عملتُم للجمال اكثر من اليونان. يستحيل أن يخون المدسيس الجمال.

يقطّب الغرندوق حاجبيه، ويخنق ابتسامةَ اعجاب بفخر الدين، بينما تطفر من عينه دمعة حلوة. ثم يسأل صديقه:

ــ ولكن هل يكون بمقدورك ان تقوم بهذه النهضة من عمران ونحت وأدب ؟ ان ذلك ليتطلب اكثر من استيراد. أوَ بلادكَ أهلٌ لان يُشتل في ترابها هذا الشتلُ السريعُ العطب ؟

فيقول فخر الدين:

ــ بلادي اطلعت صيدون وبعلبك وبيروت. إلى بيروت حجّت الدنيا تتثقف يوم كانت مدينتُنا ارقى عواصم الامبراطورية الرومانية غير منازعة. وفي بعلبك اليوم لا أكبر هياكل العالم وحسب وانما أجملها أيضاً. ولا أظن فناً يتشوّف إلى منافسة بعلبك. اما صيدون فلن تعرف مكانَتَها إلا إن جمعت أثينة إلى فلورنسا إلى باريس. بمدنيّتها لا بالسيف فتحتِ العالم، واليها قصدت الحسان يلبسنَ ويتصيّفن وقصدَ اهلُ اللهو والمعرفة يمرحون ويستمتعون بالثقافة في أول طلْعها. يقال ان أبا العقل الاغريقي كان صيدونيّاً. شائعة ؟ ولكنها تكفي. وهوميروس، على أي حال، لم يتكلم على أحد كما تكلم علينا. قال إننا « شعب الآلهة » و « حملةُ لغة الآلهة ». لقبان كهذين لا يطلقهما المرء الا على أهله.

كان فخر الدين قد وصل من خيط تذكاراته إلى هذا الحد عندما سمع جلبةً في الحصن.

ودخل القائدُ سمعان:

ــ ماذا ! هل شاهد منظارُك عودةَ العثمانيين ؟

ــ أهولَ من ذلك، يا مولاي: اهتدوا إلى النبع الذي يغذّي القلعة. وضعوا السُمّ في الماء.

ــ لا عليك، لا عليك، جأر فخر الدين. مُرِ الجنود بالخروج. سنقاتل في العراء. سنشرب الماء من ينابيع لبنان البلّورية.

وفيما هُما على هذا وصل ساعٍ من بيروت. وفوراً ادخلوه على الأمير. فاذا به يحمل منشوراً كانت القيادة العثمانية توزّعه سِرّاً على جنودها.

تناوله فخر الدين وراح يقرأ. حتى اذا وصلت عيناه إلى سطر بالذات اخذت لحيتُه ترتجف: « إياكم، تقول القيادةُ التركية، ان تبقوا على عمران في مدينة، ولن تكون بيروت أجمل من اسطنبول ».

واستوضح الامير لهيفاً:

ــ هل شرعوا في الهدم ؟

فقال الساعي:

ــ لم يُبقوا على عمود ولا على حجر رخام.

عندئذ تحجّرت عينا فخر الدين. وحدّق القائد سمعان إليهما مستطلعاً ليرى مثَلَ بوسفورٍ يستقبل جثةً ورأساً مقطوعاً.

مِرْغَيـانا

لربما، لأنهما سيلتقيان، كان الحبّ على الأرض.

اما يندا فالعازفُ الأشهر في مملكة راحوب، واما مرغيانا فالجميلةُ بين الجميلات.

ــ تحبّني، سألته يوماً ؟

ــ وُسْعَ لفتةِ جبالنا وطموحِ الدفّة في طُراذفاتنا قاهرات الأوقيانوس !

فقالت:

ــ ولا أكثر ؟

فتناول كنّارَته يحاول وقف الزمن في نغمة تقولُ حُبَّه،

فإذا موجةٌ رعناء تتخطّى صخرة الشاطئ التي كانا يقتعدانها في تلك العشيّة الواهجة، وتغمرهما من رأس إلى قدم، فيهربان غاطسَيْن في الماء، ضاحكين ضِحكةً مالحةً فَرِحة.

وهكذا لم تتكلم الكنّارة.

لأن هوجة من بحر أخّرت جوابا عن سؤال عروسه، أضمر يندا أن يُطلع من كنّارته نغماً ما سمعت مثله الأرضون.

أعوامٌ خمسة انقضت ويندا منقطع عن أهله، يجوب ممالك آرام وكنعان، في جوع إلى ما هو أوسع من لفتَةِ جبالٍ تحاورُ النجوم، ومن طموحٍ في دفة طراذفات أتعبت الأوقيانوس.

عايشَ الصبّاغين في صور مُطلعي الخيطَ المجلوب من الصين أرجوانيَّ اللون كأفقٍ من دم، والحياكين في صيدون ذوي الأنوال التي تطرز وتزركش. وساهر دُودَة القزّ منذ هي بويضة ستقتات بورقات توتهم إلى أن تنسكب شالا على عنق صيدونية أنيقة تجتذب إلى مدينتها سيّدات النخبة في العالم.

فاجأ مصانعَ الزجاج والبلّور في الصرفند تبتدع مرايا

العرائس وخرزَ العقود والمزهريات التي تزيّن جميعَ بلاطات المتوسط.

كدح وتصبّب عرقاً إلى جنب المعدنين مستوردي قصدير بريطانية، وفضة إيبارية، وكورباءِ البلطيق، وذهبِ اوفير التي عبر الأطلسي.

استمع إلى العائدين من نهايات الأرض يجوسونها في سرداب عموديّ يجفّفون ماءه بالدافع اللولبي ويستخرجون معادنها الخام يسحقونها في مطاحن ماء ويغربلون ويصَفّون حتى الخلوص.

انبهر مع القادمين من أقاصي المعمور يُحدّجون بأعينهم أقراط الذهب والكؤوس والشماعد والافاعي المعدّة لعبادات مصر، وصوالجَ الملوك المرصّعة بالياقوت والزمرد، والتماثيل المنحوتة من رُخام، والموائد والمقاعد والمراكب المصنوعة من أرز وصندل، وأمشاط العاج، وصحاف الخزف الرفيع الوشي.

تغنّى بالخمرة تُعتصر مدللة في اعالي الجبل، منذ هي حلمٌ في الجفنة المُعْرِشة إلى ان تمات بارجل الحسان، وانشد الزيت يسّاقط ثمراً عن الزيتون والنخيل ليعبّأ حياةً لُؤلُئيةً في الجرار.

سَكِر برائحةِ البحر والبعد تهبّ من أثواب الذين تعاملوا مع الدنيا واستعمروها لأنهم أعطوها جديداً.

تمرّس بالبنيان مع المعماريين يزرعون البسيطة قصوراً ومعابدَ، قُبباً وأعمدة مشيقة كأنها منبرٌ للشمس.

قلِقَ مع دهاقنة السياسة في مجالس الشيوخ يشهرون الأسنة أو يردونها بكلمة.

عن كلّ ذلك أخذ،

وبقي في جوع !

اصيب بدوار الفلكيين يجسّون نبضَ الاغوار الكونية، وتدرَّج مع مقولات الفلاسفة يقسرون الزمنَ على البوح بسره.

تعلّم من أحد حفدة موخوس هجاء المادة، ومن الذرة إلى النجم كانت له كل يوم رحلة،

وبقي في جوع !

سمع من قال له: « انت نصفُ الطريق بين الجُرْم الفَلَكي وذرّة موخوس. وأعجب ما فيكَ عقلُكَ الذي يعرف ويعرف انه يعرف ».

استنفد شرخَ الشباب في الغوص على غياهب الفكرة

منذ هي غبش يتحسّسُ ذاته إلى أن تغدو نظريةً علميّةً تقول العجب.

عرف فرح المعرفة، ابدع من عدم،

وبقي في جوع !

وذات ليلة، فيما هو على قِمّة سنير، حدّق إلى القبة المكوكبة، وكانْ قد سمع طفلاً يقول: « لو بلغتُ احدى قممنا لأعملتُ مقلاعي في النجوم... » فمرّت بباله فكرة كائنٍ اسمى مبدعٍ للوجود، وشعر أنه لن يبلغ من المعرفة ابعد، فهبَّ وكأنّه قد أُمِر، إلى كنّارته ينقر.

اللازورد الآن يشيع في النغمة، غنيّاً واهجاً كخدّ، وليالي الدهر المكوكبة تتجمّع في توقّف وتجعل الغصن في الجوار يقلق، وآونة يبلغ شأوُ الانّة حدَّ السكون ثم يضجُّ ليموت، فليبعث في مجد، فليأخُذَ في اللعب كأنما التقت صواعق وهدير بحر وقمم، أو عندما يلين البثّ كأنما ياسمينات الدنيا تلاقت تبوح بعطر مستحيل، في تلك الهنيهة، فيها بالذات، يَختَتِم. فاذا الغصن الذي لم يعرف اللين يترنّح، وحنجرةُ البلبل التي حَفِيتْ تولد من جديد، وما لم يولد للحبّ يُحِبّ.

وشعر يندا انه اصبح حقاً عازفاً عبقرياً، وانه بات في مقدوره أن يقول لحبيبته القول الذي تنتظر.

إنه الآن لَيَنهَبُ المسافات قاصداً اليها في راحوب، المملكة التي تبعد ليالِيَ طوالاً. نعلاه تبريان من الركض وتتفتّتان، والحصى تدمي رجليه كأنما تأخذ من المجد فريضة. مقدامٌ، عنيدٌ يستهدف وطنه مباشرة، غيرَ سالكٍ طريقاً، فيُمزّق العفصُ والبلوط اثوابَه وجلده، وتـهِبّ العاصفة برعد وسكب ماء وشجر مقتلع تحاول عبثاً ثَنْيَهُ ودعوتَه إلى قليل راحة.

اخيراً، عندما يوفي على مدينتهم حافياً، نصفَ عار، مجرّح عَضَل، يلتفت إلى كنّارته فاذا هي ايضاً مهشمة الخشب، مفطومة الاوتار، الا واحداً. فيكاد يضرب بها الارض، باصقاً معها الحياة، هذه الرفيقة الغالية التي طَمِع بان يرفعها إلى مستوى الكون والحياة او إلى أقدام عرش الله، لتكون خليقةً بجواب تنتظره الحبيبة.

إلا أن جنازة تُطلّ فجأة من وراء تلّة، فيسأل: « منْ ؟ » فيقولون : « مرغيانا »، فيصرخ بالكنّارة أنْ « قومي أوَلم اغدُ مبدعاً ؟ او ما يحقّ لي ان احيي الميت ولو مرّة ؟ ».

وقيل انه عندما راحت خشبةٌ بين يديه ذاتُ وترٍ وحيد

تبثّ النَغَم الفَرِح، مرقصةً روحَ الضوء في مخابئه، كان الناس يرون كنّارة تُزهر تحت اصابع مُبدع.

أما مرغيانا التي يقولون انها لم تسمع الجواب ــ وقد ظلّت تنتظره طوال الحياة ــ فلم تكمّل طريقها معهم وانما رمت بنفسها من فوق النعش لتستلقيها نغمةٌ لا تزال بها تطير.

السلام اللبناني

عندما تُذكر اشياءُ الفكر، الفكر في مناخاته العالية، لا تخطر على البال سوى مدن قلائل. منها بيروت.

فاذا كانت أثينة اختُصّت بالحكمة، وفلورنسا بالجمال، وباريس بالذوق فان بيروت اختُصّت بالحق.

الحق؟ وهل بعدَه بعد؟

أول ما تتكلم الاساطير على قِدَم بيروت. انها وجبيل بِنْتا إيل بالذات، إيل إله الزمن.

من هنا الزعم أنها اقدمُ مدينة في التاريخ.

لكنّ هذا الفخر، صَحَّ أم لم يصِحّ، يظلُّ ثانوياً ان هو قيس بفضل المدينة على يقظة الحق في ضمير العالم.

قبل تأسيس مدرسة الشريعة بنحو الف وسبعمئة سنة، شُهرت بيروت بسنخوني أتن. مؤرخ قيل إنه عاش قبل موسى، إذن أقدم مؤرخ. تناول علوم الفلك ومنشأ المُدُن الفينيقية والاديان والتاريخ العالمي. وقبل هيرودوتس بنحو الف سنة كان له أن يُدعى «أبا التاريخ».

وأهم منها انعقاد الاجماع على أن سنخوني أتن كان عادلاً.

العدل أوّلُ صفة تُطلق على ابن بيروت، على علاّمتها القديم العظيم ؟

تراها الدلالة على انه انما كان يلازم المدينة ارثُ عدالة يرقى إلى عصور وعصور قَبْلَ العهد بمدرسةٍ شريعة؟ وأن قيام مدرسة الشريعة فيها انما جاء نتيجةً طبيعية لما كان لها من سابقٍ شغفٍ بالحق ومن عريق خدمة له ؟

ذات يوم كانت طالبةٌ باريسية، يخصُّها العلامة بول كولينه باعجاب أشبه بحبّ، تسأله بلهفة:

— في أيّ مدينة ينصحُني المعلم بأن أدرس الحق ؟ في باريس أم في ليون ؟

فيقول كولينه:

ـ أنتِ مُوسرةٌ، يا حسنائي الشفّافة، لماذا لا تذهبين إلى بيروت ؟

كانت الفتاة صديقةً لطالب لبناني من بكفيا. فخُيِّل اليها، لأوّل وهلة، أن الأستاذ العلامة انما يُعرِّض بها. ولكن سياق الحديث ردَّها إلى مزيد من صواب فادركت ان العالِم كان حسَنَ النية. قالت:

ـ ماذا ! مدرسة بيروت الحديثة أفضَلُ من معهدَي باريس وليون ؟

فيقول كولينه:

ـ ان للارث العريق فعالية دونها الكمال. كلُّ استاذ في مدرسة بيروت، كل طالبٍ فيها، لا بد أن تواكبه أمجاد من بيروت يستحيل ان تضارعها أمجادٌ من أية مدينة في العالم.

وختم كولينه نصيحته قائلاً:

ـ وأوصيكِ، أن اصبحت كما اتوقعُه لكِ، بان تفكري في جَمْع الوثائق التي ستساعدنا يوماً على وضع تاريخٍ لمدرسة بيروت خليقٍ حقاً بالمعهد الذي لا يزال يشعُّ إلى اليوم.

وحزمتِ الفتاة امتعتها وقصدت إلى الحاضرة اللبنانية.

لكنها مرِضتْ بين مرسيلية وجنوى.

وذات صباح لم تستيقظ.

شَقَّ الامر على كولينه، وبقيَ طوال حياته يعدّ نصيحته مسؤولةً عن موت الباريسية الحسناء.

وهكذا كان يعدّها الطالب البكفاويّ.

تعدّدت زياراتُ كولينه لبيروت، منقِّباً مرة، ومرةً مسهماً في ادارة اللجنة الفاحصة، ودوماً دوماً جامعاً الوثائق أو متصلاً بمؤرخي جامعة القديس يوسف التي اليها تنتسب مدرسة الشريعة الحديثة.

مَلفٌّ تاريخي ضخم كان لا بد من فتحه والاكباب عليه.

وكانَ وضعُ مقدّمةٍ على المدينة العظمى موضوعاً شغل كولينه ردحاً من الزمن.

انه هنا أمام عالَم من الامجاد جمُّ الحقول. وافراغُه في الورق كان يستدعي تأليفَ مجلداتٍ ضخمة.

منذ عهد التزاوج بين الآلهة والبشر يُذكر عن الشاطئ الفينيقي أنه أطلع شهْماً أسطورياً مثلَ برسِه يُنقذ من التنّين اندروماد الجميلة. ستتكرر الحادثة على اسم مار جرجس،

فاذا الفارس القديس رجلُ الشهامة في المسيحية وساحتُه هذه المرة بيروت بالذات.

ويتحدثون عن ازدهارٍ للمدينة يجعلُها حاضرة العِلم طوال العهد القديم، وعن تقليد يزعم ان المسيح زارها، ثم عن شغفٍ لأباطرة الرومان بها سواءٌ قبل ارتقائهم العرش أو بعده. انطونيوس، اغسطس، فسبازيان، طيطس، كونسطانس جميعاً قصدوا بيروت وسكنوا بيروت. وسكنتها جوليا السعيدة بنتُ اغسطس، تلك التي، لوفرة تعلقه بها، راح الامبراطور الوالد يزين المدينة بملاعب ومعاهد علم ومراسح وقصور وهياكل تضارع جميع ما في رومة، ولا يفوقها نقشاً وفخامة سوى هياكل بعلبك.

لسوف يتذكر فخرُ الدين الثاني كل ذلك. فيحاول، عقب عودته من توسكانا، أن يسترجع لبيروت مجدها المفقود، بل ان يتخطاه مؤملاً ان تصبح عاصمةُ لبنان عاصمةَ العالم.

سوى ان ذلك، على روعته، يبقى ثانوياً ان هو قيس ببيروت مدينة الحق.

منذ القرون الاولى للميلاد، تُبنى مدرسة بيروت الحقوقية. وتروح تطّرد شهرةً حتى لتبلغ الأوج في منتصف

القرن الخامس، فتمد العالم الروماني ــ وهو يومئذ العالمُ كله ــ بمفكّريه وقدّيسيه ومشترعيه وساسته معاً. وذات يوم في عهد الامبراطور اللبناني الكسندروس ساويروس يكون وزراءُ روما، جميعاً تقريباً، بما فيهم رئيسهم، من مدرسة بيروت.

إلى مدرسة بيروت قَصَد الطلاب من بلاد العرب وأرمينية وآسية الصغرى وبيتينية وشمال الاناضول والكبادوكية وكارية وكيليكية ومصر وما بين النهرين وأوروبة واليونان والقوقاز وايليرية وليسية والاسروان وفلسطين وبنفالية وايزيدية ومكدونية وسورية.

وتمضي المدرسة في ازدهار وقطف أمجاد حتى يُعترفَ لها بان لقب « معلمين عالميين » لن يُطلق الا على أساتذتها.

ولعل أجمَلَ ما يؤثر عنها أنها ومدرسة القسطنطنية تفردتا بوضع ما سوف يُسمى الشرع الروماني، وأن الامبراطور يوستنيانوس، الذي لا يزال اسمه مقروناً بالشرع إلى اليوم، فوّض إلى اثنين من أساتذتها، هما أناطول ودوروته، القاءَ آخر نظرةٍ على المدونة اليوستنيانيّة.

وفي جغرافية الاكسبوزيسيو نَصٌّ خليقٌ بأن يترجم

بالحرف: « ان تعليم مدرسة بيروت أصبح اساس كل الدروس الحقوقية في العالم ».

واتجهت أنظار المعمور إلى بيروت كمركز عَملٍ حقوقي من شأنه وحدَه ان يُوحِّد بين شعوب الأرض. فعقِبَ كلّ حرب، عندما كان يتجدد الأمل بايجاد صيغة للسلام العالمي، كانوا يقولون: لا يُستبعد ذلك ما بقيت بيروتُ في الوجود. وفكّر مفكرون في العمل على أن تتسلّم بيروتُ مصائر العالم.

جمَعَ كولينه عن المدرسة الشهيرة معلوماتٍ لا تثمّن. سوى أن الحَجم الذي عيّنه لكتابه ضاق بكلّ ذلك، فراح يحذف دون أن يفارقه الشعور بان شيئاً من قلبه ينسلخ.

على أنه ثأر لنفسه بأن وضع على جِلدة الطبعة الاولى من كتابه « تاريخ مدرسة بيروت الحقوقية » بضعةَ ابيات من ملحمة الشاعر الاغريقي نُنّوز من شأنها ان تعوِّض.

واليك بترجمة الابيات:

« لن تنمحي النزاعاتُ الداميةُ المدّمِرة،
تلك التي تفتك بالشعوب،
إلا متى غدتْ بيروت،
قيِّمة على راحة الحياة وعلى طُمأنينتها.

مسيطرةً على البحر والبر،
موطّدةً سُبُل القوانين،
مستأثرةً بالحكم المطلق على جميع مدن العالم ».

عندما كانوا يشيّعون جثمان بول كولينه كان في المودعين شابٌ أوفى على الرجولة، هو البكفاويُّ الذي لم يكن يغتفر للعلامة الحقوقي تشويقَه لفتاة عمره ان تذهب إلى لبنان... إلى آخر تلك اللوحة المحزنة...

وفيما كانوا ينصرفون راح هذا يسلخ من تحت ابطه كتاب كولينه « مدرسة بيروت الحقوقية » ويمزّقه صفحةً صفحة ثم ينثره على القبر كباقةٍ من زهر.

كانت الريح تُنسِم قليلاً، وإلى البعيد تحملُ نُتَفاً من أوراق الكتاب..

واذا اسم بيروت، مقروناً بالسلام العالمي، يتطاير في الهواء مع أشعار نتّوز وذكرى الحبيبة الغالية.

عَشِيّةُ الدَّم

ـــ اخبار صِقليّة، هي أخبار صقلية !...

هذا ما جأر به ماغون، شافِطُ البحر، بعصبية وغضب، فيما كانت قدماه تزرعان أرض القاعة، جيئةً وذهاباً.

ـــ وبعد ما تراكَ ترتئي ؟ سألته زوجته.

ـــ أرتئي ؟ قرطاجة على مفترقِ طُرُق. نَذَر أجدادنا صورَ الجديدة هذه لعشتروت لا لملقرت. اقسمنا ألا نسفك دماً. وصبرنا على المكاره وتعريضِ الشرف وفاءً لما ارادت إليسّا المؤسِّسة.

« ضحت بنفسها لكي تمنعنا عن امتشاق السيف.

« وعلّمت: « السلم أشدّ فتكاً بالعدوّ ».

« الشافطون الذين وُلّوا الحكم قبلي حفظوا الوصيّة.

« في عهودهم كان ذلك محتملاً.

« اما اليوم !... ».

واحسّت زوجة الشافط ان رجلَ دولة آخر اخذ يولد في ثوب زوجها.

كأنها عادت لا تجد ماغونا في ماغون...

فتوسّلت إليه بحنان:

ــ لا، لا تفكّر هكذا.

كانت خائفة. شبحٌ راعب كان يرتسم لعينيها الجميلتين.

فطمأنها بذراعيه اللتين طوقتاها أنيقتين حارّتين.

الا أن قامته المديدة وجبروت جسده كانا يتناقضان مع طيبة قلبه.

ــ لا تبكي، يا عزيزتي. زوالُ الدنيا ولا دمعةٌ من هاتين العينين.

فسألت:

ــ وزوال قرطاجة ؟

وانتظرت جواباً.

لكن ماغون أفلتَ من بين ذراعيها.

وكانت بنت الشافط قد دخلت، وحضرت أواخر المشهد فساورتها هواجس خلاف بين أُمّها وأبيها، وظنت ان وزير البحر، على تعلقه بزوجته، سيتركها إلى الأبد، فتدخّلت:

ــ أبي، أوَ تذهب إلى بلاد نائية ؟

فلم يسمعْها.

كان قد أصبح في الرّواق خارجاً، وسُمِعتْ جزمتُه تخِبُّ على درج القصر.

وتولّت الأمُّ طمأنة الفتاة:

ــ لم يتركنا إلاّ إلى قرطاجة !

فاستوضحت الفتاة:

ــ يُحب قرطاجة أكثر مما يحبّكِ، يا أُمّاه ؟ ان ابي لعظيم. إنه لممن يُعبَدون.

ماغون الآن في حدائق شافطيّة البحر، يلطِّف من حدّة نظرته بتسريحها على الشجر النضر.

الليمون أزهر وعبق الجو بالشذا. وعلى غصن خفيّ صوت بلبل يكرّ...

ــ لا، لا، كاد يقول، هذا الجمال لن نخدّشه بصوت الأسِنّة.

« ان مجلس العموم لا يريد الحرب، ومجلس الأعيان متأرجح بين بين... وكلمةٌ مني تميّل كِفّة الحرب.

« يضايقوننا في صقليّة.

« نحن لم ندخل تلك البلاد بالسيف.

« المعوَل الصوريّ لا يتعرّض لأرض شعبٍ إلا ليغدق عليها الخيرَ.

« كان الصقليون قبل عهدهم بنا حُفاةً عراة. عرفت نسوتهم بعدنا أناقة الصيدونيات والقرطاجيات، وفلاحهم عرف الرخاء. علمناهم التجارة، العلائقَ بين البشر. ادخلنا حتى النقدَ إلى بلادهم، ادخلنا العدالة.

« انا، انا شافطُ البحر في قرطاجة، ليست لي كلمة بين متنازعَين صقليين. الكلمة للمحاكم التي تعمل بوحي الآلهة والضمير.

« ولكن اذا استمرّت صقلية في اضطراب، فستضطرنا...

« ان لسلطاني مسؤوليته أمام سلامة قرطاجة، سأستل السيف، يا صقلية ».

كانت الشمس قد تسلطنت وبدت وطأة الهجير شديدة، عندما خرج شافطُ البحر من حدائقه متوجّهاً إلى ندوة الأعيان.

وفي الليل، في الهزيع الاخير من الليل، بعد عودته من الندوة، توقّف امام سرير زوجته يريد ان يضمّها. ولكنه رآها نائمة في اغماضة الربّات.

أخذ يمشي بتؤدة، خشية أن يُسمع لجزمته وقعٌ يخدّش غفوة زوجته، ذاك الذي سيُرجف اليونان غداً في صقلية.

مُعلِّمو مُعلّمي العالم

صبيحة ١٨ آب من عام ١٨٢٦ علت صيحة في ساحة القصر من بيت الدين. وما هي حتى انفتح شبّاك الكُشك، ففهم الحرس أن الأمير سمع. فخفّ اليه أحدهم.

ـ امرأة، يا مولاي، تلتمس مقابلتك. عرضوا عليها مالاً، رفضتْ. وهْي تأبى إلا أن ترى مولاي.

ـ أدخِلْها.

المرأة الآن في حضرة بشير الثاني، في الكُشْك، الذي كان يدلف اليه قبيل الظهر يدخّن الغليون ويستقبل بعض رجال البطانة.

أنيقة، شاحبة الوجه على جمال.

ــ أنا من عين غْنوب يا مولاي. مات زوجي تاركاً لي ولداً طفلاً وثروة. ربّيت الولد من فضل ربي وخير مولاي. وكنا على أسعد حال، لولا أن جاءتنا هذه السنة بسلفةٍ لي أرملة، كانت مهاجرة في بلاد الفرس. سلفتي هذه أبرزت وثائقَ تُثبت أن زوجي مدينٌ لزوجها بكل أملاكه. فسلمتُها الأملاك.

فبُهت الأمير:

ــ فعلتِ هذا ؟!

ــ فعلت لأنني مقتنعة بأن الأملاك هي حقاً لها.

ــ والآن ما تريدين؟

ــ إبني أتمّ تحصيله في فلورنسا وهو يجيد ستّ لغات. ما أنا لأرضى بأخْذ جُعالة من أحد. كلُّ ما اطلب ان يعمل مولاي على اقناع ابني الشاب بان يستخدم. مصرف طليانيّ في بيروت يعرض عليه عملاً حسناً لكنه هو يرفض.

ــ جيئيني بابنك.

ــ انه يأبى، يا مولاي.

ــ يأبى ؟ لا عليك... نحن نتولى جلبه.

في اليوم التالي كانت المرأة وابنُها في بيت الدين.

الشاب في السابعة عشرة، وسيمُ المحيا، نبيل الإشارة، مُتزنها.

ــ لماذا، يا بني لا تقبل العمل في المصرف الطلياني ؟

ــ عفوَ مولاي، لا أُحِبُّ الاستخدام.

ــ ولكنكم أصبحتم في عوَز.

ــ هذا صحيح. بيد أنني أُؤمل ان نخرج من المحنة لا في أمد بعيد، بإذن الله. سأؤسّس في منطقتنا مدرسة، وانني بصدد تَدَبُّر المال.

فقاطعته الأم:

ــ قد يتأخر المال، يا مولاي، وقد تنجح المدرسة وقد لا تنجح، والصيرفيّ الطلياني في بيروت ليس عَبدنا. لن ينتظر. لربما اهتدى إلى مستخدم وضاعت الفرصة !

فضرع الفتى إلى الأمير:

ــ وددتُ ان لا يتأثر مولاي بأقوال والدتي. عاطفتُها تتكلم. وتتكلم معها الحاجة التي أخذت تعضُّنا من جراء شهامتها. هي التي سلّمت زوجة عمي التركَة جميعاً. خير ما عملت: ان قبلتُ الاستخدام، يا مولاي، فقد أنزلق إلى التجارة. التجارة لا أحبّها. أريد ان انخرط في سلك

التعليم. شيءٌ لا يأبهون له في الشرق. الدولة التركية تحتقر معلّم الصبية. تضعه في عداد الذين لا تُقبَل لهم شهادة. سأمحو لطخة العار عن أشرف المهن. للبنان، يا مولاي، ماضٍ في التعليم لا تجوز خيانتُه. لو أُعطيت عرشاً لما تخليت عن أملي بأن أُصبح معلم مدرسة في لبنان. معذرة، يا مولاي، إن أنا امتدحتُ نفسي. نادراً ما يجوز للمرء ان يمدح نفسه. لكن النادر ليس المستحيل. كنت ألمع تلميذ في فلورنسا. وهناك عُرض عليّ أن أُدرِّس. لكنني آثرت ان اعمل في وطني. قريباً سأؤسّس المدرسة. هو حلمي منذ أنا طفل.

كان يتكلم وحاجبا الأمير الكثيفان يرتقصان من فرح. وما هي حتى قام عن طَرّاحته ودعا الشاب اليها:

ــ اقعد.

ثم التفت إلى الحاجب:

ــ المعلم نقولا، هل هو في القصر ؟ قل له أن يتلطّف بالحضور. كذلك قل للمعلّم بطرس كرامي. وليبعثوا مرسالاً إلى الشيخ ناصيف اليازجي.

انقضى يومان والشاب وأُمُّه ضيفان على الأمير. حتى اذا قَدِم المعلم ناصيف ــ وكان يرافقه ولدان صغيران، الواحد

في نحو الثانية عشرة والآخر في حدود السابعة ــ واكتمل عقد المثقفين الذين يؤلفون البطانة، أُدخلوا جميعاً على بشير الثاني. وكان الضيفان قد سبقاهم إلى المثول بين يديه. فقال للشاب:

ــ حدّث أصدقاءنا حديث أوّل امس.

فقال:

ــ معذرةً، ايها السادة، كنت التمس مساعدة مولاي في اقناع أُمّي بان لا ترغمني على قبول العمل في مصرف. أنا شابّ قُيّض لي أن أحصّل في توسكانا، وأودّ أن أؤسّس مدرسة في الجبل. هذه كل قصتي.

فقال الأمير:

ــ أول أمس تكلمت على التعليم وكيف أنه أشرف مهنة. وقلت أنك تؤثره على تولّيك عرشاً ان عرض عليك. ذكرتَ ان للتعليم في لبنان اياماً مجيدة او شيئاً من ذلك. هل لك أن تعيد الحديث على هؤلاء السادة ؟ اقترب مني. إقتعِدْ هذه الطرّاحة. هنا هنا. هؤلاء الأئمة يفقهون قولك. انهم رجال معرفة. لم تقل لهم انهم، في فلورنسا، عرضوا عليك أن تُعلّم، فرفضت مؤثراً ان تعمل في لبنان. لماذا، لماذا لا تتحدث اليوم شأنكَ أوّل أمس ؟

فشكَّ الشاب بعض الوقت ثم رفع عينيه.

ــ ما قلتُه، ايها السادة، أمرٌ عادي، لولا أن مولاي تنازل وعطف عليه. على أيّ حال، سأحاول أن اتذكّر ما ارضى أميرَ لبنان.

ويروح الشاب يقص قصّة التعليم في لبنان. ها هي أوّل مدرسة في العالم تتأسس ــ على ما يرجّحون ــ في جبيل، وإن أُجريت حفرياتٌ على شواطئ فينيقية فلا يُستبعد ان يُعثر على كتب محفورة على الآجرّ، كانت تدرَّس في مستهل التاريخ. ثم يُطلُّ عظام العالم: هذا مارك أُوريل الامبراطور الذي وضع في الخُلُقيّة ما يُعتبر، بعد أسفار الدين، اجملَ كتاب خطّته يدُ البشر. انه تلميذ معلّم من عندنا هو مكسيم الصوري. هذا كاتون الأوتيكي. عَقِب اعلان حكم الطغيان ينتحر مردداً: « لا يعيش كاتون بعد أن ماتت الحرية ». انه، هو أيضاً، تلميذ معلّم من عندنا اسمه انطيباتر الصوري. هذا يوحنا فم الذهب، أخطبُ خطيب اطلعته المسيحية، انه تلميذٌ لليبانيوس، المعلّم الذي أسس مدرسة في انطاكية، وكان يسند دخله دخل كرْم بقي له في شمالي لبنان، ولإعجاب المفكرين به قصده الناس من أقاصي الأرض يتتلمذون على فصاحته قبل

ان يصبحوا قديسين أو أباطرة. هذا شَيشرون أخطبُ خطباء الدنيا. انه، هو بدوره، تلميذ معلّم من عندنا يُدعى زينون الصيداوي.

وتطول قصة المدرسة في لبنان. تطول مجيدةً، بينما حاجبا الامير يستمران يرتقصان من فرح. حتى اذا يقول الشاب: بلى، ايها السادة، يمكننا، كما ترون، ان نضع كتاباً بعنوان « كُنّا معلمي معلمي العالم »، تنحدر دمعتان كبيرتان على خديّ الأمير.

وقيل أنها المرة الأولى التي بكى فيها بشير الثاني.

وفي اليوم التالي كان صغيران، جاءا بمعيّة الشيخ ناصيف، يزوران الشاب في غرفته الفخمة.

هذان كانا قد بقيا في الباب عندما راح الشاب يتكلّم في حضرة أمير لبنان. ولكنهما سمعا الحديث جميعاً. لم يُعطيَا ان يمثلا بين يدي الأمير، الذي انشغل عنهما، مع ان اليازجيّ كان قد وعد ذويهما بأن يقدّمهما له، لوفرة ما يتوسّمه فيهما من ذكاء.

ــ انا اسمي يوسف، قال كبيرهما، يوسف الاسير، ورفيقي اسمه بطرس، بطرس البستاني. جئناك لنتعرّف إليك ونعلنك اننا متى كبرنا سنفتح، نحن أيضاً، مدرسةً في

الجبل، لنكون خليقَيْنِ بالسلك اللبناني الذي أطلع مُعلّمي معلّمي العالم.

وكانت أمُّ الشاب تسمع.

فالتفت نجلها إليها.

فاذا هي تبتسم. ويبتسم لها الصغيران.

قلبُهـا

كان قد رآها، في احدى رحلاته إلى صيدون، تلمّ زيتوناً في ظاهر المدينة. وتَحَمَّلَ نظرتَها القاسية وهي تُخرس على شفته كلمةَ « احبكِ ».

منذ ذلك اليوم، عاد لا يذكر من الدنيا سوى عينين سوداوين.

وراح يقنع والده، القائد المتقاعد، بان تَنتقل أُسرتهم من عسقلان إلى صيدون، مدينة النور.

ــ تريدنا إلى السكنى في مملكة عدوّة ؟

ــ لا تتكلم هكذا، يا أبي. ومنذ متى نحن اعداء

صيدون ؟ كان الشعبان واحداً، يوم غزونا الفراعنة وحَكمنا بلادهم. كلا شعبينا فرعٌ من حلف الهكسوس. عرفنا المجد معاً. انه لإثمٌ ان نحرِّض الفلسطنيين على الصيادنة.

كان القائدُ يُصغي إلى ابنه واصابعُه تضرب بعصبيّة على منضدة أمامه.

ــ هكذا تشاء السياسة، يا بنيّ. اقتصادنا في ورطة. لا نجاة لفلسطين إلا بموت صيدون. نصف ذهبِ العالم مكدَّسٌ في صيدون.

قال، فاذا لقوله وقْعُ الصاعقة على الشاب الذي نظر إلى والده نظرة مرّة، ثم ترك الحجرة.

ــ بِلتسا.

ــ مَن ؟ هذا انت ؟ منذ متى تناديني باسمي ؟ لا نصيب لك عندنا، ايها الفلسطيني: قد يرضَى والدي، اما أنا فلا. عُد إلى بلادكم، ايها السيد، ما انا سوى فلاّحةٍ بنتِ فلاح. انتَ ذو ثراء وجاه. وبنات فلسطين حسان.

ــ بِلتسا ! ما جئت لهذا. لقد خَنَقْتُ خاطرةَ الزواج. أما حبّي فله عليّ شأن آخر.

« اسمعي: هل تُحبّين صيدون ؟ ».

ــ بلادي ! إنها كل شيء بعدالة الآلهة.

ــ إذن أدّي قسطَكِ من حمايتها.

ــ لم أفهم. وما معنى « قسطي » ؟

ــ صيدون في خطر. أسهمي في الدفاع عنها.

ــ مضحكٌ أنت، أيها الفلسطيني. صيدون سيّدةُ البحر، من يجرؤ ؟...

ــ هناك شعبٌ شقيق يستعدّ لمهاجمتها.

فقهقهت:

ــ يهاجمون صيدون ؟ إمضِ امضِ... لا نصيب لك عندنا.

فانتفض الشاب، وراح يقبض على كتفيها بيدين موجعتين ويهزّها كأنه يحرك منها الصميم:

ــ قلتُ انني أبعد ما أكون عن خاطرة الزواج. المسألة اكبر منكِ ومني. يجب أن تذهبي إلى مجلس الشيوخ في المملكة. وسألقنكِ خطاباً تلفظينه فيهم.

ــ انا، الفلاحة، ألفظ خطاباً ؟!

ــ نعم انتِ.

فازدادت ضَحِكاً:

ــ لم أُطعِمْ بَقَراتِنا بعد.

ــ إسمعي يا بِلِتِّسَّا: كان، في قديم الزمان، شعبان متآخيان. فاتفقا وغيرهما من الشعوب المتحالفة على غزو بلاد الفراعنة. كان الفراعنة لا يقتنون الخيل. فتغلّبوا عليهم بها وحكموهم نحواً من مئتي سنة. وأخيراً دار دولاب الزمن وثارتْ مصر وتمكّنتْ من طرد الشعبين ورفاقهما. هل تفهمين؟

ــ هذا افهمه.

ــ وافترقا في الهزيمة: شعبٌ ذهب إلى بحر إيجه، الذي كان قد استوطنه أقرباءُ له، والآخر عاد إلى بلاده، إلى بلادي.

ــ ولماذا لم يرجع الشعب الأوّل إلى وطنه؟

ــ رجع فيما بعد. فلحق به ملك مصر يُقتِّل منه ويذبِّح. ثم رضي عنه وأسكنه غزة واشدود وعسقلان.

ــ هذه مدنكم.

ــ أجل مدُنُنا. استوطنّا فلسطين مشتقين اسمها من اسمنا. ونمونا في ارجائها. وها نحن الآن نطمع بمهاجمة صيدون.

ـــ أممكن هذا ؟ أآخوانِ ويقتتلان ؟

ـــ سنهاجم صيدونَ الليلة. حملتنا دُبّرت بتكتّم مطلق.

« الشعب، عندنا، لا يعرف إلى أين سيقوده قواده. ستؤخذ صيدون غفلةً من حيث لا تتوقع.

ـــ الليلة ؟! حذارِ ان تكون كاذباً. أقسِمْ.

ـــ بعينيك السوداوين أُقسم.

* * *

ندوة الشيوخ في صور تُعنى بشؤون الصيادنة النازحين بعد دمار مدينتهم وسلبها كنوزها ومحتوياتها الثمينة.

توحدّت مجالس المملكتين وخطب الأعضاء متوعّدين. وتكلم بعضهم وهم يجهشون بالبكاء.

ولكن الجميع وضعوا المستقبل تحت شعار كلمتين: « أمل وعمل ».

في تلك الجلسة الخطرة تقرّر تكبير صعور: وَصْلُ ما بين الجزر الثلاث، بناءُ باليصور على الساحل، خصُّ ملقارت وعشتروت بأفخم هيكلين في العالم.

وعندما خطرت بِلْتِسًّا فجأة بين الحضور. هَتف أحدُ النواب الصيادنة: « هذه هي. الفلاحةُ التي أنذرتنا. راحت

تهدّدنا بالقتل ان لم نُعلن النفير العام. أهلها جميعاً ماتوا في المجزرة ».

فتحمّس لها أعضاء الندوة. واقترح بعضهم ان يخصّها المجلسُ بمعاش تُعطاه مدى الحياة، وتقدّم نائبٌ موسر بطلب يدها.

فرفضت الأمرين.

الحياة تسير سيرتها القديمة في كنعان والناس يتعوَّدون النكبة.

أما بِلتْسا، فقد راحت تعيش من حليب بقرة تُربضها في ظاهر صور. تماماً كما كان أهلها يُربضون ماشيتهم في ظاهر صيدون.

على أنها كانت، كلّ يوم، متى فرغت من عملها، تجمع باقةً من الورد وتحملها إلى قبر تقول لسائلها فيه انه قبرُ زوجها.

وفيما يروح بعض الصيادنة، الذين لم ينسوا، يلعنون إسم فلسطين، تقول هي: « أما قلبُ فلسطين الحقيقي فقد رأيتُه يخفق شريفاً بين يديّ ».

مرثية الإسكندر

ذات يوم أوقف العسَسُ في صور جاسوساً إغريقيّاً.

وعذبوه كَيّاً بالنار.

فباح بما أقلق البال.

ــ الاسكندر، قال، سيتوّج نفسه عاهلاً على الشرق والغرب في مدينة صور.

الاسكندر ؟ ابن فيلبّوس المقدوني ؟

لم يكن يغيبُ عن بال أحد، في الممالك الكنْعانية، أخبار الملك الشاب.

كانت ظروفٌ عَجَبٌ قد جاءت بأبيه إلى عرش اليونان

جميعاً، وصدفةٌ أعجب جعلت الابن يرث المِلْكَ دون اخيه.

كان قد سيطر على أثينة رجلٌ يقدّس العقل واليَدَ المُبدعة. بركليس بن ملتياد بطلِ مارتون. فاستخدم جميع أموال الحلف الاغريقي لجعل أثينة عاصمة الفكر إلى الأبد.

عندما جاء بالمهندس إكتينوس وبالنحات فدياس للتصميم قال لهما: « أريدكما تطيران. أموال أثينة واسبرطة وثيبة جميعاً في امرتكما، وكلٌّ من تتوسمون فيه العبقرية ».

وعندما كانت أثينة تخرج من الازميل محفورة على اللازورد، بيضاء، مرمراً بمرمر، أو تنجبُ شاباً يَرهف عقلهُ، حتى ليرسل الخواطر عرائِس ساحرات، كان بركليس يقول: « لا لن يحنق الأغارقة عليّ. الأغارقة يحبّون الجمال. سيغتفرون لي أني بدّدت مالاً جُمع لصيانة الطمأنينة، أو لفتح الممالك، وأقمت بدلاً من ذلك أثينة العظمى، تلك التي ستَفتح لهم أبواب الكون والزمان ».

وكان الأغارقة، عند ظَنّ بركليس.

لكن أصابعَ الفرس راحت تلعب.

وبعد موتِه أمكنها أن تنجح.

مَدّ الفُرسُ أخصامَ بركليس بالمال، ومدّوا حزبه بالمال.

حتى عمَّ التناحرُ الداخلي، فراحت السيادةُ تتدحرج بين أثينة واسبرطة وثيبة، وأخيراً بينهنّ جميعاً وبين مقدونية بشخص الملِكِ فيلبّوس.

كان فيلبوس، في زمن ما، أسير ثيبة. ولكنه عاد وأفلت. وراح يدرّب جيشاً سقَطَت أمامه الحاضرةُ تلو الحاضرة، حتّى دانت له بقعةٌ من الأرض تمتدّ من بحر إيجه إلى الدانوب.

وماتت أُولَمْبياس، أمّ الاسكندر، والاسكندر طفلٌ بعد، فنشأ محرومَ حنان الأمّ. لذعةٌ أبقت له شراسةً لم يخفّف منها تحصيلُه العلم على يد أرسطو.

إلاّ أنه أخذ، عن ذلك العقل الفريد، حُبَّ الحقيقة، والثقةَ بها، ومعرفةَ نَظمِ التفاصيل بالكلّ.

وذات يوم كاد ينطفئُ الاسكندر قبلَ ان يُصبح الاسكندر.

كان ذلك لخلافٍ في القصر يتأكّل الفتى وكليوبترة زوجةَ أبيه.

ففي أثناء مأدُبة شرِهة، بلغ الغضبُ بفيلبّوس المختمر أن استلَّ سيفه للاجهاز على ابنه. ولكنه سقَط على الارض لشدّة حُميّاه. وسقط سيفه.

وهكذا نجا الشاب.

وترك المملكة.

وكانوا قد فرغوا من اقناع فيلبوس بالتنازل لابن كليوبترة.

لكن الملك مات قبل أن يُحقّق إرادَته.

عاد الإسكندر إلى البَلاط، فتى نزِقاً يستخفُّ به الناس.
ولكن ما هي ضربةٌ منه حتى عرفوا فيه تلميذ ارسطو.

الفرس أعظَمُ دُول الأرض إطلاقاً.

الفرس أعداء الأغارقة.

ذات يوم داسوا أثينة ودنّسوا آلهتها.

الفرس، هؤلاء، حان لهم أن يعرفوا الجواب.

درّب النابغةُ الشاب، طوال سنتين، جيشاً من أربعةِ وثلاثين الف مقاتل. وتوجّس الناس خطَره في كل القارّات.

ــ « أقسم ابنُ فيلبوس ليتوَّجنّ في صور مِلكاً على آسية وأوروبة ؟

« أقول لكم: الاسكندر لن يترك وراءه ممالك غير مفتوحة. والا أبقى اليونان مكشوفة.

« هذا لا يعني انه فعل. سوى ان المقدونيَّ الشاب عنيد »

هذا ما اختتم به خطابه مِرْدِيا الشيخ، داهيةٌ صوري عَجَم السياسة وعجمته سحابة خمسين عاماً.

وبعد أشهر كان الاسكندر ينصبُ جسراً من الزوارق على البوسفور ويشكُّ سيفه في الشاطئ الشرقي يطمره في التراب، مبقياً، كما قال، مجالَ تمجّد لمن سيبحث عنه.

ـ. الاسكندر على أبوابنا، زأر مِرْدِيا في البرلمان الصوريّ.

ـ لا، أجابهُ آخر، انه سيتوجّه إلى عاصمة داريوس.

ـ صور هي الطريق إلى داريوس.

ـ تتشاءم، يا مِردِيا. تراك بتّ تخاف ؟

فلم يتنازل مرديا إلى الردّ. واستطرد:

ـ أوَ يتركُ المقدونيُّ أساطيلنا سليمة ؟ لم ينس الأغارقة « سلامين ». كانت نصراً لهم. ولكن سفننا هي التي ردّته باهظَ الثمن. تجب تقويةُ الاسطول وتعزيز تحصينات صور الجزيرة.

ـ صور لا تُغلب، قال سياسيٌّ شاب.

فوقف الجميع ورددوا النشيد الذي مطلعه « صور لا تغلب ».

إلا الشيخ مرديا. بقيَ صامتاً يتأكّل اسنانه الغيظ.

ولمّا أتمّوا النشيد

ــ مرّة غُلبت صور، قال لهم بهدوء، فلتكن عظة.

واتخذ الشيوخ قرارات خطيرة في جلسات دامت لياليَ ثلاثاً متعاقبة.

لكن مِردِيا بقي غيرَ راضٍ.

وسُمع ذات يوم يقول:

ــ سيَضطرونني إلى العمل وحدي.

جيشا الفرس والأغارقة يتجابهان الآن عند انطاكية.

داريوس الثالث على رأس ثلاثمئة ألف مقاتل، والاسكندر متوغلّ في مضيق ليلان على رأس جيش يقال حُفنة.

ــ صبيّ من صور في الخامسة عشرةَ يريد مقابلة الاسكندر.

ــ لِيدخلْ.

وما هي حتى أخذَ جيشُ الفاتح يتراجع.

ولكن داريوس هرب في اليوم التالي، مُخلِّفاً في ايسوس تسعين الف قتيل، وعشرة آلاف فارس، وأسرى عذِيدين بينهم أُمُّه وامرأته واخته وابنه وبنتاه وعشرات الوصيفات. وترك وراءَه ثلاثة آلاف وزنةٍ من فضة.

ما كادت تصل الأنباء إلى صور حتى انعقد البرلمان بجميع أعضائه الا مِرْدِيا.

ــ كان يستقبل وفداً من لدن الاسكندر، جاءه يقدّم شكر بطل ايسوس، وقد حمل اليه هديةً ثمينة من ثلاثين وزنة.

فقام المجلس باجمعه إلى قصر الشيخ.

ــ المسْألة سهلة، قال مِرْدِيا للمستوضحين، وددتُ ان لا أورّط صور، فورّطتُ نفسي.

« عندي هذا اليتيم ربّيته منذ هو في الثانية، فكَبُرَ، لا ذكياً ولا مسدودَ الذهن، ولكنه يلذّ له حلُّ المعضلات.

« هو اليوم يناهز الشباب. اليس كذلك، يا اسكندر ؟ عذراً لقد نسيتُ أن أقول لكم انه، هو أيضاً، يسمّى باسم رجل اليونان، لصدفةٍ أو لغير صدفة.

« ما عمِلتُ يوم غلبتموني في البرلمان ؟ أرسلتُ الاسكندر الصغير إلى الاسكندر الكبير. ويبدو انهُ وفّق. مَرّ

صدفةً بجبل داغ، فرأى كيف تسيطر جحافلُ الفرس الجرارة على تلك القبضة من الوف الاسكندر.

« وكان أن نصح المقدونيَّ باخلاء المكان ».

وقال الصبيّ:

ــ وصفتُ له الموقع، فاذا بنا ننتهي إلى الاستنتاج الواحد: ضرورةِ التراجع إلى ايسوس.

« وانتصر ».

راح الجميع يطرون دهاء الصبيّ.

وعرض عليه رئيس ندوة الأغنياء منصباً حكومياً.

ــ لا لا، قال مِرْدِيا، إنّ له شغلاً في قصري أنا. عندكم قد يصطدِم بمن يبخلون على حصوننا بالمال.

كان قد اقبل الهزيع الثالث من الليل، ولأنّ بعضهم لم يستطع ان يعضَّ يدَ مِرْدِيا، قبّلها ووضعها على رأسه وتمنّى له ليلةً طيبة.

ــ الاسكندر يهاجمنا.

ماذا ! بعد انتصاره في ايسوس، وفقاً لخطّة فتىً صوريّ، يروح يجزي صور ناراً وحديداً ؟

هذا ما كان يتخطّى عقولَهم في المملكة.

ولكن الحوادث كانت تجري سراعاً.

استسلمت له أرواد نفسها. ولما رفض عروض الفرس، الا اذا اعترف له داريوس بمُلْك آسية، قامت صيدون إلى استقباله.

الفاتح يقترب.

صور الآن مُوحَدة!

وقرطاجةُ بعيدة.

وقام أعضاء البرلمان إلى دار الشيخ مِرديا.

ـــ صديقُك، قال احدهم، صديقك يهاجمنا.

ـــ ما قولُكَ لو نسميّه صديقَ الذين أبوا عليّ تحصين المَمْلكة ؟

فوجموا للحجر يرميهم به مُصيباً.

ـــ انكم خونَة، تابعَ مِرّدِيا، ولسوف تُصلبون على الشاطئ واحداً واحداً !

فعمَّ الاستنكار. وخرج البعضُ من قصر الأسد. لكنهم ما لبثوا ان رجعوا يستعطفون الرجلَ الذي. تكهّن، منذ البداية، بالمصير المخيف.

ـ سنرسل إلى الاسكندر وفداً ليّناً قاسياً، قال رئيس ندوة الأغنياء، فهل تُريد ان يكون فتاكَ في اعضائه ؟

ـ لا، زأر مرديا. ولو أن الاسكندر قادرٌ قدْرَ خدمتي له لما هاجم مدينةً كنعانية.

ودخل حاجبٌ يقول: « رسولٌ من لدن الاسكندر يريد مقابلة الشيخ مرديا ».

واستقبله الأسد بحضور اعضاء البرلمان.

وشعر الجميع بأن الرسول مكلّف ابداء أصدق كياسة. حتى اذا اخذ يُلمع إلى مطالب صعبة، قال مرديا موضِحاً:

ـ أفهم من أقوالك أن سيّدَك لا يودّ فتْحَ صور، ولكنه يودّ ان يضحّي فيها للاله ملقارت.

ـ هذه، بالتمام، رغبَةُ الاسكندر.

ـ أو يصرُّ عليها ؟ استفهم مرديا.

فبدا الرسول حازماً.

فزأر مرديا:

ـ إذن، أبلغه رفْضَ البرلمان الصوريّ. وقل له: قد يحطّم الاسكندر صور التي لم تُغلب. لكنها ستقضِم الزّمن بين يديه.

وخرج الرسول.

وقال رئيس ندوة الأغنياء:

ـ تصرفك نبيلٌ، يا مرديا. يَدخُلُ الاسكندر ولكن على جثثنا جميعاً.

وعندما خرجوا من قصره كان الأسد فَرِحاً.

وراح يردد:

ـ « يدخل الاسكندر ولكن على جثثنا جميعاً » هذه، هذه كلمة صور.

في مدى أسبوع ذهب الاسكندر الصغير، ربيب مِرْدِيا، ثمانيَ مرّات إلى الاسكندر الكبير.

ولكن عبثاً.

فبعثه مِرْدِيا مرّةً أخيرة يرّد إلى الاسكندر هداياه.

ولما عجز الاسكندر عن انطاق الصغير ولو كلمة، أدرك ان مِرْدِيا انما قصد بذلك قطيعةَ النهاية.

لم يمضِ يومان حتى كان الفاتحُ على ابواب صور.

تُراه أوجس ما سيكون من مصيره، أمام الحاضرة المتشامخة، فسلّ سيفه وقال: « مدينة البطولة سلام ؟ ».

بلى، لأول مرة، تهيّب بطلُ ايسوس عدُوّاً.

رأى ان احتلال باليصور ــ مدينة اليابسة ــ امرٌ صعب فاضطُرّ إلى انزال نخبة الجيش ثم حرسِه الخاص.

ثم أدرك أن عملياته على اليابسة ليست الحرب التي اعدّها له الصوريون. ان هي الا تحويلُ نظر وكسبُ وقت.

المعركة الساحقة الماحقة، تلك التي ستبرهنُ فيها الحاضرة الكنعانية عن ازدراء للحياة محبة بكرامة الحياة، هي معركةُ صور الجزيرة.

إن الذين اعتزموا أن ينتصروا، أو يموتوا على بكرة أبيهم، كانوا يعرفون ان يتغلبوا على الفَجَع والترف ثم على الجوع والعطش.

ــ تُرى كان للصوريين سراديب تحت البحر، تمدّهم بالمأكل والمشرب، أم أنهم يعرفون، كبعض الثعابين، أن يأكلوا أشهراً ويصوموا أشهراً ؟

وانقضى على الحصار نصفُ عام، وكأن المعركة لا تزال في البداية. وكان فتيانُ الجزيرة يوجّهون إلى جيوش الاسكندر، مع السهام، رُقماً كُتبَ عليها بالاغريقية: « تعلّم كيف الحرب، أيها الاضحوكة... ».

ويغضب قواده للاهانة. فيقول:

ــ وحَقّ زوش لكأنني أتعلّم !

وأقلع عن الحصار. ثم أمر بأن تردم الترعةُ التي ما بين المرفأين: الصيدوني والمصري. فشَغّل نصف جيشه بقطع الشجر والصخر، وبدكّ القصور ودحرجة اعمدتها الضخمة إلى المضيق. بيد أنها كانت طويلةً ومضنية تلك العمليّة. نهكت الجيش وأضحكت البحر، صديقَ الصوريين.

ولكن الأنقاض تكثرت !

عندئذ هَبّ الصوريون إلى العمل.

ارتجلوا عصائبَ من السبّاحة الاشداء يغطسون إلى قعر المياه، ويُسهّلون لأدوات الاسكندر سيراً على بركات التيار. فينهار ما يكون قد نصب الفاتح. وتنهار آماله.

وتجري معارك في البحر، صدراً لصدر. ويُطعم الصوريون اسماكَهم من زهرَة أبناء مقدونية.

ويسيّرون براميلَ من الزفت والكبريت، في مثل الأشرعة، حتى اذا وصلت إلى عصبة من عمّال الاسكندر انفجرت نيرانها عالية تكوي وتشوي.

ويرى الاسكندرُ أن يضرب فينيقية بعضَها ببعض، فيسخّر اساطيلَ صيدون وجبيل وارواد وقبرس، يأمرها بصدّ المهاجمين وتحويلهم عن المشتغلين في بناء الجسر.

ويرى الصوريون، أخيراً، أن الحرب يجب أن تبدأ وبَدأوها.

حملوا على اسطول قبرس فدمروا ثلثيه.

إلاّ أن الأسكندر كان قد توقّع الامر، فاعدّ لهجوم معاكس ينشِب غور تَعَب الاسطول الصوري.

وهكذا لم يُعطِ الاسطولَ الصوري هدنةً، بل كَرّ من الشمال موقعاً أبطالنا بين نارين.

انقضى سبعةُ أشهر على الحصار، وقلّ المأكُلُ، وصعب تكريرُ مياه البحر لتوالي الهجمات. وراحت النسوة في المدينة يغرين ازواجهن واولادهن بالحلى إن هم قاتلوا رُغم الجوع والعطش.

وكانت بعضُهُنّ ترمي بولدها إلى البحر، أو تقتل نفسها، صارخة في وجه زوجها: «لم يبق شيءٌ. إمضِ إلى المجد ! ».

ورحن يتفنّنّ في التضحية، فتقصد السّباحات، افواجاً افواجاً، إلى الأسطول المقدوني، فلا يصل من الفوج سوى واحدة...

ولكنها تكفي !

ها هي بارجةٌ مقدونيّة تنفجر. ويتطاير نارٌ ورجال.

الا أن للبطولات حدّاً، ولو أنها من هذا الضرب العَجب وابطالها، كذلك، نسوة.

وشعرت صور الجزيرة بأنها هالكة، فتنادى القواد وعقدوا مؤتمراً تحت النار والشواظ، لم يستغرق سوى دقائق، خرجوا منه ووجوههم تطفح بالبشر.

وقيل أن امرأتين، من اللواتي استبسلن في الأسطول، اشتركتا فيه مسموعتَي الصوت.

ما تقرر في ذلك المؤتمر ؟

سرٌّ طُوي إلى الأبد.

كل ما يُعرف ان خمسَةً من الذين ائتمروا قاموا إلى البارجة التي يقاتل عليها الشيخ مِرْدِيا، يحملون اليه رقيماً كتب عليه بالدم: « إن قوّاد صور الجزيرة، الذين اعتزموا ان يمضوا في القتال حتى الموت أو النصر، يبعثون إلى مِرْدِيا، قبل خوضهم المعركة كجنود عاديين، بتحيتهم له على اثنين: انذاره المجلس قبل سنة، ومقاتلتِه — رغم سنّه — في خط النار الأول ».

كان مِرْدِيا يتسلّم الرقعة عندما لفته ربينُه:

— ها هو الاسكندر يُطلّ على السور.

ويصرخ مقدونيّ.

ــ الاسكندر يدعو الشيخ مِرْدِيا إلى مقابلته. ومن أجل ذلك يأمر الحملة المقدونية وحلفاءَها بأن يكفّوا عن القتال.

ويتوقّف السلاحان.

وتكون هنيهةُ صمت أكبرُ من التاريخ.

وتشخصُ العيون إلى بارجة مِرْدِيا.

ترى ما يفعل الأسدُ الصوريّ ؟

إلاّ ان مِرْدِيا بدا على قادم السفينة وإلى جانبه رجلٌ يصرخ:

ــ إن مِرْدِيا يبلّغ الجيش المقدوني وحلفاءَه انه يرفض مقابلة الاسكندر. ان الذي داس قداسَة الأرض الصوريّة لأشرس من الذي مزّق شرف الصداقة .

وعاد المقدونيّ يقول:

ــ إن الاسكندر، الوفيّ لصداقاته، يؤمّن ربيبَ مرديا على حياته.

وفجأةً سُمع صوت الصبيّ:

ــ ان ربيب مرديا يؤثر الموت إلى جنب سيّده، على الحياة في بلاط الاسكندر.

عندئذ غاب الفاتح من على السور.

واستؤنف تبادل النار.

وراحت بارجة مِرْدِيا ــ ومرديا على مقدّمتها بهيكله العملاقي الاغبر ــ تختَرق خطّ اللهيب تَرشق وتُرشق، حتى احترقت بمن فيها.

صُلِب على شاطئ صور ألفا مقاتل، وأُعدم ثمانيةُ آلاف، وسُبي ثلاثون الفاً، وبيعت النسوة والاولاد عبيداً، وشُتّت شملُ الباقين إلى قرطاجة. ولكن الاسكندر كان يقول:

ــ اثنان توقف عندهما خيط حلمي: صورُ العظيمة ومرديا أبو الذي أكسبني إيسوس.

أفضل من وضع كتابا

عام ٩١٢ للمسيح، كان في القصر المَلكي بأريفان شيخٌ مهيب ينازع.

الاطباء يدخلون عليه ويخرجون، ثم يتوجّهون إلى مقاصير المَلِك يُدلون برأيهم في سير المرض.

ــ هل من امل ؟ يسأل سنحاريب.

ــ املٌ ضئيل، يتمتم بعضهم. ويَسكُت آخرون.

ــ ولكنْ، ما يقول هو عن نفسه ؟

ــ الحقيقة، يجيب كبير الاطباء، أن العالِم الشيخ لَيُضللنا. نُشخّص حالةً فيردّنا إلى أخرى، ويروح يعبث

ويضحك: ليتنا نقدر على تناسي شخصيّتِه الطاغية.

وتتغضّن جبهةُ سنحاريب.

ــ سنذهب نحن إليه. تعالَوا تعالَوا. قسطا بنُ لوقا يجب أن لا يموت.

ويترك المَلِك قاعةَ العرش، فاذا بالباب طبيبٌ شاب يَبكي.

ــ المعلّمُ ينازع!

ــ هذا رأي، يُقاطع كبير الأطباء

فيُصرُّ الطبيب الشاب:

ــ يا ليت! مع أن ذِهنَه في ذروة توهّج.

فيحثُّ الملِكُ الخطى والجميع خلفه كأنما هُم في موكب.

ها هي الأعمدةُ من القصر المَلكي تغيب خلف الأعمدة، لا تقِلُّ مهابةً عن وجه سنحاريب البهيّ إلى تجهّم.

ويُبصرون بعيد يُطفئ النار في مجمرة من ذهب، معنَّقةٍ عالية، يرتفع منها دخانُ ندّ.

ــ لماذا؟ يسأل سنحاريب.

ـــ عفوَ مولاي، الطبيبُ الشيخ تُزعجه رائحة النّد.

ـــ أطفِئْها.

ويُكمل المِلكُ سيره.

هو الآن امام مقصورة المريض الكبير.

فيقول قائل:

ـــ الطبيب يُحشْرِج.

فيتهيّب سنحاريب قبل الدخول، ثم يدفع الباب بتؤدة.

انه الآن لعِنْد السرير، أمام الوجه الحبيب المتألّق.

ـــ أنا سنحاريب، يا عزيزي قسطا.

فيُدير العظيم عينيه، فاذا هما ملآنتان بالحياة، ثم تروح ابتسامةٌ تلّون فَمَه.

ـــ عُذراً، يا مولاي، هذه المّرة لن أقوم لك. المرض... المرض...

فيصطنع المِلكُ المَرَح.

ـــ هذه المرّة، امسكتك يا ابن لوقا. قلتَ « المرض » مرّتين. لكم كنتَ تأخذها على المؤلّفين. تزعمُ انك لا تكرِّر كلاما. « أقلّ ما يكون من قول لاكثرِ ما يكون من

معنى »، « كلامُكُم اجعلوه من ضوء »، كنتَ تردّد في تلاميذك والمريدين.

فيهزّ الطبيب رأسه.

ــ تَذكُرُ ذلك، يا مولاي ! ما أبعدنا عنه اليوم. ولكن أعنّي، رعاك الله، وددتُ لو أجلس.

ويحار سنحاريب: أيستجيب لطلب المدنَف الغالي أم يُحجم ؟ ويدركُ قسطا ما يجول في ذهن الملك.

ــ إفعل، يا مولاي، لا تخشَ : لا يزال بي بقيّةُ رَمَق. بوسعي أن أُرحّب بك كالمعتاد، ريثما يزورني صديقي الموت.

فيعود الملك إلى اصطناع المَرَح.

ــ صديقُك الموت ؟ ركلتَه برجلك، قال لي الأطباء.

ــ ضع زندَكَ خلف ظهري، يا سنحاريب العظيم. لآخر مرّة تمدّ يدك إلى طبيبك.

ويندفع فاذا هو جالس.

ــ هكذا. والآن نتحدّث. طمأنك الاطباء إلى أن هناك أملاً ؟ يعرفون مدى ما يكون من تأثّرِكَ فلا يصدقُونك القول. اذكياءُ هم إلى حد ان يدركوا انه لم يبقَ لي سوى

دقائق. قد تطول إلى أربعين، إلى خمسين. ولكنها، على أيّ حال، لن تبلغ الساعة. بيد أن وجود مولاي إلى قربي سيُفيد. وقد يزيدها. تفرحُ في وجه من تحبّ فتمدّه بقطراتٍ من إكسير الحياة. أتذكُر، يا مولاي، يوم استقدمتَني من بغداد ؟ هذا ليس امس. ولكنه كأمس. لقد عمِلتُ شيئاً هنا ! ألا تُقرّني ؟ اثنان وثلاثون كتاباً في الطب...

ويقاطعه الملك:

ـ وفي سائر العلوم ؟ في الفلك، في المنطق، في الرياضيات والفلسفة والتاريخ، هل تذكر كَم كتاباً وضعت ؟

ـ لم يبلغ عددُها عدد كتبي الطِبيّة. حسبتها منذ هنيهة. كان أحدهم يفحصني وكنت أعدّ الكتب...

ـ وكم بَلَغتْ ؟

ـ عدا التي على الطب، تسعةً وعشرين.

ـ أواثقٌ بأنك لم تنسَ ولا واحداً ؟

ـ من التي وضعتُها أنا ؟ لا. أما التي نقلتُ فلم احسِبْها.

ـ وأيُّها أحبُّ اليك ؟

ــ لربما كتابي « المرايا المحرقة ».

فيقول الملك:

ــ و « الاسطرلاب الكروي » ؟ اما تحبه ؟ و « الجزء الذي لا يتجزَّأ » ؟

فتتهلّل عينا المريض:

ــ حقاً يعجبك هذا الكتاب، يا مولاي ؟

فيؤكّد الملك بهزّة رأس، ويقول:

ــ رائع !

فيستطرد ابن لوقا:

ــ وأنا أُحبُّه. لربما كان لموضوعه يوماً أن يضجّ.

ويسأل الملك:

ــ ما تقول بمؤلفك « شكوك كتاب إقليدس » ؟ رحتَ فيه تستدرك ما فات أبا الهندسة.

ــ إنه جيّد. ولكن إقليدس عظيم.

ــ تصطنع التواضع، يا ابن لوقا، ويردّدون، في بغداد، أنكَ أعلمُ علماء العصر.

ــ في بغداد ! انهم طيبون. يلجّ بي إلى عهدهم خنينٌ، فارجع شاباً. ولكن هل تعرف، يا مولاي، انني مرتاح الضمير لأمر: انني عرّفت تلامذتي إلى نفر من الاغارقة

اعتبرُهم أساتذتي. مَنْ نقلتُهم إلى العربية يُحرّكون العقل.

فيقول الملك:

ـــ من تعني ؟ ارستارخوس واتوليكس ؟

ـــ ولم لا تذكر هبسكليس وديافنتوس وثيودوسيوس وهيرون ؟

فيسأل الملك ؟

ـــ وأيّهم تؤثر ؟

ـــ أؤثر ثيودوسيوس. هو الذي عنه نقلتُ كتاب « الكرة ».

فيتعابث الملك:

ـــ هذا، اعرف لماذا تحبُّه. إنه مواطنك. من طرابلس هو، من لبنان.

ويكون الطبيب الشيخ، في اثناء تلك الالتفاتة المَلكية، قد نسيَ ثِقلَ المرض عليه واندفع يتكلّم. الا أن تَعباً عاوده، فاذا هو يَلوي رأسه، فيتلقاه سنحاريب.

ـــ أرجعْني كما كنت.

واذا يستعيد وَضْعَ النائم:

ـــ يبدو، يا مولاي، انني سأموت... لا تحزن كثيراً.

تلامذةُ المعلّم هم دائماً خيرٌ منه. والا لما كان معلّماً. ولكنّ لي اليك رجاء: ان تبعث إلى بعلبك، مَسقِط رأسي، بنسخة من كلّ كتاب لي. إختر لها رسولاً أميناً، وليَقُل لأهل المدينة الجميلة إنني قضيت عمري أحلم بالعودة إلى لبنان.

وكانت « لبنان » آخر كلمة لفظها قسطا بن لوقا البعلبكي، الطبيبُ والفيلسوف والفلكي والمؤرخ والعالم بالهندسة والموسيقى. ذاك الذي سيعتبرونه « اكبرَ منطقيّ في لغة العرب »، ويقول فيه ابنُ القفطي « إنه افضلُ من صنّف كتاباً ».

أما سنحاريب فسيبني له ضريحاً بقبّة ولا أجمل، وسيكرّمون قبره، كما يقول عبيدُ الله بن جبرائيل، « كاكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع ».

.. وهو ابن ثلاث عشرة

هذا هو يخترقُ حقلَ سنبل، ووراءهُ رتلّ من اولاد مبعثرين.

ومن بعيد يصرخُ بهم ناطور:

ــ هاي... يا أولادَ الشر، خربتم الزرع !

ــ سيهجم علينا، يقول أحدُ الأولاد. الا تنظرون إلى عصاه ؟..

ــ صحيح ؟ يجيب هو. لماذا ؟

ــ ندوس الزرع، نُميت الزرع.

ــ بالاحرى نفرّقه بعضه عن بعض. يصبح أقوى. « أنا جئت لأفرّق ».

ويسكتَ الولد ناقلُ غضب الناطور. وهناك في البعيد يسكت الناطور. تراهما سمعا الكلمةَ التي سيتفوه بها بعد عشرين عاماً، مخاطباً من سيكونون قد عرفوه وعرفوا من هو ؟

ويمشي... ويمشون...

الحقلُ الذهبيُّ يغدو أجمل، وقد انطبعت عليه شُقرةُ شعره الرجوليّ الأجمّ.

ويبعد عنهمْ كثيراً.

وما هي حتى يلتفتَ اليهم ويصيح بملء صوته:

ــ من منكم يذهب إلى القرية يجلبُ لنا مأكلاً ؟

واذا الجواب من أفواه الجميع:

ــ أنا.

لكم كان بودّه أن يقولها واحدٌ منهم، لا أكثر، هذه الأنا التي لا تأبه الا للمأكل...

ها هو الآن على حافة بئر.

لا أحدٌ على هذه البئر.

لكنّ قلبه يطير في الغد، في السنوات البعيدات، يوم يكون على البئر هناك صبيةٌ بعمره أو أقل.

ـ اسقيني. أنا سأسقيك من ماء عَجَب. مَنْ شَرِبَهُ لا يعطش.

ـ تقولها ؟!... أوَ أنتَ أكبرُ من النبي الذي أعطانا هذي البئر ؟

ويكشف لها أسراراً.

فتهلع.

ـ ويحي ! يعرف ما لا يعرفه إلاّ الله.

ـ ومن قال لك إن الله لا ينزل إلى الأرض ؟

ـ ينزل نعم، ولكن لا ليسكنَ بيننا.

ـ بلى، يا حلوة. الناس طيبون أصلاً، وإن هم ضَلّوا فإلى وقت. والله لا يحب السُكنى إلاّ مع خلائق يديه.

ـ أنت هو.

ـ اسكتي.

قالها لأنه كان لا يزال كآبنِ ثلاثَ عَشْرة.

وتطير صوب القرية:

ـ التقيتُه. صدقوني. التقيت الله.

هذا فيما يكون الاولاد قد جاؤوا بخبز وعسل. ويتحلّقون. أمّا هو فيظل بعيداً.

ــ لماذا لا تأكل ؟

ــ كانت هنا أختُ ملائك. تبادلنا القول. لم أبقَ بحاجةٍ إلى مأكل.

ذات يوم يدنو منه أحدُ الاولاد:

ــ رفاقي، يقول، أنفقوا في السوق أكثر مما ينبغي.

ــ وأنتَ تُحِبّ المال أكثرَ مما ينبغي. يجيء يومٌ تبيعني.

وتتجهّمُ وجوهُ الاولاد:

ــ هو ؟! نقتله إنْ فعل.

لكن الولد المعنيّ بقي خارج تفكيرهم. راح يضحك. وبعد أن شكّ قليلاً رفعَ عينيه:

ــ لربما كان طريفاً أن أبيعك...

ابنُ الثلاثَ عَشْرة في الناصرة الآن.

أمّه مقتعدةٌ درجاً على باب بيتها تتشمس وتغني، وهو مُرْتمٍ على ظهره ورأسُه في حضنها.

ــ أُمّي، هذا الجبل الذي فوق يُعجبني.

ــ لبنان !

ــ نعم أُحبه لبنان. أتصورنا ذاتَ غدٍ أنتِ وأنا في واحدةٍ من قراه هناك. اسمها، يا ربّ، ما اسمُها ؟... مانا... سانا... قانا... شيء كهذا.

« ويكون أن تطلبي مني تحويلَ عنصرٍ إلى عنصرٍ آخر. ماء، مثلاً، إلى خمر.

« وارفض.

« كأني لست أنا الذي يقدر.

« لكنك تُلحفين.

« كيف تعرفين، يا أمّ، أنني أقدر ؟

« وتقولين لي:

« ــ وحدي أنا أعرف. أما أنا التي اليها جاء ملاك العليّ وبشّرها بك ؟

« على انني أُصِرّ. وأُخاطبكِ غيرَ رافعٍ كلفة. ببرودة. لا « يا أُمّي » وانما بشيءٍ من جفاف.

« ــ لن افعل، أقول، لقد تقرّر، فوق في السماء، بيننا نحن الثلاثة، ابي والروح وأنا، أن تكونَ الساعةُ غيرَ هذه الساعة.

« سوى أنك تصرُخين:

« ــ انتم قررتم هذا. أنا، لا. أطلبُ منكَ أن تخرب موعدَ الساعة.

« وأخربه.

« لماذا أفعل ؟ الأني أُحبّكِ اكثر من الكلمة المكتوبة ؟ ألأنّ الله، من أجل الانسان، يعمل ما لم يكن مرّ ولا ببال الله ؟ ».

وتغني مريم مداعبةً شعرَه فيما تكون ثَقُلت منه الجفون:

ــ نمْ، يا حبيبي، نمْ.

« ما اجملَ ما به تحلم ».

ويستيقظ:

ــ تعرفين، يا أمّ، نسيت... نسيتُ أن أُخبرك...

ــ ماذا ؟

ــ إنني بعد أن أكون زرت لبنانٍ اتبدّل آخر.

« يكون رفاقي الاولاد قد ذهبوا معي إلى هناك وهم لا يعرفون. بعد أن اجترحَ الاعجوبة هناك، كما تطلبين، يصبحون يعرفون.

« لكنني سأُولد في قانا، ارض لبنان ».

ــ وبيت لحم ؟

ــ لا، لن أنساها. سيسموننى يسوعَ بيت لحم اليهودية، ومسيحَ قانا اللبنانية.

لانهم في قانا يكونون قد آمنوا بي.

ــ نمْ، يا حبيبي، نمْ.

« ما هي المرة الاولى التي يتعظَّم فيها اسمُ لبنان ».

ويردّد هو وقد اخذه نصفُ اغفاءة:

ــ اليّ ! اليَّ، يا عروستي، من لبنان !

* * *

يكون الاولاد على بحيرة.

ويجيئهم غريب:

ــ صُدّوقيٌّ أنا.

فيقاطعه:

ــ إذن لا تؤمن بالقيامة.

ــ نعم لا أؤمن.

ــ مع أن أعظَم شيءٍ أُعطيَه الانسانُ هو أن لا يكفّ عن وجود. تقبل أنت أن تبقى الأرضُ موجودةً إلى شبه أبد، وأنت لا ؟

فيؤخذ أحدُ الاولاد بالكلمة. ويفتح عينيه معجبتين:

ــ ما تُعطينا، يا معلم ؟

لا تسمّني هكذا. ما أنا الا ولدٌ مثلُك.

ــ اعترض انت، هذا شأنُك. اما انا فمعلّمي انت. رُدّ على سؤالي. ما ترى تعطينا ؟ الحياة ؟

ــ نعم. على أنها أكبر.

ــ ما هي ؟

ــ ان لم تكن الحياةُ ابديةً فهي موتٌ آجل.

ويكمل الولد فرحا:

ــ هذا أنا وُلدتُ من جديد.

ــ صرتَ كثير الايمان، ولدتَ من فوق.

قالها ومشى.

ولحقته ابصارهم.

وإذا هو يمشي على البحيرة.

كانوا على البحيرة في مرة اخرى. كانوا يصطادون. وقال واحدٌ لكثير الايمان:

ــ هذه العناصر التي تضرب البحيرةَ ستُغرقنا.

ـــ اسكت. سيجيءُ هو ويُسكِتُ العناصر. هي أيضاً أولادٌ له.

ويجيئه فتيانٌ غلاظُ القلوب.

ـــ الملك يظلمنا. ما نعمل ؟

ـــ ارشقوه بأبشعِ الاسماء. وحدَهُ الظلمُ معاداةُ الله.

ـــ لا نجرؤ. يقتلنا.

ـــ وأنا، ألا يقتلني ؟

ـــ لكنك انتَ لم تجرؤ على قول كلمةٍ تُغضبه.

ـــ اسمعوا. اذهبوا إلى الملك وقولوا له إنني سمّيته الثعلب.

ويلتفتون بعضٌ إلى بعض:

ـــ حقاً تفوّه بها ؟

وتأخذ جباهُهم في التسامي.

ويقول واحد:

ـــ نعم منذ أن سمعناه صرنا بمستوى الشمس. أحراراً.

ـــ من أنت ؟ قال له شيخ، حقاً أنتَ الله.

ـــ تماماً كما قلت.

ويهرب الشيخ مذعوراً.

ويملأ الدنيا صراخاً:

ــ تعالوا واسمعوا، رأيت ولداً يجدّف. اقتلوه.

ذاتَ صباح، وهو نائم، كعادته، على درج بيتهم، ورأسهُ في حِضن أمه، يأخذ في الدردشة:

ــ رأيتني، يا أُم، امام خشبتين كبيرتين. ودُعيت إلى حملهما.

ــ كل يوم تحمل الخشب.

ــ هذه المرة كانت الخشبتان ثقيلتين. وقعتُ تحتهما.

ــ لا تقل.

ــ وفوق، على الجبل، نُصِبتا بشكلٍ غريب: الواحدة فوق الأُخرى وكأنها ذراعان للأُخرى. وصعدتُ عليهما.

ــ لتفعلَ ماذا ؟

ــ لأرى البشريةَ كلَّها، والطبيعة والكواكبَ، والنجوم. وأنقذ الجميع.

« ما أجمل ما عملت. لكن شوكة وخزتني في جنبي ».

وتسأله أمه لهيفة:

ــ هل وجِعْتَ ؟

ــ وجِعْتُ. الا أن عينيك وقعتا على الجرح.

ـــ عيناي ؟

ـــ كانت الدنيا متجمّعة فيهما. وعلى ابصارك تطيرُ الشعوبُ في شبه صلاة... وتجيء الي... لربما بسبب كل هذا الحب شُفيت من وخز الشوكة.

قالها ابنُ الثلاث عشرة، فيما كانت تُثقُلُ جفونُه.

ونام.

وراحت يدا أمه تداعبان شَعراً أشقر.

عينا إيلتّا

كانت الهواجس قد قَلّبت إيلتّا طوال الليل. فما ان تدحرجت أُولى أضواء الفجر على شبّاكها حتى نفضت عنها الغطاء وتجلببت بمعطفٍ من حرير يُجرّر، ثم شدّت شريطة عريضة، مدلاة من السقف، فسُمعت رنّةٌ أقرب إلى الخشيش.

ودخلت عبدةٌ نوميدية.

ــ أعينيني... يجب أن أحضُر جلسَة الشيوخ... تسريحةُ شعري لا تَهُمُّني كثيراً.

« سيرى الشيوخ أننا لن نسكت... أعرقُ الناس في

السياسة، هؤلاء الصيادنة. ومع هذا مِراسهم صعب ».

والى العبدة:

ــ هل استيقظ أخي ؟

ــ مولاي لم ينم في القصر. ولقد أرسل، باكراً، في طلب وثيقة.

ــ كفى سأكمِّل الباقي. أحضري طعامي إلى هنا.

إيلِتّا الآن وحدها في الحجرة. تنقّل ابصارها من سريرها العالي، القائم على عَمودين من ذهب، إلى الحائط البحريّ، حيث تمثالُ جدّها ايتوبعل ــ قَرْمِ السياسة الصيدونية في عهده ــ فتتذكر كلمة مأثورة عنه في الشيوخ: « إنهم دُمىً بين يديّ ». ولقد دُعي اخوها باسم الجدّ تيمّناً. أفتراه هو أيضاً سيلهو بهم يوماً ؟

لقد سمِعَتْه امس يهدِّد. فهل تكون فاتحةَ عهد يحطّم فيه السياسيُّ الشاب شوكةَ المجلس المشاكس، ام انه سيسقط بضربة خنجر من شيخ مقهور ؟

انها لن تكتفيَ ببث الارصاد والتّبَع لحماية اخيها، زينِ النخبة الصيدونية. ستكون هي في الندوة ترعاه. ستدس خنجرين في صدرها ولن يجرؤ أحدٌ على تفتيش سليلة ربيهام حفيدة إيتوبعل. ولكن هل يكفي كلُّ هذا ؟ كل

واحدة من أدوات الزينة التي أمامها تلتمع الآن تودُّ، هي أيضاً، لو تكون سلاحاً في يَدَيْ إيلتّا: اصبعُ الحمرة المرصع بالفيروز يمكنها ان تَرشق به. ميلُ المكحلة قد يُصبح أفعلَ من خنجر. أما المرآة الفضيَّة المغطّيةُ نصفَ الحائط — هديّةُ أمّها منذ خرجت إلى أوّل حفلة — فتعرف، مقدّماً، انها لن تنتقل من مكانها لتُرمى، من رواق الندوة العالي، على زمرة المتآمرين على ايتوبعل. وتمضي إيلتّا منقّلةً طرفها من الطست والابريق المصنوعين من ذهب خالص، إلى مكاوي الشعر ومكبس الاهداب، إلى مِزهريات المرمر مؤنساتِ الزوايا. وأخيراً تنتقي من كُلّ ذلك ما صَغُر حجماً: علبةَ البودرة تشج بها رأساً عنيداً.

إيلتّا الآن ارتدت ثوبَها الأصفر المطعَج، وراحت ترفعه بيدها تختبر جمال انجراره على الرخام، فيما ستكون مرتقية أدراجَ النَدوة. أما من حلاها فلم تختر سوى دَبّوس ينتهي بعنقود من السفير شكّته في شعرها، كما زينت صدرها الضامر، وسط تدفاق الحرير، ببضع وردات بيض احداهُنَّ سوداء خمرية.

وعندما دخلت الخادم تحمل الطعام على طبق فضّي، قالت: « لا أظنُّني جائعة... عودي بكل هذا... عذراً ».

واغتنمت العبدة الفرصة:

« لأنتِ أجمل من الجمال.

« تحكين بعلة صيدون أناقةً

« الا أن لكِ عذوبةً كانسِدال الضوء على قِمم لبنان ».

فابتسمت إيلِتّا تقول:

ـــ منذ متى حفِظتِ هذا الشعر ؟

ـــ علَّمنيه، طَوال الاسبوع، واحدٌ تدوسين وجودَه كل يوم.

شارع الكبيريم مديد الطول، يبدأ من قصر آل رِيبهام على المرفأ لينتهي عند ندوة الشيوخ في أقصى الشرق. وهو مبلّطٌ يطقُّ تحت سنابك الخيل. فراحت مركبة إيلِتّا تجتازه بسرعة غير متوقفةٍ الا لتحني رأسها عند هيكل بعل شميم الذي كان يغالب السحب بقبابه الثماني الموزَّعة النقوش على جلال. حتى اذا بلغت هيكل ملقرت، إله الحرب، تركت مركبتَها وولجت بوّابته الحديدية، المنفرجة إلى ربعها وسط حائطٍ من المرمر الأسود الساطي.

لم تتبين شيئاً في داخل الهيكل، لوفرة النور الذي كان ينهك عينيها. حتى اذا ارتاح طرفُها قليلاً بصرت باخيها

جاثياً يصلّي. وقبل ان يرفع الشابُ طرْفه إلى العلاء، تكون هي قد قفزت إلى الخارج تقول للسائق:

ــ طِرْ !

إلا أن أخاها سمع أحد افراسهم يصهل في النهايات من شارع الكبيريم. فسأل فقيراً مِصرياً جالساً على الرتاج:

ــ أهْي أُختي التي مرّت ؟

ــ نعم، يا سيدي.

ــ ولكن هل تعرِفُها انت ؟

ــ لا يجهلها إلا الشرُّ والبخل...

فيضحك له ويُجزل العطاء.

انعقدت الندوة باكراً للتناقش في مخصصات الجيش. وكان ايتوبعل يرتئي ان تُضاعَف الاعتماداتُ الحربية، بعد أن راح قائدٌ مغامر يُوطّد مملكةً على حدود صيدون.

طال النِقاش في غيرِ طائل: المجلس يغار على الخزينة... وايتوبعل يقول بتقوية الجيش، مهما كلّفت من باهظة الضرائب.

ضرائب ويقرّها مجلس الاغنياء ؟ انها ستصيب الكتل المالية التي يمثّلون. كان لا بد ان يجازف برأسه من سيعاندهم.

ويكون الكلامُ مجدَّداً لايتوبعل :

ــ لن أُلقيَ خطاباً، ايها السادة. إن هو الآ تحذير. على تخومكم شعبٌ لا جيش وحسب، ولا قواد مجازفون. شعب بِنِسْوَتِه واطفاله وهياكله وقبوره. يجب قَتلُ المسخ قبل أن يكبر ويقيم مُلكاً ضخماً تغدو بلادكم بضعةً من ارضه. ثرواتُنا او بلادنا، فاختاروا !

فقاطعه احدهم:

ــ لن نصل إلى هذا.

ــ مَن قال ؟ وعلى حَدّ السيف سقطت مدُن الجوار. الحلّ ؟ ليس في ما تعوّدتم من نقاش. القضيّة اكثر من تبليط شارع، شراء رياش لقصر، ندْب شخص إلى زيارة دولة، مما تؤجّلون او تُقرّون.

« سنفتح صناديقنا أو تنهزم صيدون ».

ــ أو تريد أن نؤلّب الشعب علينا بفرض الفرائض ؟

ــ لن نؤلّب سوى جيوبنا. ضرائبُ على الثروات وتنحَلّ العقدة.

ــ الغُرم دوماً علينا ؟ أو ما غيرُنا في هذه المملكة ؟

ــ كلا، والدولةُ بأسرها موقوفة على خدمتنا، مسخّرةً لمصالحنا، نحن الأغنياء وممثلي الأغنياء ».

قال، فعَلتِ الجلبة في كل مكان:

ـ اسكِتوه.

ـ نطلب اعتذاراً.

ـ لقد مسَّ حرمةَ الندوة.

ـ أُطردوه.

كان قدْ تحمّلهم، حتى اذا سمع « اطردوه »، جحظت عيناه وانتفخت أوداجه وضحك ضِحكةً مُرِنّة راعبة.

ـ تطردونني ؟ انكم لتحمّلون انفسَكم ما لا تُطيق.

ـ الأمر منوطٌ بما هو اعظم منكم. منوط بالدستور. والدستور في عهدة الكبيريم. والكبيريمُ، جَلّ جلالُهم، ممثلون بالكاهن الاكبر وبالشعب ذي الحِسّ الذي لا يخطئ.

« ان انا اذعتُ على الشعب تفاصيلَ نقاشنا، افتظنون انكم ستخرجون من هنا ؟

فأجاب أحدهم ببرودة:

ـ أمّا أنا فأخرج.

فردَّ ايتوبعل:

ـ نعم، ولكن ممَّزقاً بالنواجذ والأضراس.

كان النقاش قد بلغ الذروة عندما قفزت إيلتّا من عربتها، ترتقي أدراج الندوة، مجررة ثوبها الأصفرَ الأنيق. فراحت الابراج الرهيبة والشبابيك المتشامخة من قصر الأغنياء تتناقض وعذوبة خطواتها الخاطفة. ولكنّ غنى الثوب وجمال تسريحة الشعر انسجما مع أناقة الممرات الرخاميّة المديدة، والقباب المتماوجة المشيقة، وتماثيل قاهري الاوقيانوس، والآنية المتعالية بقدودها وبخورها تعاليَ روح الأمة صوبَ المجد وصوب الكبيريم.

إجتازت إيلتّا الممَّر تستنفد الزمن، حتى اذا قَرُبتْ من قاعةَ الاجتماع سمعت صوتَ اخيها يهدّد. وعند دخولها كان احدهم يبصق قلّة حيائه في وجه ايتوبعل:

ــ كلبٌ، ابنُ زِنى.

وأُسقِط في يد الشاب، وهو لم يكن يتوقع أن تتسع نَدوةُ الأغنياء لشتيمة، والتفت إلى أعضاء المجلس، واحداً واحداً، يفتّش عمّن يذود عن قدس المكان، فاذا هم جميعاً سكوت.

ــ أتوافقون ؟!

فلم يجيبوا.

سوى أن صوتاً رنّ من فوق.

ـــ لا، لا نوافق.

التفتوا، فاذا هم أمام إيلِتّا الجالسة في مقصورة آلها، تُطالعهم بجلال وصمت.

وبعد هنيهة:

ـــ قل لي، يا سيدي، هل شتَمكَ أخي ؟... أجب، إن الأمر لجلل.

ـــ إفرضي انه فعل.

ـــ أفرِضُ ! ما كان العار في أُسرتنا، ولو فرْضاً. شُرَفاءُ نحن أو نحن في القبور. لو أنّ أخي تفوّه بشتيمة أو تعرّض لعِرض، لغرزتُ في صدره هذا.

ولمع في يدها خنجر، فراحَ الشيوخُ يخرسون زميلَهم المتطاول، وبكى بعضُهم وصفّق الكثيرون. فاكملت:

ـــ لقد سكت أخي، لا لعجز، ولكنه تهيّب الكبيريم. نحن أبداً في حضرة الآلهة. أُسرتنا، منذ ألف سنة، في هذه النّدوة، ولكن لا لتلطّخها بعار. قلتَ لأخي انه كلب. لو انه ردّ عليك بمثلها لصار كلباً حقاً. ما كان يدافع عنه قضيةٌ مقدسة، حمايةُ صيدون !

قالت « صيدون » بلهجة من الوقار جمّدت الدم في العروق وجعلت الرؤوس إلى انحناء.

ـــ وقلتَ عنه إنه ابن زنى. ما كان أخي هذا.

فمجَّ الشيخُ آخرَ وقاحةٍ في فمه:

ـــ من يَدري ؟...

ـــ انتَ. انتَ تدري أنك لا تنطق بالصواب. ولو انكَ قلتها صادقاً لما استمرّت اذني تسمعك، ولما مسستك بأذى، بل لرأيتَني جثّةً هامدة.

وكان لكلامها وقعُ الصاعقة، والتفت الجميع بحنق إلى الشيخ المتواقح، فاذا به يجمع نفسه وينسحب.

وحوّلتْ إيليتّا بصَرها إلى كبير الشيوخ:

ـــ عذراً، يا مولاي، أُهين آلَ ريبهام فدفعتُ عنهم ولم أُهِن احداً. خدمات اهلي جَرّأتني على خرق قُدسات النّدوة التي أسهموا في مجدها. عذراً مرّة أخرى.

استُؤنفت الجلسة كأن شيئاً لم يكن. وراحت عينا إيليتّا من فوق ترعيانها بعظمةٍ وعذوبة، مما خلع عليها مهابةً لا توصف.

لأن إيليتّا تحترم الحق، ذكّرتهم بأن عليهم ان يحترموه. ففعلوا.

وأقرت الندوة فرضَ ضرائبَ على الثروات، ومضاعفةَ مخصّصات الجيش والاسطول، وإقامةَ سور آخر لصيدون.

وعندما رجعت مركبة آل ريبهام تطقطق في شارع الكبيريم، كان ايتوبعل واختُه في داخلها يغنمان صمتَ الظفر، فيما الجمهورُ المتجمّعُ على الأرصفة يهتف لهما ويصفّق.

أُذُنُ إِلَهَا قَرطَاجَة !

كانا في تلك الأمسيّة يتمشيّان على سِيف البحر، والبحر هائج.

الا أن الدنيا صحوٌ بهيُّ الشفق، محرورٌ، يجذب النظر ويخلع على قلبَيِ العاشقين شعورَ دِفء.

ــ لماذا، يا حبيبي، لماذا اكتمكَ سِرّاً لم يبقَ لي عليه صبر ؟ قالت الفتاة.

ــ سِرّاً ! أوَ بيننا اسرار ؟!

« أنلبا » خطيبة « ميرتا ». منذ وُلِدَتْ تعاهد أهلوهم على ذلك. ويوم كانوا يتلهّون في البيتين القرطاجيين بأن

لن يتزوَّجها اذا لم تبق جميلة، كانت أمّ « ميرتا » تصرخ:
« لا، لن يكون أجملُ من « أنلبا » حتى في صور ! »
وكانت الفتاة حسناء.

عينان سودوان ترصّعان وجهاً مشرقاً على بعض طول، وشعرٌ ليليّ اعتادت أن تشدّه من جميع منابته إلى الوراء فيكوّن أجملَ إطار لبشرة، وابتسامةٌ شَطِرة من صبح، وقَدٌّ مشيق يكاد دلالُه يوجع الأفق.

ــ قُولي، قُولي ما هذا السرّ ؟

فاجابت:

ــ أُحِبُّ أن نعيش في « غادس » على الأقيانوس.

ــ هذا كلُّ شيء ؟

وراح « ميرتا » يقهقه...

هي تعرف انه موسِرٌ من فضل تعنيت، وان يدَه أبعدُ ما تكون عن بخل.

في غادس الجميلة تريد السُكنى ؟ في مرسئيل، في صور، في أوفير، على ظهر يختٍ أبيض يجوب جميع الأوقيانوسات ؟ لماذا لا ؟ انه، لو استطاع، انزل النجمة إلى عند بابها تُقِلُّها إلى نهايات الكون...

كان يحدّثها بشيء من هذا فتطوّقه بذراعيها العاجيتين.

أخيراً قالت:

ـــ ولكنني اخاف ان يحملكَ أبوكَ على التّرسُّل للسياسة. لقد شاخ هو. ومجلس الأغنياء لا بد ان يتمثّل بواحدٍ من بيتكم. أفٍّ لها قرطاجة! ثلاثمئة الا واحداً ما يضير؟

فكظم الشاب بعضَ غيظ.

فتابعت:

ـــ بوسعِ مجلس الأغنياء وحده ان يتعهَّد قرطاجة وممتلكاتِنا عبر البحر.

ـــ ما لنا ولهذا الآن؟ قال ميرتا. أبي لا يزال قادراً على تمثيل بيتنا، وأمس عرضوا عليه ان يتولى شافطيّة البحر.

فاجابت بعصبيّة:

ـــ ما أدري، ما أدري. انتم ابناءُ برقا لا يُركن اليكم. عِدْني بأنه مهما يكن من أمر فلن تزاولَ السياسة، عِدني بأن نعيش عمرنا في غادس على الأوقيانوس.

ـــ عُمْرَنا؟

ـــ نعم. أنا لا أحِبُّ قرطاجة.

ما تراها قالت؟!

خُيّل إلى الشاب انه لم يسمَع كلمةَ الهول.

ولكن جداراً صفيقاً يبلغ النجم أخذ يعلو بين الحبيبين.

« أنا لا أحب قرطاجة... ».

تراها قالتها حقّاً ؟!

كان يحبّها كالنّور في عينيه، كطموح أهله إلى فتح العالم، كأُمّه بالذات، كقرطاجة. اما الآن !...

ـ أنِلبا، أنِلبا، صرخ بها، إنّكِ لم تقولي ما قلتِهِ. استردّي، استردّي طيّة من الزمن انقضتْ جدّفتِ فيها على الآلهة. شُدّيها من هوّة الدهر وباظافرك مزقيها. انها بَشِعة.

ـ أنا أعني ما أقول، يا مِيرتا. امس، أنبأتني العَّرافة بأنني سأموت شابّة في قرطاجة. قرطاجة ! قرطاجة لا أحبُّها.

وتفرّس الشاب في تلك التي كانت حُلْمَ عمره، ثم راحت عيناه تجحظان.

كل ما بينهما انتهى.

انقضت سنون.

وذات يوم، دخل على مِيرتا رفيقٌ يسأله أن يقوم إلى قرب أنِلبا المصدورة.

ـ لا ! قال ميرتا.

ـ ولكنها تنازع...

ــ قلتُ: لا.

ــ لربما كنتَ تضيّع وقتاً ستبكيه غداً بدموع من دم: لم يزل لها من العمر بعضُ هُنيهات.

فاجاب ميرتا:

ــ اما هنيهاتي أنا فقد نفدت منذ زمن بعيد.

وقهقه.

قهقه كثيراً.

كان قَد جُنّ.

بيد أنه كان لا يزال يملك لفتةَ اعتزاز يُسرِّحها على أسوار قرطاجة الملألئة المتشامخة.

بلتيسّى ذات الغدائر الشُّقر

لم يكن لسيذرا من أصدقاء سوى منجيرةِ قصب، رفيقةِ عمر، وقلبٍ يخفق له مَبْزغان الشمس.

يُفيق، الصبح، من حُلم لذيذ:

ــ أيّ غصن، يقول، لم تقلقه الحاني ؟ أيّ نجمةٍ لم تزُر دارتي تأخذ التماعاً وصفاءَ زُرقة ؟

ويَنسلّ من فِراشِه، ناسياً ان يتناول فطوره، علّه يسرق من بلبل عابر، أو من غمامة رسول، واحدةً من أبكار النغم لا تزالُ مُفلِتةً في الطبيعة.

وذات يوم، وقد تجمّعت على بثّ منجيرته الأربعةُ

الآفاق، وتنزّل الجلَدُ يسيراً، وراحت موجاتٌ من النهر عند المصبّ تتوقّف وتُصغي، طيّب لمنجيرته شيخٌ صَحِب الدهر وقال:

ــ ألحانُكَ، أيها العازف الإلهي، ستوقظ يوماً بِلتيسى.

ــ بِلتيسى ! قال الفتى، يُعجبني هذا الأسم، فمَن تكون ؟

فيجيب الشيخ:

ــ إنها حسناءُ الغدائِر الشُّقر، حَوالَى أول الزمن تحوّلت إلى نبعة ماء، ضوءٍ وذهب، وهي لا تعود سيرتَها البشريّة الا مرّةً كلّ الِف عام.

فسأل سِيدَار:

ــ وعُمرُها ؟

ــ إطمئنَّ بالاً، إنها لمّا تتخطَّ الطفولة بعد. كُتب لها أن تبقى موصولةَ النضارة، ليبقى الربيعُ يولد على اصابعها، والنجومُ تتنزّل عليها دبابيس تشكُّها في النول الذي عليه يحاك عمرُ الورود.

فقهقه الفتى ملء فمه، وعاد يُرقِص المنجيرة.

لكن القصة ما لبثتْ أن راحت تحفر في خياله.

وعندما تعب القصب وكفَّ عن بثّ، وأُخذت الآفاق

تراجع، والجلَدُ يرتفع إلى مكانه، وموجاتُ النهر عند المصب تُكمل سَيرها صوب الخضمّ، شعرتِ الدنيا ان بعضاً من غيمة دَكناء راح يمدُّ خيوطه على مخيّلة العازف الضِلّيل.

وفي اليوم التالي قصد سِيدَرا إلى المكان نفسه، علّه يحظى بلقاء الشيخ.

ولكن ما من أحد.

سوى أن الشمس كانت في منتصف القُبّة، وحَورُ الضفة في سكون عَجَب، فلا سِوسنةَ تَكبُّ الشذا ولا ورقةَ تَقلق، وكأنما النياسمُ لجأت إلى خدرها وخلّت الأرض لسلطان الحَرّ.

لا، لا عهدَ لصديقته الطبيعة بهذا الوجوم. قال:

ــ سأنفخ، في منجيرتي، لحناً، رطباً هذه المرّة، أسُلّ به روح النار أنّى وُجدت، حتى ليبرد الوجود ويرتعش وتتطلّب الشمس مِعطفاً، ومتى أضيئت المصابيحُ في الليل سأسمع لها، من شدّة البرد، تأوّهاً وصريف أسنان.

قال، واخذت أناملُه تتنقّل على النِقاط السود من منجيرته قبل أن تلامِسَ شفتها. وعندما ترنّح رأسه بقَبول، وهتَف القصب بين يديه: « هات »، لم يبقَ عصفورٌ في

الأرض الا سكت، مدركاً أن جديداً وُلد في النغم.

روحُ الندى تُقبل معتمرةً بمنديلٍ أبيض، ولينُ القدود يتحطّم في الجوّ فاضحاً سرّ المَيْس. الينابيع تؤوه، ونبضاتُ الماوية في كل بيلسانة وفلّة ونارديِنَة تشيع. فكأنما الكون بأسره وردةٌ بيضاء تُعلن نفسَها ثم تزول ثم تولد من جديد ومن جديد تزول. غَيبُ زهر ينكشف لكلّ حصاة، الأرض جميعاً تهتزّ ولا اهتزازَ الورق لهبوب النسيم.

ــ هذا انا بلتيسَى.

فذُهل للرؤيا.

ــ مَن ؟!

ــ بلتيسَى، حسناءُ الغدائر الشُقر. وُلدتُ خاطرةً في البال، نضرةً لا أيبس. وهكذا سأبقى أتنقّل شفّافةً في داخل العقول أشهد واحدَها يَنقَح ويلد.

« سواي يحظى بالنتائج وأنا أعايش المبدأ. يعرفون المظاهر، واتغلغل في تضاعيف الشيء بذاته.

« صحبتُ العقلَ في جبيل وصيدون وعلى ضفاف الغانج والفُرات والنيل. صحبتُه في أثينة وروَمة. شربتُ من كأسه وسكرت. آمنتُ معه وسعيتُ ووجدت.

« ولكن أجملَ كأس من كؤوس الحبّ التي تبادلتُها مع

العقل كانت لنا ونحن في صيدون: كان العقلُ قبلها يعي الشيءَ فينقله اليه، تماماً كما هو. كان بدائياً أشبه بإحدى الحواسّ. الاشياءُ الخضر في الطبيعة تنعكس عليه أشياء خضراً، والرجُلُ رجُلاً، والجميلُ جميلاً. ولكنه في صيدون سما وجاوز ذاته. يا للرِحلة أجملِ الرحلات. انها هذه المرة إلى فوق. من الأشياءِ الخُضر سللنا الاخضرار، ومن الرجُل الرجولة، ومن الجميل الجَمالَ.

« تخطّينا المحسوس وبتنا نجرِّد.

« والمغلق، انفتح لنا المُغلق على مصراعيه: عرفنا النار والمعدن، قلنا للتراب: لمجّرد ما انت في الوجود تكون قادراً على النبات، سوف تمضي صوبَ مطلق قدرة. سنعضدُكِ، أيتها الطبيعة، في عملك المُحيي. نستنبط المِحراث يشقّ الأرض ويُرغمها على عطاء فوق العطاء. ولن ندع الفرْدَ يعمل لكل ما يحتاج اليه والا ظلَّ عملُه بدائيةً وتلمُّساً. سنؤمّن للجماعة ائتلافاً فيختصُّ كلٌّ بواحدٍ من ضروب النشاط. بعدنا سيغدو الانسان اجتماعياً، سنمكّن الناس من التجمّع والثبات، انهم رُحَّل، سنجعلهم حضَرا.

« ورفعنا مقدورَ اليد إلى قوّة البناء بالحجر.

« وصحبتُ العقل يوم قال للبحر: أنزِلُ اليكَ على جذْع أرزة، أجوبك من قطبٍ إلى قطب، حتى إذا أوفينا على شفا الأرض زرتُك، أيها البحر، وحزرت ما تساوي... لا، ما انت لا محدوداً. امسِ كنتَه. اما اليوم فقد افرغتُك من الوهتك وجعلتُك في يدي وسيلةً ليس إلاّ تُقيمُ علائقَ الحبّ بين قارّة وقارّة.

« ورحنا، العقلُ وأنا، نجوس الفلك نحصيه كما تُحصى الاصابع. فاذا هنالك نجمةٌ ثابتة... كشفنا انها دوماً صوب الشمال، فشككناها نُقطةً في كتابنا البحريّ، نقطةَ هَدْيٍ نستعينها في تصويب سفننا يوم نقومُ بأسفارنا الشجاعة.

« ثم رافقتُ العقل نجزّىء الشيء إلى وحداته الاخيرة. نقول للّفظة: انت العمارة سوف نحلّك إلى حجارة. واذا بين أيدينا الصوت الذي لا يتجزأ، فجعلنا له رمزاً في الكتابة وسميْناه « الحرف ». واكتشفنا ان الفاظَ الانسان جميعاً مكوّنةٌ من بضعةٍ وعشرين صوتاً، فلا حاجة بعد إلى رسم الخواطر ولا إلى الرمز بما لا يُعدّ. قبضةٌ من الحروف تُغني. اداةٌ اوجدناها، مركبٌ آخرُ يُقِلُّ الخاطرة عبر المكان وعبر الزمان، ولن تُعدِّل فيه العصور.

« وفي صيدونَ تعرّفتُ إلى فتى جميل بادلتُه ما هو فوق

الحب، وعلّمني سرَّ الأشياء، سراً لا يزيد عليه احد.

« انه موخوس، موخوس الصيدوني.

« كنا نجري على شاطئ البحر، قبالةَ جون ولا اجمل.

« كان يلاعب باصابعه حصاةً ويضاحكها مضاحكة الطِفل، ثم يلتفت إليّ ويقول: انظري. هذه هي المادة. ان لها هي ايضاً هجاءها. ما هي ملأى كما يبدو لك. انها ذرّات، جُزيئات من وجود في فراغ ولا أهْوَل. وتدور وتدور وتدور.

« لم أفهم يومئذ ما راح يكشفه لسذاجتي، ولكنني اليوم، وقد استيقظتُ على أرقى اوطان الانسان، وشهدتُ « القصبة العاقلة » تُسخّر لسلطانها المادة والكون، تذكرتُ حبيبي الصيدونيّ، ووددت التنقيب عن قبره المجهول أحلُّ عليه ضفائر شعري الذهبي، وبها أظلّله وأقيه من حر ».

ــ وأنا ؟! يسألها سِيدَارا لهيفاً.

ــ أنتَ ؟ أنتَ من حفدتِه، ايها العازف العبقريّ، ولو لم يتأتَّ لكَ اللحنُ كما دانت له هو اسرارُ الطبيعة لما ايقظتَني من سُبات الحجر، حيث عشتُ بعضاً من دهر، نبعَةَ ماءٍ، ضوءٍ وذهب.

ــ ولكن ما لنا وكلّ هذا. الآن مَن انتِ يا بلتيسى ؟ قولي قولي وحياةِ هذه الضفائر الشقر.

فتنهّدت ثم أجابت:

ــ حسناءُ لعوب، أحببتُ الطبيعة واحبّتني، فاتفقنا على أن لا أعرف حياة البشر: أبقى إلى الأبد في الوجود، طفلةً أو أزيد، على أن أتجلّى للناظر نبعةَ ماء تدفاقُها هذه الغدائر.

ــ أوَما من أمل بأن تبقَي كما أنتِ الآن، بشراً وتكبري راكضةً قليلاً في العمر، نيساناً، نيسانين، ثلاثة ؟

فأدركتْ بلتيسى ما يُلمع اليه، وحَزّة الألم في قلبه، فرنت إليه بكل ما في شُقرتها من دلال، وقالت:

ــ حرامٌ عليّ أن أكبر، والاّ لم تبق في الوجود اصابعُ عليها يولدُ الربيع، وتتنزّل النجوم دبابيسَ أشُكّها في النول الذي عليه يحاك عُمْرُ الورود. ولكنني، كُلّما سمعتُكَ ترفع البرودَةَ في النغم إلى قوة الحرارة، مُشيعاً في الأشياء روحاً لم يعرفه الفنّ، حتى لأستطيبُكَ أكثر من نبعة ماء، ضوءٍ وذهب، وأحبك أكثر من ذاتي، فإنني، وحياةِ عينيك، أعودُ طفلةً شقراء تكرُّ على الأرض لتعيش في نغماتك وتشهد الأربعةَ الآفاق تتجمّع على بثّ منجيرة، والجلدَ يتنزّل يسيراً، وموجاتٍ من النهر عند المصبّ تتوقّف وتُصغي.

إلى آخر الأرض

قُبيلَ الحرب الكونيّة الثانية، كان لقنصل غربيّ معتمدٍ لدى لبنان ولدٌ جميل أشقر لمّا يبلغِ التاسعة. ففكّر بأن يعلّمه لُغَةَ لبنان إلى جنب الانكليزية والفرنسية. وكان ذلك عَقِبَ ان حدّثوه عن مربّيةٍ نمساوية من مواليدِ لبنان طارت لها شهرةٌ في الكفاءة والتهذيب.

فاستقدمتها زوجتُه تَعرِض عليها الأمر، فاذا هي في حُدود الخامسة والعشرين، فارعةُ القامة، خضراءُ العينين نجلاؤهُما، ذات بَشرة بيضاءَ بيضاء.

فمازحتها الأمّ:

ـــ هذا الحُسن وتزاولين التعليم ؟!

فأجابت:

ـــ والدي كان أُستاذاً في فيّنا وأُمّي درّست في الجامعة. وكذلك جدّي وأخوه وأختُه.

فأطرقت زوجةُ القنصل ثم غيّرت الحديث:

ـــ وكيف أتقنتِ لغةً ساميّة ؟

فأجابت:

ـــ أمّي لبنانية. ويوم قُتِل أبواي في حادث سيّارة استقدمني خالٌ لي إلى عاصمة لبنان وكنتُ لا أزال طفلة.

لم يكن لزوجة القنصل بنت، فشعرت بأن شيئاً يشدّها إلى النمساوية الحسناء.

ألا أنها تهيّبت الحلول محل غائبين يزيدهما العِلم جلالا، فخنقت كلمةً كانت قد مرّت ببالها، ولكنها عوّضت بابتسامة حلوة أشعرت الصبيّة بأنهم سيحبّونها كثيراً في بيت القنصل الغربيّ.

وكان الولد حاضراً.

وما هي حتى دخل القنصل مضطرباً على بعض حزن.

ـــ تعرفين ؟ قال لزوجته. صدر قرارٌ بنقلنا إلى مدريد.

على ان نكون هناك بعد ثلاثة أشهر. حلمُنا بأن يدرس الولد لغة جديدة تبخّر.

وهمّت المربّية الحسناء بان تنسحب.

فاستدركت الأم تقول:

ــ ومع هذا سيدرس الولدُ لُغةَ لبنان. ما رأيكِ، يا آنستي، لو تبدئين منذ اليوم، منذ الساعة ؟

مرّ ببال النمساوية أن تتردّد ولكنها، كما بذهول، قالت:

ــ لا بأس.

وهمست الأم في أذنها:

ــ سأفجعك إن صارحتُك بأن الولد عديمُ الميل إلى درس اللّغات.

ــ لا عليكِ. كلّ ما أريد هو ان اعرف أين تكمُن قوتّه.

ــ في مادّة التاريخ، أجابتِ الأم. هنا هو البطل البطل. تاريخُ اليونان يرويه لك مع أرقامه، ويُفسّره. وهكذا تاريخُ رومة وأوروبة الحديثة.

بعد هنيهات كانت النمساوية تتمشى مع تلميذها تحت ادواح باسقَة من حديقة لا تنتهي.

فبادهتِ الولدَ بالانكليزية:

ــ جميلةٌ هذه الأشجار. تكاد لِكبرها تُظَن من عهد حيرام. حيرامُ ملِك لبنان، الذي أرسل إلى سليمانِ معماريّين يبنون هيكلَ أُورشليم. هذا الضربُ من الشجر يسمّى بلغتنا « السنديان ».

ــ « السّنديان »، ردّد الولد، مِن بعدها. لفظةٌ جميلة ! بلى جميلة !

قال ذلك وهو مسمَّرٌ إلى عيني المربيّة الخضراوين لوزيتين. ثم سأل:

ــ وكيف تقولون، بلغتكم، لشيءٍ اكثرَ من جميل ؟

فأجابت:

ــ « رائع »، « رائع ». أُلفُظها كلَّها. العين حرف من حروفهم يظنّونه ثقيلاً. ولكنهم إذا خفّفوه كما هو في الأصل بدا أعذبَ الحروف. انه حرفٌ غنوج. ألا ترى ؟ عريقٌ هو، فينيقي الأصل، سُمع ذات يوم على ضفاف الأمازون يَلفظُهُ الشجعان من بحّارة صيدون وصور الذين بلغوا البرازيل ثلاثة آلاف سنة قبل كولومبس، إلى ما هنالك من قِصّة تشيل إلى آخر الأرض وتُميت وتحيي.

ـــ قبل كولومبس ؟! عَجِب الولد، حدثيني حديثهم، إنني أُحبُّ التاريخ.

ـــ وأنا أحبّه. ولكنني لا أعرف سوى تاريخ لبنان.

فقال:

ـــ لا بأس. ويبدو أن تاريخ لبنان « رائع ».

ولفظها هذه المرّة بلغة المربيّة، فجاءت العينُ غنوجاً كما ارادت.

فضحك من نفسه ثم أكمل:

ـــ ستتناولين الطعامَ معنا. أوليس كذلك ؟ أكيداً ستستبقيك أُمي للغداء.

وتلفّت إلى الساعة:

ـــ أنظري، انه لا يزال بيننا وبين الظهر ساعتان طويلتان، فلنتكلّم على الشجعان من بحارة صور وصيدون، الذين بلغوا البرازيل ثلاثةَ آلاف سنة قبل كولومبس، إلى ما هنالك من قصّة تشيل إلى آخر الأرض وتُميت وتحيي.

انقضى شهران فإذا الولد قد تَقدّم في اللغة. كان يعرف ان يطلب إلى الخادم اللبنانيّة كلّ حاجاته، ولكنه كان أكيداً لا تعُوزه ولا لفظة ليتكلم على بحّارة صيدون وصور الذين بلغوا البرازيل ثلاثة آلاف سنة قبل كولومبس إلى ما هنالك

من قصة تشيل إلى آخر الأرض وتُميت وتحيي.

وطارت للصغير شهرة في لغة لبنان وتاريخه. وكان قناصل الدول المعتمدون لدى حكومة بيروت يستضيفونَهُ ووالديه غير مرة ليستمعوا اليه يتحدّث في التاريخ بلغة اللبنانيين الأقحاح.

ــ بلى، كان يقول، ديودورس الصقلّي، المؤرخُ الذي قضى شطراً من حياته في قرطاجة، صريحٌ صريح. في المجلد الثاني، الكتاب الخامس، يذكر ان الفينيقيين بَنوا دكار قاعدةَ السنغال الحالية، بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق. م. وإن إحدى عماراتهم البحريّة خرجت من دكار متوغّلة في الأطلسي عِبرَ جزائرَ تدعى اليوم « جزائرَ الرأس الأخضر »، ويصف ديودورس البلادَ التي انتهت اليها العمارةُ عبر الاوقيانوس. إنه وصف البرازيل لا يقبلُ شكاً.

ويمضي في التأكيد.

ــ لدينا أكثر من ذلك. لدينا نصوص ماديّة. ففي العام ١٨٧٢ عثر فرنسيسكو بنتو، المهندس البرازيلي، وكان يعمل في مناجم كوروجا في بورموراما، على اكثرَ من عشرين مغارةً قديمة استخرج الفينيقيون معادنَها منذ

عَشراتِ المئات من السنين. على جُدرانها كان نحو مئة وخمسين كتابة، نقل بنتو نسخة عنها إلى بدرو الثاني امبراطور البرازيل. وكان هذا عالِماً يرئس بنفسه « نادي الجغرافية والتاريخ »، فبعثوا بها إلى أرنست رنان الذي ترجمها مؤكداً أنها فينيقية.

« وكان أن بدأت الحفريات في هذا الاتجاه، حتى اذا حَلَّ العام ١٩١١ دعت حكومة البرازيل العالِمَ النمساويّ لودفيك شوانهاغن إلى إلقاء دروس في بعض جامعاتها. بقي العالِم خمسةَ عشَر عاماً يُنقِّب في ولايتي مارانيون وبياوي، فانتهى إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات على احتلال الفينيقيين للبرازيل استغرقت فصلاً دراسيّاً كاملاً.

« وفي كتابه « تاريخ البرازيل القديم » خلاصةٌ لتنقيبات هذا العالم تشفي غليلاً

ويشكُّ النابغةُ الصغير شيئاً ثم يستطرد:

ـــ انتهى الفينيقيون إلى البرازيل عقِب حربِ طرواده في الألف الثاني ق. م. ولبثوا فيها ثمانمئة سنة.

« ونحن نعرف أن حيرام وقّع مع داود عام ١٠٠٧ معاهدة تعاونٍ على استغلال المستعمرات الفينيقية عِبر الأوقيانوس، فتقدّم صورُ المالَ والخشب وتقدّم اورشليم

اليد العاملة (« ثلاثين الف رجل »، تقول المعاهدة) لأن أجور العمال كانت فاحشة في مملكة صور، بسبب مستوى العيش.

« وبعد داود تتجدّد المعاهدةُ مع سليمان. ويمضي المِلكان في استثمار بلاد الأنهر الثلاثة: فرودين وأفير وأبير وهي جميعاً روافد للأمازون.

« وتستمرّ سُفُن الصيادنة تُقِلُّ عمّالَ سليمان حتى وفاة المِلك.

« وكانت الرِحلة ذهاباً وإياباً تستغرق ما لا يِقل عن ثلاثة أعوام.

« وسنة ٩٥٧ تنشِبُ الحرب بين منفيس وأورشليم. فيلزم الفينيقيون الحياد. حتى اذا انتصرت مصر وقّعت فينيقية معها معاهدة تُحلّ عمّال الفرعون محلّ عمّال سليمان، مقابل اشتراكه في استثمار المستعمرات البرازيلية.

« وهُناك يستخرج الفينيقيون للمِصريين مادّة « السالتر » المستعملة عندهم في التحنيط. نعرفَ ذلك من مناجمَ عُثِر عليها في عهد بدرو الفاريس كابرال مكتشف البرازيل، أهمُّها منجَمُ أوباجارا في ولاية سيارا. وفي ولاية باهيا عُثر

على نحو خمسين فرناً فينيقياً وفي ولاية ميناس على أكثر من مئتي فرن.

« ويرجّح لدفيك شوانهاغن ان الفينيقيين دخلوا الاكوادور وخليجَ المكسيك. وقد تركوا في هايتي وسان دومنغ آثاراً جمّة.

« اجتاز الفينيقيون نهر المسيسيّي في الولايات المتحدة.

« والمؤرخان الأميركيان سكيار وديفس صريحان في مؤلّفاتهما الصادرة عام ١٨٤٨. « ان الفينيقيّين، يقولان، دخلوا أميركة الشمالية ». ويَدعمُ هذا الرأي المؤرخ بريتون.

« ويقول شوانهاغن:

« بعد سقُوط صور، بيد الاسكندر، عَهَد المكدونيّ إلى قائده بروتولوماو بالاستيلاء على مستعمرات فينيقية، على أن يساعده الأسرى الصوريون. وصلت العمارة الغازية إلى شواطئ اميركة عام ٣٢٨ ق. م. ولكنها غرقت في مصبّ ريوبراتا. وعام ١٨٩٨ عثر على كتابة فينيقية تؤكّد الحدث. واليك ترجمتها: « عندما كان الاسكندر بنُ

فيليب مَلِكاً على مقدونية أرسل قائده بروتولوماو في بعثة بحرية إلى مستعمرات فينيقية في الأطلسي».

أين عُثر على هذه الكتابة؟ في مونت فيداو، في أميركة؟ لا، وإنما في مقدونية».

وهكذا يروح العالِم الصغير يقصّ قصة الفتح اللبناني القديم بلغة اهل لبنان معزّزاً اقواله بشواهدَ واقوالِ باحثين، ونقوشٍ، وكتبٍ علميّة.

وتراه احياناً يترك متحدّثيه إلى مكتبته ليجيئهم بمجلّداتٍ مصوّرة تحتوي على نصوص فينيقية وجدت في البرازيل، ويأخذ في ترجمتها غيرَ ناسٍ ان يقول ان هذه او تلك من كلماتها لم تُفَكّ بعد.

وتنقضي الأشهر الثلاثة.

ويأزف يوم الرحيل.

على المرفأ الآن، القنصل وزوجته وثلاثةُ صِبية.

انهم قلقون لتأخُّر النمساويّة الحسناء.

حتى إذا أطلّت من بعيد حبسوا الدموع.

ويقول القنصل لزوجته:

ـ لماذا لم نُعطَ أن يكون لنا ولدٌ شاب. لماذا، لماذا ؟!

فتخنق الزوجة غصّة.

ـ وأنت أيضاً تفكّر هكذا ؟

اما الصغير فكان يبدو عازماً.

فهمَت الأم ما يجول بباله، فتقدمت منه وهزّت كتفَه موقظة:

ـ كن رابط الجأش، ما أنت طفلاً.

وانقضى الوَداع ولم تُذرف دمعة.

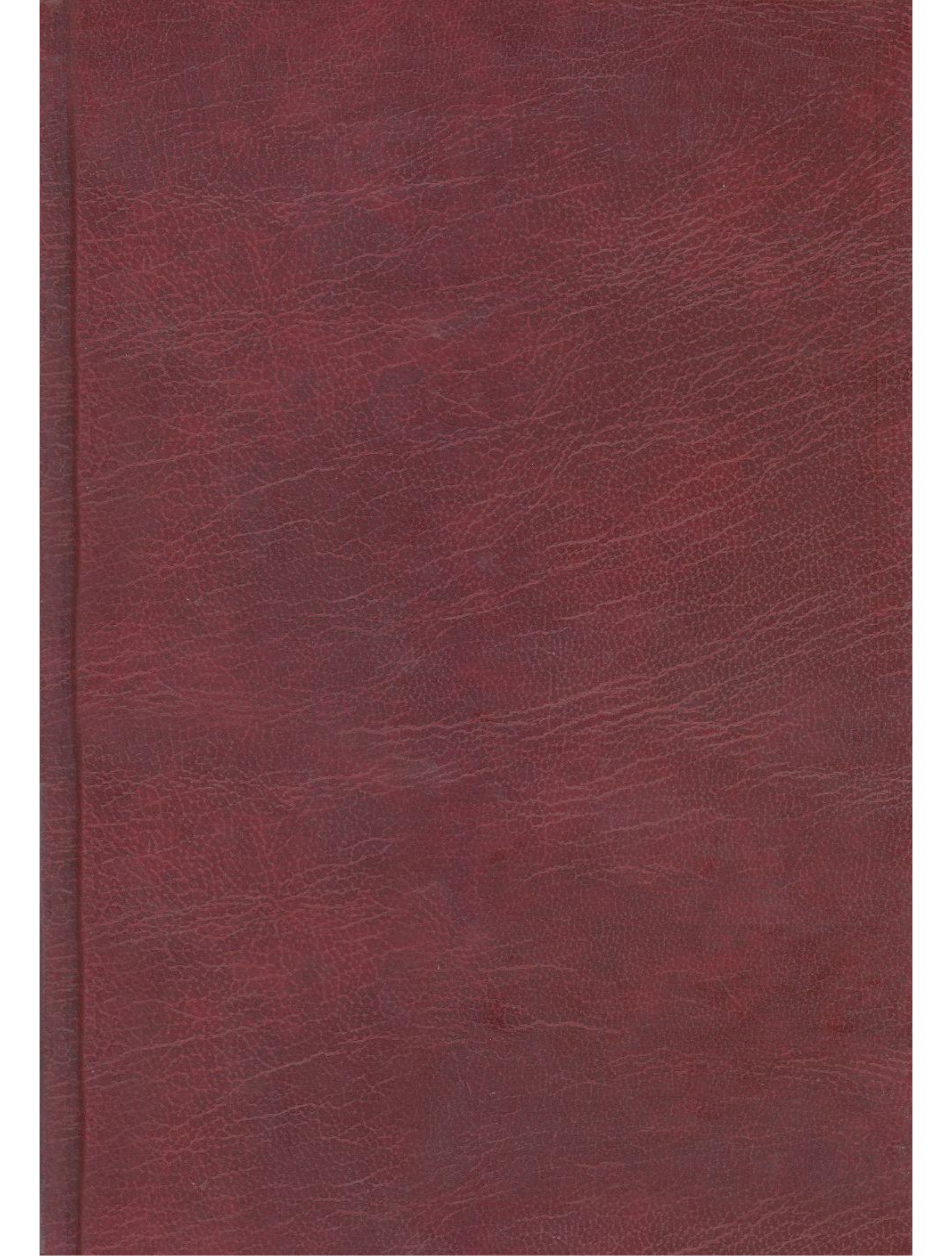
جميعاً بادلوا النمساوية الحسناء عناقاً طويلاً.

إلا الصغير.

كان يُضمر لها قُبلة تشيل الى آخر الأرض وتُميت وتحيي.

فهرست المجلّد

فهرست الكتاب



سعيد عقل

شعره والنثر

المجلّد الرابع

كأس لخمر
اجراس الياسمين

نوبليس



سعيد عقل

شعرُه والنثر

المجلّد الرابع

كأس لخمر

اجراس الياسمين

نوبِليس

للمؤلف

بنت يفتاح الطبعة الأولى ١٩٣٥ ـــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

قدموس الطبعة الأولى ١٩٣٧ ـــ الطبعة الرابعة ١٩٩١

المجدلية الطبعة الأولى ١٩٤٤ ـــ الطبعة الثالثة ١٩٩١

رندلى الطبعة الأولى ١٩٥٠ ـــ الطبعة الخامسة ١٩٩١

غد النخبة الطبعة الأولى ١٩٥٤ ـــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

أجمل منك لا الطبعة الأولى ١٩٦٠ ـــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة ومزيد عليها)

لبنان ان حكى الطبعة الأولى ١٩٦٠ ـــ الطبعة السادسة ١٩٩١

كأس لخمر الطبعة الأولى ١٩٦١ ـــ الطبعة الثانية ١٩٩١

اجراس الياسمين الطبعة الأولى ١٩٧١ ـــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كتاب الورد الطبعة الأولى ١٩٧٢ ـــ الطبعة الثانية ١٩٩١

قصائد من دفترها الطبعة الأولى ١٩٧٣ ـــ الطبعة الثانية ١٩٩١

دلزى الطبعة الأولى ١٩٧٣ ـــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كما الأعمدة الطبعة الأولى ١٩٧٤ ـــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مزيد عليها)

الوثيقة التبادعية الطبعة الأولى ١٩٧٦ ـــ الطبعة الثانية ١٩٩١

خماسيات الصبا الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلد الرابع

كأس الخمر
أجراس الياسمين

كأس الخمر

الطبعة الأولى ١٩٦١
الطبعة الثانية ١٩٦١

سعيد عقل أعظَم من كتب النثر في العربية

سعيد تقّي الدين

أطلعتهم طرفاً كما
بالحسن نطقت القدودُ
ليكوكبوا انت السماء
ليزهروا انت الصعيد
هل خمرة لو لم تشعشع
في يديك وهل قصيد؟

بولس سلامه

ما خفت على نثره من شعره، بل عجبت لثنائية في الابداع.

هذا القلم المطيب، حين يقدم لرفاقه يشدهم اليه بلولبة حد البراعات، حتى لكأنه هو المعني.

خلاصات روائع هي، هنا بين يديك، مختصر لنهضة ومنطلق الى اجمل، اسرع الجديد فيها الي هدأة المركز، فالطرافة في عمق المبدأ.

سعيد عقل، يستحيل ألا يروع.

انطوان قازان

أغنية اللون والحجر

قدم بها لمعرض التصوير
والنحت الذي أقامته « الرابطة
الثقافية » في عاليه عام ١٩٥٣

« المدرسةُ اللبنانيةُ » في الفن ! لا يزال باكراً أمرُ القول بها.

مع أنه...

منذُ اندلاعِه، من تحت البحر، جبلاً ـــ شاطئاً (ملعبَ ميتولوجية فاخرة لأنها جاءت أبعد ما يكون عن مسوخ البصر والعاطفة) حتى توكيدنا عليه رقعةَ أرض معطاء تجهد وتكشف، تُمدّن وتُحِبّ، أي منذ ادونيس وعشتروت، رافعَي الحب الى قوة الموت، الى فخرِ الدين النابض قلبُه مع قصور فلورنسا، مرّاً بموخوس الصيدوني أب الذرة أو

أليسا مؤسسة قرطاجة امبراطوريةً أجمل الامبراطوريات، تلك التي تتعادل فيها قرقعة المطارق واصطكاك السيوف، إنما كان ينبغي أن يكون لبنانُ بين أسخى رِقاع الدنيا على الأزميل والريشة.

ولكن أين هي تحفُنا ؟

تُراها دُمّرت في الذي دُمّر أم آثرت أن تبقى داخلية فنُقشت أو صُوّرت نفوساً كبيرة، أم تَطلعّتْ الى عظمة القلّة، فإذا هي « بعلبك » المتفردة مشرورةً بين واحتها وبرلين أو « قبر الاسكندر » المعافى الضربات، متلألئاً، ولا أجمل، في مُتحف اسطنبول، لا يعُوزه سوى جوّ المجد الصيدوني الذي منه اقتُلع ؟!

يا للموضوع الشهم ! ندفعه الى تلامذتنا يُعمِلون فيه عِلْماً ومخّيلةً أنيقة. ويا لمأساة واحدُ اشخاصها فوق « بروميسيوس » ايسخيلوس. فضلاً عن كونه أمّة بأسرها لا فرداً.

بلى ! إنه لمن مكمّلِي القرم الى الذين سدّد الجميّلُ الخيّر أصابعهم الناشئة، حريصاً حبّةُ البحر على توصيتهم

بأن يتخطّوه، ومن عارياتِ الحويّك المتفجّرات كما الينابيع في الجبل حُسْناً يندفق من صخر، الى طموح أزاميلنا الفتية الصراحة، إنما تقوم مدرَسَةٌ بنتُ نصف قرن لا يزيد. بيد أنها، إن وُوجهت بحبّ بدَت غير فقيرة.

وسط « الجو الاضطرابيّ » القائم في الغرب على تطلّب الجديد للجديد، الجديد وإن بَشِعاً، لم يشتطّ فنانو الجبل. أعن تقاعُسٍ كان عندَهم هذا الخير ؟ ما أظنّ ما أظنّ. وفي غمرة الطيش وفوضى المعايير ظَلّوا في معظمهم أبناء معايير.

ومثّلوا روح لبنان. فبدا في بشرتهم ورضى وجوههم مسحةٌ مزيجٌ منعش من براءة وأناقةٍ وانسان.

هذا الى أنهم لم يُعدموا عند اللزوم أن يُقدّموا تقدماتهم للغرابة، الهة الآلهة.

أما الرأس، وأمّا العُري محكُّ كل فنّ — ووسيلة كل فنّ كذلك — فقد عالجوهما بشجاعة. وإذا عندنا عليهما مجموعةٌ غيرُ قليلة بعضُها يتنفس رفعة ولا أجمل.

وتشوّفوا الى رياضة جميع التقنيات.

وكانوا، متى طُلِبَ اليهم التطلّعُ الى الفنّ الكبير ــ ذلك المزيج من سعة لوحة وموضوعٍ جلل وعملٍ طويل النَفَس وعبقرية كيمياء لونيّة ــ لم يُحجم أبرزُهم شخصيةً عن خوضها معركة يتهيّبها من ليس دافيد أو ده لاكروا.

إنهم إذا استمروا يجتازون ــ تعضدهم ثقافَةٌ وطموح ــ ذلك الممّر الوعر حيث يتجاذبهم النقيضان: تأهّبٌ لزلزلة كل شيء وولاءٌ لمعايير الكلاسيكيين العِظام، فقد لا ينقضي طويلُ أمد حتى يكون عندنا تحف تقوى على الزمن.

واكبَتْكِ خلجات القلب، يا ريشاتِ لبنان والازاميل.

سورة القصص

مقدمة «جبل الآلهة»
لعبدالله حشيمه ١٩٥٩

ـ ١ ـ

أنا حسبي أنني من جَبَلٍ
هو بين الله والأرض كلامْ

هذه القِصّة، يُخيّل إليّ أنها ستُحَبّ كثيراً، وان الحسان سيغفينَ على صفحاتها شارقاتٍ بالدمع متنهدّات.

بعضُ نتاج الأدب المعاصر تخطّى الاطار الذي كان عليه أن يُبقي القصّة في ماهيتها العذبة الشفّافة: تحليلٌ متعمَّل، اغراقٌ في الوصف، تفلسفٌ حول موضوع بعينه، حزّ قلم لاطلاع الشخوص نافرة، الى ما هنالك مما يزجّها

ــ والحياةَ نفسها التي تصف ! ــ في أشياء المختبر أكثر منها في أشياء الجمال.

لا، ليس ملايينُ القراء ولا النخبة هم من طبقة المنحرفين.

ولسوف تبقى القصّة عند الفنان الأصيل بعضاً ــ أو كثيراً ــ مما كانت عليه يوم خرجت أوّل الدهر الى الناس: موضوعاً ساذجاً ولكن عجباً يبسطه ذو عينين محرورتين لمتحلّقِين حوله طهرتْ قلوبهم فاصغوا يستمعون. ويكون ذلك عَقِبَ بعضٍ مِن رحلة قام بها الى المعمور، أو الى الحياة.

قصّه « جَبَلِ الآلهة » صنُع قلم ذي كرامة.

إنه من تلك الأقلام التي عالجت الحياة بشرف. لا تَصنّعَ مُغرياتِ الجمال ولا استهدف الغِنى الملعون على حساب إرهاق الذوق أو تخديش الحساسية.

عبدالله حشيمه من هنا، من أجمل جبل، عاش طليقاً، يكفيه أن يفتّح عينيه كل صباح على هضبات بِكفيّا

يسرِّحهما من ضهور الشوير الى دارة قيصر الجميل، الى بيت شباب، عندما تروح تلك الارجاء تتنقّل من لون الى لون كأنما الدنيا مقبلة الينا عروسَ ليلة في غلالة من حرير.

وهكذا ظلّت الحياة عنده كفافاً من جمال، ولو بعد أن باعد بعينيه الى الجبل الكسروانيّ الأنيق، بل الى العالمَين اللذين طوفّ بهما عبْرَ البحر والجوّ.

أديبٌ جليلُ البثّ أنيقُه، الاسطورةُ والتاريخ عنده صنعُ الانسان، هذا الغنّيُ في منتهى الغنى، الطريف في حدود الأمنية، فكيف لا يكتفي بأن يمدّ يداً الى خَبيئة من خبايا قلبه، أو لبنانه، فينشل الرائعة التي تُسكر الاصوليّة والغرابة معاً ؟

وانسان من الرعيل الذي كانت الدراسة في عهده إثراءً للأنا لا تضخيماً للمقتنى. فإن واجه القصة، في عهد الطفرة، لم « يسقط في التجارب »، وإنما ظلّ يؤمن بأن في الكلاسيكية مرابعَ لا تَنْفَد، وعلى الأديب العليّ العظيم أن يكتشفها استمراراً.

إنّه صنو فروّخ في التصوير.

قصتّه يأباها إلاّ على الموضوع الذي يواجهه اللبنانيّ حتماً، متى اخلص لنفسه ورفعةِ كيانه وللبطولة التي بها تحّدينا تخطّيَ الوجود الشهم.

إنها المغامرة الأولى نَهَدْنا اليها يوم كنّا لا نزال وحدنا في الملعب، نتنقّل على شفا الوجود بين سماء وأرض، مرّةً بشراً ومراراً آلهة، ولكن دوماً كائناتٍ في غير المعتاد.

الجميل في ميتولوجيتنا أن شخوصَها ليسوا مسوخاً: لا « سيكلوب » عندنا ذا عين واحدة، ولا « ساتير » نصفُه عنز ونصفه انسان. كذلك أبطالنا. يغامرون ولكن دوماً في المُجدي. إنهم يلهون بالموت يقصدونه مختارين ويعودون منه مختارين، وقوّتهُم أنهّم أوّل من تمتم بوحدانية الله. ولكنهم بالوقت نفسه ينون الامبراطوريات، يُنزلون الى الوجود الحرف الذي هو أيضاً زورق، أعجبُ زورق، يُقِلّ الفكرة في بحرَي الزمان والمكان. وعند اللزوم يتخيّلون مع موخوس الصيدونيّ ما هو أعظم: كيفَ يستحيل على المادة إلا أن تكون ذرّات، بضعَ وجودات صغيرة، تدورُ في فراغ ولا أهول.

عبدالله حشيمه، القاصّ المنشرح الجَنان، المتطلّع الى كل ذلك، يتعرّض هنا لادونيس وعشتروت، للغرام — للغرام الأول ! — يتفتّح كما الزهرة في الصبح، بريئاً، محفوفاً بأخطار، معرّضاً لغيرة، جميلاً جميلاً كما لا يزال ويبقى الى الأبد في قلوب الطيّبين الذين لا انفسدوا ولا افسدوا.

ثلاثةٌ وراء شخوصه: أرضُ جبلِنا التي لا أطرف منها إلا هي، وانسانُنا البطل الذي، لوفرة ما عزم على الخطر، تآخى مع الخطر، واستشفافُ ماهيّة الألوهة.

إن عَلمت أن كُلّ ذلك هو ما حاول هذا القلم الرضيّ أن يبسطه لعينيك في إطار من أجمل القصص، ما دام مدارُ قصتّه على الغرام الأول، أدركت كيفَ أنه، بلا تَعَمّل، شارف أن يرفع الى عينيك ولو جانباً من الوجود.

بلى، عِمِلَ هو وسعَهُ لتمضيَ أنت حتّى الظفر.

وعندئذ تتبيّن أن البساطة (هذه الصعبةُ حتى الاستحالة !) كانت منذُ الاغارقة وستبقى آخرَ كلمة في فضْحِ أسرار الجمال.

مقدمة «المصباح الأزرق»
لنبيل خوري ١٩٥٨

ـ ٢ ـ

أوانَ تسلمتُ مسودّة « المصباح الأزرق » كان في حدسي أنني سأقدّم لقصة من نار ـــ امتهان انسان، وحشيش، وجسد.

كنتُ أتوقعّها نقيضاً لكل ما قرأت. بطلُها حاملُ فأس يقطّع بها من شَرَفه، ثمّ معولٍ به يحفر ليواري هذه الرّمة التي هي هو والتي ضنّ عليها الموت بالموت.

ولكنني لم أكن أنتظر أن أُحبّ هذا البطل.

وأحبّ معه أيضاً مَن اسميّهم لوازمه في عملية التقطيع والدفن: رفيقَ سوء علاّمةً فهّامةً بالشر، لم يبق على « فنّ » الا لقّنَه صديقه، وتصرّف من علٍ كأنه يُمنّن، وفتاةَ ليلة شفّافةَ عمر متدرّجةً في تقديم اللذة على طبق، ثم عشيقةً حسناءَ حِسان من الطبقات العُلى تنتقم من العصر بشخص زوجها المنشغل عنها بالعصر، ثم حسودةً ما تَنشد الشهوة بقدر ما تَنشد ايهامَ الناس بأنها، هي أيضاً، مشتهاة، وعلماءَ مخدرات، وجهابذة تهريب وغدر وعمل ليل. بلى كُلّ هؤلاء لم أشحْ بنظري عنهم وانما انعَطفت اليهم، وكدت، من خلل الستار الابجدي، أمدّ اليهم يداً.

يبدو أن نبيل خوري، هذا الخلاّق الخلاق، هو صارمٌ مع نفسه كإنسان: ابطالُه قَصّبهم من مقلع القلب. بَشَرٌ هم لا دُمى. تراه أراد أن يقول جديداً في فن القصة ؟ مثلاً: لا يجوز وضْعُ حجر — وقل: شخص — في بيت من بيوت اللعبة إلا إذا كان يُحَبّ ولو لشرِّه ؟...

القصة فنٌ رحب. وحدها أبتْ أن يوضع لها أصول. كالحياة هي. هل تُفرَغُ الحياة في صيغة ؟ هل يجري عليها مسطَرةٌ وبركار ؟ هناك القصة الساذجة تلك التي كان بها

بدءُ النوع. تحكي لِتلَذّ: « دفني وكلوه »، مثلاً، عند الاغارقة. وهناك التي على الحبّ. الحب الذي بدون زوائد. قوة تحيي وتميت، كما في « بول وفرجيني ». وهناك قصة القرنين الاخيرين، منذ دوستويفسكي وفلوبير. يعمل الأوّل مبضعه في المواقف يفسِّخها، ثم يفسّخ المفسّخات، حتى لكأنّ مخّ المرء — أو قلبه إن شئت — منتزعٌ من جمجمته، ومارِدٌ أمامه يفكّكه ويركبّه من جديد. فلا تخرج أنت من تلك المشاهد إلا وقد خُيِّل اليك أن شطراً من الحياة، باعبائها المحطّمة، وتلفتاتها الى دكّ المستحيل، وردّ القدر أو الانمعاس به، انما بات « مَستُوفاً » على رفّ من رفوف محفوظاتك. ويتوقّف الثاني عند قبر ولا كالقبور — هاوية الزمن فيها غيّبوا عصراً أو مدنيّة — فيقول: « إنهض أيها العصر، ويا مدنيّةُ هبيّ ولو لساعات، وتمشيّ مع قلمي على الورق، فلقد وددتُ لو أُشعر القارئ بأنني ساحر، على صفيره يرتد التاريخ افعواناً يرقص. يَرقص الحبّ، يرقص الحرب، يرقص الامبراطوريات الزائلة، والجوعَ الى غد أعظم، والزمنَ يتدافع ويُنقذ من سأم. وهناك القصّة العصرية — مع همنغواي مثلاً — فهي تلعب، أحياناً، بين شيخٍ معاند وحوتٍ بحرٍ لا يكلّ، فتخطّ الحياة جميعاً: نضالهَا، ومشارفةَ التلذذ بالظفر،

وحتميّةَ الموت بغية القول أن الظفر لا يُشترى إلاّ بالموت.

ولكنك من ابولونيوس الفينيقي الى موم الانكليزي — إذا استثنيت قلائل من مثل شاتوبريان وغوته وفلوبير — تجد القصّة تحدّياً للأناقة — أناقة البثّ خصوصاً. أما هي البحر؟ وهل لأواذيّ البحر، وتدافعها المخيف، ثم تحطّمها، أُصولٌ ومذاهب؟

القاعدة هنا هي القوّة. إنزال الشعور بأن المؤلف أحَدُ أهرامات مصر، عبثاً «تشقع» نفسك، مثله، قبل انقضاء مئات السنين. أما أن يجتمع اثنان معاً: الشعورُ بالجبروت والانسحارُ بالأناقة، كما أمام بعلبك، فنادراً نادراً ما يتحقق ذلك في عالمِ القصة. بلى، القصة أكثر من بحر، انها الجحيم: فوضى ونار. لهذا تراها لا تستريح في الهدوء. النار شرطٌ فيها ولو هي وَصَفَتِ السماء. قصدتُ الى القول أن التحفة التي ستَجمع القصة الى الشعر في تأليف أخّاذ لم تزل في التَوق.

في الشرق، أينَ نحن من القصة؟
البدائية التي تقص لتلذّ، ثم التي على الحّب البالغ من

قوته حدّ التدلّه بالموت ؟ انهما في المنتظر. والتي تحلل حتى لَتُسلِّمكَ خيطَ الحياة ؟ إنها لم تولد. والتي تنفض الكفَن عن حضارة ؟ انها بدأت مع زيدان ولكنها كانت فقيرةَ كلّ شيء. أما الآخذة بمبدأ « الفوضى الجميلة »، وقل باهواء الحياة العصرية، فقد نهضت على قدمين. متى تصل ؟ لا عليك. كل ما لك أن تعلم أنها مشت.

نموذج منها ذو حزّات قوّيات، طُرفةُ نبيل خوري: « المصباح الأزرق ».

لأوّل مرة أنت أمام يدين عملاقيتين تُقَطعّان الحجارة من منجم بعينه: حياةِ التشرّد.

القصّةُ عند نبيل خوري ؟ أنها العشيقة. يحيا لها، يتنفّس بأنفاسها، يساهرها الليل، يسقيها الخمر حتى تسكر وترقص.. (وكدت أقول يضاجعها !) ويموت يوم تموت.

هذا ما اعانه قليلاً، فجعله يستعيض عما أعوز النتاج الذي حوله ليكون تُراثاً يستند اليه. القصّة، ككل فنّ،

ككلّ حسن معلّبٍ في مأثورة، ليست من لا شيء. انها مما هي بذاتها ومما كان قبلها. قبل نبيل خوري، عندنا من القصة ماذا ؟ أشياءُ، أشياءُ طيّبة، ولكنها ضحضاحة، لا يصحّ أن تُمَدّ اليها الاظفار بغية التعلّق والتسلق.

عِشْقُ نبيل خوري للقصّة، طَرْقُه العنيف على بابهَا، توحّده بها، حُلمهُ إياها، اعتزامُه قولبةَ غدِها، كل ذلك جعلها تطيعه كأمة، وكأميرة أحلام.

تحدّيت نفسي أن أقوم عن « المصباح الأزرق » قبل أن أُتمّه. كان يُعذّبني. كان كالنحلة أطردها فتعود اليّ. أقول له: « أنت هنا لا تُعجبني، وهُناك تحطّم من ثقتي بالانسان، آنا تقوّل القدر أكثر مما يقول، وآونةً تجعل الليل يأخذ على النهار طريقه ويقفز على دَوْرة الشمس كأنها دُمية. ولكنك، ولو فيما تغمّني وتضايقني، تظَلُّ تشدّني اليك، الى بطلك الشقيّ، الى أبطالك الثانويين — وهل تراهم ثانويين أو أقلّ شقاء ؟ ».

من القَصّاص يملك نبيل خوري هذا العنصر الأساسي الشهم الذي من أجله كانت القصّة. وهو أنها تُقرأ. لماذا

تُقرأ ؟ لذاتها. فيما بعد، بعد مولِدها بزمن طويل، طُلب الى القصّة أن تحلِّل نفسيّات، أن تبنيَ أمماً، أن تَدلّ على غد أروع، أن تقول وَحْدَةَ التناقض وفضّ اختام الغيب.

في البدء كانت القصّة لتكون. ليحسّ القارئ انه منقاد الى قراءتها، انها له كالحبّ، تتملكه، تسرّ في اذنه باغراء: سِرْ.. سر معي.. معَ جنوني.. تشاءُ أو لا تشاء.. وإنما أنا القصّة المرأة.. أنا أنتَ عاشقاً.. أنا المتعة، والسكرة، والعجب.

إذا كان تحديدُ القصّة الحديثة لا يزال يَذكر لها من مولدها هذا العنصرَ الفريد، فيكون نبيل خوري أقوى قصّاص. مشاهدُه حَفْرٌ لا كتابة. ولكن الحَجَر عنده حياةٌ تحيا. بَطَلُه الى الهلاك أم الى رحمة الله ؟ ما ندري. كل ما عندنا انه دائماً في وضـعٍ من ترك جنسيّة الأيّاً كان وانقضّ على الحياة كأس لذة تُشرب حتى الثمالة. نِصْفُ الوجود الحديث، الوجود الجسدي المتطلّب حتى التمزّق، على شِقّ هذا القلم. ويبلغُ نبيل خوري ذروةَ الفنّ، ذروةٌ تجعله نسيجاً على حدة، عندما يبرقع الموقف العنيف برمزية تقول الشهوة، والاضلاعَ المتلوية، وقهقهةَ العهر،

وكأنها لا قالت ولا خدّشت ذوقاً. (وهو ليس دائماً هكذا). أشخاصه، أشخاصه جميعاً مقامرو حياة، بينهم وبين الجحيم وشائج. إلا أنهم من هنا، من يومنا، وقعنا عليهم الساعة، أو أستدفأوا الليلة في فراشنا، يوم عرّاهم نبيل خوري عرّى الحياة العصرية.

ان البطولة الخُلُقية ليست من الطبيعة. إنها غرسةٌ نادرة، لا نعرف كيف تنبت ولا أين. « المصباح الأزرق » كتابُ الشباب، شباب اليوم، دقّ على بابه العصر، وهتف به: تبقى تافهاً أو تتلوّث بي.

ونبيلُ خوري، يستشرف أيضاً، في « المصباح الأزرق » بالذات، أن يقول الشرّ ليبعد الناس عن الشرّ. ولكنه، يفعل دون أن يحطّم الانسان الشرّير. أضاليل « احسان »، بطلِ « المصباح الأزرق »، تكرهها، ولكنك لا تكره « إحساناً ».

نبيل خوري هنا ــ هذا الذي قد يُقيم كتابُه رجالَ الدين ويُقعدهم ــ أقربُ ما يكون الى روح الدين. إنه لا يرجم الخطيئة إلا ليرحم الخاطئ.

وسيرحم الله نبيلَ خوري أيضاً، حباً بنا. ماذا ! أوليس من الصَلاة كذلك أن تزيد حجراً على هيكل الفن ـــ نشيد الجمال الذي يوقظ الزهر حول عرش الله ؟ كتابٌ يقرأ، ولو متنفّساً عُهراً وتشرّداً، كتابٌ يلذّ، كتابٌ يَمْسَح الضَجر عن الهنيهات، لا يمكن لا يمكن إلاّ أن يَرحُبَ به صدرُ الله.

للوسيلة حدّ

في اكرام اندره جيد يوم
استضافنا في «مدرسة الآداب
العليا» بيروت، نيسان ١٩٤٦

الآن، والنجمةُ التي نعيش عليها معتكفةٌ تعيد النظر في قيمها، شأنها كُلّ ثلث قرن، إثْرَ طعنة من أهل مذهب لم يتثبتوا منه — يطيب لنا في لبنان، أحدِ أوطان العقل، أن تُثار قَضِيَّةُ واحد من أمثال اندره جيد.

تُرى الغيب الاعمى راح ينجاب عن عناية حكيمة التدبير، فإذا في غير الصُدف زيارةُ الموقظ الفكري الأول في أوروبة الحديثة للبنان، البقعةِ الأخرى الطامعة بأن يتوقّف فيها الزمان توقفّه سابقاً في الأتّيك، والجليل، والإيل ده فرانس، حيث خفّف من حدة أعصابه، ومن تناحره على

كل ما ليس ماهيتَه، ومن نِسيان الكلمة التي قد يكون ما طَلعَ على الوجود إلا ليقولها ؟

الزمان، على هذا السيّار الصغير، اثنان: فزمان يحياه خاصةً مستكنّو الدخيلة في صراع مع وسَطٍ لا يفهمهم، وبالتالي لا يقدر ما يتطلبون من عزلة عنها، هو يقتتل لشؤون العيش، وتدبّر البقاء اليومي، وهم يطوقونها بتعالٍ وشمول وبرودةِ حُكم، إذ غالباً ما يحتاجون الى إدانة انفسهم، وهكذا يعودون وقد وقفوا أكثر على نواميس تتحكم بكينونتها وبمضيّ صوب مطلب، وبمطلب؛ وزمانٌ آخر على النقيض من ذاك، يعيشه القطيعُ البشري جميعاً، فيه تناقضات عَجَب: فكائِنٌ متخطٍ حدودَ الكيان، وآخرُ منكمش لا يحتل من ذاته سوى جزء، وثالثٌ مندلقُ الجوهر من صوب، مدفونُه من صوب آخر، عجيجُ تخبّط ناموسُه أن لا ناموس، يخيل إلى الرائيه من خارج ان لا جدوى منه وانّ على الخاصة تخطيطَ الطريق وقَسْرَه على نهجها قسراً. أما المُعطى بعضَ نفاذ الى الدخيلة فيرى في الضاربين على هواهم مادّةً، صامدة كالشرط، هي مَرْسح الخاصة، يعمل العقل عليها عَمَلَه، ومن بوادرها التِلقائية أو المقصودة تُستخلص النواميس. حتى لكأنّ غنى الاستنتاج

وصحتَه يجيئان على قدر ما تتخطى تلك المادة حدودَها، أو تتهرّب من أخذ مداها، وقل: على قدر ما تهزأ بطبيعة الأشياء.

* * *

وبعد، فتلكم، كما ترون، الشقّة سحيقة الانفراج بين خاصة وعامة، عقلٍ ومادة، راعٍ وقطيع يَرعى.

ولقد كان من الطبيعي أن يُسجّل تاريخُ الفكر قصّة واحد من العامة اغراه الانخراط في سلك الخاصة. حتى إذا تم له ذلك ساوره اليقين بأنه أصلح من أوتوا القدرة على فهم الفئة المنكوبة الكيان.

ولكنْ باطلاً ما يخالج الأمرُ حدسَه: هو هارب من الجماعة، مُتّهَمٌ إذن بالتحيّز عليهم، وبقدرته على تشخيص مرضهم، وعلى وصف الدواء الذي يقيم من موت.

وكان، من جهة أخرى، أن لم تدوِّن قصةُ الفكر قط إطلالة واحد من الخاصة يتنازل عن راعويته ليدخل عامداً في راعوية القطيع. ومن ذا تراه يترك دَوْرَ البنّاء ليغدو

الحجر الذي يعالجه البنّاء ؟ مجدَ الفعالية لينحدر الى درك الانفعال ؟

ليكون أندره جيد كان لا بد من قحة.

الموسر العقلي، ذو الريشة الي تتناول أدق الخواطر فتعيده جسداً نابضَ الحرارة، الروّاد كلّ مجاهل القيم، الرهيفُ الحِسّ لِفوارقَ بين عواصفِ الكيان ولطافات نياسمه، المجرّد الكُليّ القدرة، ها هو يتحول الى محسوس منه يجردون. المفكر أصبح لنفسه موضوعاً، وللناس. الطبيب أمرض شخصه عامداً، لتكون العلاقات حميمة — كالتوحّد — بين طبيب ومطبَّب وتطبيب، وليَبْلَغَ بالعلم حَدّ المطلق.

* * *

إنه ليأبى عليهم الانتهاءَ الى المعرفة، أُولئك الذين الم يشرطوا على الحبة أن تموت، وعلى الغذاء أن يغدو رضياً.

أوليس من مغزى لأن يحبّ هذا « الجهنميّ » « كتابَ السماء » فوق كل كتاب ؟

إنها علاقة القلة باللامتناهي، علاقةُ هذا الأبلون الصائر الى ديونيسيوس، بالإله الصائر الى بشر.

ولكنها على كل علاقة.

* * *

ويا جيد العظيم، إن القلم اللبناني الذي يتطلع الآن الى استجلائك إنما وقف نهائياً في الجانب المناقض لجانبك..

ولكنه، فيما هو وطيد الايمان بأن في إمكان الخليقة بلوغ المعرفة باتباع النهج الذي اختطته أوطان العقل ــ ولبنان يعتزم أن يكون واحداً منها ــ ذلك النهج الذي لا يؤمن أهله بأن الزيغ هو الطريقة الى استكناه الزيغ، فإنه ليعترف لك، كذلك، بأنك أوجدت نهجاً آخر لربما كان للعقل أن يقف عنده. وهو، فيما سيروح يحكم له أو عليه، سيغنى ويتهيّب.

الشعر بطولة الحياة

مقدمة «سأم» لصلاح لبكي
تشرين الثاني ١٩٤٨

في مؤملي الذي يكاد يتقادم عهداً أن أقول في صلاح لبكي بعضَ العجب. فأيّةُ شيمةٍ من شيم هذه الريشة الحُلوة لا تهيب بي الى كتابة طُرفة، سواءً داعبتِ الشِعر أو قصّت القَصص اللبناني أو زأرت تحمي الجبل ؟

تُرى هي واحدة أحلامي، تراودني في سويعات من العمر نوادر، بِمشيقِ قدّ ومحرور جسد ونقل خطىً في البال هُنّ أطيب من نغم القصب ؟

ولكنْ هل يُفسَح لي أن أطيبَ قدْرَ ما أشاء ويعدِلَ المقدورُ مرجّواً ؟

لأن تحيا نتاجَ هذا الشاعر عَطِيّة. ولأن تُوفّقَ الى التكلّم على طربك لبثّه الحنون، تَمرّسْ بتذوق البساطة. والبساطةُ إلهةٌ عبادتُها وجَعٌ وجزع..

لتقول ماهيةَ هذا الشعر عليكَ أن تُطلع الى العالم الأبجديّ واحدةَ القلم في زِنة القيم اللطاف، وإضاءةِ ما لم يُفضح، ومَسّ ِ الحُسْن ِ بابهام وسبّابة.

ولأنّ شعرَ صلاح لبكي حُبِل به في سكون، تروحُ تتساءل: كيفُ لا يُحبس القول فيه كأنما المتحدِّثُ عنه، ذاك الذي تعوّد إسكار الناس، سئم عمله فقال: هذه المرة سأسكر أنا..

قصيدةُ صلاح ما صيغت صوغاً فتلاحقَها مستنطقاً تأخذ عنها كيف رَصْفُ المداميك بصرامة. ولكنّها نمت كالبنفسج والبيلسان. فهُنا خواطِرُ لم تعالَجْ، واحدة تلو أخرى، بازميل، ثم تُركّبُ موقّتاً في مكانها من البناء، تُقيّمُ كجزءٍ من كُلّ، ثم تُنتزَع ليعاد النظرُ فيها، ولا تُرْكَز نهائياً الا بعد أن تقوّل الأُفُقَ المنحني عليها في ذهول: « لَلْجمال بدونها غيرُ جمال.. ».

لا، فالكُلّ، في هذا الشِعر، كان ـــ كما لو امكن ـــ جُمْلةً، يا صاح. حتى لكأن القصيدةَ اللبكية كالحُب الكبير، تَشعر أنك تجدّف على قدسها حين تزعُم أنه بُنِيَ تِباعاً من ضمّةٍ حرّى سنحت تحت ياسمينة، فمِن قُبلةٍ خطفت عند مقعد، فمن تلهّف في وَحدة آنستها الذكريات. أما الحب الذي يمتّ الى شعر صلاح، فهو حبك العظيم الذي كان لك قبل أن تكون، والذي جاءت الأرض الى الوجود من أجله، تفرش سندسَها لك ولحبيبتك مكانَ موعد.

ولأنّ صلاح لبكي شاعرٌ في كلّ شيء، لا استجيز لنفسي أن أحدثّك عنه كأنسان. فالناثر فيه يَضرب أبداً في مقلع الحسن، والسياسيُّ يأبى الا ان يَتَدّخل في إقصاء البشاعة. فاذا كُلّ إرادة من إراداته **قصيدة**.

هدف صلاح وسَعْيه، (حتى وَسْطَ الجيل المكيافيليّ الباطنيّ الذي يعايش)، كلاهما من مَعدَن الخُلُق والصراحة والانخراط. ولكان ابن نعوم اللبكي ـــ صقر القضية اللبنانية في عهده ـــ أقربَ الناس الى دخول الحُكم لو عرف المداجاةَ قُلامةَ ظِفر، ولو نام يوماً على أفكاره حِيال مساس

بحقوق بلاده، نومتَه أحياناً على الطوى من أجل لبنان ومن أجل كرامته. وهكذا يؤذي الشاعِرُ فيه رجلَ السياسة أذىً لا أحبّ ولا أنبل. وكأنني به واحدُ جماعة أبى معدنهم أن يجيئوا دست الحكم الا راغمين روح الشر، لا بواسطة مماشاتِه أو الزُلفى في العتبات.

لقد أغنى بلادَنا كثيراً هذا الفتى الأسمر.

زادَ شِعْرُهُ كرَّ العنادل في الجبل، فالضوء المجلبب منعطفاتِنا أصبح بعدَه أنعم وأكثرَ مِخمليّة، والظلالُ المنطرحة على السهل غَدَتْ أطرى وأندى.

أيّ غزّارة لا تودّ بعده أن تُشَقّ لمعاندة الأمرِ الواقع ؟ أيّ إعصار تجّرأ قبله على الجهر في وجه الدَوحة الهرمة: « سأحطّمكِ وإن سقطتِ علي » ؟ أي ديَمةٍ كانت في سوى لفتاته ديمة أو كانت لتهمي لو لم تومئ يداه ؟

وله نَبرةٌ عليّة وحنون معاً، تردّ الحُسْن أحسن. فالأشياء بعد ان يعالجها قلمه أكثرُ من أشياء. صديقٌ لمعظمها هو ورفيقٌ حياة وخدينُ كأس، صحبها منذ هدوء التلّة ــ

تلك التي هي، في غير لبنان، ترابٌ وحجر ـــ الى قَلَق الغصن تحت البلبل، الى عَصْفِ الشوق في الصدور، الشوقِ الذي لا اسم له في غير لغتنا..

حتى اذا توغّل بعضَ التوغل في جهاده هذا المخلصُ، الابيّ، الكبير، الطموح، المتوحّدُ مع قضية بلاده، الشجاع، القاطع كالسيف، المتواضع المضحّي بذاته أحياناً تنحّياً لرفيقِ نضال، العنيدُ في المُضيّ الى الحق، السمحُ الضربة، البحرُ العطاء، والشاعرُ أبداً، ذو القلب الطفل، المستعِدّ للوئام اذا ثبت له صحّةُ العكس ـــ فإنما يُدرك الناس أيّ ارث من دربة القتال، واستئنافِ مدرسة في المروءة، ودكِ الأنبياء الكَذَبة، والذودِ عن حياض الأقداس، وخدمةِ الحقّ لوجه الحق، يمكنهم أن يجمعوا من وراء القصبة التي براها هذا الفتى في مستوى خُلقِه وحسّه، فاذا هو وبالٌ على ذاتِ يده وصحّتِه، ونعمةٌ على لِهاف المتتلمذين للحقّ والجمال.

واحدةٌ من ألف إعلانُهن خيانَةٌ لشيمتهن الحيية: يوم راح الاستقلال ـــ وهو صفحةُ نور خطّها لبنان المعاصر ـــ يبهر نفراً من الذين اتفّقَ ان كانوا بين أبطاله، فلم

يفهموا حماسة الشعب لهم الا فرصةً سانحة للتعهر في المغنم، فاستثمروا وانتقموا ونكّلوا بالخصم، عندئذ افتتح ابن اللبكيّ، وحدَه، وَسْطَ ذلك الجوّ الارهابي، حملةَ تحطيم الأوثان وتنويرِ الرأي والتفريق بين عصمة الاستقلال وذلّ الاستغلال.

وكما ان صلاحاً السياسي أخٌ للقيم، فصلاحٌ الشاعر أخٌ للطيب والليل والربوة وهدير الموج: تعلّمنا بعده كيف نشم حفنةً من أرضنا فنتعبدّ لها، وكيف نُبصر تُلْماً في البحر وراء شراع فنقوم الى مُلْكٍ بنيناه، هناك، في نهايات الأرض وسيعاً سعةَ الطموح في الصدور.

يتغنّى صلاح فيحرّك في القلب دفئاً. وهو كأنما يقول لا ينظم.

وكيف ـــ الا اذا قَسرتَ المستحيلَ على طاعتك ـــ يمكن التأليفُ بين أناقة وسذاجة، بين الدعوةِ الى أقصى المطالب والترصّن في القول ترصّنَ البنفسج في كبّ *الشذا* ؟

أيّ يدّ كانت لصلاح على الجمال ــ والجمالُ اقنوم من ثالوثِ العقل، علّةِ وجود الجبل ــ حين لعبنا اللعبة الكبرى في ادخال الشعر الى دارة ومدينة، بعد أن كان في الصحراء يجري وراء الاظعان أو في مضارب الوبَر.

هو من عندنا هذا الشاعر، وادبُه من عندنا.

قصيدتُه بناية، واقصوصَتُه، والمقالة.

يقولون لك: ان له مجموعةً نثريةً والف دراسة على الخاطرة السياسية العارضة. فلا تصدق، ريشته توهمك أنها تنثر في حين أن قصصه والمقالات قصائدُ ذاتُ أوزان أرحب ورويّ خفيّ.

ومن « أرجوحة القمر » الى « اعماق الجبل »، مرّاً بـ « مواعيد » وعشراتِ العشرات من العجالات التي تكوّن كُلّ صباح غذاء اللبنانيين السياسي، فتتصدّر أقوى صحفنا واصرحها ولا تتشرّف بتوقيعه، حتى ليَصحّ أن يقال: « ان صلاح لبكيّ هو جنديّ السياسة المجهول »، الى تحفته « *سَأم* » *التي بين يَديك. وهي آيةُ الشعر يوم الكلامُ على مفزَعةِ*

الانسان من الحياة الى التكّبر على الحياة، في إطار من ربيع الطبيعة ومن الحُبّ ومن التمرّس بالبرء من عدم — انما تمتَد سلسلةُ نتاج خيّر ما عرف لبنان أقرب منه الى قلبه، يؤلف بينها ما يؤلّف بين دعوة الكروان صباحاً على صنوبرة في بعبدات، وصمودِ صور، مدينةِ البطولة غير منازعة، للغُزاة الذين تهزأ بهم اليوم أمواجُها المُغنيّة على الدهر، والخاطِرة التي يُولج اليها فتتّسع بقدر الولوج حتى لتبوح المادةُ والكون والحياة بسرها وأبَدِ مداها في بنت شفة تُكتنه.

يجيءُ يومٌ يُحَبّ فيه صلاح لبكي كثيراً.

الحلم والقدر

مقدمة «ميناء القدر» لفكتور
حكيم، كانون الثاني ١٩٥٦

كلامٌ على القدر، لغزِ الشرق الأبديّ (وحيث للحب بالذات فصل ولا أبهى)، كيف يمكن تصوّرهُ الا في إطار من قِبالة البحر، ذي النداء السِحريّ الذي يَشيل معاً بقلبك وبكرة الأرض ؟

ترى، إذن، لروعته البحرية، المُطلسَمة بالقَدر، كان موضوعُ السندباد أجمَلَ ما صدّر العرب الى العالم ؟

لقد طالما أُخِذتُ بطائفة من قيمهم الخيّرة البارعة كحِدّة التقدمية في بوادَر لِعُمَر يمكن الائتمامُ بها في

إحداث نهضة لا يقف بوجهها حتى المعتَقَد، أو كلمة للمأمون تفجّرُ كُلّ ارسطو: « نظرتُ فلم أجد أجملَ من النظر في عقول الناس ». أو — على الأخص — حِكَمٍ لعليّ تحفزك على التساؤل: كيفَ يسع غزّارةً بريت في القرن السابع ان تبلغ هذا المبلغ من تفتيق سِرّ الحياة في خاطرةٍ انيقة كالشمس ؟

إلا أنه، برغم من سُطُوّ هذه الفرائد على ذهن المنقّب عن كنوزهم، يظَلّ للخيال الطريف الذي أطلع حكاياتِ السندباد نَكْهَةٌ خاصة بين جميع أطايب المَقْدُرات.

تلك الحكايات ؟ لسوف يُهرَق في تَعَمّهقا واللهو حولها حِبْرٌ كثير.

هذا فكتور حكيم، ذو الريشة التي تُضارع الأزميل الفلورنسيّ، في لُغة باريس، إحدى وسائلنا الى الجمهور الكوني، يفتتح اليوم بلغة العَرَب — وقد افتُتِنَ بها حديثاً — كلاماً ولا اعمق على موضوع المواضيع في الشرق.

مِن مرفأ يشرِّفه بأن يدعوه بيروت، أطلق — على

بركاتِ الريح ـــ سفينةَ السندباد، بطلِ القلق الذي لا يهدأ. ثم أطلقها كَرّة أخرى. وهكذا وهكذا حتى لتَمُرّ الحياة كلّها متسلسلةً في مغامرة السائح العجب.

تُرى سندباده هو العقل البشري ـــ جميعاً بما فيه القلب ـــ والبحر هو الأزل ؟

يا للأسئلة الأنيقة تأخذ في الالتماعِ لك، كلما أوغلتَ في مرافقة هذا الجازون الفكريّ. مرهفةٌ هي. كأنها تماثيل من رخام، تكاد ـــ لوفرة ما افتُنّ في نحتها ـــ تهوي من افاريز البرتنون على العقل. وتغدو أحياناً تُفاحةً تقدّمها لك ـــ وقد عصفَ عاصفُ الريح بالبحر جميعاً ـــ يدٌ لحواء خرجت من اللجّة تقول: الجنّة ؟ كذب. ما كانت الجنة في عَدْن. انها وستبقى في البحر.

هنا مسّ فكتور حكيم أطرفَ وَتَر وأغناه. بل قَبَض على الغِنى نفسه أو أجاعَهُ اليه. قَبْلَه كان العزف كُلّه على هذه الخيطان الدقيقة التي ترتجف على العود. فرفعه الى المستويات العُلى. واذا هو يندفق الى الأذن، والحَلْق،

وغصَص ِ الصدر، من الحِبال المشدودة على مركبٍ عتيّ يغالب الإعصار وجبال الموج.

رحلة أغنية. كبرى كالحياة !! اذ السفينة ـــ العود متنقلةٌ لا تستقر على اصابعِ الوجود المهيب. أوتراها ستقف في ميناء ؟ انها إن فعلتْ أُصبتَ بِدُوار، وخلتَ الميناء ستنقَلِعُ جملةً من على صخرتها الأزلية، ترمي بنفسها في ذلك المركب، رفيقةً لك ولاحلامك المذهّبةِ الكبار، جاعلة منك مخلوقاً مُترفَ الوجود: مرّةً مزيجاً من شيطان وملاك، صلصالٍ وخاطرة، ومّرةً لفظةً في كتاب، يعمل بها المؤلف ما يشاء، ولكن في كلا الحالين إنساناً يلهو بتفكيك أهوائه، وتدميرها، ثم صبّها من جديد وتركيبها في المكان الأخلق، حتى لَيَصْنَعُ نفسَه برمتها أُخرى المقدرات، أُخرى البهاء.

هذا الموضوع ؟! انه ولا أجرأ. اعنف من إعمالِ الظِفْر في الحجر. يَخطُّ الكلمةَ الباقية: الانسانُ لا يكون الا أوان يُجازف. يُجازف بوجوده وبلا وجوده، يجازف حتى بحبه العظيم.

ماذا ! أيكون الله قد بدأ الكون هنيهَة قال: سأخرج مما أنا. أصنع، من شغفي بالقوة، ما لا يكتنهه مَن أصنعهم. وتكون لذّتي في إبقاء اللغز ـــ لغز الوجود ـــ وقفاً عليّ، مباعداً بماهية عنصرهم، مباعداً حتى ليظنون انهم، عليّ أنا، لغز ؟ وتبدأ رحلتهم فيه، رحلتهم.. اليهم، وبهذا، لربما، اليّ ؟

دَوماً مَقلَع آخر

في حفلة « مدرسة الآداب العليا » إحتفاء بالذكرى المئوية لمولد آرثور رامبو، كانون الأول ١٩٥٤

أرثور رامبو ! نَقْشُ وجهه في الزمن ! حدّه باسطر على الورق ! إفراغه في خطاب ! مَن مِن عباقرة القلم، مَن يجرؤ على التحرش بهذا المخلوق العجب، ولا يتعرّض لأن يترُك، هنا وهناك، قطَعاً متطايرة من جسده وآرائه وربما من دينه ؟! وآيةُ هذا الولد المستبق كلّ عصر، كلّ هداية، انه يجعل للعقل أيضاً موادّه الملتهبة.

لربما للمرّة الأولى، في التاريخ، يسيطر طفلٌ على منجم المعرفة.

ان « فصله في الجحيم »، موضوعَ إلمامتنا الليلة، بعد

انقضاء نحوٍ من قرن، على إلهاب الخواطر، يبقى الكتاب الفريد، الكتاب الذي لم تَرشقِ السماء بمثله حجارة.

إن الكون الرهيب الصمت، ذاك اللغزَ الأبديّ الذي يرجّ في البال، فيبعث القشعريرة في عصب الخيال ــ إذا كان للخيال اعصاب ! ــ نادراً ما انفتح بابُه للطائعين. وفي الانجيل ان ملكوتَ الله يُغتصب اغتصاباً، والمخلِّصُ نفسه، يقول قانونُ الايمان، لا ينفض الكَفن قبل ان يعرّج على الجحيم.

لأن يلبَثَ غوته، ستّين عاماً، يحاور مفستو، يَقصد السَحَرة يلجُ عليهم أكواخَهم القذرة بعينين محرورتين تَسْتَطْلِعان سرّ اللماذا، اللماذا الكبرى، سِرَّ سيرها على هذا السراط المعمّى دون سواه، لهو أمر قد نجدُه طبيعِيّاً في انسان تسنّى له أن « يؤغرق بربريته »، مدّة نحو من قرن، ومدّة نحو من قرن يستطلع أبد الهنيهة، يُقصّب أشياء الجمال، يُقولب منها، يدمّر اللاشيء ويَخلق. اما أن يُطالعنا كتابُ الفكر بفتىً يافع في حوالي الخامس عشر من نيساناته يرئس حَفْلَ الخطأة، الخطأةِ الكبار، طارحي السؤالِ الاعظم، أولئك الذين يطلبون الجوابَ على حساب جِلْدهم، ويكون من التألّق بينهم حتى ليُغرق

عقاربهم بُسمّه وقحتَهم بدنَسِه، وتطلعاتهم الى البعيد بإشارة جفن تتخطى المنتهى، فأمرٌ يكاد يُبدّل كتابَ الفكر آخر، ويجعل أُولي الشرّ من الباحثين أوفرَ حظاً بقول الجديد وأشدّ سلطاناً.

ما بالي استمرّ في اثارة الشكوك ؟ أخلع الاعتقاد باني أؤلّه الفضيحة ؟!

كل ما اردتُ اليه هو وضعُ الاصابع على التناقض بين القول بضلال هذا المتشرّد وتسجيله يداً أُولى على الحقّ.

لا ليس « الفصل في الجحيم » صنعَ شاعرٍ رجيم، يمكن عملةَ العقل، دون أيّ خسارة، ان يُشيحوا عنه البصر فيما هم يبنون عمارَةَ المعرفة. لا وهذا الكتاب الصغيرُ قد غدا مِحَكّ كُلّ سِراط أُريد الى بلوغ البهيّ، أُريد الى مزْق الستار عن الشمس الكبرى.

لا يمرّ بـ « فصل في الجحيم » كليلُ العقل، مهيض جناحي الخيال، مَن بَحرُه قَحْف الصَدَفة، مَن ميدانُه ما بين مَلعقَةٍ وجَيْب، مَن طموحُه من الدنيا طيّ عاهرة على زند،

أما العقل أخو الغَضْبة، ذاك الذي يأبى الا خضّ الوجود، عجمَ ما وراء الوجود، قَضم عظام الجمجمة التي تَحجُب ما لا يُحجب، أما العقل أخو اللفتة الوقاحة، ذاك الذي يرفض أُصولاً جاهزة بات خوارها يجاور العُقْم، ونارُها المطفأة تُحاكي الفراغ، فلا بد له ـــ مهمّا شدته اليها اليقينية، واركنه الى رواهنه العِلم ـــ من التتلمذ على هذا الطفل اللاهي، لا بالنار بل بفلسفة مَن أوجد وأهلك بالنار.

« الفصل في الجحيم » ارفعُ مأساة كُتبت لعصور العلم. انها مأساةُ العقل. انها إعادة النظر شُجاعاً في جميع ما سُئل، ووُثق به، وافترض، وجُرّب وتُخطّي، وأُحِبّ، ومِيتَ وحُيِيَ من أجله، وظُفر به، وضُمّ الى صدر حتى عُصِر، ومعه عُصر صاحبه ليعود يتطلّع الى ضَمّة أحَرّ وأجدّ. انه محاولةُ تجّرؤ على الخالق يطلب فيها العقلُ، بدالّة الإبن، مزيداً مما أُعطي من أُلوهة. تجرّؤٌ بلغت به دالّة الإبن حدّ تهديد الله.

أيّ ثقة إذن به تعالى الى جَنْب المَطمع بمعرفة لا تحدّ ! أيّ صَلاة وراءَ التجديف ! أيّ فصل في السماء « وراء » الفصل في الجحيم !!

لماذا كان رامبو، عن قرب أو بعد، وراء مدارسِ الأدب الحديثة جميعاً ؟!

السؤال هكذا لم يَعُدْ يُطرح. سؤال اليوم: الى ايّ حَدٍ سيُخصب رامبو في « فصله في الجحيم »، خاصّةً، جميعَ الفلسفات ؟ مناهج التنقيب ؟ تخطياتِ الأديان ذاتِها بذاتها جَرْياً على سننها القائل بضرورة تفجير الإيمان أوفر كُلّما اتّضح العقلُ لنفسه أكثر ؟

الجميل ان هذا الديوان الجهنميّ الأسطر، الإلهي الآلاء على مصائر المعرفة، انما أُعطي ان يَكتبه ولد. وهكذا باتت قراءتُه خُبزَ الصغار وإلهامَ عِظام العقول: أولئك لنضارة بثّه وهؤلاء لما يُغنيهم من جرأته، والجميعُ لصدقه.

ورأي رامبو برمبو ؟

هناك مُتعصّبون له يقولون انه ادرك، وهو بعد في التاسعة عشرة، انه لم يبق لأحد ان يقول أكثر.. فسكت.

شعر الحب

مقدمة « بوح » ديوان أدفيك
شيبوب. بيروت، تموز ١٩٥٤

شعرُ الحب ! يكاد يكون وحدَه الشعر.
تُرى، اما آن اوانُ الجهر بذلك ؟

هذه الطفرة في الفن، وأعنَفُ ما بدأت في التصوير، مهدّدةً بأن تعصِف بأصول الجمال، يخيّل اليّ أنّ مردّها الى اختلال في القدرة على الحب. الحبِ الساذج العظيم.

ـــ القدرة، يعترض معترض، القدرة على الحب ؟! أفيكون الحبّ موهبة ؟

كلّ شيء يؤكد ذلك.

أوَما قيل: « يَندر الحبّ العظيم ندورَ العبقرية » ؟ والنَهضات انما يلازمها يقظةٌ في عالم القلوب.

كلما كان روميو وجوليت كانت، كما من الغيب، صفحةٌ بيضاء تتهيأ فيها الزلزلة. ويلتقي العاشقان، فقصاصةُ الورق سماءٌ مكوكبة.

ويلُ شعرٍ، ويل فنٍ ليس غزلاً.
وكدت أقول: ويلُ عِلم.

هذا الانسان ما ترى كان لو لم يَشُكّ نفسه بين النجوم علامةَ استفهام: ما نحن بعضُنا من بعض، ايها الكون ؟ ولَكان الاستفهام باطلاً، لا ردَّ عليه لو لم يكن مفعماً بحب. انعطف الكون على النفس، ومنحها ذاته في بَوْح، وتفتّحت زنابقُ في العقل الجديب، لأن السؤال تاقَ الى ضمّة.

* * *

من حُسْن الطالع أن في هذا الوجود إلهاً، وديمومةً بعد الموت، وما يلازمُ ذلك من نشوةِ رؤيا فوق الوصف. وإلا كانت الهنيهاتُ الهاربة التي تخطفها — وصدرُك الى صدر حبيبتك — هي وحدَها ذروةَ الهناء.

حتى لذّتك بأن تعرف، بل بأن تبلغ من المعرفة حدّ القدرةِ على الخَلق، مما به وحده تداني ماهيةَ الألوهة، لا توازي لذّةَ الدوّار الذي يُصيبك، آونةَ تضيع في قبلة.

الحياة بهيةٌ، تقول، الحياة فوق ما اؤمّلُ من الحياة، ما بقيَ فيها أنني أحب.

لو كنتُ شاعرَ السماء، تقول، وأُعطيتُ ان أستَبق مصيري، ودون سواي، اشهد بَرءَ الكون من عدم، حدثَ الاحداث الذي له ارتعش اللاشيء، وبه وحدَه، لأول مرة، وكّدَ، تعالى، انه هو الذي هو، لغنّيتُ العملَ الاعظم بأنه طَعْمُ القبلة.

سوى أني كنت، فيما بعد، عَدّلتُ من مسوّدةِ قولي على انه دون الحقيقة.

مِن وقوع طرْف على طرْف، ممّا يكوّن الشرارة بين كائنين وُجِدا، كما من البدء، بعضٌ لبعض، حتى شَدّ الأزل الى الأبد على ثغرين يُخمدان باللقاء صرخَة الصمت التي لا يوازيها سوى ارتجاج النجوم، انما يقوم اختصارٌ لا لانِدلاع الكائن في العدم، بل لتشامُخ ذروة الوجود في الوجود. كانما العنايةُ ـــ المتناهيةُ الحنوّ على خليقة جاءت وحدها صورةً لها ـــ انما راحت، منذ مستهَلّ عهد الخليقة بالمعرفة، تذيقها جرعةً جرعة سلافةَ المقدور الإلهي من الخمرة الموعودة.

لا، ليس الا الحب تجربةٌ كونية. فهو وحده طربُ السُذّج وسكرةُ العباقرة. ولربما به وحده يتساوى المتفاوتون معرفة.

وهو يُفتح على الطفل بمقدار ما يهبُ ليونار. وله الحرارةُ الواحدة عند البريء وعند صاحب مِفستو، والفيضُ اللامتناهي، والسعة التي تجعل العقلين، الطفوليّ والخلاق، يستمتعان الواحدُ كالآخر بالرؤية التي بعدها لا بعد: تقبض على الوجود من طرفيه، وتطويه كمنديل لا احبّ ولا

أبهى. منديلٍ أُمِرّ على عيني الحبيبة فبات هو هو الكون والدهر والفرح.

الانسانُ لا لشيء الا ليعرف.

ومنتهى المعرفة ان يُبدعَ كما من عدم.

فمنْ، يا ترى، من يسَعه الزعمُ ان الساذِجَ، إبّانَ عِشقه، يَقِلّ عن عِلية الأدمغة مقدوراً على العطاء، والخَلق، ومباشرة المستحيل ؟

لعلّ الى هنا مردّ مجلى السرّ في بعض النبوغات المبكّرة. تُرى هؤلاء الصغار كانوا تحت تأثير حبٍ لم يتوقعْه المؤرخون فيسجّلوه أو يتحدّثوا عن اثره ؟ كلُّنا يعرف، إنْ بالاختبار وإن بما حُدّثَ به مشافَهَةً، أنّ طفلاً في الرابع من نَيساناتِه أضمرَ لمعلمته عاطفةً لا اسمَ لها، وأنّ عينيه اليها كانتا تحملان صلاة، وهو إنما أخذ عنها الالفباء لأنّ كلّ نطقِ حرفٍ من فمها كان بسمَة خاصة !

دمعةٌ من إمرأة تحمل اليكَ الامرَ بتغيير وجهِ الأرض،

شريطةَ ان يكون في الدمعة حبٌّ أو املٌ بحب. والأملُ بشيء هو الشيء في مطلقه قبل أن تشوبه انتقاصاتُ التحقّق.

والحبُ، كما الارادة التّومائية، عقلٌ. فاذا سُجّل على الحيوان، على عصفورٍ مثلاً يموت لموت عصفورته، كان ذلك لا يَعني دافعَ غريزة. إن للعقل مسوَدّته في الحيوان وفي النبات، وربما في الجماد. تأثُرُ وردة بشحوب اخرى هو نتيجة معرفتها انّ اختها على وشك الذبول. اعرف ان ليس هذا رأيَ البيولوجيين، وانما قد لا يستغربونه يوماً، متى اتسعت ملاحظة الانعطاف بين الخلائق الحيّة على تنوّعها، وبين الذرّات.

ومنذ اليوم يؤكد الفيزيائيون ان المادة في نهاية ما هي ليست مادة. يرجَّح انها لن تُرى ابداً، ولن تُمسّ، ولن تشكّل حاجزاً. ان الفيزياء اكثر من البيولوجيا تقرّب التعريف بالطبيعة من التعريف بالله. روحٌ محضٌ هو، وهي على التُخوم.

لربما قصدتُ من كل هذا ان اؤكّد على أصالة الحب في تكوين الكون.

المعرفة هي الغاية، وليست الا هي. شرطَ بلوغ المعرفة ذروَتها أي قدرتها على فعل الخَلق[١] إذ لذتك من الوجود ان يحاكيَ صنيعُك صنيعَ من أوجَدك. ولكنّ فعلَ الخلق ان تعطيَ وأنت تبني. أيّ وشائجَ إذن تشدّه الى الحب حتى لكأنهما صنوان !؟

لم يبنِ مَنْ لم يحب.

لماذا لم تكن بنايةٌ في الشعر العربي ؟

بلى، أحبّ العرب. أحبوا بالجسد وأحبوا بالروح. وكانت عندهم، على ما يروُون، قبائلُ باسرها تعشق عِشقَ الروح.

ولكنهم قد يكونون في العاطفة من غير ذوي النَفَس الطويل. ان الفقر الماديّ الذي أوجدَتهم فيه الطبيعة وجّهَ عاطفتهم الى حِسّ الحياة أكثر منه الى الترف العقلي الذي

---

١) ليس الإنسان خلاّقاً أي موجداً من لا شيء. إن هو إلا صانع (ديميرخوس) أي مطلع شيء من أشياء موجودة. وإنما نجري عليه هذا التعبير تشديداً على ضرورة تكاثف فعل الصانع عنده ودنوّه من فعل الخالق.

يدعى الحب. حياة الجسد عندهم لزِم ان تكون فوق حياة العقل. والا ما كانوا بقُوا. أطلعوا البطلَ، لم يطلعوا المحب. كان شعارُهم « العيشُ أولاً ». ولربما هو الأصح في أرض بطبيعتها محرومة. ولكنّ هذا اثّر على نَفَس الحب، اثّر على الْبناء.

أن تكون الصحراءُ صحراءَ شيءٌ موحش حقاً. أما ألا يكون هناك ديوانُ غزل فوَحشةٌ لا تطاق.

وكان على بلاد الانهار، كبغداد ودمشق والقاهرة ولبنان بأسره، ان تردّ التحدّي.

هل فعلت ؟
لكان في مُكنتِها ذلك لو انها — حتى في إبّان انتفاضِها على القديم — لم تَظلّ عينُها في القديم.

امرؤ القيس الصحراوي يسكن كالجنّ كلَّ قلمٍ عربي الهوى.

آنَ، أجل، آن لنا ان نتغزَل.

بَدءُ ادبِ الغزل هو بدء البناء.

منذ يوم غير متقادم ـــ عنيتُ اطلالةَ الثلث الثاني من القرن العشرين ـــ بدأ الغزلُ حقاً تحت شق القلم العربي. وإني لأتوقعُ له انطلاقة بهية أشبه شيءٍ بأخذ ثأر.

* * *

ادفيك جريديني شيبوب واحدة الخواطر الشهمة في ذهن الغزل. برّت به يوم كانت في البادئين، وبَرّت به أكثر يوم أرادته لفْحاً لا ناراً واناقة لا بذخاً.

هذه الشاعرة الطلقة كربيع من لبنان لم تنتظر ان يدعوَها الغزل. لقد قصدته. من هنا مَسحةُ الطرافة في بَثها البهيّ. كانت المرأة في لبنان موضوعَ وحي. كان القلم النسَوي لِيعُشق لا لِيَعشق. حتى كانت أدفيك.

سوى انها، على النقيض مما يُظنّ، لا تنادي الحبيب. حسبُها ان تقول الخصرَ، والعنقَ العاجيّ، والشوق، والهنيهة الهاربة، حتى تبعثَ الرعشة في الرجل، ويكاد الصخرُ، والهواء، والأفق المتنزّل تتحرك جميعاً اليها.

في هذا العصر الذي طالعتْنا فيه الشاعرات جائعات الى الحبيب، اكتفت هي بأن تكون. فكانت ثورة.

أيّ ثقةٍ بالحسن الأنثوي ؟ أيّ اعادة إيمان بالرجولة ؟ ترى، منذ متى لم يعد يكفي الرجل ان تقول له المرأة حضورَها ليَخِفّ ؟

رسالة الغزل الادفيكي عميقة إذن أكثر مما يُظنّ. إنها قد تُحدث مذهباً.

كان الادب النسويّ يتطلع الى التفرّد في شيء حتى يحصل على حقّه في اللابد. أو يكون قد حصل عليه بعد ادفيك ؟ من يدري، من يدري ؟

يمكن أن نُنزِل في الواقع ان الغزل عندنا قد غَنِيَ بها. بات له وترٌ غريبُ النقرة. وترٌ من غير هذا العصر، ولكنه متآخِذٌ معه يوماً، كما يتآخذ ــ إذا أمكن ــ بنفسجٌ وسنديان.

أوتَنتصر البنفسجة ؟

ان الشيء لا يكون ما لم يكن عجباً.

هذا الإلماعُ المكتفي ــ وهو قوام الجِدّة في إسلوبها ــ هذا الفن القائم على محو الذراعين الممدودتين وعلى خنق الصخَب المتلوّي، لكم يطيب لنا أن يولَدَ في لبنان على يد إمرأة ؟

لن تُطلِع الأمزجةُ أجملَ من الكلاسيكية، ولا أوقعَ، ولا آخذ.

ان الارتجاف الذي يشدّ الحصاة الى النجم هو نغم هادئ، ولأنه هادئ يعمق حتى ليرُجّ في الكيان.

تُرى هذه الشاعرة تغنّي حبيباً، أبَ طفليها، مات في عمر البطولة، أم حبيباً آخر يمرّ بها لماماً وكأنه طيفٌ أو أمير ابعاد، ركبّته جُزءاً جزءاً من واقعٍ مر وأليم ؟ مَنْ يدري ؟ ومن يجرُؤ ان يَلِج قُدس حَرَمٍ في هذه الشفافية ؟

كل ما نعرف من بوحها، النضر على غنىً، الموجِع

على صفاء طويّة، اللؤلئيّ على توشّحٍ بأغوار مجهول، انّ هناك لطافةَ نفس غير عادية، وشملَ عمرٍ جمّ الآلام والخواطر، وانتدابَ ذات الى عبور الخضّم الصعب، تصهرها جميعاً نبضةُ قلب ابديٍّ الطفولة، يلهو بالنار، يلهو ولا يرعوي. حتى ليخيّل اليك ان قصيدة ادفيك، منذ هي فِلَذٌ قُدّت بتردّد وارادة معاً، الى ان أصبحت اغنية غنوجاً تتسارّ بها الفتياتُ متنهدات، انما هي شيء أجملُ من الحياة لأنها لم تصغ فقط الى صوت الحياة.

في نهضة الغزل غداً — تلك التي ستلازم اليقظة الكبرى في بقعة من أجمل بقاع العقل — لا بدّ ان تُذكر غزّارةٌ شهمةُ الطرافة بُرِيَتْ على اسمِ نفسها، آيتُها — إن جُرّت — أنها حبّ ولا صرير.

تُرى يموتُ الجَمال ؟

في الذكرى الثالثة لوفاة
سلمى الصايغ، تشرين الثاني
١٩٥٦

حقاً، سلمى صايغ، حقاً هجرتِ الوجود ؟
لسوف اعرف ذلك متى لقيتُ الجمال.

وعذراً إن أنا لم أُصدّق. ومَن، يا سلمانا، يا سلمى الشعراء، من يُصدّق ان رائعة القلب التي انتِ تغيب عن المشاعر، والشَفَقُ المتأخرُ على تلالنا بلبنان يبقى شفقاً، وكرّ العنادل المتماوج على جيف ينابيعنا بالجبل يظلّ كرّا ؟

أكيد ان الموت بات شيئاً لا يُردّ، حتى تركناه يفعل.

انتِ في نعش ؟!
مَن، ذاتَ يوم، من تراه كان يجرؤ على تصورها تقال عنك ؟

كنتِ، ذاتَ عهد، لمستلهمي الشعر، الحُسْنَ الذي بعده لا بعد. وبقي لك شيءٌ من هذا حتى في منتهيات العمر، وإن هو تحوّل من بين ما جبين وخصر الى لهاة وشِقّ قلم.

بلى، جمالك الذي عُبد في المحيا الوسيم هو هو الذي بات كلّ يوم — بعد ان صرتِ جَدّة — يُعبد في صفحات تُضيء وتُرهق طيبا.

تُرى هل تمرّ على الحسان جميعُ أشهر السنة ؟ لربما. ام أشهرك، انت، فاكيد انه لم يكن بينها تشرين أو كانون. كانت جميعاً نيسانات.

لهذا بقي أدبُكِ ينمّ عن نضارة في البثّ، وشباب في المبدأ، ومبزغان شمسٍ في المطلب الصعب. من دَلّ عبارتك المليئة، من افكارك المسلوكة كجواهر العقد، يُستشمّ ان لغيرك اصابع ولكِ انامل، لغيرك وجهاً ولك

محيا، لغيرك جسماً ولك خصر وقامة. وجودُ السوى في الأرض مكوث، ووجودكِ زيارة. جاؤوا ليعرفوا العيش، وكنتِ لتلِمّ بك الحياة.

ولربّ شعراء لولا وحيُكِ لا شيء، وحلقات أدب لولا رِفعَةُ بثّكِ أرائكُ عليها جلوس، وهتافاتِ مجد لولا صفاء نبرتك ضجّة، ونصرةِ حق لولاً طِرافةُ ما أنت صخبٌ وفراغ.

لم يكن عَمَلاً جديداً ردّ أوسمتك الى الحُكم الكاذب. ولكنه يومَ اتممته ببساطة جاء صارعاً يقصم من ظهر.

في كلّ شيء، يا سلمى، كنتِ الحُسْن لا يغيب.

تحتجبين فيُعرف في الجو خُنق. حنقٌ يخيف دولة. تبعثين الى المطبعة برسالة على الخير فتُخجلين الاحياء بوهج رماد الموتى. وتُلقين درساً في جاف المواضيع فتُطِلّ من النوافذ، من بين الأربعة الجُدرُ، حديقة بورد وقطاف. ودائماً دائماً، لسطرٍ تَخطّين أو لخُطبة تلفظين، تغرورقُ عيون وتُشحذ اظافر.

كلّ ذلك برصانة بنتِ البيت.

لكم انت عريقةُ البادرة، يا سلمى. تجافين أم تحبين، وكالفراشة تَحُطّين على أرضِ بلادك أم تغتربين، في الحالاتِ جميعاً أنتِ الاطلالةُ النبيلة، والجُهد المرتاح، والترفّع عن الشعور بسلطان الدهر.

وكأني بالدهر، يا سلمى، جاءك، يوم جاء، وفي روعِهِ انه اخيراً بكِ ظفر. حتى اذا طرق الباب، قَصْدَ ان يفاجئك محطمةً على سرير، فيروّعك بايقاظ، ويثأر فيك من عزّةٍ ونبل، وكعبدةٍ ذلول يدفعك الى الموت دفعاً، وَجَدَك، على العكس، اميرةَ ابعاد، مُستعدةً في ابهى الحلى والحليّ. ومشيتِ، وهو الى جنبك اميلُ قليلاً الى الوراء كأنه الوصيف أو الحاجب، مشيت الى الموت كما الى مرقَص أو الى مِنبر!

سلمى صايغ، ان الشعر عندنا في حداد.

ولكنه مِن ذكر جلادِكِ يتّخذُ عزماً، وفي خطتك يجري فلا يَخنع. والجمالُ الذي غاب فإنما عن الأحداق

وحدها غاب. وها هو، منذ اليوم، يحتلّ الأخيلة ونبضات القلوب.

سلمى صايغ، كان جمالُك المزدوج عظيمَ السلطان على عظماء العقل، حتى لإخالهم اليوم يتهيبّون الإقرار بأنه انطوى.

ويومَ بلادي بأسرها تَمرّ أمام الربيع المسجّى تودّع رونقَهُ وتخنق الغصص، أبى نفر من أهل الوفاء أن يكونوا في المارين، ليبقى لهم أن يتصوروك ـــ والدهر كأنه الوصيفَ أو الحاجب، الى جانبك، اميلُ الى الوراء ـــ تجرين الى مرقصٍ او الى منبر، فتّانة صبا، اميرةَ ابعاد، كما انتِ اليوم في الكتب.

فنٌّ وَلاهوت

مقدمة «الرد على مرداد»
للأب يوحنا الخوري، كانون
الثاني ١٩٥٦

ميخائيل نعيمه اسم. إسم بهيّ. تحبّه حبّكَ قِمّةَ الجبل الذي عليه يِعيش. أهو الآخذ منها شموخاً بعد ان آثرها على نيويورك عاصمة العصر، أم هي الآخذة منه؟ أُرجّح الثانية. وآية الرجل انه محضُ اديب. عرفتُه وقد ترفّع عن كُلّ ما عدا الادب، فوقف نفسَه على القلم، يأبى إلاّ اليه التفاتاً، حتى في كسْب الرغيف. انه، في هذا، يجعل الأُمّة التي نمته في مستوى عِلْيَة الامم، حيث يأخذون انفسهم بشرعة شرف ألاّ يكون لواحدهم دخل إلاّ من المهنة التي اليها انتسابه. هكذا الثقةُ بالعمل، هكذا التوحّد مع العمل. من هنا ان الكلمة عند نعيمه هي هو. تَقطر إخلاصاً قبل أن

تقطر صواباً. يعرف أنّ بها بقاءه. يرفع الكلمة الى قُوّة المجد.

رأيي على الاجمال؟ أحبّ ميخائيل نعيمه. أحبّه كواحدة من باسقات الأرز.

و « مرداد » كتاب ولا كالكتب في الشرق. كتابُ حياته. أفرغ فيه سني تأملاته جميعاً. فتناول الكون: حصائه والفكر، مصائره والله.

في لبنان نقرأ « مرداد » على انه رائعةٌ بشرية، وفي مصر يقولون انه كتاب العصر في اللسان العربي، وفي الهند يتلمسونه، في ترجمته الانكليزية المطبوعة هناك، كأنه وحيٌ آخر وفد اليهم من جوار وطن يسوع. ماذا! كتابٌ كهذا سيُعدم اختصاصيّاً يَنظر فيه على ضوء دُرْبة بعينها (من عدة دُرَب يستحق أنِ يواجَه بها) فيحطّمه تحطيماً؟

لكم ينبغي أن يكون « مرداد » عتياً حتى يصمد لكاهن شاب، لاهوتيّ قصيّ اللفتة، عليها راض فنَّ الجدل وراضه، قرمٍ عنيد يُخشى منه حتى على الحقيقة ان هي ما

تماسكت كفافاً، أو أبتْ أن تكون مُطلَقَ حقيقة ؟

أجْمَلُ حمْدٍ يوجه الى « مرداد » ان يَظفر بعداوة كاهن، كهذا، ذي ايمانٍ فتيّ ومعارفَ في عز صيفها.

وددتُ لو يُرزق كلّ أديب من طِراز نعيمه اختصاصيّاً في عِلْم ما، يبلوه معارضةً وعجْماً ويحكّه على مِحكّه بقسوة. اذن لعاد وقد تزّود لنتاجه المقبل بزاد لا يجاع بعده، ولعاد قارئه بغُنمَين: خيرِ الكتاب بحد ذاته، وقد أُنيرت بالحَطْم روحه، وجوانبه، وكل شِيَة فيه، وماهيّةِ ذاك العلم بعينه الذي عبّأ آلاتِه جميعاً اذ تنطّع لهذا الحَطْم.

وجزء — ليس إلاّ — من المحاسن التي تبسطها المُعارضة أنها تُتيح لك رؤيةَ عقلين متناقضين يفعلان الواحدُ في الآخر: هناك الفنّان يُلمع ويُلغز، وهنا الكاهنُ يدلّ على الحقائق باصبعٍ من نار. هناكَ الباني الأرضيّ يرفع القِباب ويُنّوع، يتصور شهمَ الخيال ويطمح الى إسكان مَن لا سكن له في مقصورة من مقاصير قصره، وهنا الهادم من أجل بناء سماويّ، يقتلع الحجر بل المدماك برمّته، يُزلزل بقوّة مَن في يده الزلزلة ليُفرغ الهنيهةَ الهاربة

من صرح شِيد لغير الله. هناك الغَيْرة العاصفة بكل شيء تلفّ بعتيّ رياحها غير واحدٍ من اعداء واشرار تكرههم الى حدّ التعميم، الى حد توّهُمهم موجودين، كذلك، في قامات اصدقاء وخلاّقين، وهنا المحبة المسترشدة بتراث سبق ان رِيزتْ منه كلّ قيمة، كلّ خاطرة بال، كلّ تطلع الى بقاء، فلا تشيم قائمةً لخطأ الا قصدتها تُخمدها، ولا تعود من إخماد ظلمة الا وقد طمستْ في الطريق نجوماً يوجع طمسُها. ولكنْ، هنا وهناك، عملاقان. الواحد بما وراءه من تمرّسٍ بالقلم عريق، والآخر بما يَعمُر جَنانه من أصالة في المعرفة واستنارة بما فوق الزمنيّ.

وما كان الأب خوري في تغليفه اسم نعيمه باسم « مرداد » ومحاولةِ التفريق بينهما بغية التوسيع ليده في الطعن وهشم الفكر، ليقل عن نعيمه في رَشْقِه بالحجارة مؤسساتٍ هي ركائزُ التمدّن وقِيماً هي الباقيةُ على الدهر.

للأب خوري دَينٌ على منقوده اذ يهزّ الناس هزاً الى قراءة « مرداد »، كما لنعيمه فضلٌ على ناقده اذ يحرّكُهُ الى الافتنان في « رده » حتى ليُكسب الجدليّة التي هو ابن بجدتها بريقاً ولا كبريق السيوف.

بقيتْ لي كلمة ــ أُمنيّة: أجمل أيام الشرق، ولا بدّ، يوم يروح فيه اللاهوت يتعرّض الى كل خاطرة ويَحكمُ على كل بشر.

الكلاسيكية لا إلى انتهاء

في أربعين مصطفى فروخ،
الجامعة الأميركية ببيروت، آذار
١٩٥٧

— ١ —

ذاك الذي عاش لا على الطُمأنينة ولا على العافية وانما على النور فقط — على النور يملأ عينيه — ها هو، منذ أربعين يوماً، بدون نور في عينيه.

الحياة تذهب ؟ ما هم ؟ بذاتها ما عنت له شيئاً.

منذ مستهلها لم تُقبل عليه. استوحش. شعر بغربة الوجود.

ولكنه ما هرب ولا على الحياة استكبر.

ورأى ان يُسرّي عن نفسه بأن يعتبر الوجود دُمية تستحق اللهو بها، تستحقه الى حد الموت عنها.

قال لي هذا، ذات يوم في زحلة، وقد دعاني وتلامذته هناك، الى حضور تحفة تولد.

ــ « الحياة، هتف بي، كيف أعاملها كما تعاملني ؟ انظر: ها هو دمي يمصل، وعظمي يقشط عنه اللحم، ولكنني سأظلّ أكسو الخامات لحماً ودماً ».

هذا المساء، وقد انزاح وجهه عن عصر هو أحد صانعيه وبات لا شيئاً، لا شيئاً الا كلمة وموكباً ــ كلمة ننزلها في كتاب لبنان وموكباً من اللوحات نتعبّد له ــ هذا المساء الحزين، اتذكره واقواله وقصيدةً له من النضرة واللون راحت تنقلها يداه من دهشة العدم الى وطن الريح والصاعقة.

زيارته القصيرة للأرض كانت، كما كان يردّد، « كُرةً يلهو بها بحنان، فتتفلّت منه قاسية وتُخسّره اللعبة ».

على أنه كان يأبى الا ان يظلّ بها رفيقاً رحيماً.

عَمَلُ إله هذا، يا عزيزي الفنان. الإله وحده يتحمّل عقوق الناس، وحده يغفر لهم.

الآن فهمت: عمرُك قضيته خالقاً، فما اسهل ما تعود متحليّاً بشيمة الخالق!

آثرت برءَ الجمال مهنة؟ أيّ حَدْسٍ، يا ترى، أيّ حدس أوحى اليك بذلك دون سواه؟ من ملازمات الكائن الثلاث ما عَرفنا سوى الحقّ والخير. أما الجمال فكدنا لا نلمح له وجْهاً. أن تكون ترسّلت له بين اوائل المترسّلين، على الإفقار الذي كان يُنزله الفن بهم، يا الله، انه امرٌ ولا أروع.

واليوم، وقد اصبحت حتى الوطنية مُرتزقاً وباب اثراء، قانما على ترابات لبنان أن تشرئبّ اليك والى نفر من أمثالك وتبدي أمتنانا.

وكنتَ للتصوير بالذات. فنّ وقفٌ على العين. تلك التي لا تزال عندنا أحوج الى ترهيف، أحوج الى تمرّس برؤية النور.

في الصوت كان لنا يد، وكان لنا مثلُها في مزج النغمة. أما التصوير فكاد يكون عندنا اجنبيا. مع أن العُرْيَ منه — كالغزل من الشعر — هو موضوعُ المواضيع في شحْذ الارادة، ومدّ اليد الى ماهية الوجود.

لا اثينا في الشرق ولا فلورنسا. أدركتَ هول الفراغ. فبدأت. وعملتَ عمل الجبابرة.

وكنت كلاسيكي النهج. وكيف لا تكونه ؟ والصحو انما جلبب عقلنا والسماء. تاريخنا ضوء لا غبش، وأرضنا انقشاع لا ضباب. نحن والاغارقة في أُسّ المدنية. من العائلة الفكرية الواحدة. عملنا للانسان قبل ما عملنا للزهرة. ليس من الصدفة ان تكون هرمونيا الاغارقة زوجةَ قدموسنا العظيم، وزوشُ الهُ الآلهة عندهم مختطفَ أوروب اميرتنا الصيدونية التي باسمها دون سواه تسمّت قارةُ العقل والجمال والذوق.

واخيراً يوم اجتاحت بلادنا موجةُ تجددٍ عابث — زكامٌ اصاب باريس! — أبيت الا أن تصمد. متّ صباح مساء، اتهّمتَ بالجمود، كادت تُحذَفُ اريكتك من المعارض.

ومع هذا ابيتَ الا بقاء على العهد، ووفاءً بتراث عالميّ لنا فيه وله فينا. ذاهباً مع اخيار الريشة الى أن الكلاسيكية رقعةٌ تتوسّع دوماً، ودقائقها مجالاتٌ ما لها نهاية.

وبلغ الزيغُ بالذوق العام ان شُنّ عليك مثلُ حملة اضطهاد. وعُددتَ في الأموات. على أنك كنت تُصغي لا الى شنشنة الذين خانوا، بل الى هُتاف جبلنا والبحر ان « امض في عنادك » فأرضنا انما شهرت ــ منذ فتوة الدهر ــ بطائر الفينقس يحترق على مذبحها وبعد ثلاثة يقوم من رماد.

ومرضتَ المرض الذي لا شفاء منه. وخيّل الى غير العارفيك أن همّتك ستخمد، والوانكَ ستفقد ما لها من بريق السيوف. إلا أنك كذّبتهم.

ــ هذا الجسد، كنت تقول لي، يوم جاءني لم يَستشرْني. وها هو اليوم هكذا يذهب. أما عيني، عيني المليئة بالصحو والارادة والتطلّع الى قولبة الآن، فهيَ صنعي وصنعُ هذا الجبل. تكفّ يوم نكفّ كلانا عن أن نكون.

الجبلُ باقٍ، يا صديقي مصطفى، وكذلك أنت.

أبمئاتِ صُورِكَ، تلك التي هي خَطّنا، من الذي نقش ناووس الاسكندر في صيدا — وهو آية الآيات في متحف اسطنبول — الى الذين رفعوا بعلبك، اليك أنت الواضح، النضر، الغني، البسيط على أناقة، القويّ، الرضيّ على محاذاة طرافة، الهادر، المئناف، المتطلع أبداً الى الهزء بالقدر، مراً بارباب الأزميل والريشة من اثينا وفلورنسا، ابناء ابنائنا في القدم واساتذتنا واساتذة العالم كلّ يوم، لا، لا بكلّ ذلك وحسب، وانما انت باقٍ بالانسان الذي كنتهُ بيننا: تناضل ولا تكلّ، تتألم ولا تصرُخ، تخان ولا تخون، تموتُ ولا تكفّ عن عطاء.

مصطفى فروخ إننا نحبك.



حول كتاب « النبي » لزين العابدين رهنما، تشرين الثاني ١٩٥٧

— ٢ —

صديقُ لبنان الأوّل. سفيرُ إيران عندنا ذاتَ يوم، القلبُ الطريف الكبير، القَلَم الساحر، زينُ العابدين رهنما، رهنما فقط، أيّ لبناني لا يَذكُر هذا الاسم المحبّب الجميل ؟!

امس وصلني من « دار الفيوكولونبيه »، في باريس، كتابُه « النبيّ ». فقرأتُه في ساعات من لذة لا توصف.

حول نبيّ المسلمين أُهرقت اطنانٌ من الحبر، وستُهرق اطنان. ولكنّ لكتابِ رهنما نكهةً خاصة.

في أدب سِيَر الرسول، هذا الكتابُ يقول جديداً.

لأوّلِ مرة تُسهم الريشةُ في تبيان الانسان في رَجُل الدين. لم يتناول رهنما كُلّ محمد، وإنما ناحيةً من الف. هي قلبُه. هي الطيبة. فاذا به يتناوله كُلّه. الجزء هنا شَعّة على الكُلّ.

تبارك القَلَمُ الخلاّق يقبس من السماء ما تكاد السماء به تَضَنّ.

على كل مسلم أن يتعرّف الى نبيّه في كتاب رهنما. إنّه ليَجدُه أرضى وجهاً منه في كُلّ سيرة، وأطرفَ بادرةً، وخصوصاً أعطى.

وعلى كل مسيحيّ أن يتعرّف الى محمّد في « نبيّ » رهنما. فهذا الذي جمع القاصّ والمُفكّر والصوفيّ والشاعر، انما وجد السلكَ الفريد يشدّ حضارةَ الشرق الى بعض ما يعوزها. واذا هذا البعض قلب محمد.

الأدبُ الشرقي خطابيّ، مهتاجُ النبرة، فخْم. فجاءَ كتابُ

رهنما يقدّم إسهاماً حاسماً ــ ارجّح انه سيوجد مدرسة ــ في ردّ القلم الى البساطة. البساطة التي هي صعوبة ونضارة معاً.

ولكم تتزوج روحُ النبيّ كما اكتشفه رهنما وفنّ رهنما نفسه. كلاهما عطاءٌ عذْب، كلاهما قلب.

النبيّ في كتب المؤرخين الغربيين وأصحابِ السير المشرقيين يَصرع. وهو عند رهنما يؤاخي. هناك هو عظمة وهنا سماء.

تُستعاد فصولٌ برمتها من كتاب رهنما. وهي إنما كُتبت ببثّ باريسي رفيق، ورُفعت عماراتها ــ وكُلّ فصل عمارة ــ بعَملِ خيالٍ ولا آنق.

ان النصّ الفرنسي، كما يُخيّل الي، حاول أن يوحّد بين منطقية الفرنسية التي اطلعت ديكارت ونضارةِ الفارسية التي هي بنْتُ حقول من الزهر تمتدّ في ايران الى ما لا حدّ. فارسُ الشعراء وفرنسةُ المنطق تلاقتا. الكلمة عند رهنما زهرة. وهكذا العبارة. تراها نتيجة لشخصيّة النبيّ كما

أُوحِيَ بها الى هذا الحالم الكبير ؟ شخصيةٌ محببّةُ الغنى، دائمةُ التجدّد، تأخذُكَ بالطيبة والخير اكثَرَ منها بالسيف.

لن أستبق الغَد. ولكنني أؤكد أن هذا الكتاب سيُعتبر حدثا. قد يُساهم في جعل مُحمّد لغير الملسمين أيضاً.

بقي ان تعرف أن تحت مُقدمّة الكتاب، الى جنب الحروف الأولى من اسم رهنما، كلمة « بيروت ». يا للفخر يسجّله هذا القلم الوفيّ بلبنان. إنه ليعترف لقرائه بان نسمة من بلادنا مرّت على جبهته يوم كان يَضع سفره الفريد. فكأنها، هي أيضاً، عملت على جلاء هذه الناحية المشرقة من نبيّ المسلمين. غداً، عندما ستتغلغل روحُ الفنّ الرهنمي في ملايينِ الهاتفين: « الله اكبر » كاشفةً لهم كنوزاً من العاطفة لم يعرفْها سوى الصحابة والصوفيّين، سيكون لنا، هُنا في لبنان، أن نعتزّ.

هناكَ تقليدٌ يقول إن مُحمّداً زار بيروت. أمن أجل هذا يا تُرى فتّش رهنما أيضاً عن حقيقة النبيّ تحت صنوبرات لبنان ؟ واذا لبنان، بسمائه وأرضه وجداوله وإطلالة قمره، حاضرٌ في هذا الكتاب، بكُلّ شهامة من شهامات محمّد. محمد.

فن العمارة بعلبك

القيت يوم احتفاء « الندوة
اللبنانية » بناظم حكمت ضيف
لبنان، نيسان ١٩٦٠

اكثر من شاعر ! انه يدٌ من فوق.
وطلْقٌ هوَ، طلق كما الريح، وكما موجة البحر.
ولكنه إن ضيم انسان يُصبح كالارض مسّتها الزلزلة.
مادة من هاجس قلب، ومن رأرأة عين محرورةٍ الى الانغماض على وردة. وتكون الحياة هي الوردة. ويكون الشوك في العين.

من هنا انه يصرخ.
الصراخ في الفن، كالخطابة، عدوّ الشعر.
إلا أن ناظم حكمت يظلّ، برغمها، شاعراً.

تراني أوفّق الليلة الى فض الختم الذي على السر ؟

هذا الوافد الينا من أعماق الحُلْم الأسيويّ، بعد أن طوّف في جنبات المعمور، وغنى بالأوتار الانسانية جميعاً، تألم كما لا أحد، وما بكَى.

لانسلاخ ٍ عن وطن ٍ قد لا يرجع اليه إلاّ جثةً مغلّفةً بعَلَم، ولكن مثقلةً بأمجادِ جميع الأعلام، مات صباح مساء، وما بكى.

رَئِس محافل تفتّش عن جديد، نجح مرّةً والف مرّة فشل، وما بكى.

ثار لحَطْم ٍ قيودٍ ولا كقضبان السجون، تخنُقُ الفِكر في تجوابه بين الشعوب، أو لِكسْر حرابٍ تسدَّد الى ورقة باتت تخيف، لمحض ما ان مرّت عليها غزّارةٌ له شهمة، ثار احياناً عبثاً، وما بكى.

دُمّرت عليه اعصابُه وشُوّشت رنّةُ قلبه، وما بكى.

بسبب كلماتٍ كان يُرسلُها تلهب وطنَه الصغير، تركية،

ووطنه الكبير، العالم، قضى ثُلْثَ عمره مكبّلاً بالحديد، وما بكى.

ولكنّ اجمل دمعة خنقها هي التي تهيجها كلّ يوم ذكرى زوجة له وولد فصموهما عن الذهاب اليه، فراح، هو، على قلمه وفي شعره، يحمل الى الدنيا عيني الحبيبة الذهبيتين، والى جميع غصون الشجر زقزقةَ الطفل الذي بات اسمه على كل لسان.

ما بكى ؟ ولكنه صرخ. صرخ وما اضاع الشعر.

وتمت الاعجوبة لأن ناظم حكمت جعل الصراخ نفسه جميلاً.

زوجته وولده طليقان في تركية. ولكن لا الى حد أن يستطيعا زيارة لمن هو ملءُ منابر العالم وملءُ هبوب الريح وانزراع النجوم في الجَلَد..

هذا الضرب من البقاء على قيد الحياة (وكيف يكون الموت ؟!) هو كلّ ما للبشر من حرية.. هذا النوع من

الحقّ باستنجاد الأب والــزوج (وكيــف يكــون الحرمان ؟! ..) هو كل ما للعائلة من فُرَص الحياة..

الصراخ مَسْخٌ للإنسان، نفيٌ للشعر. هدوء الصوت وحده جمال.

على أن نستثني صراخاً اخترعه ناظم حكمت.

لو ان غيره هو الذي أعلى النبرة بهذا المقدار، فيما يروح باسم البشرية يمدّ يداً الى السعادة، لبطلت رُقى السحر ولانعدَم البهاء. ولكنّ فنّ ناظم حكمت جعل الإنسان الجائع الى حنان، يستنجد بذراعين اشبه بتينك اللتين لامرأة خلف بحر مرمرة تقول: « ناظم، أنا هنا على الوفاء ».

لو أن غيره هو الذي غضب بهذا المقدار من الصخب، فيما يروح باسم محرومي الارض يستقوي ويُقوّي، لتعطلت من الضجة نياط الكلِم، ولمات الجمال. ولكن براءة ناظم حكمت اطلعت الغضبة بلثغة ولد خلف اسطنبول، إن اعوزتها الحروف كَفَتها ثلاثةٌ في لفظة « أبي » لتهز الدنيا وتقيم من قبر.

بين الشعراء يكاد ناظم حكمت وحده يجيد الصراخ.

* * *

متطلعٌ الى المعرفة، وكاسبُ عيش (شغّيلٌ من شغيلة العالم !)، وسياسي موقظُ شعوب، باني عالم جديد.

ودوماً شاعر.

من هنا اننا التقينا قبل ان نلتقي.

فرّقتنا وسيلة، وربما فلسَفَةٌ على مصير الكون.

لكنّ حبِ الانسان، في ارادة نشله من البؤس، والحدب على وحدة الاسرة البشرية، والتطلّعَ الى دكّ قضبان الحديد (اذ من العار ان يبقى المرء اقلّ من الريح طلاقة وفُسحةَ مدىً) كلّ هذا قرّب بيننا.

وما تبقّى عملِه الشعر.

ونحن في لبنان نلتقي وناظم حكمت على الثقة بطيبة الانسان، وبأن الارضَ بطبيعتها لا تضيق. قال:

« الشجرة التي تطلع الرمّان مرة في السنة، بمقدورها أن تُطلعه الف مرة.

« عالمنا، لو نحن نذكر، كبير وجميل ورحب ».

وقلنا:

« نحن غير الغزاة ننزل قفراً
فنخليّه أنهراً وجنائن »

سَهْلٌ سهلُ المضيّ في الاستشهاد بنصوص من كلا أدبينا، هي ــ على تباينها شكلاً ــ توحّدنا على العجب. ولكنني سأجتزئ بالتي لناظم.

على حِدّة وعي الزمان قال:
« أمس ما كان حان الوقت.
وغداً يكون قد فات الأوان.
اليوم، اليوم قولٌ فصل ».

وعلى الدعوة إلى الاستمتاع بالهنيهة، شريطة اكتناه الطيب الذي وراء الاستمتاع، قال:
« ما أجمل أن نعيش
ونفقه القول
كمن يقرأون في كتاب ».

وعلى التبّرم بالظلم في توزيع خيور الأرض، قال:
« الاهراء موصدة الأبواب.
الاهراء تغصّ بالقمح.

والأنوال بمقدورها أن تنسج الخزّ والحرير، حتى لتفرش درباً من الأرض إلى السماء. هذا، والناس حُفاة ».

وعلى رهافة التحسس بالجديّة قال:
« ليست الحياة ضرباً من مزاح.
ما عليك أن تعمل إلا أن تعيش ».
« ستموت وأنت تعرف أن لا أحلى ولا أحق من الحياة.
لا، لا تؤمن بالموت ولو رهبتَه ».

والتقينا مرّة على جعل الغزل، رغم أنه غايةٌ جلل، هو نفسه وسيلة. قال:
« الصيف ولّى هازئاً بي
مُصعّداً صرخات مجنونة
فلم يَتسن لي أن أحملَ إليك
باقة من بنفسج أصهب
ما حيلتي ما حيلتي ؟
كان الأصدقاء جياعاً وأكلنا بثمَنِ البنفسج ».
ولكن ناظم وجع أكثر مما فعلنا.
هذا ما لم نعرفْهُ إلا في النثر.

تراه وحده وُجد ليقول: « انا جرح الكون فضمدوني، أنا كسر في فقرة الفلك فأعيدوا عظمي الى ما كان عليه. وأقف. وتقف معي البشرية المنحنية الظهر » ؟

إن قُيِّض للإنسان، غداً، فردوسٌ أرضيّ يحكي ذاك الذي بسطه اللاهوتيون في كتاباتهم الطريفة، فيكون ناظم حكمت قدم حجراً لهذا الفردوس،

ولأغراض ناظم حكمت ثراء فوق الوصف. حتى لَيُعَدّ بين الكبار: دانته، شكسبير، فاليري. له مثلاً وجهُه الكونيّ. ففي مرسحيته « المعاندان » يتعرّض لأكبر اثنين يذكران كلما ذُكر الكون: الموت والحياة.

هو ناظم حكمت يعيش في مناخ باسكال وكنط، ويحرك قلماً بقوة القضاء والقدر.

* * *

عصفور طار من الشرق وزقزق على جميع أغصان الوجود، ليحمل ولو بمنقار صغير لقمة إلى فراخ العشّ الذي يسمّى الأرض.

الله يا الله، مَن قال إنهم في وطن ناظم الكبير لا يأبهون إلا للمأكل، أولئك الذين كانوا أول من دقّ على أبواب النجوم؟ « افتحي، قالوا، إن إنسان الأرض يطرب لسماع روح الفلك تغنيّ، تغني هي وهو يرقص ».

هو الجمال الأعظم يُفضى إليه عن طريق العلم؟ إنها أيضاً من موضوعات ناظم حكمت.

يوم قمنا، جورج شحاده وأنا، إلى السفينة البيضاء نستقبل الشاعر العالميّ الوافد إلينا من جميع أنحاء الكون، مثقلاً بغبار النجوم، ليمرغَ نظره، كما قال لنا، على أعمدة بعلبك، أعجوبَةِ البشر وربما اللابشر، ويتماسّ بما هو أعظم من بعلبك: النفس اللبنانية، تلك المدعوة إلى استئناف البناء فوق، ودوماً لمجد الانسان، كنّا نعرف أن ناظم حكمت هو أيضاً لبناني على نحو ما.

ذلك أنه، رغم غضبَاته وشظايا قلمه، بقي مثقلاً بالمحبّة.

مِنّا، إذن، مِنّا. من عاصفة تضرب قِمم لبنان وتبقى إنسَانية.

وباح لنا ناظم ببعضٍ من سره. قال:

ــ يوم كنت صغيراً عشتُ بضعةً من عمر، أنا وأغلى وجه عرفت، عشتُ أنا وأمي، على أرض لبنان.

الأمة العظمى

مقدمة « حقائق لبنانية »
لجورج سكاف، نوار ١٩٦٠

حقائق لبنانية ! وهل يتطلّبها الوضع ؟ بلى، وسيتطلبها استمراراً.

لا نقولها تخوّفاً على وطن كما الرأسُ من الجسم صغير أو على أمّة لا كما الجنسُ البشريّ من مليارات ومليارات بل حَفْنة عدد (والوطن باقٍ والأمّةُ باقية كما، عفوه تعالى، وهو باقٍ الله) وإنّما نقولها تذكيراً بمجد واستزادةً من عزم يَلذّ وأحياناً يُسكر.

إيمانٌ في صميم الصميم من كلّ لبناني، أيّاً كان منبتُه

أو مهوى فؤاده، يُعلنه لنفسه متى خلا بها ولم يكن إلى جنبه من يزكزكه محتكراً عليه اللبنانية قال لِمحض ما انه هو على دين وذاك على دين آخر.

اللبنانيون جميعاً، قصدتُ من وُلدوا على هذا الثرى الذي من فَتّ المسك، وتحت هذي السماء التي لزرقة لا تضارَع تكاد تكون أنضرَ ما عمدته زَنْدُ الله، وكذلك من انتموا اختياراً إلى هذا الثرى وهذي السماء، إنما يستحيل أن يُقصّر واحدُهم عن الآخر في التعلّق بوطنٍ هو حُقّ أمّة وبأمّة هي مُقولبةُ وطن، الواحدُ حدود الجمال والأخرى جماعةٌ تَفرّدوا فما نشط مثلَهم أحد ولا مثلَهم أحدٌ سخا وأبدع.

نداءٌ ولا السّحْر يوجهّهُ لبنان، أرضاً وتاريخاً، إلى الجسَد والعظم، إلى نبضة القلب، إلى الروح ونسمة الحياة، من كُلّ مَنْ أُعطيَ قُلامةً من حظّ بأن يكون لبنانياً.

تراني أغلو ؟ أتخيّل الريح المحملة حنقاً كلما انتهت إلى قممنا تبدلت وغدا غضبُها شَمَماً، والموجةَ الوافدة من

آخر الأرض قلقةً موجعَة كلما حطّتْ في شطّنا عادت هي أيضاً إنسانية. والحياة الأجنبية كلما تنشّقَتْ من عَبق زهر الليمون في صيدا أو انطلياس أو طرابلس استحالت بعضاً منا، من نَسْجِنا، من لون أفقنا، ومن شهامة خواطرنا الغنيّة المئناف. ثَمَرٌ مشاتِلُه عند مُنقلب العالم ما كاد يتأقلم في لبنان، يَربى على المطلات العالية ويترنّح غصنُه والورق، فوق، على رياح الجبل، حتّى عاد وهو ذو النكهة التي من ماء الورد والطعم الذي من سُكّر الخمر. تفاحُ كاليفورنية، هذا الذي عَنيت، ظلّ أشبَه بالنبات البريّ حتى اكتسب أمْويّة اللبنانيين. وكانت المسيحيّةُ قد غدتْ أنعمَ وأطرف منذ أن هدهدتْ أجراسُها بنتَ قنّوبين الحلوةَ الحلوة مارينا، والإسلامُ قد ازداد وَتَراً ولا أروع منذ أن عَمر به صدرُ ابنِ بعلبك الأوزاعيّ العظيم.

غيرُ واقفين على نَفْح هوائنا، وقَرْشَةِ مائنا، وطرافةِ الخواطرِ في بالنا، وجَللِ ما يُمكن أن تصنعه إبهامٌ لنا كلما التفت بسبّابة، أولئك القائلون بأنه يُحتمل أن يكون منا واحدٌ ليس مولعاً بلبنان، حُقاً ومحتوىً، أوْ ليس مُدّلاً على البشر جميعاً لِمحض ما انه لبناني.

كُفْرٌ ذلك لا بالناس بل بجبلٍ أوجد بعضاً من أجمل نماذِج الناس.

أجسامٌ فيها من عناد الصخر ونُبلِ القِمّة، من لُطف النسيم وطموح الموجة، وفيها من بهجة المنظر يتنوّعُ كل آن. وعيش فيه من كلّ حرمان إلاّ أنه الحُريّة بالذات، وفيه من إرادة لا تُوقَف بتبديل الذات والكون أكثفَ وأجمل، وربما بتبديل الطريق إلى وجه الله. وعلائقُ بالسوى، على كونها عند الاقتضاء بلغتْ ذروةَ البطولة، ظلّت أبداً تريد نفسها إبداعاً لا سَفْكَ دم. إنها لعمري قصّة إنسان أُعطي وُسْعَ العطاء، فاذا هو المقدور يتطلّع إلى الممكن ومنه إلى خرق حدود المستحيل.

كفى بيار هوباك، مُفكّرَ أوروبة الإنساني، الواقفَ كما لا أحد على روح تاريخنا العظيم، أن يتماسّ بنا، وطناً وأمّة، حتى يضع عنا سِفراً فيه أسطرٌ أجمَلُ ما خرجَ من يد بشر، وحتى يَعنفَ مع نصوص الكتاب المقدس فيقولّها الكلمةَ التي تُزلزل « وُلد الله في لبنان ».

في وجهِ وفد جاءه يوماً يطلب ربطَ لبنان بفرنسة، زأر فكتور برار، وهو يومئذ على دفّة الخارجية الفرنسية، وكان أجرأ من أفصح عن رأي ولو ضدّ نفسه:

ـــ « ماذا ! تُعطَوْنَ الحظّ بأن تكونوا لبنانيين وتريدون الانتماء إلى أمّة أخرى مهما كبُرت وعلا شأنُها ؟ اسمعوا. أنا أشدّ الناس تعلّقاً بهوميروس: وضعتُ عنه ثلاثةَ عشر مجلّداً لأنتهي إلى أنه ليس إغريقياً. واليوم تخوّلني دراسةُ عمر أن لا أتصور مؤسس أوروبة، شاعرَ الشعراء هذا، إلا عظيماً من عظماء لبنان ».

إلى نحو من ربع قرن كان لي أن أمُرّ صدفةً بروح لبنان. لم أقصد إليها، هي التي قالت لي حضورَها العليّ العظيم. ومنذئذ شرعتُ أتعرّف بها أكثر، أدرُسها اندلاعاً في التاريخ ونصوصاً تُفصح عن عظمة. وهكذا أُعطيتُ أن أنبش تاريخ الفكر اللبناني، وكان إلى يومها نَسْياً، يظنّه هذا غير ذي شأن ويخاله ذاك معدماً لا وجود له. حتى إذا أخذتْ أصابعي تبعثر اللألاء وتلهو بخواطر في أبهى ما

أطلعه العقل، رجّ في داخلي شعورٌ ولا كالولادة الجديدة بأن الأغارقة أنفسَهم لم يكونوا أمجد. وأيقنتُ كم نحن صائرون إلى موت إن لم نُغدق هذا الغيث على العقول العطشى. وافتتحتُ في عدد من معاهد التعليم عندنا تدريسَ المادة المنعشة. مُوحداً قمتُ بذلك ولمّا ازل. اليوم، وقد بلغ درسُ الادب اللبناني أشدّه، عدتُ لا أخشى عدواناً يقع على أُمةِّ الارث الباهظ، أيا كان جبروتُ المعتدي. ذلك ان تلامذةً لنا هم هنا. سلطانهم لم يصبح كبيراً بعد، ولكنه على أيّ حال يجعلهم قادرين على اللهو بالموت.

النفسُ اللبنانية، ذاتُ الخدمة الراقية الى سبعة آلاف سنة، لا يعدلها سوى المعتَزم اللبناني.

لفترة من الدهر كانت صور تُدعى « الحاضرةَ التي لا تُغلب ». تجرّؤُها دون سواها على معاندة الاسكندر واحدٌ من فصول الكتاب.

على أنها تأبى أن تكون علّمت البطولة وحسب. منذ القديم القديم بَنَتْ صورُ للإنسان قصوراً وبنت معابد لله.

هيكلُ سليمان لم يشدْه الحيرمان، المهندسُ والملكُ، إلا لأنهما سليلا من سبق لهم أن بَنوا وأعلَوا.

لبنان، في أُسّ ما هو، بلدٌ مِعْمار.

العمارةُ غير الهندسة. هذه عِلم. أما تلك فعلمٌ عُزّز بجمال. الهندسة قوّة والعمارة قوةٌ تجلببت الروعة. من تلك إلى هذه خطوةٌ ما كانت لتُخطى لولا بعضٌ من مزيد معرفة بماهية الله.

الله أول ما يتجلّى بأنه قوة. ولكن الويلُ لمن لا يعرفه إلا بهذه. ثم يتجلّى بأنه معرفة. ثم بأنه عطاء أي محبّة. وتألّق الثلاثة في الله هو الجمال.

العمارة، تلك التي تفرق عن الهندسة بأنها من جمال أيضاً، انتهينا إليها قبل سوانا لأننا وحدنا إنما عرفنا الثلاثة في الألوهة: القوة والمعرفة وعلى الأخص المحبّة.

لبنان، منذ هو بادر جمال، عمّر في الأبعاد جميعاً. عمّر في الجوّ، في البحر، في البال. سواه حفر البناء في الحجر،

أما هو فرفع بناءَ الحجر. بعلبك التي من أعمدة ولا أعلى ما كان يمكن أن تتم إلا في لبنان. العظمةُ والجمالُ والارتفاعُ انما مَزْجُها تقليدٌ محضٌ لبنانيّ. سواه بنى للخلائق الدنيا: للحيوان، مثلاً، ألّهه وشاد له المعابد، أما هو فما بنى إلا للإنسان ولله. سواه أنزل خشبة إلى الشاطئ الهادئ، أما هو فبنى السفينةَ قصراً للعمل في عرض البحر، لمعاندة العاصفة، لتحدّي هول الأوقيانوسات. سواه، بغيةَ نقل الألفاظ في الزمان والمكان، نسخها نسخاً: الوفّ هي فصوّر لها ألوفَ الصور، أما هو فبنى الكلمة حرفاً حرفاً، أعلاها حجراً حجراً، حتى لقد بات للفكرة قصرٌ تسكنه أميرةً هذه المرة. واليوم بعد أن شرعت الصين تهجر التصويريّة البدائية إلى الهجائية الفينيقية يكون ما بقي شعبٌ في العالم إلا أسكن خواطرَه عمارةً لبنانية. كل مؤسسات البشر، يقول موريس دونان، مكتشفُ جبيل، تتحمّل استكمالاً إلا مؤسسةَ الهجاء، هذه وضعها اللبناني وكأنما وضعها نهائيةً على تمام.

وفي هذا الألف الثاني، الألف النورانيّ العظيم، فيما كنا نكتشف العمار في الجوّ، في البحر، في البال، راح واحدٌ منا يكتشف العمار في المادة. إنه موخوس الصيدوني، من

أبناء القرن الثالث عشر قبل المسيح. « المادة ؟ لاحظ متسائلاً، انها أحَطّ أنواع الكائنات. يستحيل إذن أن لا تكون أقربَ ما يكون إلى العدم. قليلُ وجود في كثيرِ فراغ ». قول موخوس هذا هو أول فرضيّة للذرة، يقول ماسون أورسيل[1]. وعنه، يزيد هذا العالم، إنما أخذ ولا بدّ لوسيب وديموقريت اليونانيان.

انها عمارةُ الكون الصغير تعلو على يد ابن صيدون موخوس، كما، على يد ابن صيدون فيثاغورس، ستعلو عمارةُ الكون الكبير.

إنهما في العالم أولُ ذرّي وأولُ فلكيّ.

هي تقاليد العمار تواصل فعلها وينطنط أصحابها على مقربة من طرفَي الوجود: العدم والله.

هنا ! هنا نحن في أية مغامرة ؟

يوم راحت الصبيّةُ عَشْتريم تُعطي في صيدون إشارةَ البدء بإحراق المدينة، بقصورها والشيوخ والأطفال، لكي لا يبقى وراء المقاتلة ما يَلفتهم إلى الوراء، في مقاومتهم

---

١) « تاريخ الفلسفة » لإميل بريه بالاستناد إلى « جغرافية » سترابون ٦، ١٢ و٢٤.

أكزرسيس الثالث، ذاك الذي جاء يُغرق بطولتهم بالعدد، فمشوا إلى المجد ـــ وما يزالون ! ـــ ما كانت سكرةُ البطولة الجماعية هذه، على تفرّدها في التاريخ، بأروعَ من سكرة موخوس يدفع عنا، منذ فجر الزمن، سطحيّةَ الحس العام القائل: « إن المادة مِلءٌ بملء ».

وَعْيُ أمجاد لبنان ؟ بلى، إنه للبنان جيش آخر، جيش لا يُقهر.

وأعجب ما تنتهي إليه، فيما أنت تتعمّق أوضاعَ البلد الفريد، شعور أبنائه ـــ وحدهم على الأرجح ـــ بأن لهم مواطنيّتين. فكأنما حَتْمٌ على اللبناني أن يكون عالمياً وعلى العالميّ أن يكون لبنانياً.

الأُمْويّة اللبنانية، في أشرف ما تَدين به، تفرُق عن سائر الأُمويّات بأنها من لبنان ومن العالَم.

ولبنان، كما الله في اللاهوت، لا يقبل نعتاً لا ينبع من ذاته. كل نعت أجنبيّ تُطلقه على وطن إنما هو اقتلاع لهذا الوطن من شروشه، من أرضه وتاريخه، وخصوصاً من ذاته

التي هي معتزمه العظيم، ثم جعله يتوكّأ على بعض ما هو سواه. عراقتنا في الانسان تجعل وطننا اشبه بهذا المتفرّد الغنيّ الذي هو الشخص. الشخص هو من التمام بحيث لا يتطلّب اكتمالاً بآخر. وهو من الطموح بحيث لا يرضى بديلاً عن الكليّة.

أشبه ما يشبه الأُمْويّة اللبنانية انسانٌ اجتمع فيه الحبّ الى المحبة.

الحُبّ ان تَخُصّ قلبَك بواحد، فان أضفتَ اليه آخر خنتَ الحُبّ. والمحبة ان تمنح نفسَك للبشرية جمعاء، من سَبق أن وجدوا ومن هم في الوجود ومن سوف يوجدون، فان اسقطتَ منهم واحداً خنتَ المحبة.

الأُمويّة اللبنانية، ولربما وحدها، حبّ ومحبّة.

اللبناني ؟ بالحب هو للبنان وحده لا يشرك فيه، وبالمحبة هو للبشرية كلّها لا ينتقص منها ولا أمّة.

من لم يُدرك هذا الثراء، نتفرّد به بحكم تشابك هانين العاطفتين فينا، (وانهما لذُروة ضَرَبات القلب)، وكيف

انهما من خصائص الانسان المتكامل، استحالتْ عليه معرفةُ ما نحن.

محضُ أُمْويّة لبنانية معاذ الله ان نمدّها بأخرى. على انها عالميّةٌ بقدر ما هي ذاتها. إذ أشرفُ ما يمتزج به الحُبّ: المحبة.

وليس لبنانُ ماضيَه وحسب، على جَلالِ ذلك الماضي، ولا هو حاضره وحسب، على تفرّد هذا الحاضر — رغم الف هناة تشوبه — بانتمائه الى قِيَم مصيريّة أروعها الحرية. وإنما لبنان هو أيضاً، وخاصة، انشداده الى المستقبل. أمّةٌ من فصيلة أُممٍ تأبى ان تحدّ بحدود. ووحدَهُ المستقبل لا يحد بحدود. إذن، برغم ما يطالعك به من ثراء، يَظَلّ لبنانُ الواقعِ هذا لا شيئاً إن هو قيس بلبنان المُعتزَم.

سنربض على صدر الدهر. سنخلق نفسنا استمراراً. (تجدّد لا يَكفّ !). سنُنزل دوماً الى ساحة الوجود أشياء عظمى، أجملُها اعتزامنا بأن نتبدّل ونُبدّل ولكن دوماً صوبَ المزيد من الحَقّ. كلمة الامر عندنا: « نأتي عجباً أو نموت ».

هذا نحن، منذ أن اندلعنا في التاريخ وشَرَّرْنا عزْمَنا على البحار. هذا، ولا شك، ما سوف نكونه غداً منذ سنروح نتململ بين السُدُم والنجوم.

فَتْحُنا العقليّ، ذاك الذي تفرّد بين الفتوح بأنه ما شيب بسلاح، إنما ارتضيناه خطّ مُضيّ لا يزال في اشرف الخطوط لا نحيد عنه ولو في أشدّ العهود ظلاماً: من انزالنا الى الوجود الاداتَين العظمَيين لنقل الخير: المركب والحرف، الى كَشْفنا الوحدانية، الى نشاطنا بذوق ولدغة جمال في صيدون، الى تَرَسّلنا لقضية العدل في بيروت، الى صمودنا — وكأنما وحدنا في الشرق — الى جانب الحرية، ليبقى لنا الحقّ باختيار شكل العيش، والحق بالافصاح عن الرأي، والحق بعبادة الإله الذي نشاء، (مما بلغنا به حدّ التوكيد عالميّاً على حَقّ المرء بتغيير دينه)، الى عيشنا اليوم (وسْطَ صراع العقائد الذي يلوّث ببغض) وكأننا أصفى الخلائقِ ذهناً أو كأننا (على تقاعسنا أحياناً عن الاسهام في العلم) أعرفُ الناس بما يجب أن يكونه روحُ العلم، ذاك الذي به سَيُؤَازَرُ الله في استكمال خَلْق الكون.

وجودنا في التاريخ هو، كما ترى، اعمق مغزىً ممّا قد يبسطه القول: « بلدٌ صغير لأمة كبيرة ». وجودُنا كان، كما سيبقى، يداً في البرء من عدم وطَرْقاً على باب المستحيل.

« حقائق لبنانية » هو لواحد من رفاقنا بالذات. عقلٌ فتيٌّ منفتحٌ صمد مع لبنان كما ولا احد، لأنه إنما عاش غير مغلق على مجهودات الكشف عن ماهية الأمة العظمى. وهو هنا، في باكورة نتاجه، يقسط لنفسه قسطَ القلم النَير في التفجير والتّرسل. وغداً بعد أن تُصبح هذه الحقائق في كل نبضة قلب، في كل شمخة رأس، سيخجل جَمٌّ من القادرين، لأنهم تقاعسوا فما ولجوا قلبَ المقلع ولا مثله قَصّبوا من الضوء وراحوا به يبنون ويُعلون.

في كتاب جورج سكاف تجرّؤ على مس المُحَرّمات، تنقيبٌ عن الكنز وتنقيته مما يكون علق به من تراب أو مازجَ وهْجَهُ من دُكنة.

مؤلّفٌ شُجاعُ القلب، يقول ما به يتهامسون ولا يكتبون. ولكنه يقوله لا ليهدم وحسب.

هنا عدد من الهرطقات يُفَنّد. بضعةٌ من متوكآت الخريفيّين تتحطم. ليكونَ للأُمّة اللبنانية، بكليّتها هذه المرة، نورٌ متألّق حتى ليجذبُ ويهدي، وسُلّمٌ ترقاه حتى لتبلغُ به هذا النور بالذات وتؤازره هو نفسه في صنع نفسه.

لا يُبقي جورج سكاف على أكذوبة ميثاق، وانما يفتح الأعين على إرادة حياة بهيّة مئناف.

وراء الاندفاعة الاستقلالية المعاصرة، يقول، كان اكثر من ضربة مهرَة، كانت مشيئةٌ تقيم من موت. عَزْمٌ شحّ لأمد ولكنّه ما نَضَب. امة عريقة تتحفّز وتتحيّن الفرص، ويوم يؤون الأوان، وتُلهمُ كلمةَ الأمر النابعة من تاريخها العظيم ومن معتزمها الأعظم، تتحرّك فتجرف الصِغر والمتصاغرين.

الذين هم ألسنَةُ الأمّة وقادتُها في معركة البطولة لا يسقطون في حقارة من يقولون: « كان ثمة خيانتان تشدّان لبنان الى خارج نفسه: واحدة الى شرق وأُخرى الى غرب، فعالجناهما بميثاق يحدّ من حدتهما » ماذا ! حقاً كان لبنان فارغاً من لبنان، وإن هو عثر في داخله على شيء

فانما عثر على مُغرورب ومُشرورق ؟ حقاً لم يكن في لبنان من يقول: « أنا لبنانيٌّ وكفى » ؟.

أكذوبة لاكوها ولاكوها حتى لتكاد فحواها تُظَنّ حقيقة، وعنهم أخذ الوهم، وبأيّ إجرام هذه المرة، واحدٌ ظَنّ أنه إذا نقر نقرة الطائفية كاملة (وتقضي بإيهام الناس بأن لبنان ممزّق، فعلى كلّ أن يعمل لإقامة طائفة لا وطن) استجابت للعبته شراذم متنابذةٌ متحاقدة فتسنّى له جَرّ سيده الأجنبي الى لبنان وحكّمه سيدهُ هذا برقاب القطيع. كَذّبتِ الأمة اللبنانية، الواحدةُ الاصيلة السمحةُ البادرة، حَدْسَ من أراد بها سوءاً، فلم تُلطّخ يدها ولا بمذبحة من التي كانوا قد مهدّوا لها بملعنة عبقرية.

وكان الجيش مثالَ مؤسسات الأمة حضورَ ذهن وصفاءَ وعي، وشهامةَ نظر، فتصرّف وكأنه فوق الأحداث. وهكذا سيطر على الأحداث. كان يعرف أن تصرّفه إنما هو جزء من تاريخ لبنان. هل سمعتَ أن جبلاً تزعزع ؟ هكذا الأمة اللبنانية. وكان الملأ جميعاً واثقاً بها. فإذا نقْدُ لبنان، مثلاً، في ذروة المحنة، لا يتدنّى ولا قرشاً واحداً في سوق واحد من بلد واحد.

لا ليس لبنان اثنين. انه وحدَةٌ رائعة، الجزء منها ـــ على تقاعسه احياناً ـــ يختصر الكلّ، وهو عند المُلمّات يَصدُر عن عزم الكلّ.

للذود عن لبنان، كُلّ لبنان، حَملَ السيفَ واحدٌ من بطاركته هو اكبر البطاركة، وبوجه الخليفة في بغداد رَفع الصوتَ واحدٌ من أئمته هو انبل الائمة.

« حقائقُ لبنانية » ؟ لأول مرّة أنت أمام كتاب بنّاء وَعدْل يقسمنا كما لم يقسمنا بعد احد: حفنةً ليس الاّ من نفعيين وأمّةً لبنانيةً متراصّة صَنَعتْ وتصنعُ التاريخ.

الكون والعدم

مقدمة ديوان « داود عمون »،
تشرين الثاني ١٩٦٠

— ١ —

قصائدُ، كما الكِرامِ، قليل.

اذ العظيم الذي نواجه لم يتخذ الشعر مهنةَ عُمْر.

بيد أنه، على رُغمِها، بلغَ بجّرة القلم حدّ رَمّيّ الطُرَف وجعلِ النبرة في مستوى صوتِ الغيب.

نصير حتماً الى هذا الحُكْم إن نحن توقّفنا عند قصيدتين بالذات هما نهايةُ تطوافه بالبهاء. وكذلك إن نحن ألممنا، ولو منذ قصائد الفتوّة، بابيات اشبهَ بالرُقى تنتظر ساحرَ الغد.

هنا، أوّاه ! مجالٌ لمواجهةِ مأساة الشعر، لا في الشرق وحسب وإنما في العالم جميعاً.

مهنةٌ كالقداسة ما سَجّل تاريخُها قيامَ من انصرف اليها بحنان، الى جنبها دوماً إما النثر وإما عملٌ نثري، آلمُ إذن وأدعى الى معايشة الحضيض.

دنته، غوته، العبقريّ الذي على اسم شكسبير، فاليري، وبوسعي اطالةَ السلسلة، اضطُرّوا جميعاً الى مدّ عملهم الملوكانيّ بمهنةٍ تندر فيها شعاعةُ السماء.

عبقريّون منهم، ممن فقِهوا هولَ الخطيئة التي يقترفون، سعَوا الى الاستعاضة عما فقدوه إما بإثراء حياتهم، كغوته الذي رفعها الى قوّة قصيدة (حتى ليَقول فيه اكبر اصدقائه انه لوفرة ما برئ من الشوائب غدا لا يطاق)، وإما بكوكبة سائر فنّهم كفاليري الذي قَسَر النثر وعمَلَ الفكر على تطلّعاتٍ ولا القُبب ولا اطايبُ اللّذة.

أتساءل، وأنا في هنيهاتِ انبهار، أمام بيتٍ لداود عمّون مليءٍ نابض: هذا القلم ترى إلى اين كان انتهى لو أنه، أيام

عهده بالأرض، وقَف نقلَتَهُ وشاسعة المداد على الشعر ما عداه ؟

الشعر ؟ لَقطعةٌ هو من برق ورعد. ولكن عُضويّة هذه المرة، كالإنسان. تخفق بالحياة وتتألق بالخاطرة العجب. وهو، على السواء أيضاً، قطعةٌ معماريةٌ دونها البناية المعنّقة الابراج تكاد تميس بخصر وتتمايل وتضحك للسحاب.

الشعر من برق ورعد ؟ إنه إذن أَحَدُ سكّان الكون. كالإعصار، كالزلزلة تراقص جزءاً من أرض، أو كالربيع يتّخذ الطبيعة عروساً. مع الفارق بأن الشعر اكثرُ من هؤلاء جميعاً واجبُ وجود. فكأنه، كأنه وحده، القضاء والقدر.

أن تروحَ بواسطة الكَدْح الابجديّ تزامل الله في بَرءْ الجمال، ذلك هو الشِعر.

لَكَم هو شاقٌ إذن. لكم يستدعي ان تكونَ له بكليّتك، صرفاً كما العُذرية من الحبيب الأوّل.

الشاعر الذي سنعيش في مناخه بخلت عليه الحياةُ فما

قدّرت له أن يَهب القلم الأنيق لا عُمراً ولا بضعةً من عمر. الا انه استشرف روعةَ ما كان قد اجترح لو انها فعلت.

« حلفت لو اني ارتضي الشِعرَ حرفةً.. ».

لغيري أن يتناول بالتقييم، واحداً واحداً، موضوعاتٍ له جللا كادت في العصر لا يتعرّض اليها احد. كالتعاطف بين البشر، وكالدعوة الى السلام والى تحرير الذات، وكشجب السلطان المطلق أو الرضى عنه ان هو تقيّد بالعقل.

سوى أن الخيطَ السحريّ الذي يظلُّ خليقاً بِدلّنا على الكنز هو التساؤل: واحدُ الهواة المعاندين هذا، الى اين انتهى بهوايته؟ هل بلغ من الغوص على نفسه حدّ استكشاف القعر، حد العبقرية، فمكّننا منها ولو في قصيدة، في ابيات، أو في فِلَذ من كَلِم؟

الجواب الحقّ مُعقّد.

ذلك أنه ما للمتذوقة الطيبيّ القلب من طائلٍ شغل مع الرجل. أما خبراء الجمال فهو لهم نِعمِ المُعلّم.

أولئك يعرفون انه لم يصل الى السلاسة. سلاسة من

يعطي الكثير. فاستساغتُهم إياه مثلَ بَرِمَةً صعبة. أما هؤلاء فلهم معه حِوار لا ينتهي.

أجتزئ منه بأبيات أتصوّرها تُفصح، فوق ما تفصح، عن قِيم غير التي لها في الظاهر. لَرُبَّ ذاهب يذهب الى أنه ما يكون قصد بها ذلك. فأسأله: ومَن قال ؟

الإنسان بين الخلائق إنما له وحده الكلمة، يكاد يكون، اليها مَردّ كلّ نُبْله، وبسطُ يده على الكون. منجاته هي وطريقُه الى فوق. ألوهّيته في أنه يقول. ولكن الشاعر يؤوه كمن يطلق حكماً على الثلاثة الآلاف سنة من التمدن:

« فلم يُنَجِّ القولُ أربابَه
ولا وقاهُمْ... »

تحذّراتنا جميعاً عبث. تحت رحمةِ الفُجاءات نحن. وكأنما من المحال التحسّبُ للغَضَبات.

« في كل يوم للردى فعلة
حاضرُها يُنسيك ماضي الفَعال
دقائقُ الدَهر تواريخُه
أبناؤها قبْض النفوس الغوال ».

ومعضلةُ الحكم؟ الفَيْصلُ الذي يقطع في الحق والبطل؟ هذا، إن له فيه كلمة. وقد لا تَّبعد كثيراً عن أصدق آية وردت عليه في الانجيل: «من ثمارهم تعرفونهم». يقول:

«زال ما كنتَ تدّعيه من الحقّ
بما سال من دماء..»

ويهولك بفرديةِ مَن له سلطان ينمّ عنه استخدامُه ضميرَ المتكلمّ. الوسيلة في يده تبعث النار في العقل، وإلى أسنّةِ تحوّل العشب. ما همّني انتم، يكاد يقول، تعملون أم لا تعملون. أنا لها وحدي. وأنا غداً انتصر.

ولا يكتفي باستغلال الشكل. انه لينزّل اللهجة في الموقف الخطر او ينزّله هو فيها. وعهدَ كانت الشهوة تَغمر برودةَ الفكر راح يجعل برودَة الفكر تَدفق على الشهوة:

«اذا شاقني الأمر صعبَ المنال
مضيتُ ولو أنه قاتلي
حديدُ قوى النفس ذو همّة
تَضايقُ في جسدٍ ناحل»

وإن استبَقَ حَدْسُه عِلْمَ الاجتماع وتكشّف له ان لا طاقةَ للمرء بابداع ما لم يردفْه وسَطٌ جلل، راح من صميم نفسه يجد لنفسه الوسَطَ الجلل، ويبرّر تقاعس قومِه يقول:

« أُحبُّ بلادي علـــى رُغمهـــا
وان لم ينلنـــي سوى عارهـــا
ولستُ بأوّلِ ذي همّـــــــةٍ
تصدّى الزمـــانُ لإنكارهـــا ».

لا يسيغه المتذّوقةُ الطيبون، قلت ؟ ولكن لِمن، إن لم يكن لهؤلاء، أطلق مثلَ هذه التحفة الصغيرة:

« يا بنـــي أمّـــي، اذا حضرتْ
ساعتـــي والـــطِبّ أسلمنـــي،
إجعلـــوا في الأرز مقبرتـــي
وخـــذوا من ثلجـــه كفنـــي »

إلا أنها، بالرغم مما لها من نضارة كالبلّور، يظلُّ فنها وقفاً على فِقْه الخبراء. ذلك أن البيت الأخير إنما يُذكّركَ — ولو أن المعنى مغاير — بآية لعبت هي نفسها أيضاً على اللون، على الخضرة والبياض — فكانت أجْمَلَ شِعْرٍ في

أقدس كتاب: « انظروا إلى زنابق الحقل.. إن سليمان في كل مجده لم يُعطَ أن يلبس كواحدة منها ».

ما أبْعَدَ الخاطرتين بعضاً عن بعض. وما اقربهما واحدة من أخرى نقاءً ورِفعةَ بثّ. هي الشّبابة المخلوقة تجتمع الى النغم الخالق.

ولكنه ولا في هذا هو.

لربما كان على الأخصّ في تركيب كلاميّ عَجَب لا يبلغ اليه دوماً وإنما دوماً اليه تطلّع : الشعرُ عنده عَمَلٌ شاق، نضال بعرق ودم، وخُصوصاً باصطكاك سيوف.

توحُّدُ النضال مع الشعر ؟ إنها منذ أُلوف السنين مُعضِلةُ الفنّ.

سِحْرُ القول كلٌّ أحَد: حروفُه والمعنى وعلائقُه بالسوى. كُلٌّ شريطةَ ان يجيء مُفعماً بالمعركة. ولا معركةَ بدون سِنان وصدر يَغرز فيه. فكأنما للنحر فضلٌ على الرمح اذ بدونه لا مجالَ لطعنة وكأنما للرمح تكرّم على النحر اذ لولاه لا قِبَل بتذوّق ِ موت.

هذا الذي يجد في أجدادنا أنهم « علّموا فنّ نظم النحر باللدن » انما عرف ان يرِدَ ماءَ القصيدة من أروع نبعة. من الضربة التي تهب الموت بغيةَ الحصول على حياة أطرفَ وأشرف.

لا ليس هذا المستوى للمتذوّق الطيب القلب. إنه لأمثال حافظ الذي كان يسمّي داود « ربّ القريض » ويُخاطبه بإجلال:

« اذا قلتَ أصغت ملوكُ الكلام.. ».

وبعد، فمأملي من ذيوع بضعِ مئةِ لفظة من هذا الديوان أن تتحقّق كلمة أخرى، هي أيضاً لحافظ في داود:

« اذا ثرتَ ماجت هضابُ الشآم.. ».

الى تتمة ولا أمجد.

لربَّ شطرٍ من بيت هو بمعركة أو بفَتْح عالَم.

مقدمة ديوان هند سلامة،
تشرين الثاني ١٩٦٠

ـ ٢ ـ

عزيزتي هند

طُرَف صغيرة على الحبّ، كيف كيف تنسم عليَّ دون أن تتشبّث بي ؟.

وبالأولى متى كانت بقلمك. ذلك الذي اتصوّره، ولو في عصر الريشة التي من لدائن ومعدن، لا يزال عندك غزّارة وُلدت في بعض غياضنا في الجبل، حتى اذا غُطّتْ بالمداد تذكّرتْ عهدها بماء بلوّري، وهبّات صَبا، وباهتزاز ورنين، فعادتْ، مرَّة اخرى، تعيش وتعدي الخواطر بالعيش.

ذلك ما عنّ على بالي أن أقوله لك ـــ لك وحدك ! ـــ فور وقوعي على ممنّعات متسربلات العُري بالحرير، سيدعونهن ديواناً بجلد وورق وقصائد.

اشعارك ِ هنا تردّنا الى الفنّ في أول طَلْعِه، يوم كان بعدُ حياةً لا إعمالَ أُصول.

هذه التنهداتُ أو الضحكاتُ الغنوج، أو التعريجات على بستان الحكمة إن شئتِ، تقولُ لي: لا تنظُرْ مني الى لعب أبجديّ. أنا، أنا هنا، المرأة. هنيهاتٌ من جسد وروح. استمتعْ وكفى.

سواءً حملتِ على المعرفة تجدين فيها حرماناً، وتكونين قد ابيت الا « إدراك الحقيقة الى حد اللاادراك » أم غرقت في الربيع على أن « الغد وتر »، أم بكيتِ بلبلاً أفلت، أم تحدثتِ، وانت تمنحين نفسك للطبيعة، عن نفسك هذه « التي تخضلّ »، متجرئة على القول أنك تأبين أن يكون « غيرك نوّارَها »، الى اضاميم واضاميم ـــ ولمَ لا اسميّها هكذا ما دامت التي تتكلم هي أنت، بائعةَ الزهر تنادي عليه في حقل العقول لا الأناس ـــ فانّكِ في جميع الحالات

تظلّين العاشقة التي لا يخنقها الفنّ، العاشقة الدائمة تُطلّ من بين الكلِم اطلالتَها من وراء غِلالة.

عاشقةُ انسان ذي ذراعٍ وصدرٍ عنيف ام عاشقةُ مُطْلق؟
كلتاهما تصِحّ.

ولقد شهدكِ لبنان، ذات يوم، تأبين — وأنتِ الصبيّة الفارعة والأُنوثة الضاجّة — الا مقارعةَ الرجال تنازعينهم السبقَ على اجتياز البحر طوال الشاطئ الفينيقيّ الأنيق.

الى زمنٍ أساطيرنا ترقى العلاقة بين الخواطر الفريدة وجنيّاتِ البحر والعاشقاتِ اللواتي يأسرن البَطل ويشددنه سنواتٍ الى خدمتهن.

يُعجبني فيكِ إرادةٌ ترمي القدر بنظرة شزراء. وحتى عندما تصرعك صناعةُ القلم تظّلين لها. فكأن الشاعرة التي في ثوبك خادمةُ هيكلٍ وثني يقطّعونها إرْباً إرْباً ان هي خانت العمل المقدّس، ولكنها تأبى الا أن تبقى معاً للهيكل وللتطلع الى اللعِب بالنار.

كلما قيل لي أنكِ هجرتِ الشعر وانخرطتِ في مهنة اكثر ما يكون نثرية، أُكذّبهم. ذلك أن التي تضفر الكلمات ياسميناً وفُلاًّ انما توحّدتْ فيك بالتي تمُدّ الى الحياة ذراعين ولا أروع.

أُكتبي. شعراً أُكتبي. بساطَةُ بثّكِ ليست تقصيراً. إنها ردّ الغزل الى يوم قال: « وحدي، أنا شعر الحبّ، يكفي أن أكون ــ كما الله خلق ــ ليكون الفنّ ».

اغنية الجراح والرماح

مقدمة « شعر الأخطل الصغير

١٩٦١

كما ولا بِقُمقم يمكن حبسُ الجِنّ ــ الا إن تشأ توهماً أو تخيّلاً متعابثاً ــ كذلك ولا بتعريف، من مثل الأخطل الصغير أو شاعر الغزل غير منازع أو أغنية الجراح والرّماح، يمكن حصرُ الأنامل الجلل التي راحت، في حقبة من عمر الشرق، تخط غَزلاً عجَباً، وبالغزل هذا تشدّ، وعلى حُبّ الجمال توحّد الملايين.

طوال بعضٍ مِن مئة، كان كلُّ عاشق، كلّ متطلّع إلى حسن، كلُّ غامسٍ قلماً بعطر يقول قلبه الطريف وعيناه في روائع هذا الشّاعر.

شخصيًّا أحببتُه ما كففت، رغم ما تقوّلوه حول خطبة لفظتها ذات ليلة ونحن على المنبر الواحد، خضضتُ بها الشّعر قديمَه والمعاصر، فزعموني تعمّدتُها أذيّةً له، وفهمها هو هكذا بضغط من الجمهور، حتّى اذا ردّوه الى الكلام كَرّةً أخرى وهاجمني ببيتين له قديمين، رحتُ أصفّق لهما كما ولا أحد، وفي بالي الخَلِيّ أننا، هو والبيتين وأنا، أعداء حقاً ولكن أعداءُ مَن يجهلون.

وانقضى عمر.

وهذا نحن نكذّب اللّيلةَ المباعدة : أنا أدعو الى تكريمه وهو يكلّفني التقديمَ لديوانه.

ما أروعَ الحقيقة تُفصِح وحدَها عن مكنون، تَفضَحُ نفسها فتَفضحُ طيبَ الطّيوب.

* * *

دَفَعَ اليّ الديوان وكأنّه وصيّة.

إنّ الذي قضى عمرَه خادماً للحُسن هو هو الذي تجدُه هنا يأبى على القصيدة أن تُنفض منها اليد : يلاحقها،

الى المطبعة يلاحق، وغداً ــ مد الله بعمره ــ متى راح يُعِدّ لطبعة غيرٍ هذه تُشهد قلمه الأنيق يخلع على اللفظة حُبًّا جديداً فيخلقها خلقاً جديداً. ما هَمَّه الناس نَزَّلهم في الشّعر كما الذّهب في غِرار السّيف، وانّما هَمَّه هذا التّنزيل. يحوّر أبداً وأبداً يُدسّ السِّحر، فكأنْ لا لُبانَةَ له سوى رضى واحدة : ألنّزوعِ الى الكمال.

في ذمّة الجمالِ جهدُه المذيب. يَهدم في سبيل بُنيانٍ أغنى. يُميت الحَبَّةَ من أجلِ رؤيتها سُنبلةً مُثقلةً بالجَنْي الذّهب.

أتصوّره يبكي لِوأد ما يَئِد من بَنات أفكار. بدموع من نارٍ يبكي. تماماً كما عمرُ بن الخطّاب ليلَة ودَّع وَثَنه إلى الإله الحقّ.

وبعدَ إمراره القلمَ على المُسودة؟ قل : أصبح الجمالُ أجمل، ومَضى الشّعرُ أبعد صوبَ صيرورته دُنيا. دنيا مِن زهرٍ وقولةِ حَقّ.

* * *

ذوّاقَةُ طُرَف، يتغنّى لا يكفّ بأيّام منبر تَسلطن فيها

شعرُ الأخطل الصّغير، قال لنا : « حتى قصيدةُ الغزل كانت لا تُفلت من ظرفها ».

بلى كان المنبر ــ لا ردّ الله عهده ــ لكبارِ شُعرائنا والنّاثرين بمثابة دار النّشر. مجالٌ هو لِيوم عِزّ، ما سواه لهم حافز.

ما عمل الشّاعر؟

فتّت الجِنزير.

على أنّ الديوان، رغم ما عولج به، بقي، سبحان الفنّ، هو هو ديوان الأخطل الصغير. تتصفّحه خَطْفاً فتخالك لا على المنبر وانّما متوغّلاً في ممرّ الياسمين : قببٍ مكوكبة بالزّهر، بالعناقيد تُعلّل بانقطاف، بالكؤوس تمدّ بها أيدٍ من الغيب لا تُرى. عُرسٌ للهنيهة. نَفْس باعدت في ذاتها تكشف عن كنز الوجود، بحكمة مرّة ومراراً بغرابات ما لها عَدّ، حتّى لَيُفاجأ ذوّاقةُ الطُّرف فيهتف : شعر الشّاعر هو هنا غيرُ ما هو. إنّه لعمري « أزليّ الميلاد ».

ذلك ــ ويعرفها خبراءُ الجمال ــ أنَّ سِلْكا خفيًّا وحّد هذا الديوان الجَمّ، وقُلِ هذه الباقَة من نجوم العَشِيّ، منذُ هو في وجدان صاحبه فُرادى زهْر أو ثُنَى حُمَمَ، الى علوقِه

بالأذهان قصائدَ ومقطّعات، الى انسلاكِه ــ كما بيَد لأَّال ــ عِقداً تتشهّاه أعناقُ الحسان.

ولكن كيف، وأنت تتناول الحادثةَ، كيف القدرة على تحويلها منجمَ مَرمر أو يَشْب منه تُقصّب الحجارة لبناء القصر؟ ويكون القصر حياةَ الشّاعر صَنَعها وتناهى فاذا هي تَصنعُه لا تتناهى.

هنا السّرّ في فنّ الأخطل الصغير، وقل في مأساته التي لا تُضارع.

لِنُزِح بعضاً من ستار.

منذ الشّاعر برعمُ ورْد تتطلّع اليه الأعينُ تَسكر بلونٍ وشذا، أَدرك، مُستبقاً الأمل، انّه سيكون واحدَ الوُحَداء في الغزل. « أأُعمَل لشعر الحبّ دُون سواه؟ ساءل نفسه، والمنبر؟ والحادثةُ التي تعوّد الشّرق أن لا يجتمع الاّ عليها؟ » ألشّرق لا حاجةَ به إلى الشّعراء الا في اليوم الفاجِع. وحدَهم آنئذٍ أصحابُ التّاج. وأمّا في سائر عمرهم فَهَمَل.

أتصوّر الذي سيصبح الأخطل الصغير بَكى لوقوفه على مأساة الشعر في الشرق. بكى ولكن ما جبن. بكلتا يديه

لملم أشتاتَ الأمل. « سأكون، قال، سأكون غَزِلاً، ولو في المآتم ».

وأعطاه الله.

مِن تخليده شوقي وقد طَرِبت له الحجار في مِصر، الى انعاشه أزهارَ الزهاوي وقَد تفلسف على الوجود، من دحرجته النهر وكأنّه خيطُ حُلم ينحلّ، الى تجليله الروابي بجِفان الكَرْم وكأنّها خصَل الشَعر على كتفي صبيّة، من استنفار الهمم يهيب بترابات فلسطين أن تستيقظ وتُقلق السيوف في الأغماد، الى تحسّسه الليلُ يُنسدَل على الوجود كأنّما هو ذراع العاشق تلفّ الأمل وغمّةِ القلب والكون، الى طيّبات وطيّبات من سوانحَ تحرّك الياسمين وتكبّ الشذا في العقول، انّما تجده هو هو مُوجَعَ القلب أبداً وأبداً متغزّلا. للنبع عنده، كما للمرأة، « مِعصم »، وللجهاد « ثَغرٌ وجيد »، وللقبر، لهذا نفسه، « إشفاقٌ من عَطْف عَزُول ».

يُحَبّ الأخطل الصغير كما يُحَبّ الحبّ.

وما هو منه؟ انه الزهرة من الشذا. ليلة مولده، يقول، وُلد الهوى ومعاً على اللوح الواحد سيحملان.

لا، ولقد وفى هذا بذاك، وتعكس، حتّى ليبقيان ما

بَقيَ الجمال ومتعبّدٌ لأشياءِ الجمال.

* * *

قبل أن يكون للشرق أداةٌ سياسيّة تَجمع، كان الشعرُ تلك الأداة. على أنّها مع الأخطل الصغير بلغت مبلغَها العَليّ العظيم. فإن وَهَنَت وشائجُ بين نيل ورافدين، أو تقطّعت أنفاسُ صَبا بين نجدٍ وأطلس، تألّقت بيروتُ بمفاتنِ شعر، فأتلَفَ شَرْقٌ وشَرقَتْ بدموع الفرح عواصم.

الأقلامُ جميعاً عَرفت لياليَ وَجع، فيها « تراخى الأمر »، حاشا هذا الّذي ما خَطّ الاّ وفاء وما قَطَرَ مِدادُه الاّ حُبّا.

وللبنان كان الأخطل الصغير سَفيراً قبل العَهْد بِبعوث تَنطلق.

ذاتَ يوم ـــ وكيف أنسى آخَرَ في بغداد؟ ـــ كَبّروا للبنان في القاهرة كما للذي لا تكبيرة الاّ له. كان ذلك بفضل بيت من شعر له أو قوافٍ مرنان دونها انعطاف الحور على الحَور.

وسِرٌّ آخر أُلْقِيت مقاليدُه الى هذا الشاعر : الطلاوة. لا ولا مرّة، كما هنا، جاز فَهْمُ الكلمة بمعناها المُطلق، ذاك الذي اليه أريدت أوّلَ ما انفرجت عنها شَفَتا متكلّم.

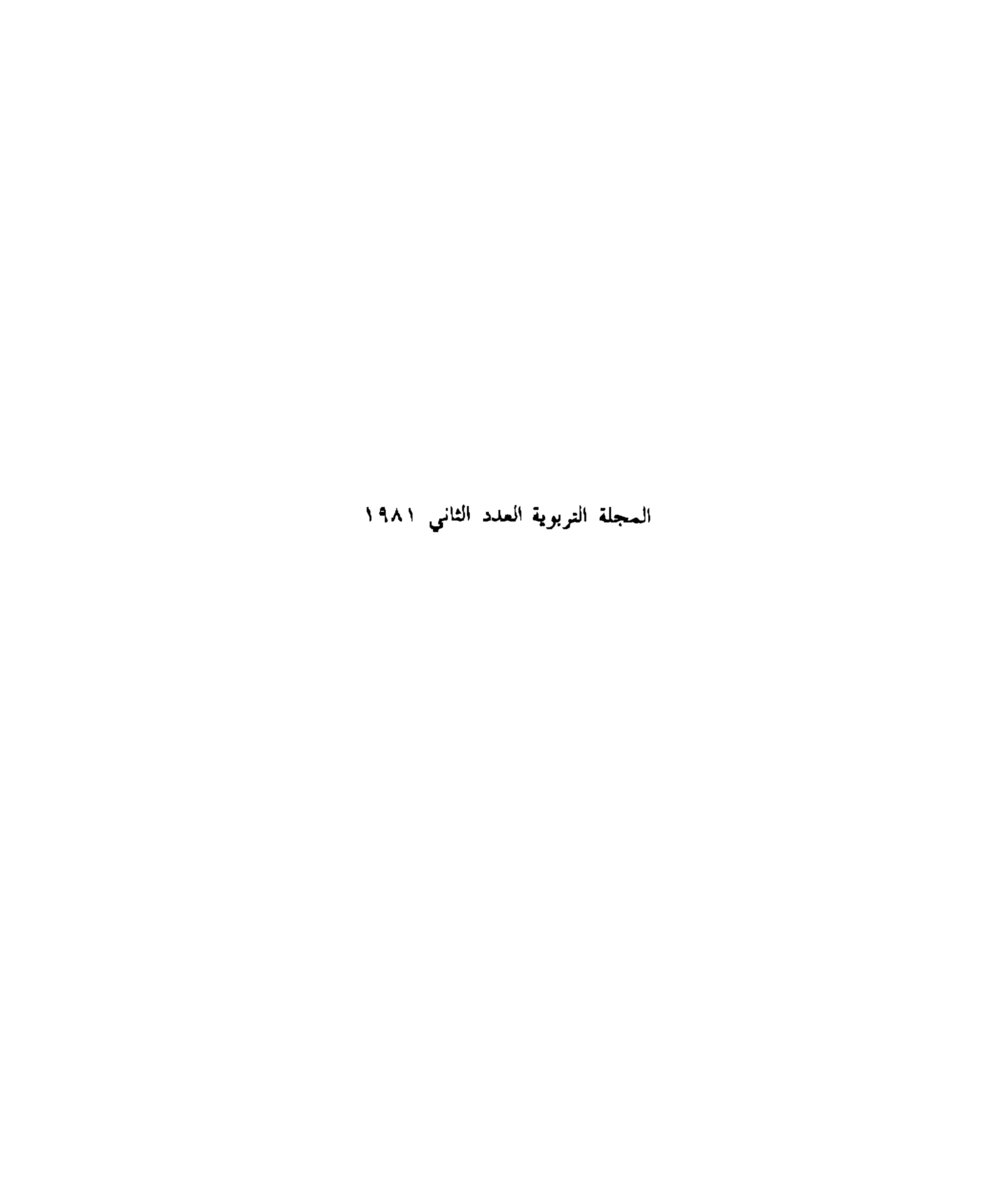
الطلاوة؟ ألا لِتُفْهَمنَّ بأناقتها الرضيّة الخَفَر. تجدها هنا نُزّلت في السطر يَتناغمُ معها حتّى التوحُد، حتّى الغَرابة. لكأنّك حِيال تعاريج الكتابة القديمة رَصَّعت قلادةً من ذهب إبريز. ما ثَمَّةَ نَقْشٌ بانتظار ضبط وانّما ضَرْبٌ كما الدينار أخرجته اليد الصَنَاع كُلاً متنفّساً بالتمام والرونق. كلمةٌ بِنتُ الفُجاءة في بيتٍ رُصِف ابناً لِلعجب. شمسٌ تبلّجت على غير ميعاد فوق قِمّة من لبنان.

* * *

هذه الكأس، التي فيها تآخى نبيذ بابل وبلّور صيدون وصُنْعٌ مِن أثينا يذكّر بإزميل فيدياس، هذه الكأس ما انفكّت منذ نصف قرن تُدار على نَدامى هُم شعوبٌ لا أفراد. اليها هنا بالذات، مُدَّ قلبَك قبْل اليد. لَيُخيّل اليك لأوّل وَهلة أنّها تبدّلت. لا تُصدّق. أمِرّ العين متعبّدةً على الورقات، بجُماعِ نظرك تَذوّق ديواناً بات جديدَ البهاء. انّك لتجدُ المَذاق نَفسَهُ، ذاك الذي له اهتززتَ وأنت فتًى طريٌّ عُمْر. كوثَرٌ مِن جنّة هو ومرّة نِكتارٌ من أُولمب. وتسائل النفس : تراه لِنغمةٍ وُتِّرت فَطَرُفَت أم لبهاء رُصِفَ أدقّ فَغَنِيَ، انتقل النصّ من مخاطبة سَمْع الى مناجاة بَصَر؟ ما تَدري ما تدري. كلّ ما هناك أنّ السِحر كان ويبقى موضوعَ شَكّ.

وقد تأخذ على اللألاء هَنات هيّنات، تَنزّلات عن مستوى يكاد إن استمرّ يُتعب. قل : انْه عملٌ تَطلّبَهُ الفنّ — أو شاءه القدر! — لا لشيء الاّ لتهتف : بلى هذا الشِعر هو حقاً في الوجود، جسدٌ لعمري جسد، لا بالتوهُّم ولا في الغيب.

سرّ ینتَظر



المجلة التربوية العدد الثاني ١٩٨١

قصّر، لعمري، تجاهه الكلّ، الا الشهرة. ولَيُجرم بحقّه ــ بحق لبنان إذن ــ اثنان : من يروح، لمحض ما ان تعرّف اليه، يَهِم نفسه بأنه عرفه، فيكتب عنه بقلم التلميذ يَحسد المعلم، ومن يتوسّله، كأنما الأمر يسير، أطروحةً ليست كتاب عمر. لَكَم يسهل أن تُسَدَّدَ رصاصةُ خلاص الى كل ريشة جَرّت حبرها، غير مُستصعِبة، على كدسة من ورق تُريدها قال.. سِفْراً على جبران.

أنا، وأعترف بها، أتهيّب.

أسئلةٌ ثلاثة تردُّني كمن في حضرة خَيلانةٍ من اللواتي

يَظهرن عليك أشبه برصَد ثم يحتجبن ويتركنَك في الدَهش :

ــ مَن جبران اليفاع الدائم، ذاك الذي قرأه ــ بل التهمَهُ ــ في شِرّة صباهم، كل الفتيان من أبناء شرقنا، فأصبحوا، حين كتبوا، إمّا جبرانيين واما لا جبرانيين، لِيغدُوَ نصفُ قرن برمتّه مغموراً بشتاءات من بلدة بشرّي عاصفةٍ بالريح، بصقيع الثلج والصاعقة، أو مسكوناً بشجونٍ ثائرٍ على القُبح أو عاشقٍ تكسّر جناحاه؟

ــ مَن جبران « النبيّ » ــ وقُلِ الحكمة ــ ذاك الذي هو قلَقُ الملايين من الأميركيين، مِمّن يقرأون منه في معابدهم ولا قراءَتهم من الكتاب المقدّس، فيغدو اسمُه بين كل الأسماء، في أية دُربةٍ عقليّة أُغذّ، أشهرَ اسم غيرِ منازَع في أمة ما هي ثانيةً بين اللواتي بيدهنّ مصائر البشر؟

ــ مَن جبران القلم الانكليزي الذي أضفى على لغة تشوسير وكيتس رعشةً لا عهد للانكليزية بها، جاءت، وحَتماً بشكل مغاير، بحَجم التي كان أضفاها عليها شكسبير؟

ليس في هذه العُجالة المقتضبة فَيحٌ للردّ على الأسئلة

الثلاثة. وإن هي، هذه العُجالة المقتضبة، إلّا وخْزٌ في خاصرة جماعَتَين : من كتبوا عن جبران وكأنّه هُم. ومن نشروا رسائلَ حميمة متبادَلَة بين عاديين وبينَه وهو بعدُ عاديّ، كتابات خاملةً، ولو سئل جبران فيها : « هل هي لنشر؟ » لضحك ضحكة آنشتاين يسألونه نشْر مساعداتِه حفيدةً له بنتَ ثمان، مثلاً، على كتابة فرض في الحساب ستنال عليه علامةً أقرب إلى الصفر..

لئن تفرّغ يوماً خبيرٌ بِسِنّ اليفاع، وبالجمال القَلَمي خاصةً، وبالقلب المُريدِ ذاته خافقاً مع نبضات قلب الكون، للردّ على الأسئلة الثلاثة، وكتب بانكليزية تفوق سذاجةً ونضارةَ بَثّ إنكليزيةَ « النبي »، فقد يكون لنا أن نُعطَى ـ ويا لهناءتنا آنئذٍ ـ فكرةً عن بعضِ ما جبران، عظيمِنا الذي كان على الطريق الى جعل اسم لبنان، بسبب اسمه هو، أشهرَ ما يَنزِل في كلّ الكُتُب.

مِن صَناعَةِ السَّيفْ

مقدمة على « تاريخ الجيش
اللبناني » للعميد سامي ريحانا
تعريب النقيب انطوان نجيم
١٩٩٠

تاريخٌ لجيش لبنان، في الحِقْبة المعاصرة ؟ تَلفظ الكلمة فيَرتسم، على شَفة مَن بالُهم في بعضِ خارج، خارجٍ بعيد، مِثْلُ هذا السؤال: « وهل وراء جيش لبنان، في الحقبة المعاصرة » « فردان » مثلاً ؟ أو هل وراءَهُ « الانزال في النورمندي » ؟

مع أن...

هذا العمل، الذي منحه العميد سامي ريحانا بضعةً من شبابه، يجيئك بشأن موضوعه ما يردُّكَ متهيّباً. سؤالك المزدوج لا تعود الى مثله.

لا ليس على عسكريّتنا وحسب أن تهتدي بهذْي هذا السِفر. ألا فَلْيَفعَلْها كذلك كلُّ طلاّبنا، مهما بعُدت اهتماماتُهم عن الشأن العسكري. كذلك فَلْيفعل تلامذتُنا في الأواخر من سِني التحصيل.

* * *

ثلاثٌ تخرج بها من هذا التحرّي الجَلل:

ــ الأولى: جيشُك ان هو الاّ سيفُك. تَسلُّه، هو وحدَه لحمايتك عندما يتهدَّد خطر. وما أنت مِن دونه ؟ كلُّ شيء إلا أنت. ولكنك، بالمقابل، تخرج، من هذا الكتاب، وقد بِتَّ تعرف أن الدولة اذا وَهُنت تحتَّم أن يوهَن الجيش. فلا معركة « عَلَمين » إن لم يكُن، في لندن، وراء عبقري العسكرية وجنودِه، إلهٌ صغير اسمُه تشرشل. مِنْ هنا الحُكْم بأن هذا الكتاب، الذي لا على السياسة، هو أَهَمُّ ما كُتب عندنا على السياسة.

الثانية: الجيش هو للأُمّة ما هُوَ للمرأة رجلُها. امرأةٌ تُرك رجلُها يُصفع على مرأىً منها تغدو سبيّةً لِفراش الصافع. أما والحالة هي هذه، فيُصبح واجبُك أن تقرّب قُربانَك لاثنين: اللهِ وجيشك.

الثالثة، وهي الأهم: أن جيش لبنان، في عهده المعاصر

ما يزال محتفظاً، ولو عن بعد، بسِمات جيشنا في عَهْدي صيدون وصور. حقاً ؟ مِن الاختصاصيين مَن قرأ هذا الكتاب على حِقبة من تاريخ جيشنا فتوقَّف عند المؤلف المؤرّخ فوجده رَجُلَ تشدّد في تحرّي صِحَّة الأحداث. ومنهم من توقّف عنده كاستراتيجيّ فوجده ابنَ بجدتها. توقّفتُ انا عنده متطلّعاً الى الكشف عن روح عسكريّتنا. هو لا يُلمح بالاسم الى « معركة صور » في وجه الاسكندر. ولا بالاسم كذلك إلى « معركة صيدون » في وجه ارتكزرسس الثالث، تَيِنكَ المعركتين اللتين قالتا إنّ شعبنا ما كان بَطلاً، كان البطولة. ولا كلمةً عن ذاك الماضي، آونة تاريخنا هو التاريخ ! ومع هذا تستشفّ، من بين تغيّب للكلمات وحضور، أنّ جنديَّنا اليوم ما يزال ذاك، وإن خِبرتنا اليوم بملاعبة الموت ما تزال تلك.

« معركة صور »، في وجه الأسكندر، ما تراها كانت ؟ لا الّا برهنةً، من عسكريّة شعارها « صُور لا تغلب »، على أن هذا الشعار هو هو صور. واستمرّت على هذا ثمانية أشهر. حتى إذا رأت هذه العسكريّةُ أن الذودَ عن الحياة ثمنُه الموت لا أقلّ ما بَخِلت. وماتت صور ؟ من قال ؟ ولقد تركت للتاريخ أن يعرف أن الفاتح، الذي كان ينهي

معركته بأيام معدودة أو بيوم، إنما، عندها وحدها، تمرَّغ سبعة أشهر. هزيمةٌ بحجم انتصار، تعوّدوا أن يقولوا ؟ لا، وانما محضُ انتصار بحجم كرامة.

و« معركة صيدون »، في وجه ارتكزرسس الثاني، تلك التي قادتها الصبيّةُ عَشتَريم، ما تُرى كانت ؟ إن هي الا قولة لبنت تُراث عسكريّ: « جئتم بي متأخّرين. أرجّح أنّه لن يتاح لي جعلُكم تعيشون الحياة. لكنكم معي، أكيداً، ستعيشون كرامةَ الموت ». وأحرقت عشتريم شيوخَ المدينة والأطفال، أحرقت روائعَ صيدون، تلك التي كانت، على قول بيار أوباك، باريس القدم، قصوراً ومعابدَ ودورَ رُقيّ، لكي لا يبقى، للمقاتلين الذين تقود، ولا وراء يلتفتون اليه، يبقى لهم فقط أمام. يموتون ؟ يحيَون ؟ سِيّان. سيتركون، بعدهم، للدنيا هذه المرّة، أجملَ أرث تأخذُه عنهم ألسِنَةُ الفلاسفة: « وُجدت الحياة لتفتديَ كرامةَ الحياة ».

* * *

تقرأ تاريخ العميد الرُكن سامي ريحانا، فتخرُج بهذا ؟ لَربَّما. لكنك، أكيداً، تخرج بأنك على الطريق إلى هذا.

فهرست الكتاب

اجراس الياسمين

الطبعة الاولى ١٩٧١
الطبعة الثانية ١٩٩١

أكاسيا...

لهذه الأكاسيا
أنا أكتبْ

عروسةٌ ! فمَن،
مَنْ يدَها يطلب ؟ ...

لا أنا، لا الربيع،
لا الصدى اليكذُب

أشمخُ جبهةً
تلك التي تعذُبْ

تنصُب قنطراتِ
زهرِها ... تنصُب ...

أكاسيا، دعيك
منه، مَن يَخطب..

بكِ، بضمّةٍ،
غداً أنا أهرب

وليلحقوا بنا
الصبحُ، الدّجى، الأشهُب ...

نكون صرتِ لي
وصرتُ صُبّي ...صُب...

أطيبُ منك أيُّ
الخمر، أيُّ الحب ؟

أكاسيا، ولا
أزلْ أنا أكتب ...

شتاء

أنا وصدىً عاصفٌ والمطَرْ
على شَعَري .. وانتحر، يا وترْ

لِتَبقى وراء الجِهات تئنُّ
وتبعثُ لي بِجِهاتٍ أُخَر ...

أسائلني : هل يمرّ خيالي
كما خلف مُنشقّ غيمٍ قمر ؟

بمَن ؟ بالدروب محاها شرودي،
بتمزيقيَ الضجرَ المنتظرْ

أعيش أنا لغدٍ، لا عليَّ ..
ومَن أنا إنْ لم أعِش في خطر ؟.

يقولون لي : تسكنُ الريحَ .. خابوا !
خططتُ انا وسكنت الصُوَر

الا انهمري، يا شآبيبُ ... شُدّي
اليّ الغمامَ وشدّي الحجر

ربيعٌ ؟ ... الا فليكفَّ الربيع،
انا قصفةُ الرعد، مَزْقُ الشرر

انا سِرُّهُ زَهَرُ اللوز، لكن
على الثغر فتّح لا في الشجر

وفتّح خاطرةً ... دفْعَ بابٍ
الى المنتهى .. غُربةً في القدر ..

ويا مطرُ، انزِل وأشردَ بعد.
وأشقى... ويبْقى عليك أثر

بلى، وتبرّجْنَ لي، يا ثواني،
وكنّ كأحلى بنات الغَجَر.

سقوط الشمس

هذا الغروبُ لَمْ يَمُرَّ
بي، ولم يرمِ الذهبْ ...

ألِسوايَ كان ؟ ليتَ
ليتَ ! ... وليُقْطَفْ عِنَب ..

ويُعتصَرْ ... وهو غداً
رقصٌ وكأسٌ وحبَب ...

يطيبُ، يا غروبُ، أنْ
أُحَبَّ أو غيري يُحَبّْ

أعطِ شجيراتِك للناسِ ...
ارمِها للطيرِ حَب ...

لوِّنْ بكَ السماءَ .. والأُفْقَ ..
وأعرافَ القُبَب

وغنِّ، إنْ شئتَ، ورُدَّ
الريحَ غصّاتِ قصَب

لذيذٌ الأخضرُ قبلَ
الليلِ والدُّنيا رِيَب

تقولُها تنزَّلَتْ
عذراءَ عن راحةِ رَب

وهذه الشمسُ التي
تغيبُ .. تَغوى .. تُغْتَصَب ..

رمّانةٌ تفلّجتْ
أو قلبُ عذراءَ انعطب !

غروبُ، ضِعْ بي، بكَ ضِعْتُ ..
وتألقْتُ عجَب !

وحدَكَ، يا غروبُ، مِن
عندي ... ومَن بَعدُ جَلَب ...

نقش على الريح

نَقْشٌ على الريحِ غِوىً، هديلْ ...
لِمَ الوجودُ مثلُها جميل ؟

أحبُّها الطبيعَه انتهت
إليَّ، والكثيرُ من قليل ...

الحجرُ الناهضُ قامةٌ
تقولُها من لَذَّةٍ تميل

والتوتةُ الخضراءُ ذُبِّحت
بنُقَطٍ وبدمٍ يسيل

كأنني أَقطِفُ خيرَها
بالعينِ، جيلَ ثمرٍ وجيل

أمسِ تلطّختْ بأحمرٍ
أصابعي ... اليومَ ارتوى الغليل ...

لن أغزوَ الشجرةَ العُلى،
حسبي جِوارُ ظِلِّها الظليل ...

والريحُ تلهو بي، بجبهتي،
بشَعْريَ المشعَّثِ الأثيل

أقولُ للصباحِ : لُفَّني ...
لي مثلَكَ التطلّعُ النبيل

حَطُّ يدي عليكَ يُقلِقُ
الشُعاعَ، يُغريهِ بمستحيل ...

أنا وهذا الحُسْنُ في الطبيعة
التقينا زمناً طويل

أَعطَى وأَعطيتُ ... وشاعراً
صار ... وصِرتُ النَسَم العليل ! ..

سياجُ الورد

سياجُنا هَيمانُ. يا بَرْدُ
غُلّ به أو يشعَلَ الوردُ

إقرِسْ. لذيذٌ أنت عند الضحى
والوردُ أزرارٌ ولا عدّ

قد أيقظتْني ثم لَمْ تنتظر
عصفورةٌ جناحُها نَدّ

كلُّ صباحٍ تتغاوى هنا ...
والوردُ للأَوّاهِ ينهدّ ...

أُحبها والنُقَطُ افتوتنت
حمراءَ بعد الصوت تسوَدُّ

يا ليتَها حَطّت على خاطري
خطْفاً وبعدُ ارتحلَتْ بعد ...

أُحبّها صدّاحةً طلْقةً
كأنّها الشِعرُ الذي أشدو

ويهزَجُ السياجُ، يمضي على
الارجاء بالعِطر ... ويرتدّ ...

وليلكيٌّ فوقُ من شُرفةٍ
لاح .. فما طرْفي .. وما السُّهد ؟ ..

لو أنا لم أنظر لما أفلَتَ
الزمانُ مني وانتهى البَعْد

وقد أطلّت مَن على خصرِها
غنّى نِطاقُ البُرْد والبُرْد

قِطعةُ شمسٍ قال ... فاسمعْ بها
ولا تُقرِّب ... عَلَّها وَعْد ...

هذا السياج الساكني وَرْدُهُ
أجملُ منه شَعْرُها الجَعْد.

الحبّ والقلم والريح ...

تمرُّ على جبهتي نسمةٌ
لستْ أعرِف من أينْ

أمِن تحت لوزتنا في
الكروم التوَتْ غُصُناً لَيْن ؟

وخُذْ بالبراعم ... مَن
ينفرطن ... ومن يُشتهَين

وِمن أين ؟ مِن مُعْرِش
الياسمينةِ ظلَّلَتِ اثنين

تؤوهُ له ويؤوهُ ...
وعينٌ تهاوت على عين ...

تمنّيتُ، يا نسمتي، لو
تكونين ذاتَ الجناحين

هنا تنزِلين بماءٍ
وتَروَين تروين تروين ...

وان عُدتِ عدتِ جَناحُكِ
يقطر باللؤلؤ الزين.

وتسكن باليَ تلك
الجِرارُ اجتمعن على عين ...

وأبرُد من ذكرهنَّ
وأشقى ... اصدقيني أتشقَين ؟ ...

ويا نسمتي، أنت شرطُ
الجمال انسِمي أو أنا هيِّن

وما قلمٌ ليس لُعَبَ
الرياح كما نقطةُ الغين

قوامٌ تلوَّى ... فيا أنجُماً
في البعيد، تلوّين ...

و « مِن أين » ؟ ويكِ انسمي بالسؤال ِ.
السؤالُ « الى اين » ؟

نهد

كتبتُهُ، كأنّه في القصائدْ،
كفُّ جنيّةٍ عشيقةِ ماردْ،

نهرَنا ... فاندفاعةُ الموج فيه
من صِباها ومن عُتُوّ الناهد

يا شريطَ اللجينَ،لُفَّ خيالي
أو أنا منكرٌ جمالَكَ جاحد

موجةٌ لا تشيل بي وتغالي
لم تكن بعدُ في الجَمال الصاعد

أنا بي ضاعتِ الطبيعة، إنْ ضاعت ...
فلِمْ أنت عن شروديَ شارد ؟

نهرَنا فوقُ، في تلوّيك بالسهل،
اكتُبِ السهلَ خُضرةً وروافد ...

رُدَّه موسِماً ولا موسِمُ العقل
وشبِّكْ خواطراً بسواعد

ما تُرى أجملُ ؟ ... الهواجسُ في البال
أمِ الأزهُرُ الزواهي الزواهد ؟

أم هوى مَن يقول للصفحة البيضاء :
غنّي، انشكّي نجوماً فرائد

فكأنْ أنتِ قُبَّةُ الفلَك انهارت
على الدِملَج المرنِّ المراود ؟ ...

قارئي، خلِّ ... ما الجوابُ وما أنت ؟
كنِ النهرَ ... وحدَهُ النهرُ خالد.

شلال

كأنها أفتى بها القلمْ ...
رَسَمها ... فعطّر النَسمْ ...

تلألُنا ... ألا امرحي بها،
يا عينُ، من رأسٍ الى قدم

الليلكيُّ لونُها اذا
لم تشتعِلْ بالاخضر القِمم

او بعضُ ما لا اسمَ له وما
رنّ مِن الكُوب اذا انثلم

عينٌ، اشربي منها .. اشربي النقا ..
وإنْ مللتِ فاشربي الشمم

تلالُنا قد رَبِيَتْ على
العطاء، واحلولتْ من الكرَم

رفٌّ العصافير رنا لها ...
همَّت بأن تصيره ... وهم ..

فهْيَ هنا اجنِحةٌ تُرى
وها هناك أزهُرٌ تُشَم

وفي المساء، غِبَّ منتهى
الشمس، ومسْحِ الافق بالظُلَم

إنْ وَقَعَتْ سكرى تلالُنا ...
بزَهَر الليمون فلتُلَم ...

إلى النسيم

لا أنا ... أنتَ احمِلْهما وامضِ
عَينيَّ وسْطَ الشجر الغضّ

يا نسمًا مر على شَعَري
فهدّني بعضاً على بعض

وقال أنْ في الارض لي سَفرٌ ..
كيف وبي قد سافرت ارضي ؟

لِمرّ نسمةٍ، لِلَفْحَتِها
خدّي بذاك الأَرج المحض

كأنها من قُبَلٍ وهوىً
ومن ضِياء الناهد البضّ

اسأَلُها لِمْ يا تُرى خطرت
من صوب عمق البحر والعرض ؟

أُريدُها ولا ... فيا شمَمي
بلّغْ — ولكن رافضاً — رفضي

أنا وهذا الكون غصنُ نقًا..
حُطّي، عصافيرُ، أو ارفَضّي

وسوف نَروي قصّةً عَلِقت
ما بين فتح العين والغمض

كدمعةٍ تمنّعتْ فشَفت
او آهةٍ الى الهَنا تُفضي

لَذَّ الذي شَفّ ... فكن نسَماً
يلوّع الوجودَ ... او فامضِ ...

بلادي

بلادي، دعوني على
أجنُحِ الطيرِ أبني بلادي

على جبهةِ الشمسِ أرصُفُ
أرصُفُ سهلاً ووادي

أشكُّ العمائرَ، بعضاً
هواتفَ، بعضاً شوادي

وأُقلِقُ منها جِباهَ
النسورِ، وغيث الغوادي

بلادي، دعوني أشدُّ
ثَراها الى الحُلْمِ هادي

يعلّمني الحلمُ أنْ ليس
إلّا التمرُّدُ زادي

وَحطّيَ فوقُ على ثغرِ
بعضِ النجومِ البِعاد

بلادي، دعوني أصبُّ
لها الكأسَ خمْرَ ودَادِ

أنا فرحتي أنّها هيَ
في فرحةٍ وتماد

وَقَولي لها : فتّحي طيفَ
زنبقةٍ في الوِهاد

وُجدتِ، سكِرتُ ! أنا خمرتي
أنْ تكوني بلادي

دموع الحجر

قال لي واعذوذبَ الحجَرُ :
انا لي في دمعةٍ سَفَر ...

من تُرى الدمعةُ ؟ ذاتُ الغِوى
مَنْ إن احلولتْ وهَى النظر

وإن اشتاقته أودى به
الشوق ... فهْو الليل والقمر ..

قالها وارتاحَ ... والمُنحنى
مُكْمِلٌ عنه .. ومُخْتصِر ..

خبِّري، يا زهرةً لألأتْ،
أَمُنىً ما قالَ أم صُوَر ؟

أَلَها الاحجارُ تحنانُها
وبكاءُ العينِ والدُرَر ؟

أم تُراه ذاكَ مذ سامَروا
طيفَه طابَ له السَمَر ؟

وجرى في وهمِه أنّه
شاعرٌ والناسُ ما شعَروا ؟

فأجابتني التي لألأتْ :
ــ يا تُرى وحدَكُمُ البشر ؟

حجرٌ باحَ ... وصدَّقتُهُ.
لِمَ لا ؟ يَعشقُني الحجر ...

همومُ الجمال

ألناسُ ؟ لا عليهِم ...
الحُسْنُ لأهلِ الحسنِ هَمْ

إسأَلْ غروبَ الشمس، وَقْعَ
الليلِ في صدرِ القِمم

مُلتَفَتَ الغُصْنِ الى النسمةِ
والهزُّ نغم

الله ! هذا البَدءُ في
الدُنيا وهذا المُخْتَتم ...

لو آنهم يدرون جُرْحَ
الشمسِ إن همَّت بِلَم

أشعةِ ولم تطاوعها
التي صارت رِمم

أو آهةَ الليلِ إذا
القِمَّةُ لم تَشهقْ لِضم

لو آنهم يدرونَ ما
اوجاعُ إزميلِ صدَم

صخراً ولم يئنَّ ذاك
الصخرُ من طِيبِ الألم

أوْ ما دموعُ وتَرِ
ظلَّ به اللحنُ أصم

رَنَّ وما جُنَّ ! تقول
الوردُ أبدى ما ابتسم

الناسُ ؟ لا عليهم ...
الحُسْنُ لأهلِ الحَسنِ هَم

فراشة ... فراشتان ...

فَراشةٌ ... فراشتانْ ...
أو اربعٌ ... رَفُّ الحنانْ

الزهراتُ بجناحين ...
ويَنهضُ المكان

أركضُ أركض ... الحقي
بي، يا نسيماتِ الأوان

وراء مَن ؟ ... وراء
اغنيّة لونٍ وجُمان

قلبي على البنفسجيّ ...
او على الأصفر ... حان ...

وُقبلتي كأنها
طارت تصون أو تصان ...

مَن هاتفٌ كما الكنارُ :
شِلْ بنا، يا بيلسان

زهرُكَ رصّعتَ به
أجنحةً من عنفوان

فنقلةٌ على الصدى
وغُربة عن الزمان !

أنا، هنا بين الفَراشات،
انخطافٌ وافتتان

أرمي بعينيَّ فما
يداي بعدُ تقبضان

حتى اذا أأسُرُ ـــ ما
أأسر ؟ ـــ حُباً وأمان ؟

تعمُر بالجمال عيناي،
وتفرغ اليدان ...

نَهر

شريطُكَ والقمرُ
الى اين يا نَهَرُ ؟

يلُفّان قلبي وقلبَك ...
وَليْضجرِ الضجر

يدان هما للعطاء
فما بعدُ أنتظر ؟

وأشرب من كلّ كفٍّ
رحيقي واستعِر

ولو، لو غداً وقعا بي
وقالا : سنُختصر

بِحبك، بالليل، بالشِعر ...
ماذا أتعتَذِر ؟

يمرّ ببالِيَ أني
الرياحُ، الندى، الزهَرُ

على أَنملي ترقُص الشمسُ ...
والانجم الأُخَر ...

ومَن يا تُرى انا بعدُ ؟
حديثُ الاولى سمَروا ؟

تهيّبتُ ذاك الجوابَ
وقَولي : أنا القدر !

هُمُ ؟ خلّهم ... انا فوقُ ...
ابتكرتُ وما ابتكروا

شريطَ اللجين، الّي
وطِرْ أنت والقمر ...

أغنية الهدوء

اغنيةُ الهدوء ... واسمعْ
صوت الضحى أنقى وانصعْ

ضِحْكةَ مَن بعد سنيها
العشْر وافتَك بأربع ...

ضِعْ ... ضع بها ... ولا تعُدْ ...
اليك كالعمر المضيّع

تمْلُكه هذا الوجودَ
ما بقيتَ منه أروع ...

ويكَ ! بأَنْ تطفُرَ في
الآن كما نبعةٌ بلقع

تُخصبه، تُلهبه
بالزهر منه الزهرُ شعشع

اغنيةُ الهدوء تَدعوكَ
اخطَفِ الحسنَ الممنّع

في قطرة الندى، على
الجبهة، روحُ النهر اجمع

ما النهر ؟ لا إلّا الزمانُ
القاهرُ التاع ولوّع

انزِل به، استحمَّ، كسِّر
قُمقمَ السِحر المرصّع

أنت، اذا أنت ابتدعت،
صرتَ ما انت وابدع

قال لك الوجودُ : منك
انا ... من خِدشة إصبع

اغنيةَ الهدوء، يا
درباً الى الله ... ونطلَع ...

لِمَ الورد؟

لِمَ الوردُ ؟ كي يذكُرا
بأنَّ الجمالَ اندرى

وطاب، صبيحةَ عن كفّه
استقبلتكِ الذُرى

نسيتِ؟ ... أُرادكِ لا
تسأمين ... ولا يُفترى

عليه بان بكِ جُنّ ...
وفيما عدا زَوّرا ...

بلى، شاء شاء الزهورَ
تحُفُّ بمن صوّرا

رمى ياسميناً هنا
ضاحكاً ... وهنا عنبرا ...

الى النسمات فَراشاً،
على النهر نَيْلُوفرا

وفي اللاهنالك خلّى
مطارحَ ما أقفرا ! ...

لعلّك بعدُ تَريْنَ
من الزهْرِ ما لم يُرا ...

لِمَ الوردُ ؟ كي لا تمرّي
بأخضرَ ما نَوّرا ...

ولا تَطرُفي بعضَ جفنٍ
على غُصُنٍ أصفرا

وإمّا اعتراها اناملَكِ
اللُدْنَ ما مُعترى ...

وقلتِ : سأقطِفُ ... كنتِ
وكان المدى أزهُرا ...

وَرَقُ الشمس

هُمُ ؟ ... دَعْ ... انا الشمسُ لي مذهبُ
فيا ورقَ الشمس، قم نكتبُ

عليكَ، على منتهىً لا يذِلُّ،
على جبهةٍ في الضحى نضرب

الى جرّ ريشتيَ ارتاحتِ الريح
والتفت القدر المُعجَب

فهل سألا عنهمُ ؟ ... مَن يكون،
لِيُسأَل عن شأنه، العنكب ؟

ويا ورقَ الشمس، بعضُكَ نسجي
وبعضُك مِن نبرتي مُشرَب

الى نَقْط حِبريَ انتَ المَشُوق
كأنْ كوكبٌ شاقه كوكب

يهبّ عليكَ، وأنت الطريف،
شذا نَفْسيَ الطيِّبُ الطيّب

فتغدو ولا خوفَ، هل يَخمُد الحوضُ
ما بقيت وردةٌ تَلْهَب

تنزّلتُ ... صرتُ عليك كبيتٍ
من الشِعر عبر النُّهى يَلعب

يطير، ايا ورقَ الشمس، بالشمس ...
بالحقّ ... بالحسن لا يكذِب ...

ويكَ ! انسَني يا ربيع

ويكَ ! انسَني، يا ربيعْ
ولا تُرِدْني أضيع ...

في الحقلِ ... في الزهر ... في
دمِ المساءِ النجيع ...

لا، يا ربيعُ، اتَّخِذْ ،
قلبي من الحُسْنِ رِيع

قصّةُ حبٍّ أنا
يُوجِعُها أنْ تَشيع ...

تُريدُني نجمةً
سكرانةً بالهزيع ؟

أوّاهِ منكَ ! انسَني
ما أنا بالمُستطيع !

إلّا إذا شالَ بي
الزَهْرُ جميعاً جميع ...

وصاغني خاتَماً
لإصبعٍ لا تميع

او سَكْبَ عِطرٍ على
صدرٍ بديعٍ بديع ...

حقاً أنا راجعٌ
مع الزمانِ الرجيع،

فراشةٌ نَقَّطتْ
هذا البساطَ الوسيع ؟

وظِلُّها فوقُ فوقُ ...
لازَوردٌ نصيع ؟

تدورُ ... دارتْ بها
دُنيا ... وقلبٌ صريع ؟ ...

ربيعُ، لا قلتَها ...
انسَني انسَني، يا ربيع ...

أغنية إلى الرائي ...

اللونُ ؟ قُلْ أخضرْ
غَنِّ بهِ واسكر ...

كأنما عنبرٌ
أنت ... انتهى عنبر ...

واللون، قل برتقاليٌّ
إلى أصفر

عُنَّ على بالهِ
كالطيفِ أو أَكثر ...

إلّا إذا ضجَّ ناريّاً
او استكبر

فاهلَكْ عليه ولا
فراشةٌ تُهْدَر

واللون، إنْ تنوجِعْ
له فَقُلْ أحمر

واخضِبْ به هِمّةً،
كالسيفِ لا الخنْجر

كأنّما قِمّةٌ
أنتَ فمن يَقهر ؟

واللون، قل زنبقٌ
أبيضُ أو مرمر

كوثرُ ضوءٍ ... وضِعْ
في نبعةِ الكوثر !

وكلُّها ؟ ... لا، دعِ ...
الألوانُ لا تُسبر

أجملُها ما انتهى
كالجوِّ ... كالجوهر ...

تَكتُمُ ؟ مَن قال ؟ ... كُنْ
تُنسى ... وكُنْ تُذكَر ..

يلفحني السكوت

يلفحُني السكوتْ
كشمعةٍ تموت !

تَمنح نفسَها
طابَ العطاءُ قوت

قُلْهُ الفراغَ، يا
قلبي، بلا نُعوت

قُلْهُ الجمالَ لا
يرِنُّ لا يَصُوْت

كغُصْنِ توتةٍ
مقندلٍ بتوت

اللهُ ! لا تَفتُنّي
هدأةٌ تفوت

أُذني ... ولا هوى
البحرِ ... ولا البُهوت

أنا عَمَرْتُني
عمَرْتُني بيوت

ناحِتُها الذي
احلولتْ به النُحوت

أعلى مقصّباً
مِنْ حَجَرِ الثبوت

قال : بدونيَ
الوجودُ عنكبوت

أرجوحة

قلبي ألا غنِّ غنِّ
ولْيسكرِ الليلُ منّي

قُل : اسمُه الكونُ، ذاك
الغُصْنُ الأنيقُ التثنّي

أنا وقلبي وهذي
الريحُ الحنونُ كوَهْن

أُرجوحةً من خيوطِ
النجومِ، مِنْ جَذْلِ ظَنّ ...

لم نَدرِ أين سَنَهْدا
في المَهْلِ ... أو في التمنّي ...

بيني وبينكَ، يا
قلب، لا يكُنْ من ئَجَنّ

خَفِّفْ إذا شئتَ لَكِنْ
تخفيفَ حُسْنٍ بحُسْن

يا قلب، يا خافقُ،اخفُقْ
واغزُلْ أُويقاتِ فنّ

مِن فرحةٍ دُسَّ فيها ...
ومن غِوىً ... وتأنّ ...

أنا البكاءُ عدويّ
لا كان كُحلةَ جَفْن

كلاميَ النارُ يبقى
جِنُّيةً وَسْطَ بين

أنا وكلُّ الورودِ
التي بقلبي تُغنّي ...

مَعَ الرِّيح

مع الريحِ، يا قلبُ، واعزُفْ
كما ريشةٌ فوق عودْ

حبيبٌ إليَّ تثنّيكَ
لحناً تروحُ ... تعود ...

شَروداً ... شَروداً ... كأنَّكَ
فيكَ يضيعُ الشُرود ...

تُواعِدُكَ النجمتانِ
وواحدةٌ لا تجود ؟

تصبَّرْ. لَأجملُ ما في
الدُمى أنَّهنَّ وعود

أَمَا نحنُ من غُصْنِ وردٍ ؟
أَمَا نحنُ همُّ الورود ؟

تمايلْ أَيا قلبُ، لا تُستلذُّ
الحياةُ جمود

هُتافُ العُلى أنْ أطِلْهُ
المدى، وانتهِبْها الحدود

وأَنْ واجِهِ الريحَ عذراءَ
تحمِلُ طعمَ الجرود !

وفيمَ وجودُك ؟.. انْ كُنْتَ
حُرّاً فأنتَ الوجود

انتساب

أنا كُتِبَ اسمي بغزّارْ
عليَّ ... على شجر النارْ

ولوّنُ اسميَ الريح داعبتِ
الريحُ أجنُحَ أطيار

انا ماءُ هذي الينابيع
أندسُّ في كلّ عرعار

أناقتُه البابُ منّي
ومنّي تمايلُها الدار

ويأخذني ويردُّ
الغَمامُ كما القمرُ السار

الى أين تهرب مني
الجبالُ ؟ انا المُزْنُ مِدرار

لئن فعَلت صرتُ أُفقاً
على الأفْق والجارُ للجار

تلبّد ثَلجٌ على قِمّة
الكون وانهار وانهار ...

تعالَي، صغيرتيَ الأرض،
غُلّي ... فؤادي أنا حار

وما همٌّ أني فقيرٌ
وأسكنَ عند شَفاً هار

وأنْ ليس لي دَنُّ خمرٍ
فاسقيَكِ السرَّ أسرار

خلعتُ عليكِ الكلامَ،
كلامي، جبينَكِ، والغار

أنا كُتِبَ اسمي عليكِ ...
عليَّ ... على شجرِ النار

كتابة

كتبتُ أيا ورقْ
هوايَ على الحَبقْ

أما هو أوفى ؟ لئن
ترِقَّ،الشذا أَرَق

ستمضي ويبقى ليحفظَ
السرّ والحُرَق

ويدركَ رفُّ السنونوات،
على الغسق،

لذائذَ مدَّ الذراع ...
والثوبُ شُقَّ شق ...

هو، اسكُتْ ! ... سيذبُلُ لا
يخبُرُ ... لا وَحَق

صباحَينِ قلتَ جَمامَ
كأسٍ بكأسٍ دَق

ويا ورقُ، افرحْ بمن
نأتْ بارقاً بَرَق

وجعتَ ؟ لو انكتبتْ
عليكَ انتهى الرمق ! ...

وليتكَ ظِفْرٌ لها
ومزَّقني ورق

حكاية الحمام

وقال كنتُ حالمْ
وفوقيَ الحمائمْ

تمرّ بي كزهْرٍ
يُفتّحِ الكمائمِ

أميرةً لِسربِ
مُصفّقٍ مُناغِمِ

وكانَ أنْ حكَتْ لي،
حكت، وكنتُ نائم

حكايةَ ابنِ عشْرِ
قضى وظلَّ هائم

بمن بكَت عليه
وأبكتِ النياسم ؟

ضريحُهُ بعيدٌ
فوقُ، ولا سلالم

وزَهَرٌ بشوكٍ
يردُّ ظُلْمَ ظالم

تجيء كلَّ يومِ
تسقيه بالسواجم

حمامةٌ هواها
يا ناعماً ... يا ناعم ...

تسأل لِمْ أحبّتْ
مَنْ حُبُّه مواسم ...

يوماً لها ويوماً
يقول : لستُ عالم ...

لكنّه غداةَ
استودَعَها التمائم

قال لها : سأبقى
على الوداد قائم

صُبحاً أجي وصبحاً
أظَلُّ في الطلاسم

هذا فلا تملّينَ
عاشقاً مداوم

مِن يومها تُناني
وتُرجِعُ الحمائم ! ...

لَيْتَني مِثلَكَ يا شجر

ليتني مثلَكَ، يا شجَرُ
هَدِلٌ بالزهر أو عطِرُ

تعرِفُ ؟ ... اسألنيَ عن وجعَي
منكَ : لِمْ تقتلُني الغِيَر ؟

أتُرى مسّتكَ لفتُها
حلوةٌ باقٍ لها أثَر ؟

مرّةً مرّتْ بضيعتنا
ثم لم يُخْبَرْ لها خبر

قال في ظلّكَ، غِبّ الضحى،
وقفتْ ... فانتسب القمر ...

قامةٌ صعبٌ تململُها
بين غصنين ... ومبتكَر ...

عرفَوها ؟ ... ليس مَن يدّعي ...
إنما مِن بعدها سهِروا ...

كلّما عنها حكَوْا قُلتَهم
أُخَراً ... آهاتُهم أُخَرُ ...

همسةٌ تأسِرُهم من هنا ...
من هناك السرُّ ينتشر ...

انما أُمّي روت عجَباً
عن صِباً ما الضوءُ، ما الشَرَر ؟

سألوها : وهو هل طرَفتْ
عينُه ؟ هل شاقه الخَفَر ؟

فلوت جيداً ومن فرحةٍ
طفَرَتْ من عينِها الدرر

أتُراها لي بها حلمتْ ؟
ذِكَرٌ، احلولينَ، يا ذِكَر

أنا قد خُيِّل لي أنّها
رجَعَتْ مذ رجَعَ الزَهَر

أين أُمّي الآن ؟! يا حلوةُ،
انتظري ... ما دمتُ أنتظر ...

عاصِفة

تُحبُّني، يا تسلمُ، الرياحْ
كما يُحِبُّ البطلَ السلاحْ ؟

بشَعَري كم لعِبَتْ وكم
على جبيني انتثرت أقاح

وبعثرتْني فكأنّني ،
على مطلّات الرُبى، الصَباح

والليلُ ... والجمالُ ... والنجوم
دُرن درن مُيَّداً مِلاح ...

تغوى بيَ الرياحُ ... مرّةً
أتت على ذكري مع الرماح

قال أنا واحدُها ... فَلِي
نصْلٌ أوانَ الطعنُ لا مُزاح ...

وعُقَدي غُلْبٌ فمَسْكُها
إلّا لمن تهواه لا يُتاح

لكنّني هوايتي الندى،
شَهْمٌ فلست أعتدي، صُراح

أشرفُ مَن قاتل، مَن صَبا
الى التحامِ ماحقٍ وماح

حتى إذا رجَحْتُ وانشكى
منّي اليّ، كان لي سَماح

الريحُ قُلْها بعضَ ضربتي
آناً وقلْها بلْسَم الجِراح

عَلَائِق

ضِفّتا نهرٍ ؟... ألا مرّي ببالي
يا رُبىً لهْفي عليها وسؤالي

حافياً كنتُ أُباديكِ ضُحىً
والضحى أزرعه أشتاتَ حالي

طفلُ حسنٍ لاعبٌ بالمنتهى
قلتِ بالحصباء أو قَرْطِ اللآلي

يَنقل الكرّامُ عنّي خبراً
عَطِراً، أجملَ من حلم الدوالي

سألتني فيه أُمّي، لم أُجِبْ
قال أعطيتُ الرُّبى حفنةَ مال

لِمَ لا ؟ الضوءُ كريمٌ وأنا ...
هل بغيري ِنيطَ إطلاعُ الجمال ؟

فيه ذاك المُتناهي في العطا
كنتُ أقرا، في الجبين المتعالي

أجملُ الكُتب أبٌ جُنّتْ به
نبعةٌ تدفُق مِن عَلْيا الجبال

غالَبْتُه ... إنما ارتدّت، فيا
ضِفّتيها حدّثا عنه الليالي

وأنا اليومَ أرى الزهرَ انتشى
وتغاوى ... لتغنيًّ بآلي ...

هو أصلٌ لهمُ ؟ لا قلتَها
لا، وهَمُّ الزهر من هَمِّ الرجال

يا رُبًى فوقَ على أذرعهم
رُفعتْ، هُبّي كما الريحُ بيالي

جوار

جُرُفٌ ... على واديٍّ هارْ ...
اهواهُ يبعثُ بي دُوارْ

غيري يخافُ ... انا أُحِبُّ
الخَطْوَ في ذاك الجِوار

مَهواتُه خَطرٌ ؟ جميلٌ
أن أُجيرَ ولا أُجار

القَعْرُ يَسحَرني أنْ اسْقُطْ
أو أقولَكَ في فِرار

أنا ؟ خلِّها لسوايَ ... لا
تَسْتَشْرِ أو تلقى الشَرار

لي لَذّةٌ بتفرُّسي
في الموتِ في عينيه نار

بيتي أنا الخَطرُ البهيُّ
حِجارُه منّي حِجار

خُذْني، شِوارُ، إليكَ ... خذنيَ
بَعْدُ ... قل : أخذاً بثار

أومَا أنا مَنْ غَلَّ صخرَكَ
مثلما زَنْداً سِوار ؟

حاورتني، عارٌ عليَّ
تكونُ أنتَ النِدَّ، عار

أنا، لو ذكرتَ، رَبيتُ وَسْطَ
الطعن أو رنِّ الشِفار

بيني وبينَ السيفِ، لا إلّاهُ،
قد طاب الحِوار

أيا شطّ

مَن لي، أيا شطُّ، بمن
يهذُر لا يسكُتُ مثلَكْ ؟

في الحرب، في نَحْتِ رُبى
الحُسنِ وفي زهرةِ لَيْلَك ...

لَخاملٌ كالميتِ مَن
ما حُرّ يَبيضُ ويَحْلك

كالموجِ يَمضي يضرِبُ
الأرضَ بنهدِ الأرض أفلك

عزمي،لكان السيفَ لو
أنيَ بالخلجانِ أُسْلَك

أغدو أنا اغنيّةً
تُهلِكُ من صخرٍ وتُهْلَك

يا شطُّ، لِمْ ليست جِراحاتي
على الأيامِ أهلَك ؟

ما بيننا تسكُنُ كالحُبِّ
وتستشرِفُ سُبْلك

يَبْرُد قلبي ... فتناديه
أنِ اشعَلْ أو أَملَّك ...

يا شطُّ، يا أجهلَ مَنْ
يهدأُ، علّمْنيَ جَهلَك

إليكِ، يا غزير

إليكِ، يا غزيرُ، يا ذاتَ الولَهْ
اغنيةً حمراءَ كالقرنفُلَهْ

جَدّيَ في أرضكِ هام بالتي
اختطفها تُعلي وتُغلي منزلَه

وقيل لي كانت، كما الشموخُ في
جبهتِها، كاملةً مُكمَّلة

لو أنّني أعرِفُها سألتُها
عن خصرِها يومَ جَدّي زلزله ...

وكيف كانت مَعَهُ على الحِصان ؟
طَلْقة القامةِ أم معتدله ؟

وهل دراها فوق حقلِ سُنبلٍ
وقبّلَ الفمَ الذي ما قبّله ؟

بشَعْرِها هل ظَلّلتْهُ وارتمى
على حريرِ شعرِها ودلِّه ؟

قريةَ جَدّتي الغنوجَ، أومئي
بمثلما كانت ضُحىً تومىءُ له

أُحِبُّ أشجارَكِ باقاتٍ على
الطريقِ والشمسُ بها مشتعله

وأنا ضائعٌ كما اسمُ بطَلٍ
في قِصّةٍ ... تبدأ من قَرنفُله ...

تُمطِر

تُمطِرُ أو تَبكي دُرَرْ
وأنَّتَينِ من وَتر ...

أُحِبُّها أُحِبُّها
ليلتيَ الملأى خطر

كأنّها جاءت مِنَ
الكتابِ، من بَرْدِ الصُور ...

وحُفرتْ في خاطري
بقلمٍ من القمر

لذيذةٌ ككحلٍ صعبٍ
وكرِخْلاتِ الغجَر

ضجيجُها ضجيجُهم
مِن فرحٍ ومن عِبَر

وأنا في فِراشيَ
الوثيرِ، أسرِقُ النظر

إلى اهتمامِها بنا ...
بدارِنا ... وبالشجر ...

نحن تُغنّينا، ودارُنا
تَردُّها شَرر

بُروقُها، والشجرُ
العالي تلوّيه غُمَر

يا ليلةَ الشتاءِ، لا
تنسَيْ أنا ... أنا بشر

مثلَهُمُ أَذهب أنّى
شئتِ، مجنونَ سفر

مثلَهُمُ ... ألا اقرئيني
في حكايةِ المطر ...

غمام

لي مع الغَمامْ،
لو دَرَوا، كلام

أمس ِ، سمِعتْ
بعضَهُ النِسام

ــ ظَلّ ابيضاً
قلتُ، أو أُضام

كغِلالةِ
ظَلَّ، أو كجام

شرِبتْ به
خمرَها الأنام

ما النُعاسُ إن
مَرَّ بي لِمام ؟

ما الشُعاعةُ
انكسرتْ حُطام ؟

أنا منزلي
أنتِ، يا رُكام

لُؤلوءِ ويا
جانِحيْ يَمام ...

يا غمامُ، لا
تردُدِ السلام

ظَلَّ صامتاً
وليَ الكلام ...

قديم...

أُكْتُبْ على الريحِ ، أكتُبِ
الكلماتِ اوجعَها الحنينْ

ماذا ! القديمةُ ؟ لا عليكَ ...
اقرأْ غداً مَيْداً ولِين

ليس القديمُ سوى سياجِ
الوردِ مُنهدّاً طعين

عنه تَلُمُّ لِترشقَ
الزهَراتِ أجملَ ما غَوِين

قالوه : صُوِّح ؟ ... جُزْ بنا،
القوّالُ، جِيرتُه تَشين

إنَّ القديمَ أُحبُّه
كالليلِ لم يبرحْ حزين

يكفي أن ِ اعلولى ... جديدٌ
كُلُّ مُرتفع الجبين

لي عمّةٌ من قال مائتْ ؟
هل يموتُ الياسمين ؟

مسَحَتْ على فمها يدٌ
مِن فوقُ، قالت : لستِ طين

ولَها ذِراعانِ الصباحُ
على الصباحِ له رنين

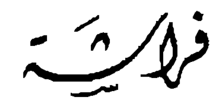
أتُرى الثمانونَ الصِبا ؟
اختُنِقَهُ اختنُق الهَمٌّ الدفين

أُكتُبْ فأحرفُكَ الرضى
بعضُ القوَامات اشتُهين

أو فامْحُ تسلَمْ ... لا ضمِنتُ
تَلفُّتاً صوبَ العرين

الشمسُ تسبُّرُها بأنْ
تُسبى بِها مذ تَستبين

دَعْ عُمْرَهَا ... عُدَّ الجمالَ
ولا تعدنَّ السِنين



اغنيةٌ ما إنْ لها مَقَرُّ
تمرُّ بي اجملَ ما يمُرُّ

عيني لها ؟... لا والنسيمُ غاوٍ
يَحفُرُها بي والجمال حَفْر

في قَعْر بالي وقْعُها وفيَّ
القَوامُ ... وانسكابةٌ... وخمر ...

حسناءُ ام قولٌ بِها ؟ ... تلوّعْ
واسكر ... فأنت شاعرٌ وشِعر

أم عِقْدُ وردٍ هِيَ ؟ ... سَلْهُ سله
عُنْقي الذي منها لواه عِطر ...

فأنا بعدَ لفّها بزندي
أضيَعُ ما به يَضيعُ عُمر

كانت ؟ ... لَرُبَّ ... اناذا رَمتْني
زهْراً وقالت : هل يُلَمُّ زَهْر ؟

فَرَاشتي، هل تعرفين شيئاً
عنكِ؟ ولِمْ أنا وأنتِ سرّ ؟

غذاؤكِ اللون ... الجمال ... بعضٌ
من قُبلةٍ لي ... والعناق حَرٌّ ..

مِن بعدها تحمِلنا وتمضي
ارجوحةٌ خيوطُها تكِرّ

على الرياحين ... على الثواني ...
على زماناتٍ لنا تِفرّ

صفراءُ، إن قلَّ الوجودُ يوماً
أنا وأنت والربيع كُثرْ ...

شَوك

شوكُ، من أنتَ ؟ ... أكَسْرُ
البُغضِ اغصانَ الوجودِ ؟

هبّةُ الريح لِجدوى ...
مَيسةُ النبت لِجُود ...

جَمرةٌ تُدفِئ، حصباءُ
تُقوّي مِن جُرود

أنتَ لِمْ أنت ؟ ... لِقول
اللاَّ؟ لِتسديد الوعيد؟

آنَ لا تُدمي تَظَلُّ
المُخْوِفَ الوغْدَ الحدود

كَفُّ ربي، صنعُها انت ؟ ...
الا، يا أرضُ، ميدي ! ...

أنتَ في اللوحةِ نِسْيانٌ...
وغَصٌّ في النشيد...

رُدَّ عنّي وجهَك الجَهْمَ،
انا البسمةُ عيدي

اسَع المُبغِضَ، امّا
البغضُ فليبقَ طريدي

ليس شِعري لسوى. الحبِّ،
وللوردِ النضيد

أُسكُنِ الوردَ، أيا شوكُ،
ولا تسكُنْ قصيدي

فَوَقْ

يغمُرُ القِمّةَ ضوءٌ ليس يُعرَفْ
يا تُراه العمرُ في القِمّة أكثفْ ؟

إحمِليني، يا هُنيهاتُ، الى
فوقُ، ولْألْبس شُعاعَ الشمس مِطْرَف

فوقُ، في هذي الجرودِ، انفضحتْ
آهةُ الحُسن وقد كان تعفّف

مِثلُنا الحسنُ. يُغنّي ... يَنتشي ...
ويُحِبُّ الحسنُ حتى قيل يَتلَف

يَطلُبُ الأكثرَ ... لا يَرضى بما
هُوَ ... يَستشفي بجرحٍ ... يتأفّف ...

سائلاً لِمْ هوَ ثاني المنتهى
لِمَ ما حطَّ على الغَمْر ورفرف

ــ أنتَ، يا خالقُ، مذ شئتَ المُنى
شئتَني، قالَ، من المُنية أطرف

كِدْتُ أعصاك لأني موجَعٌ
بي ولكنّيَ بالماأنتَ مُذْنَف

ما انا الحسن ؟ ... ويرنو الله للحسن
يلقاه على العصيانِ أشرف

هَزَّني الشوقُ الى فوقُ ... ولَم
اترفَّقْ ... ها أنا ألْطَفُ ألطف

فوقُ في القِمّة، ما لي أدّعي
أنني باللّٰه، يا أللّٰه، أعْرَف ؟

الجَرَّة ...

أنتِ مَن ؟ ولم نَعُدِ
شابكَيْ يدٍ بيدِ ...

زنبقاتُنا وجِعَتْ
لِقَوامكِ النكِد

سألتْ وما سألتْ
عن غِواكِ والغَيد

هل تُراكِ طائشةً
أم هواكِ عن رشَد ؟

جَرّةٌ على كتِفٍ
فالوجود في بَدَد!

بنتَ جارنا، التفتي
أنا منكِ في صدَد ...

جرّةٌ وما حَملَتْ
فوق شالِكِ الغَرِد

يكفيان غيرَ فمي ...
يُرضيان غيرَ ددي ...

بنتَ جارِنا، انتبهي ...
لي سُويعاتُ مُبترِد

إنْ مياهُ بِركتنا
شاكستنيَ ... انوجدي ...

علىٰ شَعْرِ ابنَةِ الريح

على شَعر ابنةِ الريحِ
انا ضيّعتُها روحي ...

رفاقي، صائدِي الوهمِ ...
اكتبوني، بعد تجريح،

على السَهمِ ... على الوهمِ ...
على زَهْرِ التواشيح ...

على شَعْرِ ابنةِ الريح،
وقد راحَ الضُحى يوحي ...

تسلَّقْتُ الى الوردةِ
طارتْ غِبَّ تفتيح !

إلى آونةٍ، مِن فوقُ،
عصفِ الريحِ بالشيح

إلى مذبوحةِ الأنجم
لا تَشقى بمذبوح ...

أناةً ! لا تردّوني
إلى أرضِ التباريح

رُبىً لم تَدْرِ أن الشمسَ
شَعْرٌ رهنُ تسريح ...

صِحابي، أنذا وردٌ
على شَعْرِ ابنةِ الريح !

هُنيهاتُ، يا وَرقاتِ الزَمن...

هنيهاتُ، يا ورقاتِ الزمَنْ
على مَهَلٍ أو أهِي من شجنْ

أخذتُنَّ في الركضِ .. خَلِّينَ عنكُنَّ ...
ركضُ الهُنيهاتِ لا يُعتلن

أكاد أراه ... كأنَّ الخريفَ
تناثَر في لَفتتي ... مُمتهَن ...

هنيهاتُ، لوِّحن قبل الذهاب
كما شَمَمُ الفكر قبل الوسَن

أُحِسّ تناثرَكُنَّ كنهرٍ ...
وأمضي على النهر ... تيّاهَ فَن

تكاسَلن .. أو أُجرحَ الليلَ والفجرَ ...
والنفَحاتِ التي من عدَن ...

زمانَ تأنّى الإلٰهُ فركَّب
حواءَ من « نعمَات » و « لَن » ...

كأنْ خطَّ في اللوح ان التمنُّعَ،
رُغمَ التولّه، شرطُ الحسَن

فقال وما قال ... وافتُتِن الكونُ
باللايكونُ وراح يُجَنِ

وها نحن نَمشي على الورَقات
ونصرُخُ : لا ... يا احتضارَ الزمن ...

العمود المنكسر...

بقيةٌ ؟ ... ما همَّ ؟ يا عمودْ
لكمِ غويَتَ النجمةَ الودودْ

فوقُ تمايلتَ كما العُلى
مُناخُكَ الصبُّو والصعود

لِكلِّ لاعبٍ شبابُهُ
دَعْكَ ؟ فما شبابُكَ الخلود

حملتَها السماءَ مرّةً.
يكفي ... فما للأَبدِ الزنود

تَظُنُّكَ الأرزَ ؟ لذيذٌ الطموحُ
والجَهْدُ ... وأن تَجود ...

لكنَّ للقُدرة حدَّها،
ووحدَه الخالقُ لا حدود

تَغوى ! تُرى اشتقتَ الى التي
فوقُ، الى قامتِها المَيود

جِنيّةٌ في بعضِ نجمةٍ
تعيشُ ... أو في الحُلْمِ والوعود :

أنتَ كبيتِ الشِعر، مُسْلِسٌ
يوماً،ويوماً حَرِنٌ شَرود ...

ان دَقَّ لم يُمْنحْ فطَنّه
مَن ظنّه محطَّماً كعود

حتى اذا ألوى عليه مَن
يَحبِس فيه البرقَ والرعود

قلتَ، وقد ذُهِلتَ : هل إلى
بيتٍ من الشعرِ انتهى الوجود ؟

عمودُ، لا تَنْسَ الربيعَ، لا ..
أجملُ منه أنه يعود

وَرَدَة

ساقُها والورَقْ
أختُ ذاكَ الشفَقْ

سألاني بها
رِفْقَ قلبٍ رفَق

غمَزا : لا تَكُنْ
حجراً من بلَق[1]

---

١) رُخام.

مُسَّ بالعينِ ، لا
بيديكَ، الألق

أجملُ الأخذِ : ما
أخذهُ بالرمق

حُبُّه بالرؤى،
عُمرُه بالحُرَق !

شمُّها مِن بعيدِ
كبرقِ برق

أو كسهمِ الى
آهتَيْهِ انرشق ...

أنا يا ليتني
بعضُ حُلْمِ صدَق !

هَمُّ لونٍ وهمٌّ
شذاً... أو أُشَقّ،

فوقَ صدرِ الرُّبى،
وردةً تُنتَشَقَ...

تلال

لُعبي بها ... وقال ...
تلعبُ بي ... التِلالْ ...

هذي كطفلةٍ
دوماً لها السؤّال :

« أنتَ مصوِّري ؟
لِمْ زدتّني ظِلال ؟

لِمْ شئتَني صدى
الأُغنيّةِ المُحال ؟ »

وتلك ترتئي
أني وجيعُ حال ..

قال أُحبُّها
حُبَّ صدٍ لآل !

لكنَّها ولو
أموتُ لا تُنال ...

أنا ؟ دعيكِ، يا
مفضوحةَ الدلال ...

مَنْ، طيَّ لفتتي،
وقعتِ من جمال

وتحت شِقٍّ
غزّارتيَ السِجال

قلتِ لقبلةٍ :
هذي أنا اشتعال...

تلالُ، شِلتِ بي
كالريح، يا تِلال ...



هَجَرَنا ـــ اسألْه : لِمَ ؟ ـــ الضِياءْ
يا قلب، واحلول ِ كما المساءْ

كان لنا ؟ ... ها نحن لَمْ نزَلْ
له ... اشتياقٌ نحن واشتهاء ...

هجرَنا الى الذُرى ... فقمْ،
قلبِ، اليها نَسَماً وماء ...

قلبٍ،ولا تَظُنَّ غيرَنا
الندى ... ولوْنَ الزهر والنَقاء

ونحن مَنْ يبهو لمرّةٍ
ومَنْ يظلُّ ابداً بَهاء

خُذني الى المساء ... خُذْكَ ... خُذْ
حبَّكَ والسموَّ والسماء ...

تقول : قد لا يذكُر ؟ ... ارتفِقْ
به فلا ساء ولا أساء ...

يُحِبُّنا المساءُ ... بيننا
وبينه ما ليس لانتهاء ...

« ذاتَ مساءٍ » قولةً لنا،
نحن اخترعنا كَلِمَ الوفاء

غناءُ عزْفه ِ ــ وما انتهى ــ
نحن، ويُفدى العزفُ والغناء

يَنتشرُ المساءُ في الرُبى،
ونحنُ في الرُبى وفي المساء ...

نَبْع

إرمِني، استلذُّ
المرتمى، عند نبعَهْ

لا لأني حَرورٌ ...
انا أُكفى بِجَرعه ..

ما بماءٍ هُيامي ...
وادعُني النَبْعَ ... أُدْعَه ...

بينَنا مثلُ قُربى ...
بيننا مثلُ لَذعه

فكأنْ كان نبتاً
وكأنْ كنتُ طَلْعَه

أو هو الهُدْبُ ... ولْأيقَ
على الهُدبِ دمعه

ودَّ مَن ودَّ لو أنَّ
له ثَمَّ ضَجعه ...

ولـه مرجةُ النبع
مِن الخلدِ رُقْعَه

أنا ؟ لا ... والتلوّي
منه ضيَّقتُ ذرعه ...

إرمِنِي عنده ارمِ ...
المنتهى لاح خُدعه

تعرف النبعَ ؟ ... شمسٌ
ذاك ! ... والناسُ شمعه ...

نجوم

فوقَ ما أنتِ ـــ ويحَ حسنٍ ! ـــ تُغنّين ؟ ..
ألا لو تعِبتِ، لو ... يا نجومُ

وقعَتْ مرةً عليّ من القُبّة،
مِن فوقُ، آهةٌ وهموم

ما الهمومُ ؟ ارتجافُ لونكِ ... ما الآهةُ ؟
صوتٌ من الضياء مَلوم ...

يا نجومُ، اسكُتي ... أُحبُّكِ ... كأسي
منكِ ... غالي عُنقودِها ... والكروم ...

معَ أني لا اشرب الخمرَ ... أوّاه ! ...
أنا الخمرُ والهوى والنعيم ...

فخذيني اليكِ ... صُبّي الطِلى منّي ...
ونشقى ... وما سوانا يدوم ...

ما تُرى قلتُ ؟ ... تأخذيني أنا ؟ ... عفوَ
جنوني ... وما أرى وأروم ...

أنا مَن يحتويك ... لي زنديَ الهائمُ
بالحسن ... والزنودُ تَهيم ...

وأنا القبلةُ التي أغرتِ الليلَ ...
ومنها كان الصباحُ العميم ...

أشتهيك ... آنزلي وتطرَّفَ عينُ
الزهر منّا ... ويستجيبَ الشميم ...

وإذا تتعبين حُطّي على كُتْبيَ ...
كُتبي قصائدٌ ونجوم ...

رُبَى!

تَعِب الإبا
منكِ، يا رُبى

يا ركيزةَ
الصحو كوكبا

حُلْمُ مَن رَنا ...
نَقّشُ مَن صَبا ...

لا خُبئتِ والحسنُ
في خِبا،

وبقيتِ للشمس
ملعبا

لي طفولةٌ،
فوقُ ... لي شَبا ...

تَذكرينَ ؟ ... ما
كان أعذبا !

أنا، مرةً،
كنت مُغضَبا

ففهمتِني ...
قلتِ : مرحبا !

فوقَ صخريَ
اشحَذْهُ طيّبا

سيفَكَ الذي
صالَ ما نبا

يا رُبى ابنةَ
العزم والصِبا

أنبِئي ... اذا
يَصدُق النبا ...

أنني الرُبى
يومَ لا ربى ؟

مَن تراها ابنة المنتهى ؟

مَن تُراها ابنةَ
المنتهى ؟ شجرَه ؟

ام صِبا قامةٍ
فوقُ منتصره ؟

لا تصدّقْه لا
حجرَ السَحَره

خَطٌّ انسانةٌ ...
قُرئت نَمِره ...

أُنظُرِ، انظرْ الى
عينِها شَزِره

أخرست دمعةً
لِلضحى كدِره

صيَّرت قُبَّةَ
الشمس منتحره

فأنا والهوى
والدُّنى العطره

تحتَها لم نرَ
المنتهى لم نره ...

وادّعينا ... فلِمْ
يكذِب البروَه ؟

ويحَ مَن شِعرُهم
ابداً شجره !...

بَحَر

أبيضٌ مِن غضَبٍ ... هل
يَضرِبُ الشطُّ ببالي ؟

صفحتي، هذي التي
أكتُبُ، رجٌّ متتالِ

كَلِماتي النارُ ... بعضٌ
مِن مجاذيفِ ارتحال

لَيَ مِن نغمتِها ما
لَيَ من هَمِّ الليالي

طافرٌ فيها ... وتحتي
زورقٌ مجنونُ حال

بعثتهُ الحُلْمَ يوماً
غجريّاتُ الجمال

وإلى أين ؟ ... سَلِ العاصف
أو هدَّ الجبال

أنا بين الشيءِ واللاشيءِ
مرميُّ المآل

لونُ عينيَّ به أضرِبُ
والكونُ سؤالي

أتُرى الردُّ أن ِ أخلُقْ
أو فزِدْ حَبَّ الرِمال

لا ولا كنتُ لعطشان ِ
الفَلا لَمْعةَ آل

ليضِعْ فيَّ أنا البحرُ
ويولَدْ في خيالي

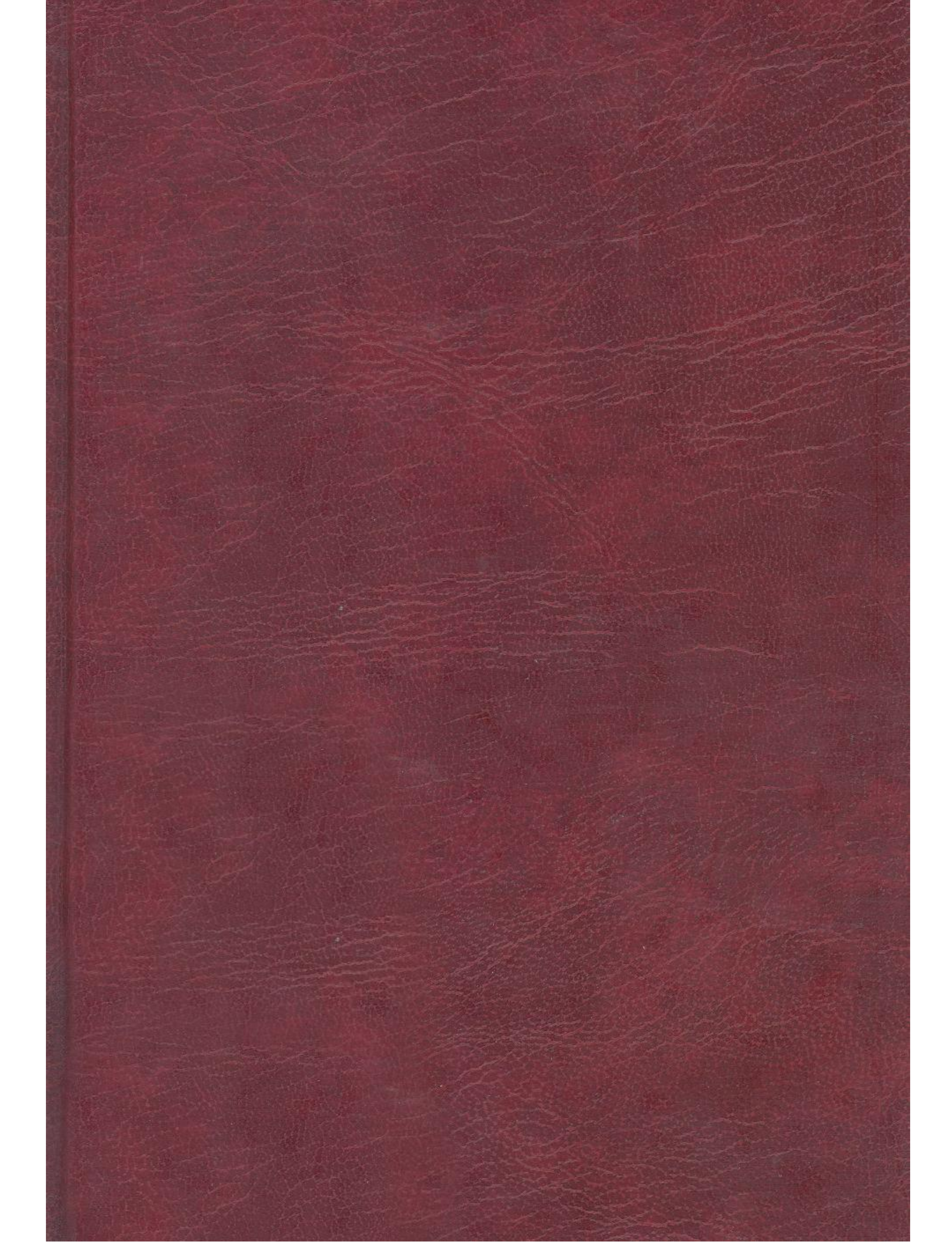
واذا أشهَقُ أو أغرَقُ
في أبيضَ عال

قلمَ الهول ِ، ألا
اكتُبْني على الموج ِ لآلي

فهرست الكتاب

فهرست المجلد





سعيد عقل

شعره والنثر

المجلّد الخامس

كتاب الوَرد

قصائِد مِن دفترها

نوبليس

سعيد عقل

شعرُه والنثر

المجلّد الخامس

كتاب الوَرد
قصائِد مِن دفترها

نوبِليس

للمؤلف

بنت يفتاح	الطبعة الأولى ١٩٣٥ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١ (مصححة)
قدموس	الطبعة الأولى ١٩٣٧ ـ الطبعة الرابعة ١٩٩١
المجدلية	الطبعة الأولى ١٩٤٤ ـ الطبعة الثالثة ١٩٩١
رندلى	الطبعة الأولى ١٩٥٠ ـ الطبعة الخامسة ١٩٩١
غد النخبة	الطبعة الأولى ١٩٥٤ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١ (مصححة)
أجمل منك لا	الطبعة الأولى ١٩٦٠ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١ (مصححة ومزيد عليها)
لبنان ان حكى	الطبعة الأولى ١٩٦٠ ـ الطبعة السادسة ١٩٩١
كأس لخمر	الطبعة الأولى ١٩٦١ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
اجراس الياسمين	الطبعة الأولى ١٩٧١ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
كتاب الورد	الطبعة الأولى ١٩٧٢ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
قصائد من دفترها	الطبعة الأولى ١٩٧٣ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
دلزى	الطبعة الأولى ١٩٧٣ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
كما الأعمدة	الطبعة الأولى ١٩٧٤ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١ (مزيد عليها)
الوثيقة التبادعية	الطبعة الأولى ١٩٧٦ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
خماسيات الصبا	الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلّد الخامِس

كتاب الوَرد
قصائِد مِن دفترها

كتاب الوَرد

الطبعة الأولى ١٩٧٢
الطبعة الثانية ١٩٩١

غصبات الناي



رأيتكِ... « أنتِ الجمال »، قلت ؟
لا وانما غفرتُ للدنيا زلازلها والحروب، لأن عينيك ذات يوم وقعتا عليها.

* * *

اليوم ولدتُ في الشعر.
زارتني عيناك.
وفي اذني دحرَجتا لي أُكراً من كلماتك، فيها النار والربيع.
وفيها انتِ.

أمس لم تعرّجي عليّ.
صدرك ما نقشته في الهواء.
قصرنا ما اشرقت فيه الشمس.
الأبراج قَلَّ علوّها. ورملا، رملا تافهاً، بات رُخامُ كرّارا.

* * *

امس التقينا على ضفاف بردى.
سألت صفصافة على النهر: «ما يزال يُوجِعُكِ خصرُها ؟»
وخيّل إلي أنَّ شعبا استفاق على تَغَزُّل شاعر.

* * *

مزهوةً بي، فرحة، شهدتُكِ صبيحةَ أمس.
لكنك، وأنت في جنّات سهلنا، تلك التي آثرتْهـا افروديت على الأولمب، وفي غاباتها أُحبّت ادونيس، لم تشهدي الشمس تتسرَّق النظر إلى جسمك الالهي ثم تغمزُ النجوم...

* * *

اليوم لن نلتقي.
في عينيك، لن اسافر الى آخر الأرض.
ولن اشهد بزوغ الابتسامة على شفتيك.
الابتسامةِ التي تُحيي وتميت.

* * *

أنتِ ستكتبين حياتي ؟
ولكن حياتي نقشتُها انا شعراً لا يموت، منذ زلزلني جمالُ قدّك، وقالت لي أصابعك الضوئية:
« سأحملكَ على اللهو بالوجود ».

* * *

قال كنتِ أمس مُوجعة؟ تصورتُ خيوطَ الشمس رَجعتْ إلى أمِّها، كاسفةَ البال، تقول: « التي خُلِقْنا لنفرش دربها بالضوء لازمت فراشَها. الناس لم يشهدوا الجمال يزوبع في الطرق ».

* * *

انقضى عمْر، يا إلهتي، وأنا لم أسمع صوتك.
الطيبةُ هجرت بيتي، وهجَرها الجمال.

أنا نفسي قَلَّ اندفاعي الى محاكاة يد الله.
عودي. قصيدةُ الوجود تكاد تتبعثر.

* * *

بلى أعرفُك.
ولكنني، كذلك، أعرف نيساناتِك السبعةَ عشر.
أنتِ للاّ وهن للنعم.
ويا ريشتي، اكتبي لهن لا لها... بعثري العجب، زلزلي الشمس والقمر.

* * *

وددتِني لفظةً في قصيدة، تقولين ؟
أنا وددتُني هبّةَ نسيم تدغدغ غرّتك، وقد شرد اسمي ببالك... وأصغيتِ... وطاب الشعر...

السبعةَ عشر ربيعاً التي احتويتُها بذراعيّ... تطلّعَتْ في ما بعد الى الأفق.
هَتفت غامزة:
وحدَنا أنا وأنتِ، ايتها الشمس... ولا تَنسَيْ حبيبي...

* * *

معستِ قلبي: أوهمتِه أنّني لن أُحِبّكِ.
لكنه لم يصدّق.

قلبي، فيما يُفرفر فراشةً بين الزهور، أحسه لا يَهتمّ الا لِزهرةٍ.

تلك التي قال انه منها هَرب، والتي لا أجملَ منها الا هي.

. . .

سحابةَ اسبوعٍ ما لمحتُ لكِ وجهاً...
« استبد بي الشوق »...

خلتُنا، أنا وهذه الأرض العطشى، ذراعاً تنفتح وسع الأفق لتضمّكِ، ايها السرابِ الذي أجملُ من الجمال.

. . .

تكتبين إليَّ أنّكِ تجمعين كل ما أخطُّ من غزلٍ ؟
خذي هذه بدبوسٍ وعلّقيها على صدرك: « أموت... أموت لرِقّةِ هدبٍ به تَمسحين ضجرَ الوجود ».
أنت بعضُ سماء.

. . .

زُرتِني، تقولين؟
كيف تزورين من ما وُلد بعد؟
قولي، بالاحرى: « يومَ تأرجحت قامتي الطيفيّة في حجرتك، خُلق على أصابعي شيءٌ اسمه انت.
« وغمستَ عينيك في اناقتي.
« وقال... بدأ الشعر... ».

* * *

الليالي تَمرّ ؟
والغمام والوجود ؟
لكن طعمَ شفتيك أطيب منها، يا حبيبتي.
فلتمرَّ فلتمرّ. من جديد أنا اخلقها.

* * *

هذا الصباح، ولم أكن اقفلتُ شُبّاكي، استيقظْتُ، فاذا الشمس في أهداب عينيّ.
استجملتها هذه العارية...
كدت اخلط بينها وبين جسم أعرفه يزلزل المستحيل.

* * *

في احواضنا، على بعض الشبابيك، وردَةٌ وجميل. مرَّة تلفهما الريح فتقولُهما في عناق، واحياناً تخالهما تعاتب الواحدة الآخر؟

ويردّ:

ــ لا، يا وردة، لا تغضبي. الريح عارضة وانا الباقي. وعليّ أن أهيّئ العرش. اذ، على الزهر جميعاً، ينبغي ان تتسلطن الوردة.

* * *

انتِ في بيتنا ؟!

لا اصدق.

والا يكن بيتُنا الريح...

او حديقةً في الفضاء يشيلُ بها طيرُ الرُّخ.

وانا اغنية...

* * *

أُريدُكِ تظلّين ساهرة.

والاّ غرقتُ كما لياندر. وانت كما هيرو لحقتِ بي إلى اللُجّة.

ما قِصتُهما ؟

كُلَّ ليلةٍ، كان لياندر يجتاز مياه الألشبون سباحةً ليلتقي هيرو على الضفة الأخرى. وكانت هي تُشعل له قنديلا يستعين به على ظلمة الليل. وذات مرّة أطفأت العاصفةُ القنديل. غرق لياندر. ومن يأسها رمت هيرو بنفسها في البحر.

* * *

أن أحبَّ انا ؟
انها أن أصبحَ المغنيّ والأغنية...
وحتماً ستسمعين.
وحتماً تجيئين.

* * *

لا لا تقولي: « وحدها الغمامة البيضاء تسكن السماء ».
انا، كذلك، في قلبي سماء...
وبياضك أنقى مِن الذي للغمامة.

* * *

من بعيد، سمعتُها تتساقط، على وجنتيك الزنبقيّتين، عبراتٌ أجملُ من جناحَي ملاك.

أحسستها تقع في قلبي.
او تبكين بسببي؟
خجِلتُ خجلت.. لأنني، اكراماً لواحدة من تلك العبرات، لم أبدِّلْ وجه الدنيا.

* * *

ستجيئين!
ويكوكب بيتنا.
وتصبح السنة بِخمسة فصول.
ومن الربيع الآخر يغار الربيع الأوَّل...

* * *

كتبتُ اليك وردة...
وقّعيها أنْتِ بقبلة...

أمس وحسب، وقع عليك نظري.
واذا أمسي وردة.
وتعطَّر الأزل. وعلى الأبد، وَقَع اللونُ الأنيق.

* * *

يقولون ان كل شيءٍ سيتبدل، سيزول. الا ثلاثةً: الحبُّ والضحكَ وبَرْءَ الجمال.

ويذهب بالي اليك... وأغدو بارساً جديداً يرميك بَدْلَ الواحدة بتفاحاتٍ ثلاث...

* * *

أحببتُكِ.

ضِعتُ في الجمال.

ونسيتُ أن النجوم ليست تفاحاً على شجرة أقطِفُه وألعب...

* * *

عَنْ ريشتك وحُسنِك تسألينني.

أيهما، تقولين، جعلكِ حبيبة القلب ؟

اسألي، بالاحرى، السماء المكوكبة. أأنا أبعث اليها بعيني أم أنا اليها أطير ؟...

* * *

أنا لا أجيد كتابة الرسائل.

استنبيك في تدبيج واحدة أبعث بها إلى إلهةِ حُسْن.
ولكن، حذار ان تتقنيها.
أبعثُ بها اليكِ.

* * *

الطبيعةُ سَجادةٌ لك...
قدماكِ، زوجُ الحمام، متى تنطنطان ؟...
عودي، النايُ ينتظر، وفي قلبي تُشرِقُ شمس.

* * *

ــ ستجيئين، قلتِ؟
اتركي الدنيا وراءك، والحاضرَ، والغد.
اكتفي بان تأتيني بكِ في هنيهةِ جمال.

* * *

متأخّرةً جئتِ إلى الوجود.
الشمس قال...
كانت قد خَلعت على الارض ملايين من نهاراتها...
مَنْ يصدق ؟
أرضٌ ماوقعت عليها عيناك، تراها كانت في الوجود ؟

عيناك الرحبتان كرَبيع، انهما اللوز وأُفق الذهب والحياة والموت.

* * *

تَخاصَمْنا ؟
ولكن تجرّئي على القول: « غداً، البنفسجة بلا عِطر ».
هذا الصباح، سيكون عناق.
وفي الروض ستهتَزُّ اغصان.

* * *

لِجمالِ صدرِكِ كتبتُ أغنية.
الرمانتان التقليديتان استبدلتُهما بصباحين.
وغمزتُ الوجود:
ـ انت تملكُ صباحاً واحداً، قلت.
وحسدني الوجود.

* * *

هذا الصباح، في الجِواء، مع نزول الشمس على شباكي، قشعريرة.
جفناك، ولا بد، انفتحا صوبَ بيتي.

تحدثينني فأُحسُّ الياسمينةَ تَكبُّ شذاها.

تراها، يوم خلقت في اول الدهر، كانت مسودّة ما سوف تكونين ؟

° ° °

السيف وجِسمُكِ، الذي من شمس، تساءلت اليوم ايهما اطيب على العناق.

° ° °

رأيتُكِ تدمعُ عيناك لأنَّ الجبهة لم تُتح لي ان أُلاعب الموت.

ما كان أجمَلكِ.

وهكذا مَرَّ ببالي أن أحيا.

° ° °

جسمك البلوري البضّ ؟ لقد أسكت التحفَ على الجدار وفي الكتب.

غمزتُهن ان ينظرن اليه.

° ° °

في أول الدهر لم تعرّجي على بيبلوس.
ذاك الذي كان يحفر حرف ألف تلعثم بيده المنقاش.
مِن قوامك لم يعبِّ عينيه.
إلى الابد ستكون الألف مشوبَة الاناقة.

* * *

جَوُّ ساحلنا موجع.
قلبُ زهر الليمون قلّت خفقاتُه.
هذه الصبيحة سأعوضه بالفرح.
ستجيئين.

* * *

أمس خيّل اليّ أنَّ الوجودَ لم يكُن خُلق بعد.
وحدَه عُرَيْكِ البض كان خُلِق. وحدَه عريُك البض كان
السماء والارض، المتململتين في بال الله.
وكانتا أُهنأ.

* * *

نطنطتُ مع الفراشة.
أنزلتُها قصيدةً في كتاب.

غداً، تقولين،ان القصيدة على جمالك، وانك انت التي بذرتِ النجوم في الحقول.

* * *

قرأتُكِ.
احسستُني الريح: أحيا، أقتلع الشجر.

* * *

كتبتُ قصيدة على ورَق الصدى.
وحده أسمُكِ بقي لي وللجمال.

* * *

سكتُّ.
رحت استمع الى عينيك، يا حبيبتي، تقولان البرْقَ والمروج وحقلاً مِن نجوم.
وأُولد أنا...

* * *

امس لم اكش عصفوراً عن قمحات البيت، التي كلَّفتني أمي حراستَها...

تذكرتُ انك تُحبيّن العصافير.

* * *

كلما زرتِ عشّنا، تركتِ كلماتٍ على ورقة.
وأعيش.
أمس، كان قلمك، على ما يبدو، قليل حبر. تركت
بياضاً على الورق.
ها أنا أضع عليه خدّي... واقرأ...

* * *

هذا الصباح، وقد استقبلتِ شعاع الشمس بعدَ مطر
نظمتُ شعراً على هُدْب عينيك.
وما نسيت ان اقول للشعاع: لا تغَر.

* * *

سأقول لك، يوماً، انكِ الليل واللذة والنار.
اليوم، انت الاغنية التي لقّنتني وطارت.
عيناكِ السودوان ها أنا أرشقهما بي، كأنك الوجو
وكأنني وردة.

* * *

كنت ترسمين...
كانت اصابعُكِ من قوس الغمام...
وشَهقْت...
لماذا لا تكون حياتي بعض خطوط، وانتِ القصيدة التي لم أكتُبْ بعد ؟

° ° °

أكتُبي لي على ورق الشمس.
بطَرْف عينك اكتبي... صباحَ تجيء الشمس تستحِمّ بين ادغال أهدابك الطويلة...

° ° °

ضِعتُ في هُدْبَيْ عينيك...
تراهما في الوجود ؟...
ردّيني اليَّ فأصَدّق !

° ° °

ردّيني اليَّ او أنسى عمري في عينيك الذهبيتّين...
ويولد كتابُ شعر...

أزهرَت لوزاتُ الجبل.
لمَ فعلتِ ؟
كفى الربيعَ انَّ فمكِ منقوشٌ عليه.

* * *

حياتي اغنيةٌ، شَرْط ان تغنيها.
قلبي عصفور، شرْط أن تأخذي في جَدْل القفص.
بقي ان أحذِّرك مني: أنا كالريح. لتكن ذراعاك الكون،
او تعجزي عن القبض عليّ.

* * *

لم تولدي بعد...
والاّ كان لي ان ادحرج الشمس على سريري.
وكان الوجود قد سبح معي في عينيك الذهبيتين.

* * *

مساؤك امس، قطفتُهُ اليوم زهرة.
متى الوجود كلّه مساؤك والصباح ؟
هذا المساء لا تمرّي على بيتنا.

أكون لا ازال منهمكاً في جَمْع قِطَعِ الشمس، التي تركَتْها قدماك على سريري.

* * *

تظنين ان الشِعر نسيك ؟
استنطقيه.
هو نفسه يخبرك ان الورود التي في مِزهرياتكِ مسروقةٌ منه.

* * *

بين القبضات المستعدة لصنع الحياة من الموت، لمَع لي محيّاكِ تزينه عينان أجملُ من كل هنيهات العمر.
وفكّرت...
من أجلهما، كذلك، هاتين اللوزيتين، قد أُصبح بطلاً.

* * *

جئتِ بيتي وهو خالٍ من باقات الزهر.
لا تأبهي.
هكذا كان الوجود يوم زرتِ الوجود.
كلُّ زهرة سأدعوها، بعد اليوم، باثنين: اسمِها واسمكِ.

ردّيني اليَّ او أظلّ، على كرّ العمر، ساكنا عينيك اللوزيتين...
وتحترقان...

* * *

لم أجد على مكتبي، كالمعتاد، رسالَتكِ الصغيرة !
تراك، هذه المرة، كتبتِها على الصدى ؟
جوٌّ مخدعي لا يزال يسمع أصوات قُبَلٍ وتأوُّهات.
ما أجمل ان تيأسي من الكتابة.

* * *

العصفورةُ الوافدةُ من الجُنوب، هل تعرف ما تحمل معها ؟
نسمةَ جمال ستُفرغني من ذاتي وتملأني بها.
انتظاري عاد لا يَنتظر. عجّلي، يا عصفورة الجنوب.

* * *

ذهبتِ حارَّةً كجمرة.
انا قلت: الشمسُ انسحبت.
غداً باكراً، عند عودتك اليَّ، سأسأل: أيُّكما الفجر ؟

أمسِ، رأيتُكِ تتأملين السرير، قبل ان ترمي عليه قامَتكِ المثقلةَ الحُسن.
انا كنت لا أفهم لماذا خَلَقَ الله الورد.
بعدَها فهمت...

* * *

هُنَّ ما أثرُ جمالِهِنّ علي ؟
آنُ وَجَعٍ وينتهي...
انت ؟ أنا مريضٌ بكِ ولا شفاء.

* * *

بقلبي، لا باصابعي، عانقتُ يَدَكِ... إصبعاً من يَدكِ...
يوم ساعانقكِ انت، في ليلة بلا شمس، على صدري ستتدحرج شمس.

* * *

أنا ما عملتُ لكِ حتى خُلقتِ إلى هذا الحد حسناء ؟
يُوجعني حسنُك، يوجعني... أتسمعين ؟

* * *

كتبتُ اسمَكِ بكل اللغات التي اعرف.
وكتبتُه بلغة لا اعرف.
لربما ليغار نهارُ اسمِكِ من ليله...
وأغار انا من ضياعي بين حروفه.

* * *

قال، يا ربّة الجنوب، قال... انت السؤال.
وقال... الجواب هو أن أُطبِق عليك بذراعين كالليل...
وقال أَنْ قبلَنا كان الوجود...

* * *

سمعتُه صوت عصفورتي.
اعادني ابن سبع عشرة.
تراها ساحرة ؟
كان قد نفد الورق الذي عليه اكتب.
غمزتُ الشمس:
ــ تنزَّلي، قلتُ، سأكتب عليك. إسمُ حبيبتي سيغدو بديل بعضٍ من شعاعك ؟ لربما من أجل هذا وجدتِ، يا شمس... وتسلطنتِ فوق...

* * *

بعد أن وجدتُك، تعطّل الحُلْم.

كنت قبلاً اتوق إلى القبض على كوب بلور من رحيقه اسكر.

غداً عندما سأضمك إلى صدري، سأسأل: أينا، يا كوبَ البلور، انتَ ام انا، يُصبُّ للآخر ؟

* * *

كتبتُ لكِ شعراً.

من كانت تتملّكه الكلمة تملكها هو هو ، هذه المرة.

من أجل ان يقول الدنيا التي في عينيها الليليتين.

قولي، متى انت الكلمة ؟

وينبتَ للهنيهة جناحان... وبكِ تطير غصون اللوز...

* * *

بعيدةً كنت امس...

بعيدة عني كالسعادة...

جمالك هو، لا.

كان يدمرني.

وددتُني لو اكون طير الرخّ، الذي في الحكايات، ومغصوبةً غصباً اخطفُكِ وأطير...

كنتُ أحِبُّ الفجر...
وأسمع بالازميل يَعمل في الرخام.
بعد ان عرفتُكِ امّحى الرُخام وخيّل الي ان الأزميل ضاع...
جمالك جميل كأنّه انت !

° ° °

يمر ببالي ان أقول لك ما لا تصدقين:
ــ انك الوحيدة التي اوجعني حسنها. ووحدَه صمتُكِ الطفوليّ لن تدركه شُعَل الشموع ولا عطورٌ ولا أشعار.

° ° °

هذا الصباح ولدتُ على صوتك.
وحلمت...
وقال... كان الكون أغنية، وأنت بين نغماتها الكلمة العذراء.
هذا الصباح ولدتُ... كنت الشاعرَ والمغنّي وصاحبَ القيثار.

° ° °

لم تُفهميني أمس، يا معبودتي...
قصدت الى القول انني لأوّل مرة أحببت...
تصدقين ام لا ؟
هو يقيني...
فتشت عنكِ منذ لم أكن.
وجمالك قد أكون انا صنعتُه على صورة حلمي،
لأعطي أن أقول لله — كما فعلتُ عشية عثرتُ عليك:
« حقاً، يا خالقي، ان كونك ليستحق ان يُزار... ».

* * *

وسط خَدَري بسحر عينيك، اللتين تشقلبان الوجود،
وشعاعةِ ابتسامتك، التي اريدها تَلفُّني ونطير، كنت اتمتم،
أمس، بأنك عمري وحبّي الخالد والجنون...
لكنك، يا معبودتي، لم تفهميني ولا أنا كنت أفهم...

* * *

كرَّةً اخرى قولي لي انك تريدينني الى قولة « أُحبكِ ».
افعلي كرتين وعشراً ومئة.
فمكِ، وهو يطلبها، يغدو أجملَ وردةٍ قطفها قلبي.

* * *

ردّي على حبي...
حبي الذي لم يعرف سوى جمالِك أُغنيةً يغنيها...
ولكن، فيما أنتِ تفعلين، لا تنسَيْ ان تبعثي معه ببعض تذكار.
تذكارِ قبلاتك التي من شذا زهر الليمون في العشايا البحريّة،
آونةَ تروح ذراعي تضمُّ خصراً أشبهَ بكأس.

* * *

كُفّي عن كلام، يا حبيبتي.
وقْعُ أناملك على جبهتي، دعيه وحدَهُ يتكلم...
ولتَسرحْ اناملُكِ ولتسرح...
انها لتَحملُ اليَّ، من غيبٍ لذيذ، رونقَ وجودٍ وسعادةٍ وقبلةً لم يقطفها أحدٌ بعد.

أمسِ، وانتِ غائبةٌ، يا حبيبتي، وليس معي سوى الليل، رحت أُردّد شتى أسماءَ كنتُ أُطلقها عليكِ وأنا مجنون حبٍ، وقد طواكِ زندي لكي يطيرَ بكِ...
ويطيرَ بالوجود...

فتحتُ شُبّاكي هذا الصباح.
دخل شمس ونسيم، يا حبيبتي.
النسيم داعب شَعري، فتذكرت أصابعك.
الشمسُ لوّحتني، لكنني غمزتها أُسمعها أنها لا تزال أقلَّ منك تألقاً...
أيتها البعيدةُ القريبة، اقول لك هذا الفرحَ وقلبي موجَع...

...

لماذا لم تجيئي ؟...
الأغنية التي على شفتي ذبُلَتْ...
والحب في الكُتب اصبح بلا ورد وبلا قمر...

...

لا تزالين غائبة...
وهكذا لا تتخطّر في مخدعي زنبقةٌ فارعةٌ بحجم ضمتي...
وأبكي، بانتظار أن أنذهلَ من جديد وأسكرَ بالحسن، وأُجَنَّ قائلاً لفرحتي: أنتِ أنا، يا سعادة...
لا، لا تُطيلي الغيبة.

عادت قامتُكِ الفارعة، يا حبيبتي، لا تنبض على ذراعي.
تراها هي الزنبقة وزندي هو الصحراء؟
غيّري وبدّلي او يقلَّ زرعُ الجمال في الهنيهات.

...

مررتُ بحديقتكم أمسِ، يا حبيبتي.
وكانت بوّابتها مُشرعة! ولا أحدٌ فيها حتى البستانيّ!...
خُيِّل إليّ انها قلبي يوم ستذهبين.
مرةً أخرى لا تقوليها...

* * *

اخبرَتْني شقيقتُكِ انك اشتريتِ خاتماً.
وجِعتُ.
انا وحدي يحقُّ لي ان أُختِّمَ أصابعَ في نبل أناقتها بعضٌ من سرّ أشعاري.
حطّميه هذا الذي اشتريتِ أو أتحطّم...

* * *

مُرّي ببيتي، اليومَ، يا حبيبتي...

انه بلا وجهكِ كأغنيةٍ بلا شِعر...
لن تجديني،
لكنني متى عدتُ من سَفر سألملمُ حظَّ عينيك على أشيائي،
فاسكر،
وأعانق الهنيهةَ التي تكونينَ قد سمَّرتِها في الزمن.

* * *

عشيةَ أمسٍ، يا حبيبتي، رافقتُ صديقاً في زيارته لخائطة.
أُعجبت بفستانٍ...
أبت الا أن تهديتيه...
ها هو قد نام عندي... بانتظار أن يطلع الصبحُ فابعثَ به اليك...
اقلَقَني طَوالَ الليل...
خُيِّل إليّ، لوفرة ما هو جميل، أنكِ أنتِ في داخله...
غُرت...
وأحياناً مرَّ ببالي، في ذلك الليل، ان أُمزِّقه من فتحة صدرٍ إلى ذيل... وتشرق الشمس...

* * *

حياتي صحراء ؟
ما همَّ...
أنتِ كوني الوردة...
تُحبينني أنتِ أم لا ؟
ما همَّ...
أنا أُحبكِ.

* * *

مرورُكِ بي، أمسِ، جعل بيتي الصغيرَ طيراً بجناحين.
بيتي اليومَ يرفرفُ، يغنّي، يقول إنك في الوجود...
سألتكِ، كلما حطّ على الأرض، مرّي بي.
وتُجنّ الهنيهاتُ ويولد زهرٌ ما مرَّ ببال.

* * *

أنامُ في ظلّ عينيك العسليتين...
ينسِمُ عليَّ من شَعرك عِطر...
أُحسُّ كلَّ بساتين الدنيا تجمّعت.
قولي للورد الجوريّ، قولي له أن يسكت. أنا سكرت.

* * *

اولَ أمسِ، تكلّمتِ لا كحبيبة، يا حبيبتي...
تكلمتِ كزهرة تُحطّم إناءَها لأنها تودّع...
الإلهة تتكلم كخالدة،
ووحدهنَّ الإلهات خالدات...

* * *

تطنطتُ، أمسِ، في اغنية حزينة من أغنياتك، يا حبيبتي.
وتصورتُني على فمك أعيش...
وفي جرحةٍ من صوتكِ...
عِبرَ تنهُّدة تُميت وتُحيي...
سألتكِ كُفّي عن حزن أو يقلَّ اشتعالُ زهر اللوز.

* * *

ناديتِني مستميتة: « لا، يا حبيبي، لا تذهب ».
مع أننا كنا في ظلّ الياسمينة،
تلك التي تحتها ألبستُكِ الخاتم...
انت متوجِّسةٌ فراقاً ؟ لتغرِبِ الشمسُ عن الوجود ولا تغرِبْ عيناكِ الذهبيتانِ عن أغنيةِ حياتي.

* * *

لم تزوريني اليوم...
لكني أنا زرتكِ...
بالفكر، بالاغنيةِ، بقراءة اسمك كرجاً وتهجئة...
وخُيِّلَ اليّ انني كتابٌ وانتِ تقرأينني،
انني شمسٌ وأشرِقُ على وجهك،
انني الحبُّ وأضمُّك كذراع.

* * *

بصرتُ بك تشكّين وردةً على صدرك،
كانت لا كاملةَ التفتح، وكانت صفراء...
قلت لرأسي الذي كان يتدحرجُ على الريح: « أنتَ،
أنتَ أيها الموجَعُ، لماذا لم يُبدعْكَ الله وردة ؟ ».
وسَكِر للسؤال...
واستمرَّ يتدحرج...

* * *

همومُ الوردة



انتَ، أحِبَّ عليّ، انا لن احب عليك.
اعطِ نفسك الدنيا، لن أُعطي نفسي سواك.
شيئاً واحداً أطلبُ منك: لا تنسني.
وانا ؟ انا علمت النسيانَ الحب.

* * *

سُكري بأنني التقيتُكَ.
عيناي الذهبيتان أُغمِضتا عليك...
قل ان سجنكَ هناك لذيذ.

حياتي التي زرتها، يا حبيبي، غدت بنفسجة.
تقطِفها ؟ ما هم.
لكن لا لِتَلهوَ بها او تنثَرها بدداً !...
حبيبي، الحياة جمال والجمال شَرَف.

* * *

تعرف، يا حبيبي ؟ أنا، كذلك، وددت لو تكون الحياة بيدي شلفة...
وأضرب بها وأضرب...
تنكسر ؟ تبقى ؟ ما هم.
بهذا اكون خليقة بك.
وتحبني واحبك كما ولا مرَّة.

* * *

وددت، يا حبيبي، لو ان الهنيهات لم توجد.
انها شيء يهرب.
لو انني هنيهةٌ وتحويك، كنت أتخطر وأشمخ جبيناً ولا اكفّ...
ومن حولنا كلمة « حبيبي » تعطر الأرجاء.

امس كان عيدك، يا حبيبي...
وتصورتُني باقة ورد... وأحمَل اليك...
وقال على الطريق انفرطْتُ من شوق وضَنى...

* * *

لن أبقى موجعة ما دمتَ أنتَ أخاً للشمس.
أموت ؟ لا عليّ. أعرف انك ستكون بطلا وانك ستزميني بورد.

* * *

لم يسندني احد بالعنبر وزهر الليمون، عندما ذكرتُ اسمك.
وصيفتي كانت غائبة.
تداويتُ ببيت شعر من أشعارك.
لكنّه زاد شوقي شوقاً.
تعال.

* * *

لماذا تشرق الشمس، يا حبيبي، لِماذا يندّي الندى الزهور ؟

اما يكفي ان تُمِرّ عينيك الذهبيتين على افترارِ السهل وقِمم الجبال ؟

هذي انا اعيش لان اصابعك خلطت، ذات امسية، بين شَعري وضوء القمر...

* * *

مررت ببيتكم هذا الصباح، يا حبيبي.
كان شُباكَكَ مُغلقاً...
غُمَّ قلبي. واحسست الدنيا بلا ياسمين.
وهذا المساء اخشى ان أجد نجوم الفلك ذابلة مثلي.

* * *

كانت الغابات تهتف باسمك، يا حبيبي.
كان ضوء القمر يَهطل عليك، يوم لم يكُن بعد قمر...
اليوم، وقد وجدتك، اسكَتُّ الغابات...
خبأت القمر تحت طراحتي...
ليكون لي وحدي ان اتمتم باسمك، وان أدفّئكَ بنور ابتسامتي.

* * *

اليوم، اضاعَتْكَ عيناي، يا حبيبي.
قلبي، هو، قال انك لجأتَ اليه...
تعال واشْفِ عينيَّ من غيرة...

* * *

غداً سأراك، يا حبيبي
وأغمض عليكَ عينيَّ... واحجبك عن الدنيا... عن عابديك وعني...
وعندما تكون مرتاحاً، هناك، سأهمس في اذنيك انني ابتكرت لِحُبِّنا كلمة اجمل من « عبادة ».
من اسمك اشتققتها، يا حبيبي.
اسمعني، اسمعني افعل واعيش.

* * *

مررتَ ببالي، يا حبيبي.
أحسَستُ بالي جنّة ورد...
وودِدتُني لو اكون انا مررتُ ببالك...
واسكن الذي يسكنني... ومن اجله اخترع الورد من جديد...

* * *

هذا الصباح أحِسُّ قوامي موجَعاً...
ماذا ! هل غار من الحورة التي تغنيّت بها ؟
او انه اشتاق إلى زندك الذي لم يطوّقه منذ غِياب القمر.

* * *

لمْ تكتُبْ لي.
تُراكَ نسيتني ؟
انا، حفيف اوراق الشجر يقوّلني اسمك، والوردةُ تحمل إليَّ رائحة ثوبك...
امّا ضمتك الأخيرة، ولو انها كانت من عينيك، فلا ازال أحسُّها تطوق عنقي...
أُكتب.

* * *

قرأتُكَ امس. رددتَ الروح الي.
تعرف ؟ لولا قَلَمُكَ كان جمال قامتي في وحدة...
اكتب.
فمي، الذي اشتاقَ إلى قبلاتِك، يكاد يبَس.

* * *

عيناي تعبتا من التطلع إلى الطريق التي ستنقلك الي...
وأحياناً تشاركني الطريقُ البكاء...
عجّل وامسح جفونها هي...
انا اعتدتُ الدموع...

* * *

صديقتي وانا حديثُنا انت.
كما، في الربيع، حديثُ ورقة لورقة وقد طلعت الشمس...
الشمس لا تطيل الغيبة... سحابة ليل وكفى...
اعرف انك لا تجد اجمل مني. إسمع:
اجمل مني قبلاتي، تلك التي اخبّئها لك منذ كنتُ في بيت شِعر.

خبروني انك لا تحِبُّ سواي.
حقاً سكنى قلبك ممكنة ؟
انت، منذ زمن بعيد، تسكن بؤبؤ عيني، وجمالي، وهذه الضمّة التي تَتَفلّتُ منها احياناً لتبقيني في شجن.

* * *

قلتَ لي انك ستُجَنّ ان قلت لك: انا احبك...
جنونُكَ ؟ ما هم...
همَّني أنني احبك.

* * *

تعرف، يا حبيبي ؟ ما اظنني جئت إلى الوجود انا، ما دمت انت تطيل الغيبة.
قل لي انك آت.
واكون.

* * *

استيقظتُ هذا الصباح لأجد غصنَ ورد يدخل عليّ من الشبّاك.
وردتنا لم اكن اظنها وقحة...
ومر ببالي ذراعان لك... وآخرُ عناق...

* * *

كنتُ جامدةً في لقائنا الاخير، يا حبيبي.
ولكن انت لماذا لم ترشقني بعتاب ؟
اليوم، وانا بعيدة عنك، اراني أميل كغصن.

تعال واسندني بضمّة...
اجعل قامتي نايَ قَصب.

* * *

زياراتُك تتقطّع!
تراكِ تحبني اقل؟
وقولُك لي: «ما أحببت اجمل»، هل نسيته؟
عُدْ او يعتري جمالي الذبول.

* * *

عقد الياسمين، الذي طوقتني به، صار وديعة في كتاب...
عُنُقي يغار.

* * *

امس سمعتُ صوتك، يا حبيبي. احسستكَ تملكُ الدنيا لِقولي لك: انا هنا.
أنتَ اين، يا اغنية عَلى شفتي؟

* * *

لم نتلاق يا حبيبي. مع انني دوماً حجرُ فيروز في خاتمِ يدك.

ضَع يدك على صدري فأنام طويلاً... وما هم ان لا اعود إلى اليقظة...

* * *

ها هو نسيم الشَمال يبعثر شعري.
اعرفك، يا حبيبي، تحب رؤيته مندرياً...
واحبك انا مرتاحاً عليه.
تعال...
وكوردة يُقطَفُ لنا الوجود...

* * *

عيناك، يا حبيبي، ألا تسألانك عني ؟
جمالي يكاد ييبس بعيداً عن بصرك الحلو...
من بعيد طوق خصري...
طوقه ولو بالفكر...
وأعيش...

* * *

جسدي وعظمي هما هذا الجمال الذي قرأت عنه
وأنت بعيد. ماذا لو قرأتَني انا ؟!
شاعرٌ ؟ لَكنْتَ صرتَ الشِعر.

* * *

لن اراك اليوم، يا حبيبي.
ورقة من شجرة العمر تكون سقطت...
كدمعة على خدّ...

* * *

ظننتَ حبي فَتَر ؟
اسأل الوردة التي على شبّاكي.
هي تقول لي أنني أنضر منها.
وانا نضرة، يا حبيبي، لأنك ستجيء...
وستقطف...

* * *

امس، فطِنتَ لي متأخراً.
جمالي تظن نفسَك بمأمن منه ؟
كُثْرٌ سواك أسمعوني تَعَبُّدَهم لي...

لكنني لم آبه.
وفائي لِحبّك له، هو كذلك، رأسُه العالي.

* * *

لِماذا تقلّل من إسماع صوتك ؟
الوردات في مزهريتي كن يصغين إلى المكالمة.
ويشاركنني التفتُّح...
إسعف ورداتي بواحدةٍ كلماتُها لا تنسى.

* * *

مِخدعي يقول لي انك ستجيء.
لا تكذب حَدْسَه...
يحزن... ويروح يمزق الذكريات ويَقْشرُ الطيب عن الجُدُر.

* * *

من بعيد، سمعتُ صوتك، يا حبيبي.
قال لي ان الوجود قيثارة، وانا عليها وتر.
اعزف، يا حبيبي، اعزف. وفوق التلّة هناك فلتُجنّ النُجيمات.

* * *

هذا الصباح عجبت للريح في حديقتنا تترك شَجرة التفاح لتلهوَ بأغصان غرسة اللوز المنزوية.

غرسة اللوز صغيرة.

خِفت عليها.

أوجعني المنظر ! وتوزّع بالي على الف طريق:

تصورتك، يا حبيبي، تتركني إلى من هي افتى...

حنانكَ لا تفعل، ولو أنك أعنَف من الريح.

* * *

انا بانتظارك، يا حبيبي، بانتظار همسة منك في أذني... تعرف ان تطوق... وان تحمل الوجود على زهرة.

* * *

يَسكن العطرُ، يا حبيبي، في حقل او في قلب وردة. أو يكون طلقاً في فَضاء...

انت أضعتَني. فلا أنا عندي ولا انا عندَك.

ولا انا حرةٌ بان أموتَ بِك.

* * *

لماذا، يا حبيبي، أمس، عندما مررتُ بسنديانة، انفجرتْ طلعتُك ببالي ؟

كانت الريح تعصف.
وعنَّ لي انك قد تكون مكروباً.
لكنَّ السنديانةَ صمدت. وسمعتُ لها ضِحكة...

* * *

طال غيابُك، يا حبيبي. وأنا أموت لأن أموتَ بِك.

* * *

في سهرةِ امس، وجِعَتِ ابتسامتي لرؤيتك تغازل سواي.
واصفرَّت.
تعال.
وأمِرَّ باحدى اصابعك عليها فتنتعش. وتلفَّكَ كأنَّكَ الحياة.

* * *

رجوتُك ان تقول فيَّ شِعراً.
ما انا وحدي التي ذَبُلت من انتظار.
الشمس، التي قلتها تأخذ مني، باتت ناحلةَ الشعشعان.
وضلعُ الزنبق، الذي في المزهرية، تأوَّه.

* * *

الشعر الذي كتبتَه لي كان موسمَ ورد.
ما كنت لأظنّ انك، انت كذلك، تخلق النيسان والنوار، كلما جرح قلبَكَ حسني او عصفَتْ بك اهدابُ عينيّ.

* * *

لِهنيهاتٍ خاطفات توهّمتُني لا احبك، يا معبودي...
وصارت النجوم تمر ببالي كخناجر...
ثم ثُبتُ إلى ذاتي...
وخُيِّل الي ان خصري ارتمى على زندك والنجومَ تحولت إلى مرجة أزاهر... ورحنا نقطف...

* * *

بعثتُ اليكَ بدمية مرمر.
قال هي لحسني نقشَها فنان يدّعي العبقرية.
ترددت في اهدائك اياها...
اي فنّ ينقشني في الريح، معطّلا من اجلي سير الزمن، كما تفعل ذراعك عندما تلتفني وتشيل ؟

* * *

كتبت اليك أنّي حزينة.
رُدَّ عليَّ بما يمسح الوجع عن صفحة قلبي.
إن بقيتَ صامتاً خيل الي انك تحولت الى دمعة كبيرة.
وتقولها وردةً وقعت من القمر، ليدفن فيها حبُّنا الهازئ بالزمن.

* * *

تقول لي أنّني خطرتُ على بالك ؟...
وأن اسمي غنّى على غصن حُلمِكَ الصباحي ؟...
وبالورد رشَقْتَ حروفَه الأربعة ؟...
لا تكذِب...
لو انك وَفيٌّ لشهامة حبيّ لما كنت قرأت الأربعة الحروف الا على الأزيز والقَصْف.
لاعبِ الموت ولكَ ذرَاعاي تُطوّقان.

* * *

أن احبك هو أن أخترع نفسي.
قبلك، يا حبيبي، كنت خاطرةً، اغماضَةَ برعم، زقزقةً ما قَبضَ عليها عصفور...

بعد ان ضَممتَني، وانت ذاهب الى الجبهة، نُحِتَ صدري في الهنيهة وصرتُ بقمرٍ ونجوم.

وغداً، متى عدتَ عاليَ الجبين، شُمَّ ثوبي، شُمَّني من فَرْعٍ الى قدم، تجدْني من فرحتي اختصر كل زهور الجبل.

* * *

أظنك نسيتَني... مع أن كل ورود الأرض وُجدت لِيحطَّ عليها ناظري، كنت تقولْ...

ناظري أصبح تَعِباً.

ارمِ اليه بحضورك الورديّ.

* * *

أمس، وقد أسأمني الشوق، تقوَّيت بكتابة منك على حُسني، كما كانت جَدَّتي في صباها تتقوّى بتفّاح وياسمين.

أُكتُب.

* * *

قُل لي، يا حبيبي: بِمَ يتحدَّد الشوق ؟
أبأنك وُجدتَ في قلبي وقلبي لم يبق لي ؟
إنْ عزَّ على بالك ان تردّه لي فردَّه ملآن. او لا فما لقيتَني على رمق.

* * *

هذا الصباح، قطفتُ وردةً، يا حبيبي... ونتّفتُها... وبددتها على مهَبّ النسيم...
يبدو اني كنت حانقة عليك...
فثارت الوردة...
عُدْ، عد اليّ، أعِدْك بأن ألملمَها بجفوني...
وتضمُّني... وقبل الربيع، يكون الربيع...

* * *

طلبتُ منك شِعرا يُغنيني.
وألححت.
لم تستجِب بعد...
اعرفك، اعرف. تقول في سِرِّك: هي القصيدة تطلب أن ينظَم فيها قصيدة...
وتسكر... وتروح تفكر باختراع عرائس قول... لتكون

كلماتٌ جديدة ويكون شعرٌ خليق بجمالي...

بقيَتْ همسة لي في اذنك: أمس، سمعتُ مَن قال لي أنني الحُسن يمشي على قدمين...

قل أجمل...

* * *

هذا الصباح تغامزت عليَّ وردة وياسمينة تقولان انني ذبُلت...

عد اليّ، يا حبيبي، أو تقولهَا الثرثارتان عاليا...

ويعرف الجيران...

* * *

غداً، سأراك بعد غياب، يا حبيبي.

ستسمّيني أم لا « الهتك » ؟

ما هم...

أمّا أنا فسوف أشك حسني بدبوس في هنيهة من هنيهاتِ وجودك.

* * *

قال لي عالِم ان السكون أغنية.

ورحتُ أصغي.
انتظرها تصل الى اسمِكَ، يا حبيبي.

* * *

لم أرك منذ أسابيع، يا حبيبي... إبعَث الي برسالة...
ورقة عذراء البياض، إن شئت...
اضع عليها خدي وأحلم...
أقول: عليها كان يكتب اليّ اجمل ما لم يَكْتُب.

* * *

خطأً هتفتُ باسمك، هذا الصباح، يا حبيبي.
كانت الشمس تُشرق...
ظننتُ نورها شعرَكَ الاشقر...
قلت: تعال...
لكن، عندما بقيتْ ذراعاي فارغتين... ايقنت أن الشمس ليست انتَ !

* * *

وعدتَني بأن نلتقي.
وكعادتِكَ ستُخلف...

أنا سأحتفظ بِقبلاتي لأضمّها الى قبلات الموعد الآخر...
ويتكدّس ربيعٌ فوقَ ربيع.

* * *

هي أجملُ مني ؟...
لا تكذِب على نفسك...
انا الأغنية وهي الصدى...
أنا العناق وهي ليست التأوُّه...

* * *

رأيتُكَ تُطيل النظَر الى فمي ؟
تراك ظننتَه بيتا من شِعر، فرحت تسرق عنه أصولا لا تَعرِفها ؟...
دعك من التأمل فيه... قَبِّلْه.
ولتسكر الدنيا من نغم قبلتك...

* * *

حقاً قلت لي انكَ ذهبت لكي لا تعود ؟
خيل الي أن الكون ألوف ازهار...

وجمعتها أنا برفش...
ورميتها...

* * *

حُبّني، يا حبيبي.
خَلِّ الفلَّةَ بعضاً من ابتسامتي، والنَصْل رنينهُ من نغمة خصري.
امس اتّهموني بأنني لنفسي، بأنني لا أسكر الا من الكأس التي هي جمالي...

* * *

دعهم يثرثرون...
حبني ولا يهمُّك...

* * *

نسيتك يا حبيبي ؟
لا.
وانما، بعد أن فتَحَتِ اللوزةُ تحت شُبّاكي، ومدت عُنقَها تتطاول، انتظرتك أنت تفحم حُسنَها بكلمتين على حُسني.

* * *

باكراً، في إغفاءة الصباح، رأيتُ حُلما...
قال انني كنت اعاتبك. اردّدُ: « أنا لا أحبك، يا حبيبي ».
لا تصدّق...
وما بقي من الحلم إلا الكلمة الاخيرة...

* * *

تقول لي ان كل ما تكتبه من غزل هو لسواي ؟...
أريد أن أصدق.
غزارتك هي قَوامي، وصفحتك ذراعٌ بيضاء طالما مُتُّ عليها وحَييت...

* * *

تجلُب اليَّ القمر... تجلب اليَّ الشمس... كلمات...
الذي يَهمُّني هو أن تجلبني مني اليك !...

* * *

انا مريضة اليوم، يا حبيبي. صوتي غير رخيم الرنة.
لهذا لن اتلفّظ بأسمك.
تعال، وداوِني بقبلة...

* * *

ما أزال ناحلة الجسم، موجَعة...
ابعث اليَّ بوردة من عندك... وبكلمة...
بالأُولى أَشُمُّ جسمك... وبالثانية أُسكن بيتَ الشعر...

* * *

كل شيء بحثُ لك به، يا حبيبي،
أفرغتُ نفسي من نفسي وملأتها بك.
فقل لي قل: « هذا جَناحي، ارم جمالك عليه، ولْنَطِر الى الوجود ».

* * *

كتبتُ اسمك على ابتسامتي.
تلك التي تُحبّها وتقول فيها أنها حدود الوجود.
شفتاي اشتاقتاك.
عد اليّ لا تتأخر.
وبأبتسامَتِكَ، امحُ الكآبة عن ابتسامتي.

* * *

ليلةَ امس عانَقْتَني في الحلم، يا حبيبي. كذلك قبلها بليال...

هذا انا اعتَدْت...
الليلة ان لم أُعْطَ ان أحلمَ رجوت الشعراء أن يخترعوا ظلاما آخر، أرأف... وفيه ذراع لك وعِطر، وحُبٌّ كثير.

* * *

عندما رحتُ اكتُبُ عن الشمس، كنت بقربي...
الآن أتساءل عن أيّكما كَتبت.

* * *

اخيراً التقينا، يا حبيبي...
لم أدر من منا كان أشعر... وجودي، انطباع حسني على الليل، أما قال لك أجمل القصائد ؟
إقرأني، يا حبيبي، وعش...
ولْتعش الساعات...
قرأتك أمسِ، يا حبيبي. قرأت الرجولة في كَلماتك.
وخيل اليّ انني عروس بطرحة من غمام وبرق...
وتزوجتُ السيف !

تخيلتُك تكتب ونجومٌ جديدةٌ تَنشَكُّ في قبّة الليل...
لا تكذِب.
كنت أنا على زندك...
أو كان الليلُ بحر عينيَّ...
وأنت فوقه شراع ضائع.

* * *

هذا المساء، من أجلك يا حبيبي، سأرفع عيني الى السماء.
وتعطيكَ السماء.
لا، لا تقل بعدها ان عيني تذبحان القلوب وتكثّران النجوم...

* * *

امس، وأنا أطوقك، يا حبيبي، احسستُني عقد ورد.
هل وَخزك شوكي ؟
لا تأبه، ان حبي يعود يبلسم الجراح...

* * *

لم تكلّمني عن حب، حُبُّكَ لي.

بل رحت تلاعب على اصابعك الافكار والنجيمات.
اعرِفُكَ تريدني.
ودِدتُ لو تسهو عن الكون، وتجعلني أنا احـدى نجيماتك، أحدَ أفكارك...
وأَرقص، ارقص على اصابعك التي ولا آنق.

• • •

أمس وجِعتُ من شوقٍ اليك...
فأوصيت شقيقتي الصغيرة بأن تخبرك عن حالي.
لا تُعَنِّ نفسك في التفتيش عن اسم شقيقتي...
وحدَها اسمها بنفسجة...

• • •

تقول أنك اختفيت أمس بين سمع الارض وبصرها ؟
هذا شأنك مع الأُخر...
أما أنا فأعرفُك تسكن قلبي.

• • •

هذا الليل كان عاصفاً.
أحببتُه.

تخيلته رجلاً ذا زندين قويين. تخيلته أنت.
تعال، يا عاصفي، وكَسِّرني على صدرك.

* * *

أمس، كنتُ حزينة...
طريدةَ عرشي...
فعرّجت عليك.
عِقد قبلاتك الذي طوّقْتَ به عنقي رَدَّني ملكة.
ومن جديد قرأت كتاب الوجود على ابتسامة شفتيك.

* * *

تأخرتُ عليك، يا حبيبي، فظننتني نسيتك ؟
شجرةُ اللوز في آذار لا تنسى الإله الذي كوكَبها بالزهر والقصائد.

* * *

قيل لي أنك عبثا اتصلتَ بي... قال كنتُ في غيبة...
لماذا أنت ؟
ومتى كان على معنى القصيدة ان يحاول الاهتداءَ اليها ؟...

امَا هي التي تضمُّه... وتسكر به... وتعيش ؟...

* * *

أحِسُّني ضعيفة.
تعال
احسني ضعيفة وانت جناحان يركبَّان لي... وأصبحُ أخْتَ الطير والغمام الابيض والأمل...

* * *

امس كان الرجال يتكلمون عليك.
كانت الرؤوس شامخة.
انا تمتمت في سري: « هو حبيبي ».
فاذا الزنابق تميس، والبنفسج يضوع عِطرا،
وتقول السنبلة للسنبلة:
ــ حبيبُها ملءُ عنفوان الجَبَل.

* * *

لا تَدُر حول بيتنا، هذا المساء...
غرسةُ الورد على شُبُّاكي لن تَهشَّ لك...
ستقول لك، ان هي قالت شيئا: « أميرتُكَ حزينة...

تركتَها تتنازل عن دمها الذي هو دمك... ماتتِ الضحكة التي كانت ستمشي على قدمين! ».

* * *

تنادرتَ في الأطلالة علي، يا حبيبي...
الشمس تتنادر...
لكنها، متى جاءت، تُحتضن وتُعانَق كمن لها ذراعان، وتُضمّ.

* * *

مَرَّ ببالي انني قبضت عليك، يا حبيبي...
كيف ؟
وأنت الريحُ والأملُ والبطولة.

* * *

اخيرا سمعت صوتك، يا حبيبي.
صوتٌ معافىً.
خيِّل إليّ أنني جزيرةٌ ومن العلاء، فوق، هبط عليَّ نسر.

* * *

هذا المساء سألقاك.

وسألقاك غداً،
وبعد ألف عام سألقاك.
دوماً دوماً، سأجدني مرمية على صدرك.
كنجمة على صدر الكون.

* * *

أمسِ، ليلةَ عرّجتَ على بيتنا، يا حبيبي، بقيتَ بعيداً عني...
اما أنا فقد كنت أسكنُ في قبلة لا افهم لماذا لم تَقْطِفها.

* * *

على زقزقة العصافير سأكتبُ اليك، يا حبيبي.
وحدَها العصافيرُ تعرف ان تتنقَّل...
كقلبك المتنقّل...

* * *

أمسِ لم نلتقِ، يا حبيبي.
ورقةٌ من شجرة تشرين وسقطت. رُدَّ يومي وردةً...
وانا شذاها...
وأنسِمُ عليك...

ليلتي أمسِ، قضيتها لم أفكر فيك، يا حبيبي.
هذا الصباح، خيل إليّ ان هفوتي بحجم الأثم...
تصورْ حوضاً نسيَ غرسةَ الورد التي تكوكِبهُ.
غداً عاقبني، يا حبيبي. هنيهةً تجد صدري الرائع منقوشاً في الهواء، قل له: لا لستَ من صُبحين.

* * *

كتبتُ فيك شعراً، يا حبيبي.
ذُهِلتْ رفيقاتي لما تلمّسن فيه من جديد على مُضيّ الساعات، والهموم، واللعب على وتر الموت والحياة.
بلى يا حبيبي، أنت سأحبك وسْعَ حياتي، ووسعَ الموت.

* * *

تقول لي انك تحبُّني وحدي ؟
صِدْقٌ كلامك ام كذب ؟
ما هم... يهم ان ثمة ضِلْعَ زنبقٍ يموت ان لم يَسقِه الندى.
هو أنا.
أنت هل تعرف أن تكونَ الندى ؟

* * *

أمسِ لم أزرك، يا حبيبي.
قصدا قصدتُها.
اردتُكَ حوضَ ورد يبقى بلا ندى.
لكنني كنت مجروحة في سرّي.
قُلْ لحوض الورد أنه إن هو جفا علمتُه أنا الوفاء.

الانَ، وقد نسيتني، يا حبيبي، اتذكَّر منك أنك ولا مرة تفوَّهْتَ بكلمة حاقدة.
ماذا ! تُرى البغض بغيضٌ إلى قلبك ؟
كأنَّ كلَّ كلمة من كلماتك ذراعان تطوقان ؟...
واقول لك: طوِّقني ولو ببغضك.
بغضُكَ نفسهُ لذيذ.

قلتَ لي، يا حبيبي، أنك عشتَني لزمنٍ سعيد، كحلم ليلة صيف.
أنا لا أذكر...
كلُّ ما اعرف انني كلمةٌ عصفورة.
ولم أحُطَّ بعد في قصيدتك...

أُكتب إليّ، يا حبيبي.
على ورق الانتظار اكتب...
اذ الورق الآخر أخذ يتناثر كخريف قبل الخريف...
وقبلتك الأخيرة باعَدَ بها الزمن، وغدت شفتي تسأل فيها: « تُراها كانت ام كانت كذبة » ؟...

° ° °

كأنك لا تعرف الشوق، يا حبيبي.
الشوق هو أنا وقد غدوتُ أذوب من انتظار.
وتقول لي الوردة: أنتِ أكبرُ من شم وضم.
لكنني أسكتُ الوردة على امل وصول ذراعيك إلى ما حول خصري...

° ° °

هذا الصباح، فتحت شبّاكي باكرا، فدخلت عليَّ الشمس صبيةً فاتنة.
تُراها مرت بك، يا حبيبي، وغازلتَها ؟...
كدت أغار.

° ° °

لا لا لم أضِع في حُبّك.
كنتُ الحُبَّ والعقل معا.
وغدا، عندما يفهمون الكون اللغزيَّ المهابة، أقول لهم: أنا أعرفه... قرأته في قلب حبيبي... وعلى زنده كان يتساقط عليَّ عِلْمُ الفلك مع النجوم والقُبُلات...

* * *

ذهبتَ، يا حبيبي، ذهبت... وعيناي بساطُ ريح يَحمِلُكَ إلى حيث تبقى في قلبي.
من هناك، من قَلبي، ابعث إلي بقبلة...
وأُحسُّني عاشقةً كلَيل ؟...

* * *

حقا أنتَ الريح، يا حبيبي ؟
سألتك لا تمرَّ على غصن الورد.
تسحقه.
غصن الورد، هذا أُنا.
تهجُرني، يا حبيبي، حتَّى آونةَ تكون معي...
بتُّ اخشى على شَفتي ان تُصبح وردة... ولا تعرف ان تطبق على شفتك...

قلتَ لي ان فمي من نحت دوناتلُو.
اقوالك اشعار حلمتُ بأن أخطَّها يوم كنتُ ما أزال
غزَّارة نابتة على سفح لبنان...
وتلعب بها الريح... يميتها ويحييها الحب...

* * *

زياراتُك تتنادر، يا حبيبي.
الوردة التي هي أنا يقِلُّ عطرها.
أنتَ عطرها، يا كريم الغياب.

* * *

بعثتُ اليك برسالة...
لم تكن على ورق...
سائل عنها الليل...
وان هو غدر بالآهات فلا تلمني أنا.
الليل صديقُ أشعارك.

* * *

اخيرا وجدتك، يا حبيبي.
قلْ لجمالي أن ينهارَ على زندك...

هناك، يعود يشهق عالياً، كأنه بناية تلاعب الريح.

* * *

يوم تركتَ بيتنا، اصبح لي قلبان: واحد تسكنه بعد اليوم وآخر أشقى به.

عد الينا، يا حبيبي، فأرميَهما على طريقك زهرتَي بيلسان.

وتدوسهما انت فيما تروح تدخل مخدعي.

* * *

قرأتُ انك عرَّجتَ على الجبهة.

أعرفك جنديا، لم استغربها منك.

تَفَرُّسُ الرجولةِ في الموت يُلقِّن الجنود كيف صَدُّ الموت.

هَاكَ ذراعَيَّ ممدودتين إليك...

وصوتي في أجمل غناء...

* * *

من بعيد بصرت بك، يا حبيبي...

خُيِّل إليَّ [illegible]

اسكنُه...
فيغدو قصراً أعمدتُه بعلبكيّات.

* * *

حبيبي، لا اريد ان اصدق انني سأتركك...
عيناي ستظلُ انت تسكنهما، وإن اختطفني من نفسي آخرُ غريب.
وحدَه الموت يقيني لك...
لماذا لا تزال لي الحياة ؟

* * *

يَدُكَ التي طوَّقت خصري، اشعرتني بأنني على زند بطل.
قل لي، كرَّةً أخرى، انك تُحِسُّ النجوم تنفرط على قدمي.
واضيعَ في قولك...
واضيع.

* * *

سمعتُكَ تقول لي أنني الهتك...

وانني إن انا كفَفْتُ عن حُبّك فأنتَ لن تكفّ.
قُلها، قلها للنسيم، لِلفجر، للصاعقة.
أنا عملت من الوجود مزماراً يغنيك.
اكتفي منك بأن تخبره بحالي.
كان بامكانك ان تجيء على هبة نسيم، يا حبيبي القريب البعيد، او على شعاعة شمس،
لم تفعل.
من قال لي ؟
كلماتك عند الوداع، آخرَ مرة،
لو انها كانت حرًى اكثر لكنتُ، هذا الصباح، مرَّغت عيني على النسمة، على شعاعة الشمس، اقول لها: أنتِ حبيبي.
تعلّم كيف تودّع بان لا تودّع.

* * *

أمس سمعتُ أغنية جديدة.
جمالها دمَّرني.
لكنني لم احفظ منها سوى « أنتَ » و « حبيبي ».
ببالي تدندن اليوم الأغنية...
لا لم أبقَ أنا أنا.

صرتُ « أنت » وصرتَ « حبيبي »...

* * *

لا تمرَّ تحت شُبَّاكي هذا المساء.
نقلتني أمّي إلى غرفة داخلية...
أمّي لا تعرف أنّ لي قلبا.

* * *

حقا ضمَمتني بذراعك ؟
انا لا اصدق...
بعدَها، يا حبيبي، صرت أنا الروض... والزهر... وندى الصبح...
قل لذراعك ان لا تطيل غيبة...

* * *

الليل دافئ... مع انك بعيد، يا حبيبي...
ترى عبير ذراعك ما يزال على زنبق خصري ؟...
أبقِها لي هذه الذراع، أو يذبلَ الزنبق.

لم أعرفك الاَّ امس.

مع انك توسَّدتَ شَعري الطويل منذ أكثرَ من عُمر...

أمس، كنتَ أنت الوردةَ وانا الندى الذي وُلِد فجأة في قلب الوردة...

أطبِق ورقاتك عَليَّ او يَهربَ بي القمر...

يقرأونك، يا حبيبي، فيخيّل اليهم أنك تغني سواي...

أنا أتغلغلُ بين سطورك، فاقرأ هَيَفَ قدّي... وعسَل عيني في كل حرف...

كلامُكَ، الذي أردّده سرا، تحتَ اشجار الحديقة، قل له ان يكفَّ، او يصفَرَّ الياسمين...

وينوجعَ التفّاح الذي به أتداوى...

هذا الصباح حملوا إليَّ باقة ورد...

لم تكن منك يا حبيبي... كدت لا أنشَقُ لها عبيراً...

إنسِمْ عليّ بزيارة فاغدوَ أنا باقَةَ الورد.

تسألني ان اغنّيك، يا حبيبي ؟
اغنيةٌ، انت ساكنها، اطلقها في الريح... أُخاف أن تتلقّفها النسمات... وجِنّيات الرعد... والنجيمات المتشيطنة...
ويتقاتلن على من تكون لها أنت...
دعْكَ، دعكَ بالأحرى في قلبي... وغنِّ أنت.

* * *

سأكتبُ اليكَ، يا حبيبي...
سأكتبُ فيك...
لكنني، قبلها، أريد ان اقرأ في عينيك...
افتحْهما، يا حبيبي، وأُغمضهما عليّ.
فأغدوَ أشعَرَ الشاعرات.

* * *

امس، مررتَ بإزاء حديقتنا ولم تلتفتْ...
أزهار حديقتنا اليوم ذابلة...
تكتفي بالتعبّد لزرقة السماء بدلاً من زرقة عينيك...

* * *

رُدَّ الاغنيةَ إلى شفتي...
رُدَّ لي اسمَكَ الذي من أجله كانت لي شفتان...
ومن أجله كان غناء...

* * *

أمس كففتُ عن التفكُّر بك، يا حبيبي.
كان قلبي كلُّه عند آخر.
اكبر منك، لا كثيراً، واجمل.
بلى، نمت سويعاتٍ بين ذراعي لبنان.

* * *

قلتَ لي انني غدوتُ اجمل من سماء مكوكبة... ومن الحب... ومني... مني؟
لقد غرت أنا مني...
حُبَّني أقَلَّ او حبني اكثر...

* * *

باقةُ الياسمين التي في الاناء على شُبَّاكي انبأتني بأنَّك مريض...
كانت هي مريضة...

لِتعجّلْ ياسميناتي بالشفاء... لتغالب الفجر ضوءا... والعصفور قفزاً وغناء.

حقا عزفْت على عودك الذهبي لحبيبة أُخرى ؟
لا علي...
أعرف ان مركبك سيضل أحيانا طريق العودة...
لكنَّ قلبك سيبقى لي...
وأغانيك، التي لم يَنظِم مثلها شاعر، ستستمر تغني عينيَّ العسليتين... وصدري الذي من شَطْرَتَيْ قمر...

زرتَني في الحلم ؟...
زرتني في اليقظة ؟
كل ما أعرف أنكَ في الوجود... وأن خصري مرشح لأن تشيل به ذراعك...
ونطير...

* * *

أكتُب لي على ورق النار...

اكتب لي أنك تحبّ سواي...
ولكن ابقَ الشاعر الذي زعمتَ انه خليقـةُ عينيَّ الذهبيتين...
اكتب، إن صمتكَ يُقصّف الليل عليَّ جليدا...

* * *

عرَّجتُ عليك ازورك...
لم أجد في مخدعك سوى شمعة وديوان شعر...
ديوانُ الشعر هو انت منقوشاً على الأيام، إلى الابد...
اما الشمعة فقد تكون حُبَّك لي الذي سيذوب...
أسكِنّي ديوانَ الشعر او أُموت.

* * *

إلى زمنٍ بعيد وذِراعاك لم تطوِّقاني...
كدت انسى طعم قبلاتك...
وحده شذا الورد، الذي يهبُّ من صوب بيتك، لا يزال وفياً...

* * *

حلمت بأنني تلملمت وتلملمت...

حتى صرتُ قبلة...
وانرميتُ على فمك، يا حبيبي...
لا تَفضح حيلة حُلمي وتردُّني انا انا.
احبسني، بالأحرى، هناك بخيوط ابتسامتك التي ولا الشمس ولا القمر.

* * *

رُدّني إلى صدرك... لقد ابعدَتني عنه الأيام... والاسابيع...
ردّني اليه، يا حبيبي، ثم أُطبق عليّ ذراعيك...
وشدّ... حتى نتنفس معا،
وكأننا قلب واحد ينبض بكل فراشات الحقول !

* * *

مررتُ امس بحديقة بيتكم.
كانت مشتعلة بالمنتور والزنبق.
لكنني لم اشاهد شُبّاكَكَ مفتوحا...
تُرى دَخَلَتْ عليك زنبقةٌ واقفلته وراءها ؟
أغار.

* * *

أخذْتَني مني، يا حبيبي...
أخذتني إلى حيث لا ادري...
لا تُبقِني في ضياع.
رُدّني إليّ، يا حبيبي، او ردَّني اليك...

* * *

بوِسعِكَ ان لا تُحبني، اليوم.
لكنْ حذارِ ان لا تُحبَّني، غدا.
بيتي أنا هو الغد، وذراعاك تطوّقاني، وقَولي لك أنك مَعبودي الوحيد.

* * *

دُرْتُ على المكتبات امس أُفتش عن دواوينك، يا حبيبي.
عرفتُها نفدت.
وعلى وجهي قرأتْ بائعة كتب سطورَ كآبة.
فهمست في اذني: لا تَقطعي أملاً. فتّشي بعد، فتّشي عند العصافير والزنابق، وتحت وسادات الصبايا...

* * *

انا غائبة عن بيتنا، يا حبيبي.
انت مُرَّ تحت شباكي، وارشُقْه بحصاة...
فقد أتخيَّلُني هناك...
واتخيلني فتحته...
وفي الهواء أرسلت اليك قبلة...

* * *

كيفَ اقول لك ان موعدَنا تأجل ؟
سأقولها بان اجعل كل ورودنا في الحديقة منكَّسةَ الرأس...
لا تقفز على سور حديقتنا، هذه الليلة.
سُلَّمُ المرس الذي أدلي به اليك، عادةً، سيبكي مَعَ جدائلي التي لم تنعم بلمسات يديك...

* * *

النسيم الوافد من صوب بيتكم، يا حبيبي، سألني:
ــ هل تحبينَني ؟
غصَصْتُ بالدمع.
كأنني به أرادني إلى خيانة.
لكنني طمأنته. قلت له: أُحِبُّ عِطرَك، يا نسيم، لقد

مررتَ على جبهته... وتمرَّغْتَ على شَعر صدره... فلك منه رائحةُ الرجولة ولهجةُ العنفوان.

* * *

باكراً اليوم عرَّجتُ على مخدعك، يا حبيبي.

فقلت لي: اهلاً بالعمر.

ثم همَسْتَ لصدري: صباح الخير أيها الصبحان...

لكنك عدْتَ تمحو كلماتِك واحدة واحدة...

ماذا ! حقاً انا اجمل ؟

دُسّني بين كلماتك الحُلوه، لأهمسَ في آذانهن ان حبيبي خُلِق يوم خلق الشِعر والسَحَر وحُسني انا.

* * *

تركتَني موحدَة، يا حبيبي !...

ما عمِلت ؟

خلوتُ إلى عندليبي، ذاك الذي أعرِفُكَ تغار منه...
ورحنا أغنّي له ويغني...

هذه مشاكسة لك...

لكنني، وكأنني نسيت، ثلاث مرات ناديته باسمك والدموع تزرع خدَّيَّ باللؤلؤ...

زُرتَنا في بيتنا، لتقول انك لا تخشى وهج جمالي...
وأصَدِّق أنا...
حتى طيبتي كانت تدمّرك...
وتخيلتُكَ تصرخُ في وجع:
ـ يا معبودتي، حياتي صحراء بدون الزنبقة التي هي أنتِ...

* * *

سألقاكَ اليوم، يا حبيبي.
وتنهار على صدري...
وأقولُكَ نجماً سقط على الأرض!
وترتعش لجمال حبنا زنابقُ لا تزال في ضمير الربيع.

* * *

كتبَتَ اليَّ تقول ان جمالي هو اغنية القمر.
وانت، زنداكَ ما زنداك؟
انهما كُلُّ عزم الجبال، واختراق نظرات النجوم، ونبض قلب الشمس.
قل لهما أن يطوقاني في ضمة لا تنتهي...
وفي قبلة هي وحدَها الأغنية...

* * *

التقيتك، يا حبيبي...
واين ؟
على زندك...
وساءلت نفسي: الريح، هي انا أم الأغنية ؟...
ورأيتك تفركُ عينيك.
ــ لا، تقول، ايها الحلم لا تهرب...

* * *

حقاً غداً انا على زَندِك ؟...
قل لهذا الغد ان يمحو الربيع... والوجود... والحبَّ...
إغماضةٌ من عينيك، وانا داخلهما، هي الربيعُ والوجود والحبّ.

* * *

ردَّدتَ على مسمعي أنكَ تحبني ؟...
انا جاوزت هذا...
أُخترع لكَ، كلّ يوم، حبا.
حتى اذا غبت أنت رحت أحِبُّ هذا الحب !
ولكن اسمع ــ وأبقِها سِرّاً عليك ــ: لا شيء، لا شيء كحبك، لذيذ.

على ذراعك، يا حبيبي، عشتُ بضعةً من ليل.
انها لَعُمر.
غداً، ان انا أفلَتُّ من الحلم، اركض انت وراء الزهور والفرافير...
ولملمني...
اكون قد صرت الشذا من وردة... ورقّةَ الجناح مِن فراشة...

* * *

أمس أفْلَتُّ من بين ذراعيك، يا حبيبي...
أفلتُّ لكي ألجأ الى قلبك...
لا تَغضبْ عليّ...

* * *

ذهبتَ، يا حبيبي...
بعيداً ذهبت... فَمِن قائلة لي: إلى ذراعَيْ غانية... ومن قائلة: بل إلى التشرُّد في قلب من ليس لهن قلب...
انا لن اقسوَ عليك، ولا على نفسي...
سأُبقِي لك قلبي ودارتي خليقين بما علّمَتنيه أُمي...
لكي تعودَ، يوماً، وتجدَ دفء الشهامة الذي لا سِواه يبلسم جُرحَك.

* * *

زرتُكَ أمسِ كطيف، قلت ؟
ذكّرتني بأن وجودك في سعادتي هو كذلكَ طيف.
من يدري ؟... غدا تضمك ذراعا أخرى...
اموت انا... بين الغيرة والتساؤل:
ــ وانتِ، يا ورود، لماذا لا تموتين ؟

أمس مسستُ زندَك، يا حبيبي.
هل كنت تدري ؟
لا ادري...
سوى أنني نمت وكأنني كلمة في حكاية...
قل للاشعار ان توقظني...
وللتفاح أن يسند خصري المُسَقمِ من سعادة...

غدا ستكون في الجبل، يا حبيبي.
لوردةٍ تداعب شباكك...
لسنونوات تحوم عبر لفتاتك...
لعازف يلحن لك شعرك...
ستطرب انت هناك، وابقى انا هنا مُوحَدة، موجعةَ قلب...

لكن زندَك، الذي اكون مرتمية عليه بالبال، سيحزن...
كفكف دموعَه ان قدرت...

* * *

مروري امس ببستاننا جعل الورود تتلفّت.
قلْ لغزّارةٍ بيدك تكتب ما لا اعرف أن لا تغنّي شذا الورود...
شذايَ أنا أطيب...

* * *

لم تُعَرِّج على بيتنا، أمسِ...
استأثر بك الجبل...
انا غمزتُ الشمس العالية ان تكِفَّ عن تتبّع خطواتك...
خيّل اليّ أنها هي أيضاً تغار...
عد الى هنا. هنا في المدينة، الشمس لا تَرى...

* * *

عرَّجتُ عليكَ، أمسِ...
لتُغمضَ عينيك على ضِحكتي التي تقول فيها انها تُميت وتحيي...

ولاذكّرك بقبلاتي...
لا تكذب... انت الذي قلت في قبلاتي انها ليست الخمر...
لكنك سكِرت.

* * *

قلبي وحديقة بيتك في الجبل يعيشان اليومَ على ذكرى الندى !...
رُشَّ عليهما منه او يَخلعا حزنهما على الشمس...
الشمس وحديقة بيتك وقلبي ما غيرُها شجراتِ اللوز.

* * *

أمسِ التقينا مرتين، يا حبيبي.
في الأولى، تأرجحتَ انت على ذِراعي... وفي الثانية، كنتَ بعيداً عنّي لكنني كنت أنا اتأرجح في بالك...
كهبة شذا لا تزال في خاطر الربيع.
ايها الربيع، إطلع.
تأخّرت...

* * *

أمسِ تابعتَ مِن بعيد لَعِبَك بقلبي.

رحتَ تنشدها شِعرَكَ، تلك الغريبة.
شعرُك الذي انا وردُه وشذاه.
تمتحن غيرتي ؟
بلى أنا أغار.
من الليل الذي يلفك أغار، ومن ذراعَيَّ اللتين تطوقانك.
انت، شقائي بكَ وهنائي،
أنت كُرهي لك وحُبّي.

* * *

حقاً جرحتُك، يا حبيبي، بأن أمتنعتُ عن لقائك ؟...
واقترفتُها مثنى وثلاث ؟
شوك الوردة غالباً ما يجرح كبرياء عابد الوردة.
لكنه هو يغفر...
ويستمر يناديها: « يا معبودتي »...
وتشفى من سقام...
تعال واشفِني، يا حبيبي.

* * *

والتقينا، يا حبيبي، على بُعد...
وتشابكت أصواتنا كأنها الأيدي...

ضُمّني، ولو عن بعد...
ضم باقة الورد،
ايها الذي يستمر شوكاً بشوك.

* * *

أمسِ كنتُ كمن لم ترَ وجهك منذ كرات كرات السنين...
منذ وُلدت الشمس وتَقَمَّر القمر...

* * *

لماذا بُعْدُك، يا حبيبي ؟
العمر يطير.
اسرق منه الجناحين وتعالَ إليّ ضمّني...

* * *

كُنتَ، أمسِ، في رحلة مع أهداب عينيَّ الذهبيتين ؟
لا، لا اصدّق.
هذي انا ما ازال أطير بك...
والشمس والقمر وسائر الشموع التي تسمى النجوم تواكبنا...
وتغار...

قبلاتك أمسِ ؟...
انزع عني كل اللؤلؤ، كل المَاسات الجميلة...
فانا لن أطوّق عُنُقي بعد اليوم الا بقبلاتك...

° ° °

قلْتَ لي وقد مَرَرت بحديقتنا:
مِن قلة الماء صار الورد لا يُفتّح، والبنفسج نفسه يكاد يخبو شذاه.
لا تأبه، يا حبيبي.
تمرُّ انت ببالي، فاذا خواطري حديقةٌ بزهرٍ مُشتعل.

° ° °

هذا الصباح، سمعت صوتك، يا حبيبي.
لم يَنقلْه اليّ عصفور ولا حَمَلَه شذا بنفسج...
كل ما هنالك ان قلبي كان قد ضُرب بعنفوان، لقراءتي قصيدةً على السيف، وقلت: في مكان ما، حبيبي يتكلم الآن.

° ° °

أمسِ، يا حبيبي، رحتُ اتململ تململ الربيع على أرجاء الأرض...

عشتُ هنيهاتٍ على زندك المنطوي على خصري...
هذا الصباح أجدُني افرك عيني غير مصدِّقةٍ حلمي.

* * *

تعال، يا حبيبي، تعال الى ضَمَّتي...
ضمتي نفسها تشتاقك...
وصدري ينتظر رأسك يقع عليه وقوع القمر في حرج الليل.

* * *

أنْ احبك، يا حبيبي ؟...
هو أن يصيرَ للأرض ربيعان، ولقلبي قلب آخر ينبض مع اهتزاز الوجود.
دعْك تحبني، يا حبيبي، او تغدوَ الكُتُب بدون شِعر.

* * *

عهد الوردة معلقة على الناي

ـــ لا تنتظرني هذا المساء، يا حبيبي...

اختي الكبيرة مُتعبة، وسأتولى وحدي سقاية سياج الورد.

ـــ دعي سياج الورد يذبل، يا حبيبتي... انه هو الذي يمنعني من القفز الى حديقتكم في ليلة حرٍ، وقد غاب القمر.

• • •

ـــ أَقفِلْ شُبّاكَكَ، يا حبيبي. الكناريّ الذي كنت أعلق قفصه قبالتك، ليسمعك صوته، أصبح فجأة أخرس...

ـــ لا، يا حبيبتي. رآني هجرتك اياما فظنني رحلت... غدا، عندما تطعمينه بيدك... ويشم عليها رائحة قبلاتي... يعود الى الغناء... ويغدو الصبح، كصدرك، صبحين...

* * *

ـــ ليلة أمس، مررتُ من أمام حديقتك، يا حبيبي. عنَّ على بالي أن أدفع البوابة وأدخل. لكنني كنت أعرف أنها محكمة الاقفال، وأن مزلاجها قويّ... فلم أحاول...

ـــ أخطأت، يا حبيبتي. ليلة أمس فقط، نسيتُ باب حديقتي نصف مفتوح...

ـــ ولكن إعلم بها ولا تعمل. أخاف مِنّي عليّ...

* * *

ـــ أسألك، يا حبيبي، انت الذي تعرف كل شيء: هل الورود تُحِب ؟

ـــ عن الورود، يا حبيبتي، بت اعرف شيئاً: أن أغار منها. ها هي قد مرَّت ببالك... ومتُّ أنا...

* * *

ـــ انتقيتَني فقيرة، يا حبيبي، لماذا ؟

ـ لأنني لم أجد علاء جبين الا عند الفقيرات...

ـ كلمتُك، يا حبيبي، تكفي... كتاجٍ هي لي وصولجان.

* * *

ـ امس، العصفور الذي على شباكي قلَّ غناؤه، يا حبيبي. تراه شعر بأنني كنت أتوجع من فرقة ؟

ـ هأنذا عدتُ، يا حبيبتي، وحَوْلَ عنقك وضعت عقد القبل. قولي للعصفور أن يعوّض، ولورود الدنيا أن تَشتعل في حديقة بيتكم.

* * *

ـ بعد غيبة أيام، خلتُها بعمر الدهر، ها أنا أعود اليك، يا حبيبتي، وفي يديَّ احلامي... وحبٌّ... وورد كثير.

ـ لا تتكلم هكذا، يا حبيبي. أنت ما غبت ولا هنيهة. سوى أنني اليوم سأكوّم نفسي باقة زنبق وارتمي على صدرك... ومن جديد، على تنهداتنا، يروحُ يدور الفلك.

* * *

ـ صوتي بُحَّ، يا حبيبي... رُدَّ عليَّ... أو احسَب العصافير كلها سكتت !

ـــ سأبقى صامتا، يا حبيبتي... إذ تنهداتك هي ما أُريد سماعه... لتمُت كل العصافير ويبقى صدرك يهبط ويعلو، حاملا الي الأغنية... والهناء... وفجرَ الله...

* * *

ـــ كأنَّك فراشة، يا حبيبتي. ونقلتُك تنعش الزهرات. الا ليتني إحداها.

ـــ انت؟ كُن، بالأحرى، الاصابع التي تلتقط الفراشة... وشدّ عليها، شدّ... ولتمت الوانها في عينيك موتي أنا كل صباح على صدرِك العامر القويّ.

* * *

ـــ سألوذ برسائلك القديمة، يا حبيبي. إذ التي بعثت بها الي أمس لم اجرؤ على فتحها... أتوقعها تنطوي على عتاب وحزن. وتجرحني.

ـــ أدعوكِ إلى قراءتها، يا حبيبتي. تحفزك على ذرف الدموع غزيرة. وعلى الأثر تركضين اليَّ.. وتُغرقين وجهك في صدري... وأحملُك أنا الى فراش الزهر عندنا في الحديقة...

ـــ لم يبق لي من دواء يا حبيبي... ابعث اليَّ بالنِسيان...

ـــ سأبعث اليك بي أنا، يا حبيبتي. وفي كل الحدائق فلتذبل شجرة النسيان.

* * *

ـــ على شَفتي انتَ، يا حبيبي، على شفتي كأغنية عمر !...

ـــ أما أنتِ فلا. إذ أنني لم أخلقُ بعد لُغةً، الكلام. هل تُحبَس الصاعقة والربيع ؟ هل يحبس جنوني في قمقم ؟

* * *

ـــ حقاً سترجع اليّ، يا حبيبي ؟... اصدُقني القول لأرجع أنا معك... إذ في غيبتك أكون غائبةً عن الوجود.

ـــ أرجع أنا اليك ؟ لا. وانما أجعل الوجود بساط ريح من ورد. ويقوم هو اليك. وأكون أنا مصوغاً خاتماً لخنصرك...

ـــ اخبرتني وردةٌ، يا حبيبي، انك شممتها... حقا اقترفتَ هذا ؟

ـــ نعم فعلت. لكن لأهمس في اذنها أن عطر حبيبتي وحده يُغَنّي...

* * *

ـــ من بعيد رأيتُكِ هذا الصباح تقطفين وردة. غرت. متى بدلاً منها تقطفين قلبي ؟

ـــ أنت ؟! من يَقطف النجم المتشامخ على الوجود ؟ قل لي « أحبك » لا غير. ويتكلل جبيني بينفسج... وحولي تدور الاصابيح كأنهن صبايا... وأرقص حتى أموت متمتمةً باسمك...

* * *

ـــ احيانا تفاجئُني بكلمة « لا ». ما هَمَّ. « اللا » في فمك كأنها أغنية.

ـــ حقا أقول « لا » ؟ أكون أتمرّس بلفظها بغية أن لا يُطِلّ سواها يوم تسأليني: « هل في الجمال جمالٌ سواي ؟ ».

* * *

ـــ امس، وأنتِ على زندي، بكيتُ من فرح... عيناي اليوم تشتاقان الدمع... ارجعي...

ـــ دعني، يا حبيبي، دعني بعيدة عنك... سعادتي أريدها مجرحة... لأصَدِّق أنها سعادة...

° ° °

غمامةٌ أنت، يا حبيبي. وتذهب الغمامة بعيداً... وكلما بعدت تكبر... إرجَعْ غمامة صغيرة، يا حبيبي، وغلْ في صدري كذخيرة...

ـــ صدركِ، تقولين ؟ أهيبي بالحقين اللذين يشمخان فوقه أن يغنيا... فتسمع الغمامة... وترجع... وتروح تصغر كعصفورة... وبينهما تنام...

° ° °

ـــ أحسستُ، وأنا بين ذراعيك، بأنني غصن ورد. إقطِف اقطف، يا حبيبي، ولا تأبه لشوك يُدمي الأصابع.

ـــ انا آبه للصعاب ؟ متى كان ايكار يجهل أن بلوغه الشمس سيعرّضه للسقوط محطَّما ؟ مع السعادة بك، يا حبيبتي، طابت نكهة الموت !...

° ° °

ـــ لم تعرِّجي على حديقتنا امس... خيل الي أن الدنيا خلت من زهر.

ـــ فعلتُ قصدا. قلت: حبيبي سيُنقِّلُ عينيه طويلا تحت قناطر الياسمين... طويلا سيفتش عني... وهكذا، تبقى هناك، ليوم مقدمي، بضعةٌ من زرقة عينين أجمل من البحار والسفَر والأغاني...

* * *

ـــ منذ زمن بعيد نبت لك ذراعان، يا حبيبي... تَظنُّهما كانتا لغير تطويقي ؟...

ـــ ايتها الوافدة من آخر الأرض، ايتها الراكضة إليّ من ربيع عينيها... إنَّ الحلم تأنٍ... تعالي نعش في ظل أهدابك دهور هنيهة، قبل أن نُجَنّ... ونَقطِفَ الوجود.

* * *

ـــ أهملتَني، يا حبيبي. شَعري الطويلُ الهادئ قال لي ان شقرته ذبلت بعد أن هَجَرتها أصابعك الهِيف.

ـــ لا تصدقيه، يا حبيبتي، هذا الشعر الكثير التطلب... وغدا متى عدتُ سيهمس في اذنيك انه عاد يغّني... مشاكسا الشمس والريح وأريج الاكاسيا.

ــ بقلم رصاصي واجف خططتُ لك كلمة « لا »، يا حبيبي. كنت أعرف أن رسالتي ستقع في يد أمّي...

ــ فهمتُ، يا حبيبتي، فهمت. ولهذا أتيت أقطف عن فمك بالذات تلك « النَعَم » التي لم تجرئي على كتابتها.

* * *

ــ صوتُك نفسُه، يا حبيبتي، كان يجس نبضي وأنا مريض... اليوم، وقد غنت العصافير على شباكي، سأغمزها ان ما هي التي شَفتني.

ــ الليلة، سأعْرج على منامك، يا حبيبي. وعلى فمك سأطبع خدا تلو خد.

* * *

ــ عندما أكون في خيمة الورد، عندك، أشعر بأنني أحبك أكثر مما تحبني، ايها المعبود الطائش.

ــ أنا لا أعود أعرف أأحبك أم أكره... أنا أضيع...

* * *

ــ اياماً بطولها نسيتَني... خيل الي انني اعيش أوراق الخريف.

ـ ولأوراق الخريف كذلك الحق بأن تستمتع بحسنك، يا حبيبتي... وغداً، متى اشتعل اللوز بالأبيض، تقرأين ابتسامتك على الزهر.

* * *

ـ انَّبتني أمّي في حبك. قالت انها ستموت ان أنا بقيت موضوع قصائدك التي تحولني كل مساء الى دموع...

ـ قصائدي أقرئيها أمك نفسها، يا حبيبتي. فإمّا أن ترقّ لك، وإما أن تلتهيَ عنك بمسح دموعها.

* * *

ـ لا، لن احبكَ بعد اليوم. بعد اليوم سأعيش على ذكرياتي. انها أجمل منك، ايها الناكث الغادر.

ـ أنا سأفعل النقيض، يا حبيبتي. الأمس سأجعله باهتاً، عند اليوم، واليوم ممحواً عند الغد. وتحبينني انت ام لا ؟... ما همَّ... أنا سأحمل كل يوم أرابيع الدنيا، وبأزهارها الحمر والصفر والبيض أُلفّ زوج الحمام الذي هو قدماك.

* * *

ــ لم أُحِبَّكِ بعد، يا معبودتي... لو انني فعلتُ لكان الوجود تحوّل إلى أغنية... ولكان وُلد ورد جديد...

ــ أنا كنت أبسَط، يا معبودي، لم أنتظر أن أجترح الأعاجيب، جعلتُ قلبي أُطيب... وصدري أغوى لرأسك...

* * *

ــ أمس لم أُعطَ أن أراكِ، يا حبيبتي... شعرتُ بأن النجوم قلّت في الصفحة التي كتبها الله.

ــ أنا قرأتُك، يا حبيبي. فكأنني استمتعتُ فوجعتْ عينايَ لطلعة رجولية، طلعتك التي هي أجمل ما كتب الله.

* * *

ــ شَعركِ الأشقر الطويل أوجعتني رؤيتُه... كيف لو تدفق حريُره على اصابعي ؟...

ــ لا لن يفعل... لكنه، في ليلة ما، سيكون وسادة لخدك... وأموت أنا لجمال جمال حلمك.

* * *

ــ بعثتَ الي بوردة فرحة، بعثت اليكَ بكتاب حزين.

الوردة ستذبل كحبك، الكتاب ستقرأ فيه دموعي.

ــ وردتي ولو ذبلت لن تنسى يومها: ستظل تقول انني أحببتكِ. أما كتابك الذي انتقيته باكيا فسوف يعلمني كيف اكفكف دموعه... بانتظار أن أكفكف دموعَ التي أعبد...

* * *

ــ أمس لم أسمع صوتك، يا حبيبتي... خيِّل الي ان الوجود صار بلا عصافير !

ــ اليوم كذلك لن تسمع صوتي، يا حبيبي... لكنني سأعوض بأن أضمك بذراعيّ... اللتين تسميهما عقود الزهر... وفي ذلك الصمت، الذي لا يقطعه سوى قبلاتي، ستسمع أجراس الياسمين...

* * *

ــ امس قرأتكَ، يا حبيبي... فتساءلت ايهما أحب اليّ: بيتُ شعر منك أم حياتي ؟

ــ وأنا قرأتكِ، يا معبودتي، في كتاب الطبيعة: في بياض الزنبق، في سلطنة الورد، وفي شذا البنفسج. لكنني اطبقت الكتاب مختتما: انتِ أجمل...

* * *

ـــ سأمزق كلّ رسائِلك، يا حبيبي... وسأقفل شباكي في وجه الياسمينة فلا تعود تهمس في اذني اسماً سأنساه.

ـــ أنا، لا. ورسائلك سأقرأها وأحبها عني وعنك. أما ياسمينة بيتكم فسوف استنطقها كل الاسماء التي كنت أسمّيك بها، آونة كانت دموعي تغسل محياك الوضيء.

* * *

ـــ لا تمري على غرفتي هذا المساء... غرفتي ستسكنها الريح بعد أن تناسيتِها امس ولم تفي بالوعد.

ـــ لا، يا حبيبي، وسأحج اليها. وان لم أجدك فسوف أبقي فيها من شهقاتي ودموعي ما يدفئك عندما سترجع وتسند رأسك بما أكون تركتُ من وجع قلبي...

* * *

ـــ لا تقرأني بعد اليوم، يا حبيبي. رسائلي وقصائدي فيك مزّقْها... الحب الذي تنطوي عليه جرَّحتْه انامِلك فتحول الى دموع تملأ عينيّ !

ـــ رسائلك وقصائدك، يا معبودتي، مزقتُها منذ زمن بعيد. نثرت أحرُفَها ندى على قلبي... وغداً متى عدتُ اليك، ووضعتِ رأسك المتعب على صدري، فقد تسمعين

النبضات والاشعار تهدهدك... وتنامين على أغنية تقول لَكِ حباً لا يموت.

* * *

ـــ هذا الصباح عقدتُ صداقة مع الريح. كانت آتية من صوب بيتكم، يا حبيبي، وعدتُها بأن أقطِف لها كل يوم طبَق ورد وأرشقها به.

ـــ أنا، لا. اكتفيت، يا حبيبتي، بأن ملأتُ عيني من شعاع الشمس الذي عرّج على شُبّاكك... كان بضا... تراه عرَّج ايضا على ما وراء بعض الغِلالات ؟...

* * *

ـــ فسطاني الاصفر لن يَمُرّ ببالك بعد اليوم... خلعتُه على خادمتي... خُيّل الي انك كنت تداعبه أكثر مما تداعب قوامي الذي يُعطي الاصفر دلالا...

ـــ على هذا، سأحب يدك التي خَلَعتْه على الخادمة... وان أنا اشتقت الى اللهو بلونه جمعت باقة ورد اصفر ورشقتُ بها قوامك... بلى، ويرجع إليَّ الورد لِيشهد بأنً قوامك هو الذي يُعبَد.

* * *

ــ غنيت لكَ أمس، يا حبيبي. لكنك لم تعرف. كنتَ قد قَسوت.

ــ لا تصدقيني، يا حبيبتي. أنا تظاهرت بها ليستمرَّ صوتك سريرا لي، واجنحة، وحلما بأنني أنا هنيهاتُ السعادة واللهوِ بقطف النجوم.

* * *

ــ غضبتِ، يا حبيبتي ؟... ومن قال ان غضبك لا أحبه ؟ بداية دمعة على جفنك بزوغُ شمس... واشربها فأذوق الخمر...

ــ تعال، اذن، يا حبيبي... والا غارت عيناي في تكاثر الشموس... وتدحرجت السكرات على خدي ولا مَن يسكر...

* * *

ــ أحببتُكِ كأننا أنتِ السماء وأنا نَسْر. تُرى سيظفر بها النسر ؟... كل ما يعرف هو أن يضربِ بجناحيه ويعلو يأبى أن يُحطّ.

ــ وأنا أحببتك، يا معبودي، لأنّ جناحيكَ أكبر من السماء.

ـــ كان المطر ينقر على شُبّاكي والشمس طالعة. خُيِّل اليّ أن عينيك تُسدِّدان الى قلبي جمالاً... صرخت: « تعالَي ». وهذي انت بذراعيك تطوقان عنقي.

ـــ لا، وأنا لم آتِ بعد. وعيناي ما تزالان، هناك، تنظران الى جبينك العالي وتتعبدان لأله...

* * *

ـــ رقاع الثلج، يا حبيبتي، حَلّت أمس محل زهر اللوز الذي يغني عينيك. حَسدتُ رقاع الثلج.

ـــ أنا حسدت ما هو أقرب الى أناملك: القلم والورق. لا تكتب لي كلمات من ورد. بذراعَيك طوقني: إنهما أجمل الأكاليل.

* * *

ـــ انتَ، يا حبيبي، لا تعرف أن صوتي جميل. لهذا غنيّتُ لي أنا... ولم ترقص أنت...

ـــ حقاً فعلتِ، يا حبيبتي ؟... لكنني أعرف انك، بقوامك ورأسك الجميل، أغنية. وهذا ما أسمع. ويخترق لا اذني بل نبضاتِ قلبي. وأرقص ويرقص معي الليل والقمر... وبلبل يوقظ الفجر...

* * *

ـ امس، سمعتُ اسمَكِ، يا حبيبتي، بكوكب أغنية نظمتُها لك وانتِ بعدُ صغيرة... لم أكن ضممتك... الأغنية شوق وشوك...

ـ كبُرتُ الآن، يا حبيبي، وجمالي كبر. انظِم فيَّ ما هو أجمل. شرط أن تُبقيَ على الشوق والشوك... والا كانت لك الاغنيتان، ايها الطائر، كغصنين... عليهما تتنقّل...

* * *

ـ عندما أعُدُّ النجوم بحضورِكِ، يا حبيبتي، أجدها زائدة واحدة...

ـ لا تصدّق... هي اصبعك التي تعرف أن « تطرطش » السماء بالجمال... فتكثّر النجوم...

* * *

ـ هذا المساء كنتُ سأغفو على دموعي. تلك التي تُجرِّح وسادتي كلما غبتَ انت وأطلتَ الغيبة.

ـ ولكنني جئت، يا حبيبتي، وستغفِين على دموعي أنا. تلك التي سأشعِلُ بها يديك لأعود، متى تطلّعتُ الى وجهك، أشربها نارا وجمالا...

ـــ كناريُّنا غِنَّى اليوم. ولكن حزيناً. خُيِّل اليَّ انه هو قلبي بعد أن أطلت انت الغيبة.

ـــ لماذا الى الكناري ؟ اصغي، بالأحرى، إلى الوجود. انه قلبي الذي يحويك ويطير بك الى حيث تسكن قامةٌ لك أوجَعُ من الدمع.

*

ـــ حِرتُ هذا الصباح: من أي الزهر انتقي لكِ باقتي ؟ من الورد ؟ من الفل ؟ من البنفسج ؟ أخيراً جئتُكِ بفيروزةٍ، قال الجوهري أنْ لا أجمل منها في مخازن المدينة.

ـــ سأزيِّن بها إصبعي، لا فقط لجمالها، بل لأنها ستقول لمن يراني انني اتختم بلون عيني حبيبي...

*

ـــ دعي لي يديكِ، يا حبيبتي... انهما أغنيّة اصابعي...

ـــ شرط أن تدع لي جبهَتك، يا حبيبي... انها السماء التي فيها أسبح كعصفورة...

*

ـ لماذا تمُرُّ الغمامة البيضاء، يا حبيبي، ولا تكون لنا بساطَ ريح ؟... أما نحن كلمتان في حكاية ؟

ـ تفعل لكي تترك لقلبي الحسرة. والحسرة تزيدني تلهُّفاً الى يومَ يشتَدّ ساعدي فأشتالك وأطير. الغمام يصبح واقعي الذي أدوس. وعلى قبلة أَقطِفُها من فمكِ تولد الحكايات...

*

ـ أحببتكَ كما تحب الوردةُ لونها. وانت ؟

ـ انا ضللتُكِ: كنت الشذا لتلك الوردة... وهكذا بقيتُ مخبوءا في قلبك... احبُّكِ ولا تعرفين...

*

ـ « النعم »، تريدني أن أقولها بغضب ؟

ـ لا، يا حبيبتي، وأفضل منها ألفُ « لا » تقولينها وفمك، ذاك الشطر من فجر، أجملُ فمٍ في الدنيا...

*

ـ هذا الصباح نَسمتْ على وجهي هَبّة ورد... لكنها لم تكن آتية من صوب بيتكم، يا حبيبي. خَنِقْتُ على الورد.

ـــ ها انذا أُكفِرّ عنها، يا حبيبتي. عوضاً عن الشذاء،هاكِ قُبلاتي تَنسَلِك حول جيدك عقداً من لؤلؤ.

* * *

ـــ أمس، أوجعتَني، يا حبيبي... اسمَعتَني أغنية فَرِحة وكنتُ أريدني إلى بكاء...

ـــ كنتُ بعيداً عنكِ، يا حبيبتي. الآن، وصدري الى جنبك، وبوسعك أن تلقيَ برأسك عليه تبكين، اشربي الأغنية الحزينة.

* * *

ـــ الكتاب الذي بعثتُ به اليكَ امس اطبقتُ فصلا منه على وردة صغيرة... دموع البطلة في ذلك الفصل شبيهة بدموعي. فكيف لم يصل اليك بعد ؟

ـــ لربما تأخّر قصدا... تعالَي اشربْ دموعك من خديك، لا من الورق...

* * *

ـــ هذه الرِسالة التي بعثتِ بها اليّ لا تُقرأ. هل تفكّينها لي ؟

ـــ ماذا ! تريدُني أن أضيف الى عصبية الخَطِّ دموعا تمحوها بالمرَّة. مزّق الرسالة الآن، وخُذ خذ معانيَها من شفتيّ.

* * *

ـــ شمسُ كانون لفحتني امس. مَرِضت. هذي انتِ تعودينني. احجبي وجهك لأن الجمال أيضاً يَلفح...

ـــ لكنني لم أجلب لك، يا حبيبي، سوى قبلاتي المهدِّئة... حُسني تركتُه في البيت، في بعض دواوينك...

* * *

ـــ انها يدي هذه المرة التي تَمُرُّ على جبهتك، يا حبيبي... قل لي انك تتحسسها فيصبحَ قلبي قلبين أحدهما أنت.

ـــ أنا مريض، يا حبيبتي، كل ما أعرف انكِ في الوجود ومن أجل هذا سأُشفَى.

* * *

ـــ أخافُكَ تنساني...

ـــ انا، يا حبيبتي، اخترع، كل يوم، حُبّاً جديداً. وهو

سِرُّ شبابي. لكنني لن أقدر على ذلك الا تَحْتَ زخٍّ من قبلاتك.

* * *

ـــ اشتقتُ اليك، يا حبيبي، ولا اشتياقَ الغِمد الى السيف.

ـــ بعد الآن لا يوجِعْكِ غيابي، يا حبيبتي، والغمد لا يعتز بالسيف الا وهو بعيد عنه. الحياة قُبلة، لكنها قبلة صعبة كالحياة.

* * *

ـــ انعصر قلبي امس لتلفظكِ بكلمتين: « فراق » و « انتهاء ». اسمعي يا حبيبتي: اغنية واحدة سأغنّيها: إنكِ لي، لي الى الأبد.

ـــ أعِدْه على مسمعي مطلع هذه الأغنيّة. انه الندى وأنا الزهرة.

* * *

ـــ امس، سألت عنكِ هذه الوردة المكوكبة في الاناء على شباكي. هي تعرف انك هجرتِ مخدعي لأسابيع.

راحت تعزيني. لكن بأن تشاركني ذرفَ الدموع.

ـــ ها أنا قد عدتُ، يا حبيبي. ووجود هذه الوردة تحت سقف مخدعك لا يعجبني... سَرِّحْها هي واكتَفِ بدموعي أنا...

° ° °

ـــ لم انسَكِ امس، يا حبيبتي. هل تنسى الوردة عبيرها ؟ انتِ اغنية عمري، حبي، ولذَّةُ العيش. لكني كنت بعيداً عن ان اطولك. وما انتِ التي وجِعت وانما انا.

ـــ الامس ؟ انسه، يا حبيبي. وهذي قبلاتي تمحو أوجاعه عن جبهتك العاليةِ كالزمان.

° ° °

ـــ أمس، التقت يدي جبهتَك، يا حبيبي. كل ما بي حسدها. هذا صَدْري يعلو ويهبط من تَوق...

ـــ قولي له، متى ارتمى على صدري، ان لا يعود يقول انه كان يعرف السُكْر... واذكري، يا حبيبتي، انكِ انت الكأس والخمر والموت الذي بينهما...

° ° °

ــ ستنساني، يا معبودي، ستكفّ عن حُبّ.

ــ لماذا تريدينني افعل ؟... قولي، بالاحرى، لهذا الليل ان تكف ذراعاه عن لف الوجود. تكونان ما خُلقتا منذ خُلقتا عملاقتين... حياتي هي سكري بك، يا حبيبتي، ومن بَعدِكِ فلتتفتّتِ الشمس.

* * *

ــ أُمسِكُ بيدكَ، يا حبيبي، فاحسها هاربة مني... حنانَك قل، قل لي لماذا ؟

ــ لأنني أحِبُّكِ اكثر منها. وغداً عندما تعرفين كم انا موجَعٌ بجمالك تقولينني صرتُ كُلّي يداً... واطوّقك بي لكي اعود لا افلتك على العمر...

* * *

ــ قيل لي، يا حبيبتي، ان لا اجمل من صوتك الا تدحرج عُرْبِكِ على أفق عيني الزرقاوين. غَنّي، غني لي بالاثنين معاً.

ــ أفعلُ انا ؟ بالأحرى، أنشِدْني انت الشعر، رفيعاً كجبهتك التي من بعضها العنفوان.

* * *

ـــ أمِرّي يدك على جبهتي، يا حبيبتي. ان وجودي لَيُصبح آخر... والدنيا تغدو لي اغنية.

ـــ وأنت أمِرَّ يدَكَ على صدري تلامس قلباً كان قد تهدّم من حب، لولا خوفُه عليك انت المُسَلطن فيهِ وحدَك...

° ° °

ـــ امس تحطمتِ الدقائق، يا حبيبتي: لم نلتق.

ـــ كنت اعرف ان الزمان سيهرب من بين اصابعكَ. لكنني توقعتُكَ تأمر زمانا آخر بان يكون... وتحمله الي باقةَ ورد...

° ° °

ـــ صوتي الجميل ؟ انه هكذا لأنك انت الأغنية.

ـــ لا، يا حبيبتي، لستِ صوتاً جميلاً. انت حياتي تغني، وتشيلني إلى آخر الارض، وعلى نقرة غيتار لك أموت وأحيا...

° ° °

ـــ رأيتُكَ تسرّحَ عينيكَ على ضفيرتي المدللة الطويلة. غِرتُ منها. وددتُني أجزُّها وأرمي.

ــ عندئذ أعود إلى شَعرك الذي تزلزلني عافيته. واداعبه مُغرزاً فيه اصابعي. واقول له: متى، يا حلو، متى تُنبت ضفيرةً اجمل ؟ وأغنيَ أنا وأجَنّ ؟...

* * *

ــ مرّي ببالي أيتها الحاضرةُ الغائبة. أو يذبلَ كلُّ الزهر الذي جمعْته لي أناملك.

ــ أنا ؟ لا تصدق انني غائبة. سأعودُ يوماً اليك، بحسني، بشوقي وبقلبي، ذاك الذي لا يَسكنه سواك.

* * *

ــ أخيراً، يدُكِ على صدري ؟ إنها ان اعيشَ وأسعدَ ويغنّي لي القمر...

ــ أما أنا فقد عشتُ دهراً أنتظر أن تكوني وُجدت، لأغرقَ في زرقة عينيك التي لا بحر أجمل منها...

* * *

ــ أمس، أوجعتِني، يا حبيبتي. تغيبُ الدنيا ولا عيناك اللوزيتان. انتِ مني أمي وطِفلتي وأغنيتي وسَلُّ الحُسام.

ــ لم أكنْ جادةً، يا حبيبي. كلُّ ما كان أنني وجِعتُ لأنك لم تتوجّعْ بحسني كفاية.

* * *

ــ لا تقولي لي انكِ تغنين باسمي في سويعات الهجران. وجهك البعيد صار أُغنيتي الوافدةَ من قلبي.

ــ ضَع، بالاحرى، خدَّكَ على هبة نسيم، وابعث بها إليّ. احيَ وترتعش في نفسي البطولة.

* * *

ــ تعالَي... بعد غيبتكِ، مَمرُّ الياسمين لم يبقَ جميلاً.

ــ لماذا لا تجيء أنتَ إلى عندنا ؟ اقوالك اعجبَت امي. ومنها أن كلمة « احبكِ » لا تُحَب، وانما وحدها كلمة « يا عروستي » صداها يرنُّ في أقاصي القلب .

* * *

ــ لماذا لا تتركني، يا حبيبي، ولم أبقَ الفتاةَ الصغيرة، التي كنتَ تدعوها دُمية ؟

ــ لأن السمع، يا حبيبتي، لا يترك الأُغنية... ودمية

الأمس اصبحت القَوَامَ الفارغ الذي متى لفَّه زندي ارتعشت السكينة وطار الليل...

* * *

ــ تعالَي الى قلبي... وأُقفلَه عليكِ... وتعودِي لا تهربين...

ــ من قال انك تملكه، هذا القلب ؟... منذُ صبيحةِ امس دعوتُ نفسي اليه... وسكنتُه وحدي سكَني زهرةَ البنفسج.

* * *

ــ هذه الليلة، حلمتُ، يا حبيبي، بأن دمعتين تحاورتا على أهدابي. واحدة تقول انها تعبدكَ، والأخرى انها تحتفظ بمواجد قلبها الى يوم تكِفُّ انت. عندئذ تحاول اغراءك من جديد. أُشفِق يا حبيبي، على الدمعتين، ودُقَّ على باب قلبي...

ــ قولي لهما، يا حبيبتي، أن تتلألأا على أهدابك في اليَقَظة كما في الحلم. تصورتهما لهما بعضُ جمالك، وتصورتُني أشربُهما وأعيش.

* * *

ـــ سأتركك، يا حبيبي، مستبقيةً منكَ دموعاً وخدَّين مخمَّشين.

ـــ ستستمرين إلهتي، يا حبيبتي، ولو وسط الآهاتِ التي لا تُعَدّ.

* * *

ـــ لن أزورَكَ أنا، يا حبيبي. قلبي سيزورك.

ـــ هو ؟... إنه عندي منذ سنين. تعالَي انتِ، تعالَي وليتكسَّرِ الليل على النهار، ويعودَ الجمال دميةً بين يَديّ.

* * *

ـــ أمس، وأنا مفلِتَةٌ من بين ذراعيكَ، يا حبيبي، خُيِّل إليّ انني نجمةٌ وانطفأت.

ـــ عُودي، يا حبيبتي، وتعودَ يداي تبعثرانِكِ على قبة الفلك.

* * *

ـــ استيقظتُ فوجدتُكِ على زَندي، يا حبيبتي. ماذا ! قلت، هل صار للوجود صَباحان ؟

ـــ انا، يا حبيبي، استيقظت فوجدتُنا أُغنية. اجعلها تَبقى

هكذا. وتأخذَ منها العصافيرُ والاجراس المعلّقةُ على قوسِ الغمام...

* * *

ــ بَعثتِ إليَّ، يا حبيبتي، برسم يجمعنا معاً. ماذا ! حقاً ظننتِنا كنا منفردين ؟ الضِحكةُ التي تملأُ وجودَنا كانت ثالثتنا... انها مِن حُبّكَ لي، هذا الذي لا ابيعه بعرش مَملكة.

ــ أُسكُت اذن، يا حبيبي، وَدَعْه حبي يُغَنّي كبلبل، فلا يبقى غصنٌ الا ويَقلق.

* * *

ــ انتَ لا تحبُّني، يا حبيبي.

ــ حقاً ! ومن الذي قال: «عيناكِ الذهَبيّتان هما اغنيتي. سألتهما، يا حبيبتي، متى ترجعاني الى بيتنا والى عَيْنَيْ امي ؟ ».

* * *

ــ تريد ان تعرف سرَّ حبي لك، يا معبودي ؟ سِرُّ حبّي أنك في الوجود...

ـــ اما انا فلم أُصَدِّق بعدُ ... حسنُك هذا ليس كذبة؟...

° ° °

ـــ وانا على زندك أجد الدنيا أجملَ، يا حبيبي...
ـــ أنا أعود لا أراها... بالأحرى، أجِدُني أحمِلُها وأسافرُ في عينيك اللتين خَلقَتا البَحر.

° ° °

ـــ فرطتُ وردةً، يا حبيبي، لأتصوَّركَ تلعب بقلبي...
فقالت وهي تَمّحي: «ومع هذا أحِبُّكِ، ايتها الأصابع».
ـــ أنا، يا حبيبتي، سأستمر أفرط الورد، لأموت من سَماع ما يقول.

° ° °

ـــ أمس صفَّفْتُ شعري، يا حبيبي، وفق ما تُحِب: غديرتان اثنتان... كما وانا طفلة... لكنك لم تزرنا لأسمح لك بأن تُمِرَّ عليهما الأصابع. اليوم غديرتاي انفرطتا...
ـــ مَن قال ؟... لأنتِ، كيفما كنتِ، تنشكِّين غصن ورد في الريح.

ـــ دعني مِن حبك، يا حبيبي. انه لَيَضرِبُني ضرباً.

ـــ تَقولين... ولولا اليدُ التي تضرب أوتارَ القيثار لما سَكِرَتِ الأُذن وجُنَّتِ الهنيهة.

* * *

ـــ سأبقى لكَ، يا حبيبي، ولو أنت هَجَرْت.

ـــ انا لا يَمُرُّ ببالي ولا حتى هذه. وسيظل العقد، الذي حول عنقك، من قبلاتي. قبلات لا تذبل ولو ذبل كلُّ الزهر ونَسيَ الناسُ اسمَ الربيع.

* * *

ـــ قولي لي، يا حبيبتي، لماذا أسكر أنا عندما أسمع رنّة صوتكِ. هذا وانتِ تَتكتَّمين عليه ولا تُغَنِّين.

ـــ لأن صوتي صدىً لنبضات قلبك، يا حبيبي، تلك التي عليها أغدو بلبلاً يقلق ويوجعُ الغصون.

* * *

ـــ أحببتُكِ، يا معبودتي، كما أسمعُ الأغنية... أنتِ كيف ؟

ـــ انا لم استيقظ من أُغنيتي بعد، فكيف أعرف كيف ؟...

ـــ لو انني الله، يا حبيبتي، لكنت خلقتك وردةً حمراء، او غمامةً بيضاء... بالأولى أعيش الحياة معك عبيراً... وبالثانية أعيشها خيمةً طائرة تَحْمِلُني الى حيث لا معاد...

ـــ دعك من كل هذا، يا حبيبي... فمي أطيبُ عطراً، وشالي لا يطير إلى أبعد مِنّي.

ـــ دعْني أكفّ عن حبك، يا معبودي الطائش، لأن حُبّك بات يوجع كاغنية فراق.

ـــ انا، على العَكس أطرب لها أغنيةَ الفراق، تَرُدُّ حبي سريع العطب، فأداريه كَقَلبِك الذي الهو به كما بالهناء وكأسِ السُكْر.

* * *

ـــ كتبتُكَ، يا حبيبي، على وجهي. وغدوتُ اينما

أذهب يقرأ الناسُ فيه عينيكَ، وكَلمتَك الّتي من سَيف، ونُوراً بحَجم قلبي.

ــ أنا، لم أكتبْكِ، يا حبيبتي، ولا حتّى في قلبي. لِيظلَّ حُسنُكِ منقوشاً على الريح، فاتعبّد كما عابدُ الصَنَم أمام الصنم.

* * *

ــ امسِ مساءً، سمعتُ طيراً يُغنّي. خُيّل اليّ، يا حبيبتي، انه حزينٌ كما انت في آخرِ لقاء.

ــ أنا، يا حبيبي، سمِعتُ طيراً صباحِيَّ الشجى. كان في صورة وَسامتِك، وحَطَّ عينيك في الشمس، وشَلَحك اياي على زند، تَخطَفني إلى آخرِ الزمان...

* * *

ــ اشتريتُ لكِ كتابَ حكايات، يا حبيبتي. تصفَّحتُ بعضَه فوجدتُه جميلاً جميلاً. لكنَّ حكايةً لا تزال تعوزه، هي التي تُكتب على عينيك...

ــ أروعُ منها، يا حبيبي، كُلُّ هذا الذي تقول.

* * *

ـ هذا الصباح، قبل أن أولد من جديد في حبك، حَلمتُ أنني نسيتُك ولم تبق قسماتُ وجهك منحوتةً إلا في نداء. هل تفكُّ لي هذا الحلم ؟

ـ هذا يعني انني صرت، يا حبيبتي، قُبلةً طائرة... وأنكِ ستلتقطينها اليوم كما فراشةً بشبكة.

* * *

فهرست الكتاب



قصائد من دفترها

الطبعة الاولى ١٩٧٢

الطبعة الثانية ١٩٩١

مَن يشتريني بقُبَل ؟

وأنا بعْدُ لَم أزَلْ،
في العشْرِ، طفلةً شُعاعْ،

كنتُ أظُنُّني أُباع
ويشترونني بقبل ...

ومرَّةً، في الحَبَقه،
لَقِيَني نَدى الربيعْ،

ناداهُمُ : « أنا أبيع
مَن يَشتري بزنبقه ؟ »

ومَرَّ ليلٌ ونهارْ
وأنا أُعطى ... وأُرَدْ ...

يَأنَس بي حيناً ولدْ ...
وحينةً ذاتُ سِوار...

اليوم، يا حُلوُ، أتيتْ،
هَل تشتريني بِحصانْ

يَهْدُبُ في سَمع الزمان ؟
لا، يا حبيبي، لا اشتريت ...

دعني أرى ولا أرى
إلّا بعينَيّ مَن عَبدْ،

كنجمةِ غرْسِ الجلد
عَلَتْ فلا حُلوَ افترى ...

لكنْ، ولونِ مقلتَيكِ،
جُثتُكَ أرمى فألَمْ

أو لا ألمُّ ... لا أهَمَ ...
أرمى كوردةٍ اليك ! ...

شريطة شعر

شريطَةُ شَعْري جريخ،
وألبَس وجه الكآبة !

حَبيبي أطالَ غِيابه،
وقلبيَ خَفقَةُ رِيح ...

فيا بلبلاً في الجُنينه،
حَبيبُكَ زُرْ بُلبلي،

تؤاسيه لا مِن علٍ
وعينُكَ تَغمِزُ عينه ...

وإمَّا تَمُرَّ بِزهرَهْ
لَوثُ عُنْقَها من شَجَنْ،

تَودَّدْ لها مُفتَتَنْ
وقُل : « راجِعٌ هو بُكْرَه ... »

حَبيبي تَفَجُّرُ مَطْلِعْ
قصيدٍ، وشَقُّ ابتسامَهْ !

تُرى في السماءِ غَمامه
تُبشِّرُني أن سَيَرجِع ؟ ...

شريطةَ شَعْري الهَمَلْ،
كفاكِ غِوىً، دارَ مَن دَارْ،

وعادَ ليطبَع مِن نار
عليكِ ... عَليَّ ... القُبَل ...

شُبّاكُه

شُبّاكُه الذي انفتَحْ
تُحِبُّه اختي الصغيرهْ،

تَغمِزُني : « شُمّي عبيره
مَن قلبُه هنا انذبح ... »

يا ويحَها ! جَرى جرى
بَصَرُها خلفَ الستائرْ ...

والأربَعُ الشُقْر الضَفائر
تُزعِجها فيما ترى ...

أشياؤه هَل رَقَّتِ
لها ؟ فراحت مِسطَره،

كِتابُ شِعر، مِجْمَره ...
تَهتِف : « ها أُختُ التي ... » ؟

حُلوةٌ، يا أُختيَ الصغيره،
دَعيكِ من خَطّ البصرْ

هنا. هنا قَلبي انكسر،
ذاتَ ضحىً، ذات ظَهيره !.

لا، لم أَزُر مَن أُلغزا
بعْدُ، ولكن ما أُشحْتُ

عن بعضِ آهٍ، وسَمحت
لِعينه أن تَغمِزا ...

مَحرُوسَة ٧

في حَيثُما أسبَحْ،
وآسمُكَ في فمي،

عُريِيَ يَحتمي
به، فلا أجنَح

ذاتَ ضحىً عَبَرْ
بي هائِجٌ من يَمّ،

هَمَّ ... وما أن هَمّْ
حتى رأى وفَر ...

ومرَّ مَن يسألُ :
ــ أين يَدايَ، أينْ

تُطوِّقانِ الزيْن
مَن شعرِكِ المُهمل ؟

فَقُلت إن يَشرَسْ
ذاكَ العمي العمي

باسمكَ في فمي
أرشقهُ يَخرَس.

تغيبُ ... تَبقى معي ...
في البَحر، في الأنهار،

عُربي أَنا القهَّارْ
يَظَلُّ مِن شَعشعِ !

لماذا الجمال ؟

كِبْرُ عينيَ لِمَ ؟
ولِمَ الهُدْبُ فُصولْ ؟

فاتِني، هلْ لتقولْ
أنني بعضُ السَما ؟

لِمَ لي شَعْرٌ هَمَلْ ؟
شَفَةٌ مُقْتَضَبَه ؟

ألأُعطاكَ هِبَهْ
مِثلما تُعطَى القُبَل ؟ ...

كَتبوني في الوَرَقْ
قالَ ... نَهداً مُشرئِبّ

حُبِّني أو لا تُحِبّ،
أَجْمَلُ الوَجد حُرَق !

ليس لي أن لا أَمُرّ
بسوى حُبّيَ لكْ،

أبِقناءأنتَ الفَلك ...
وأنا طيراً يَكُرّ ...

أيها الساكنُ بي
غُصْنَ وردٍ، غُصْنَ آسْ،

حُلْمي لو أنا كاس
وأُغنيكَ : « اشربِ ! »

لِمَ يَمُرُّ لا يُسلِّم ؟...

لِمَ يَمُرُّ لا يُسلِّمْ ؟
أُختي، اسألي زهرَةَ نارْ

هل حَطَّ عصفورٌ وطار ؟ ...
تَرْكي ولا عتابَ يُؤلِم !

أوّاه ! كم كان يُغيِّبْ،
في شَعَري الوجهَ الوَسيمْ !

يَجهش بالدمع العَميم،
يقول : « جُرحُ الحُبّ طيّب ».

اليومَ، لِمْ مرَّ وما
مَرَّ ؟ ... أحُسْني في ذبولْ ؟

وما أنا التي تقول :
« أموتُ لو ذقْتُ الفما » ؟ ...

يَعرِف، قُلتِ، يَعرِفُ ؟
وانا وحدي الناسيه ؟ ...

أختي، سأبقى الداليه
لِقاطِفٍ لا يَقطِفُ !...

بلى ! فمي، كعَهْدِ أمْسْ،
أجْمَلُ ما رَوى الرُواه ...

مِنْ شَفَةِ جَرحةِ آه،
وشفةِ قِطعةِ شمس ...

أسمع صوته من الجنينه...

أسمَع صوتَه من الجُنينه،
وصوتُه الرجولَةُ الصُراخْ.

أذكُرُ، يومَ بِهواهُ باح،
يداً له تضُمُّ غَيْرَ هَيْنه.

أُختيَ، بنتُ الأربع السنينْ،
كانت تَرانا. سألت تَقْلَقْ

عَن الذي طَوّقَني ... طَوّق ...
وأنا مثلُ غُصُنٍ، ألِين.

أُختي، مَتَى كَبُرتِ وارتفَعْ
خصرُكِ واحلولى فَمٌ بريءْ،

إبقي، اهرُبي، من جُرأة الجَريءْ ...
انا ضعُفت ... وهو ما ارتدع ... !

اليومَ،ها جُنيتتي تَميدْ
لِصوته القَويّ كالجبلْ،

تُرى دَرَتْ أُختي بما اشتعل
في خاطري مِن فرحةٍ وعيد ؟

أحِسُّهُ شبّاكَها الرَخيّ
سِتارُه، يَحجُبها كطَيْف،

تريد أن تَعرِفَ كيفَ كَيفْ
أرُدُّ عَنّي السَاعِدَ القويّ ...

كلّ الرعونات

تَعيشُني خاطرةٌ ببالْ،
أعيشُكَ انجراحَةَ الأَبَدْ !

ما الخاطراتُ ؟ حُلُمٌ نَفَد ...
ما جَرحتي ؟ دَعْهُ لِيَ السؤال ...

لم أُنتَ كالربيع، لا يَفِدْ
الا اذا تهافَتَ الشتاءْ ؟

وأنا فوحٌ دائمُ العَطاء
شممتَ ام لا وزْدِي الغرِد ؟

إفعَلْ وَخلِّ القَولَ للهزازْ،
الحُبُّ أن تحيا وأن تجنّْ ...

كَوتَرٍ نهدي ... نَقَرْتَ رَنّ ...
دُرْ معه، إنَّ الوجودَ دار !

حَبيبيَ، الليلُ قد اندرى،
عندَ قَوامي، عندَ مقلَتيَّ،

تَتركُني له ؟ أفِقْ عَليّْ
ألا ترى ؟ ... أموتُ كي ترى !

تَعرف ما تَفعل، يا وريثْ
كُلِّ الرعونات، حِلى الحَالِمْ ؟ ...

تَقْحَمُ بيتَنا كما الظالمْ،
تَخطَفني وأنا أستغيث ...

قصيدة الحياة

قَسوتَ ام لِنتا،
ما هَمَّني الضنى،

قصيدَةٌ أَنا،
مَطلِعُها انتا !

كتبتَني بخَمْرْ،
هذي انا أُغرَبْ،

لكنْ اذا تَشرَبْ
فالكلماتُ جَمْر !

تَظُنُّني أَقْرا
كحلوةِ الفصول ؟

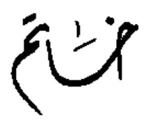
لا وأنا الذهول
سِرِّيَ لا يُدرى !

تقطِفُ بُستانا
لو انتَ تَستطيعْ :

حيناً، أنا الربيع ...
والصيفُ، أحيانا ...

انا هَوى الصَلاه،
كُنْ انتَ ما كنتا،

مَطلِعُها أنتا،
قَصيدةُ الحياه !



ويا أمُّ، لا تجزَعي ...
يَدي مَسَّها، ناعما،

لِيجلُبَه الخاتما
على مُشتهى إصبعي ...

ووشوشَ أُذنيَ أكثرْ :
« ألا ليت أُمَّكِ، قال،

تُخفِّفُ مُرَّ السُّؤال ...
تعودُ، كما أنتِ، سُكَّر ... »

دعيه، وعينَيكِ، أُمّي،
دعيه وما يَستطيبْ ...

انا حُلُمي أن يُذيب
قَوامي بِلثمٍ وضَمّ ...

رَجوتُكِ كُوني ولا
تَكوني ... ونحنُ حضورْ ...

وإن غمزَتْهُ الزُهور،
عَلَيَّ ... وإن قبَّلا ...

وقالَ وقال ... فجرْتْ ...
انا، خاتمٌ بيدِ ...

أضاميمُ وردٍ نَدي ...
وطَرحةُ عُرسٍ ... وطِرْت ...

أمام المرآة

ضفيرة شَعري، خبّري خبّري الحُلوا
بأني لا اهوى، ولو مُتُّ، لا أهوى ...

أنا قلتُها ؟ ... لا، يا ضفيرةُ، زقزقي
على إصبَعي واروي من السرّ ما يُروى ...

وان ساءَلت فيكِ العشيّاتُ : « من تُرى
تكونين ؟ » قولي : الهَمَّ والضمَّ والنَجوى ...

ضفيرةَ شَعري، لِمْ تذكَّرتِ ما جرى
لنا معه، ذيالكَ الزارِعي بَلوى ؟

أما هو مَن كَفَّاه بعثرتاكِ لا
تَكِفَّان، حتى لَلضنى أنتِ والشكوى ؟

ومَنْ بيَ حَطَّ المشتهى، والتقى فمي،
وراقصني كالشمس راقصتِ الصحوا ؟ ...

وقال : « انا سِحرُ الزمان فَرشتُهُ
لِنقلةِ رِجلٍ لم تَزل مِن دَدٍ نشوى ...

هنيهاتُ، طِرْنَ، اشتَقْنَ، تَيَمْنَ نقلةً
سها الكونُ إمَّا افتوتنتْ وانتهى سَهْوا ! »

حبيبي، حبيبُ العمر، كانت له يدٌ
تَعيث بِخصري، بالمعاني وبالفحوى ...

تشُدّ تَشدّ. الليلُ يَذكر قِصتّي !
وأنسى انا ! بِمْ، بعدَ خصريَ، يُستقوى ؟

ضفيرةَ شِعري، ظَلّلي نارَ ما أنا،
وقُولي : لذيذٌ أن أَضِلَّ وانْ أُغوى ...

الحُبُ العَجَبُ

أَكتُبي على الزهَرْ،
أُختِ، أنه هجر ...

ذلكَ المُعذِّبي
مَن هواه مِن حجَر !

لُعبةً ارادني
إن لها بها كسَر ...

تَشمَتين، أُختِ ؟ لا
وامسحي معي العِبر.

مَن حبيتُ، حُبُّه
كالهناءِ مُبتكَر.

مَرَّةً بكى، اذكُري ...
أُجملُ البُكا ذِكر.

كانَ ذاكَ مُذْ انا
فوقَ زَندِه سَفَر ...

قال لو أُحِبُّه
إن وفى وإن غَدَر.

قلتُ : « هل تَشكُّ ؟ » وانهار
كالشِهاب مَر !

أُخت، تَذكرينها،
صورةً من الصُور ؟

هُو بي مُسَمَّرْ
وكأَنَّ انا القَمر ! ...

أختٌ وهل أرفض؟..

لا، أختِ، لَم يَقُلْ :
« أُريدكِ الحبيبه

بل زوجةً ! « يا طيبه
مَن عِطرُه كَفُل ...

وزاد : « اين يسكُنْ
أهلُكِ ؟ هَل وراءْ

ملاعبِ الهَواءْ
حَيثُ المروج تَفْتُن ؟

مَن عندَكُمْ في البيتْ ؟
أُمُّكِ ؟ يا هَنا...

قَولي لها : « انا
أُحِبّها مِن كَيتْ ... »

أُختِ، وهل أرفُضْ
ما قالَ ... ما يقولْ ؟ ...

وتركضَ التُلول
بي وأنا أركض ...

« أُريدكِ العَروسْ »،
ردَّدَ في أُذني ...

ولَمْ يُجِب عنّي
خصري الغَوي المَيوس ...

صَرفتُه بِطيبْ،
أهْمِس، مذ دخْتُ :

« يا حُلوُ، لي أُخْتُ
تعرِف أنْ تجيب » ...

لعبة

إرمِني على
الشمس، يا حبيبي !

أو، على آسمِها،
اكتُبْ فمي وطيبي

عَلِّ قارتًا،
فوقُ، في الغيوبِ،

فَكَّ أحرُفي
الصعبةَ الذُهوب،

وهَداكَ، يا
ضالُ، في دروبي.

لُعْبَةٌ ؟ ... أنا
لستُ للّعوب.

لا وانما
النَهرُ مِن وثوبي.

مُرْ أُضِجَّ في
الكوب خمْرَ كوب،

ويهزُّكَ
الغُصنُ مِن رطيبي.

بِيَدَكَ اتَّخِذْ،
أنا لي عيوبي.

عشتُ لا لِليلِ
ولا غروب ...

إرمني على
الشمس ... يا حبيبي !

نُزول السِّتار

دَعْ مِن غدٍ وأَمسْ،
أَليومَ، خُذ خَصري ...

وآرقُص على الزَهْر
ولْتَتَلوَّ الشمس ...

أُحِبُّها تَغارْ
هذي التي فوقُ

وأنتَ لي طَوْق
مِن قُبَلٍ ونار...

الشمسُ ام أنا،
قل، وسنى عينيكْ،

قُل، مَن على كَفَّيك
تَقْلَقُ أفتنا؟

وتُشتهى أكثرْ ...
وبعدَ ما تغيبْ،

تَسأل، يا حبيب :
« مَن خصرُها عنبر ؟ ... »

أَلشمس فَلْتهلَكْ ...
أنزِلْ، كَمن يَغارْ،

بوجهها السِتار ...
كُلُّ جمالي لكْ...

دَلال

تُغنّي ؟ لِمَ لا تدري
بأنْ خصري أنا العودُ ؟

وإنْ تَعزِفْ تفاوتْ فوق
تَختالُ الاماليدُ ...

أنا يَجهلَنني مَن فاتهن
القَدُّ والجيدُ

وَمَن يَحسُدن ... أَمَّا الفِتَنُ
الزَيْنَاتُ والغيدُ،

فيُخبِرْنَكَ هل مُتْنَ
بِغيري الأَعينُ السود ...

تَطَلَّعْ، ثوبيَ الريح
وشَعري الليلُ والبِيد ...

فإن بينَهما ضِعْتَ،
كما في الفَرحةِ العيدُ

فعِشْ في أَنَّتَيْ أُنهودتي،
أَنتَ الأَناهيد !

حبيبي، أُصيِّدُ حُسني،
ولذَّاتُ الهوى صِيدُ.

أُلا اقطِفْني كما عَن أُمِّهِ
يُقطف عنقود ...

حبيبي، زَندُكَ الأَخْذُ ...
حبيبي، خَصريَ الجُود ...

لم أدرِ...

لم أدرِ هل أعبُدُهُ أم أحِبّ ...
يَهُمُّني منه شَبابٌ عَرِمْ،

نَبرةُ صوت كالهَنا في الكَلِمْ،
وجبهَةٌ كناهِدي تَشرئِبّ !

أمسِ تلقّاني كأنّي اجتَمَعْ
فِيَّ الغِوى والحُسْن حتى استطابْ

أن يحلمَ الحُلمَ بأني الرَّباب
يَمَسُّني، أجَنُّ حتَّى الوجع !

الله، يا أختُ، اسألي في هواهْ
هل هو كالريح يَلُفُّ الربى ؟

أو كاهتزازِ الغُصنِ ما أعذبا ! ...
قولي له : « صِباهُ هَمِّي صِباه ... »

وإن هُوَ ازداد اشتياقاً إلى
عَصْري، إلى كَسْري كما غصنُ ضَالْ ...

تَظاهري بأنَّه منكِ نال
وذَوِّبي في « نعمِ » بعضَ « لا » ...

أختِ، انا يَلَذُّ لي أن يَضِيعْ
فِيَّ ... كما في الليل ضاعَ الشفَقْ ...

تذكَّري ما كان يَعني الحَبق
لنا وقد طالَ غِيابُ الربيع ...

صِبَا

حَمَلتُ صِباكَ أفتنَ من وُلوعي !
تَمَنُّ عليَّ آيلكَ بالربيع ...

حَبيبي، واغوَ بي حُسناً وقَصْف،
كأنَّ الحسنَ فرعٌ من فروعي.

حبَستُ مِن التهالُكِ والتهامي
دموعاً، واحتبستُكَ في الدموع.

لِمن أنا بعدُ ؟ لي ؟ لِلريح جُنَّت ،
لقول الليل : « ضيعتُ أنا فضيعي ! »

وِسادَتِيَ البليلةُ كم تمنَّت
لو انكَ طيفُ أطياف الرجوع.

تمُرُّ ولا تَمُرُّ كما بِكِذْبِ،
وقال خُطاكَ مِن ضوء الشموع.

فإن طَلَعت عليَّ الشمسُ قالت :
« انا قصّفْتُ منه سنى الطلوع !

هنا مِن بثِّه، وهناك مما
بآهتِه على حُسني النَصيع.

أراه ؟ ... اما أراه بكى وابكى ؟
بلى ولَوى الغصون على الجذوع ؟

ولوَّنَ كل زقزقة ببلوى
وميّل باقةَ الحَوْر البديع ؟ »

حبيبي أَنتَ من حُدِّثتُ عنه
حديثَ الشمس أوجعَها وجيعي.

ضممتُك، قال لي حُلمي، وطارت
بقايا الحُلم ... وانتبهتْ ربوعي ! ...

التَمَّة

حبيبيَ، التمَّةُ في البُحيرَهْ،
هذي التي تسلُبني النظرْ،

إخالُها شِعْرَكَ قد عبر
بالي، فَبالي، وجَعٌ وغَيره ...

شِعرُكَ، هل شِعرُكَ من أُناقهْ ؟
التمَّةُ، الآنَ، كما النغمْ

تَسلطنتْ، تُقال من شَمم !
مِن زهرنا ارمِها غداً بباقه ...

أُحبّه شِعرَك من رُخامْ،
يَسطو، يُغنّي فوقُ، في الأُفُقْ ...

مِن بعلبكّنا له الخُلُقْ
والسِتّةُ الأعْمِدةُ العِظامْ !

أزورُهُ كهيكلٍ جَلَلْ،
أدخُله، أصدَع بالصلاه !

أهواهْ، مَرّةً، كما الحياه،
ومرّة أقرُطُه قُبل ...

حبيبيَ التمّةُ مُوجِيَهْ:
خطَّت على بحيرة الذهولْ،

بقلم الأشهر والفصول،
أنْ شمَمْ انْتَ وأغنِيه ...

أنا وأخي الصغير وحبيبي...

يمرّ ... هل يَسألْ
عَنّي أخي الصغيرْ ؟

ذاكَ الذي يَطيرْ
سُكّرة تُؤكل ؟

ويَنتشي المَعمُودْ،
مركّباً عنّي

أنْ قلتُ لِلدّنّ :
« هل غيريَ العنقود ؟ »

ومَن تُرى نَبَّهْ
أخي وجَنَّنا

أن الغِوى أنا،
لكنَّني كِذْبه ؟ ...

ويَركُضُ الصغيرْ،
أعجِبَ بالخبَرْ،

يَزرعُني زَهَر ...
يَحْصِدُني عَبير ...

ومُرَّ، يا الثمُرْ،
بي ... تَغْوَ بالشَعْشَعْ،

وبأخي ... تَسمَعْ
لِبلبُلٍ يَكُرّ ...

لا يا حبيبي...

لي الزجاجُ عُمُرُ.
تلعَبُ بي ... أنكسِرُ ! ...

لا، يا حبيبي، واحتفظْ،
بِيَ أنا وقمرُ.

سَهِرتِ النجومُ ترعاني ...
وأهلي سَهِروا ...

إن شَعرِ الزُجاج ما
انا وما التَكبُّر ؟

دَعْ لي جبيني، بجبينٍ
مُزهِرٍ أزهَرْ.

ما حَول خَصري هُوَ مِن
أُمّي التي لا تُعذَر.

زُنّارُها هذا، فَهل
أنسى وهل أتَجِر ؟

أطيَبُ ما عَطَّرني،
أجملُ ما أتّزر !

وخَبَرُ الزجاجِ ذاكَ
عَن هواها خبَرُ،

عَن وردةٍ مِن قَبْلُ،
والورودُ فينا كُثُرُ،

يَشمَخن بي، يَقُلْن لي :
« لكِ الزجاجُ عُمُر ! ... »

وَرْدَةٌ وَدُموع

أنتَ على صدرِكَ وردَهْ،
انا على خدّي دُموعْ.

تَقطِفُ عِطرَها ... ووعدَه ...
أقطِفُ آهةَ الضُلوع !

تسألُني روضةُ آسْ
عنكَ. أُجيب : « ما غَدَرْ »

نَسيتَني ؟ لِمْ انتَ ناسْ
ليلَكَ، يا ذاكَ القمر ؟

عاتبتُهُ حُبُّكَ ... عاتِبْ
أنتَ، ولا تَحقِدْ عَنيَّ

أنا أنا، لستُ الحبائب ...
مَن هَجْرُهنَّ ليسَ شَيّ ...

جبينيَ العالي تَصَدَّعْ،
يَسكُتُ فيكَ ... ويقولْ ...

كَفكِفْ شَكاةَ الدَمعِ واسمَعْ
سكوتَ أوراقِ الذُبولْ !

مُتَهمي، بِمَ اتَّهَمْتَنا ؟ ...
« أنا حييتُ وآنتهيْتُ » ؟!

وَيحَ الهوى ! كيفَ هَممتا
بأَن تَقولَني افْتريتُ ؟

أنا سَلَوْتُ ؟! رُدَّ، رُدَّهْ
قولاً كما الكِذْبُ يَرُوعْ.

أنت على صدريَ وردَه،
وأنا أُسقيها الدُموع !

مَلِيكُ الجانّ

سمعتُ في الوِديانْ
صوتَكَ، يا حبيبي،

ويحيَ ! فاحَ طِيبي
يُغري مليكَ الجانّ ...

يا ساكِنَ الحكايه،
طفَرْتَ تَرتمي

لوناً، على فمي،
وقُبلةً ... وآيه ...

كغابِ ياسمينْ
ظَلَّ ولا تَظَلْ ...

في أُذُني غَزَل،
في أضلعي حَنِين !

وبَعْدُ، يا باعِذ،
تُريدُني أرسُمْ ؟

ماذا ! أبالقُمقُمْ
سأحبس المارد ؟

قَلمُكَ الحَجَرْ
وقَلمي الوُلوعْ،

تكتُبُني دموعْ
اكتبكِ القَمر !

ومُنذُ مِن أزمانْ
نَسيتَهُ وعدَكْ،

مِن كُتُبي، بَعدَكْ،
فَرَّ مَليكُ الجان !

سيرجع، يا أخت

سَيرجَع، يا أُختُ، إن أنا انزَعْ
مِن الإصبع الخاتما ؟

سألتُكِ لا قُلتِها أنْ سيرجَع...
على الخَدّ دمعي هَمى !

سَكتّ ؟ الا تُسكِتين التنهُّدْ
بصدري كأنّيَ ما قلتُ شيّ ؟

حنانَكِ ! ها خاتمي كاد يَرُدْ
وينظرُ شَزْراً إليّ.

الا طَمئِني الخاتما
بقولةِ أنّي كَذَبْتْ.

أراني سأكتُب عُذري دَما ...
أراني كتَبْتْ ...

تقصّفْتُ، يا أخت ... لي شُبَّها
أن ِ الغيدُ حولَيْه بيضٌ وسُمْرْ ...

تَقصّفتُ كالغُصن، قلت انتهى
مِن العمر أجمَلُ عمْرْ !

أحبُّكِ، أختي، الا أسعِفيني
بوردِ الجنائن، بالياسَمين ِ ...

وأُكذِبَ : « لا ما وَجِعْتُ » ...
ويا خاتمًا بيميني،

تَكتَّمْ وقُلْ : « ما سَمِعْتُ ».

البطة

ستتركُني، قلتَ، تترُكْ ؟
كذا، وجفونُكَ لا تدمَعُ

كثوبك، عند المسا، تَخلَع ؟...
انا ما ببالِيَ عُذرُكْ.

عليَّ اخترِعْ واخترِعْ ...
لِجُرأة نهديَ قل : « صرتِ جُبنا »،

لِحُسْنيَ قل : لستَ حُسنا »،
وتاجِيَ من فوقِ رأسي انتزع !

ولكنْ اذا عنَّ لَكْ
أنِ الشوقُ مات بقلبي،

وفي الغَدِ أذوي، وغيرُكَ حُبّي،
توزّعْ ... أنا لا أزالُ الفَلَكْ.

وان أوقفتْنيَ بنتُ الرصيفْ،
كما أمسِ، تفضحُ أنَّكَ تندو

عليَّ ... وتَنزِع عَنّي النصيف،
أُرُدُّ اذا ما أُردُّ :

ـــ كَذَبْتِ، الشريفُ يَظَلُّ شريفْ
وإن هي قالت : « لَيغدُرُ يغدُرْ

وحُبُّكِ يَرشقُهُ بالبلاهَهْ
أقول : « وتُمحى، اذا هو يذكُرْ

بأنِّيَ وحدي الإلٰه ».

زهرتا بنفسج

رشقتَني بزهرتَيْ بنفسَجْ،
تذكُرُ ؟ ... منذُها غدوتُ أغْنَج ...

تسألني أمّيَ : « لِمْ تعالي
أنفُكِ، لِمْ وجهُكِ ضَاءَ أبلج ؟ »

أسكُتُ... لكنّي لِبنتِ أختي
أوصي : « اضحكي عن لؤلؤٍ تفلَّج ...

انا سأخفي السِرّ ... أنت ضُحّي ...
قولي : « رماها بالزهور أهوج » ...

تَظاهري بأنْ رأيتِ منه
أكثَرَ ... أنْ دملجَني بِدِملَج...

نزعتُه غضبى ... ولَو تمادى
في غيِّه لَكان قد تَهيَّج... »

لِمْ بنتُ اختي ؟ ربّما لأنَّ
الكِذْبة في فمِ الصغار تُهرَجُ ...

وقد أُصدِّق التي ستبدو
بريئةً وصَوتُها تهدَّج ...

أقول : « لو صَحَّ الذي روَتْه
ــ ولم تُلقَّنْهُ ــ لكنتُ أُثلج...

كأنني كُلِّيَ، يا حبيبي،
قلبٌ، وكلّي زَهرتا بنفسج ...

أسكنتُكَ الجفنَ الشريد

أسكنتُكَ الجفْنَ الشريدْ،
أسكنتَني بيتَ القصيد.

أنا غداً يا كُتُباً ...
وانتَ يا حُبّي الوحيد !

بِوردةٍ أنتَ رشفْتَ
وأنا بوقْعِ جيد.

أُوّاه ! يَصْفَرُّ عليّ ...
الوردُ ... والوَقْعُ يزيد ...

قَبْلَ هِيام الكأسِ بي،
كنتَ على فمي النبيذ ...

تَشرَبُ أنت، أنا لا ...
تَجمُدُ انت وأُمِيد !

تُحِبُّني ؟ ... لا قلتَها
أُكذوبةً تخدَع غِيد.

أحكي انا عنّي وعنكَ،
القِدْمُ من حُبّي جديد.

ويحكَ ! لا تشتاق ؟ ما
هَمَّ، اشتياقي لكَ عِيد !

إن زُرْتَني او لم تَزُرْ،
إليكَ ها عِطري بَريد ...

أوجَعُ حُبٍّ أنتي
قريبةً، يا ذا البعيد !

كتبتَ لي...

كتبتَ لي أنْ ستجيءْ
ها انا بالزهر مليء

بالي ... وأُشجاري تميدُ
بي ... وأفيائي تفيء ...

اين انا ْمنزلةٌ
وجهَكَ ؟ في صدري الدفيءْ ؟

في ضمَتي، في قبلاتي،
في فمي العذب البريءْ ؟

قل لي، حبيبي، أأجيدُ
الحُبَّ، قل لي، أم أسيءْ ؟

أكَذِب أحيانا عليكَ،
إنما كِذْبي مَريءْ.

تسيغُه ... تَعرِفُهُ
جزءاً من الدَلِّ جَزيءْ.

تُحبّه ... تقول : « زيدي
كَلِمَ الجَمْرِ الجريءْ.

وبعدُ ؟ بعدُ أُنزِلي
رجلَيكِ في خمري الهنيءْ ».

أُوّاه ما أَلَذَّ ! لكنْ
جِئْ ولي ضوءٌ يُضيءْ.

جِئْ ، وَرْدتي أُتعِبَها
القولُ : « يَجيءُ ؟ ... لا يَجيءْ ؟ ... »

هُمُومُ الياسِمينَة

تَسأَلُ عنكَ، يا حبيبي،
وتَميدُ الياسمينه.

تَذكُرُ ؟ مَرَّةً سمِعتَ
تَحتَها هَمْسَ السكينه !

سمعتَ قلبي خافقاً
وَلَيَّ خَصْري وفتونَه،

وقلتَ لي : « هِيَ انتهَتْ
أم رِدْنُ ثوبٍ ترتدينه » ؟

جَرحتَها قال ... عددتَ
عِطرَها جسمي ولِينَه...

وبَعْدُ كم داريتُ، كم
قلتُ : « اغفِري له جُنونه ...

يُحبُّني، يُحبّ خَطَّ
الخطو مِنّي ورنينه ...

يَقولُني أجملَ ما في
الطَيش رُوحاً ورُعونه...

هذي انا لم أُضَغِنْ ...
أفديكِ كُفّي عن ضغينه ».

وبعدُ، يا حبيبُ، تَرثي
لي وتَغوَى الياسَمينه ...

وَرَقَةٌ مِنَ الصَّدَى

وَرَقَةٌ من الصَدى
وأكتبُ اسماً مِن ندى.

إسمُكَ، يا الذي على
الزهرةِ خَطَّ موعِدا.

قُلتَ تزورُني غداً،
ورحتُ أجمَعُ الغَدا.

تناثرَ ! آساله وعاتِبْهُ
ولو تَودُّدا.

هذا الضُحى انتظرتُ، هِمْتُ
ضَمّتينِ ويدا.

وورقُ الصَدى بكى !
تُرى إلى اسمِكَ اهتدى ؟

طيَّبَ من خاطرِ حَرفَينِ
له ورّدا.

وأُغرق النسيمَ بالقول :
« هنا الحبُّ شَدا

على بقايا ورق
أبهى بياضٍ سُوّدا ».

يُنقّشُ عُصفورانِ في
ورَقةٍ من الصدى.

كناروورد

حَلمتُ بأني الكَنارْ ...
وانتَ عَليَّ تغار ...

وتقصِفُني ... ولحاظُكَ
تَرمي حواليَّ ... نار ...

تُقوِّلُني : « لكَ وحدكَ
صوتي ... ورَنُّ السِوار ...

ولبْسيَ أُصفَرَ ... منه
يُصاب المدى بدُوار... »

أُثيرك إما تُقَصَّفْ
يدي لَكَ إكليلَ غار

أُحِبُّكَ آن تَطيبُ،
أُحبكَ آن تُثار !

حبيبي، وأُحلم أني
مِن الورد نصف افترار ...

تَمُدُّ يداً ؟ لا أُردُّك ...
لكنما دار ِ دارْ !

أُحِبُّ وغيريَ تَقطِف ؟ ...
بلِّغْ صبايا الجوار

أنَّ الحُسْنُ لا غيرُ حُسنيَ،
وروداً هَمى أَم ثِمارِ...

كعطر ببال

كعطرٍ ببالِ قَرَنْفُلْ،
أمُرُّ ببالِ حبيبي.

كَذا قرأتْ لي غُيوبي
فتاةٌ تُلملِمُ سنبُل.

رُلى، ريمُ، مَرتا، جُمانه،
الا دَعْنَني في ولَهْ

أُجَمِّع حُسنيَ له،
نَدىً، نَفحةً، بَيلسانه ...

وأسألُ مَن أنا ... قالْ ...
وقال ... أنا أعرِفُ ...

أَلَذُّ الشَذا، أَشرَفُ
شَذاً لا يَكِفُّ سُؤال !

وإنْ أغفُ أَحلُمُ أحلُمْ
بزَندٍ له لا يَميعْ،

أهُمُّ به وأضيعْ ...
فيا اسلَمْن، عِشْنَ التَوهُّمْ!...

تُرى بُحْتُ ؟ دَعْ، يا دَعي ...
أُتمتِمُ لي لا لغَيْرْ،

بأنْ نَقَدَتْنِيَ طير ...
ومُتُّ وسِرّي معي !

نادِني أسمعْ بكلِّ القُبَلِ ...

نادِني أسمَعْ بكلِّ القُبَلِ
وأجي حُبّيَ فوقَ الأنمُلِ !

أنا عُنقودٌ، فطاوِل بفمٍ،
وافرُطِ الحَبَّ كما لم تَفعلِ ...

ذاكِرٌ ما لونُ عينيَّ ؟ ... انسَهُ
حاضراً اجملَ مِن مستقبَلِ ...

ضِعْ به إن شئتَ، لكن مثلما
ضاعَ نَيسانٌ ببال البُلبل !

حُبِّني تهجئةً، كَرْجاً، غِوى
ريشةٍ تَكتبُ سِفرَ الغزَل.

أنا لا بَعضيَ، بَل كُلِّيَ، مِلْ
فوق ما قد ضَجّ خَلْفَ المُخمَل ...

لؤلؤُ العِقد الا افرُطْه كما
فَرْطُ صُبحين بكفِّ الثَمِل ...

لا تُحِبُّ الليل ؟ ... أحببني انا
أُعطِكَ الليلَ بِطرفي الأكحلِ !

لِيَ خصرٌ بعضُه أُغنيةٌ
شَرِبتْها الشمس عنْدَ الطَفَل،

يتناءى في الهنا واللاهنا
ويُوافي كجمالٍ من عَلِ !

« نعمْ » حصري أم « لا » ؟ ... بعدَهُ
لا تسلِ ... مُدَّ ذراعاً واحملِ ...

غُربة

أُحبّتُكَ ... مَن قالا ؟
يا مُتَّرِكي بَدَدا ...

صدرًا، عينينِ ، صَدى
خصرينِ اذا مالا !

يا مَن أُمشي دَربَهْ
أُحبتُك ... مَن قالا ؟

أنا حَطَّمَني حالا
أنْ صِرتُ انا الكِذْبه ...

ذِكرايَ على فَمِ ناسْ !
مَن يَشرَبُهُ الآلا ؟

أحببتُكَ ... من قالا ؟
من قال بأنّي الكاس ؟

دَعْني أنا والسَيْلا
مِن اضواءٍ تفضَحْ

عُرسُكَ، وطِبْ وآمرَح ...
سأظَلُّ انا الليلا !

اليومَ، وقد طالا
مِن هجركَ ما كَسَّرَ،

مِن حُبّيَ ما زهَر،
أُحِبتُكَ ... مَن قالا ؟

شلح زنبق

بِمَنْ ؟ بصبيَّةْ
تروحْ تَحَرَّقْ ؟

فيا شِلْحَ زنبق
أنا المِزهريَّةْ ...

أُفِقْ. سَيُدَوِّنْ
جمالي القَمَرْ،

فخُذ ما آنتثر
وكَوِّنْ وكوِّن ...

شَفيتَ بِدمعَه ؟
انَا ما قَدِرْتْ،

بِحبّي عَطِرْتْ
وذُبتُ كشمعه !

غداً بي تَمُرّْ
وتَمضي تَعُدُّ،

غرامِيَ عَبْدُ
غرامُكَ حُرّ ...

على أنَّكَ النّيلْ
لِعذْبٍ وعذبٍ،

الا ضِعْ بقلبي
كأنّي للكَ الليل،

كأنّي أشْهَقْ
وأنتَ الخَطيّه

ولا مِزهريّة ...
ولا شِلحُ زَنبق ...

فَمي

فَمي، ويا هَمّي ويا همَّه ! ...
شبَّهته بنجمة المساءْ.

يا حُلْوُ، قَرِّبْ موعِدَ اللقاءْ
تاقَتْ إلى قُبلتِكَ النجمه ...

منها، أنا أقول، يا حبيبْ !
منها غداً ستقطِف القُبله.

فَمي كفاهُ رُؤيةُ النحله
تَجني، كفَاه غَيرةٌ تُذيب !

النَجمةُ الآنَ تَكبّرَ،
يا حلْوُ، لِمْ أَسمعتَها العَذْبا ؟

قالتْ دلالاً : « أيُّنا أغبى ؟ »
وغَمزتْني وهْي تنظُرُ.

رأيتَ ؟ ... صارتْ كفمي تَهوى،
تَبسِمُ فوقُ، تَرشُق القمرْ

بما يُخلِّيه على سفَر.
رأيتَ ؟ ... صارت كفمي تَغوى ...

شِعرُكَ، يا حُلْوُ، هو السَبَبْ.
طمَّعها بي وبكَ، النجمَهْ.

فَطَمِعتْ ! أَلا أَلا لُمَّهْ،
ما شِعرُكَ الشِعرَ، هو اللَهَب !



أُحِبّه أنا ولا يدري !
ولي كرامتي، فلا ابوحْ.

ماذا تُرى تَفعلُ، يا زَهري ؟
تكِفُّ ؟ ... لا تَميل، لا تفوح ؟ ...

مَن مُخبِري أينَ غداً دربي ؟
تقول اختي أنْ سأنساهُ.

حقًا ! ... وما أَصنَعُ بالقلب ؟
قلبي انا، النسيانُ يهواه !

لِلحلوِ قولي، أُختِ، أنْ مِنهُ
انا، كما العِطرُ من الوردِ.

فإن يَشأْ قلبيَ أُسكِنْهُ
قلبي ... وان لم يَفدِني أَفْدِ

وآخَرٌ، قامتُه السَرْوُ،
قالوه في هُدبي أَنا سافرْ ...

هاني وجِعتُ عَنْكَ، يا حُلْوُ،
لأَنني أَحبّني آخر !

أُختي، ولا هَمَّكِ مَن نادى
باسمي ... وأنّي الكأسُ والخمْرُ ...

وإن لواه الخَصْرُ إن مادا...
قولي له : « ليس لك الخصر ».

انا سوسنه

وأنا أصغرْ
كنتَ لي أخا،

قُلْ فأشمَخا
أنني أكبَر ...

انا مِن سَنَهْ
لَمْ أهِمْ بِكا ؟

ها بِدربكا
صِيرتُ سوسنه !

أنْ تَرى — يا ليتْ ! —
عُمْري أُكبَرْ،

شَفتي سُكَّر،
لِمَ ما اشتهيت ؟

كنتُ قد هتفتْ :
« ما أحي حُوَ»

إنما الهَوى.
كنت قد قطفت ...

لِمِ ذا بعتُ
سَنَةً ؟ ... شهورْ ؟ ...

دُرتَ بي تَدور ...
وانا شَقِيت !

لِمَ، يا غَبِي،
ألِأنضَجا ؟

كان لي رجا
أن تموتَ بي ! ...

يا فُلَّتي، إنْ هُوَ لم يَمُرْ

يا فُلَّتي، إنْ هُوَ لم يَمُرْ،
غداً، بنا فلا تَلَوَّعي.

يَسمَعُ حَسُّونٌ هُنا يُكرِّ
يسكتُ ... والسكوتُ مُوجِعي ...

أَنتِ اكتفي بأَن تَرَيْ ولا
تَرَي عليّ صُفرةَ الجَزَعْ ...

غِيابُه قُوليه زَلزلا
حُسني الذي بالقُبَل انجمع !

أنا ساستَطلِعُ ... اشتكي
لِورقاتِ منكِ : « هل يُحِبّْ ؟

يُجَنُّ بي ؟ ... يَطيبُ ؟ ... يتّكي
عليّ ؟ ... أم يَغضَبُ ... يشرئبّ ؟ ... »

لا، وحياتي أنا، لا التوى
عُنُقُكِ العالي، ولا استراح

إلّا على ما بيَ مِن غِوى،
يومَ يعودُ هُوَ بالصباح ...

انا اذا، يا فُلّتي، آرتعَشْ،
في الأُفق، ضوءٌ او علا ضجيجْ،

أذكرُهُ الشِعْرَ الذي نقَشْ
نهدي على الريح، على الأريج ...

وبعدُ، يا فُلَّةُ، إن غَدَرْ
بنا، فلا شَوْقٌ ولا آشتهاءْ،

نظَلُّ، أنتِ من صِبا الزَهَرْ،
وأنا، ويحي ! من ذُرى الوفاءْ.

شجرة النعاس

يا حلْوُ، هل جَوابْ
سِواكَ عن حبّي ؟

يا قِصَّةً تَسبي
ساكنةً كتاب !

وما حكَتْ ؟ ... حَكَتْ
أنّي انا الدموعْ،

وأنَّكَ الضلوع
ما مرّةً شكَتْ !

تَمُرُّ بي، تمُرْ
لا مثلما اليباسْ

في شجَرِ النُعاس،
بل مثلما العُمُر !

وما الزمانُ مَذْ
ام لا ؟ ... أنا سُعِدْتْ

ما دُمتَ قد وُجِدْتْ
فانتَ لي أبد !

إطلَعْ كما الصوابْ،
والصوتُ ما خفتْ،

يا زنبقاً نبت
في دَفتَيْ كتاب.

الأرجوحة

لِمَ، يا أُمّيَ، مرّ
تحتَ شُبّاكي أنا ؟

جارتي لَن تُفتنا
بسوى ذاك النظر ...

هي قالتْها ... وراحْ
نظرٌ يَفرُط بي ...

أأنا مِن كَذِبِ
أم انا زهرُ أقاحِ ؟

أمِّ، لا، لَن أعِدَهْ
بلقاءَاتِ عِذابْ،

إنما إن هُوَ ذَاب
كيف لي أن أبعدَه ؟ ...

خِفتِ، يا أمِّ، الظُّنُونْ ؟
قلتِ لي أن أقفِلا

ذلكَ الشُبَّاك ؟ لا ...
إنَّ شُبّاكي حَنون.

انا، لولاها، التي
خبَّرت كيف نَحرْ

قلبَها ذاكَ النظر،
كنتُ لم ألتفتِ.

إنما الشبّاكُ سرّ،
مُذْ رماهُ بِحَصاه ...

قال لي : « زِدْني بآه
ولتكنْ آهَ العمُر ! »

جارتي صارتْ دموعْ ...
أَمْ، هل أبقى حجرْ ؟

رَدّني ذاكَ النظر
شمعةً بين الشموع !

خريف

ما بين أوراق الشجَرْ
ضِعتَ، حبيبي. هل تُطالْ ؟

أنا اذا ضِعتُ ببال
ليلكِ سَلْ عنّي القمر ...

أوَّلَ أمسِ قلتَ لي
أنْ غُصُنُ اللوز يَميلْ ...

إسألْهُ لِمْ كفَّ اسألِ ،
مذ انا مِلْتُ في الأُصيل ؟

ما غُصُنُ اللوز انا
ولَمْ يَمُرُّ بي نسيمْ،

يُوجِعني حتى الضنى
كما الشَذا، كما الشميم !

تأْخذُني كزنبقَه ؟
او كسراجٍ في لُهاثْ ؟

ويحَكَ ! خُذني مُعنِقَهْ،
أَنا زنابقٌ ثلاث ...

تُحبَس ؟ ... لا لن تُحبَسا ...
في البال أن سوف تطيرْ

مِنِّي، كأني أُنتسى
وقُبلتي ليستْ حرير ...

حُبّيَ، قد مات الوفاءْ،
عنِّيَ لا تسأل قَمَرْ،

تساقطت عندَ المساءْ
عَليَّ أوْراقُ الشجر !

الحصاة إلى الشبّاك

قولي له، أُختي، يَمُرْ،
من خَلَل الأسلاكْ،

عندَ المسا، عندَ الظُهر،
ويَرشُقُ الشُبّاك ...

انا أكونُ أَنتظِرْ
فافتح المِصراعْ ...

يرى دموعي تنهمِر،
يَسمعني ألتاع.

لا لن أقولَ : « اصعد إليّ »،
ساكتفي بالهمْسْ :

« نَسيتُه في أُذُنيّ
قولَكَ أني الشمس ».

أُختي، وإن تردّدا
وراحَ يُبدي اللوْمْ،

قولي له : « أنتَ غدا
أفتَنُ منكَ اليوم ».

وشوْقي ... فيأنَسا
لِلدرب ... للأشواكْ ...

أُختي، وقَد ينسى الأَسى
ويَرشُّ الشبّاكَ ...

قرنفل

لِمن أنتَ حلْمٌ ؟ لِلندى، للغمام، لي ؟
تعالَ تعال ... اشتاقَ زَهْرُ القَرنفُلِ ...

أتذكُرُ ؟ سَمّيتَ القَرنفُلَ نجمةً
وراءَ قميصٍ لم تُبَح لِمعلَّلِ ...

فقلتَ : « سأستكفي بشمّ أريجها »،
ورحتَ تَعُدُّ العِطر عدّاً مُزلزِلي ...

فَلَمْ تُبقِ من وردٍ كما الحبُّ لاذعٍ
ولا من عَرارٍ مثلما الشعرُ مذهِلٍ !

وقلتَ : « اصعُبي، يا فتحةَ الثوب، واسهُلي »،
وقلت : « اصَعدي، يا نَجمة النَهد، وانزلي ! »

أنا كُلَّما زوجُ الحمام رنا ضحىً،
وراءَ الشَفيف المستحِي المُتبتِّل،

أناجيكَ أنْ لِمْ أنت حِبري وريشتي
وتكتُبَ أو ترمي السَنى في تَغزُّلي ؟

نظمتُ أنا شِعرًا على بعضِ جُرأةٍ
رمتْكَ ببالي ... ذاكِرٌ أنتَ ام خَلي ؟ ...

حَبيتُهما آثنَيْ عِزَةٍ : واحدٍ سها ...
وآخرَ في حُلْم رآك مقبّلي،

وكنتُ أنا ما كنتُ، قُبلتيَ الرِضى
كزقزقةٍ من بلبلٍ في تململُ ...

تَعال ومَلّ الطرْفَ، ضَوْعُ قَرنفُلٍ
فذَاكَ ... وآهاتٌ ... وكرّةُ بُلبل ...



شُقَّ من زهر البنفسَجْ،
شُقَّ لي آسمًا يتأرَّج.

باتَ لي أُختٌ كحسنٍ،
طرفُها أدعجُ أدعَج ...

بضَّةٌ ... شقراءُ كالشمس
على التَلَّة ... تَلهَج

بكَ ... بالضمَّة ... بالقُبلة ...
بالثغر المُضَرَّج ...

لِم فكّرْتُ انا بالروض
مذ راحت تموّج،

خلف ثوب قلتَهُ الريح ...
وقلتَ الغيمَ يَدْرَج ؟ ...

لِم فكرتُ بلونٍ
لفظُه الخَمريُّ يَغنَج ؟

لستُ أدري ... كُلُّ ما عنديَ
أنّي أتلعثج ...

كلما هَبَّ على أُختي
شَذا الزَهر المفلَّج ...

وهَمى كالمُزن، وانشَقّ
له القلب ... وأُثلج ...

شُقَّ لي آسماً، فيه من سين ٍ ...
ومن جيم ٍ ... ويَهزَج ...

أنا أُختي عِطرُها لا
أيُّما عطر ٍ ... بَنفسج ...

كأني أنا الأكاسيا

كأنّني انا الاكاسيَه
بِعطرها، بالابيض الشاعِلْ

داخلَ اغصانٍ لها، داخل ...
عِشْني بِلا القشور، عاريه !

تَظُنُّني خَلَعْتُ مِن عِذارْ ؟
كلّا. انا الليلُ تَجمّعا

قصيدةً، مَتْناً وَمطلِعا،
إقرأنيَ اَقرأ قُبَلي الكِثار ...

أُحِبُّ لو تحبّني صَدى
لكلّ ما رَنَّ بأُذْن كَوْنْ.

مِن زهَر الليمون صرتُ لون،
نَدًى جَديداً أُتعبَ المدى.

حَبيبيَ آسكَر بي جَمامَ كاسْ،
قُلْ أنني الرَبابُ ما سكَتْ،

تحكي لِيَ الدنيا، إذا حكت ...
يُمطِر فوقي لُؤلؤ النُعاس ...

لا، لا تَضُمَّني وانما
فَكِّر بأن أُرمَى على يديكْ

كَلمتي ـــ سَلْ بُلبلاً بأَيْكٍ ـــ
لا « فلأَكن » بل « كن وَاْحلُما »!

ما همسني قلبك...

ما زَال ذاكَ الهَمْسُ ...
همساً ؟ وما زِلتا

تَضُمُّني، قلتا ؟
قلتَ تَضُمُّ الشمسْ..

إغْرَقْ، ويَغوى بي
ليلٌ ولا أدري ...

إهْرَقْ على صدري
طِيبَكَ، يا طِيبي.

وهَنْتُ ؟ ... تَرضَيْهْ
لي أنني وهَنْتْ ...

صِرنا أنا وأنتْ،
يا حُلْوُ، أغنيه ...

كَنبتَةِ الأقاحْ
أسمو أنا، أسمو،

لكن كما الحُلْمُ
فَرَّ مع الصباح ...

والآن، إن كَسَّرَ
أعطافِيَ المَغيبْ،

لا تَخشَ، يا حبيب،
بل ضُمَّني أكثر ...

أُغمِضُهُ طرفي،
أَسمَعُ نبض الآنْ،

ما هَمَّني قلبان ...
قَلبُكَ بي يَكفي !

لا ونعم...

تُحِبُّني ... وأنا لا ...
لكنَّ لائي مِن نعَمْ.

دَع لي جَبيني مِن شمم
والقَدُّ مِن كاسٍ طِلا ...

يا طيبَه فتْحَ الذِراعْ
مِمَّن تقولُها أبَتْ ...

أجمَلُهُ الزهرُ نَبتْ
في مُنتهى القفرِ المُضاع !

والكأسُ حظّهما على
لائي تُبذّلُهَا ولوعْ،

تَغدو كما خَفْقُ الضُلوع
بِكل شيءٍ، غيرِ لا ...

ولا تُدلّلْ شَعَري
بكلماتٍ من جُمانْ،

دَلّله، يا مليكَ جان،
بِكلمات النَظَرِ ...

ويكَ ! وان شيءٌ حلا
في هُدُبي كما النُعاسْ

فَحُبَّني بلا احتراس،
كما أنا ببعضِ لا ...

الصيّاد والسُّكرة

ضاحكني أنْ لو أنا سُكَّرَهُ
قَرشني ... وسَمعتْ أُختي ...

عصفورةَ الدوري على التَخْتِ،
فوقَ أقلّي الغَمْزَ او أُخبِرَه ...

تَذَكَّرين ؟ ... هُوَ لا يُخطي
إن سدّد الطلقة يوماً رمى

ذاكَ الذي بَكيته عَندما ...
وموجتانِ نحنُ في الشَطِّ ...

عصفورةَ الدوري، أنا لِي طَلَبْ ...
أُختي، آمسَحي مِن بالها الزُورا ...

قولي لها، ونَقْودي النُورا
عن راحتَيها، أنَّه قد كَذَب ...

سُكَّرَةٌ، قال ؟ ... آفرِضي فَرْضا
أنْ كُنتُها. هل أرتمي في فمهْ ؟ ...

ويحي ! وأَغدو بِضعةً من دمِه ؟ ...
طَرفي لِما أنْ وهَمتُ أُغضى ...

لكنْ اذا هَمَّت بأن تَعذُرا،
أُختي، وقد رَقَّت لما يَفرِضْ،

فقد أعود انا لا أرفض
فِكرَةَ أنْ يَقرُشَني سُكَّرَهْ ...

لنا أنا أكتب

لنا أنا أكتُبْ،
نِحبّنا، للزهْرْ،

ليوم راح النّهْر
يُدحرج الأشْهُبْ !

تَذْكُرُ ؟ قلتَ لي :
« عيناكِ تُوجِعانْ ! »

وسُمَّر الزمانْ
في شَطِّ جدولِ.

يا طيبَ عندليبْ
حَطَّ وما غنّى ...

لكنَّه جُنَّا
بزندكَ الحبيب.

كادَ يُسائِلُ :
ما أنتَ وَالوعْدُ ؟ ...

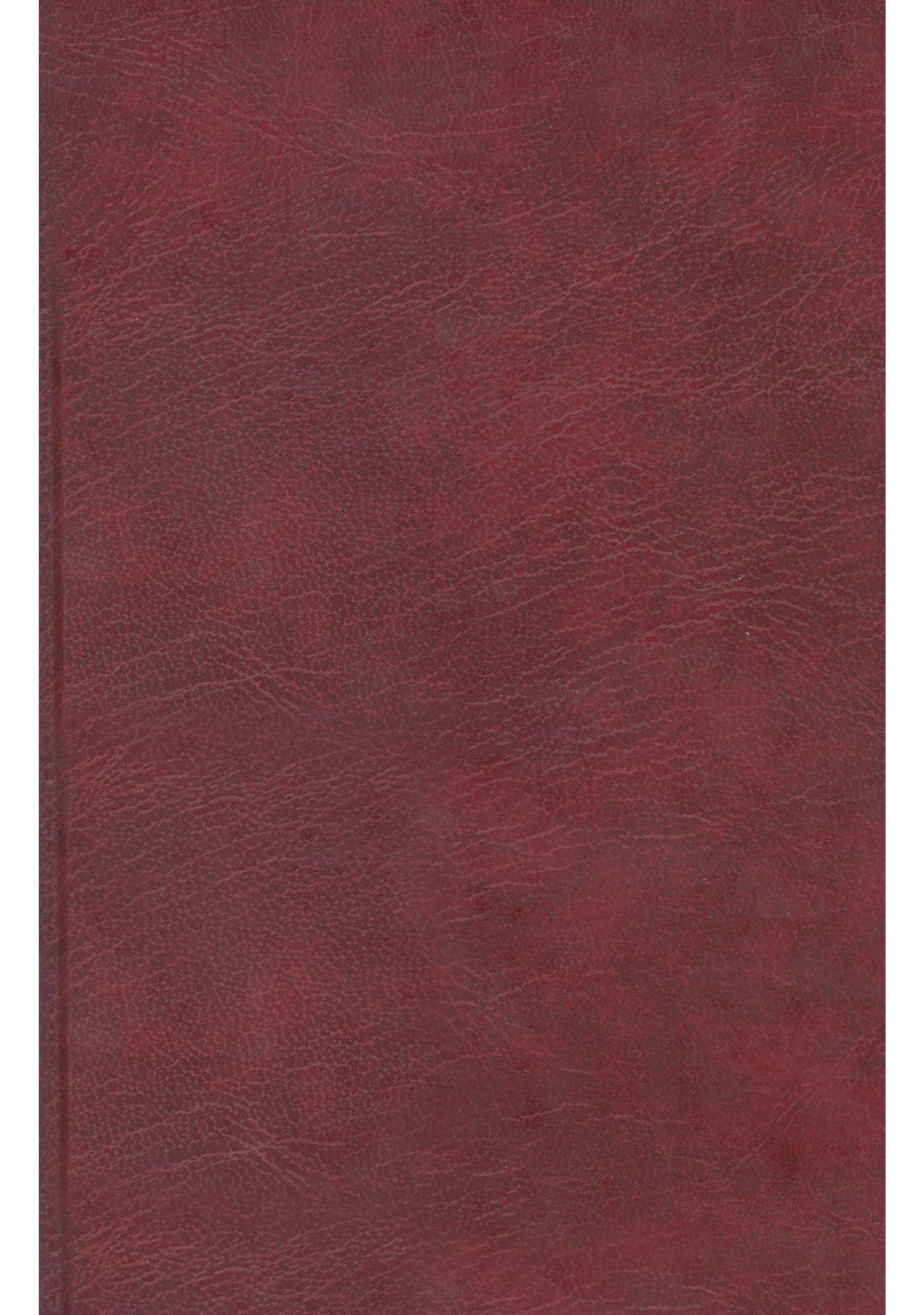
لا تنتظر بَعْدُ،
ألعمرُ زائل !

ما كان، دَعْهُ، كانْ ...
وظَلَّتِ الأَشْهُبْ

تُشرِق او تَغرُبْ
في نَهَرِ الزمان !

فهرست الكتاب

فهرست المجلد



سعيد عقل
شعرُه والنثر

المجلّد السادس

كما الأعمدة
الوثيقة التبادعية

نوبُليس

سعيد عقل
شعرُه والنثر

المجلّد السادس

كما الأعمدة
الوثيقة التبادعيّة

نوبِليسُ

للمؤلف

بنت يفتاح الطبعة الأولى ١٩٣٥ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

المجدلية الطبعة الأولى ١٩٣٧ ــ الطبعة الثالثة ١٩٩١

قدموس الطبعة الأولى ١٩٤٤ ــ الطبعة الرابعة ١٩٩١

رندلى الطبعة الأولى ١٩٥٠ ــ الطبعة الخامسة ١٩٩١

غد النخبة الطبعة الأولى ١٩٥٤ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

أجمل منك لا الطبعة الأولى ١٩٦٠ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة ومزيد عليها)

لبنان ان حكى الطبعة الأولى ١٩٦٠ ــ الطبعة السادسة ١٩٩١

كأس لخمر الطبعة الأولى ١٩٦١ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

اجراس الياسمين الطبعة الأولى ١٩٧١ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كتاب الورد الطبعة الأولى ١٩٧٢ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

قصائد من دفترها الطبعة الأولى ١٩٧٣ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

دلزى الطبعة الأولى ١٩٧٣ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كما الأعمدة الطبعة الأولى ١٩٧٤ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مزيد عليها)

الوثيقة التبادعية الطبعة الأولى ١٩٧٦ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

خماسيات الصبا الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلّد السادس

كما الأعمدة الوثيقة التبادعيّة



كَمَا الأعْمِدَة

الطبعـة الاولى ١٩٧٤

الطبعـة الثانيـة ١٩٩١

لي صخرةٌ

مِن أَين، يا ذا الذي آستسمَتْه أغصانُ،
من أَيـن أَنتَ، فَداكَ السَّرْوُ والبـــانُ؟

إِن كنتَ من غيرِ أَهلي لا تَمُرَّ بنا،
أَوْ لا فما ضاقَ بابنِ الجارِ جِيرانُ !

* « لي صخرة »، « سائليني »، « غنيت مكة »، « نسمت »، « شام يا ذا سيف »، « مُرَّ بي » كلها قصائد تُغنّي بها فيروز.

ومن أنا ؟ لا تَسَلْ. سمراءُ مَنْبِتُها
في ملتقى ما التقت شَمْسٌ وشُطآنُ.

لي صخرةٌ عُلِّقَتْ بالنَّجم أَسكُنُها
طارَتْ بها الكُتْبُ قالَتْ: تلكَ لُبنان !

تَوَزَّعَتْها هُمومُ المَجدِ فَهْيَ هوىً،
وَكْرُ العُقابينِ تَربى فيه عِقبانُ.

أهلي، ويَغلون، يَغدو الموتُ لعبتَهم
إذا تَطلَّع صوبَ السَّفْح عُدوانُ،

من حَفنةٍ وشذا أَرزٍ كِفايتُهم،
زنودُهم إن تَقِلَّ الأَرْضُ أَوطانُ.

هل جنَّةُ الله إلا حيثُما هَنِئَت
عيناكَ ؟ كُلُّ اتِّساعٍ بعدُ بُهتان.

هُنا على شاطئٍ أو فوقَ عند رُبىً
تفتَّح الفِكْرُ قلتَ: الفكــرُ نَيسانُ !

دنيا الى نُقطةٍ شُدَّت ومـا هَرَقَتْ
دَماً، أَلا إنَّ خُلْقَ الحُرِّ سُلطـان !

*

كنّا ونَبْقى لأَنّا المُؤمنـون بهِ
وبعدُ، فَلْيَسَعِ الأَبطالَ مَيْدان !

على شاطئ الذات

بعيداً، على شاطئ الذات،
في غَمْضَةِ الأشهُبِ،

حوالى مَطَلِّ الوُجود،
في العَبَق الطَّيِّب،

هنالك، والآنُ بين
المُمَهَّل والمُستَهَب،

شددْتُ يَدَ السِّرِّ وَهْوَ
على المَهد بعدُ غبي.

*

أنا ابنُ الدهور، ابنُ لبنانَ،
وعيُ الخليقةِ بي،

أنا جُبْتُ ذاتي وأفرغتُ
أُغنيَّةَ المَطلَبِ،

نَهِلْتُ الذُّهولَ، نهلتُ
شحوبَ الفتى المُتعَبِ،

وصمتَ المساءِ يَلُفُّ
اليتيمَ وقَبْرَ الأَبِ،

نَهَلتُ الشّقاءَ المُهِلَّ
جميلاً كوجهِ نَبي.

أنا ثَرْوَةٌ كالكآبة
عُمقاً وكالغَيْهَبِ،

غنيٌّ أُحِسُّ الوُجودَ
غُباراً على ملعبي.

يقولون: قافلةٌ،
هنالِكَ، لَمْ تُغْلَبِ،

تَشِيدُ على الفَتْحِ أَثبَتَ
من مَجدِكَ الخُلَّبِ،

لها صفحةُ الأَرْض مرمىً،
وناصيةُ الكوكب.

قُلِ :الفتحُ غمسُكَ في الذات
كَفّاً من الصُّلَّبِ،

ورشفُكَ نفسَكَ رشْفَ
العتيقِ من المَشْرَبِ،

كأنَّك حُلْمُكَ ضُمَّ
إليكَ... ولم يكذِب !...

أجملُ الأعراس

ذكّرنَني، شجَراتِ، اللوز، بالأبيضْ،
بثوبِ إكليلها وهْيَ اليمامُ البضْ،

بها... تخطَّرُ... تسترخي مدلَّلةً
على ذراعِ فتىً كاللَّيثِ إنْ ينقض.

سَيْفٌ وبحرٌ معاً حتى لتعبدُه،
تقولُ: طَرْفُ الردى إمّا التقاه غض.

مَلاكُــه هيَ، إن دسَّت أَناملَهــــا
بين الورود استحى شوكٌ لها وارفض...

الله يا شجــراتِ اللَّــوز، غَرْنَ ولا
تَغَرْن... فالحُسْنُ أَشْهى الحسنِ ما أَمرض!

مِن الزمـانِ أَراهـا اليـومَ راجعــةً
تمشي الـى بيتنـا في طَرْحـةٍ أَعـرض.

ودِدتُ لو أَتلقّاهــا وأَحبِسَهــا
في القلبِ شقراءَ شُقْرٍ كالشعاعِ الغض،

أُغنيَّــةٌ هيَ في بالــي وأَسمعُهــ
مهبَّ ريحٍ دنا أَو ناسِمـاً أَعـرض...

لا لا تخيَّلتُهــا إلا وزَنْــدُ أَبــي
يلُفُّ منها عروساً خصرُهـا ينـهض...

فخر الدين الثاني

يا اندفاعَ الأَمواجِ في شاطئِ البوسفور،
رِفْقاً بذكرياتِ الأَميرِ !

ببقايا حُلْمٍ تفوَّفَ بالصُّبح،
وألوى، فالصبحُ مأْتمُ نور،

فيه من وثبةِ الجريحِ الى الثأْر،
وفيه من احتضارِ النسور !



هو فخرُ الدينِ، الفتى، يقرأُ الأيامَ
في قولِ خازنيٍّ وَقورِ،

فيرى الأمسَ من مذابحَ حُمْرٍ
نافراتٍ على ممرِّ الدهورِ.

جَدُّه، قِبْلةُ الشموس، قتيلٌ،
وأبوهُ، دنيا أسىً، في حفيرِ،

والدُّروزُ الأُباةُ يُغْويهمُ السيفُ،
فيستقبلونه بالصُدورِ،

وإذا وجهُ عين صوفرَ أشلاء،
وآفاقُها بلون الزفيرِ،

ويغضُّ الأميرُ طَرْفاً، ويُخْفي،
خلف جفنيه، هَزَّةً للعصورِ.

*

بسَمَ الدهرُ للشريد، وأعلى
العرشَ، ظمآنَ، للأميرِ الصغير،

أَرضُ لُبنانَ حَفْنَةٌ، إنما ملعبُ
عينيهِ بَعْدَ بُعْدِ الضمير،

عصرت قلبَهُ حدودٌ دوانٍ
فرآها على شَفا المعمور،

واستثارَ الأَبطالَ يَستلهمون
المجدَ... دوري بهم، ذرى المجدِ، دوري!

سالَ فيهم شاطي طرابُلسٍ، وانشقَّ،
تِيهاً، عن أنجمٍ في مسير،

وتداعى عرشُ ابن سَيْفا الى التُّربِ،
وخلَّى الصَّدى بِصُمِّ الصخور،

فاذا يُنصِتُ البنونَ الى الموجِ،
يُحسُّونها قناً في الهدير!

*

وتنادَوْا من الشّمالِ الى زحلةَ
يسترفدونها في الكُرور،

فيهبُّ الشجعانُ ضجَّ لهم سيفٌ
وغنّى رمحٌ سيبقى سميري...

دانَ مجدُ الفُريخِ، دانَ شَفا
الأُردنِّ، في وثبةٍ ونفخةِ صور.

عُصْبَةٌ بُسَّلٌ رَمَوْا بالمواضي
عند قبرِ المسيحِ، رمْيَ النُّذورِ،

قيل: حجٌّ ! وقيل: شوقُ سُيوفٍ
نزلَتْ في النُّهى نزولَ النُور.

*

كاد وجهُ الأَمير يَحجُبُ من مجدٍ
عريقٍ، على السُّهى منشور !

كاد لبنانُ يلتقي العاليَ البابَ
بزَنْدٍ سَمحِ الفُتولِ، قدير !

فتلوَّت أَستانةٌ روعةَ الواجف
هزَّتْهُ غَصَّةُ المقهور،

حلَمتْ بالشواظِ يُمْطِرُ لبنانَ،
وبالكرِّ بالعديدِ الوفير،

فإِذا البَرُّ من غُبارٍ عُبابٍ،
وإِذا البحرُ من دُخانٍ حَرور،

مِن عِدىً بُكَّرِ العَتادِ، تكاد
الأَرضُ ترنو إِليهم بنفور.

لم يَرُعْهُ التقاؤُهم وعلى الكفِّ
فؤادٌ له حبيبُ الكرور،

راعه حُلمُه تُحطِّمُه الأَقدارُ،
طفلاً في هدهداتِ السرير،

فامَّحى عن عَدِيِّه، يكظِمُ الغيظَ
اشتياقَ اليومِ الكبيرِ الكبير.

*

بينما الناس هُيَّمٌ بِعليٍّ
وَلَدِ السيف، حَدُّه المستطير،

كان في مقلَبِ النهارِ أميرٌ
مُجهَدُ الطَرْفِ، مجهدُ التفكير،

يتلوّى على الخريطة، حُلماً
شائعاً في خطوطِها والسطورِ،

مُتْعَبٌ، يَفجُرُ الأَسى مِحْجَرَيه،
وتداويه بسمةُ المحرورِ،

تعتريه، شوقاً الى مجدِ لُبنانَ،
ارتعاشاتُ مطلبٍ مأسور

ويودُّ التقاءَةَ الأَرز بالوهم،
فيَجري به الى البوسفور،

واذا بالنهارِ يستبقُ الليل،
ويطفو في قلبه الموتور،

فتقول الخريطةُ ارتقصتْ زهواً،
وطارتْ من كفّه في سرور !

حَملَته الى شواطئِ لُبنانَ،
أواذِيٌّ من منىً وحُبور،

والتقاه البَلاطُ مولىً سيحمي
جبهةَ التُّركِ من عدوٍّ مُغير،

« شَفيتْ من طموحه » مقلتاهُ،
وتعرّى من الخيالِ الخطير،

لو رأَوْا في البَلاطِ نوراً لكبُّوا،
في خضمِّ البوسفور، بازَ القصور !

*

داسَ في أَرضه الأَميرُ، فراح
الجبلُ المَيْتُ في ثيابِ النشور،

وسرت رِعشةٌ بلُبنانَ هزَّت
من ذُرى أرزه الى صخرِ صور:

أُمَّةٌ تستردُّ مجداً سليباً،
وأميرٌ يلهو مع المقدور.

يا حِجاراً خوافتَ اللونِ في لُبنانَ،
قُصّي كتابَ عهدٍ نضير !

قَلعاً كنتِ، ضاحكاتٍ من النَّجم،
حساناً، ممرَّداتِ الخصور،

أَنت تَيرونُ ! أَنتِ عجلونُ ! أَنتِ
المَرْقَبُ السَّمحُ ماطراً بالسعير !

أَنا ما دُستُ مرَّةً حجراً منكِ،
ولم أَنتفضْ لذكرى الأَمير !

حَدِّثي ! حدِّثي ! ففي لونكِ الناحِل
أَطيافُ جيشِنا المنصور !

سالَتِ الأرْضُ بالخيولِ معَ الأُردنّ،
سالت مع الخيالِ النَّفورِ،

تزرعُ الرايَ خافقاتٍ، من العاصي
الى المْيتِ، ضاحكاتِ النُّشور،

ومن الأبيضِ الكبيرِ الى تَدْمُرَ،
رقراقَةَ السنى والحُبور.

ضحكتْ، يومَ عنجرَ، الأَسَلُ السُّمْرُ،
وشكَّتْ قلبَ الضحى المستجير،

لَجِبٌ طيِّبُ العَتادِ التقته
باقَةٌ من شبابنا الممرور،

سايفته،لا قَطْعُها قَطْعُ جُبنٍ
رامحته،لا شكُّها شكُّ زور.

أَجفَل السهلُ للطِّعانِ، وأُغضى
وجهُ حَرْمونَ للدم المهدور،

ينثرُ السيفُ قِرنَهُ، فتخالُ
الأَنجمَ الحمرَ من حُسامٍ نثير،

وتخالُ الأَميرَ، في جَيشِه العابسِ،
يمشي على ابتسامِ الثغور،

ظلَّ هَزْجُ الفرسان يلعبُ بالليل
الى سفرةِ الصباحِ الطرير،

فاذا صبحُ مصطفى، قائدِ التُّركِ،
حزينُ السنى، حزينُ السُّفور،

ما رآه الأَميرُ إلا التقاه
بسخيٍّ في كفه، موزور،

ضربَةٌ منه سمحةٌ كبَّتِ الفارسَ
في قلبِ جيشه المدحور،

وأَطلَّتْ شمسُ الغَمامِ، فحيَّت
جُنْدَ لُبنانَ بالشعاعِ الغرير،

ما انتهى مصطفى فقال ابنُ مَعْنٍ:
« يُعْطِكَ اللهُ، لستَ لي بأَسير،

أنتَ حرٌّ ! فطِرْ الى الشمسِ قلباً
واملأْ العينَ من سنى التحرير ! »



نكَّستْ هامَها الجبالُ، ودان
الشرقُ للمستقلِّ فيه، الجدير.

وجهُ فخرِ الدينِ انتفاضةُ قلبٍ
مستهامٍ الى الخيالِ، كبير،

قِدَّةٌ من جبالِ لُبنانَ، في الليل،
ومن ضحكةِ القنا في النحور،

يعتلي صهوةَ الجَوادِ عَبوساً،
فعلى الشرقِ رِعشةُ المخمور،

ويذوبُ الصهيلُ في سمعِ أَسْتانةَ،
نجوى جِداً ونجوى نفير،

أَيخلِّي مرادٌ الرابعُ العرشَ
على وهدةِ الردى والشفير ؟

أَيخلّي أَميرَ لُبنانَ تَيّاهاً،
يشكُّ البندينِ في البوسفور ؟

حُلُمٌ في خيالِ لُبنانَ رحْبٌ،
رعرعَتْه فينيقيا في الصدور:

سُفُنٌ تمخرُ العُبابَ وتُبقي
الهِرقليَّاتِ، خلفْهَا في قصور،

تقصدُ القُطْبَ، والشواهقَ في القطب
تؤاخي مناجماً في بكور،

وتدورُ اعتزازةً حول بِكْرِ الأرض،
تُغري النُّضارَ من أوفير،

تزرعُ المُدْنَ في الشطوطِ، تربّي
قاهرَ المستحيل رمزَ القدير.

ويتيهُ السلطانُ في حُلْمِ لُبنانَ،
فيُلوي على جِسامِ الأُمورِ.

*

حملةُ اليوم، لو تكونُ للُبنانَ،
لردَّته سيِّدَ المعمور !

مِن رجالٍ أَوْفَوْا على الهمِّ عَدًّا،
وسفينٍ أُربت على التَّقديرِ،

فاللَّهيبُ اللَّهيبُ يُمطِرُ لُبنانَ،
ويرميه بالردى والدُّثور،

ويخلِّيه شعلةً من صخورٍ
بعد أَن كان شعلةً من زهور،

وحوالى الأَميرِ من كاظمٍ قَسْراً،
ومن حاسدٍ أَتيِّ الشرور،

أَعينٌ يخنقُ السنى لفتةً منها،
فتُغضي على مُرادِ ضرير،

ما اطمأَنَّتْ للتُّركِ يولونها القوةَ،
إِلَّا تفجَّرت عن قبور،

العِدى في رجاله، والعِدى التُّركُ
بحورٌ إليه إثرَ بحور،

يلتقيهم لبنانُ بالعُصبة البُسَّلِ
تاقوا الى الطِّعانِ الأَخير،

فيموتون عن نفوسٍ كبارٍ،
وينامونَ ملءَ طرفٍ قرير.

قلعةٌ إثْرَ قلعةٍ تُسْلِمُ الأَبراجَ،
إلَّا تَيرونَ، أُختَ النسور،

معقِلُ الحُلْمِ كم أَبت أَن تَداعى،
هُزُؤاً بالزمان والمقدور،

ما رماها الأَميرُ بالدمع، لولا
السُّمُّ في مائها الزلالِ النمير،

ورعته بطرفها ورعاها
في وداعٍ أدمى غناءَ الطيور،

ومضى، سيفُهُ كسيرٌ بأستانةَ
مُخضوْضِبٌ بحلْمٍ كبير !

*

يا اندفاعَ الأمواجِ في شاطئِ البوسفور،
رِفْقاً بذكرياتِ الأمير !

الهُنَيْهَة

عالَمٌ طيّ نَغَمْ،
يتحدَّاه العدمْ،

ضَمَّةُ القَبْلِ إلى البَعْدِ
بعُمْرٍ [illegible]
[illegible]

دقَّ كالبرقة، شُكَّت
خيمةً فوق الأُمم،

لا وثوبٌ في ظنونٍ
لم يُفجِّرْهُ هِمم،

أو بِناءٌ من خيالٍ
لم يُرغرغهُ شَمَمْ،

يُخصِبُ الفِكرةَ يستنطقُها
السِرُّ الأَصمْ،

ويعرّي بيديه
الشمسَ في قلبِ القَتَم.

*

وإذا نحنُ، الى الله،
شِراعٌ في خِضَمْ!

تكسّرت الأسيافُ

تصبَّاكَ شِعري، قلتَهُ قِمَمَ المجدِ،
سلامٌ عليه السَّيفُ أُعجِبَ بالغِمْدِ !

وقلتَ به ما صيَّر الآهَ وردةً
وأُنتَ جِراحُ الآهِ، يا نسمةَ الوردِ !

---

* في يوم امين تقي الدين.

حَبَبْتُكَ، ما حُبّي الشهامةَ ؟ ما الغِوى
بأهلي وبالقِمّاتِ من جَبَلي الفَرْدِ ؟

أنا، بعدَ ما عَلَّمْتَنيهِ تطَلَّعَتْ
جهاتي إلى نفسي ونفسي إلى الزُّهدِ.

هُناك التقينا وافترقنا،... جراحُنا
لتبنيَ، لكنْ أنتَ تسكرُ بالوعدِ،

وأقسو أنا أقسو، أُريدهُمُ لها،
فإن جَبُنوا طُلْتُ الجناحين لي وحدي.

*

كأنّي مهبُّ الرّيحِ، والصَّعبُ منزلي،
وشُغْلِيَ خطُّ الحُسْنِ في الحَجَرِ الصَّلْدِ.

كأنّي غموضُ الليل، لم يَبْقَ عازفٌ
لِجنّيَّةٍ إلّا ورقّصها عندي..

أَقولُ: الحياةُ العزمُ، حتَّى إذا أنا
انتهيتُ تولَّى القبرُ عزميَ من بعدي

وأَقرأُتني يوماً كما لو من الصَّدى،
ومن كاعبٍ في الشِّعر عاليةِ النهدِ،

لَتَفدى الحياةُ استُجمِعَت في قصيدةٍ
وغَنَّت وردَّت... فانتشى الأُفقُ من رَدِّ...

تقول بها: « خَبَّأْتُ يا ليلُ، فيكَ... » ولْيُكَمِّلْ
ويَفْنَ الليلُ في النَّغَمِ الرَّغْدِ!..

تعاظَمَني ما ظَلَّ منها وما انتهى
ويُعدي، وعينيكَ، البهاءُ به، يُعدي...

وصِرنا هيَ الدِّفلى... وصِرنا أنا الندى.
ونُنقَشُ من ديوانِ شعْرٍ على الجِلْدِ...

ذَرُوني... سأطوي قصَّتي مع قصيدةٍ
الى أن يطيبَ العُودُ في نَقرةِ الكُرْدِ.

*

ويا أيُّها الدِّيوانُ ضَمَّ شمائلاً
كما ضمَّ موجوعَ العَرارِ ثرى نَجْد،

تَنزَّلْ تُخَلِّ الشِّعرَ أَشْعَرَ، والهوى
أرقَّ، وذاكَ المنحنى جنَّةَ الخلد !

لِحِبْرِ هَمى كالضوءِ عن جَرِّ ريشةٍ،
تطلعَّتِ الأقلامُ تَنهلُ مِن نَدِّ...

هُو السَّفْحُ يُستهوى، على أنه الذُّرى
إذا قُصِدَتْ خلَّت لُهاثاً على القَصْد،

كذا طُرُقُ الأبطالِ في القولِ والوغى
وما سَهُلَتْ ألّا جبانةُ مُرتَدّ.

إذا نَقْطُ حرفٍ شاءَهُ رَبُّ مِرْقَمٍ
أنيقاً، فقلْ عينٌ تَعذَّبُ من سُهْد.

تعالتْ يَداهُ شاعِرٌ، كلُّ نَسْمَةٍ
تُلِمُّ بما أخفاه، تَشقى بما تُبدي،

وَلُوعٌ بأنغام السُّكوتِ يَصبُّها
لِمِلَّةِ رَفْضٍ، يُسْكِرُ الضِدَّ بالضدِّ،

أنا واحدٌ منهم، فلولا أنينُه
لكانتْ لِقرطاسي جفاءَةُ مُعْتدّ.

يقولون بي غالى ؟ أنا بَعْضُ نُبْلِهِ
وأنظِمُ، عيني في قصائِدِهِ المُلْد...

سَليلُ الأُولى قيلوا السيوفَ[1]، رَنَتْ لهم
جِبالٌ وقال الحقُّ: مِن بعضِهِمْ جُندي.

---

[1] الدروز.

على ريفِ لُبنانَ، نَمَوْا مثلما نما
الضياءُ، وسالَ الفَجْرُ في القِمَمِ الجُرْدِ،

وأنَّى مَضَوْا ظَلُّوا بلبنانَ قلبُهُمْ،
ويَصبو الى أرضِ العَرينِ هَوىَ الأُسْدِ.

يُشرِّقُ شَطٌّ أو تُغرِّبُ مَوْجَةٌ
وهم عنفوانُ الصخرِ ليسَ الى شَدٍّ.

أنا اليومَ منهم في قصيدةِ شاعرٍ
لَتَسكُنُني كالريح تَلْفَحُ من بَرْدِ.

أعودُ اليها الآنَ، هل طابَ نَقْرُهُ
على العودِ، ذاكَ الغارسُ القُرْبَ في البُعدِ ؟

وذاتِ دَلالٍ كلَّ صُبْحٍ تَزورُني
فأقرأُها مِن أَخْمَصَيْها الى العِقدِ،

الى جَبْهَةٍ باقٍ على الشمس ظِلُّها،
إليها جميعاً إذ تَعَرَّى مِن البُرْدِ:

هنا مِثْلُ قَوْسٍ ضاربٌ فوقَ هُدْبِها،
هنالك صُبْحٌ صيغَ مِن سَكْبَةِ الزَّنْدِ،

وتَعذُبُ... لكنْ ليس تَسْهُلُ، صعبةٌ،
فتُعطي ولا تُعطي، مُلعَّبَةَ الصَّدِّ

بِقَدٍّ تسامى زنبقيًّا فإنْ هوى
وأَوجعَ... قُلتَ اللحنُ ماتَ مع القَدِّ.

وتَقْلَقُ دوماً ليس تهدَأُ، فهْيَ لي
ولِلوجد أو للمجد، أشهى من الوجد!

وزِيدَ عليها مِثْلُ لا شيءَ، مِثْلُها...
كما لَفْحَةٌ تَنْشَى الإله على الخَدِّ.

ويَزْلَقُ بي طرفي... أشَلَّالُ لُؤلُؤٍ
سنى الجِسْمِ مَذرِيًّا على الشَّعَر الجَعْد ؟

أبيضاءُ أم صَهْباءُ ؟... دَعْكَ وضُمَّها...
كأَنْ قد أضلَّتكَ الغِلالَةُ عن رُشْدِ...

تَمتَّعْ... صِبا حسناءَ ذاكَ أم آنه
قصيدةُ مَن إن راح يَنْظِمُ لا يُردي ؟

به أو ببعضٍ من سُلالةِ شِعرِهِ
زهونا زُهُوَّ البَرْقِ أو قصفةِ الرعدِ...

وربَّ كلامٍ رُخْتَ تَنسى رنينَه
ومِدْرارُهُ ما زاد عن حَبَّة الرَّند،

تكسَّرتِ الأسيافُ دونَ جَلالِهِ
وقالت بلادٌ: حُجَّهُ، إنه مجدي !

مِن وردتين اثنتين الشمسُ ...

سيفٌ على البُطْل أم شيماتُكَ الحُرُمُ ؟
ــ يا شِعرُ خلّدْ ــ وسيفٌ ذلكَ القَلَمُ!

فكيفَ مَرُّكَ بالجُلّى ؟ سأَلـــتُكَ قُلْ
ما هابَكَ الموتُ ؟ ما انزاحَت لك الظُّلَم ؟

---

* في ذكرى شبلي الملاط.

ماضيكَ، غَزَّارَةٌ كالصحو، مُلْتَفتٌ
كأنَّما الصَّقْرُ في تَحديقِه نَهَمُ،

صَدَّقْتُهُمْ كُلَّ هذي صُوَحَتْ، طُوِيَتْ،
صَدَّقْتُهُم فَتَّ في عَزْمِ الشَّبا الهَرَم،

صَدَّقْتُهُم عَلِموا بالعَبقريِّ مضى،
لكنهم بِشموخ الرأْسِ ما عَلِموا.

*

بالأمس ديوانُكَ استنجدْتُهُ عَبِقاً
منه الخَزامُ، عَلِيّاتٍ به القِيَمُ،

فَخِلْتُني فَلَكياً، مِثْلُ البراعة لي،
حَولي يَدورُ السُّهى يَجثو ويَسْتَلِمُ،

أَبابلٌ، قلتُ، زارَتْني وقد حَمَلَتْ
إِلَيَّ أشياءَ أم غنَّانِيَ الهَرَمُ؟

ولِعْبتُ، أولَعْتَني، وَدَّتْ، لو تكونُ أبا
روحَ الربيعِ، وودَّ الزَّهْرُ والأكَمُ!

*

ما لي أغنّيكَ: «أهلي النورُ مَنْبِتُهم،
عالونَ كالأرزِ، جارِ اللهِ، ما رَغِموا

ما نكّسوا هامةً إلّا لخالقها
إلّا لِلُبنانَ ما دانوا وما احتكموا،

في إثرِهم أنا، دُنيايَ الجمالُ، وإنْ
باعدتُ فالسفحُ من لبنانَ والقِمَمُ،

إلّاكَ إلّيكَ، إلهي، ما ملكتُ يدي
لجوعِهِ؟ مِنْ شَرَفي خُبْزٌ ومغتنَمُ

ويومَ مرَّ ببالٍ أن تكونَ لنا
يَراعةً بالهُدى والنُّبْلِ تضطرمُ،

عليَ السنى وعلى شَكِّ القنا رَبِيَتْ
عليَ الزئير ،أوانـاتِ الحِمَى أَجَـم،

ظَنَنْتُ شِعْرَكَ فخرَ الدين مُنتهِـراً:
« جنودَ عنجرَ، هذا يومُها الهِمَم ! »

يَسْخَى فيَسْخَوْن، قُلْتَ السيفُ في يده
يسخى وتلتفِتُ القِيعـان والرُّجُـم،

حَرْمونُ في الأُفْقِ يَروي عَن بطولتهم،
صِنِّينُ يَغوى بِهم تِيهاً ويَنسجـم،

لله ما مادَ مِن بُرْجٍ، وزُلْـزِلَ عن
سَرْجٍ، ومَن قَضَموا رُمْحاً ومَن قَحَموا،

هُمُ الأُولى أَخـذوا عن راسياتِهـمُ
أَنَّ القِـلاع وأَنَّ الراسيـاتِ هُمُ !

حَتَّى إذا قال: « كُفُّوا، قد عفوتُ أنا،
بِحسبيَ النَّصرُ، ما لُبنانُ مُنْتقِم »،

تَلاحَظَتْ مِن أساها الخيلُ صاهِلَةً،
وفُتِّتَتْ كاظماتٍ غيظَها اللُّجُمُ،

لكنَّما عَبْسَةٌ من حاجبيه طَغَتْ،
فعادَتِ الخيلُ كالفُرسان تَبتسم !...

*

طَابَت قصائِدُ خِلْتُ الجيشَ مندفعاً
فيها، ومؤتلِقاً في أُفْقِهِ آلعَلَم !

شِعْرُ الرجولَة، شبلي، أنتَ نَبْعَتُهُ
بِكَ ارتوت أُمَّةٌ، مِنك انتَشَتْ أُمَمُ.

بَلى بَلى، لَكُما في الدَّهْرِ وَقْعُ خُطىً
على العُلى لُوِّنَتْ مِن شأْوِها الدِّيَمُ.

أَلْفاظُكَ الدُّهْمُ حُمْرٌ حينَ تَرْصُفُها،
لا حُمْرُهُ أُسْرِجَتْ أَبهى ولا الدُّهُمُ.

أَأَنتَ أَمْ هُوَ مَن خَلَّى الجَمالَ على
مفارِقِ المَجْدِ، مُفْتَنًّا بما يَسِمُ؟

خَلَطْتُ بَينكُما حتَّى لَأَسأَلُهُ
أَشاعِرًا كانَ حِينَ الطَّعْنُ مُحتَدِم؟

تَوَقَّع السَّيفُ يوم اختالَ في يَدِهِ
ما سَوفَ تأْخُذه عن حِبْرِكَ الحُمَمُ.

أَنتَ المُرَوِّعُها الأَفْكارَ تأْسِرُها،
هو المُمَنِّعُها الهِمَّاتِ يَنْتَظِمُ.

هُنا امتشاقٌ لمعنىً رَنَّ بارِقُهُ،
هناك نَقْطٌ بِنَصْلٍ والحروفُ دمُ.

تُغري ويُغْري فَلَفْظٌ منكَ هَزُّ قناً،
ومنه قَطْعٌ تَقولُ البيتُ يُخْتَتَم.

أرهفتُماها القَوافي حَدُّها لَهَبٌ،
أجريتُماها المَواضي سَيْلُها عَرِمٌ.

مَرَرْتُما فوقَ دُنيانا معاً ومعاً
لاعبتُما الموتَ حتَّى لَهْوَ مُنْهَزِم.

يا صِنوَه مَنبِتاً ذاك الذي نَحتوا
مِن اسمِه اسمَك، هَل أُنطَقْتُ مَن وجَموا ؟

تفي ولو أنتَ خَلْفَ القبر، هاكَ أنا،
في يومِ خُلْدِكَ، صوتي بَعْضُهُ الكرم.

مِن وردتينِ اثنتينِ الشَّمسُ أرفعُها،
فالكونُ شَخْطَةُ حِبْرٍ والمَدى كَلِم !

فِي البال خلف الحرير الزهْرِ خاطرةٌ
تملمــلت قُلْتَ حُسنٌ بالهــوى بَرِمُ،

ــ « حبيبيَ الحُلْوَ، نادت، والذِّراعُ على
جيدٍ، وُجُودٌ أَنا أَم وَهْمُ مَن وَهموا ؟

حَلَمْتَني ؟ أَكْمِلِ آلخَلْقَ، ليس أَجملُ من
إطلالـةٍ راكــعٍ في بابهــا العَـــدَم.

مِن بَعدِ ما أَلتقي نَفسي يُخَيَّلُ لي
أَنـي أَنــا قُبلـــةٌ حَرَّى وأَنتَ فَم ».

لا لم أُجِبْها، جمعتُ الدَّهرَ، مَن عشِقوا،
مَن أَسكَروا الكأْسَ، مَن قالوا ومَن أَثِموا.

سَقيتُهـا لا دمُ العنقــود أَطــيبُ لا،
ولا الخلــودُ ولا ما فَتَّــقَ القِــدَم،

وما بقرطاجَةَ استَهدَوْا وما اعتَزَمَتْ
بِبعلبكَّ الطِّوالُ السِّتَّةُ العُظُم.

رَويتُها لي، لِبالي، لِلزهور، لَها،
كما رويتَ لِعودٍ أنَّهُ نَغَم!

فَقَرَّبَتْ شَفَةً وَلْهى إلى شَفَةٍ،
وهَبَّ يَعْطِفُ قَدَّ الزنبقِ النَّسَمُ.

أوَّاهِ مِن كَرمةٍ لَم يَصْحُ قاطفُها
إلاَّ ليشهَدَ هذا الكونَ يَنعدم!

ومَن رَقَى الموتَ؟ مَن قالَت أصابعُهُ
سأسْحَرُ السِّحْرَ حتَّى تُبْعَثَ الرِّمَم؟

أمانَ عَينيكِ، بيتَ الشعر، أنت لها،
يا أنْجُمُ ارْقُصْنَ لي، غَنِّينَ يا سُدُم!

الشِّعر قَبْضٌ على الدُّنيا مُشعشِعَــةً
كما وراءَ قميصٍ شَعْشَعَتْ نُجُــم،

فَأَنْتَ والكَــونُ تيَّاهــان: كَأْسُ طِلاً
دُقَّتْ بكأْسٍ وحُلْمٌ لَمَّــهُ حُلُــمُ.

*

عالٍ كما أَنتَ شبلي، ما رَشَقْتُ به
بابَ السماءِ وما بالغَيب يَصطــدِمُ،

أَتي على المُغلَقِ المَرصودِ فانفتَحت
كَفٌّ من الله ما الأَزهارُ؟ ما الحِكَمُ؟

شِعــرٌ إلــيَّ يَشُدُّ المنتهــى جَزِعــاً
قَلْباً، ومِنهُ بقــلب المُنتهــى أَلَــم.

سارَرْتُها الشمسَ، أَيُّ الخَمْر يُسكرُها
حتّى أُصُبّ؟ فقالت: «يُسْكِرُ الشَّمَم!»

النَهران

وُلدتُ سريري ضِفَّةُ النهر، فالنهرُ
تآخى وعُمري مثلما الوردُ والشَّهرُ،

وكان أبي كالْمَوج يَهْدُرُ، مرَّةً
يُدحرج من صَخرٍ وآناً هو الصخرُ!

* في الاحتفال بنيل شولوخوف جائزة نوبل.

وقد علَّماني الحَقَّ، ما الحَـقُّ؟ دُفْعَـةٌ
كما السَّيلُ عنه انشَقَّ واخضوضَرَ القفر.

وعُمْــرٌ شَرارٌ ليس يأْسُنُ ينتخـــي
على الصعْب، فهو الشَّرْدُ والبردُ والحرّ،

وأنك خَطٌّ كالشهامـــة واقِـــفٌ
إذا انهار ظَهرُ الناسِ أنتَ لهم ظَهر.

وما قَلَمٌ بالكَــفِّ إن لم تَهِـم به
مواضٍ وتَحْسُدْهُ الرُّدينيَّةُ السُّمْــر!

تَوحَّــد مَنْ مِن حَزِّهِ طاب حِبْـرُهُ،
ومَـن بتلقـي طَعْنِــه افْتُتِــنَ الصَّدر،

أَنا عنهمــا ذَيِّيْــنِكَ الشائِليــنِ بي
أَخذتُ ولم أُسكَرْ، وبي تَسكرُ الخمر!...

كأنِّيَ بين الموج والمجدِ ساكنٌ،
وداريَ بنتُ الصُّبح ما شابَها عَصْرُ.

لَئِن تَحْكِ عن نَهْرٍ فشَطْرُ قصيدتي
يُطِلُّ، وهُزَّ السيف يكتمِلِ الشطر!...

*

تُحَبِّبُنِيهِ «الدونَ» كُلُّ تُرابةٍ
سَقاها سَقى أُختاً لها القَلَمُ النضْرُ؟

كلامُكَ يُغرِيني، يُرنِّحُ خاطري،
يُذكِّرني بالأَرض، أَرضي اللّها ثَغْرُ،

تُقَبِّلُ حتَّى لَهْيَ أُمٌّ... وطفلَةٌ
رِضَىً... وعروسٌ فاحَ مِنْ رُدْنها العِطرُ!...

أُغنّي أنا لُبنانَ أَجْمَلَ ما شَدا
كَنارِيُّ غُصن رَقَّ، لكنه نَسْر...

وأَنْتَ تُغنِّـي رُقعـةً من جبالهـا
جبـالٌ، عليهـا مُتعَبـاً يَتَّكـي الدَّهـر.

كِلانـا شَغـوفٌ بالضِّفـاف وأَهلِهـا
يُنَشِّئُهُـم نَبـعٌ يُخَلِّقُهُـم زهـر،

كَنَبعهـمُ أَعطَـوْا جديـداً وطَيَّبـوا،
كزهرِهـمُ الدنيـا، وكالزهـرةِ افتـرُّوا...

تُغنِّي هدوءَ « الدون » ؟ عَفْوَكَ: أَهلُـهُ
إذا بَعثـروا فَجْـراً أَهَـلَّ لهـم فجـر!

جَلَلْتُكمـا عنهـا فلا « الـدونُ » هادئٌ
ولا أَنت، إلاَّ أَن يَلُفَّكمـا السرُّ.

أُسائِـلُ: « هل حارت بغير نُهاكُما
عقولٌ، وهل جاهى بمثِلكما الـعَصرُ ؟

ونَهْرُ الرجالِ المُنتهي خَلْفَ أنجمٍ
وأنت تَخُطُّ النهرَ، أيُّكُما النَّهر ؟ »

*

حَبيبتُكَ، يا غَزَّارَةً ما تجاهَرَتْ،
ومَن قال: صوتُ الناي أجمَلُهُ الجَهْر ؟

تَميلُ على القِرطاس تأمُرُهُ: آمتثلْ
غَماماً، فيَسخى ليسَ يَجْرحه الأمرُ،

إخالُ الرِّقاعَ الخُضْرَ بِتْنَ حبائباً
إليكَ... فها عُنْقٌ يضجُّ وها خَصْرٌ !...

وأنت حَواليَهنّ كَفٌّ عطيَّةٌ
كما الله إنْ قَطْراً أرادَتْ هَمى القَطْر !

وإن أنتَ قصَّفتَ الغُصونَ تلألأتْ
غصونٌ عليهنَّ الطيورُ لها كَرُّ.

تُعاتِبُ أَنتَ الشَّيحَ والريح، باعــداً
عشيّاً، فتبكي الريحُ والشيحُ يصفرُّ !

أَلا أَين مِنْكَ الصاحبون ؟ هَزَزْتَهُم
بِقولٍ وبعضُ القول ناهِدَةٌ بِكر.

لِطَرفةِ جَفْنٍ مِن حَياها غَضيضةٍ
يَذِلُّ الذي في القَصْر أَو يَقَعُ القصر،

ولِلَّفْظةِ المكنونِ سِرُّ جمالِها
نَفاذٌ كهَدِّ المَوج جُنَّ به البحر.

*

تَقُصُّ ؟... ارتفق بالشِّعر، أَنت بدَعْتَهُ
كلامُكَ زَهْرُ الجَمْر لو يُزْهِرُ الجمر.

تَخُطُّ كما خَطَّ اللعوبون بالعُلى
على أَنمُلاتٍ منهُمُ اغترب الفِكر،

يَحُــرُّونَ كونــاً، يَنزِلــونَ بآخــرٍ
وكُلٌّ على كَفٍّ... فقلْ بعدُ ما السِّحْر !

*

إليكَ بنَفْــحِ الأرز جَمًّــا بعثتُــهُ،
وعُلِّــقَ عُودُ اللهِ في الأرز. فالنَّقْــرُ

وشيكٌ. كُنِ العــوَّادَ واضرِبْ بريشةٍ
على مَوعدٍ مَعْ مثلِهـا العَمْـرُ والغَمْـر.

وأنتَ من اللائــي يُحِبُّــونَ. إنهــم
على أرضِكَ المِعطاءِ، أفديهِـم، كُثْـر.

ومِن عِندِنا المَجْدُ الذي المَجْدُ بعضُهُ
إليه رنـا مَن ألْهِـمَ السِّفْـرَ، والسِّفْـرُ،

فَلَـمْ يُعْطَـهُ من سار بالشِّعر لاهثــاً
ولكنَّما مَـن جـاءَ يَقصِـدُهُ الشِّعـر.

اللون الآخر

بِبالي مررتَ اليوم، فَلْيَشتعِلْ بالي،
كأنكَ قَصْفُ الرعد في الجبل العالي،

كأنكَ لونٌ في الطبيعـــــةِ آخَـــرٌ،
أوِ آسْمٌ كطيرِ الرُّخِّ أو شجرِ الضّال.

* ليلة تذكر الرفاق عمر فاخوري.

لِخاطــــرةٍ أغريتَهـــا وحَبَستَهـــا
بلفظٍ، بكـى غيــرانَ لؤلـــؤُ لَآلِ.

إذا القـولُ ما شَدَّ الربيــعَ، ولا شدا
على كلِّ حرفٍ منه عُصفورُه الغالي،

ولَـم يَسترخْ فيـه الزمـانُ، وتشتــبكْ
نجومٌ بأزهارٍ، كما المِعصمُ الحالـي،

فلا كان !... إن القولَ ما آهَ من هوىً
وشعشعَ، قلتَ الأرضُ مُسَّتْ بزِلزالِ.

*

حَبَبتُكَ تُغنـي العَصر، تُطلِقُهُ علـــى
الرِّيـاحِ، تُمَنِّيــهِ بإكثــارِ إقـــلالِ،

تُلقِّنُـــه كيـــفَ افتتـــانُ أصابـــعٍ
بمجدٍ، وكيف المَجدُ تَحطيمُ أغلال.

فلا صَغُرَتْ أَرضٌ، ولا قَلَّ شعبُها،
ولكنها الدنيا لِجَوَّابِ آمالِ!

لِمَنْ بَرِمَتْ منه يدانِ رماهما
بأَن تغدُوَا في السكب دفقةَ شلاَّلِ!

فلا شيءَ مما طاب شيئاً ولعبةً
تشيل الرُّبى، إلاَّ تأتَّى لشيَّالِ!

*

كفى أَن تُحِبَّ الحُسْنَ، مقلَعُكَ السَّنى،
تُقصِّبُ: باني الضوءِ بانٍ لِأَجيالِ.

*

ومَنْ ماردُ الباب الذي قلتَهُ ازدهى
وطُيِّبَ مَرصوداً كما الماءُ في الآلِ؟

يقولونَه حُلماً يُخَيِّبُ؟ ويحهم!
أَما واهمٌ بالحُبِّ أَشرَفُ مِن سالِ؟

مُقـــامُكَ في أَرجائهـــم كان هَتْفَـــةً
بموتـى، وكـان المستجيـرَ بأَظـــلال:

تَخالُهُـمُ دنيـــاك، إِذْ هُمْ بَريقُهـــا...
وآلهـــةً، إِذْ همْ تماثيـــلُ صَلْصال...

*

سيَبقـى لك النَّسجُ الـذي أَنت ربُّـه،
ولِـلشمس نَسْجٌ كُلُّ ما دونَـهُ بالِ.

غُبـارٌ علـى الثَّـوب الـذي أَنتَ خالـعٌ
لَمِنْـــهُ عروشُ الأَرض تُشرى بمِثقـــال.

وإن أَنتَ، يومَ الرَّصْد، ما كنتَ مارداً
وبابـاً، فمـا خَزْنٌ ومـا فَضُّ أَقفـال؟

*

سلامٌ علـى الغـزَّارةِ احمَـــرَّ وجهُهـــا
ولكـنْ كمـا الـوردُ الوديـــعُ بإدلال،

أَقولُ: آنزِلي، يا بعلبكُّ، آنزِلي معي
آلزمانَ خططناهُ كما الوردُ في البال !

ومنّا الذي تاقَتْ الى وجهه العُلى،
ومنّا العُلى فليمّحِ الطلَلُ البالي.

*

مِن الغيبِ، فوقَ الغيبِ، وَقْعُ حوافرٍ
تطلَّعْ ! حِصانٌ راح يَغوى بخيَّال !!

نَهرُ الذَهَب

حلمتُ وكان الضُّحى لم يُفِقْ
بأنَّ وسادَكِ زندي القِلق،

وفوقَ محيَّايَ، شَعْرُك نهرٌ
من الذهب المُندري المندفق،

أهِي مرَّةً، ومراراً أضيع
كما وردةٌ في العبير العَبِق.

هُويناكَ، يا حلمُ، هذا المساءَ،
ستقسو، وبعدَ غد، ستَرِق...

أنا مَرَّ أُسبوعُ عمرٍ ولمّا
أَمُرَّ بدارتها أُسترق

إلى حُسنها، قلْتَني بُلْبُلَ الأَيك
شرَّدَهُ عندليبٌ نزق،

تَجيءُ الفَراشاتُ مُحلولياتٍ
الى حِيف شُبَّاكيَ المنغلق،

فأَغمزهن: أَمِنْها ارتزقْتُنَّ ؟
بَشَّرْنَني أَنني مُرتزق...

فراشاتُ، أَيٌّ تَمُرُّ بِشَعْرٍ
وليست تَودُّ به تحترق ؟

أنا ليتني كنتُ في السِّرب ! كنت
تأنَّيت عندَ البياض اليقق...

وما لامست أُنملي ذلكَ النحر،
كلّا ولا الناهِدَ المنطلق...

ولكنني كنت مُتُّ بعينين،
خَمْرُ السماءِ إذا يندلق...

كلامي على ربِّ الكلام

كلامي على ربِّ الكلام هَوىً صَعْبُ،
تهيَّبتُ ! إلاَّ أنَّني السيفُ لم يَنبُ.

ورُبَّ جمالٍ رُحتَ تَرسُمُ طيفَه
تصبَّاكَ كالسيفِ استجاب له الضَّرب،

* في احتفال بعلبك بعاشوراء.

وما لُغةُ الأَقلام من لُغةِ القنا ؟
اثنتان؟ سأَلتُ الحُسْنَ: ما الجَفْنُ؟ ما الهُدْبُ؟

لَيَطرَبُ لا إلاَّ لغزَّارةٍ جرت
كما الفَرَسُ الدَّهماءُ طَيَّبها النهب،

إذا صَهلت غِبَّ التَّلاحُم ردَّها
أخو مِرَّةٍ في الدَّوِّ من وقْعِه رُعْب،

يَذود عن الذِّمَّات ليس يُبيحها،
بِه الشرْقُ مَدَّ الصوتَ فالتفت الغَرب.

*

حببتُ عليًّا مُذ حببتُ شمائلي،
لَهُ اللُّغتانِ: القولُ يَشمَخُ والعَضْب،

بِهذاك يُعليها، بهذا يَزيدُها
أيكبو؟ ولكنَّ الأَصائلَ لا تكبو!

لَأشرفُ مَن قاسى، وأَسمَحُ من سَخى،
تقول على رَملِ البوادي له حَدْب.

بَلاغتُه الليلاءُ أُسُّ أريكةٍ
فكيفَ بما أَبلى الذي وثبُهُ الوثب ؟

*

وهَل، يا تُرى، هل قادِرٌ خَنْجَرٌ على
حبيبِ فِرِنْدٍ ؟ بَكِّني وابكِ، يا حُبّ !

تَخيَّلتُهم، أَهلَ النهى من أُمَيَّةٍ،
ومَن إنْ عدوٌّ ضِيم واستُصرخوا هَبُّوا،

رَمَوا عند سَمع النعْي شَهْمَ سلاحهم
وقالوا: « لِهذا الشَّهْب نُكِّست الشُّهْب! »

*

تَخيلتُهم يومَ الغدير وقد سما
سماوِيُّهم: « بَلِّغْ ! »، فمُزِّقتِ الحُجْب،

فقال: « أَلا مَن كنتُ مَولاه فَلْيَكُنْ... »
وأَكملها. يا طيبَ ما اكتمل الدَّرْب !

وكانت إماماتٌ وكانت مَطارحٌ،
مَحَطٌّ نُزولِ الله أَو يَقْرُبُ القُرْب،

ففي كُلِّ أَرضٍ بعدُ بيتٌ مطيَّبٌ
على اسمِ الأُولى في الكُتْب ليس لَهُم شَطْب

ومَن لا يُحِبُّ البيتَ، سيفُ عليِّه
جميلٌ، وذاكَ النَّهْجُ كوثَرُهُ عَذْبُ ؟

كلامٌ كما الأَربابُ في طَيلسانها،
أَلا فَلْتَداوَلْهُ وتَرتعشِ الكُتْبُ !

سائِليني

سائِليـنـــي حيـــن عطَّـــرتُ السَّلامْ:
كيـف غارَ الـوردُ واعتَـــلَّ الخَـــزامْ،

وأنـــا لو رُحتُ أستــــرضي الشذا
لانثنـــى لُبنـــانُ عِطـــراً، يا شآم!

ضِفَّتـــاكِ ارتاحتـــا في خاطِـــري،
واحتمـى طيرُكِ في الظَّـــنِّ وحـــام.

نَقْلَــــةٌ في الزَّهــــر أَم عَنْدَلَــــةٌ
أَنتِ في الصَّحْوِ وتصفيقُ يمــام؟

أَنــا إِن أَودعْتُ شِعــري سكــرةً
كنتِ أَنتِ السكبَ أَو كنتِ المُدام.

*

رُدَّ لي من صَبوتــــــي، يا بَرَدى،
ذكريـــــاتٍ زُرنَ في لَيَّـــا قَوام،

ليلــةَ ارتــاح لنــــا الحَــوْرُ فلا
غُصُنٌ إلاَّ شَجٍ أَو مُستهــــــام،

وتَهـــــاوى الضوءُ إِلاَّ نَجمــــةً
سَهِــرَت تُطفِــي أُوامــاً بِأُوام،

سأَلتنــــي مِن دلالٍ قُبلــــةً
يُعصَرُ الدَّهـــرُ بِهـــا كأْسَ غَرام،

وارتَــمت يَكْسِرُ مِن هُدْبٍ لهـــا
مُسهَبِ الطُّــولِ حيــاءٌ واحــتشام،

وَجِــعَت صَفصافــةٌ مِن حُسنهـــا
وعرى أَغصانَهـــا الــخُضْرَ سَقــام،

فحَسَرتُ الشَّعــــر عَن جَبهتهـــا
أَسأَلُ الـحُسْنَ أَفــي الأَرض أَقــام ؟

وتَأَنَّـــيتُ أُمَلِّـــي خاطــــري
قَبــل أَن يحجُبَهــا ضَمٌّ الهُيــام،

أَو لِخَــوفٍ بي علـــى ثانيَــةٍ
سَوف تمضي فمُنى العُمر حُطــام،

لم تَدَعْ لي شقــوةً أَحيــا بهـــا
ورَنَت يَمــلأُ عينيهـــا ابــتسام،

أومأتْ لي... فامَّحى كُلُّ سنىً
مرهِقٍ، غيرَ فمٍ عذبِ المَلامِ،

وإذا قُبْلتُنا فرَّ إلى
عالَمٍ أبهى وسُكْنى في مَنامِ.

تَقِفُ النَّجمةُ عن دورتها
عند ثغرَينِ وينهارُ الظلامِ.

*

طَوِّفي بي، ذِكرياتي، طَلْقَةً
واغنمي أطيابَ ذيَّاكَ الوِئامِ،

وآمْرَحي بينَ دمشقٍ وحِمى
تلكُمُ الصفحةِ مِن رِفعةِ هامِ،

خطَّها صِيدٌ أُباةٌ غَصَبوا
حَقَّهم، والحَقُّ غَصْبٌ أو حِمامِ،

غالَبــوا السَّيــف عريقــاً حَدُّهُ
فانثنى السيفُ وفي الحَدِّ احتــرام.

هذه «الغوطَــةُ» أوفــى تُربــةً
بهمُ أَم جبل «النَّــبْكِ» القُــدام؟

كَم فتــىً بات فراشاً سرجُــهُ
نامَ والكَفُّ على سَيــر اللِّجام!

وفتـــاةٍ خَلَــعتْ أَسوارَهــا
تَشتري حَلْياً لها غَيــرَ كَهــام[1]!

وشجــاعٍ لم يَسَعْــه عُمــرُهُ
راحَ يحيا سَعَةَ المــوتِ الــزُّؤام!

---

[1]) من كَهَمَ السيفُ أي كَلَّ.

أُسْدَ الثَّــــورة ! وُسَّدتُــــــم ثرىً
هو مِن مَشرِقِنــا الأَرضُ الحَــــرام،

طَيِّبَتِــــه من جَنـــوبٍ نَفحـــةٌ
عَبــقَتْ مِن ضارِبٍ في الأُفْق، سام،

جَبَــلٌ[1] يجمـــع في أَصلابــــه
دَعــةَ السَّفــح الـــى عِزِّ السَّنـــام،

التُّرابـــاتُ به أَهْــــلُ وفــــاً
ومِـــحَكٌّ يَزِنُ الحُـــرَّ الهُمـــام،

ولـــه أَهلـــونَ إن يَنْتَسِبـــوا
يَشمَـــخِ الرُّمْـــحُ ويَعْتَــزَّ الــحُسام.

---

١) جبل الدروز.

قُلْ لِذاكَ اللَّيثِ[1] في آجامِهِ:
واحِدٌ نحن إذا الشامُ تُضام،

سائِلِ الأَبطالَ: هل تُنسى لنا
رِفْقَةُ الأَخذ بأَغراضٍ جِسام؟

ولَظى الحِرمانِ مِن أَهلٍ ومِن
غَفوةٍ قَمراءَ في تلكَ الخيام؟

والْتقاءُ الموتِ ضَنًّا بِعلًى
وأَحايينَ اشتياقاً لاقتحام؟

حُرُماتٌ بيننا أَنقى سنًى
من ذُرى الحَرْمونِ أَو طُهْرِ الغَمام،

١) سلطان الاطرش، قائد ثورة ١٩٢٥.

قد سَقينا بالدم المَجْدَ معاً
ومعاً خضنا المجالاتِ الكِرام،

وعَهِدْتُ السيفَ في سلطانه
ناصِعَ الإفرندِ لم يَذْمُمْهُ ذام،

شيمةَ الليث انثنى مُدَّخِراً
صولةَ الضاري ليومٍ ذي جَهام.

*

يا سفينَ المجدِ، ردّي ما انطوى
واقحمي الأمواجَ حين البحرُ طام.

يُسْلِسُ الدَّهرُ قِياداً للذي
يتحدّاه سهاماً بسهام.

جَدِّدي ما وسِعَ الهَدْمُ فما
بسوى الهَدْم لِبانينَ اعتصام،

وأَلفـي المَـرَّ بسطحيٍّ المُنـى
ليس يُرضي النَّسْرَ ما يُرضي الهَوام،

العبوديّاتُ مثنى عندنا:
في الحِمَى غازٍ وفي العقل قَتام،

تِلْكُمُ دالَت وهذي لم تَزَلْ
سُوسَةً تَبْري فَتَفْتَتُّ العِظام.

آهِ! مَن لي بغد أدنى الى
سَلسَلِ الحُلْمِ وأبهى من مرام؟

تطأُ الشامُ به مُختالَةً
ساحةَ المجهول أو شأْوَ الأَمام،

الحضاراتُ هُنا منبِتُها
شُدَّتِ الدُّنيا الى هٰذي الأَكام.

*

ظَمِـــئَ الشرقُ، فيـــا شامُ اسكُبـــي
واملأي الكـأْسَ له حتى الجَمـــام !

أهـــلُكِ التاريـــخُ من فَضْلتهـــم،
ذكْرُهُـــم في عُرْوةِ الدَّهـــرِ وِسام.

أُمويُّـــــون فإن ضِقْتِ بِهِـــــم
أَلحَقُـــوا الدُّنيـــا ببستـــان هشام.

أيُّ رأْيٍ[1] أنتِ ما نشأْتِـــــــــهِ
توأَمَ السَّيـــفِ لِفَصْلٍ واحتكـــام !

خلبَ الدُّنيا بمـــا افتَـــنَّ، اهتِفـــي:
كبُـــرَ المرمـــيُّ يومَ الحـــقُّ رام.

*

1) فارس الخوري.

تَمتــم المَجــدُ وناغــى حُلمَــهُ
فوق كفَّــيكِ إِذِ المجــدُ غُلام،

وهـو حُلْـمٌ لو درَوا أَيــن انتهــى
لأتتكِ الأَرض حجًّـــا لمقـــام.

يا طريقـــاً من دمشقٍ لم يزلْ
لفتــةَ الدنيــا وإِجــلالَ العِظـــام،

بَيْــن تَخْمَــيكَ تَجلَّــى للنُّهــى
مَطْلِــعُ الحــقِّ وتعليـــمُ السلام،

فإِذا جُدِّلَ عن مُهرتِــــــــهِ
شاولٌ وانـــكبَّ في ذاكَ الرَّغـــام،

رُحْتَ تَلقــى مَصرَعَ العقـــل اذا
كانَ للعقــل معَ الحَــقِّ اصطــدام

*

شامُ، يا دارةَ نيسانَ، سَقَت
مرجَلكِ الخيراتُ في الغيثِ السِّجام!

عِشتُ يَغنى بِكِ شوقي كلما
زُرتُ، والزَّورةُ شوقٌ مستدام،

فكأني شارِبٌ ليس يعي
خوْفَةَ القائلِ: خُذْ آخرَ جام!

وتؤاسيني، إذا حَمَّلتِها
منكِ شيئاً، مَشرِقيَّاتُ النِّسام.

لكِ قال الحُسْنُ مذ هِمتِ به،
ذات صبحٍ، ونَضا عنه اللِّثام:

من أنا؟ أُغنيَّةٌ لم تكتمِلْ،
رُصِدت... الا اذا كنتِ الخِتام،

وأقاحِـــيُّ نَمَت في « دُمَّـــرٍ »
أوَّلَ الدهــر ومــاتت في الفِطــام،

فإذا عادَت حيـــاةً طَفِـــقَت،
من حَنيــنٍ، تَجِــدُ الدُّنيـــا شآم.

*

أنـــا لستُ الغَـــرِدَ الفَـــرْدَ، إذا
قال طابَ الجَرْحُ في شجو الحمـام.

أنـــا حَسبـي أنـــي مِن جَبَـــلٍ
هو بيـــــن اللهِ والأرضِ كلام.

قِمَـــــمٌ كالشمس في قِسْمَتِهـــــا
تَلِـــدُ النُّـــور وتُعْطيـــهِ الأنام.



غنّيتُ مكّـةَ أهلَهـا الصيِّـــدا،
والعيـدُ يمـلأُ أضلعـي عيـــدا.

فَرِحوا، فلألأَ، تحت كلِّ سَماً،
بيتٌ على بيتِ الهُـدى زيـدا.

وعلى آسم ربِّ العالَميـنَ علا
بُنيانُهـــم كالشُّهبِ ممـــدوداً.

يا قارئَ القُرْآنِ صلِّ لهم،
أهلي، هناكَ، وطيِّبِ البيدا.

*

مَن راكعٌ ويداهُ آنستا
أنْ ليس يبقى البابُ مرصوداً.

أنا أينَما صلَّى الأنامُ رأتْ
عيني السَّماءَ تفتَّحتْ جُودا.

لو رملةٌ هتفتْ بمبدِعِها
شَجْواً لكنتُ لشجوِها عُودا.

ضجَّ الحجيجُ هناكَ فاشتبِكي
بِفمي هُنا يا وُرْقُ تغريدا.

وأعِزَّ، ربِّي، الناسَ كلَّهُمُ
بِيضاً فلا فرَّقْتَ أو سودا:

لا قفــــرةٌ إلا وتُخصِبُهـــــــا،
إلاَّ ويُعطى العِطرَ، لا عودا.

الأرضُ، ربِّـي، وردةٌ وُعِـــدتْ
بكَ أنتَ تقطِفُ، فاروِ موعودا.

وجمالُ وجهِكَ لا يزالُ رَجاً
يُرجى، وكُـــلُّ سِواهُ مردوداً.



نَسَمَتْ من صَوب سوريَّا الجَنوبُ،
قلتُ: هلَّ المشتهى، وافى الحبيبُ،

أشقرٌ، أجملُ ما شعَّت الشمسُ
أو طيَّرتِ الريـــحُ اللَّعـــوب،

شَعَـــرٌ أُغنيَّـــةٌ قلبـــــي لَهُ،
وجبينٌ كالسَّنى عالٍ رحيب.

أنـا إن ساءَلتُ: أيٌّ مضَّنـي ؟
قالَتِ القامَةُ: حُبِّيك عجـيب !

مثلَما السهلُ حبيبي يـنـدري...
مثلَمـا القِمَّـةُ يعلـو ويغيب...

وبــــه مِن بَرَدى تَدفاقُــــهُ،
ومِن الحَرْمونِ إشراقٌ وطيب.

ويحَــهُ ذاتَ تلاقينــا علــى
سُنْدُسِ الغوطةِ والدنيا غُروب،

قال لي أشيـــاءَ لا أعرِفُهـــا
كالعصافيرِ تُنائي وتَــؤوب،

هو سَمّانــي أنــا أغنيَّــةً
ليتَ يدري أنَّه العودُ الطَّروب.

من بلادٍ سكــرةٍ قال، لهـــا
تُرْبَـةٌ نايٌ ونَهْـــرٌ عندلـــيب.

ويطيب الحُبُّ في تلك الرُّبى
مثلما السيفُ إذا مُسَّتْ يطيب.

شامُ يا ذا السيفُ

شامُ، يا ذا السيفُ لم يَغِبِ،
يا كلامَ المجدِ في الكُتُبِ!

قبلَكِ التاريخُ في ظُلْمةٍ،
بعدكِ استولى على الشُّهُبِ.

سَكرةٌ يومُكِ، ما الكأسُ
بالكأْس دُقَّتْ؟ ما ابنةُ العِنبِ؟

لي ربيــــعٌ فيكِ خبَّأْتُــــــه
ملءَ دنيــا قلبــيَ التَّــعِب،

يومَ عيناهـــا بساطُ السمـــا،
والرمـاحُ السُّودُ في الهُـــدُب،

تَلْتوي خصراً فأُومــي الــى
نغمـةِ النــاي: ألا انتحِبــي!

أنـــا في ظلِّكَ، يا هُدْبَهـــا،
أحسبُ الأنجُـــمَ في لُعَبــي.

*

طابتِ الذكرى، فمَن راجعٌ
بي كما العودُ الى الطَّرَبِ؟

شامُ، أهلــوكِ إذا هُمْ علــى
نُوَبٍ قلبــي علـــى نُوَب،

أنـــا أَحبابـيَ شِعــري لَهُــمْ
مثلمـا سيفـي وسيــفُ أبـــي.

*

أنـا صوتـــي منكَ، يا بردى،
مثلمـــا نبــعُكَ مِن سُحُبـــي.

ثَلْـجُ حَرْمــونَ غذانــا معــاً،
شامخاً كالعِــزِّ في القُــبب.

وحَّـــدَ الدنيـــا غداً جبــــلٌ
لاعبٌ بالريـــحِ والحِـــقب!

مُرَّ بي

مُرَّ بي، يا واعِــداً وعَــدا،
مثلمــا النسمـــةُ من بَردى،

تحمِــلُ العمــرَ، تُبــدِّدُه،
آهِ ما أطيبَـــــــهُ بَدَدَا !

رُبَّ أرضٍ من شذاً ونــدىً
وجِراحــاتٍ بقـــلب عِدى

سكتتْ يوماً، فهل سكتت ؟
أجملُ التاريـــخِ كان غَدا !

واعِدي، لا كنتَ من غضبٍ،
أعرِفُ الحبَّ سنىً وهُدى،

الهـــوى لَحْـــظُ شآميـــةٍ
رقَّ حتـــى قلتَـــه نفـــدا،

هكذا السيفُ ! ألا انغمدت
ضربةٌ والسيفُ ما انغمـــدا.

واعِـــدي، الشمسُ لنـــا كُرَةٌ،
إنْ يدٌ تتـــعبْ فنـــادِ يدا...

أنا حُبِّـــي دمعـــةٌ هجَـــرتْ
إنْ تَعُدْ لي أشعلتْ بَردى...

مَن شاعِرُ

لا مُذْ بكيتُكَ، لكِنْ قبلُ مُذ سكَتَتْ
يراعـةٌ لك، قَلَّ الهَـمُّ في الـغُصُنِ،

غَصصتُ بالدَّمـع، هَل فرَّت بلابلُنـــا
طُرًّا، فما مِن شجِيٍّ بعدُ أَو لَسِنِ ؟

• في ذكرى الاخطل الصغير.

أَنا الذي قال: يا شِعرُ، ابكِهِ وأَجِدْ
من قبلِ ما كان لا، يا شِعْرُ، لم تَكُنِ !

*

مِنَ الينابيعِ، من عينَيَّ صوتُكَ، مِن
ضَوْعِ البنفسج أَضلاعٌ له وحِني،

سِرُّ الرَّنين، وهل إلأَّكَ يَفضَحُهُ ؟
يا ناقِرَ العود مِنه العودُ في شَجَنِ !

والكونُ قُلْهُ رنينَ الشِّعر، قُلْهُ صدىً
لِكَفِّ رَبِّكَ إذ طَنَّت على الزمنِ.

ما العمرُ ؟ ما نحنُ ؟ ما هذي التي كتبتْ
قوسَ الغمام وغُنْجَ الزنبَقِ الغَرِن ؟

تَشظِّياتُ نجومٍ عن يدٍ فَجَرَتْ
حُبَيبةَ الشيء، وجهُ الله مِنه دُني.

فنحـنُ هٰذون، لمَّـا نبْـقَ في سَفَــــرٍ،
علـى الرَّنيـن، نجومـاً رُحَّـلَ السُّفُـنِ.

*

حَبَبْتُ فيك البليـلَ الــبَتَّ لا يَبِساً،
لليل غنَّى وغَنَّوْا للضُّحـى الـخَشِنِ...

مَنْ لا يَضِجَّ، ويُبْـــقِ الآهَ سيِّـــدةً
على الكلام، يُؤاخِ الطَّيرَ في الفَنَنِ،

نَسْجُ التنَهُّـــدِ، لكـــن لا يُهَلْهِلُـــــهُ
سَهْلٌ، ففي خيطِهِ من شَمْخَةِ القُنَنِ،

ضَوءٌ خُصصتُ به، بَعْضُ الذي احتَفظت
ببعضِهِ الشمسُ إذ هَلَّت علـى عَدَنِ.

*

قرأْتُ شِعْـرَكَ، ما أُمـِّي تهدهدُنـــي؟
تَحكي حكايةَ بِنتِ الريح والفَطِنِ...

أحبَّهــا لم تَزل في قلبــه خَبَــــراً
ولم يَحِنْ آنُ عينيها... ولم تَحِنِ...

شقـراءُ شقـراءُ قلتَ الصخْرُ مسكِنُهـا
قد حَدَّثَتْـهُ بهـا عصفـورةُ الـــوَسَنِ،

فهَبَّ، إغفـــاءَةُ العينيـــن تُسكـــرُه،
يقول: لا تَقْوَ، يا حُلْمي، ولا تَهِنِ،

إبْـقَ الـذي أنتَ ! لا أبهـى لِمبتهـجٍ
من السعـادةِ لم تَخشَنْ ولـم تَلِـــنِ.

وقـال: هَل هيَ ما قالت مُحدِّثتـــي،
ومـا تمايَـــلَ بيـــن السرِّ والعلـــنِ ؟

خطـوطُ قامتهـا في الكُتْبِ ما قُرِئَتْ
لكنهـا اشتَعــلَتْ في بالِ مُفتَتِـــنِ.

فِي ظِلِّ مجدولتَيها العمرُ... في فَمِها
شَطرانِ للقَمر العالي على الدُّجَنِ.

سَجينَةُ الصخرِ، هل إلا غلائلُها
سِجْنُ الجمال؟... ألا، يا ريشتي، انسَجِني،

لعلَّ أن تُلهميني كيفَ أَبلُغُها،
وكيف أَخطَفُها من قَبْضَةِ الحُسْنِ،

أَشُجُّ صَخْراً، أُري الازميلَ ما لُعَبي،
أُعيي الصُعوباتِ، أُغري عُقدَة السَّنَنِ،

حتَّى إذا التمعت غُرّاً ملامحُها
هَتَفْتُ أجزَعُ: لا حُطِّمْتِ، يا وثني...

ما أَفتنَ الأَخذَ من شَدْقِ الرَّدى، ويدٌ
تَهُمُّ بالخَلْق، تَرمي الروحَ في البَدَنِ!

ولا علَيَّ أقولُ... آشتَدَّ يا ظُفُري
حَطِّمْ وحُطَّ الغِوَى، صُنْها ولا تَصُنِ...

غامرتَ ؟ أكمِل. لك الكاساتُ، أطيبُها
ما قيل سُمًّا ولم تَحْفِلْ ولم تَزِنِ.

وكان أن نالها ذيّالِكَ الفَطِنُ
الكسَّارُ للجَلْمَدِ، اللَّعَّابُ بالسُّنَنِ !...

عروسُهُ هي وافَتْ أم قصيدتُهُ ؟
فَدَيتُ أُمِّيَ نَضَت سِتراً ولم تُبِنِ !

*

مَن شاعِرٌ ؟ مَن تَظَلُّ الريحُ دارَتَهُ
ترمي بأبراجِها في الأُفْق لم تُشَنِ،

حجارُها شَرَفٌ ! فاسمَعْ تنفُّسَها
بالنُبْل، قلتَ: بِه قَبْلَ الجَمال غُني.

أكيدةً مِن هنا، مِن مقلَعٍ وقَعَتْ
عليه ريَّا غصونِ الأَرزة اللُّدُنِ.

أللهُ نحن! أما نحيا لأُغنيةٍ،
نَشوى بها لفتَةُ العُقبانِ في الوُكُنِ؟

إن شدَّنا البحرُ لا ملآنَ بعدُ بنا
نُفرِغْهُ منه أنِ آسكُنْ أو بنا آنسَكِنِ!

جِبالُنا هي نحن: الريحُ تضرِبها
نَقوى، وما يُعْطِ قصفُ الرعدِ نَخْتَزنِ،

عِشنا هنا لا نُهَمُّ، الفَقْرُ مرَّ بنا
ومرَّ مَنْ شِبْرُ أرضٍ غَرَّهُ ففَني...

لِلفقر قلنا: استرحْ، للمستبدِّ: أشِحْ،
غداً على الرمل لا يَبقى سِوى الدِّمَنِ،

ويأخُذُ الرفشُ في جَمْعٍ... هنا خُوَذٌ...
هنا أسامِيُّ... فادْفِنْ، رفْشُ، واندفِنِ...

*

غَنِّيـن غنِّيـن، يا كاسات، قُلْـنَ له:
ماتت لنا الخَمرُ والعنقـودُ في حَزَنِ.

الـحُبُّ خَمَّش خدًّا واشتكـى وبكـى،
واستـوحَشَ القَمَـرُ الرانـي فلـم يَرِنِ.

تَمُـرُّ بالأُذْنِ الآهاتُ تسألُهـا:
أنحـنُ، من بعـدِه، الآهاتُ للأُذُنِ ؟

غنّينَ غنّينَ... قُلْنَ: المجـدُ في يُتُم،
شِعْـرٌ بلا المجـدِ رايـاتٌ بلا وطـنِ.

من لِلعُلى ؟ لِلصدارات العُلى ؟... أبداً
تبقى الكرامةُ بين الناسِ في غَبَـنِ ؟

غنِّينَ غنِّين... صَوتي ضاع... باتَ صدىً...
كالحِصْنِ دُكَّ وظلَّت هيبةُ الحُصُنِ !

*

إنـي لأُجرَحُ، يا كاساتُ، يا دِيَمـي،
أن يَشمَتَ الموتُ بالباقين كالزَّيَـنِ !

حقـاً سيغـدو كذُملـوجٍ بمِعصمهـا
حسناءُ لولاه لم تُشرِق ولـم تَكِن[1] ؟

عَتبتُ ، ربِّي، عليكَ !... الشِّعرُ سَيِّدُهُ
مات ! أأمرِ المـوتَ لا يَقْهَـرْ ولا يجن[2] !

أأبـى عليـه أنـا تُبلـي أصابِعُـهُ
مَن عن أصابعه السِّحْرُ انجنى فجُني.

---

١) يضرب.

غنِّيـنَ غنِّيـن... يا كاساتُ، يذبحُكُـنَّ
الشوقُ... غنِّين... إن الشَّوْقَ منه ضُنِي!

أَلـــوذُ بالقبـــر ما أَدري أَأَعْرِفُـــه ؟
أَما محَتْ نَقْشتَيْـهِ دَمْعَـةُ المُـــزْنِ ؟

أَثـورُ! آخُـذُ بالصُّلبـانِ من غضبٍ،
أَردُّهـــنَّ وأَغــوى أَسْيُفـاً وقُنـــي...

يَمُرُّ في خاطري رَهْطُ الرجـال مَضَوْا
ومـا مَضوا تُرَّكـاً لي إرثَ مُؤتمِـنِ،

لِهْهُنـالكَ هُمْ سَيْـفٌ، أَنـا لِهُنـا!
أَفي بِمجـدٍ وبـي صَرْحُ الوفـاءِ بُنـي.

« رُدِّي جمالَكِ »، يا دنيا، أَقـولُ مع
الأَبطال(١) ، « غُرِّي سوايَ » اليومَ وآدَّهني!...

---

١) الكلام للامام علي.

هم يَذْنَقُــون، وهَمِّـــي النَّـــارُ أُشعِلُهـــا
مِنْ كِسْرِ عَظمي وإن يَنْفَدْ فمِنْ كَفَني...

ما المالُ ؟... قولـةُ « لا »... واللهِ أَلْبَسُهُ
بِه غَنِــيتُ وغيــري بِالتُّـــرابِ غَنـــي.



قرأتَ كتابَ الكون سطراً محا سطرا،
مُعَلِّمُ، عُدْ فاكتُبْهُ أجملَ ما يُقرا !

أصابعُكَ استولت على العقلِ فازدهى
تُباشِرُهُ نَثْراً فتتركُهُ شِعرا...

وتلتَفِتُ الدنيا وقد عُلِّقت على
فمٍ لكَ قال السِّحرَ أو أبطل السِّحرا

لَأَنتَ بيـــال الله كنتَ، بُعيدَمـــــا
رمى الأَرضَ عن كفٍّ وقال: اشتهي أَمرا !

فحـــارَتْ: كأَنَّ الليـــلَ ليسَ يلُفُّهـــا،
ولا يتغـــاوى الجهْـــلُ يَرمقهـــا شزْرا،

فقـال: آنطِقـي، إِمَّـا تَلعثــمتِ أُقلــقت
ببالـــي أَفازيـــرٌ وأَعمِـــدَةٌ سكـــرى،

مِنَ الطُّـرَفِ اللائـــي سأُخْلُـقُ، يومتـــا
سأَرتـاح، والأَفكـار تَغمُرنـــي تَتْـــرى...

أَمرْتُكِ فُكّي عُقـدةَ الصمت وابسِمـي
لِوجهـي، لَقَفْـرٌ أَنتِ مُبتلِـعٌ قفـرا !...

على أَنهـا الأَرضُ استمـرَّتْ عييَّـــةً،
فَمَـدَّ إِليهـا الخَـمْسَ يرسُمُهـا ثَغْـــرا،

ورأساً، وبعضاً من خَيـــال أميــــرةٍ،
لها يومَ عدِّ الحُسن يُؤبـه أو يُدرى،

فمـا هِيَ أنْ ضاءَت وغنَّى جمالُهـــا
لها وروى، حتَّى أفاقَتْ كَمِنْ ذِكرى،

وشالت برأسٍ صوب عينيـــه قُلتَهـــا
كما ستكون الكأسُ إذ تمتلي خمرا،

ولامس أُذنَ الله هاتِـــفُ قلْبهـــــا:
ـ بلى، ربِّ، هاني أشتهي القَلَمَ الحرّا،

ألا اخلُقْه، لا كالناس، هُمْ تُربَةٌ رِضىً
تفي، وهو غرَّاسٌ كما يَدُكَ الخَضرا،

عَلِيٌّ جبينٍ، حازِمُ اللمح، أبلَـــجٌ،
يَمُـــــرُّ به نَسْرٌ فَيَعْرِفُـــــهُ نَسرا.

تصوَّرتُهُ والرَّوضَ. ما بيــنَ زَهــرِهِ
وضِحْكَةِ عينٍ؟ إنَّه الأَمَلُ افترَّا...

تصوَّرتُه والريحَ. ما بيــن عَصفهــا
وقَطْعٍ بمعنىً؟ إنه سَلْكُكَ الدُّرَّا...

تصوَّرته والشمسَ. ما بيــن بَزْغِهــا
وهَشَّةِ وجهٍ؟ إنهــا الصِّلَةُ الكُبرى.

*

مُعَلِّــمُ، لُمَّ الزقزقـــاتِ وحُطَّهــــا
على فمِ طفلٍ شِئْتَهُ النَّقْلَ والكَرَّا.

بِملْءِ جَناح لم يَطِرْ، إنمــا رنــا
إليكَ، فأَعدَدْتَ انطلاقتَــهُ الحَــرَّى،

وشِئْتَ له أَنْ يَستعيــرَ شموخَــــه
من الأَرزِ غَنَّــاهُ الزمـــانُ إذا مَرَّا،

وشِئتَ لَه أُن يَجْبَهَ السيــفَ بالُـــهُ
فيـدركَ أَن البالَ يَفـري ولا يُفـرى.

*

مَن العلَّمونا ؟ مَن يكونـــون عزمـــةً
وقرعاً لبابِ المستحيل خَفـى السَّرّا ؟

رياحٌ ! بلـى، هم كالريـاح مهابـــةً،
على أُوجُه الأُخّاذ قد حُفِـروا حفـرا،

وتُعطيك عيـــنٌ منهُـــمُ قلتَهـــا يداً،
وتُعطيك تُعطي بسمةٌ ما التَوتْ صَفْرا،

بِهـا مِن محيًّـا الوالِـد الصَّعْبِ لَهْفَـةٌ
تُهيبُ أَنِ اقطِفْني ولا قطفَكَ الزَّهْرا !

ويُعطيك نُطْقٌ حامِلُ العِلْم ما انتهـى،
ومُبتـدِعُ الأَفكـار فجَّرهـــا غَمْـــرا...

وتعطيك، إن تُشْلَحْ على اللوحِ، أَنملٌ
وتَكتبُ ما الدُّنيا... وتكتُبُ ما الأُخرى...

خواطرُ قُلْهُنَّ الخصورَ تمايَلَتْ،
وقُلْهُنَّ صار الحُسنُ مُنْحَبِساً قسرا.

*

سأَلتُ الأُولى خَلف القُرى، فَوقُ، علَّموا
تقيهم نَداها، السنديانةُ، والحَرّا:

تُرى ثانويونَ الذين احتضنتُمُ؟
تعالَوا نَقُصَّ المجدَ، نستلفتِ الدهرا!

أَفِقْ من كَرىً، زينونَ صيدا، قُلِ اسمَه
مُتَلْمَذَكَ المُضْفي على رومةٍ قَدْرا!

هُمُ شيشرونٌ، عندهم، ربُّ قولِهم
وعندك، طفلٌ يحفَظُ اللفظةَ البِكْرا.

أفِقْ من كرىً، لِيبانيوسُ، ارمِهِم به
فمـاً ذهبيًّـا أنتَ نشَّأتَـهُ صَقْـرا،

فبـات إذا ما وَزَّعَ اللهُ طاولتْ
تجوعُ إلى فيهِ العصافيرُ أو تَعرى...

أفِقْ من كرىً، مكسيمَ صورٍ، ورُدَّنا
إلى مركُريلِ السيفِ فتَّته فِكـرا،

فلم تبقَ أرضٌ لم تَهِمْ بخواطـرٍ
له، قلتَها الإنجيلَ أو شِعرَه نثرا...

أفِقْ وآغوَ منها، أنطباطِـرُ، هَتفـةً
لكاتونَ طارت فهي هتفتُنا الحَمرا:

«لأمَّا تَمُتْ حُرِّيَّتي لا أعِشْ أنـا»
وفي الصدرِ شكَّ السيفَ شرَّفه صدرا.

*

معيٍ من نشيد المجد، قيثارتي، معي...
نَمُرُّ بدار العمر حيث قضى شطراً،

ونسمعُ مَنْ غنَّته: « طِبْ، يا حَمامُ، طب
وهوِّمْ لمن منهم سيجترعُ المُرَّا... »

هُمُ لهمُ، أواهِ! آنَ يُذيبهم
ضنىً، وهْوَ آناتٌ لَتَهْدُرُهُ هدرا...

حَمامُ، هُمُ اكذُبْهُم، هو اصدُقْه، إنه
سيعرِفُ أن يشقى، سيعرِفُ أن يُغرى...

حَمامُ، وثلِّثْه له الدمعَ طيِّباً
كما ابنةُ كرمٍ في الجبالِ اكتوتْ جمرا،

فمَن غيرُه يدري بأنَّ حياتَه
ينابيعُ حِرْمانٍ ويقصدَها يَمْرا

فإمَّـــا قَسَتْ بالنـــاس داوَرَهـــا يداً
وإمَّـا بدت أَقسى به التـمسَ العُـذْرا.

ويا طيرُ، يا طيرَ الحَمامِ، افتِن بهم
بَنِيَّ الرِّضى، أمَّـا به فافتِـنِ الـعَصْرا!

هل الـعصرُ إلاَّ ما استطـــارَ معلِّـــمٌ
من الشَّررِ النَّزَّالِ في الهِممِ النَّصْرا؟

إذا القــدَرُ الأَعمـــى تطـــاولَ ردَّه
ومِن خلفِـهِ الـنَشْءُ الأَبيُّ مشى نهـرا!

وتـمضي تُغنِّـي، ناسَ قِنديلُهـــا ولـــم
تزلْ تشتـري مجـداً وتـرفضُه خُسْرا،

تُغنِّـي وقـد طارَ الحَمـام ولـم يعُـــدْ
لِقصَّتِهـــا إلاَّ تأوُّهُهـــا جَهْـــرا.

أُغنيةَ الحجر

كالهِند سرُّ الهنـدِ أَنتَ، وكالنُّهى
أَوَتنتهي؟ وإِليكَ كان المُنتهى!

ماذا! وتَنهزِم السيوفُ كسيرةً
ما نحن، تسأَلُ، ما الحَضيضُ مِن السُّهى؟

* في يوم نهرو.

أَدَّبتهـا تلك السيـوفَ، فصُنْتَهـا
عمـا تَبـذُّل، يوم يَصطـرعُ البَهـا.

كالهِنـد أَنتَ ! لقـد جمـعتَ كتابَهـا،
سِفْـراً سيُقـرأُ لا آستُذِلَّ ولا صَهـا[1]،

عالٍ، ومِ الثلـج البَتـول بيـاضُه
أَوْ مِ الحمالايـا وهاتـيكَ الصُّهـى[2].

*

أَكملتَهـا النفسَ الكبيـرةَ[3] لم تَكُـنْ
ظِلاً ولـو للشمس تَبـرأُ من كَهـى[4].

---

١) أصيب بجرح.
٢) الأبراج في أعالي الجبال.
٣) المهاتما.
٤) كلف.

أوْدعتَ ما في كُلِّ بالٍ من هوىً
وبكـل ما يُرجـى، جُبـلْتَ، ويُكْتَهـى[1].

وَحَدٌ كما رُئـيَ المَـلاكُ رُؤىً، ومِـن
طِيب البساطـة أيـن سُلطـانُ الدَّهـا؟

*

ضُربت على الشُّعَـف[2] العمالـقُ حكمـةً
هامت، كما الدنيا، تسائِلُ مَن لهـا؟

بالرَّعــد لاذت، بالريــاح، وبالصَّبــا
من أدهُــرٍ، وتشبَّــثت بالمُزدهـــى،

حتـــى إذا بَصُرَتْ بصدرك أفْيحـــاً
ولَجَتْـهُ فِردوساً لهـا... أو شُبْهـــا...

١) يجلّ.
٢) القمم.

أفــأَنتَ من لُبنـــانَ نسجُ غمامـــةٍ
أَو صوتُهـا، تلك المكوكِبَـةُ اللُّها ؟

أَو سكـــرةُ الازميـــلِ نُزِّل مُفْـــرَداً،
في بعلبكَّ، علـى يَدَيْ رَبٍّ سها ؟

أنـا بعلبكٌّ لي... ولـي هنـدُ المـــلَا
أُغرودتـــا بالٍ إذا الوتـــرُ اشتهـــى:

أُغنيَّةُ الحجر استفـاقَ الـى العلـــى،
أُغنيَّـــةُ الشَّعبِ استقـــام فنُزِّهـــا،

تلك السُّمُوُّ وهـذه الرِّفْـــقُ اعتبِـــرْ،
يا خاطري، وردِ الجمـــالَ تأَلُّهـــا !

هَنَّا خَصرْنـا الصخَر أَعمـدةً، علـــى
إفريزهـــا انتحـــرَ الزمـــانُ مُوَلَّهـــا،

وهنـاكَ قدُّوا النـفسَ كَونـــاً مُفعمــــاً
باللهِ أروعَ ما أبـــاح ومـــا نهـــى.

هَنَّـــا الضيـــاءُ مجمَّـــداً ومُقدَّمـــاً
للشمس إنْ شحّت، لِقلبكَ إنْ وهى،

يُعطـــي ويَرفَـــعُ، ما يدٌ إن قَلَّـــدَت
أُختاً لها ؟ طابَ التَّفَـرُّدُ مَجبَهـــا !

ولَأَعْمُـدٌ ينـــهضن، يحملـــن السمـــا
بِدَعُ الجَهالـــةِ هُنَّ أو بِدَعُ النُّهـــى.

وجنـــونُ ربِّك فوقَ عَقْـــلِ عبـــاده
إلاَّ الأُولـى جَعلـوا الحجـارةَ نُبَّهـا...

وهنـــاك أَجنحـــةُ السلام تَخُطُّهـــا
في الأُفقِ أقـــلامٌ تَرَفَّـــعُ عن جَهـــا[1]

---

١) خراب.

مِن بعضِهـا كان البيـاضُ، وقبلُهـا
والبَعـدُ حاضرُها تَشعَّـعَ أوجُهـا...

قالت صفاءَ القلب، وسوسةَ الحِلى،
لحظَ الأُميماتِ النواظِرِ مِن رَهـا[1]،

وكأنمـا الأنهـارُ مِن بَشَرٍ ومِـن
صوتٍ ومن موتٍ... هي الزمن التهى!

*

أغنيَّتـان! الهنـدُ، سينـاءُ السلام،
وبعلبكُّ، لُقى الجمال مجهجِهـا!

هاتـيكَ قد خَسِرَتْ يديك، وهـذه
أنَّى لها إلهـامُ أعمـىً أكمهـا؟

---

١) سعة.

مَن قُلِّـــدَ البلـــدَ الكبيـــرَ كَراصِفِ
الحُسْنِ الكبير ! كلاهما لن يُكنها !

*

يا هائماً خَلَلَ الوجود، ألا اشتَعِلْ
في المُعوزين كما الزهورُ، كما الزُّها.

إحدى تعودُ الأُغنياتُ كما الهوى
في القلب إنْ صَدْرٌ إلى صدرٍ شَها.

كالهِند سرُّ الهِنـــدِ أنتَ، وكالنُّهـــى
أوَتنتهي ؟ وإلـــيكَ كان المنتهـــى !

مُلْكٌ لكَ العمرُ

ما الموتُ ؟ شمخةُ رأسٍ منكَ تُفتقَدُ
واسلَمْ بباقة شِعرٍ، عِطْرُها الأَبدُ !

مَهابَةُ الأَرز، بنتُ الفارسيِّ، أَنا
نَبكيكَ، فلتتغاوَ السِّتَّةُ العُمُدُ.

* انشدت في يومي خليل مطران ببعلبك.

ومَن تُرى قال: ليستْ سَبعةً ؟ أُنذا
عَيني إليكَ، ألا فلْيَكْمُلِ العَدد.

سِواكَ في الشِّعر فلتَدمَعْ عليه رُبىً،
وأنت فَلتُجرَحِ الغَيماتُ والجَلد.

مُلْكٌ لك العصرُ، ذاكَ القَصْرُ تَرصُفُه
ذكراك. رُبَّةَ أمسٍ ضَجَّ فيه غَدُ.

كأنني بِكَ، يوم انزحتَ عن جبلٍ،
تنزاحُ رَدَّتْكَ صوبَ الخالدين يد !

والخالدون هُمُ البُدَّاع، من بَعُدوا،
حتى إذا لحِقت دنيا بهم بَعُدوا.

عانيتَ، عانيتها الجُلّى، كما لُعَبٌ
للكَسْر قد أمَّلوها أنَّكَ الولَد.

وآنَ رُحْتَ تغنّيهـا سَمـوتَ بهـا،
كَذا يَمَسُّ الخريفَ الطائـرُ الغَـرِد.

لأنت والفكـرُ هَمُّ الله هَمُّكُمـا،
والآخرونَ بيـال الله ما وردوا...

ماذا تَرَكْتَ خلا الأَخلاقَ ؟ لو جَدَثٌ
يَحكي لقال: « السنى في حُفرتي بَدَد ! »

ديوانَ شعرٍ، تُراها الحِكمَةُ انحبست
في دَفَّتينِ، كما في الغَيمـةِ البَـرَد ؟

هُنـا الـمساءُ ونيرونِيَّـةٌ، وهنـا
فَتاتُـهُ الجبـلُ المحلـولِكُ الحَـرِد.

أُختُ التي بالضنى والآهةِ اتشحت،
وأسبلت أشقراً بالريـح ينعقـد.

لَهْفي ! أبوها قضى، مَن كان يكفُلُها،
يُتْمُ الحرائـــر جُرحٌ ليس يَنضمِـــد !

لا هذه سَكتَت، لا تِلكمُ انغمـدت
إلاّ إذا مَن غَزَوا أقداسَهـا انغمـــدوا.

ومـــــرَّةً هٰهُنـــا الآبادُ عاصفـــــةً
بالنـفس، قلتَ بسجـنٍ قُطِّع الزَّرد.

ومَن يَعِشْ فوقُ، عَيْشَ الصَّقْر، وُكْنَتُهُ
علـى الشّعافـاتِ، لا تَستغـوِهِ المُلُـــدُ.

القولُ لا قال... قال الفعْلُ. فاحتَرزي
يا قامةَ الرمح، أَنتِ الطَّعْنُ لا المَيَد.

غالَيتُ ؟... ما ريشةٌ في الكفّ مُشجِرَةٌ ؟
ما جلمــدٌ جُبُتيرِيٌّ السنــــىفَرِد ؟

أيٌّ أَداتُك ؟ لو خُيِّـــرتُ قلتُ: « به
كتبتَ، ذاكَ العمودُ الصامِـدُ الصمـد،

غطّطتَـه فـي مِـــدادٍ أَنْتَ عاصـــرُهُ
مِ الشمس أَو مِ الرياحِ الهِيفِ تَتَّقد ! »

مَن كان عُوفِيَ لو أَنتَ انضنيتَ ؟ أَلا
أَهِبْ بأَنَّـا قُدامـى الفتـــح والجُـــدُد.

وُحِّدتُمـــا أَنتَ في الآساد باكيـــةً
وبعلـــبكٌّ... كلا فَتَيكمـــــا أَسَد !

تآخـذا، شطـرُ بيتٍ وانهيـــارُ عُلـــىً
مِن باب بالخُسَ كادَتْ بالرَّدى تَفِـد،

تقول: « مَن يَسْمُ بي، حتى لَيُرجِعُني
إِلـيَّ، يَشْهَـقْ له مِن ضَوئِـيَ الجَمَـد،

روحٌ له أنا ذي، وليشْقَ فَهْو أنا،
وبعدُ فَلْيَفتَرِقْ عن روحه الجسد ».

وقبلَ أن أُرجِعَتْ، كانت يراعتُك
افتنَّت تلاعبُ من عَلَّوا ومَن عَضَدوا.

وأَعنقتْ لَفْظَةٌ حتَّى لماد لها
مادٌ وقال: « انزِلي في النَّهر نبترد

فان وقعت على زَندي وجِعتُ أنا
للحسن أَطلبه في حَيثُما أَجد !

أَكون عدتُ هباءَاتٍ فيخلُقني
خَلْقاً، كأَنيَ مما لا أنا أَرِد.

أُبهى من البدءِ رَدُّ البدءِ ملعبةً،
فالعَبْ بكونٍ... ودَعْهُمْ يُفْنِهِمْ حَسَدُ... »

* * *

وعَنْـدلت قافيـاتٌ منكَ، فانتبـهت
حسناءُ نَقشُ عُلىً، في عُنْقِها صَيَد.

ـــ أنتنَّ مَن ؟ قلن: « لا تَجّاهَلي اذَّكري،
أما لأنكِ زلفاءٌ لنـا سجـدوا ؟ »

*

خليـلُ، خِلتُ العظيـمَ البعـدُ مُتَّكِـئٌ
في مقلع العِزّ، مَن لم يَحِكـه أَحـد،

يقـول: « فوقِـيَ فَلْتُنـقَشْ، فلا حجـرٌ
سِوايَ أَخْلَقُ بالمجد الذي فقـدوا ! »

*

صديقَ لفتـةِ عُمْـرٍ، قد وعـدتُكَ، لا
أَخلفتُ، لا يُخلف الابطالُ إن وعَدوا.

أَلمعتُ... فاعذِرْ ... فما إلاّ على قلمي
اصطكَّتْ سيوفٌ ولا إلاّ بيَ الحُشُدُ.

مُعلِّمـــي أَنتَ في الحُرِّيَّتيــــن: هوىً
العُلـى، وعَصْفـــيَ بالثُّـــوّار إن بَرُدوا،

هل كَذَّبوا ؟... قال لبنانٌ أَنا... وأَنـا
إمّـا وُجِـدتُ فبـــالأحرارِ أَنوجَـــد !

دَاوِ شِعري

داوِ شعري اليومَ، ها شِعري كئيبُ،
غُصُنٌ شُرِّدَ عنــــه العندلـــــيبُ.

في همومـــي كان أن تُغـــرَى به،
عُدْ يَعُدْ للأَرَجِ الذاكـي هُبـــوبُ.

---

* صبيحة بكينا انطون قازان.

لم تكنْ ريحَ الشَّمال اقتلعتْ،
لا الدُّجى يلتفُّ، لا الهمَّ ينوبُ،

كنتَ ما لم يُدْرَ بالحِسِّ وبالعقلِ:
رُوحَ الروحِ، تُحيي وتَذوبُ !

زُرتَها الأَرضَ ؟... أَشكُّ... اختلْ معي
زُرْتَ بيتَ الشِّعر، كالبالِ الحبيبُ...

ما غروبُ الشمسِ يُعطي فكرةً
عنكَ، بل نكهةُ أَنْ ثمَّ غروبُ

في المَلاكِ اتَّفقوا أَنْ مفرَدٌ
شخصُه، لا مثلُهُ في الخمرِ كوبُ.

أَتُرى من سِربِه أَنتَ ؟ أَجِبْ.
أَوْجَعُ الأَجراحِ أَنْ لستَ تُجيبُ !

كلُّ شيءٍ هو في الكـــــون، سوى
اللهِ، مَن ناجت ولـم تَدْرِ القلـوبُ !

هو في المابعـــــد، في أُغنيَّـــــةٍ
ربَّمــــا تسكُنهـــا أَنتَ تَطـــــيبُ.

أَنـــا إن تجمَـــحْ بعـــودي نغمـــةٌ
كنتَ انتَ الأَمرَ بالعـــودِ تُهـــيبُ.

نِصفُ شِعـــري كان كي تقـــرأَه،
لا تُباعـدْ أَو هو القَفــرُ الجـــديبُ.

أَمسِ، مُذْ دُكَّت قرىً من أَرضنـــا،
زُرتَ بالـي موجَعاً فيـــه اللهـــيبُ،

فاستبـــــــدَّت بي ثوانٍ كُنَّ لي
دقَّ بابٍ، قُلتَني الخاطي يتـــوبُ !

ذاكــرٌ ليلــةَ نادينـــا علـــى
رؤيتـي للكـونِ والقـولُ صَخـوبُ ؟

رُحتَ تعلينـــيَ، حتـــى لَأَنا
خمرةٌ ضجَّتْ بها الكأْسُ السَّكـوبُ،

وُجُهـاتُ الحـقّ تهـوى لفتتـي،
قُلتَ وجـهُ الله تهـواه الـدروبُ!

ذاكــرٌ قـولَــكَ بـي منتصـراً
لجُنـوبٍ أَنَّــه ثوبـي الـقشيبُ؟

أَلــبَسُ العِــزَّ إذا أَلــبَسُه
« آتِنا » منّي كما منهـا الشحـوبُ،

كان هَمّـــي نبشَ ما في أَرضه
مِن ذُرىً راحت عنِ الله تنـوبُ،

نقرت صيدونُ من بعدي أنا
وتراً قيثارُه الكونُ المَهيبُ،

وتغاوت صورُ، لا مملكةٌ
بعدُ أو قبلُ تُدانيها تَلوبُ،

لا على السيفِ انبنتْ، لكنْ على
قولةٍ أنْ ليس في صورَ كَذوبُ،

كِلمْةٌ تُعطَى تَفي، صِرنا بها
شُركاءَ الأرضِ نَجْبي ونجوبُ!

وإذا مريمُ قانا ارتعشت
أنْ أجِبْ، لا في غدٍ، يا مستجيبُ،

وألحَّت نبرةٌ في صوتها
بعضُها لُبنانُ أو شيءٌ قريبُ...

قال: يا ساعـــةُ، فِرّي من غدٍ
هكـذا يُطَّلَبُ الوجـهُ العَــذوبُ[1]

يومَها، فوق ربىً من عندنـــا،
ظَهَـــر اللهُ ومـــا عادَ يغــيبُ!

الجُنوبُ ؟... اشمَخْ به رأساً رضىً،
كان لبنـانُ إذا كانَ الجُنـــوبُ.

كلُّ هذا قلتَـــــه فيَّ أنـــا ؟
كلُّ هذا أنتَ إنْ حُقَّ النصيبُ.

ضِعتُ في نُبْـلك من تيـهٍ كمـا
في الـذي قبَّلَـهُ ضاعَ الصّـليبُ!

---

١) الذي ليس بينه وبين السماء ستر.

إنِّيْ وذكـراكَ، الكـلامُ اليـومَ: ما
تَبْغِـهِ يُبْـغَ وكالسيــفِ يطــيبُ.

شئتَني أبقى الضميرَ، اشدُدْ يدي
أو أدمَّـى وتَهاداني الخُـطــوبُ.

عِشتَ فُرقانَ الهدى، في حيثُمـا
كنتَ كان الحقُّ، ما اليومُ العصيبُ؟...

أَلصعوبــاتُ العُلـــى أَنتَ لهـــا،
تضرِبُ الضربةَ وُثقى لا تَخيبُ،

بالشَّبا تهجـمُ؟ بالصرخـــةِ؟ لا
إنمـــا باللـيـــنِ مرمـــاهُ غريبُ.

مرَّةً تبسِمُ، تُغـــري المعتدي،
وتهـزُّ الـرأسَ، أُخـرى، فتُـــريبُ.

لائـــذاً بالـــحب تدري أنـــــه
وحدَه القوَّةُ إن صابَ المُصيبُ.

يا شقيـقَ الدِّيَـمِ انهـالَت علـــى
جبلٍ، فهو بما تهـوى خصيبُ،

خارجَ المُمكـنِ خُلْقـــاً ورضىً،
كنتَ، حتَّـى لَيُمَنَّـاكَ الوجـــوبُ.

لا منِ الأَرضِ ولا من نَبْتِهـــا
أَنتَ. أَنتَ المعتَلى وهي الرُّسوبُ.

مرَّةً عرَّجتَ. قالـــوا: رابَهـــــا
أَنْ رأَت مَن هو للبـال ربـيبُ،

أَعِـدِ الكَـرَّةَ، زُرْهـا اليــومَ، زُرْ.
نُسْكِـرِ الشِّعرَ أَنـا والعندلـــيبُ.

عَملاقُ مِصْر

شِعْرٌ ولا أَنتَ؟... فِي بُرْدي انضنى أَلمُ
عملاقَ مصرَ، تطلَّعْ، وانحنى هرمُ.

راثٍ أنا اليومَ؟... دَعْني من رِثاً وبُكاً،
نارٌ ببالي وفاءٌ كنتُ أعتزمُ

* يوم احتفلت مصر بعزيز اباظه.

قالوكَ تُكمل خطًّا؟... ويحهم خطِلوا،
في غفلة الوحي، أنت الطُّورُ والكَلِمُ.

أَالشِّعرُ بعدك صار الشِّعرَ، ردَّده
مَن رأْسُه فوقُ، مَن لم يُغْرِه غُنُمُ.

إثنان أهواهما: نُبلٌ بشِعركَ لم
يَتْعبْ، ولبنانُ منه تتعبُ الأُممُ.

سُكري بشوقي أو آني غيرُ ذي شيمٍ
وقولُ شوقي بزحلَ[1] السُّكْرُ والشيمُ،

---

١) اشارة الى قول شوقي:

إنْ تُكْرِمي، يا زحلَ، شعري إنني
أنكرتُ كلَّ قصيدةٍ إلاّكِ،
أنتِ الخيالُ بديعُه وغريبُه
الله صاغكِ والزمانُ رواك !

هُنا الهوى شَدَّ بين الأُمَّتين، هنا
في الشرق، ما نَسَمَت قبل الهوى نَسَمُ،

لكنَّ شِعرَكَ أَنتَ، الشِّعرُ يعبُدُه
معي، ونَغوى أَنا والليلُ والنُّجُمُ...

ما أَمَّروكَ ؟... إِخالُ التاجَ ضلَّلهم
وجاء جبهتَك الشمَّاءَ يستلمُ.

*

حُمِّلتُ غصناً من الأَرز، استظلَّ به
أَو رعمسيسُ أَو الوفَّادُ من عَظُموا

أَو مَن نماهم ثرى لُبنانَ، مبتَدِعُ
البُدَّاعِ: مَن نثروا الدنيا ومن نظَموا،

به أَلفُ جبيناً لا الشموخُ حكى
أَعلى، ولا العودُ وفَّاهُ ولا النَّغمُ.

طَوَّقتَ جيدي بأني « عَقلُ أُمتنا
يغُلُّ مِن سِحريَ » الأُثباتُ والهُيُمُ ؟

كلامُكَ السيفُ، ها بالسيفِ تُرسِلُه،
والاصطكاكُ سَكوتٌ عنده القلمُ !

بديعُ رَصْفِكَ، فيه أَنت: قامتُكَ
الغيناءُ، صدرُك، صدقُ العزمة، الشَّمَمُ،

وفيه من أُسرةٍ قُلتَ الرماحُ نَمَتْ
قوماً، وقلتَ بِخَيْلٍ طارتِ الهِممُ !

مصرٌ تنشِّئُ ما القوقازُ أَنبته
منها الحضارةُ، منه النَّبلةُ الحَكَمُ.

ما الشطرُ من بيتك الملآنِ غير صدىً
لكَرَّةٍ عبْرَها الأَعداءُ تنهزمُ،

حتـــى إذا ردَّ شطــرٌ آخـــرٌ لمَـــعت
أُهزوجـةُ النصــر يَغـوى فوقهــا العَلَــمُ!

أمَّـــا القصيـــدةُ، مما رُحْتَ تَعْمُرُه،
فـالبرجُ مــاد كمــن بالأُفــقِ يصطـــدمُ،

يقـــول إنَّ ابتهـــالاً سِرُّ فتنتـــــه
وإنَّ دقًّا على بابِ السمـا الحُكُـمُ!

*

غنَّيتَ لُبنى، أَلُبنـى غيرُ مَن هجـرتْ
لتسكـنَ الدمع في عينيك يَنسجـمُ؟

لَنجمةُ الصبـحِ ودَّت لو تكـونُ لهـا
بديلـــةً، وعليهـــا الشِّعـــر ينهـــدمُ.

واريتَهـا لا بتُـرْبٍ، بل بوردِ ضُحـىً،
والــــحبُّ حبُّك وردٌ بالشذا بَرِمُ...

وفجّرَ الدمعُ فيك النبعَ. مصرُ، رِدي
نِيلاً من الشّعرِ، يا نيلاً هو الكَرَمُ.

بمصرَ حُبِّبتِ الدّنيا، فكيف إذا
راحتْ على الريشةِ الخضراءِ تضطرم؟

أقولُ: كُتْبٌ الى نجمٍ تُشَدُّ فطِرْ،
حُدوثُ، والعبْ كما لم يلعبِ القِدَمُ.

*

عِملاقَ مصرَ، قوافيكَ الكِبارُ بنا،
بنبلها ما يزالُ الأرزُ يبّسمُ.

ومَن أنا لأردَّ اليومَ بَعضَ ندىً؟
صُمٌّ قوافيَّ في رَدِّ الندى بُكُمُ.

إنْ شاعرٌ هامَ بالنيل انتشتْ قِممٌ،
في أرضنا، أو تصبّى مادتِ القِممُ.

مِصرٌ هي المَجدُ، كان المجدُ مُذْ طَفَرَتْ
في البالِ، فالكون أُذْنٌ بعدَها وفَمُ.

أُولو النُّهى الصِّيدُ[1] نادَتْهم هياكلُها،
وعِلمُها رَفَدَ الصِّيدَ الأُولى عَلِموا.

غاوٍ بها شرفُ الانسانِ، ما خَذَلت
عصراً، وغاوٍ بها ذو الريشةِ العَرِمُ،

إنْ ضامها الضَّيمُ مَسَّ الخالقين دُنىً،
أو نالها الظُّلمُ راح الحقُّ يَظَّلِمُ.

لبنانُ نحن! وها نحن الشهودُ لها،
نَدينُ، يومَ آنتصافٍ، ليس نَتَّهِمُ.

---

١) الفلاسفة الاغارقة.

الحبُّ نحن شرَعنا[1] ، الحُسنُ نحن بدَعنا،
البُغضُ نحن قطعنا أنه العدمُ،

جبيلُ قالت بقاءَ النفس واكتشفتْ
ربًّا أبى لقضاءِ السيف يُحتكمُ،

الليلُ لولا سُراها غربةٌ قتلتْ
والشمسُ لولا هواها وَهْمُ مَن وَهِمُوا.

بَلى، جراحاتُ مصرٍ في مضاجعنا،
في الروح يُسخى بها، في العَظم يَنثلم،

في الريحِ، في غَضَبات الغيظ، في غَدِنا،
في مبتغى ما ابتغى الأبطالُ إنْ هجموا،

١) اشارة الى قول الاله إيل: « الحربُ ليست من مشيئتي، ضَعوا الأرض الصلحَ، ابذروا في التراب المحبةَ، وصبُّوا السلامَ في الأرض ».

ما لم نَزِنْ مِصرَ وزنَ الحقِّ يبقَ دمٌ
علـى الضميـرِ ويبقـى أَن يُراقَ دمُ!

*

أَطللتُ منكَ علـى التاريـخِ رنَّحنـي،
همى كما الضوءُ في بالي، كما الدِّيَمُ...

ويَعطَرُ البـالُ إنْ يَمْسَسْكَ، عِطْرَ يَدٍ
مسَّت بنفسجـــةً أَنفاسُهـــا حُزُمُ.

لِمْ لا؟... وفي القَصص العالي الذي نَسجَتْ
غزَّارتـاكَ استجـدَّت سِحرَهـا النُّظُـمُ.

غدا الهـوى بِدعـةً، مرًّا ببـــال هوىً
وسُكْرَ عقـلٍ علـَى القرطـاس يرتسمُ،

وآيـــةً طَرُفَتْ حتَّـــى ليرشُقُهـــا
غيَّـان أَنْ أَنـا ضِلِّيـلٌ ولـــي جُرُمُ...

بالكأسِ أفديكَ، بالدنيا، بساجعةٍ،
بلوزِ نيسانَ للزَّيْنات يَبتسمُ،

بالشِّعرِ، بالمنتهى، بالمجدِ أشعلَني،
بحظٍّ عيني بعين الحقِّ أُلتهم!

حتى إذا لاح لي أني وَهَمْتُ؟ هَمَتْ
منّي الشجونُ كَمِن أفلاكِها السُّدُمُ!

رفيقَ شطرةِ عمرٍ، ذاكرٌ ولَهاً
بِشِعرِ مَطرانَ والألبابُ تحتدمُ؟

أسمعتُكَ المُرتجى. ما كان؟... دَعْ خُلُقي
لِلصمت، لا شَرَفٌ إلّاكَ، لا ذِمَمُ!

ما زلتُ منها كما بَوحُ النسيم لمن
من النُّسيمات تُشقي وهْيَ لا عَلَمُ:

ـــ مُرّي بدارتنا، يا طِفـلَ، وانحَطِمـي
علـى بساطٍ من النِّسريـنِ يَنحطـمُ...

بِهُـدبكِ الريـحُ تنـأى، أَنتِ مرتحَـلٌ !
بقـدِّكِ الشوكُ يَدْمـى، أَنتِ منتقَـمُ !!

إنْ كان بالهَزْجِ من صُبْحيكِ لا أَمَلٌ
فعِنـد خصرِكِ لِمْ لا يصدُقُ الحُلُـمُ ؟

حتّى إذا ينـدري شَعْـرٌ وكـنتِ غِوىً
تَملْمليـــن، وآهَ القــولُ والـــقَسَمُ،

تَهُـــمُّ شمسٌ بأَن تَغْشى فأَمنعُهـــا:
ضِيعي معي، يا ضَياعي، وآحْلُ يا ندمُ...

وتسأَلين: لِمن سُهْدي، بمن وجَعي ؟
يا قاطفَ الشمسِ، أَكمِلْ أَو أَنا الرِّمَمُ !

ونتهـي ننتهـي في قُبْلـةٍ ولِـهَثْ
وفـوقُ يغمزُ فينا بُلبـل رُنُـمُ...

شيءٌ عنِ الشّعر هذا، آستلّه كَلِفٌ
بالشّعر، أم سُكْرُ صبٍّ ليس يحتشمُ ؟

فلْنبقِه بيننا سرَّ الكـؤوسِ، بها
يَمرُّ هاوٍ فيدري أنّه الجَمَمُ.

*

عملاقَ مصرَ، إذا أُعوِزْتَ في خُلُدٍ
فضُمَّ من خُلْدِنا ما شاءَتِ الضُّمَمُ،

مِن زهر لُبنانَ خُذْ عرشاً ومن قيمٍ،
لا زهرُ لبنانَ منّانٌ ولا القِيَمُ.

فَلْيَروِ الزمانُ

على اسمكَ، بين الحَوْر أُغوى وأَهذُرُ،
أَنا النهرُ، شوقي، أَيُّنا اليومَ أَشعَرُ ؟

هنا، الذكرياتُ، المجدُ، ما بعدُ من صِباً،
هنا أَنتَ، فليروِ الزمانُ ويسكرُ !

* يوم احتفاء زحله بتمثال احمد شوقي.

طرقتَ، لِمامَ الطيف، ذاتَ عشيةٍ
وكوكبَ من حَوْليكَ جِنٌّ وسُمَّرُ...

هُمُ أسمعوكَ القولَ، زُلزلتَ من شجىً،
هُمُ سكبوا، جُنَّتْ بكأسكَ أخمُرُ،

وحتى اذا غنَّى (شفيقٌ) ورُنِّحتْ
بلابلُ واعلولتْ، لِما قال، أنسُرُ،

وعرَّجَ صوبَ الكون (راجي) يزيدُه
صِباً، وتغاوتْ حِكْمةٌ تتأزَّرَ،

ولاعب بعضاً من خواطرَ أو منىً
بيانٌ لذاك (الشبلِ) بالضوءِ يقطُرُ،

وكانت نسيماتٌ لزحلَ عليلةٌ
تجِي وتهِي والليلُ تعبانُ مقمرُ،

يسائلُ: هذا الكونُ أكبــرُ أم همُ،
نماهـم وغنَّى أم نمَـوْه وخبَّـروا ؟

هممتَ بنُطقٍ... انما هِبتَ موقفاً
فقلتَ: لكـم يومٌ معي طاب يُذكرُ.

*

على سنتين الأرضُ دارتْ... تطلَّعي،
قصيدةَ شوقي، جاءَكِ السهلُ يُزهِرُ...

تقولين ماذا ؟ أننا السيفُ والنُهى
لَهونا بأكـوازِ النجـومِ نبعثـرُ ؟

وأنْ جارةٌ طابتْ على الحبِّ فالتوت،
لهـا فوق زَنْـدٍ غَنجـةٌ وتكبُّـرُ ؟

قصيـدةُ، فُضِّي السرَّ: خصرُ حبيبـةٍ
هنـا أم كلامٌ أبجـديٌّ مخـدَّرُ ؟

أنا بعدما اعذوذبتُ أَعبُدُ شِعْرَهُ،
وقعتِ على زَندي وشَعرُكِ أشقرُ...

هو افتَنَّ قصداً، قال شَعْرُكِ مِن دجىً
يُستِّرُ... والعُشَّاقُ دوماً تستّرُ...

وقد لا تكونين استجبتِ. رددتِه
كسيراً... فان يعزِفْ فعودٌ مجبَّرُ...

تعالَيْ نُحِبُّ الحبَّ، جارةُ، لا انتهى
اليه زمانٌ، لا براه تحسُّرُ،

كما اسمان في بعضِ الحكايات عانقا
مَخِيلَةَ قُرَّاءٍ فجُنُّوا ودُمِّروا...

سِوانا بعصرِ الكرم يسكرُ. نحن لا.
بنا سُكْرُهُ الكرمُ، اقطِفيكِ سأعصِرُ...

أنـــا لي أفانيـــنٌ جديـــداتٌ لذةٍ
عليهـــنَّ كرُّ الثانيـــاتِ مسمَّـــرُ،

اذا همَّ آنٌ بالنفـــــاد ثنيتُـــــه،
تُرى الآن يُدرى لو أنا لست أنظُرُ ؟

تمرُّ يدي من خلفِ خصرِكِ... لا جنت...
كفى أنْ ستُستهوى... كفى أنْ ستُهدَرُ...

لذائذُنـــا بالشوكِ أغـــرى تفتُّحـــاً
وأوجـعُ من شمِّ العَـــرارِ وأعطـــرُ،

وطـرفُكِ يَحْلَولي لي فيخلـــقُ جنـــةً،
ويقطِفُهـا طرفـي فهـــا هيَ أكثـــرُ...

نميدُ ؟... دعينا... بل تميدُ بنا الرُّبى
لنحـنُ غِواهـنَّ الرُّبـى والتبختُـــرُ !...

تقولين لي: «أهواكَ !» تفترُّ زهرةٌ
ببالِ الصدى تحكي... وتبكي... وتسهَر...

وإنْ تسكُتي أَحيَ التقاءَةَ لفتةٍ
بلفتةِ تلك العينِ تدعو... فأُبحِرُ...

الى أينَ ؟... من يدري ؟... لَسِرُّكِ بعضُهُ
الدُّموعُ... وسِرّي أنني لا أُخيَّرُ !

وألمعتُ أنْ لو يلتقي بفمٍ فمٌ
فألمعتِ أن لو لا يكونُ المقدَّرُ.

وحاولتُ أن أشفى. سوى أنَّ عاصفاً
بصدري رماني حيثُ سحْرُكِ يسحَرُ.

وشدَّكِ صوبي من ذراعي تولُّهٌ،
وأنك طوقُ المستحيلِ وأكسِرُ !

*

بعيدٌ قريبٌ... عهدُ زحلةَ بالـــذي
رماها ببالِ النـاسِ حسنـاءَ تطفِرُ...

وآنا هي الشّعرُ الوحيدُ، أما انتهى
الى قولـةٍ فيها تعــيشُ وتخطُــرُ ؟

عروسيَ، حبّــي ما بدعتُ. لمنكِــرٌ
أنا كلَّ شِعري، غيرَ ما عنكِ أسطُرُ !

بقلبيَ، شوقي، أنتَ ! بالنهـر، بالنـدى
بكـل شذا وردٍ كمـا الخُلْقُ يُنشَرُ !

تفينـا الوفـا هذا لأنَّا علـــى الهـــوى
هززناكَ، يوماً ؟ ما الهوى ؟ النُّبلُ أكبرُ ؟

لَمِنْ أجلها ها أنتَ، ما الصبحُ، ما المسا؟
علـى ضِفَّـةِ النَّهْـر، الأميـــرُ المؤمَّـــرُ

ولكنَّ منّا من بكى. هل سمعتَهُ
يسائلُ، والتسآلُ كالبوحِ يؤثَرُ:

ـ حديداً رَجَعتَ اليوم ؟! ويحَ مسافرٍ
كما مرمرٌ هَنّا، وهَنّا تمرمُرُ،

وما همَّ... كنتَ الشعرَ، يُكتبُ فرحةً
فيقرأُ آهاً، طابَ يَشدو ويَزأَرُ...

يخالونك الوَقّافَ: أَحداثُ عصرهم
لوتك، كما الأَطلالُ والرَّكبُ يهجُرُ،

يضِلُّون ! لا إِلّا الجمالُ عبدتَه،
كبعضِ الدُّمى أَحداثُهم بك تعبُرُ.

همومُهمُ الناسُ: الغنى، السكرةُ، العُلى،
وهمُّك رشقُ الآنِ بالحُسْنِ يَبْهَرُ...

تَوافهُ ؟ ما كانوا، ظروفاً تخِذْتَها،
كشمسٍ تدوسُ الليلَ تقهَرُ تقهَرُ ...

همُ مفرداتُ المُعْجَمِ السُّودُ سلَّها
لَيرصُفُها كالنارِ غاوٍ مغيِّرُ،

فتسمعُ دنيا ما يقولُ وما يرى،
وتقلقُ بنتُ الغيب نهداً وتظهرُ !

وما الشعرُ ؟ بعضُ الغيبِ غنَّى كطائرٍ
وبعضُ نُهىً إن رَدَّ رَدَّ يُحيِّرُ.

ويا رُبَّ حرفٍ أَشعلَ الشطرَ كلَّه،
وشعبٍ خرابٍ سوف تبنيهِ أَشطُرُ !

أختُ الكتاب

تمنَّعتِ في قلب الشِمالِ كما الحِصنُ
لكِ السَهْمُ يا اختَ الكتاب، لكِ الرَنُّ

عليكِ تُخَطّ الشمسُ صعباً جمالُها
وآنا تُخَطّ الريح عاصفُها لَدن

فَيسمعُك الحكّام، يَخفُت صوتُهم،
كأن قُلِّموا ظِفرا، كأن مَسَّهم وهن

---

* في يوم « صدى الشمال » الذي احتفلت به الأمة في طرابلس.

ويُشرِق بعضُ النور من صوب اهدنٍ
لأن اسوذا أُشعِرت أن طما ٱلغبن

ويا نُقطةً م الأرض شُدّت الى العُلى
رجـــالُكِ الَّا بالرجولـــة لم يَنـــوا

صحيفتُنا أم سيفنا ؟ أيّ فارق ؟...
هنا شَمَختْ رأسٌ، هنا شمخ الفن

شُغِفْتُ أنـــا بالعنفـــوان، خبرتُـــه
صنوفاً، وآخاني كما الغيمةَ المُزن

ولـكنَنـــي للعنفـــوان بـمرقَـــم
تمايلتُ قلتِ الطير مال به الغصن

أسائلني: بالورد، بالشعر، بالسنى،
أنا جئت، أم بالليل أطرحُه يرنو

الى قلم لبنانُ أحلام باله
وأرزتُه ما مُكتساهُ وما الرَدنُ

أنا قلمي ــ أفديه ! ــ طفل ازاءه
له الزأر إن نغضب معاً، ولِيَ الأنُّ

يصول يجول، النارُ بعض صريره،
به الأنسُ من غاب الشِمال أو الجن،

وعلَّم أذني كيف تُنقر نبلةٌ
كعود، وعيني كيفَ يبتسم الطعن

لَرائعةٌ شكَّاته يوم هجمة
وصافية آراؤه والملا جُنُّوا

يقول: هنا هادن، هناك أضربِ الخنى،
هنالك خلّ المستبدَّ له غَنّ

وكابِرْ على جرح وقل: لمَ أُصَب أنا
ودع قيحةَ الحُكّام يُسكرها الأحن[1]

وأجملُها الهمّات أن غريمها
يميع على الجُلّى كمن هدّه الجبن

وما الحق لم تطرب له، لم تهم به،
هو الراهنُ الغلّاب والآخر الظنّ...

وما ضرّ أن رَدّوا عليك بمثلها
وحطَّم منك الضَغثُ[2] ما حطَّم الضغنُ![3]...

ستكبُر ان تُهزم لأنك في غد
سترجع رُجعى السيف طيّبةُ السنّ

بلى هكذا رحنا معاً نبتني العلى
سخاءً بلهو، وحدَه اللهوُ لا مَنُّ

---

١) إضمار العداوة
٢) الخلط
٣) الحقد

مُنانا رضى لبنان، وجْهُ خلوده،
نضيع به كالشمس ضاع بها الدَجن[1]

وما همّ أن مُتنا ولم نبلغِ المنى
كفى أن مشينا لا التواءَ ولا هَدْن

غداً، في خُطانا، يجبَه الصعبَ نفسَه
بنونٌ همُ الاسياف مِقبضُها نحن

اليكِ، أيا أخت الكتاب، مكارمٌ
تَحُجّ، تقول: الكأسُ هَمِّيَ لا الدَّنٌّ

هل الخمر بالحجم ؟... اكشِفي عنك: آتنا
كما صورُ، قلّ الجِسم واكثوثر الذهن

بأسطرك اللا بالألوف حميته
الشِمال، جِبالاً مِن جنىً حُوَّل الحَزْن

---

١) الليل

فلا مجدَ مِن أرث الجدود اغتفلتِه
ولَا غدَ عزٍّ هِبتِه وهوَ مُكتنٌ[1]

جميعاً جمالُ الروح أنتِ له صدىً
جميعاً بهاءُ الله أنتَ ِله سَدْن

بنفسجةَ الأقلام، يومُك، أُمَّةٌ
بهِ افتُتنت والعمر أَجْمَلُهُ فَتنْ

لَيُطرِب بالي حملُ قِيثارتي هنا
ولا طرَبَ الأوتار طار بها اللحن

وشِعري الذي غنَاك طيَّبتِ بثَّه
كما دقَّةُ المِهباج طيَّبها البُنّ

---

١) مُخبَّأ

رصّعت بالي

رصّعتَ بالـي وعُمـري ازهـــرٌ نضُرُ
كمـا يُرصّع ليـــلَ العـــاشق القمـــرُ

ودارت الأرض، لُقيـانـا عـلـى وَرق
لقيـا التي جُنّ من سَمْعٍ بها الوتر

لا مسها... لا رآها... صُوِّرت املاً
في موضعٍ ما... واحلاه الهوى صُوَر

---

* في يوم شفيق معلوف الذي دعت اليه مدينة الشِعر.

ابقى من الحب وُدٌ اين عارفُه ؟
هل يعرف العطرَ الا زهرُه العَطر ؟

إن شاعرانِ، كما نحن ، استطابهما
عصرٌ وناجتْهما في القبة الـدرر

وفتّحا الورد من روض ومن رِيَش
وفتتا المِسك حتى لهْوَ منهمر

ورقّصاالجنَ والاحلامَ وانتهرا
بَوّابةَ الليل أنْ فلْتُهتكِ السُتُر

وكان قلباهما ما الصدق ؟ ما شممٌ ؟
ما الشمس تقطفها كَفٌ وتعتصر ؟

يبقى على الدهر ما خطّا... وما نَسِيا...
وما به آه مما أُسمِعَ الحجر...

أَجِب، أُخَيَّ، الصداقاتُ التي ربطَت
ما بيننا امس، حقاً شابها قِصَر؟

حقاً ستَنقل كُتْبُ اننا خبر
كالغيب يُسأل دوماً فيه: ما الخبر؟

ومرتين، عطيّاتُ الزمان هما،
يشاؤنا نَلتقي لا يَبخل العمُر

على ربى كرمة او ضِفّتي نهَرٍ
له الهدير الذي ما زال يُبتكَر

اقول: خَلّكَ في لبنان، مرتعُها
تلك الطفولةُ نادى والمُنى كُثُر

يُحِبّنا النهرُ، يَروي ان منبتَنا
في حيثما نبتَ الشجعان والشجر

وأنّ زحْلَ سمـــاءٌ بعضُ انجمهــا
الشعرُ، الندى، الزنبقاتُ، النخوة، الكِبَر

لها الفتوحات حيث الوُلْدُ قد ملكوا
لكنمـا العــرش حيث الأمّ تنتَظــر

تحتجُّ انت بفِلـذات لهــم وطـــن
هناك، يا جُرْحَ بيتٍ اهلـه انشطـروا

الا انفُضِ اليوم عنك القبـرَ مدّرعـاً
مهابــةَ الصقــر عينـــاهُ هوىً شَزر

مجلجـــلاً: أنـــا كلٌّ لا أشرذمُنـــي
على الدخيل انتصرْتُ ؟ الكلُّ منتصَر

وواحـدٌ مجـدُ لبنـان الـذي أُخـذَتْ
عنه الحضارةُ ما لـولاه ولا حضَـر

جبيلُ بيروتُ صيدونٌ طرابلسٌ
إطارها البَدْءُ او لا كانت الأُطُرُ

ان مُسَّ ذِكرٌ لِقانا او لِصورَ سنىً
مُسَّ الكمالُ، رؤى التاريخ والعِبر

او خُمّشت لَمعةٌ مِن بَعلبكَ اسىً
توجّعتْ مُهجاتُ الحُسن تنفطر

أقسِّمُ البيتَ ؟! ماذا ! الأنتصارُ سُدىً !؟
ماذا ! دماء رفاقي في الفلا هدَر !؟

لِبعض لبنانَ قاتلْتُ ؟! اشهَدي، شيَمي،
كما السواحلُ هاتيك الربى الخضُر

شمالُهُن، الجنوب، القلب تلك سما
بالي، لَتبقى ويبقى الرمْل والنَهَر

ووحدَهُمْ اهلّها اغلى على كبدي
منها، كعينيَّ اغلى منهما البصر

جميعُنا لفحَتْنا الحرب: ذاك بما
قاسى، وهذا بقصْدِ الموت يبتدر

ولن افرّقَ، ناسي الناس لا بعُدوا
كذا الينابيعُ، مائي الماءُ لا الكَدر

ولستُ اخسر نصراً هزّ اعمدةً،
لبنانُ منشطرٌ ؟ لبنانُ مندحر !

تراجعٌ نحن ؟ سُكنى في الخباء ؟ أشِحْ
جمالهُ السيف ان السيف ينشهر

بلى جراحُكَ مِن بَحر تَوزّعنا
هَنّا وهَنّا صغارٌ عندها الحُفَر !

اسكنْتَها بعضَ قصدانٍ كما غُصصٌ
للناي اوجعُ منها الناسُ ان غَدروا

إفتِنْ بشعرِكَ لكن قلْ تحطِّمَه
ممن غَوَوا وبذِمات العلى كفروا

لوَحدَه في العداوات الدخيلُ، جرى
بباله غَصْبُ ارض تُرْبُها الطهُر

وان نكن لِربىً خضرٍ شمخْنَ هوىً
شطٍ وقمّاتِ صخرٍ ليس تنكسر

معانادتٍ، لها في الله، والتفتت
دوماً الى الله، قل هل بعدَها خُسُر؟

بلى سنبقى ويبقى فوق صخرته
لبنان قهّارَ مَن ما غيرُهم قُهروا

وقال مِن خطر نمضي الى خطر ؟
ما همّ ؟ نحن خُلقنا بيتُنا الخطر

يا شاعرَ الحكمةَ اعلولتْ كما شرفٌ
هيمى بما لا حَكى الإغريق لا سَطروا

واين منبتُها ؟ الصحراء ؟ ويكَ ! أجبْ
أأنتَ ربٌ لِيغشى قفْرَكَ الزهَر ؟

تلك الأساطيرُ شُكْرُ البال، واحدةٌ
منها مرورُكَ في الدنيا كما الشرر

تكون كانت، وشقّت عبقرٌ غدَها،
لو لم تَعَرَّ لعِملاق وتأتزر ؟

حقائقٌ ام خيالاتٌ ملأتَ بها
كأسَ الوجود فدارتْ والملا سكِروا

قلتَ الجراحَ زهورَ الحبّ، قلتَ ندىً
هَمَّ الندى، قلتَ ما السُهّارُ إن سهروا

غَوَوْا عذارى وزَيْنـاتٍ خواطـرَ، ضِعْ
ما بين بين يَجذْكَ الصحبُ يا سمر

الليلُ يشقى بعشاق ؟! ضللتَ منى،
يشقى بها الليـل تلك الخـرَّدُ الفكـر

وقلتَ كيف الهوى الباقي ولو جُرُحاً
اشهى مِن العمر جرّاحا به الضجر !

وقلتَ ما الحـربُ الا القـوةُ أفتُتِنتْ
بنفسهـا، وزهـــورُ الشر لا ثمـــرُ

وان حرّيـةٌ فـــوق الجَمـــال هي
الاحـرار، لا الكلماتُ الخُلّبُ الغُرَر

وأن مَن عَمَد العَليا باعمدة
كبعلبكّ أَطاعته العُلى الأُخر

حنتْ عليه السما، أغفتْ على يده،
كما تغافى على اجفانِه النظر

وقُلتَ ما قاله للشمس عابدُها:
اغدو انا انتِ او لا يُبلَغ الوطر

ماذا ! شردْتُ انا ؟ حمّلتُ خمرك ما
اهوى ؟ لها الكأسُ اما طيّبت عُذُر

جُزْ جُزْ معي صوب اخت الحسن، ربّتِه،
في كل بال أناهيدٌ لها اثر

عرفتُهما انا مَنْ، والحسنُ اعرفهُ
براه ربٌّ ولكن كمَّلَ البشر

نقلتَهـــــا عن هواك، اللهَ في يدهِ
شاركتَ !ها بِكَ أنتَ الحُسنُ يأتمر !

أعزُفْ وريشتكَ الهُدبانِ، ضِع وأضِعْ ؟
وعبْرَ هُدبَينِ كم يَعذوذبُ السفر !

يا وردةَ الورد، خُطّي فوق ناسمةٍ
أنْ زرْتِها الارض فاحلولت لها ذِكَر

عينانِ لا الليلُ مرمِيًّا بغيرهما
ليلٌ ولا الضوءُ الا منهما خدِر

ومُعنِقٌ لم يزلْ يعلو كأنْ سحَر
يقول ازميلُه: لا ينتهي السَحَر...

وقامةٌ شكُّها شكُّ الجريد بدتْ
لِقاهرين بَهوا بالحرب ما انبهروا

بلى، التقـاءُ التـي صُبّتْ، كمـا حلُـمٌ
في بال شاعرهــا، قهــرٌ ومقتـــدَر

لأمـةٍ صانهــا عن ذلّـــة قلـــمٌ
لا السيفُ اجملُ ان يُسعِفْ ولا القدر

لِمَ انتصرنا ؟ أَمتّنا الموت؟ لم نهب
الدنيـا تجمّـعَ منهـا النـابُ والظُفُـر ؟

لأنَّنا كان منا شاعـرٌ عَبَـدَ الـحسن،
العلى، المنتهـى، العِـرضَ الـذي يفِـر

ندى الغمام، سماحَ الكف، رَدَّكَ لم
تَجبُن — قوافٍ بهِنَّ الله يُختصر!

زهورُ لبنان، وهْي الحربُ، ما وفدتْ،
نكَّستُها الأسْيُف، اعبُرْ رأسَ مَن عبروا

الى الخلود الى حبِّي، الى ملأٍ
أعلى، جثيٌّ له التيجانُ والسُرر

الى ظلال التي في المنتهى ورَفَت،
على اسم سِدْرتنا، تعلو وتنتشر !

آتٍ مع زهر لبنان

ذكراكَ في البال ما ذكراك؟.. قل ضُرِبا
على هوى الرعد سيفٌ أشعل السُحُبا

ولـو لِريشـة عصـرٍ أن تظلّلـه
لكنتَ كالليـل لفّ المنتهـى بإبـا

والليـل وحـدَك تدري أيـن مَنبَعُـه
وكيـف كان وكـان الله ما وهبـا

---

* في مهرجان «أيام طه حسين» بالقاهرة.

مِن قبل ما الأزلُ ابدوْدَى رمى يدَه
على الذي سوف يغدو الكونَ واجتذبا

كذاك أنت، رمتْ عيناك ليلَهما
ثِقلاً على الشرق، ردَّ الشرقَ ملتهبا !

لا، لم تَقلها « استفيقوا »، انما بدعت
يداك بدعاً تصبَّى الجفن والهُدُبا

بات الذي يقرأ « الايام » مختلياً
بالحسن والحسن يُنبي يومَ ليس نبا

*

بعد الكتاب الشجيِّ استُنَّ مُنتهَج
أنْ يصدق القلم، أزهوهى ام انتحبا

تعلَّم الجيل من طفل تمُرُّ به
أزاهر فترى في وجهه العطَبا

فتكتمُ الحزن عنه خوف تجرحه
لكنه هو لا يستهذب الكذِبا

يمضي اليها يغنيها يحبِّبها
به: « يا أزاهيرُ، انتشي طربا

أنا الطبيعةُ لم تُغدق عليَّ فلِمْ
أرُدُّ بالمثل ؟... هاني الكأسَ والحَببا

الا اشربي، يا أزاهير، اشربي: لَيدي
تسخى كما النيل ان واثبتهِ وثبا ».

تعلَّم الجيل من طفل تؤدبه
« الأيام » حتى ليغدو وحده الادبا !

*

مَن واكبوكَ وَمَن ظلُّوا العجاج بِهِمْ
بنيتَ مصرك واستنبتَّها القِبَبا

كما صرعتَ، رفعتَ: الريحُ آيتُها
أنْ الغِوى هيَ، لا ثوبٌ ولا قَشَبا

واليومَ في ظل ما أطلعتَ من فِكَرٍ
يُنامُ تيهًا على المجد الذي اصطخبا

دعني وخاطرةً تفترُّ قلتَ « نفرتيتي »
تعـــود علـــى لِعْبَـــاتِ من لَعِبــــا

ذاك الذي حطَّ في الصُلْب الجمال اذ
اعلولـى، وسمَّرهـا الأغنيَّـــةَ الذَهبـــا

مُخَلِيـاً لشروق الشمس غصَّ شجاً
وباعثـاً حَسداً في النـاي إن عذُبـــا

ومَسحـــةً لا تنِـــي سِراً ومفتَتَنــــا
بأن يُرى أرَبـاً ما لم يكُـــن أربـــا

وشائلٌ بغِواها وهْمُ ان لها
مثلَ الجناحين رفًا فوق... واغتربا...

وما التقى الحُسْنُ من لبنان ضجَّ صِباً
بفنّ مصر تغاوى في الحديد صِبا

حتى غدت للأولى قيلوا العقول مُنىً،
وللأولى ارتحن لاستغبائهن غَبا

لا الحسُن، بل حُلْمُ أنّ الحسنَ طوعُ يدٍ
كأنما الله مما نَفهَمُ اقتربا

ذاك الذي تَرك التِمثال متعبةً
للناس قالوا انتهى يومَ انتهى تعبا

إزميلهُ أنت أم لِمْساتُ إصبَعِه ؟
سَلْ وجْهَ مصر وما أَعطى وما خَلَبا

*

ومصرُ ثِنتانِ: ما احييتَ انت وما
أَلهَمْتَ. هذي وتلك الفكرُ منتسِبا

اللهُ؟ أيَّ هُدىً كانت هياكلُها؟
وَمن تَعاجب لو لم تُعْطِهِ العجبا

نادت بُناةَ اثينا من غدٍ، ورمت
في قلبهم شُعلةً تستوقف الحِقبا

واستعجلتهم، فبرّوا امَّهم كرَما
فكوّا الظلامَ وقالوا القولةَ السببا

ومِصرُ مَنْ علَّمت! لا البَدْعُ تكتُمه
عنهم، ولا خاطراتٌ كالسُيوف شَبا.

كأنها أنت، طلقٌ بالُها بندىً
كأنها أنت، زهرٌ مرجُها بِرُبى

واليومَ مِصرُكَ، مَن اطلقتَ، مصرُ مشت.
فاقرأك شعبَ هُدىً واقرأك شعب ظُبى !

تلك الكرامات في العقل ارتجتك أخًا
تلك البطولات في الحرب ارتضتك أبا.

في الصوت، في الموت، ها أنت العظيم !الا
افتَحْ مقلتيك عليك، استبعِدِ الريبا

انت الحقيقة ! طِرْ بالخاملين، أفِضْ
فيهم عتُوَّك، ضيءْ كالنور منسكبا،

سَيرَ الزمان الا سرِّعْ، هنا كسِلٌ
شروقُها الشمس في الشرق الذي اكتأبا.

*

آتِ معي زهرُ لبنان وكنتَ صدىً
لثورة في بنيه تَنزِل العَصَبا

ليست من النار لكن مِن ارادتها
تُعطي الهنيهاتِ نبْضاً، تشربُ الغضبا.

إنزِل بقلبي، بِهَمِّ الأرز يومَ اسىً،
بالشيح بالريح، بالهبّات غِبَّ صَبا

إنزِل بما ضَجَّ في لبنان من ولهٍ،
بالكِبْر لم ينجرح، بالورد ما انتُهبا

بماردينَ أبَوا الا الحياةَ عُلىً،
بمُمْسكين بقرن الدهر مُطَّلبَا،

بِحبّهم، بضروبِ العزم في يدهم،
بقولهم للزمان: اركُضْ أم آنتَ هَبا

تكنْ نَزَلت ببعضَ الصخر مِن جبل
له على المجد فضلُ المجد إن صَعُبا

*

هتفتُ باسمِك، ما لقَّبتُ، لي عُذري.
مَنــذا يُلَقِّبهــا الَّا بهــا الشُهُبــا ؟

طهَ حسيـن ويكفـي ! ذاكَ منتهَجـي
أنا كما السيفُ طَلْقًا أنـزِل الكُتُبـا.

وَهَل كُنتَ الموت؟

هُمُ سألوني : السيفَ قلناهُ : هل تُسعَدْ؟
أجبتُ : أجعلوها اثنين : سيفاً ولا يُغمد

أخي نوفلُ، الأبطال تُبكى. احتَفِلْ بها
دموعي، ويَبكي فَرقَداً في العُلى فرقد

شُغِفْتَ بِشعريِ؟ قُلتَه شَكَّ رامحٍ؟
لَبيتُ قَصيدي أنت، والكَلِمُ الخُرّد

* في رثاء نوفل الياس

تُصفِّق لي، ها صَفحتي قُبَّةُ السما
بأنجمها ما جَمّع الله أو بدّد

تقيّم شعراً؟ حسبُه منكَ هَتْفَةٌ،
لها الله! بَدْرُ التَمّ خُطَّ على أسود

وهل كُنتَهُ الحَرْمون؟ وجهٌ الى هُنا
ووجهٌ الى هَنَّاك، طَلْقٌ فلا يُربَدْ[1]

وماذا هُنا... هَنّاك؟... قُل كلُّ بُقعة
حللتَ بها عاطيتَها خَمرةَ السُؤدَد

فديتُك! مِن لبنان أنت زَها بها،
جَمعتَ كما المُعطي، تركْتَ كما المُفرد

لأشمَخُ تِيهاً حين أذكر قولةً
لك، اختصرت نُبلَ الوفا ومَضت تَشهد :

---

١) لا يُحبس

ـ لأهلٍ أنا أصبحتُ منهم أظلُّني،
« وإن يَجحدا أُعتَبْ جريحاً ولا أُجحد

أنا الجبل العالي، كما الله جارُه،
أجَرّدُ مِن ورد؟... أجرّد لا أجرَد

*

ويـا ناثِـرَ الـدُر، المنابـرُ اوّهت
عليك، وجُرحاً بات مَن كان قد غرّد

وقد أخذت عنك المنابرُ لَفحَهـا،
وطايبها الشِعـر الـذي بعـدَكَ استوحـد

شهـدتُكَ مـا بيـن الدُهـاة أميرَهـم
وسابِعَها ـ فَلْتكتَمِلْ ـ عُمُدُ المَعبد

ويُصغَى اليك، الحُجَّةُ البكر تَكتسي،
على فَمِك التيّاة، بالرونق العسجـد

فإن أنت فَنَّدتَ، السيوفُ تقطّعت
وإن أنت أَيَّدت، الهُدى كلُّه أيّد

شهدتُك، هل لي أن أردَّك زعزعاً ؟
تشيل بقوم أو تُحّطُ ولا تَجهد

هدوءٌ كما الأولمب، رَبٌّ لأمرهِ
أقول الروابي انصعن وامتثل الجلمد

*

وينا خُطبةً لا النَشْيُ مَسّ جلالَها
ولا ليلُ مَوتٍ عاثَ فيها أو استنفذ

تَظِلِّين صَرحاً للأولى عبدوا النُهى
وربَّ شُموخٍ في جبينِ النُهى يُعبد

*

بلوتُ شجاعاتٍ أنا، وعَجَمْتُها
بما لِيَ من كِبْرٍ، ومن هِمَم مُرّد

ورحت بها أَفري العقول، أَحكُّهـا
على العاصف استوحيتُه البحرَ إن أزبد

واضربها في الهـم والغـمّ، انتخـي
كأَنْ قدرٌ عزمي، كأَنْ قُبي مُيّـد

ولكنْ مِن القبر استمع لي نهرتُها :
له، يا شجاعات، اسجدي، كلّهم سجّد

*

ويا نوفلَ الأبطال، جرّعك الأسـى
أَنِ الأرزُ في لبنان أُوقِفِ لا يصعَد

وأغـمضتَ عينـاً خلّفتهـن سُيَّـاً
جبالاً وشطآنا وبحراً بنا استمجـد

وعـدتُك : لبنـانٌ يعـود، وسيفُـه
على الكل، لا أبهى لِشعب ولا أخلد

جمى عبقريٌ، لا الى الغير عينُه
ولا القرش مولاه، وعدتُك لا يُفقد.



فهرست الكتاب

الوثيقة التبادعيّة

« من منتج للاستهلاك
الى فنان حياته »

الطبعـة الاولى ١٩٧٦
الطبعـة الثانيـة ١٩٩١

رؤيا عن الله والكون

نظام سياسي، فن حياة

١

سكّان كوكب الأرض، عشيةَ الالف الثالث بعد المسيح، يمكننا القول انهم اصبحوا واقفين على حقيقتين :

الاولى : أن الانسان قَفز قفزة كبيرةً صوب معرفة ذاته. لم يبق يُرضيه ان نَضمن له عيشه وحسب ولا حتى رفاهَه

وحسب. اصبح يتطلّب لا أقل من أن يبدع أو يشارك في البَدْع، كأنما هو مزاملٌ لله.

الثانية : تعاسةٌ، اكبر تعاسة، ان نَقتلع الانسان من ايمانه بأنه باقٍ الى الابد. وكيف نريده يتصور الارض، الكوكبَ الذي ما كان قد كان، لولا نشاطُه هو الانسان، سوى صخرة بلا قيمة مرميّة في الفضاء، هي تبقى الى مليارات السنين وهو، الذي ثَمّرها وبَدَع مدنيّتها، يَكُفُّ عن وجود بعد ٧٠، ٨٠، ١٥٠ سنة ؟ مع انه ليس في المعقول ان لا يكون الافضل وجد ليبقى أكثر. ان مجرد هذا الشعور، عَصْرَ أخذوا يقدرون الجودة في وجه الكثرة، أعاد الايمان بأبدية الانسان. مع كل موكبها: اللهّ قادر على كل شيء، بادعٌ اذن وله السرمدية، والى جنبه : خليقتُه التي تُكرَّم أو تُذَلّ بقدر ما تروح تقرُب ان تصير مِثلَه أو تَبعُد. وفي اللغة اللبنانية ثلاث مفردات : « سرمدية »، « أزل »، « أبد » ــ ليس لها في اللغات الأوروبية إلا مفردة واحدة ــ بمستطاعها أن تسهم في توضيح علاقة الانسان بالله. ان السرمدية، بجزئيها الازل والابد، يَملكها الله وحده. الأزل، اعني الماضي الى ما لا حد، لا يملك الانسان منه ولا ثانية. من هنا وجوب أن يتّضع، الى حد

الانمحاء، امام الله. أمّا الأبد، اعني المستقبل الى ما لاحد، فيملكه الانسان هو والله معاً. من هنا، بالمقابل، وجوبُ ان يشعر بكرامةِ أجملِ الكرامات .

أن يضارب لا على أقلّ من أن يبدع ولا يتنازل عن الايمان بمزاملة الله في انه باقٍ الى الابد، بهاتين الاثنتين يتحدّد اليوم الانسان. ولربما يكون هكذا، في بعض الكواكب، كلُّ عاقلٍ راق سوف يَلتقيه الانسان.

٢

هذا الوعي كان موجوداً في التاريخ، بشكل ومضات نور. وومضات النور هذه هي التي جعلت الانسان، حتى فيما كان يتخبط، يوجد انظمةً سياسية يَحكم نفسه بمُوجبها، ويمضي خطُّ تطورها مع خط وعيه لله والكون.

فلسفة حُكم، أعني رؤيا عن كيف سياسةُ النـاس، موضوعٌ شغل كل الادمغة الكبيرة، على تَنوّع نشاطها : من تور وفيثاغورس الى لينين وتشرشل، وبينهم المثلث الاغريقي : سقراط وافلاطون وارسطو، واصحابُ النور الكبير : دانتي وشكسبير وغوته وفاليري، والعقلان غيرُ العادِيّين : اوغوسطينوس والاكويني، لكي لا نتكلم على

الذين وقفوا انفسهم على السياسة كمكيافيل وهوبس. كلّ من هؤلاء اتخذ لنفسه مُنطلَقاً بعينه. وإنما يخيّل اليّ ان المنطلق ذا الوزن ينبغي ان يكون السؤال الخالد : « انا، الانسان، باقٍ أم لا، اكثر مما هي باقية ترابٌ وشجرة ونجمة ؟ » سؤال الاسئلة هذا، عن البقاء، يستتبع فكرةَ وجود من هو رب البقاء : الله. ان العباقرة الذين رصفوا مداميك المدنية، على مدى التاريخ، هزّهم اكيداً هذا الموضوع اكثر مما هزّهم ما اذا كانوا سينامون على الطوى أو في بيت سقفُه يدلف.

كيف رأى الانسان هذا الخط الآتي من الله صوب الانسان مكملاً طريقه صوب الانسان ـ الموهبة، هكذا تَفتّق له أن يَعمل حكوماتِه.

تعال نمشي مع هذا الخط .

الله، او الاله الواحد، اول ما رآه الانسان رآه قوة وقادراً على كل شيء. اذن هذا الانسان ينبغي أن يكون له مَلِك يحكمه لا يستهان بما له من قوة ولا بما له من قدرة على كل شيء، ولو انه لا يتسمى احياناً ملكاً. وهكذا بدأنا كلنا ملكيين. اعني مشدودين الى حكم فردي أو شبه فردي، المهم انه دوماً حازم.

ونمضي مع الخط : وعَى الانسان انه الى جنب الله يوجد الكون، خليقته المتدرجة من حبة تراب الى مجموعة نجوم. بوحي هذه المعرفة رأى، الى جنب الملك : الوطن. وهكذا صرنا وطنيين. وكنا في بعض الاحايين نلحد او نتناسى الله ولا نعود نأبه إلّا للكون، ونعمل حكومات بعيدة عن القيم التي تستوحي القيم الالهية. ونظن اننا اذا هدمنا المَلِك او الحكم الحازم، نكون خدمنا الوطن. لكنا لا نلبث ان نعود ندرك ان الذي تهمه الوطنية لزامٌ عليه أن يستمر تهمّه الملكية، كما أن الاهتمام للكون لزامٌ أن يظل مستلهماً الاهتمام لله.

ويواصل الخطان مُضيَّهما : يصبح الانسان عارفاً بأن الكون ـ الخليقة، افضلُ جزء من اجزائه، ذِروتُهُ، تاجُه، هو الانسان. بالموازاة، يصبح الانسان عارفاً بأن افضل شيء في الوطن هو الأمة. المتر المربع من ارض الوطن مهم، لكن اهم منه المواطنُ الواقف عليه. ويولد حكم الامة. وهكذا نُصبح أُمْويين أو أنتر أُمْويين. وهنا، في مرحلة اكتشافنا ان الانسان هو تاج الخليقة، تتعقّد متطلباتُنا وتتعقد الانظمة السياسية التي تطمَح الى ارضائنا، ولكنها تظل في روحها واحداً.

والخطان اللذان سيمضيان سيظل الواحد منهما يؤثر في الآخر ويلهمه. الآن، بات ينبغي لنا أن نبدأ نتبين أنه، بعد الانسان، يوجد الذي ليس أيما انسان، يوجد الانسانُ البادع، ذاك الذي خلقه الله ليؤازر الله في استكمال بدع الكون. وهكذا يكون الخط السياسي ماضياً لا فقط صوب الامة التي تُنبت هنا وهناك افراداً بادعين وانما اكثر: صوبَ الامة المتبادعة. لفظنا كلمة جديدة اشتققناها خاصة لِتعبّر عن مفهوم جديد يقول انه ليس بمستطاع الفرد ان يبدع، بحق وبسهولة، إلّا اذا راح، في كثير أو قليل، يبدع معه سائرُ الناس ويُبدع حلمُهم معهم وأدواتهم التي هي بدورها بِدَع، إلّا اذا راحوا هو وهم يتبادعون. وان يتبادع الفرد معناها ان يبدع نفسه والعملَ الذي يبدعه والاشخاص الذين هم سواه وأحلامهم وأدواتِهم، وهؤلاء جميعاً يعودون بدورهم يزيدونه قُدرةً على التبادع. وهكذا صار ينبغي ان نصبح تبادعيين.

الانسان وهو بدائي يتطلع الى أن « يَقتني ». بعدها يعلو على نفسه فيتطلع الى ان « يكون ». بعدها يعلو اكثر فيتطلع الى ان « يبدع ». اليوم اصبح ينبغي له أن يعلوَ على نفسه اكثر واكثر ويتطلع الى ان « يتبادع »، اعجوبة لا

يقدر على اجتراحها إلا اذا عمل هو والناس وأحلامهم البِدَع وأدواتهم البِدَع معاً.

٣

التبادعية، في الاجتماع والاقتصاد، نظامٌ يفرض سيادة اثنتين : الحرّية والجُودة، ولا بحال يُحَدّ من الحرية، ولا بحال تُفَضّل الكَثرة على الجُودة.

الحرّية التي بلا حد تفرض على نفسها ان تكون مسؤولةً تجاه نفسها. بعد هذا الفَرْض الذي تقوم به اختياراً، (اعني في نطاق الحرّية ايضاً)، تعود لا تقبل بأن يُشرط عليها شرط. هذا معنى أنها بلا حدّ. ان الوجود العظيم، الذي منه يَنبعُ كل شيء، هو حريّة. بنتيجة وعي هذه الحقيقة، التي كانت مبدئية ثم برهن عليها التاريخ، نُدرك ان افضل تفتّح للانسان يَتمّ في الحرية. لكي تتبادع يَستحيل ان يلزمك شيء فوق الحرية. وهكذا يَستحيل ان يوجد نظام اجتماعي واقتصادي افضلُ وادرّ على اصحابه وألَذّ تطبيقاً من نظام حر الى ما لا حد. من هنا ان الوسائل التي ابتكرها الانسان، في مستهل التاريخ، وخدمته لكي يمارس حريته بسهولة لا يجوز له أن يَرفضَها بشيء من

التهوّر او من الخفّة. مَثَلٌ على هذه الوسائل : المال. إن تَصنيمَ بعضنا للمال، ذاك الذي جعل المال احياناً يشمّر نفسه لصالح نفسه، يجعَل الانسان زلْمةً له، هذا لا يجوز ان يجعلنا نستهين بالمال وبأنه أمرن وسيلة لتسجيل حصول الجهد الخيّر أو لنقل الجهد الخَيّر من مكان الى مكان. استبدالُ المال بأيّما شيء سواه ردة الى البدائية. المال كالابجدية : الشَّعب الذي عملهما كليهما عَملهما لا يزاد عليهما شيء. تَقدر ان تخربط في أصول استعمالهما، لا تقدر ان تستغني عنهما. ليس من مال أو ابجدية عند الجماد أو النبات أو الحيوان. والانسان عَمِل المال والابجدية ؟ المالُ والابجدية يبقيان للانسان. واضحٌ مَن المالك ومَن المملوك. تَتغيّر الادوار، يتخربط كل شيء. والحكاية التي يعرفها الصغار لكم يروح غالباً يتناساها الكبار : بدويٌّ من الصحراء عثر على قطعة من معدن، قال : « ويش ريدها » ورماها. وجدها ابنُ مدينة، عمل منها مفتاحاً ثمنُه ليرة. وجدها سويسراني، عمل منها ساعة ثمنها ٢٠٠ ليرة. وجدها عالِم، استخرج منها طاقةً ثمنها ملايين. قطعة المعدن الصغيرة تلك لا قيمة لها بذاتها، تصبح لها قيمة وتأخذ تكبر هذه القيمة بنسبة ما يُضافُ اليها انسان. ونستخلص : المال، المال الذي يَبقى عارفاً

حَدّه، يُعطي التعاملَ حُرّية هائلة. لهذه، المال خالد. ومِثلُهُ الرأسمال وحَقُّ التملّك. ألا فليجتهد الانسان، فرداً أو جماعة، ليجعل دخله بقدر ما يريد، التبادعية، التي لا تقدر ان تكون له إلّا اذا كانت لغيره، تُدفّعُه من هذا المال، لصالح الجماعة، بقدر ما تتطلب اللعبة التبادعية. وهذه اللعبة، بقدْر ما تؤمن خير الجماعة، تكون مؤمِّنة خير الفرد. حرية في التعامل لا حدّ لها، ما مثلها سنَد لتفجير الخير. ومن الخير تتغذّى الموازنة لتكون قوية، أعني لتقدر على تنفيذ المُخطَّط الطموح. والموازنة اثنان : أخذٌ من المكان الواجب أن يؤخذ منه، وعطاءٌ للمكان الواجب أن يعطى. والتبادعية، التي هي حرية مسؤولة، تجعل المنتج تَلَذّه زيادةُ مساهمته سنة بعد سنة في تنمية الموازنة، اعني في تنمية تبادع أُمّته الذي ينبغي ان يوصل الى تبادع أُمم العالَم، أعني البشرية التي هي عائلته الكبيرة.

والجُودة هي التي ينبغي أن تشمل كل شيء : الشخص ـــ انتَ والغير ـــ العملَ، التعاملَ، الأهدافَ وحتى الاحلام. من هنا ان التبادعية جُودةٌ عمومية، للانسان وللشيء معاً. هي اذن رَفْضٌ مجتمعِ الانتاج للاستهلاك، رفضُ السُّرعة التي تَلْهَث ولا تُوصل إلّا الى المكان الذي

يان في النهاية أنّه متأخر عن المُنطلَق، رَفْضُ العمل الكَثْرويّ الذي لا يَنْقَعُ غلّة. على النقيض من كل هذه يكون الانتاج الجودوي، ذاك الذي يجودن نفسه ويجودِنك أنت صاحبه. يحوّلك من مُنتج للاستهلاك الى فنّانِ حياتك. فرْق، فرق كبير، بين أن تضيف الى نفسك وان تتجودن. التبادعية ليست حركةَ ازدياد، انها بالاحرى، حركةُ كَسْر طَوق، نَفاذٌ الى درجة في الوجود أعلى. حتى المعرفة، المعرفة العظمى، تصبح، على ضوء التبادعية، جَوادات قلب ايضاً : نخوةً، وعطاء، ومحبة للكلّ، وصِدْقاً، وقدرة على تذَوق الجمال، وشجاعةَ كلمة خلّاقة، ولفتةً تلف الكون وما بعد الكون، ومضاربةً على لُعَبٍ شَبيهةٍ شيئاً بِلُعَبِ الله.

فهرست المجلد





سعيد عقل

شعره والنثر

المجلد السابع

دلزى

خماسيات الصبا

نوبليس

سعيد عقل

شعرُه والنثر

المجلّد السابع

دلزى

خماسيات الصبا

نوبِليسُ

للمؤلف

بنت يفتاح الطبعة الأولى ١٩٣٥ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

المجدلية الطبعة الأولى ١٩٣٧ ــ الطبعة الثالثة ١٩٩١

قدموس الطبعة الأولى ١٩٤٤ ــ الطبعة الرابعة ١٩٩١

رندلى الطبعة الأولى ١٩٥٠ ــ الطبعة الخامسة ١٩٩١

غد النخبة الطبعة الأولى ١٩٥٤ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

أجمل منك لا الطبعة الأولى ١٩٦٠ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة ومزيد عليها)

لبنان ان حكى الطبعة الأولى ١٩٦٠ ــ الطبعة السادسة ١٩٩١

كأس لخمر الطبعة الأولى ١٩٦١ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

اجراس الياسمين الطبعة الأولى ١٩٧١ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كتاب الورد الطبعة الأولى ١٩٧٢ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

قصائد من دفترها الطبعة الأولى ١٩٧٣ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

دلزى الطبعة الأولى ١٩٧٣ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كما الأعمدة الطبعة الأولى ١٩٧٤ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مزيد عليها)

الوثيقة التبادعية الطبعة الأولى ١٩٧٦ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

خماسيات الصبا الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلد السابع

دلـزى

خمـاسـيات الصبا

دلـزی

الطبعـة الاولى ١٩٧٣
الطبعـة الثانيـة ١٩٩١

عنكِ هذا الكتابُ، عن قُبلةٍ
أقطفْتِيها وقد هَويتِ على زَندي
سوف يقى، مَقَرأون به الوردَ،
ومَوتي على قَوامِكِ والوردِ
طُرْفةَ جِسْمُكِ الصَاحِيُّ، كالبِلورِ،
كالحُلم لم يَصِحَّ.. وكالوَعدِ
هو إن عانَدَتْ قَوافِيَّ ناداها
فَرَدَّتْ رَدَّ الحبيبةِ.. مِن بُعْدِ
أنا شِعري زَنيتُه مِنكِ، من حُقَّين
بَضَّين، أصْدَيا.. والصَدَى يُعدي
والشموخُ الذي بِهِ هو مِن بُردِكِ،
إمَّا خَطَرتِ تَعوين بالبُردِ
سائِلي كلَّ صفحةٍ من كتابي
عنكِ، يَتَبّخ سُؤالكِ النضِرُّ بالنَدُّ
وغداً تَقرأ المليحةُ شِعري
فيكِ، بل في تَوَلُّهي بكِ أو سُهْدي
فتَمِدُّ الدنيا بها، بينَ قَهْرٍ
وانجراحٍ لأنَّها خُلِقَتْ بعدي
تَشتَهي لو تكون عاشت على عَهْديَ،
أو لا فعِقدُها صِيغ في عَهدي
عَلَّ طَرفاً مِنّي يكون رَآها..
أو تَغنَّى بالبعضِ مِن حَبَبِ العِقْدِ



تَشَرُّد

أشرتِ أَنتِ الى الكوخ المشعشعِ بالورد ...
اجتذبتُكِ ... ضاعَ الوردُ والزَمنُ !

وأينَ شرَّدْتِني ؟ أُواه ! لا سألتْ
عيناكِ عني، أَنا عيناكِ لي وَطَنُ ...

أَموت، أَحيا وراءَ الهُدْبِ، طيرُ ضحىً ...
أنا، وهدبُكِ هذا المُفْتَدى غصن...

بالأمس ؟ مُرِّي يداً وامحي ... خُلقتُ أنا
اليومَ ... التَفَفْتُ بضوءٍ منك أُفتَتن ...

ضوءِ ابتسامتكِ الآتي إليَّ من
الآتي ... فما الفجرُ ؟ ما كوني تكُنْ عَدَنُ !

اواه حُبُّكِ ! لا احببتُ قبلُ ولا
أُحِبُّ بعدُ ... تأنّقْ واغلُ، يا ثَمَن ...

أتحتَ قنطرةِ الوردِ المُلِمّةِ بي،
لويتُ خَصْرَ التي احلولت كما الوثَن ؟

وقلتُ : « طيري نَطِرْ في قُبْلتين كما
الصِبا ... فلا النضْرُ إلاّنا ولا الحَسَن ! »

حُبِّي، الذي رحتُ منذُ الدهر أُحجُبُهُ،
إلّا عن العِطْرِ، حُبِّي اليومَ مُعْتَلَن.

كالعودِ إنْ جرَّحتهُ أنملٌ شجنَتْ
قال : انتهيتُ غراماً وانتهى الشَجَن !

سِرُّ الشِّعر

بِشُبّاكِها، يُعرِشُ الياسمينْ
يَكُبُّ على الدَّرْب حُزْنَ السنين !

تعالَ تعال معي، يا ربيعُ،
نُلملمُ أعمارَنا بالمئتي ...

حلَمتُ بها قال ... تخترِع الوَرْدَ ...
قال ... تنقِّطُه بالحنين ...

وتسأله هل يُحِبُّ الوجودَ ...
فإن لا ... تَمُرُّ عليه بِلِين ...

تُغلغل فيه ... تقول : « أشكُّكَ
من حول جيدي ... كَعِقدٍ ثمين ...

فإن لم تَلَذَّ أُدسَّك في
شَمْلِ شعري ... أشَكِّلُه وأَزيْن ...

أدغدغُك الدغدغاتِ الطوال ...
أغنّيكَ، حتّى لأنتَ الرنين ! »

وقال ... يفتّح في كَفّها الوردُ ...
أبيضَ وهْي عليه تَرين ...

وَينزِل قال ... على ذلك الصَدْر
يَشرَب من ضوئِه ... والمَعين ...

وأحكي وأحكي ... ومنّيَ يغوى
الربيع ... ويَسكَرُ مما أُبين ...

ــ وبعدُ، تسائل، ما كان في الحُلْم ؟
ــ ما كان ؟ ... خلُّكَ في الياسمين ...

لَوْ أنتِ...

لو أنتِ بأغنيتي كَلِمُ ...
وانا ــ واموتُ انا ــ نَغَمُ ...

لَحَملْتُكِ لا أدري أتغاوت
بابلُ أم رقصَ الهَرَمُ ؟

مَن مثلَك بيتٌ مِن شِعْرٍ
لا قالَ الفُرْسُ ولا نَظَموا !

لو أنتِ بحوضي وردتُه
وانا ــ وأُمُرُّ انا ــ نَسَم ...

لنقلتُ إلى الدنيا أَرَجاً
ما آهةُ خَصْرِكِ ... ما السَقَم ؟ ...

ما صُبحٌ عَمَّ ... وصبحٌ هَمَّ ...
وراء قميص تَنثَلِم ؟ ...

لو أنت بكأسي خَمْرَتُها
وانا ــ وأُراقُ أنا ــ جَمَم ...

لَتَخِذتُكِ لي فَلَكاً ...
وتُبَعْثِرُني وأبعثرُها النُجُم !

هل آنَ لِمن منها اشتعلتْ
فِكَرٌ أن يُشعلها القَلَم ؟

غَزّارةُ نبلٍ قد بُريت
بالسيف ورنّحها الشَمَمُ،

غُطّتْ في أيّ مِدادٍ ؟ قُل
في المجد وما بَنَتِ الهِمم !

ولو آنَكِ لي ... وضَمَمتِ عليَّ
يَدينِ ... لغلّفني الحُلُم ! ...

ريحانتان...

قَدَماكِ ــ خَلّيني وطيفَ مَنامْ ــ
رَيحانتان ... وقال زَوجُ حمام ...

في الرونَقِ ارتمتا فهل غَطَسَتْ
دِفلى تردُّهما وضجَّ خَزام ؟

أنا منذُ ما دَنَتا حَلَمْتُ بها
كفّي تُلملمُ نغمةً وكلام ...

قدماكِ قد حَكتَا حكايتَنا ...
أيامَ نحن تأوُّهٌ وسلام ! ...

طِفْلان والشُبّاكُ يَفصِلنا ...
يدري ونجهل اننا لِهُيام ...

حتّى اذا زَندي استطال إلى
عِبْرِ الحديد ... وانتِ ريشُ نَعام ...

وجزِعتِ ترتجفين ... وامتلأتْ
كفّي بِحُسنِكِ ... كثرَةً ولِمام ...

أُنزلتُ من قدميكِ في شَعَري
ودفنتُ وَجهي في جَميلِ قَوام ...

أوّاهِ للقدَمَين أينَ هُما ؟
فرَّ الحمام ... وجُرْحُ جُرحيَ دام !

الاثنان...

وَهِماً ــ ثُبْ يا قميصَ الزَهر واصْحُ ــ
وَهِمَا أنهما صُبْحٌ وصبحُ ...

يشرئبّان أنوفَينِ على
نَهَر البِلّور ... فالنظرَةُ جُرح ...:

انا ذا، مثلَكَ، قد أوجعني
اللَفْحُ ... وارتَحْتُ كأنَّ الحُسنَ لَفْح ...

وتهالكتُ على تلك الغِلالات ...
تمحوني الغِلالاتُ ... وأمحو ...

هل قَطفتُ ؟ ... أسألُهُما ... اسأل قُبلتي ...
رجعَتْ ... لكن من العِطر تَفُحّ ...

طابت الآهُ ! هل الشمسُ تَهِي
ملءَ حُقّين ؟ هل الوَهْمُ يَصِحُّ ؟

يا قميصَ الزهر والقهر، أبِنْ ...
ما تُرى أخفيتَ من نارٍ تُلِحّ ؟ ...

أنذا غَيرانُ ... باعِدْ مثلَما
باعدتْ كفّي التي ليست تَشِحّ !

ليس وقفُ الآنِ بالعنف اتئِدْ،
سكرةُ الإزميل، لو تَذكُرُ، لَمْح ...

أنا والقمر

يسألني هل أنا أنتِ...
مَنْ تُرى يُجيبُه، القَمَرْ ؟ ...

ومرةً يسألني : « أين
التي فرَّتْ من الصُوَر ؟ » .

أقولُ : « مذ صبحينِ ما زارتْ ...
وعنها الزنبقُ اعتذر ».

ــ أخائفٌ أنتَ ؟ ــ عليها لا.
ويا خوفي على الزهر ...

أجملُ منها موتُهُ بها
وقد غابتْ وما انتظر ...

أنا اذا شَدَّت عليَّ الطَرْفَ
من سِحْرٍ ومن سَحَر

أَحسَستُني الشمسَ أطلّتْ
ثُمَّ لا شمسٌ ولا أثر ...

ــ تُحِبُّها، يسأَلُ ؟ ــ لا قلتَ
ولا صيّرتني خبر ...

أُغنيّةٌ لي هِيَ، لا العُودُ
حكى أحلى ولا الوتر.

*

وأتجاهى بكِ، بالقامةِ ،
بالصبحينِ من حجر ...

أنا هذا

خبّرَتْني عرّافةٌ أنكَ الدربُ
وأني في الدربِ طابَ شرودي ...

صدَقتْ يا تُرى ؟ ظننتُ سنبقى
أنا موعودةٌ وأنتَ وعودي ...

ربّما حدَّثوا بنا في العشايا،
أو مررنا شذاً ببالِ الورود،

أو بنا ربّما تغنّتْ يماماتٌ
وطارتْ بالعُودِ ريشةُ عود ...

خبّرتْني عرّافةٌ أنني الحسنُ :
مُحيّايَ مطلَعٌ من قصيد !

أُغنياتٌ شَعري وأُدريه كالريحِ
على قامةٍ كشكٍّ الجريد ...

وأنا، في البزوغِ، سَوسنةُ الحقْلِ
تغاوتْ كسلانةً في الجرود.

آهَ منها الصباحُ، وانتحر الشوكُ،
وجُنَّ الندى على الأملود.

أنا هذا وزدْ وزِدْ وزد ... انا لا أوجد
إلّا إنْ كنتَ أنتَ وجودي !

إنيْ ولو صحَّ أنَّ زَنْدَك ناداني
وجِيدٌ منكَ انتهى فوق جيدي ...

ورماني الذي رمى فتنةَ الليلِ
وباهى حُقّانِ خلف بُرودي،

وتأمّلتُ رأسَكَ الصعبَ في كَفّي،
أشقى أقول : « يا معبودي ! »

لأمرتُ الوجودَ أنْ ضِعْ، ومن أجلِ
حبيبي ضِعْ وانوجِدْ من جديد !

خضراء عينين ...

عيناكِ، هل لي بِهما وعْدُ ؟
عيناكِ لا قَبْلٌ ولا بَعْدُ ...

أوهَمَتاني أنّني لُعبةُ الأخضَر ...
يُلهى بي ... ويُعتَدُّ ...

ويُغمَض الجَفْنُ على قائل :
ــ ما المَجْد ؟ ... مَرّي بهما مَجْد !

اللهِ يا أخضرَ مِ اللوز لا
مِ الورد ... فلينتحرِ الورد ...

وَلْيتأنَّ القَلَمُ المدَّعي
أنْ خَطَّ ما يَخفى وما يبدو ...

أرجوحتي هُما ... فيا أخضراً
أنا إلى دنياه مُرتَدّ ...

ويستَطيلُ الهُدْبُ بُعْداً إلى
الشمس، فتغوى الشمسُ والبُعْد ...

وينتهي شيءٌ من المنتهَى
في لفتةٍ تشتَدُّ تَشتدّ ...

تَلُفُّني ... أُقال أغنيّةً
طارت ... فللشِعر انا الحَدّ ...

*

عيناكِ ! يا حكايةً قصَّها
على الكنَار الغُصُنُ المَلْدُ ...

وَجَعْ

ضاحِكْتين ؟ ... رُدّي جَمَال شَفَهْ
انا ذاكَ عُودٌ هَمُّه قَصَفه ...

صَبٌّ أنا ... ومُكلَّف بِصِباً ...
فحذارِ مَدَّ يَدي ومُقتَطفَه.

مَرّي ببالكِ كَانَ يومَ غلا
مَيدٌ بِقَدِّكِ والهَوى عطَفه ...

مُذ صِرتِ أنت السَكْبَ صِرتُ أنا
مَن باعها الليلاتِ وارتشفه ...

باقٍ معي أَبَدًا ... ألا انذبحي
فوقي أضيّعْه وأكتشفَه ...

كالريح أنتِ أخذتِني ... وأنا
نغمٌ يُغرِّرُ بالذي عَزفه ...

وَلا تَعرِفِين...

ويا ليتَ ما بُحْتُ ما بحتُ ...
كنتِ بقيتِ بقَلبي ...

بقلبي ولا تَعرِفينَ ...
كفوحٍ من الوردِ صَعْب !

وكنت سألتِ ؟ « أنا مَنْ ؟ »
وأخْنُقُ صوتاً أُحبِّي :

« أنا أنتِ، أُهمِسُ سراً،
سماءٌ وحفنةُ شُهْب ».

وترتعشينَ أن ِ اسكُتْ
أُحِبُّكَ بُعدي وقربي ...

ـــ لِمَ البُعدُ ؟ كوني ولو كنتِ
زهرةَ شوكٍ بدربي.

كما الشوكُ في القلبِ شُكّي ...
كما الزَهْرُ في الريح ِ هُبّي !

*

ويسكُتُ ذاك الحِوارُ
كبرق ٍ سجا فوق سُحْب.

« أنا أنتِ » تمضي العصافيرُ
تشهَقُ ... تُغْرى ... وتُسبَى ...

بقلبي ولا تعرِفينَ
تعيشينَ أجملَ حُبٍّ!

الآلهة الصغيرة

كأنَّكِ الليلُ وأحببتُ أنا ...
عليَّ فالتقّي بهُذْبٍ وسنى.

عيناكِ لا القَهْرُ ولا الشهرُ مِنَ
الوردِ اذا أزهرَ سفْحُ المُنحنى.

لو أنتِ لي كُلّكِ لاشتلتُ به
الروضَ ... وطرتُ بالروابي والهنا ...

وبالجمال ... وبعينيك معاً ...
وقلتُ : « مِن هنا، نجومُ، مِن هنا ».

لكنّني أوّاهُ ! ليستْ ليَ مِن
حسنِك الا بسمةٌ بعضُ ضنى !

تغمِزني بطَرَفٍ من قَوسِها
وأنتهي ... وتنتهي معي الدنى ...

أنا أُحِبُّ ؟ ... ما جَرُؤْتُ بعدُ، لا
ولا انثنى من تحتِ كفّي ما انثنى ...

أقطِفُ ؟ ... أنتِ انغرسي تفّاحةً
على طريقي، أو تهادَيْ سوسنا ...

أو انهَدي صدراً وضُجي قامةً
ما كانت الرمحَ ولكنْ أفتنا ...

حتّى اذا مددتُ كفّاً قلتُ : « لا
لم أُغوِها .. هي التي كانت أنا ... »

خلّيكِ باقةَ زنبق ...

خلّيكِ باقةَ زنبقْ
بالحُلْمِ تَغوى ... وأَقْلَق ...

بيضاءَ ؟ قُوليكِ أبهى ...
لونٌ لهُ اللونُ يشهَق !

أُحببتُها زنَّرَتها
شريطةٌ تتحرَّق،

كأنّها معصمي شَدَّ
حين شَدَّ وأرهق ...

يا باقةَ الزنبقِ، ارضَيْ
عليَّ أو اتمزَّق.

اذا شَممتُكِ قال
العَرارُ : « واهاً ! » وأطرق ...

ومِلْتِ ... ما الخصرُ، ما النصرُ ؟
ما الكناريُّ زقزق ؟

يا رُبَّ خصرٍ هو الليلُ
بالرياحينِ يَعْبَق ...

يرتاحُ، يجتاحُ ؟ ما همَّ ...
بسمةٌ تتفتّق ...

تقولُ : « يا نُجمةُ ارمِي
بالجِسمِ ... يا جَبَلُ اعشق » ...

وما الهوى ؟ مطرحٌ مِن
غَمامةٍ فوقُ، تَعلَق ...

تضيعُ فيها يَدَا مَنْ
بعُمرِهِ يتصدَّق.

طفلٌ أنا، أيُّ طِفلٍ ...
احيا لِباقةِ زنبق ! ...



أَصْبو ! ... وفَقْري إليكِ يصبو
مِنِّيَ شِعْرٌ ... ومنكِ حُبُّ ...

قَبِلتِ ؟ قولي : « قَبِلْتُ »، أو لا
يعودَ يُغري الشُعاعَ هُدْب ...

لا الخصر مِن لمسة يغنّيّ
للريح، لا النهد يشرئبّ ...

جوعانُ، جوعان ... أُطعميني
أنا نجومٌ خبزي وشُهْب ...

نويتُ يوما لبعلبكٍ
وقفاً، وظلّت تَري[1] وتربو.

أآختُها أَنتِ؟ ... لا تغالي
لَأيُّ صعب عليَّ صعب!

ضجرتُ ... لا تَلعبا بِقلبي
لي انا، لي بالجمال لعِب

خلّيك منكِ ... اسكُني كتابي ...
احلى قصورِ الحسان كتُب.

---

١) تطلع ناراً.

أَزَلْ

منحوتُ دونتلُّو
أهواهُ لا أُمَلُّ ...

رُخامَ كرّارا، ألا
اخجَلْ ... وحدَهُ المُدِلّ

على الصِبا مِن كل مَنْ
مِن الصِبا تُطِلُّ.

رُخامُه ... بعضٌ رُؤى
فَجرٍ، وبعضٌ فُلُّ ...

مرّغتُ طرفي، لا عليه،
تلك تلك تغلو ...

وإنما على فمٍ
في ظِلّه يُهلّ.

ما حَجْمُهُ، الذي اذا
هاجمتُهُ أُذَلُّ ؟

أَقَلُّ مِ الآه، ومِ
الجمال لا أَقلُّ !

بيتُ قصيدٍ هو فلْيُقرأ ...
ويُقرأ نُبْلُ.

أقولُهُ مِن كلماتي
جُزؤُهِ والكُلُّ ...

وأنا ذاك السيف،
لا إلَّا له أسَلّ.

كم مرةٍ خفضتُ من
رأسٍ ... وكان يعلو !

أعبدُهُ كوثَنٍ
منحوتُ دونتلّو.

رُدَّني إلى بلادي

رُدَّني إلى بلادي،
في النياسِمِ الغوادي،

في الشُعاع قد تهاوى،
عند ربوةٍ ووادِ.

مِن هوايَ طِبْ وطيِّبْ
تُربَها ومن ودادي.

مرّةً وُعِدْتُ ... خُذني،
قد ذَبُلتُ من بُعاد !

إرمِ بي على ضِفافِ
مِن طفولتي بَدادِ،

نهرُها، ككفٍّ من أحببتُ،
خيِّرٌ وصاد،

لم تَزلْ على وفاءٍ،
أنا مِ الوفاءِ زادي.

خُبِّني هناكَ ... خُبَّ
الحبَّ جرَّاحاً فؤادي !

مَنْ أكونُ ؟ مَنْ ؟ وعِطرٌ
هبَّ من ثرىً جوادِ !

شِلحُ زنبقٍ أنا اكسِرْني
على ثرى بلادي ...

أقولُكِ مِن ياسمين ...

أقولُكِ مِن ياسمينْ
أغاريدَ لونٍ ولِيْنْ،

لو الياسمينُ يؤوهُ
كمَا النايُ، غِبَّ الأنين ...

كنهدكِ، ذاكَ الصباحيِّ،
أو كشموخِ الجبين !

كِلا العالِيَين ِ لطَرْح ِ
الشهور ِ، لجرح ِ السنين ...

شَبابُكِ طاغ ٍ، كحُبِّي،
أُجَنُّ به ِ وأدين.

وحسنُك، قولي أَلِلشكِّ
حسُنكِ أم لليقين ؟

أهُمُّ بمَسِّ قَوامِكِ
أو بعض ِ خصر ٍ ضنين،

فيُلوي عليَّ أن ابقَ،
أن ِ ابقَ عليَّ الأمين.

أنا الحُسْنُ يُعطبَ إنْ مُسَّ ...
لا تَتَعدَّ الحنين ...

يُشَمُّ، كما الفاخرُ الصَعْبُ،
ذيّالِكَ الياسمين ...

شمعتان وبعض كتب ...

ذَنْبي أَنا ؟ ما كان ذنبي ؟
أَنتِ التي أَحببتِ حُبِّي !

أَنا عِشتُ قربَكِ، لا بأزهاري
رَشقتُ ... ولا بقلبي ...

أَنتِ افتريتِ ... وُجدتِ ...
كُنتِ الحُسْنَ مشتعلاً بدربي !

أتذكّرين ؟ مساءَ زرتِ ...
فركتُ عيني ... لَمْ أُخبِّي ...

أنا قُلتُ ــ واكذِباهُ ! ــ
هذي الشمسُ هذي الشمسُ قُربي !

مُرِّي ببيتي اليومَ، بَيْتي
شمعتانِ وبعضُ كُتْبِ.

هو معبدٌ لكِ، قد يطيرُ ...
وقد يُغرِّبُ فوق سُحْب ...

وأنا أنا سكرانُ ... كأسي
أنتِ ! دُقّي بي وصُبّي !

انا عشتُ بعدَكِ، عشتُ
تحت أُصابعٍ كالشُهْبِ شُهْب

أو نظرةٍ هَمٌّ الحنان
وقامةٍ هيفاءَ سَكْب.

وسارْشقُ الدنيا بعُمري ...
بالربابِ ... بكل ربّ ...

لتطيبَ لا إلَّاكِ أغنيَةٌ
بها أُسبى وأَسبي ...

الشِعْرُ ؟ منكِ الشِعْرُ، مِن
نهدٍ كخَلْقِ الكونِ صَعْب !

سِجْنُ الآلِهَة

كيفَ باسمٍ سُمِّيتِ ؟ ... مَنْ يحبِسُ الريحَ
وعُمْري، في لفظةٍ، والنارا ؟ ...

كلَّ يومٍ، أنا أُشمُّكِ نِسريناً ...
أُعاطاكِ سكرةً أو دُوارا ...

أرتمي في ظِلال كفّيكِ ... أُستقصِفُ
بعضَ العَشْرِ الأصابعِ غارا ...

أَتجاهى بأن قدَّكِ صِنْوُ
السيفِ، أَشقى بهِ شقاءَ الصحارى ...

وأُمنّى بأنْ أُقَدَّ بهِ قدَّاً
واغدو بَريقَهُ والغِرارا ...

ما أُسمِّيكِ ؟ جنّتي ؟ دُنْيَواتِ
العِزِّ ؟ معنى شأوي الذي لا يُجارى ؟

قُبلةً لَم تُغنِّها بعدُ أشعاري
ولا حُلْمُ حالِمينَ سكارى ؟

فاذا ذقتُ ذقتُ ميْدَ الأماليدِ
عليها حَطَّ الهزارُ وطارا ؟

إسمُكِ ... اشتاقت الطيورُ لو احلولتْ
وصارتْ حُروفَهُ الأَبكارا،

ولو الرمحُ قالَ قالَ : « أَلا حُوِّلتُ
ــ عليَّ أخطُّهُ ــ غَزَّارا ».

ريحُ يا ريحُ، إنْ تُنادِي على الأزهارِ،
صُبحاً، سَمِّي بها الأزهارا ...

هذه الزهرة في شعرك ...

هذه الزهرةُ في شَعرِكِ
داريها ... فلا مُسّتْ بإصبعْ ...

قد تطيرينَ إذا أُلفيتِها شِعْري
على شَعْرِكِ شعشع ...

أنا لم أدرِ متى فتّحَ ما فتّحَ
... وانشكَّ ورصَّع ...

هيَ مِنّي لعبةُ البال ...
إذا تهلَكُ أفكاري وتهلع ...

أَنا، يا معبودتي الليلاءَ،
همُّ الأنجمِ انهارتْ تَوَجّع ...

أَبيضاً في أَسْودِ غَنّيتُكِ ...
اعتدّي، للكِ الأَجملُ أَجمع !

هائِمٌ حولَكِ، من غُفْلِ
الفَراشاتِ الرضى سِرْبٌ ملوَّع ...

لَهَبٌ في لَهَبٍ أَنتِ على الزَهْرِ
... حَذارِ السِربَ يُصرع ...

ليتَني في بعضِهِ، أُهتِفُ
بالنَقْلِ وباللمسةِ أَسمع ...

أنا ذا منكن ما مِلتُنَّ،
يا كُلَّ زهورِ الأرضِ، أضْوَع ...

لا مِنَ المِنْعةِ ما أَرصفُ،
بل مِنْ جيرةِ الحُسْنِ الممنّع.

هي قالتْ : « حُبّني كالزَّهْر،
أنقى الزهرِ، أَحلاهُ وأَرفعْ ».

ـ أيُّهْ، قلتُ ؟ الذي في الريحِ
ما انفكَّ على الروضِ موزَّع ؟ ...

لا بلِ التيّاهُ، غَيبُ الغيبِ،
شِعْري الصعْبُ مَنْ راعَ وروّعْ.

قال إن قال : « أنا جاوزتُها،
الآهاتِ واغلوليتُ مَدْمَع.

بعلبكُّ اللفظ بي ... ميّادةٌ ...
فاركع وخلِّ الحُسْنَ يركع ».

أُموتُ بكِ...

أُموتُ بكِ ... احلولي، كما الطيبُ في الورْدِ،
وزوري ولو بالوعدِ، يا أَجملَ الوعدِ.

مِن الحُسنِ ما لو مُسَّ باليد أجهشتْ
تؤُوهُ، كأنَّ الحُسنَ يُوجِعُ أو يُعدي.

تَأنَّيْ غِوى خصرٍ ولَفْحَ تَمايُلٍ
ولا تنحني في الريحِ تكويرةَ النهد.

أَنا لَيَ، لو تدرينَ، عينانِ ... لي يدٌ ...
تصُدّانِ أنْ كلّا ... فتفهمُ أنْ مُدي ...

ويَرشقُني من قامةٍ مثلُ نغمةٍ
لها كانهيارِ الليلِ وَقْعٌ على الزَنْد ...

أُضيعُ بها ... لا رنَّ في الريحِ، بعدَها،
سِنانٌ، ولا سيفٌ تلوَّعَ في الغِمْد.

فما أُنا باقٍ بي إذا الشمسُ صُوِّرتْ
مُحيّاً، وضجّتْ وَسْطَ مُهْمَلِكِ الجَعْد ؟

على مَهَلٍ، يا عُمْرُ، ما بعدَ حُبِّها
لذائذُ ... بَعْدَ المُنتهى ليس مِن بَعْد !

انا، الزمَنُ التيّاهُ خَمْسي تركتُها
عليهِ وقلتُ : « افترَّ، دِفؤك من بَردي ».

وُجودٌ ؟ اذا ما كانَ لا كانَ، همَّيَ
الجمالُ، عليه أُرغِمُ الفأل في النَرد ...

وكُوني كما شاءتْ أُصابعُ خالقٍ
أَنا بعضُها ؟ هاوي الهوى، ناقشُ المجد ؟

تعاليتُ. مَنْ ما كان في الوردِ جملةً،
شذاً وغِوى لَفٍّ، فلا كانَ في الورد ...

رُؤْيا

تُعاتبينَ ؟ ... عتابي أَنتِ والوجَعُ ...
وآآهةَ العُود مِن نائين ما سمِعوا !

أنا، غيابُكِ، إنْ أغرقتِ، آخُذُه
بالجَفْنِ، أخلقُني منه وأَبتدِعُ.

فكيف مرُّكِ بي طيفاً، لِمامَ كرىً،
وتهمسين : « أنا احلامُكَ الرُجُع » ؟

طوَّقتِني مرةً، خِلْتُ الربيعَ حكى
حكايتي لنجومٍ قُربنَا تقَعَ ...

مَن قالَها قَبلاً ؟ ... ضِعْ، يا وجودُ، معي
وروِّ كأسَكَ من كأسي وما تَسَع ...

ذكَرتُ ؟ ... أنتِ اذكري أيامَ طِبتُ أنا
أغنيَّةً عندها الأفلاكُ تجتمِع ...

أسكنتُكِ الصَعْب منها : ما الوجودُ وما
شدُّ الوجودِ بخيطِ الوهمِ ينقطع ؟

والوردُ أنثُرُهُ تعويذةً لخُطىً
مضيّعاتِكِ في شِعْرٍ بهِ ولَع.

انا الليالي كدُمْياتٍ ادحرِجُها
إليكِ ... فَهْيَ وأنتِ الكفُّ والوَدَع ...

وأَنْ تكوني وما صدَّقتُ ... لا تعِدِي
بأنْ تكوني ... كثيرٌ ذلِكَ الدَلَع ...

يبقى ارتحالُك في آهي ... أمُدُّ أنا
يدي إليكِ كأنِّي الأرضُ تندفِع !

أَنا وخصرُكِ ؟ ... خلِّيني سأحجُبُها
رؤيا بأنْ لستِ مِن رؤيا ... وأنوجِع ...

فجرٌ وفجرانِ...

أنتَ كذّبتَ. قلتَ لي : « الفجرُ واحدْ » ...
لِمْ أنا لي فجرانِ : ناهٍ وناهد ؟

أمسِ قد زقزقا ... سألتُ قميصي
عنهما، فاستحتْ وراحتْ تُباعد.

أوَ حقاً زارتْهما يدُكَ ؟ اصدُقْني
لعلّي نسيتُ وعدَ الواعد ...

كنتُ غَفْلَى عمّا فعلتَ. فعلتَ
السوءَ أم رُحتَ مِن بعيدٍ تُراوِد ؟

رأفةً بي، بمن تسمّيهما الفجرينِ،
لا تقسُ، إنْ تَزُرْ، لا تُعاند ...

حَذَّرتْني أُمي من المسِّ بالبلّور،
غيرُ البلّورِ في المسِّ وارد ...

نبعتا الوَردِ ليستا لِسوى الرؤيا،
فقرِّبْ يداً وظَلَّ الزاهد.

قُلْ، وعينيكَ، هل حلمتُ أنا ؟ هل
مِلْتَ فوقي كالياسمينِ الواجد ؟

ذاك ما همَّ. همَّ أنْ لا تكونَ ارتحت
للضوء جامحاً ذا ... وجامد ...

وملأتَ العينينِ منه ... وغنّيتَ ...
ونزّلتَه كتابَ فرائد!

ليَ سُؤْلٌ إليكَ : ردِّدْ بأشعارِكَ،
ردِّدْ، طِرْ بالهوى ... والقصائد ...

غيرَ إحدى : « فجرٌ وفجرانِ ». مزِّقْها
ولو أنّها الغرامُ الخالد.

النغم الأبيض

أحببتُهُنَّ ؟ بلى، لكنْ أتى النَسَمُ
يمحو، وها وحدَكِ الجُرحان والألَمُ !

هُنَّ الليالَى ... فَكأس ذي ... وتلك يَدٌ
صَبّتْ ... ونحنُ، أيا خَمْري، فَمٌ وفم !

خَلَقْتِني ! ... آه ما احلاكِ خالقتي
شُعاعةً عند ذاكَ النَهدِ ترتسم ...

سمِعتُ عن قدِّكِ الرنّانِ في حُلُمي ...
حقاً سمِعتُ أمِ استغوانيَ الحُلُم ؟ ...

لا، لا انطوى فوق زندي أبيضاً شَبِماً ...
انا سكرتُ وسُكْري الأبيضُ الشَبِم !

هواءُ، أهواكَ، قُلْ، هل قامةٌ نُقِشتْ
عليكَ ... فانتحرَ القرطاس والقَلمُ ؟

ما الشِعْرُ بعدُ ؟ ... وما الشَطْرُ المُدِلُّ على
شطرٍ ... اذا الخصرُ من عاليهِ يَنهدِم ؟ ...

لِمْ غرتِ منهنَّ ؟ ما فيهنَّ ملتفَتي
إلى الجمالِ ، ونُبلي أنتِ والشَمَم.

أنا الغماماتُ إنْ هشّتْ إليكِ ضُحىً
قلتُ : « آرعوي، زنبقُ الدنيا لها خَدَم ».

أموتُ لو أنا مجنونٌ وأرشُقَها،
بكلِّ وردِ بلادي، القامةَ النَغَم !

أنا ضِعْتُ بَين الزَهرِ والقمَرْ...

ـ أُحِبُكَ قلتِ، ازددْ وزِدني على الشِعْرِ ...
ورِفقاً بخصري عِشْ ومُتْ مُبْدِعاً خَصري ...

وكانت مساءً زورتاكِ، اسأليهما
بشَعْرِكِ ضيّعتُ النُهى أمْ على الصدر ؟

وواعدتِني، لا بُحْتُ. هل بحتُ ؟ هل درتْ
سوى اختِك السمراء مَنْ سِرُّها سِرِّي ؟

تساءلتُ : مَن أَشهى ؟ وغِبتُ مبدَّداً
كأنِّيَ، قُرْبَ الشمسِ ، أرنو إلى البدر ...

إذا غِرتِ منها جلجلتْ كلُّ نبضةٍ
بصدري تقولُ : « الطيبُ غارَ من الزَّهْر ... »

ومن أَنتما ؟ شطرانِ ، بيتُ قصيدةٍ
هي المُنتهى احلولى على أنمُلي العَشْر ...

باوَّلِها هَمِّي بأن أُخلُقَ الهوى،
كما أنا، كَرْماً خمرُهُ آههُ الخَمْر،

وفي الخَتْمةِ استنجادُ أُجمَلِ ما انتهى
اليه دجىً : كأسٌ تَطيبُ على الكسْر ...

نَزَلْتِ كتابي، لِمْ نَزَلْتِ وباقةٌ
بقربكِ، ترمي جسمَكِ البَضَّ في العِطر ؟

أَنا ضِعتُ بين الزهرِ والقهر ... فامنعي ...
لَوَحْدَةُ سَكْبِ الخمرِ من شَرَفِ السُكر !

إنسني...

حبيبَتي أُنتَ ؟ الا حُبّا ...
أمّا أُنا فاردُدْ ليَ القلبا !

أمسِ « أنَا أُنتَ » ؟ ... انسَها وانسَني
كلمةً مِن شفتي التَعبى.

وهل تُراني قلتُها ؟ هل تُرى
أسبلتُ فوق الدمعةِ الهُدْبا ؟

إنْ صحَّ أوجِعْني بتردادها،
أولا فلا جرَّحتَني عَتْبا ...

وقُلْ وقُلْ، علّي على ذكرها
ابكي البُكاءَ الطيِّبَ العَذْبا ...

تَعشق أَنت السهلَ ... دعني أنا
أُحِبُّ حُبّي الصامتَ الصَعْبا !

ما عدتُ، ما عدتُ ... فقم، يا الذي
أعبُدُهُ، نُمزِّقُ الكُتْبا ...

ارأفْ بي حُبُّكَ لي لاعباً
وقولُهم عنيَ : « ما أَغبى ! »

أنتَ، تَنَقّلْ أَنت من وردةٍ
لوردةٍ تفتّحتْ لُبّا ...

وأَنا أَنساكَ بأشهى ... أَنا
النِسيان قد علّمتُهُ الحُبّا !

أُحبّكِ

أُحبتُكِ لَمْ يدرِ الورْدُ ...
والعُقدةُ والشَّعْرُ الجَعْدُ ...

والزَنْدُ النازِلُ ... قلتِ الشمسُ
تَتالتْ وانسكبَ النَدُّ ...

لم تدري أَنتِ ... وقد تدرينَ
وأُوعدُ ... يخلَقني الوعد ...

حقاً أنا قلتُ : « سأنظِمُ فيكِ » ؟
كذَبتُ كذَبتُ ولا بُدُّ ...

شِعْري ونجومُ سماً وجمالُكِ ؟ ...
ويحي ! الكونُ لهُ حدٌّ !

أنْ أُغريَ فاكِ وزهرَ صِباكِ
ويُكتَبَ بالقلم القَدُّ ...

من يَحبِسُ في الكلماتِ الريحَ
وشيئاً أَقربُهُ البُعْد ؟

قلبي بعضٌ مِن أُغنيةٍ
لا قَبْلُ الحُسْنِ ولا البَعْد ...

غُلّي غُلّي ... ما كانَ المَهْدُ
أَلذَّ ولا كانَ المجدُ !

ما الشِعْرُ وحُسْنُكِ لم أَشربْهُ ؟
الشِعْرُ العزلةُ والبَرْدُ.

ويكونُ الكونُ اذا نَيسانُ
الخصر هوى ... وأَنا الزَنْدُ ...

خُبِّرتُ عنكِ ...

خُبِّرتُ عنكِ ... سكنتِ قال ...
كما الغمامةُ، بيتَ شِعْرِ ...

وقرأتُ بعضاً منهُ ... تيَّمني ...
ضممتُ عليهِ سِرِّي !

أمّا البقيةُ فانتست ...
ورقٌ بكى لِفراقِ زَهْرِ !

أنا ذا أُفتِّشُ ... هل عَثَرْتُ ؟
هل انتشيتُ بفوحِ عِطْرٍ ؟!

وتلوِّحينَ : « أنا هُنا ...
أنا عنكَ مِنْ وَلَهٍ أُسَرِّي ».

أوَّاه ! بيتٌ أنتِ فيهِ ،
أأكتفي منهُ بِشطرٍ ؟

أنساهُ ... أَفنَى في صَداهُ،
كما الضبابةُ غِبَّ فجر ...

يا ضائعاً من بيتِ شِعْرٍ ،
لُمَّ نفسَكَ ... لُمَّ عُمْري !

أنا أَنتَ، ما بسوايَ قصرُ
مليكةٍ ... أو سِحْرُ سِحْر ...

بعضٌ ؟ ... انا كجَمامِ كأسٍ
فاتّرِعْ ... أو لا فَمُرُّ ...

السِحْرُ بيتُ الشِعْرِ قُصِّبَ
صخرُهُ جمرا بجمر،

ويطيبُ تسكنُهُ التي
كالطيف أُكسو أوْ أُعرّي ...

الثلاثُ القُبَلْ ...

الثلاثُ القُبَلُ اشتقتُ إليهنَّ ...
عُودي، أُستعِدْهن طِوالا ...

كانتِ الأُولى اغتصاباً، مثلما
نقرةُ العودِ إذا مالتْ ومالا ...

آهِ والثِنْتانِ قَطْفٌ وجنىً
وتقاسيمُ تُداوي وليالَى ...

ما على ثغري ؟ أأعنابُ الضُحى
أَمْ ثواني العُمْرِ راحتْ تَتتالى ؟

قُبّةٌ شُكّتْ نُجَيْماتٍ رضىً ...
أنا أغتالُ النُجيماتِ اغتيالا ...

رُبَّ حبّاتِ جَمالٍ عشتُها
كنَّ فردوسيَ ... أو شيئاً حِيالا ...

أنا والكونُ ؟ ... دعي بل أنا والرأسُ
أرميه على صدري دلالا ...

غَزَلُ الكونِ قديمٌ، فاتركي،
أنا فوق القِدْمِ والحِدْثِ مَقالا.

بي، بقلبي، بالروابي انتشري
كأخيّاتي الفَرَاشاتِ الكَسالى ...

أنتِ آنُ الوَحْيِ، لا قبلُ ولا
بعدُ، أحلى ما انتهى الآنُ ضلالا ...

كلُّ بيتٍ من قصيد طافَ بي
طيفُهُ، ما كانَ إلَّاكِ جمالا ...

مَن أنا، والعِطْرُ من صوبِكِ مَعْ
ريشتي يجري ؟ أنا الشِعْرُ تعالى !

حَدِيثُ الوَرْد

تُرى كنتِ ؟ ... لقد طمأنَ
لا يَكذِبُني الوردُ ...

وعرَّجتِ على أهواءِ
زَنْدي ... وانطوى الزَنْدُ ...

صحيحٌ ؟ هذهِ لم يروِها
الآسُ ... ولا الرندُ ...

أنا الراوي ! ولا أذكُرُ
ما الصِدقُ وما الوعد ...

ــ لعوبٌ أنتَ، قال الوردُ،
صعبٌ مثلما الوجْدُ !

ــ أنا ؟ دعني أُغنِّيها
كما ما مادتِ المُلْد :

« بلى كُنتِ. اسألي شِعْري،
وشِعْري السيفُ والغِمْدُ،

فشطرٌ وحيُهُ أنتِ،
وشطرٌ أنتِ والمجدُ ! »

ويُخفي الوردُ من آهٍ
كجُرْحِ الطيبِ تمتدُّ،

يُغنِّي : « الحسنُ لا همَّكَ
وصلٌ منه أو صدٌّ ؟

ومَن كانتْ وما كانت،
لذيذٌ أنها البُعْد ...

وهَبْها خاطراً ... فاشربْ
على مَنْ لم تَكُنْ بعد ! »

كفى، يا وردُ، هل يُنسى،
وقد أوجعتُه، القدُّ ؟

صِباها ... الأنملُ العَشْرُ ...
وغضبانٌ اسمُهُ النهد ...

كما السكرةُ، لا لم تَعُدُ
سَكْبَ الوهمِ، لم تَعْد ...

لقد عُدَّتْ، إذا عُدَّتْ،
غرامي ... وانتهى العدُّ ...

رَقص..!!

أَضيعُ .. على ذراعِيَ لَيُّ خَصْرٍ ...
وأَرقصُ والرياحُ وأَنتِ قصري ...

إلى أَينَ الرحيلُ ؟ ... سلي شِراعاً
وراءَ جفونِكِ الفَرِحاتِ يَجري ...

أُجذِّفُ فوقَهُ ويداكِ طَوْقي ...
وأُحيا ـ من عبيرِهما بسِحر ...

على مَهَلٍ وقوعُكِ ! أو أُخلّي
عليكِ يدي تُبعثِرُ غُصْنَ زَهْر ...

فديتُكِ، لا انعطفتِ عليَّ. عُمْري
صِباكِ، وما تبقّى ليسَ عُمْري !

جمالُك لي، كما العنقودُ، قَطْفٌ ...
وكأسي جسمُكِ الداني، وخمري ...

وبَعْدُ هناك ... حيثُ له انتهاءٌ
رنينُ الأرض ؟ ... خلّيني وسِرِّي ...

أنا سِرّي كما الأطيارُ، تحيا
لنا وبِنا تموتُ، وليسَ تدري !

حَبيْتُكِ لي عروساً جمّعتْها
رياحُ صَباً نَزَلنَ ببعضِ عِطْر ...

فقلن له : « تُرى وُجِدَتْ ... وأنَّى ؟ »
فقال : « أظنُّ ... فوق جَنَاحِ نَسْرٍ ! ... »

على مَهَلٍ ... تململَ بي غرامي
يقولُ : « وقعتِ واستغواكِ صدري ».

وجُنَّ الرقصُ جُنَّ ... جرى شِراعي
يَخُطُّ، كثوبكِ الغجَريِّ، بَحري ...

ويغرَقُ بالحرير وبالتثنّي
وبالصُبحينِ : بلَّورٍ ودُرٍّ ...

ضممتُكِ خوفَ تَخطَفُكِ الثواني ...
وحولي الريحُ تقصِفُ أو تُعرّي ! ..

كأنَّكِ أُغنية ...

كأنَّكِ أغنيَةٌ ... وأُطير أنا ...
والزمانُ بنا يَركُضُ ...

بِخصرِكِ مبدأُها ... ثم تَعلو
وتعلو ... إلى هُدُبٍ يَمرَض ...

مُروراً بدحرَجة الكُرَتين
وراءَ القميص الذي يَنْهَض ...

كأنّك أغنيَةٌ ... كيف بُحتُ
أنا ؟ كيف تيّمني الأبيض ؟

أُخوذاً مِن النحر بعضاً ... وبعضاً
مِن الشمس زارتْه تَستقرِض ...

وَتيّمني أسودٌ من غدائِر
تُعطي الوجودَ إذا تَرفُض ...

فكيف اذا انحَلَّ ذاك الجمال ...
وكالليل ضَجّت له أعْرُض ؟ ...

ولم يَبق إلاّه شَعْرٌ يلُفُّ
عليّ ... فأُخلَقُ أو أُنقَضُ ...

لأنّكِ أغنيَةٌ أنا نايُ
النجوم على رَقْصها أُقرَض ...

وتُولَع بي أَخَرّ أغنِياتٌ
فألوي ... ومِن كِبَرٍ أُعرِض ...

لِبيتِ قصيدٍ أنا ... أو لحرفين
عنكِ ... هُما الرَّوْض إذ يُروِض ...

وحُسنُكِ آخذهُ بالجفُون
وأُغمضَ، لا مُفْلِتاً، أُغمض ! ...

بشِعْرِكَ قالَتْ لي أموتُ

ــ بشِعرك، قالت لي، أموت، فَهل تدري ؟
وشِعرُكَ لا لم يأتِ يوماً على ذكري !

لِبيضاءَ تجفوني ... بشقراءَ بعتَني ...
كأنّكَ لا تُشقي ... كأنّيَ لا أُغري ...

ــ معاتِبتي لا تُوجَعي، هُنَّ شَعَةٌ
بِليل ... وانتِ الليل يا أجْمَلَ السُمْر !

لقد قُلتُ ... لكن هَل دَرتْ أنّه لها
كلامي ؟ متى تدري الأزاهِرُ بالعِطر ؟

أمُرُّ عليها، كُلَّ يوم، مداعِباً
سِواها ... كما بالكأس يُفضى إلى الخمر ..

متى تَحطِم الخمرُ الزُجاج مبيحةً
سناها ... وأُسقى السِرّ من نَبعةِ السِرِّ ؟

لقد شَفَني أني أَلَذُّ بنَقرة
على العُود ... عودُ، استعْلِ واسبِقْ إلى النَقر ...

أنا بذراعي كَم أَمَسُّ ذِراعَها !
أمنّى بوَقْع الصدرِ، طاب، على الصدر ...

ويا أجملَ السُمْر، انزِلي في خواطري،
كأنّكِ رقْصُ الجِنّ، أو كَلِمُ السِحر ...

وقولي : « يَكُنْ ما كان ... حُسني أردتَه
كما غُصنُ زَهْرٍ ... لا تُخَلِّ على زهر ... »

نَقْش

ـــ عَن الذي أحِبُّه خَبّروا
ما عَن ربيعٍ خَبّرت أزْهُرُ ...

قالوا : رأى في نومِه أنّه
يَنقُش والصبحُ له مرمر ...

وأنني انا ... وقال انتهى
الحُلْمُ ... فَمَن يحزُر مَن يحزُر ؟

وخَبّروا أَنّ سقطت، غفلةً،
عن عُنُقي، حريرَةٌ تأزِر ...

وانّه من قَبلِ أن يُغمِض
العينين ... راحت يدُه تَغمُر ...

هل كذّبوني ؟ ... ما رَوَوا عنه لي
هل كان ؟ ... لا أذكُر لا أذكر ...

قال وجُنّت كفُّه تَحْطِم
الآنَ، تحدّى الغَدَ لو يَنظُر ...

تشاؤني ــ وقد تناهت غِوىً ــ
خطيئةً في الحُسن لا أُغفَر ! ...

عَلى كفّ البحر ...

... وانتِ على بعض زندي الشِمالْ
وزورقُنا مُثقَلٌ مِن دلال ...

يَسيلُ مع المَوج، يَقلَق للريح،
يَسأل : « هل نِيل ما لا يُنال ؟ »

رنَوتِ إلى شفتي تَهمُسين :
« أُحِبُّكَ ... ذُقْ قُبلاتي الطِوال ... »

وصِرنا، ونحنُ بِعادٌ عن الشَطّ،
اغنيّةً غرَّبتْها الرِمال ! ...

انا وذراعاكِ والقُبلات
وزورقُنا المستَلِذُّ ارتحال ...

وغِبَّ تَفَتُّتِ شمسٍ على الأفْقُ
قلتِ الصلاة انتهت بابتهال،

ودحرجةٍ من أتِيٍّ بعيد
كليلٍ، وصوتٍ كهدٌ الجبال،

شَددتُ عليك فقُلتِ : « لئِن متُّ
زُرْني هُنا أو حِيالَ حِيال ...

وقُلْ :«كُنتُ في قَلبها البحرَ والسِحرَ،
كُلَّ صِباها وكُلَّ الخيال ».

ورحتُ أُغالبُه جبلَ المَوج،
آناً أُزيل وآناً أُزال،

يُكسِّر مني ... أُكَسِّر منه ...
كأنّا ظِلالٌ محتها الظِلال ...

ولو تعرِفين الذي دار في البال ...
يا خوفتا أن يُمَسَّ الجَمال !

طويتُ الزمان أُروِّع بحراً
يقول : « انا دولةٌ لا تُدال ».

فَيَجبَهُهُ زورقٌ بالجواب :
« عتوٌّ ؟ بَسطتُ العُتُوَّ مجال ».

نهرتُهما البَحرَ والزورق الصعبَ :
« هل تنظران ؟ » فكفّا سِجال ...

لقد أدركا أن بِنتَ «إلسِّي»
تَنَزَّهُ ... فَلْيَمتثِل كُلُّ عال !

أجملُ منّي!..

ـــ مَرَّ. ففحَت وردةٌ في السِياجْ
ـــ « أجملُ منكِ »، قال لي ... ثم عاج

يَركُض ... ظنّني غضِبْتُ ... استَرِدْ،
يا طِفل، راجٍ انتَ ما القَلَبُ راج.

اتشتهي الورْدَ ولمّا تَزَلْ
بِعُمرِه ؟ ... مُرْهُ يُطِع وهوَ سَاج.

غمامَةً اعيش ... لكنني
عند مِياج الوَرد أغدو زُجاج ...

تَكسِرُني إن شئتَ او لم تشأ ...
نهدي له إمّا تَمُرّ اختلاج ...

يُشرِقُ كالشمس ... فَقَرّب يداً
واملأ ... ولو سُدَّتْ عليك الفِجاج ...

يُطِلُّ ... لا يحبِسُهُ حابِسٌ ...
ما الوردةُ احلولت ... وما الضَوءُ ضاج ! ...

قد سَحَرتْكَ ... اسنَح وذُقني أنا ...
لولايَ ما كان لزهرٍ رواج.

خصرٌ كما أغنيّةٌ، مُعنِقٌ
كما الصِبا، شَعْرٌ كما البَحرُ ماج.

تقطِف ؟ فاقطِفني. لأجلي أنا
قالوا المجاذيفَ وخطُّوا العَجاج !

وَعد ...

قلتِ « أجيءُ »، قلتِها أذكُرُ ...
هذي زوايا بيتِنا تُزهر !

وقَمَرُ الورد على مَقعدي
يَسألني : « متى متى تَحضُرُ ؟ »

وزنبقٌ مداعبي : « قد سَلَتْ ... »
يا زنبقُ اهدأ، علّها تُعذَر ...

قلتِ : « أجيء »، لَمْ يزل مِسمعي
يرِن فيه وعدُكِ المُسكر

بأحرُفٍ هَجّأتُها حافظاً
أغنيّةَ تطير بي ... تَسحَر ...

مذ لُفِظت فرَّت يدي من يدي
تَخْبَأها في أضلعي ... تَأسِر ...

تقول : « نَستبقيكِ رَهْناً ... فإن
وفَتْ فقد نعفو ... وقد ننظُر ... »

الوعدُ يبقى الوعد احلى الهوى
وَفَوا به يوماً ام استَكثَروا !

غُصنُ اللوز

سَحابَةَ عُمر الورد كنتِ على صَدري ...
وكان دجىً ... والزَهر يَشهَقُ للزَهرِ ...

وكفّاك لي مُلْكٌ ... أموت من الهوى
وأحيا ... ويُمضَى بي إلى آخِر الدَهر !

أتُوق إلى عينيكِ أغرَقُ فيهما
فتأبَين ... هل إلا اخضرارُهما عُمري ؟

تَنَهُّدَةٌ مِن ثغرك اشتَقْتُ وَقْفَها ...
فأومأتِ ان كلَّا ... فماتَت على الثَغر !

وأين أنا ؟ ما زِلتُ مَجنونَ عِطْرِها
الا لا تَرُدِّيني إليَّ مِن العِطر ...

لِيَ المَجْدُ ! إن الحُبَّ فِيكِ يُحبُّني،
اما غِرْتِ منه سكرةَ الخمر بالخمر ؟ ...

إلهة ، ضِلّي بي ضَلال أصابعي
بِشَعرِكِ ... بالمجدولتين من الشَعر ...

باغنيّة يدعونها الخَصْرَ ... جُمِّعتْ
تجمُّعَ غُصنِ اللوز في ذلك الشهر ...

*

وتَنهبُ هاتِيكَ الطريقَ ركُوضةٌ
بِنا، قلبُها مِن جامحٍ ومن الصَخر ...

أقولُ لها : « لُفِّي الدروبَ ... لعلّني
أقبِّل منها الثغرَ في المفرِق الوَعْر ...

لقد بادَلتْني الصَعْبَ : تُسكِنُني غِوى
قَوامٍ، هو الدنيا، وأُسْكِنُها شِعري ».

سألتقيكِ، يا غريبةً كأشعاري...

سألتقيكِ، يا غريبةً كأشعاري ...
وكالأجراس في قَوسِ الفَلَكْ،

ويا هَوى الجَناح والجَناح صفّقا
على الأفْق، ويا قلبي المَلَك.

قد وَعَدتْني بكِ نجمةٌ، لها
حكايةٌ تُشعِلُه قَلبَ الحلَك !

لا كَذَبتْ ... هل وُلد الكون ؟ ... وهل
قلتِ له : « يا كونُ، حسني زلزلكْ » ؟

كأنّني سمعتُها ... كأنني
خُلِقتُ مذ قلتِ : « تَمَنَّ، انا لك ».

ضِعتِ به ... ام بكِ قد ضاع الجمالُ ...
أم بمجدولتِك الجذلى انسلك ؟

حَبيتُهُ من أجلِكِ المَجدَ ... حببتُ
السيف والطَّعْنَ ولذّاتِ الهَلك ...

فمن أنا بعد ؟ أدَفْقٌ من أريجٍ
فَحَّ ام ضَوءٌ بِعينيك ألك[1] ؟

أم بيتُ شِعر شَفتاكِ انشقّتا
عنه بـ « يا اوجعَتنا ... ما أجملك ! »

---

١) أبلغ الرسالة.

إلى غدٍ؟ ما هَمَّ ... يا جُرْحَ الهوى،
جُرْحَ الهوى، وسِّعْ بقلبي منزِلَك !

غابةُ الذهَب

مَعَ العشايا، مَعَ الأغنيّة العَجَب،
اقبلتِ من نَجمةٍ ... هل أنتِ من كَذِب ؟ ...

نزّهتُ حُسنَكِ عَنها، رُغْمَ أنكِ لي
ضَرْبٌ من السُكرِ باقٍ بعدُ في العنب ...

انا تلمّستُ شَعْراً منكِ مُنتشراً
كشعشع الشَمس ... كالأشعار ... كالأرَب ...

عَلَّي أصدِّقُ. هل صّدقتُ ؟ هل رَجَعتْ
اصابعي بيقينِ السِرّ لم تَخِبِ ؟

أوّاهِ مِن شَعَرٍ مَرَّغتُ مُلتَفَي
به ... أضيعُ كما في غابةِ الذهب ...

لئِن صحوتُ اسألي عنّي، أبَعْدُ انا
باقٍ انا ... ام مَضَت بي خُصلَةُ اللَهَب ؟ ...

هامٍ عليَّ ندىً ... حَقّاً تُراه ندىً،
ام انجُماً سكَنت في ذلك الهُدُبِ ؟

متى تَدَلَّى عليه الشَعْرُ يَحجُبُه
قولي : « انتهى حَبَبُ الكاساتِ » ...

إغراء

لقد مرِضَتْ قال ... فاَقرأْ، حِيال
السرير، قصائدَ لمْ تُكتَبِ،

فشَطْرٌ من العُقدة المُشتهاة
على الشَعْر ... شمساً على مغرِب ...

وشطرانِ من شاهقين وراءَ
القميصِ ... ضَلولين كالأشْهُب ...

مُصَغَّرُ صِنّين هَنَا ... وهَنَا
مصغرُ حَرمونَ لم يكذِب ...

ومِن رَمْيِ بعضِ الأُصابع، مَطْلَعُ
اغنيّةِ حُرَّةِ المَذهب،

وتَلْعبُ بالقلب لُعْبَ الخَواتِم
بالعُقَد الطَّيّع الخُلّب،

فإن قلتَ : « آهِ »، أجابت : « على مَ
ولم اغوَ بعدُ ... ولم أَلعَب ... »

ومن عَطْفَة الخَصْر، تحتَ الغِطاء،
وإيماءَة الساق أن قَرِّب ...

خِتَامُ قصيدٍ، تقول يدُ
السِحر أهوتْ عليكَ ولم تَضرِب.

فَمَنْ أنتَ بَعْدُ، وقد طوَّقتكَ
الذراع وصِرتَ مُنى المطلب ؟

غداً إن رجَعت سأسألُكَ السُؤْل :
ـــ مِن أين ؟ ... من أيّما كوكب ؟ ...

متى العرس؟

ـــ وعلّمَني ياسَمينُ القَناطر
عندكَ كيفَ أحِبُّكَ كيفْ ؟

« كفى أن تَضوعي ويَنْهلَكِ الفجرُ،
قال، وتَسكرَ ليلةُ صيف ».

وها انا ذي لم أزِدْ ... لم أبُحْ ...
وقُربَكَ، عِشتُ كأنّيَ طَيفْ.

فَهبْنيَ عِطراً — وإنّيَ عِطرٌ —
ألاَ شُمَّ ... حيفٌ توانيكَ حيف ...

كَفَرْتُ به الياسمين وها أنا
أُغريكَ ... كالطَعْن يُغريه سيف !

تعالَ وكُن ضَيفَ زَهْري ... ولكن
اذا انتَ بعثْرتَ لا تبقَ ضيف ...

أُدَّعي أنّي بعَينيكِ...

أدَّعي أنّي بعينيكِ وُلِدْتُ ...
أأنا الشمسُ انا حتى عُبِدتُ ؟

يا خُذيني مَعَ هُدْبٍ ضاربٍ
فوقُ، إن قالَ : « زِدِ الأنجُمَ » زِدتُ.

كان لي من خَطِّ عينيكِ على
الأرض أن زُلزِلتُ كالأرض ومِدْتُ.

لي هُما إيوانُ كسرى وعلا ...
وهما لي بعلبكٌ وصَعِدْتُ ...

مَلِكٌ ؟ لا إنّما العِطْرُ انا،
منذ ما كنتُ، إلى الوردِ رُدِدْتُ ...

وأنا للناس سِرُّ الكاس، بي
سَكِروا وَيحْي ! وبالسكر وُعِدتُ !

أدّعي أني بعينيكِ وُلِدتُ ...



إلهةٍ، لو أنا سَيفٌ
وانتِ عليه بَريقٌ !

إذنْ لَشهِدتِ الرياحَ
تغاوت بضَربي الأنيق،

اذن لفُتِنتِ بطَعْنٍ
كنظمِ القَريض عريق،

وشَكُّ الظُبى، في النحور،
لذيذٌ كرَشْف الرَحيق !

ولو أنا مِلْتِ عليَّ
كما الياسمينُ العبيق

لكنتُ، إلى قِممِ المجد،
كنتُ شَفَقْتُ الطريق.

ولو أنا طارَ بنَصلي
سَناكِ البهِيُّ الطليق.

لَميّلْتُ قُبَةَ فوقُ
وانزلتُ نجماً صديق.

بما علّمتني السيوفُ
وَفيتُ خلوقاً خليق،

أزيدنّها شرَفاً
كإزارِكِ هذا الرقيق.

إلهةِ، لو أنا سَيفٌ
وانتِ عليه بريق !

خَلْفَ السَّرابِ

قُصّي حكايَتنا على الوَرْدِ
وعلى العَرار يَهُبُّ من نَجْدِ

قولي تَعاطَينا كؤوسَ هوىً
يا طيبَها ... لكن على بُعْد ...

رسُلٌ واوراقٌ تُدبّجها
آهُ الوداعِ وغَصّةُ الوعد !

حتى اذا رَقَّ الزمانُ لنا
ورمى بنا خَدّاً على خدّ،

وعطفتُ خصرَكِ قبلَ ما وَقعتْ
دنيا — وما الدنيا ؟ — على زندي ...

عاجلتِني : « دعِ أو أجرّدَهُ
مِن خنجرِ مُتنَطِّقٍ قَدِّي،

واعدتُهُ لا سُلَّ يثأر لي
مِ الحب الاّ شُكَّ في نهدي ».

بَينَ الرسائل ما شَمَمْتُ بها
أنْ فلّةً عَطَفَتْ على رَند،

لا لا تفضّي الختْمَ ... قِصتّنا
عِطْرُ العُطور ... وفَوْحُها يُعدي ...

باقٍ ببالي ...

باقٍ ببالي انتِ والزيزفونْ
وقُرصُ شمسٍ ضائعٌ في الغُصون.

تَذَكّرين ؟ ... الوردُ يُغري بكِ
الوردَ ... يَقول : « اغمُرْ وعِش في ظنون ...

هُبَّ على الدنيا بها، إنها
الدنيا ... اغترابُ الحسن ... عَوْدُ السكون ... »

تَذَكّرين ؟ النهرُ يَغوى بنا،
شَريطةً من فِضّةٍ او فتون،

وأنتِ مِن فَوقِي كما نجمةٌ
لم أدْرِ هل اقطِفُها، هل تَهون ؟

حتى اذا طَويتُكِ احلولتِ
الأعناب... ما سُكْرُ الجنى ؟... ما الجُنون ؟...

تَذَكّرينَ؟ يا لَوَهْمي بِأن
كنتِ ... ولا كنتِ ولا مَن يكون ! ...

غَيْرَةُ الكِنار

مُرَّ على زَهْرِ الدار، يا نَسَمُ،
ولا تَكَلَّمْ او تسكَرَ الكَلِم ...

بَينَ غصونٍ ، إزاء نافذةٍ ،
غُلَّ ... وأهلُ الغصون ما عَلِموا ...

علّكَ تدري ما قصَّةٌ حُكِيَتْ ...
ما قُبَلٌ طِبْنَ ... ما فَمٌ وفَم ...

هل حَجَرٌ، عندَهُ فرشتُ لها
زندي، اندرى ؟ كيف يَندري الحُلُم ؟

كان الكناريُّ، منذُ أُقلقَهُ
الأصفرُ في الثوب، خانَه النَغَم ...

فراحَ يُخبر ... ما هَمَى بَرَدٌ
عليه يُسْكِتُه ... ولا دِيَمُ ...

ــ فسطانُها، قال، مزَّقته يدي ...
فسطانُها الأصفَرُ الشَجِي الأَلِم ...

واليوم أوّاه ! كُلّما سَمِعَتْ
طيراً على الأيْكِ شَفّها سَقَم ...

إنّي لأنوي بكُلّ اصفرَ م ِ
الاطيار شَرّاً ... إني دَمٌ ودم ...

ــ هاكَ الكناريَّ ... ــ لا، دعيكِ يَدي،
دعي ... ولا مُسَّ ... إنه حَرَم !

في الضوء منحوتان ...

في الضوء منحوتان ما اجملا ! ...
كأسُ الطِلا هَنّا ... وهَنّا الطِلى ...

وراء شَفّافٍ كما الريح، لا
الّا هُما الحسنُ تعالى ولا ...

مَن ألهَمَ الأزميل ؟ من بَرَّر
الشهقةَ في الزنبق ؟ من زَلزلا

بعضَ النجوم ؟ اعذوذبي، يا صَبَا،
وشَدّدي دنيايَ أو ترحَلا ! ...

هذان ما هذان ؟ ما خَلْفَ هذا
الثوب ؟ أن أحيا وأن أجهَلا ...

رُبَّما...

.:. وكذَّبتِني ليسَ هُدْبُكِ هذا
اصطناعاً ولكنه خَطُّ رَبْ !

« مدى موسِم الورد، قلتِ، استَمرَّ
يُضيفُ، يُحَوِّر، يُغري العَجَب ... »

صَدقتِ ؟ انا لا أُصدِّق، هُدبُكِ
صعبٌ كخَطِّ النَدى في اللَهب

ويا سفَري فيه صوبَ شَفا الأرض ...
بَحراً تَغوَّر بي واشرَأب ...

وأَنزِلُ شَطّاً، هنالِكَ، نَسْياً ...
اضيعُ بِجنّاته وأُحب !

بِهُدبِك ... قولي لهُدبِك ... هل
صَدَق المُدّعي عَودةً ام كَذَب ؟ ...

غدائر

على دَفتري أنْ حَبيتُك ... مَن قال ؟
مَن خَطّها كِذْبَةَ المُفتري ؟

أنا لا أصدِّق ... كانَ محيَّايَ
في الشَمس ... في لُعبَةِ الأدهُر ...

أدور .... وتَقطِفُني أنجُمٌ
وتذوقُ ... كأنِّيَ من سُكّر ...

وتضحك لي لستُ اعلم مَنْ ...
وتَهُبُّ عليَّ شذا أَزْهُرِ ...

كأنَّ الوجودَ وغيرَ الوجود،
بكفي، غدائرُ من أشقرِ !

أنا انا أجدُلُها ... وهي تجدُل
حُلْمي ... معَ الذَهَب المُندري ...

حَبيبُتُكِ ؟ مَن قال ؟ هذا الصباحُ
سأسأله علّه مُخبِري

بأني أرتميت على مَوجَتَينِ ...
وقلتُ لإحداهُما : « أُبحِري ...

بِحاري انا قُبلةٌ، مبزَغُ
الشمس منها ... ومنفرَطُ الأعصُرِ ... »

*

وأكتُبُ أكتب ... شِعْرٌ انا أمْ
مبعثِرُ كَونٍ على دفترٍ ؟

أُصابع

مهلاً، أصابعَها، لم يَبقَ في الجَلَدِ
سِوى شُعاعٍ من الشَفّاف مُنعبدِ !

بِكُنَّ، بالعُقَد اللُدْن الطِوال، ثوَى
وهْجُ المساء وصوتُ الطائرِ الغرِد.

رِفقاً بِملتمِسٍ أطرافَكُنّ وقد
مادت به سكرةُ الصاحي ... ولم تَمِد ...

بالروح أنتُنّ، لا عَظْمٌ ولا جَسَدٌ
والحُلم يَقلَقُ بين العَظْمِ والجسد.

لقد هَمَمْتُنَّ بي ... هَمّ الصَبا نَسمَتْ
بالورد، بالغَيّ، بالأغنيّة البَدَد ...

رِفقاً، اصابعُ، لا بُحتُنَّ او ولِعتْ
بُعَيْلَبَكٌّ ولوعَ النَهْد تحتَ يدٍ ! ...

أَقُبْلَةٌ؟ بَيتُ شِعْرٍ؟

أَقبلةٌ ... بيتُ شِعرٍ ؟ ... ما لها النسَمُ
تَغوى بها ويَطير اللونُ والنغمُ ؟

هذي، التي، مُذ رَمَتْها عَن أصابِعها
إليَّ، أزهرَ وردٌ وانتشت أكَم !

منحوتةٌ مِن ضحىً أو بعضِ زقزقةٍ
مِن طائر لم تَقُلْ ما شَكْلُه الكَلِمُ ...

إذْ خِلتُها انفرطَتْ في الضوء، قُلتُ له :
« ضوءُ، استلِذَّ كما لم يَستلذَّ فَم،

غداً سأُغرِقُ رأسي فيكَ، أَنشَقُها
كالعطر احطِمُه حُقّاً وأنحَطِم ! »

كفى ... كفانيَ أن أُوهِمْتُ انّكِ لي
يا قبلةً خطرت ثم انطوى الحُلُم ...

النسمة الرسول...

تَمُرّ بي نسمةٌ ... « مَن أنتِ ؟ ما الشُعَلُ
نَقلتِها عن غَواليهِنّ ؟ ما القُبَلُ ؟ »

فتستطيبُ سؤالي. أهْي عارفةٌ
أني الجريحُ، وجُرحي الأعينُ النُجُل ؟

وأختِ اربعِ شُقرٍ لم أرِقَّ لها
تقول غلطةَ شمسٍ شَعرُها الهَمَل ...

سألتُ عنها : بكَتْ ؟ لا لَمْ تزل حُرُماً
تلك الدموع وصعباً ذلك الغَزَل !

حتّى اذا أُهْتُ آهتْ نَسمتي لُطُفاً
على شفا شَعَري تأسو وتشتمِل ...

ـــ ماذا ؟ آصدُقيني. فتسترخي على أذُني
تقول : «اسرفتَ، يا قاسي، متى تَصِل ؟

كلَّفْتَني هُنَّ يأساً ألتقيكَ به
وبعدُ سارزتَني : « إنَّ الهوى أمل ... »

عِلَلُ شَعْر

لو ـــ ولو شَفَتْ عِللا ! ـــ
كنتُ شَعْرَكِ الهَمَلا ...

لاندريتُ أُغنيةً
هَمَّ أعيُنٍ ... وطِلى ...

كلّما به سَكِرتْ
نظرةٌ حلا ... وغلا ...

وانهمرتُ شمسَ ضُحىً ...
قال ... أوجعتْ طَفَلا ...

ضيُّعت على نَهَرٍ،
قُبْلَةً ... خذي قُبَلاً ...

انتِ، يا هَوى شَعَرٍ
طار في الهَوا شُعُلا ...

قُلتِ لي : سيجرَحُهُم
بُرغُمي وما اكتملا ...

ظَلَّلته مُذْهَبَةٌ
مِن ضُحىً إذا انجدلا.

نافِرٌ على كِبَر
قائلٌ : عِموا غَزَلا ...

يَهُبُّ حُسْنُكِ في قَلبي ...

يهُبّ حُسنُكِ في قَلبي فاختَلِجُ،
كأنني مَرْجُ وردٍ في الضُحى أرِج ...

هذي الغَدائرُ تُشقيني وتُذهِلُني،
هُلّي بها ... إنها شَمسي التي تَهِج ...

ثِنتانِ منها هُما سِلكان شدَّهما
بالمُنتهى وبِشيءٍ، بَعْدَهُ الثَبَج ...

مُعلَّقاً بهما أرجوحتي ... فأنا
أعلو وأعلو وحَولي تُطفأ السُرُج ...

متى أعود ؟ ابذُلي هذي الغدائرَ لي،
ومِن قَوامِكِ فليلطُفْ بِيَ الغُنُج ...

قَوام...

أُحِبُّه، أُحِبُّ هَذا القَوامْ
مُمتَشَقاً ولا امتشاقَ الحُسام !

يَلفِتُ بالَ البَطَلِ احلولت
القُبلَةُ في ثغرِه وَرقَّ المَرام.

أُحبُّه لونُ الوغى لونُه،
فهْو اصطكاكٌ طاب وهْو اصطدام.

ومرةً يشِفّ شَفَّ الطِلا
في الكأس، والفتنة حتّى الجَمام.

خُذْها بعين أو بأذن ... فما
الا بِوَهْمٍ يؤخذ المستبهام.

ومرّةً يضيع فهو الهَوى ...
زهْرُ الأزاهير ... غرام الغرام ...

نديّةُ العطر عَشيّاتُه؟...
لا وَهْو روحٌ في العَشيّات هَام ...

إقْبِض عليه ... مُرَّ في ظِلّه ...
خُذْه كلذّات الكَرى، كالمنام ...

أُحِبُّه اغنيّةً بعضُها
نَارٌ وبعضٌ نفحةٌ من خَزَام

مَزْجٌ كما من الصلاة الرِضى
تعلو، ومن شَكّ الرماح الحَرَام.

أجمَلُ ما قَسّم عُوْدُ الذي
كُلِّلَ بالغار ... وأُبلى ... وضام ...

أنا اذا تُذلُّني قامةٌ
منحوتَةٌ من الغَمى[1] والغَمام

حَسبِيَ أنْ، في بعلبكَ، انحنَتْ
للأعْمُد الهِيف جِباهُ العِظام!

---

1) البِتر

ساعة الثلاث عشرة

ـــ غَنِيّةٌ دنيايَ بالطيبِ،
بما أنا، بِجَرعتَيْ كوبِ ...

تلألُؤُ الثَوب عليَّ، وأَن
أَحيا، وكَرْمٌ غيرُ مكذوب ...

اجملُ منها نَظْمُ بيتٍ من
الشِعر على ضَمّةِ محبوبي ...

نَهدي لَهُ ... يَملأُ منه يداً،
والآخرُ اصفَرَّ كمعطوبِ ...

وأشتهيني تحتَ أسنانِه
إجّاصةً قال لها : « ذوبي ... »

هُموم

نَزَلتِ، وشَعرُكِ احلولى وثارا،
نَزلتِ على يديَّ ندىً ونارا !

الا مِن أين ؟ مِن نجمٍ غَروبٍ،
غروبٍ والنجومُ به سكارى.

وقد غلغلتِ في زَهَرات حوضي
فمِلنَ جوىً وميَّلْن الجِرارا ...

انا لم أبقَ ما أنا، أرجِعيني
لآلئَ حَولَ زَندِكِ أو سِوارا ...

حَبَبْتُكِ مرَّة، افلتِّ منّي !
حببتُكِ ضِعتِ في قَلبي مِراراً !!

لَيليَّة

للليل سِرٌّ يناديني فأنهمِرُ
على الوجودِ كأني العُود والوَتَر !

أحيا، فتَلتفِتُ الآفاقُ تَشرَبُني ...
ولفحةُ الريح ... والأشعارُ والسَهرُ ...

أُحِبُّها هذه الدنيا، فأُجْمِلُها
ببيتِ شِعر كفَوْحِ الورد يَنتشر !

حُلمٌ بِحُلْم أنا، بُعْدٌ تَعيش به
أبطال كُتُبٍ، وشطٌّ صخرُه القمر ...

يَقرأنني فيقُلن : « السهلُ ضَجَّ جَنىً
ومشتهىً، وكحوضٍ ازهرَ الحَجَر ! »

حِكايةٌ، يا انا، قد قَصَّها غَجَرٌ
لِطيِّبين فقالوا : « ليتَنا الغجر ... »

بها العُتوُّ، بها وقْعُ القَوام على
زَندٍ، بها شَفَةٌ تَسقي وتعتَذر ...

تقول : « خُذْني وخُذ صُبحَين، قَطْفُهما
ما حَرَّمَ اللمسُ ... لا ما حَرَّم النَظَر ... »

وجعُ الدُلْبِ

لا تمُرّي، هذا المساءَ، على الدُلْبِ،
انتهى امسِ — وانتهيتُ — كتابي !

أنا انزَلتُ فيه مَرَّكِ في الروض،
وكيفَ احلولَتْ ورودُ الروابي.

مَن عليها طَفَرْتِ ... خِلْتُكِ مِن رفِّ
فَراشٍ او مِن هُبوب ضباب ...

وأنا ساكني سُؤالٌ كما الجَرحةُ :
ــ مَن انتِ ؟ خَمرتي أم سَرابي ؟

عِبْرَ غابٍ انا ... وتُشعِلُني جَدُولتاكِ
اشتعالَ سِرِّ الغاب !

كُلُّ سطر كتبتُه، لكِ فيه
ما لِحُلْم العُنقود بالأنتخاب.

حَدِّثي الذُنْبَ إن رجَعْتِ اليه،
واذكريني له باطيبِ ما بي.

واذا لاحَ في كِتابي سؤالٌ
لا تُجيبي، يا غَصَّةً في الجواب !

فهرست الكتاب

خماسيات الصبا

الطبعــة الاولى ١٩٩١

إعْتَبْ على الوجودْ

قل: لِمْ أردتَني يدا

تَبْخَلُ بعد جود ؟

لِوخزِ شوكها اعتدى،

إعتب على الورود

أَجْمَلُ ما يُفتدى

عُمْرٌ سَما عَن لَوْمْ،

في الغَد باقٍ دَوْمْ ؟

شُدَّ اليكَ الغدا

مُتْ عنه مُنذُ اليوم !

إن سئموا فأنت لا

أو يغمُرَ الأرضَ سَأم

كن نسمةً على النَسَم

أُعْلُ رفيقاً للعلى

يا بُعدها « لا » عن « نعم »

أكتُبُني رفَّ عصافير

فوقُ، على الزرقة والنظرْ

أكتبني أغنيتَي غجر

على الندى، على الأزاهير

ولينتحر من قَهره القَمَر

أنام في أُغنيهْ

فشُدَّ، يا خيطَ شوقْ

صوب صَفاءِ النيه

شُدّ بها مُغريه

إلى الشبابيك فوق

أسكُن في تأوهات نايْ

تفتح بابي أذُنُ السامعْ

تقول: أنت الشعرُ، يا طالع

كقمر مِن كُتْب وآي...

أسكُن في مَدّ يد الزارع

١٩٧٨

إنّ الهنيهةَ مَرّت لا تحيّيكا

إلحقْ بها. واذا جافتك كن جرئا.

وإنْ أظافرُها حُدّت كمن هزئا،

فشدَّها من قوام راح يُشقيكا

وفوقَ أوّل حَصْباءَ اغوِها هَنِئا !...

أجملُه العمرُ خَطْفُ

آهٌ مضت... خذ بآهْ...

وكُن كؤوسَ الشفاه

ما هَمَّ أَنْ فات قطْفُ،

تفّاحتانِ الحياه

أفاقَ بي وضاع هذا الوجودْ

كأنني عينان مِن أخضرْ

مَدى مدى الربيع أو أكبر !

وُجودُ، دع ما بيننا من حدود

خذنا: أنا الخمرُ وأنت اسكَر.

أخبرَني اللازوردُ

وكنتُ بعدُ صدى

ليابسٍ إلْفِ بردٍ،

أني سأُشقى الندى

يومَ أنا غصنُ وردٍ...

أُكسِّر الصبح طالعْ

كأنَّ لِحظِّيَ سيفْ

والكون مِنّيَ واجع...

يا كونُ، قَد صرتَ واقع

ولم أزل أنا طيف !

أمنيةَ ! مَن قالها أمنيه

أن يغدوَ النورُ على الأرض سَيَلْ ؟..

ويهجُرَ الليلَ هوى الأغنيه ؟

هلمّ، يا عشاق، غُلّوا بيه

صيرتم لِيَ البَدرَ... وصرت الليل...

أنا على مذهبي

ضوءُ الضحى المفردْ

وطائرٌ غرّدْ

لَوَّن ليالاك بي

يا شاعراً اسود

أنتَ، يا غِنى،

مثلما الضنى

نُزهةٌ في الآه...

أنا مَن أنا ؟...

نُزهَةٌ في الله !

بلا عنفوانٍ ، سَكُوتاً

أرادوكِ ؟ حتى لَهانْ

جمالُك بين الحسان ؟

بلادي، اغضَبي أو أموتا

أنا خبزِيَ العنفوان.

ويا نجمةَ الليل، قلبي خَلِي

ولي كَلِماتٌ رضىً مُفرده

وصَمتي عَلِيٌّ كما الأعمده

صلاةٌ أنا، أُذنَ ربّي، اقبَلي

وزنبقةٌ، فاقطِفي، يا يَدَه.

بِغزَلٍ تُواجِه العَمَلْ

كأنه الحسناء في المياهْ

اذ طلعت تَمشي على مهل

مِن ذاتِه الحسنُ... ومن غزل...

ومن تأنُّيكَ بأَنْ تراه...

بِرُغمة الشَوكِ خُذْ بالورد فوّاحا،

ما لذّةٌ لم تُذلِّلْ دونها الخَطَرا ؟

ما خَطْفُ حسناءَ لم تُحْرَس بمن زأرا ؟

دَعْهُمْ أُولي الجَنْيِ، إن يَجنُوا فَتُفاحا،

أنتَ ٱقتحِمِ العُمْرَ صَعْباً واقطِف القَمرا...

بلبلٌ أَنتَ ! حُطّْ

رليُجَنَّ الشَجَرْ !!

كُنْ ندىً، كن شَرَرْ،

ثم فيما تَحُطْ

حُطَّ هذا القمر...

بِكَ حُسْنُهُنَّ فُتِنْ ؟...

لكَ دُبِّجَتْ أشواقْ ؟...

لا تحفَلِ الأوراق ؟...

أنتَ الرجولة إن

فُتِنَت بكَ الأخلاق.

بَنيتُ في الكوكَبْ

فانهارت الشُهُبُ

فلأبنِ، يا ربُ،

في الوهم... في العنكب...

بيتي أنا الصَعْبُ

بالبال مَن هَدهَدَتْني وانتشى البالُ !

أذاكرٌ بعدُ ذاك اللحنَ، يا خَلدي ؟

تَمتمْ به وليَمرَّ الرُخُّ والضالُ

طيرٌ هُو السرّ، دوحٌ بعضُه الآلُ

اليومَ مَن ذهبت هدهدتُها بيدي.

بلى، دموعُ الجَلَدْ

يدري بها الغزَّارْ

لكنّما الأشعار

تَدري على أيّ خد

وقْعُ دموعِ النار

ببالي ببالي ضفائِرُ طفلَهْ ...

من الأشقر الوالع الواجعِ !

سؤالي: جُبْنتَ ام العمر وَهله

ومِن بعدها دمعةُ الدامعِ ؟!

ببالي ببالي لو العُمْرُ قُبله...

تُحِبّ ؟ تأنّ. وعارْ

تَلوّيك في الأقبِيَهْ...

حِسانُك زِدهنّ غار

بمعصمهن السِوار

يغنّي ؟.. كنِ الأُغنيه...

ترى الحَلَّ في البُغض ؟ لا

فعلتَ. وصُبَّ وصُبْ

ولو للعدوّ الطِلا

أنا سأرى اجملا

أُحِبُّ أحِب أُحِب.

تأبّتُه الاقتناءْ

كما الذُّلُّ عنه آرتَفَعْتْ

حَلفتُ انا بالأباء

لَأنْ لا أكونَ بدعت

ولستُ أكون... سَواء...

تَظنُّها بالكَذِب النجاهْ ؟

تظنُّه العمرَ الذي يُعطبْ

يشفى بأن تئنَّ أو تعتب ؟

أأنت من يَلعبُ بالحياه ؟

لا، يا غَبيُّ، هِيَ مَن يلعب.

تَهدّدوا... أفأَقلِعْ

على شراع البلى ؟

وطمأنتي العلى:

ـ تُهَمُّ كيف ستُبدع

وبعدُ مُتْ أو فلا

تقول « أشربُ » ؟ تُغرى

بما يُروّح عنكَا

يوماً ويفنيك دهرا ؟...

تَسْكَرُ ؟.... كن انت خمرا

ويسكَرَ الناسُ منكا

تطلبك الحَربُ ؟ ابتدرتها وقد

وُلدتِ في الفجأة والفَتْنِ

ما بين رَنّ السيف والطعن

تَصدّك الشقراء ؟ فُكّ الزَردْ

عن حُسنها وجُنّ بالحسن !

حببتُكَ، شعبَ بلادي،

كما اللهِ، ثَبْتاً عجبْ

توّجسّتَ أنْ تُغتَصب ؟

تَمرّ على بال عاد ؟

تَنحَّ، فما أنت رب !

دَقّ على بابي كأني الغلالْ

قال أنا ما همَني الفقرُ

ولا تعالِيًّ عليه قال...

زلزلني. سألت: ما الأمر ؟

قال: انتهى، ها أنت صرتَ السؤال !

دنيايَ، ما انتِ على بالي

إلا كحسناءَ بِغوىً أو غَيَد

خاتَمُ عرس شدّنا لا زرد

حتى اذا ضاحكتُ آمالي

نبقى ولا يبقى سوانا أحد !

رَمَتْ الي بشيءٍ ما طريفٍ شذا

ـــ ماذا يكون؟ الجنى، السحرُ، الغوى الغالي ؟

قالت عصافير: « ذاك الحب، يا سال »...

أمّا أنا، وعلى حرجي الوُرود جُذى،

فما تنّبهت الا حارقاً حالي !..

زهرتُكَ الحرّى المُجنّحه

مَن في الحقول نقلُها دلالْ

تظنّها تأكل ؟... بل تَنال

بِعينها خمرا وأُتفِحه

فتغتذي لكنْ من الجمال.

شاعرةٌ بذيئه

تَسبّني من قهْرْ

ساقصد البريئه...

وسَلّتي مليئه

مليئةٌ بالزهر...

شجرةُ الصدى

كان لها ما كان...

وَوَجِع الندى !

مُرَّ بها غدا

ونَسٌها النسيان.

شاكستُ أُمّي وطِفلاً كنتُ بعدُ نَكِدْ

قطفتُ عن شَعرِها لي بعضَ أزهارِ

قالَتْ: الا رُدَّها والعَبْ بأسواري

ما هَمَّني ذهَبٌ في المعصَمينِ غَرِدْ

قَطفتُ عن شَعْرِ أُمّي كُلَّ أشعاري.

صاحِ، ان فَتّ بعطفيك المُدام

وهوى يومُك يغتال الغدا

ورماك السُكر في أرض السُدى

وتساءلتَ: مَن الباري السِهام ؟

عاتبِ الكأس ولا تَنسَ اليدا

طفولتي مليئةٌ بالوردْ

في شَعر أمي منه... في الخصْر ِ...

على الشبابيك... على النهر...

يا وردُ، طِب لي زُمَراً وفردْ

يا ورد، لا تنسَ غداً قبري.

طار يغنّي الورَقْ

مذ رحتُ بالغزّارْ

أُجنُّ الأشعار:

ماذا ! الوجودُ احترق .

... مِنّي ؟ تأتّيْ، نار.

طريقيَ الوردُ وكفٌ سخَتْ

والسيف سُلّ السيف لا يُغمَدُ

بالحسن أشقى، بالعطا أُسعد

وأنتخي أنا، أَراها انتخت

فيّ بلادٌ بالعُلى تولد

طِر منكَ... طِر يا غدُ

التي... لسنا اثنينْ

وقبلةٌ تُعبدُ

تولدُ، هل تولدُ

الّا على ثغرين ؟

عَصَبْتُه بشطرة من قمرْ

رأسي. والعرش لي كان بأُرْزٍ وعاجْ

والعرش لا نُزِّل دُرًّا بعاج...

ملكي أنا أني جَبَهتُ الخطر

يوم جدودي فوقَ بحرٍ عَجاج.

عصفور، يا بُعدك عن نَمْلَهْ

هذي، على مأكلها تدورْ

تخزِنه... وأنت بعضُ نور

مِن حبّة يكفيك... أو قُبْلَهْ...

ليتَ أنا أنت أيا عصفور

عانقيني، يا ذراعَ الريحْ

أنذا طلْقٌ كما الصَعْبُ

شرَفٌ كالسيف لم ينبُ

ولسانٌ عفّ عن تجريح

انّما الحُريَّةُ الحبّ

عَلَّمني أن أُراهِنْ

أبي، أقول: الجفونْ

صَحِبْتُهُنَّ مَساكن...

أحِبُّ عقليَ لكنْ

لا خالياً من جُنون...

غنّى مغنّي الغَجَرْ:

« الليل رَبٌّ هامْ

نَوى... فكان البشر...

الليلُ ذاك انكسر

وانتَهتِ الأحلام !... »

غصنٌ وطيرٌ ونقلُ

أنا، فيا لَارتعاشه

في الصخر والصخرُ طِفل !

ولِمْ غداً أنا حقل ؟

تكون مرّت فراشه...

قالت: أتدري ؟ أنا لم أُولَدْ

بعدُ، أنا خاطرةٌ في البالْ

دُقَّ عليها بابَها الموصَدْ

تَحظى بها ؟ لا انما توعد

ما الوعد ؟ بعض نِيلَ... بعض نال...

القدَرانِ : الكون حينَ انفجرْ

على يدِ الله وتلك اليدُ

أعزُفهما... اعزف وليجنّ الوتر

حتّى اذا أُبدعتْ ما يُعبَدُ

أنتَ كن السيفَ بوجه القدر

قالت لَيَ الياسمينه

وأنتَ، يا فجرْ، غائبْ:

« عَرِّجْ عليّ وعاتب

أنا جُننتُ جنونَه

فلا أُردُّك خائب »

قضيتُ عمري فوق أوصابِها،

هذي الحياةِ الطَلْقَةِ المُنتظرْ،

لَمْ أشرب الصِرْفَ ولا المُعتكر..

لكنني يوماً، على بابها،

دقَقتُها كأسي بكأس القَدَرْ !

كتابةٌ ــ ومَنْ درَى ؟ــ

على الهواء... أو عليّ...

يا شاردُ، استظلّ فيّ

حُروفها التي تُرَى

شاردُ، يا حِملَ يديّ

كُنهُ ـ ولا تَبْلَ ! ـ

سيّدَ امرٍ جَدْ

صعباً كما الجَلْمَد

اصبعَ رِجْلٍ ؟ ... لا

بل إصبعاً من يَد

كان أبي مِن جبينْ

ومِن يدٍ تُعطي

عصفورةَ الشط،

لم يبقَ ما تنقُدين

على يدي حُطّي

لا ضَمّتي غنّت ولا الموعِدُ

كان عصيفيرٌ وجيعُ الحِراكْ

يأوي إلى شبّاكها يسهَد

قلتُ: وحتى انت لا تُنشد ؟!

قال: فرغتُ، علّمتني يداك !

لا، لا تُغنِّ الأغنياتِ الحِزانْ

لا تحترفْ أغمادةَ السيفِ

الانتظارُ، اعلَمْه، كأسُ الهوان

قبل الربيعِ العَبْ على الصيف

مِن شَعرِهِ شدُّ اليك الزمان.

لو أنني الغمام لا أمطِرْ

أثلجُ، أكسوها الربى لؤلؤا...

ألّا بما يَفْتِنُ لن أدفأا

ألخيرُ ؟ ـ ضع في الخَبرِ المُسكِرْ ؟ ـ

أغنى من الآخذِهِ، من رأى...

لَوَّثْنِيَ الهموم ؟... مَن قالها ؟...

من ظنّني أسكِتُها أو ألومْ

يا عابد النجوم،قل للنجوم

أمَا أنا الشاغِلَه بالَها

وبي أنا، ويحي ! تُهَمّ الهموم

لا صِرتَه ذاك الكتابَ انمزقْ

وبعثرتْه النسماتُ اللِدانْ

وَيذْهَب الدهر بتلك الحُرق

مَن كُنّ آهاتِ الحِسان الحسان !...

إبْقَ على شُباكهن الحبق

لا تنسَه فضلَها

صفصافةَ المنعطَفْ...

شاخت كاحدى التحف ؟

كم ذا بكفٍ لها

ضِعتَ ولمّتك كف ؟...

لِمن أنتَ ؟... ويحَك ضَلّا

ضياءً... وضَلّ حَلكْ...

لأفضلُ رشقٌ الفلك

بكفر... وترحَفَ صِلًّا...

من القول انك لك

مرّي بِهمْ يا نسمةَ عاطره

صِحابي المستسهلين الصعابْ

مَن اخذوا عني اجتراحَ العُجاب

قولي لهم: إن تبلغوا الآخره

كما هنا، هناك، عَلُّوا القباب

مررتُ بالحب لم يوجَع به أحدُ

سألتُه: « ما الجمال » ؟ « انهدّ ما فاها

ولا رنا. غير أنّي، مذ أنا بدَدُ،

في الحلم، أحسبني العصفورَ تيّاها،

قال: « الجمال أنا، غَرِّد، أيا غَرِدُ »

مرّ صحابي بي، رأوني أبتّ

عَيناي ان تزرورقا بافتتانْ

ـــ جُرحتَ، قالوا ؟ بك ضاق الزمان ؟

أشرتُ للشمس: انظروها خبت

جرحي أنا أن يُجرحَ العنفوان.

مَن رَجُل الرجال ؟ من يُسأَلُ

عن الأمانات ويأبى الصَلَفْ

تلك التي تَبلى كبعض التحف

يا رجلَ الرجال، يا مُنصُل،

أمانةٌ في بُردتيكَ الشرف.

معي قبلةٌ تُشتهى

معي الحبّ شمساً شتاتْ

أُوزّعني كهبات

ذراعيَ لا لأنتِها

أشُدّ الي الجهات

مِن معدني الشَمْ

أنا، فلا أُثارْ

كبُرتُ عن تِهم

يورق الألم

كُلّلتُ، لا بغار

ما للربيع انتحَر ؟...

تُراه ما هوّنا

عليه ظُلمَ الدنى ؟

ربيعُ، عِش للبشر

ومُتْ بقلبي أنا

ما شئتَ الا الكذِبْ

تغدو، والا الهوان

إمرأتان الزمان

إحداهما تغتَصِبْ

مَن تلد العنفوان

ما الآنُ ؟... ما أسكن فيه ؟...

مَن قال ؟ وليسمَع غدا

أني له كنتُ المدى

وهو الذي كان يتيه

فِيّ... كطير ما اهتدى !

ما سألونا يومَ قالوا: « استحالْ

الى بقايا شبَحٍ أو أثَرْ...

ما دام أن حَطّ عليه بشر ! »

ضَلّوا. وان نَحن اقتحمنا المُحال

صار هو الناس ونحنُ القمر !

ما أنا أُلهِيَه

على يد الزَمَنْ

بالمال مفتَتَن.

لا والحياةُ أن

أُسكنَ أغنيه

نسمةٌ مرّت بِشلحَي زنبقٍ

سألتْ عن بنت ريح ضائعه

طلقةٍ كالحب، قالت، فارِعَهْ...

واحدٌ رَدّ: ترُى هل نلتقي ؟!

للذي ما رَدّ قالت: راجعه...

هَبّ على وجهي شذا بنفسجْ

سألتُه: مِن أين ؟ من هنا،

يا أنتَ ؟ أم من بلد الضنى ؟

أجاب: بل من قُمقم بِدملج...

قلتُ: وذاك صُغته أنا.

هذه القُبَّة مَن عمرّها

ورماها حَببا في قول: صُبّْ

أو شذا وردٍ على البال يهُبّ ؟...

هذه الخَيمة من زَهّرها

وكأنْ لا لِسوى ليلة حُبّ ؟...

هٰذي المَجَّراتُ فَوْقَ

أدمغةٍ ! فَلْيُقَدَّرْ

لي معها، يومَ أسكَر،

تحاورٌ، كَسْرُ طَوْقْ

ما بين عقلٍ واكْثر !

الوردُ ليتك تعرِفْ

أين اندرى أحمالْ ...

في الروض والريحُ تعصِف ؟

لا بل ببالك فاقطِف

ما غيرَ ورد البال

يَمُرُّ ببالك ماذا يمُرُّ ؟

وجودٌ كما كُرةٌ من لَهَبْ

وأنت خِيال خيال تَفِرُّ ؟...

تخاف ؟.. الا اْقحُمْ وخُذ بالعَطَب

مَن الحُرّ ؟ مَن لاعبَ الموتَ حرّ.

يسألك الناس: « ترى تعرفُ

لم جئتَها الارض وجئت الزمان ؟ »

كأنّهم قد رشقوا بالهوان

جهلَك... قل: « لي لذةٌ اشرف

غامرت، يَكفي... ايَّما كان كان...

يا رُبَّ يوم كنتُه في الجَلدْ

وصوبي اشرأبّ بعضُ الترابْ

قال: تنازَلْ لي عن العرش. طاب

ان نَتعاطى الطعْنَ عبر الزَّرَدْ

وكان أن قهقهتُ فوق السحاب

يا أيها المارُّ بالحديقه

تَوَقَّ... لا توقظِ الورودْ..

لهّن وقتٌ... ونقرُ عود...

أهلٌ له القامة الأنيقه

أوانَ زندي بها شرود...

يشاؤونني غير نَضْرِ الخيال،

كما اللا، ولا عبقريِّ الغدِ؟

أبيتُ... أنا قُبلةُ الموعد

سكنت بلاديَ صُنعَ المَحالِ

سأسكنُها بعد صُنع يدي.

يُزنّر التلّةَ لم أدر ما...

صدى خطًى من عهد طِفلينِ ؟

كم عَمّرا فوقُ وكم هدّما

وكم على غَمزة عينين،

كَم شكّ في شَعرٍ لها الأنجما ؟

يقولون تيّمنني فوق عَدّ

دعِ الكِذب. ذقتُ انا قبلتين

بهذي ارتعشتُ على ساعدين

وفي شَعر أمي نجوم الجلد...

بهاتيك ما زِلت لم أدر أين...

يومٌ من الدمع ؟... اطوهِ ينطوِ

أنا ليَ الآتي الجميلُ الجميل

والآن... هذا أنّ صعبي ذليل

أمستحيل، قلت ؟ لا يا ارعوِ

أو أنذا أُحَطّم المستحيل

يا خصرَها البديعْ

يا مَيَداً وليْ

تخاف بعدُ شيّ ؟

تخاف ان تضيع ؟

عَرّج معي عليّ...

وأنا أجتني

يا ساكِنَ الوعودْ

تَنزَّل... افتِنِ

طريق مسكني

كأنّك الورود

يَهُوْلُ هولٌ ولا

تقول: « ويحي ! أخافَ » ؟

قلها... وذُق أجملا

أنِ ابتدرتَ العلى

وأن قطَفْتَ القطاف.

يسألني السنبُل: « هل من نبيذ ؟

غدوتُ لا تَهزّني الشمألُ ».

وَيتغاوى مِن عَلٍ في عَلُ...

قلتُ: « أشح عن كل كوب لذيذ،

بالشَمَم اسكَر، ايها السنبل ».

اللّيل زَهْرُ آسْ

ربِّي، اشربِ الهنا

معي كبعضِ ناس

واندقَّ بي... أنا

كاسٌ وانت كاس

ما الكون ؟ قل يَسبي

أنك، يا ربي

خلقتَه بلونٍ

حُبك لا حبي

وكُنتَ خلف الكون.

لَفتَةٌ لي منك تبني

فوقَ ما الليل حكى

فوق ما الحُبّ شكا

رَبّ، أفرِغنيَ منّي

أنا واملأني بكا

روضُكَ الآخذ من ثغر وخدْ

شُمَّه إحدى ولا تحفل ورودَه

بيتُ شعر حُبَ، ما حُبت قصيده

والهوى الباقي نظامٌ لا بَدَدْ

كثرةٌ ؟... ويحك ان الله جوده

تمايلتْ دنيا ! فقالوا انا

أخطُبُ، أرمي بالنجوم النجومْ

مِن كَرَمٍ أُعيد خلق الكروم !

قد أخطأوا ! ما أنا مَن لوّنا

أغنيّة البرق لحفل الغيوم...

تفاءلِ ارمِ النظَرْ

على السَنى التيَّاهْ

مُتْ لا تقل اواه

تضيقُ أرضُ البشر ؟

غامر بقلب اللهْ.

تطلبهُ مُلكَ العلى

كأنه العنقود طابْ ؟

أو اللمى لذّ رُضاب ؟

شُدّ اليك الله، لا

تأبَهْ لأشبار التراب...

تطلب ممّن، أيها الجاهلُ ؟

مِن السّراب ان يلُح يفتِنْك ؟...

أنا، لإيّايَ أنا سائل

حتّى اذا تصعّب النائل

يا ربّ، ما طلبتُ الا منك.

اذا وَلِهتَ بشذا البنفسَجْ

إذا لواكَ مثلما الودادْ

اذا وجعتَ منه كالبعاد

لا تَشْكُ. خلِّ صمتكَ المُضَرَّجْ

يَكتُبُ ما يُنسى ويُستعاد

غالبتُها الريح... ولي ملعبي

فوقُ... حمىً لله لا ما سكنتْ...

ويحي ! لقد جدّفتُ، ويحي وَهَنْتْ

غفرانَك اللهم قَولي الغبي

بعدَ حِماك أنتَ، يا ربّ، أنت

أسأل ربي: « الكونُ هل أُخجِلُهْ ؟

صنعُ يديك ناقصٌ بعضا

تنحتُه م ِ الصعِب لِمْ تَخذِلُهْ ؟

يقول: كي تَرضى ولا ترضى

فتسرق الأزميلَ تستكمله...

إمسحْ عليها جبهتي بالسنى،

ربّيَ، وليحنُ عليها بهاكْ

كما على شاديه يحنو الأراك

شَقِيتُ ؟ لا عليّ، سُكري انا

بأنك الله وأني أراك.

خبزُكَ اكسَبَهْ وصُنْ

مثلما مجدُك يُكسَبْ .

للعلى الحرُّ عُلْن

عنكبٌ !... ويحك كُنْ

كلَّ شيءٍ غيرَ عنكب

أنا مَن ؟ الا فاكتبا

أيا ريشتين اثنتينْ

على التبر بعد اللُّجين:

« لِتلك الفَتاة الصِبا

أنا كُحلة المقلتين ».

أغنيَّةٌ عَصَت فلم تُجِبْ

أهِب بها أن سامعٌ... أهب...

لا ترشُقِ العنادَ بِالنَبْله

قولاتُ « لا » في فم مَن تُحِبْ

ويحكَ أسكِتهن بالقبله.

أسكن في الدهشَةْ...

لونيَ غيرُ لَوْنْ

والشعرُ، قال رعشه

أو أنه قشّه

لاعبَةٌ بالكون

لربما رنا

اليكَ، يوم الغَلْب،

برجُ السماء الصلْب

دعك... فما اغتنى

الا غنِيُّ القلب

يغنّون حبّ السفَرْ

فيا للطباشير تَقْلَقْ...

كسَالى... على بعض ازرق...

أنا، لا. وهذا القمر

يجدّف لي فوقَ زروَق !

من أنت ؟ ما سوّيتَ مُذ رشَقَتْ

بكَ هذه الشمس افتتانَ يدِكْ

واليك صُوّب مشتهى أبدك

يَدك، اعتزز ! يَدك التي خَلقَت

ورمتك منذ اليوم وُسْعَ غدك

ظهرْتَ انت في الذهَبْ

في الذَخْر، في جرّ الصفوفْ

ربُّك بالحب احتَجب...

كتبتَ أنت بالحروف

ربّك بالكون كتب !

في الورد ما لم يُجتنا

ربّي، ولا مر ببالْ...

في الورد نكهةُ الهنا

خذْ بكَ، بي، وبالجمال...

في الورد أنت وأنا

يرفعُني الموج ويهوي بِيَهْ

جباله تضرب لا تهدأْ

برغمها، عيني على مرفأ

حجارُه الضِحكةُ والأغنيه...

الله للرحيل في المبدأ !

نجمةٌ، ما القمرْ؟...

لا لا تَوهَّجي

الا لذي نظر

صَبٍّ على سفر

مع ذات دملجِ

جنيّةٌ بيضاء؟... مَن

جنيّةُ لم أُغوِها

أحكي لها عن الشجن

عن قبلة خلف الزمن...

أقول: يا زَندي، اطوِها.

اردتِنِي غزّارْ

وانتِ لي وَرَقَهْ

حسناءُ، يا حَبَقَهْ

أردتِنِي من نار

وأنت محترقه

صاحِ، من قال حظوظٌ ونَوالْ

وزهور جئن من خلف الدنى ؟

مَن ترى حَكَّم فينا الزمنا ؟

صاح، يبقى العمر في ذاك السؤال:

« طابَ ليلي ام تُرى طِبتُ أنا ؟ »

عثرتَ فاشتكيتْ

منّي، كمِن حجرْ؟

ليلٌ أنا؟... يا ليت...

لكان لي قمر

وكُنتَ قد رأيت...

قلبُهمَ ملآنْ ؟

لا بعدُ مشرِئب

منهم سوى الكذِب ؟

ما همّ يا صَوّان

حُبَّ معي نُحِب

مرّ عمرٌ ولم تكنْ ؟...

لا عليكَ آنْحُتْ بافتتانْ

لك عُمراً من عنفوان

أمس ان هان لا تهُن

غدُك ارشُقْ به الزمان...

عدوُّك اظهر له ويظهرْ

ملثّمُ الوجه لا يُعَدُّ

في من تعالى، في من تجبّر

السيف وجهاً للوجه مجدٌ

لا متّ ان متّ يومَ خنجر

تِهِ؛ قيل لي، بالكون منه انعَلَنْتْ

جُزءاً كما الصوت من البلبلِ

قلت: ولا هذي. أنا قد وهَنَتَ

بما اليه نَسبي المبتلي

الله، لم وحدَكَ لا غيرُ أنت ؟!

دعْكَ، لا في المُمتلكْ

دعكَ في الوعدِ

يا جَبيناً من فلكْ

لي ولليل ولكْ

قولةُ المجد !

خبَّرتني عصفورةٌ خُبْزين:

أنْ بقرب السماء لا ثمَّ بُغضُ

وأنِ القبحُ نفسه يرفَضُ

قلت: عصفورةُ، انقدي طرْفَ عيني

ودعيه لا غيرَ فوقَ يغضّ

رَبِّيَ، مُسعِدَهْ

كُنْ لِلْمُرجّيكَ نيلْ

وآرْأفْ بِمُسْهَدَه

صارت تَنَهُّدَهْ

وصِرْتَ أنتَ الليلْ

غمزتْني نجمةُ العلّيقْ:

ـــ سكّرٌ أنا فمُدَّ يدْ

قلتُ: لكنّيَ في صدد

أن أرى غداً هوى الشُقّيق...

قالت: أغوَ اليومَ وانسَ غد

وجعتَ، يا زندُ، لِما تحمل ؟

أناتَك استوثِقْ بصبر الضلوعْ

هذي لما تحمّلت من ولوع

كادت بنيساناتها تشعَل

زنديَ، يا ليتك ذُقت الدموع

أيَّ حلم يَحتوي الغمضُ

ذَهبٌ، خَمرٌ، ليالي صُورْ ؟

لا... وأعلى، فوقَ، كأسُ النور

إن انسانَكِ، يا أرض،

همُّه أن يُصبح العصفور...

أهلي رَبَوا، في العلاءْ

كأنهم أُمنيَهْ

لخاطري أو إباء

هذي نجومُ السماء

مِن بعدهم أُغنيه !

تقولين أنَّكِ... أكثَرْ...

دعي... لألَذُّ السكوتْ...

كفاك أن ِ الفمُ عنبر

وأنْ لي خصرُك يُقهر...

وأني به سأموت

أصبِر، يقول ؟... ويهَهْ

أخطأ لم يُصِب

دَعْه الغَدَ الكَذِب

بشعرها الهُنَيْهَةْ

خذها كمغتصب

لَمْ تَتهاوَ الشمس غِبَّ الشُروقْ

بل طَفرت كالنَهد من مُحتوى

صلبٍ من الرُخام شهمِ الغِوى

فجُنَّ، يا هذا الوجودُ الخَلوق،

جنّ بها... أو فآهوِ فيمن هوى!...

أنَ أكونَ اشتهيتْ؟...

أن أكون أنا

بجفوني احتويت

صعبَكِ الهيّنا ؟...

ويلكِ ويلك... انتهيت !...

ويكَ لا تجمع زمَنْ

سنواتٍ وشهورْ

لم يكن يوماً سُطورِ،

شِعْرُ طير مفتتَنْ

عمرُك اجمعه زهور...

أنا طبتُ، يا رب، طِبْ

وفي قلبيَ انزل كنبله

وحطّمه حطّمه كلّه

سألتك،ربّي،اجب

لمن أنا، يا ربّ، قُبله ؟

تُعاتِبون لِمْ؟ لأنّيَ أمّحى

ضوئيَ... شُبّاكي وهى... حزِنت ؟

أشحتُ عن حسناءَ أختِ الضحى ؟

لا يا أصيدقاء، لَن أفتحا

الّا لمن بها أنا جُننْتِ.

همّيَ ما همّيَ ؟ خلْقُ الوجودْ

آخرَ ؟ قل: عوداً شجا ليّنا

تعزُفني عليه كفُّ الخلود ؟

الله ! يبقى لي أن أفتِنا

مَن هو فَوقُ، فوقَ عزفٍ وعود !

خُذْهما كَسَكْرتَيْ فِكَرْ:

أَنْ تُحبَّها وأن يتاحْ

لكَ لو تحملك الرياح...

ويُغالي بكما البشر

والعصفورَ صوابها والعصفور؟

فُتِنْتَ بها فاجِرَهْ

من القول فِتنَةَ نصرْ ؟

دع اِللعبة الخاسره...

حبَستُ أنا الخاطره

كما ضَمّتي شَهْمَ خصر!

تسأل: ما الفنّ ؟

باعد عن العَلبْ

أجملُ ما انكتب

السيف إن رَنّ

والسيف ان غلب

تنتظر الحظّ ؟... الا

دع مِن أمان ووعودْ

وحدَهما يدا عُلىَ

يداك، إن صُنْعٌ غلا.

تَصنَع ان شئتَ الوجود !

تكتبُ ؟ لا المُغمضْ

أحلى ولا الأحلامْ

يا قلم الأقلام،

ما الورقَ الأبيض

أكتُبْ على الأيام

تسألني لِم أضاءْ

شِعري، فلا يُبْتَذَلْ ؟

لم أنا شهمُ الغزل؟

حبيبتي مِن هناء

وعِقدُها مِن قُبَل

تأنَّ اذا ما سألت **الغريْبْ** :

بلادُك جنيّةٌ ام **زَهَرْ** ؟

لعلّ الغريب عليك حضر

من الكُتْب... مِن كَرّةِ العندليب...

ومن بيت شِعر رواه الغجر...

خلْفَ الغلائل بَرْدْ

يا ايها النهدُ

أُبدُ معي نبدو

ما بين قطف الورد

مُت... يُحيِك الورد

دعِ المساء وحدَه ينحَبْ...

والليلَ... وانكسارةَ **الغمامْ**...

انتَ اخترعها فرحةَ الظلام

الشمسُ ! فادفع بابها الأصعب

تفتحْ، وطارحْها الهوى غرام.

حسناؤك افتِنها، اذا

تفتِن... لا بالترهاتْ ...

أو ورَم ٍ في الكلمات...

كن وردة لها شذا

تقطفكَ تلك الأنمْلات...

تصفَّحتني القِممْ

كما كتابَ الأمسْ

أُنيملاتٌ خمس

صِنوٌ أنا للشمم

تصفحْتني الشمس

تَفْتَحُ شُبّاكَكَ، ما تَرى ؟

دَوحَةَ لَوْزٍ زهرُها شَعِلْ ؟

ذاتَ قَوامٍ كالغِوى تَميل ؟...

لا، لا تقابِلْ. انما افتَرى

مَن رجَّحَ السَيْفَ على الصَليل.

فهرست المجلد

